هذا الكِتاب

وَلَوْ فَتَّشْتَ كَثِيْراً في خَزانَةِ الكُتُبِ لَنْ تَجِدَ أَفْضَلَ مِنْ هذا الكِتاب

أنا، المُتَقَدِّمُ لِتَرْجَمَةِ هذا الكِتاب، كِتاب المَرْزَبان، إلى اللُّغَةِ العَرِبِيَّة، أَقُولُ، هذا الكِتابُ القَيِّمُ والجَمِيْلُ، المُمْتِعُ بِجَمالِ الصُّوْرَةِ، النَّافِعُ بِكَمالِ المَعْنى، المَفْقُوْدُ مِنَ المَكْتَبَةِ العَرَبِيَّةِ، هُوَ بَيْنَ الكُتُبِ القَيِّمَةِ بِأَعلى مَقامٍ، لَقَد كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ وَحِيْنَ عَثَرْتُ عَلَيْهِ تَقَدَّمْتُ مُسْرِعاً إِلَيْهِ، لِتَرْجَمَتِهِ وَإِضافَتِهِ إلى المَكْتَبَةِ العَرَبِيَّةِ، وَإِنَّها لَإِضافَةٌ قَيِّمَةٌ.

ذُكِرَ أنَّ هُناكَ تَرْجَمَةً عَرَبِيَّةً أُخْرى لِكِتابِ المرزبان هذا، طُبِعَتْ في القاهِرَة سَنة ١٢٧٧هـ، وَأنَّ هذِهِ النُّسْخَةَ العَرَبِيَّةً مَحْفُوْظَةٌ بالمَكْتَبَة الوَطَنِيَّة بِباريس، مُتَرْجِمُها شَخْصٌ مَوسومٌ بالشَّيْخِ شِهاب الدِّيْن، ذَكَرَ النَّاسِخُ هذا الإِسْمَ في آخِرِ وَرَقَةٍ مِنَ الكِتاب، قالَ: وإلى هذا الخِتام انتهى الكلام مِنْ كِتابِ المَرزبان مِنْ تَرْجَمَةِ الشَّيْخِ الإمامِ العلَّامَة أَقْضى القُضاة شِهاب الدِّيْن مُفتي المُسْلِمِيْن.

ذَكَرَ ذلِكَ العَلَّامَةُ مُحَمَّد القَزْوِيْني، وَأَضافَ أَنَّهُ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ يَكُونَ المُرادُ بِشِهابِ الدِّين هذا، شهابَ الدِّيْن أَحْمَد بن محمَّد بن عَرَبشاه المَعروف المُتَوَفَّى سَنة ٨٥٤هـ، مؤلِّف كِتاب فاكِهَةِ الخُلَفاء وَمُفاكَهَة الظُّرَفاء، وكِتاب عَجائب المَقدور في نوائب تَيْمور.

أقُولُ، أنا لَمْ أَرَ هذِهِ التَّرْجَمَة، وَلَوْ أَنَّني كُنْتُ رَأَيْتُ تَرْجَمَةَ شِهابِ الدِّيْن لِكِتابِ المَرزبان هذا، رُبَّما كُنْتُ اسْتَغْنَيْتُ عَنْ هذِهِ التَّرْجَمَة، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِذاكَ سَبِيْلٌ، وَكانَ هذا الكَتابُ بَيْنَ الكُتُبِ القَيِّمَةِ بِأَعلى مَقامٍ، وَكانَ جَدِيْراً بِأَنْ يُتَرْجَمَ إلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، الَّتي لا رَيْبَ تَزِيْدُهُ جَمالاً على الجَمال، قَرَّرْتُ تَرْجَمَتَهُ، فإذا ما بعْدَ ترجَمَتي هذِهِ ظَهَرَتْ تَرْجَمَةُ شِهابِ الدِّين في الأَسْواقِ، يَكُونُ هذا الجَوْهَرُ عِنْدَ بائِعَيْنِ مُخْتَلِفَيْن، وليسَ في ذاكَ ضَيْر، بَلْ رُبَّما كانَ فِيْهِ الخَيْر، ولا حُكْمَ لي على التَّرْجَمَةِ الأُخرى، الَّتي سَمِعْتُ بِها وَلَمْ أرَها، وَلَئِنْ كُنْتُ تَرْجَمْتُ مِنْ قَبْلُ كِتابَ الشَّاهنامه للفِردَوسي، الَّذي كانَ مُتَرْجَماً قَبْلي، فَذاكَ لِأَنَّ تَرَجَمَتَهُ كانَتْ في وادٍ وَهُوَ كانَ في وادٍ آخَر، وَلِذلِكَ تَرْجَمْتُهُ، وَجِئْتُ بِهِ للعَرَبِيَّةِ جَسَداً وَرُوحاً، وما وَجَدْتُ مِنْ أَحَدٍ عَوناً، وَهذا كِتابٌ آخَرُ مُبارَكٌ أَنْقُلُهُ مِنَ الفارِسِيَّةِ إلى العَرَبِيَّةِ بِعَونِ الله.

مِنْ مَقَدَّمَةِ العلَّامَة مُحَمَّد بن عَبْد الوَهَّاب القَزوِيني

في تَعْرِيْفِ الكِتاب

كِتابُ المَرزَبان هُوَ كِتابٌ أَلَّفَهُ مَرزَبان بن رُسْتَم بن شَروين مِنْ أَولادِ مُلُوْكِ طَبَرستان في أواخِرِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيّ، وَأَصْلَحَهُ الكاتِبُ البارِعُ والأَدِيْبُ البَلِيْغُ سَعد الدِّيْن الوَراوِيني في أوائِلِ القَرْنِ السَّابِعِ الهِجْري.

وَهُوَ، كما هُوَ مُلاحَظٌ، كِتابٌ مُشْتَمِلٌ على الحِكاياتِ والتَّمْثِيْلات وَالقِصَصِ المَمْزُوْجَةِ بالحِكْمَةِ، عُمِلَ على طِرازِ وَأُسْلُوْبِ كَلِيْلَة وَدِمْنَة عَنْ أَلْسِنَةِ الوُحُوْشِ والطُّيُورِ والشَّياطِيْنِ والجِنّ.

ظاهِراً، أَصْلُ هذا الكِتابِ أُلِّفَ في أَواخِرِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْري، وَقَدْ أُلِّفَ باللَّهْجَةِ القَدِيْمَة لِطَبَرستان في مازَنْدَران، وَوَضْعُ ذاكَ الكِتابِ مَنْسُوبٌ للقائِدِ مَرزبان بن رُسْتَم بن شَروين مِنْ مُلُوْكِ طَبَرستان مِنْ آل باوَند وَهِيَ سِلْسِلَةٌ مَعْرُوْفَةٌ في تارِيْخِ تِلْكَ المَمْلَكَة.

لَمْ أَرَ في كُتُبِ المُتَأَخِّرِيْنَ مِنَ المُؤَرِّخِيْنَ وَأَرْبابِ السِّيَرِ وَكُتَّابِ التَّذْكِرَةِ ذِكْراً عَنْ كِتابِ المَرزبان، إلَّا مِنْ حاجي خَلِيْفَة في كَشْفِ *الظُّنُون* الَّذي فَقَطْ جاءَ بِذِكْرِ اِسْمِ الكِتاب، كِتابِ المَرْزَبان، دُوْنَ إِضافَةِ أَيِّ

شَرْحٍ وَتَفْصِيْل فَصارَتْ لي القَناعَةُ أنَّ الكِتابَ لَمْ يَكُنْ وَقَعَ تَحْتَ نَظَرِه.

ومِنَ الآخَرِ المَرْحُوم رِضا قَلِيْخان في قامُوْسِ ناصِري، يَقُول: ((كتابُ المَرزبان كِتابٌ مُشْتَمِلٌ على النَّظْمِ والنَّثْرِ والحِكْمَةِ والحِكايَةِ، والمَرزَبان اِسْمُ وَلَدِ رُسْتَمَ مَلِكِ وَشاهِ مازَنْدَران وَمَنْسُوبٌ لِلأَمِيْر قابوس شَمس المعالي)).

إِنَّ أَقْدَمَ وَأَصَحَّ مَوْضِعٍ جاءَ بِهِ ذِكْرُ كِتابِ المرزبان، وَذُكِرَ بِهِ اِسْمُ واضِعِ ذاكَ الكِتابِ الأَصْل، هُوَ كِتابُ قابُوس، قابوس نامِه، الَّذي أَلَّفَهُ الأَمِيْرُ عُنْصُر المَعالي كَيْكاوس بن اِسْكَنْدَر بن قابوس بن وشمكير، سَنَة ٤٥٠هـ، إِذْ قالَ في حَدِيْثٍ عَنِ المَرزبان بن رُسْتَم بن شَروين أَنَّهُ مُصَنِّفُ كِتابِ المَرزبان.

وَهُوَ الَّذي يَقُوْلُ عَنْهُ أَيْضاً في تَذْكِرَةِ مَجْمَعِ الفُصَحاء: (مَرزَبان الفارِسي اِسْمُهُ كَشَأْنِ عِلْمِهِ رَفِيْع، وَكَدِيْوانِ هِمَّتِهِ وَسِيْع، هُوَ لِمَيْدانِ البلاغَةِ فارِس، ولإِيْوانِ الفَصاحَةِ حارِس).

ثُمَّ بَعْدَ ذاكَ جاءَ ذِكْرُ ذاكَ الكِتابِ في كِتابِ تارِيْخ طَبَرستان، لِمُؤلِّفِهِ مُحَمَّد بن الحَسَن بن اسْفَنديار، أَلَّفَهُ سَنَةَ ٦١٢هـ، فَقَدْ ذَكَرَ اِسْمَ

واضِعِ كِتابِ المَرْزَبان في فَصْلِ حُكَماءِ طَبَرستان، وَسَطَّرَ تَرْجَمَةً عَنْ حالِهِ، قالَ:

(هُوَ الإِصْبَهْبَد مَرزبان بن رُسْتَم بن شيروي پريم، جاءَ بِكِتابِ المرزبان عَنْ أَلْسِنَةِ الوُحُوْشِ والطُّيُورِ والإِنْسِ والجان والشَّياطِيْن ، وَلَوْ أَنَّ عالِمَ قَلْبٍ عاقِلاً، مِنْ وَجْهِ الإِنْصافِ لا التَّقْلَيْد، قَرَأَ وَفَهِمَ مَعانِيَ وَغَوامِضَ حِكَمِ وَمَواعِظِ ذاكَ الكِتاب، لَنَثَرَ التُّرابَ على رَأْسِ عِلْمِ بَيْدَبا فَيْلَسُوْف الهِنْد، الَّذي جَمَعَ كِتابَ كَلِيْلَة وَدِمْنَة، وَلَعَرِفَ للأعاجِمِ دَرَجاتٍ مِنَ الفَخْرِ والمَزِيَّةِ على أَهْلِ الهِنْدِ والأَقالِيْمِ الأُخرى).

والِدُ المَرْزَبان رُسْتَمُ بن شهريار بن شروين كانَ مُعاصِراً لِشَمْسِ المَعالي قابوس بن وَشْمكير، بَيْن سنة ٢٦٦ وسنة٤٠٢هـ، وكانَ في بلادِ الجِبالِ فريم(پابريم)، وَكانَ مَلِكَ الجَبَلِ قائِماً مَقامَ الأب، وأَبُوهُ شَهرَيار بن شَرْوين كانَ مُعاصِراً لِلْفِرْدَوسي وَللسُّلْطان مَحْمُود الغَزْنَوي، وَرُوِيَتْ حِكايَةٌ عَنْ فِرارِ الفِرْدَوسي مِنَ السُّلْطانِ مَحْمُود وَلُجُوْئِهِ إِلَيْهِ، وأَنَّهُ أرادَ جَعْلَ الشَّاهنامَه باسْمِه، فَصارَ مَعْرُوْفاً أَنَّ تَأْلِيْفَ كِتابِ المَرزبان كانَ في القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْري.

كانَ كِتابُ المَرزبان مَكْتُوباً باللِّسانِ الطَّبَري القَدِيْم، وَظَلَّ هكذا قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمان، أَيْ إلى أواخِرِ القَرْنِ السَّادِسِ وَأوائِلِ القَرْنِ السَّابِع

الهِجْري، حَيْثُ جَرى تَصْحِيْحُهُ وَنَقْلُهُ مِنَ اللِّسانِ الطَّبَري القَدِيْم إلى اللِّسانِ الفارِسِيّ، وَحُلِّيَ بِأَشْعارِ وَأَمْثالِ العَرَب، وسَمَّاهُ مُصَحِّحُهُ رَوْضَةَ العُقُول.

وَبَعْدَ ما بَيْنَ عَشْرَةٍ إلى عِشْرِيْنَ سَنَةً مِنْ تَصْحيحِهِ وَتَسْمِيْتِهِ رَوْضَةَ العُقُول، جاءَ واحِدٌ مِنْ فُضَلاءِ العِراق اِسْمُهُ سَعْد الدِّيْن الوراويني، فَصَحَّحَهُ مِنْ جَدِيْد، مِنْ دُونِ أنْ يَكُونَ لَهُ أَيُّ اطِّلاعٍ على تَصْحِيْحِهِ السَّابِق، وَنَقَلَهُ مِنَ اللِّسانِ الطَّبَري القَدِيْم، إلى اللِّسانِ المَعْمُولِ بِهِ في العِراقِ في ذلِكَ العَصْر، وَجاءَ بِهِ مُزَيَّناً بالأَشْعارِ والأمْثالِ العَرِبِيَّةِ والفارِسِيَّة، وَلَيْسَ مَعْلُوماً تارِيْخُ تَصْحِيْحِهِ لَهُ بِدِقَّة، لَكِنَّهُ كانَ ما بَيْن ٦٠٧ و ٦٢٢هـ.

كتاب المرزبان

(مُقَدِّمَةُ سَعْد الوراويني)

حَمْدٌ وَثناءٌ فَروائِحُ ذِكرِ ذاكَ مِثْلُ ثَنِيَّاتِ الصُّبْحِ تَضحَكُ على نَكْهَةِ فَمِ الوَرْدِ، وَشُكْرٌ وَثَناءٌ ففَوائِحُ نَشْرِ ذاكَ مِثْلُ نَسِيْمِ الصَّبا يَكْسِرُ جَعْدَ وَطُرَّةَ السُّنْبُل، لِلذَّاتِ الطَّاهِرَةِ لِلْكَرِيمِ الَّذي عَنِ الإحاطَةِ بِلَطائِفِ كَرَمِهِ ضاقَ نِطاقُ النُّطْق، والقَدِيْمِ الَّذي بِعَتَبَةِ كِبْرياءِ قِدَمِهِ لا يَتَقَدَّمُ قَدَماً العَقْلُ، والبَصِيْرِ الَّذي بِمِشْكاةِ زُجاجِ البَصَرِ بِسِراجِ الإِدراكِ لا يُمْكِنُ رُؤْيَةُ ضِياءِ جَمالِ حَقِيْقَتِهِ، والسَّمِيْعِ الَّذي بِدِهْلِيْزِ السَّمْعِ مِنْ سَقْفِ مَنْزِلِ الوَهْمِ والخَيالِ لا يُمْكِنُ سَماعُ مُنادي عَظَمَتِه، الَّذي مَدَّ الزَّواهِرَ العُلْوِيَّةَ والجَواهِرَ السُّفْلِيَّةَ في حَبْلِ تَرْتِيْبِ الوُجُودِ الواحِد، وألقى بِطِيْنَةِ آدَمَ الَّذي هُوَ العالَمُ الأَصْغَرُ مِنْ سِلْسِلَةِ الخَلْقِ في مَرْتَبَةٍ أُخرى، جَلَّ جَلالُهُ وَتَعالى، وَعَمَّ نَوالُهُ وَتَوالى، فَلْيَجْعَلِ البَرَكاتِ والتَّحِيَّاتِ، والسَّلامَ والصَّلَوْاتِ، مِنْ مَهَبِّ الأَنْفاسِ الرَّحْمانِيَّة، مَعَ نَفَحاتِ الرِّياضِ القُدُسِيَّة، في عِنانٍ واحِدٍ، على الرَّوْضَةِ المُطَهَّرَةِ، والتُّرْبَةِ المُعَطَّرَةِ، لِسَيِّدِ الوُجُوْد، وَنُخْبَةِ وَنَقاوَةِ كُلِّ ما هُوَ مَوْجُود، الَّذي الرَّحْمةُ مِنْ سَدَنَةِ مَرْقَدِهِ واسْتِراحَتِه، وَرِضْوانُ مِنْ خَزَنَةِ مَنْزِلِ خَلْوَتِهِ وَسَلْوَتِه، كُلَّ اللَّيْلِ

مَشْعَلَةُ رَحْمَتِهِ تَنْشُرُ النُّور، وَرِضْوانُ يَنْثُرُ غُبارَ نَعْلَيْهِ في ضَفائِرِ الحُوْر، عَلى تَعاقُبِ الأَيَّامِ واللَّيالي، على التَّتابُعِ والتَّوالي.

سَلامُ الصَّبِّ كُلَّ صَباحِ يَومٍ على تِلْكَ الضَّرائِبِ والشَّمائِل

سَلامٌ مُرَنَّحٍ للشَّوْقِ حَتَّى يَمِيْلَ مِنَ اليَمِيْنِ إلى الشَّمائِل

ثُمَّ على آلِهِ وَأَحْبابِهِ، وَعِتْرَتِهِ وَأَصْحابِهِ، مِنَ الطَّاهِرِيْنَ والطَّاهِرات، والطَّيِّبِيْنَ والطَّيِّبات، أجْمَعِيْن.

أمَّا بَعْدُ فَإنَّهُ لَيْسَ خافِياً عَلى أَرْبابِ القَرائِحِ السَّلِيْمَة، والطَّبائِعِ المُسْتَقِيْمَة، أنَّ الجَمْعَ بَيْنَ صِناعَتَي النَّظْمِ والنَّثْرِ مُتَعَذِّرٌ، وَأنَّ وَجْهَ هذا المَطْلُوْبِ عَنْ أكْثَرِ الطَّالِبِيْنَ في حِجابِ الإمْتِناع، والطَّبْعُ عَنْ إيْفاءِ حَقِّ كِلا الإثْنَيْنِ قاصِرٌ، وإنْ سَرَّ مِنْهُ جانِبٌ ساءَ جانِبُ، وَأنا العَبْدُ سَعْد الوراويني، مِنْ مبادِئِ الأَمْرِ إذْ كانَتْ أوائِلُ غِرَّةِ الشَّباب، إلى أَيَّامِنا هذِهِ، حَيْثُ أَيَّامُ الْكُهُوْلَةِ البِيْضُ، كُنْتُ أَجِيْءُ بالعُقُوْدِ المَنْظُوْمةِ بِعَقْدِ الاِعْتِبارِ لِلْفُحُولِ الفَواضِل، وَأَضَعُ على النُّقُوْدِ المَنْثُورةِ سَكَّ قَبُولِ المُلُوْكِ والأكابِر، حتَّى بِقَدْرِ الوُسْعِ أَضَعَ هذيْنِ الكَرِيْمَيْنِ في حِجْرِ التَّرْشِيْحِ والتَّرْبِيَةِ، كيما تَجِيْءُ للرَّاغِبِيْنَ والخاطِبِيْنَ بِخِطْبَتِهِما بَواعِثُ الرَّغْبَة، وَبَعْدَ أَنْ طالَعْتُ أحادِيْثَ أَهْلِ العَصْرِ والسَّابِقِيْنَ قَرِيْبي العَهْد، وَعَرَفْتُ بِمِسبارِ الإسْتِقْصاء غَوْرَ مَحاسِنِ وَمَقابِحِ الكُلّ، وَأَلْقَيْتُ الخَبِيْثاتِ بَعِيْداً عَنِ الطَّيِّبات، وَمَيَّزْتُ الأَبْكارَ

مِنَ الثَّيِّبات، وَجاءَ حاصِلاً احْتِواءُ النَّظَرِ على الرَّكِيْكِ والرَّقِيْقِ، والجَلِيْلِ والدَّقِيْقِ، وَجَدْتُ بَعْضاً مِنْ ذاكَ كُتُبَ أَسْمارٍ وحِكاياتٍ، قَدْ زُيِّنَتْ بالسِّياقَةِ المُهَذَّبَةِ، والعِبارَةِ المُسْتَعْذَبَةِ، واسْتُعْمِلَتِ الألفاظُ العَرَبِيَّةُ بالفارِسِيَّةِ، بِحُسْنِ التَّرْكِيْبِ والتَّرْصِيْف، فَكانَ جَمالُ ذاكَ التَّصْنِيْف، في أَبْهى مَلْبَسٍ وَأَشْهى مَنْظَرٍ، مَجْلُوَّاً على أَبْصارِ أَهْلِ البَصِيْرَة، مِثْلَ كِتابِ كَلِيْلَةَ الَّذي هُوَ إِكْلِيْلُ فَرْقِ مَفاخِرِ البَراعَةِ، مُرَصَّعٌ بِغُرَرِ اللَّآلِئِ والدُّرِّ المُتَلأْلِئ، وَكِتابِ السِّنْدِبادِ الَّذي رِيْحُ قَبُولِهِ حَرَّكَتْ نامِيَةَ الرَّغَباتِ في الطَّبائِعِ، وَحَرَّضَتْ على قِراءَةِ ذاك، وَقَدِ اسْتَحْسَنَتْ طائِفَةٌ ذاكَ، وَعِنْدِي لا طائِلَ تَحْتَهُ.

وَمَقامات حَمِيْدي الَّذي حَمامَةُ طَبْعِهِ كانَتْ تُنْشِدُ السَّجْع، وَكانَتِ الأَسْماعُ مِنَ السَّامِعِيْنَ تَأْخُذُ الأَقداحَ المَمْزُوجَةَ مِنَ القَدْحِ والمَدْح، مِنَ القارِئِيْنَ لِذاكَ، الواحِدُ مِنَ الآخَرِ على صَوْتِ الأَسْجاعِ.

وَمِنْ قَبِيْلِ الرَّسائِلِ مَجْمُوْعٌ مِنْ مُكاتَبات مُنْتَجَبِ بَدِيْعِي، المَشْحُوْنَةِ بِبَدائِعِ وَرَوائِعِ الكَلِماتِ والنِّكات، رَبَطَ بِها اللَّطافَةَ مَعَ المَتانَة، وَمَزَجَ بِها السَّلاسَةَ مَعَ الجَزالَة، وَسَمَّى ذاكَ عَتَبَةَ الكَتَبَة، الكُتَّابُ المُحَقِّقُونَ قَبَّلُوا تِلْكَ العَتَبَةَ كَثِيْراً، وَلَمْ يَصِلُوا لِمَراقِي غاياتِها، وَجَماعَةٌ سَمَّتْ ذاكَ غُنْيَةَ المُغْني، وَهُوَ أُسْلُوبٌ مِنْ طَلَبِ غَواني أَفكارِ الكُتَّابِ.

وَفرائِدُ القَلائِدِ لِرَشِيْد الدِّيْن وَطواط، الَّتي كانَتِ حِلْيَةً في آذانِ وَأَعْناقِ الآفاق.

وَخَواطِرُ ذَوي الأَلْبابِ مِنْ فُضالاتِ فَضْل، أو مِلْءُ الإِهاب والمُمْتَلئ، وَذَرَّةُ الشَّارِقِ لِـ زَيْنِ الدِّيْن بن سَيِّدي الزَّنْجاني، وَهُوَ السَّائِرُ كالشَّمْسِ في المَشارِقِ والمَغارِبِ، وَمَفارِقُ عُظَماءِ الدِّيْنِ والدَّوْلَةِ تَفْتَخِرُ بِحَمْلِ مُكاتَباتِهِ.

وَكَذلِكَ الصَّدْرُ سَعِيْد جَمال الدِّيْن خَجَنْدي، سَقى اللهُ عَهْدَهُ، في جَوابِ الكِتابِ العَرَبِيّ، الَّذي أَرْسَلَهُ قاضي القُضاة أَفْضَلُ الدِّيْن أَحْمَد بن عبد اللَّطِيْف النَّيْريزي، وَهُوَ البَحْرُ الغَزِيْرُ أَدَباً، والحِبْرُ النِّحْرِيْرُ كلاماً وَمَذْهَباً، فَضْلاً عَنْ سائِرِ العُلُوم، بِخِدْمَتِهِ بِـ مَرَنْد، في إِبْداءِ عُذْرِ نَفْسِهِ في تَعْرِيْضِ ذِكْرِهِ، وَبِوُرُودِ نَتائِجِ فِكْرِهِ، أنْ وَقْتَ كانَ أَرْسَلَ لِأَصْفهانَ بِخِدْمَةِ صَدر سَعِيْد صَدر الدِّيْن خَجَندي، ثلاثَةَ آلافِ دِيْنار ضَمِيْمَةً في الجَواب، أَظْهَرَ الإِفْتِخارَ وَكَتَبَ: وَلَوْ كُنْتُ بِأَصْفهانَ لَسَهُلَ عَلَيَّ الأَمْرُ وَهان، إِذْ كُنْتُ أَحْذُو حَذْوَ الصَّدْرِ السَّعِيْد صَدْرِ الدِّيْن بَوَّأَهُ اللهُ أَعلى الجِنان، حِيْنَ صاغَ صَدْرُ زَنْجانَ لِأَسْماعِ دَهْرِهِ الشُّنُوف، فَنَثَرَ عَلَيْهِ الأُلُوف، أَوْ كُنْتُ الوَزِيْرَ أَنُوشَرْوان لَمَّا نَظَمَ قاضي أَرَّجان في مَدْحِهِ الدُّرَّ والمَرْجان، لكِنِّي مُسافِرٌ نُهِبَ مِنِّي كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى العَصا، وَلَوْ أَنَّ ما بي بالحَصا قَلِقَ الحَصى.

وَرِسالاتُ بَهاءِ الدِّيْنِ بَغْدادي، مُنشي حَضْرَةِ خَوارِزم، المَعْرُوْفَةِ بِرِسالاتِ بَهائي، وَلَوْ كانَ لَها ثَمَنٌ، وكانَ الثَّمَنُ بِكُلِّ جَوْهَرٍ ثَمِيْنٍ كانَ مُمْكِناً، الحَصَياتِ في مَجاري الأنْهار، لَوَجَدُوا بَيانَهُ رَخِيْصاً وَلَظَهَرَ مَجَّاناً.

وَتَرْجَمَةُ يَمِيْني، الَّتي لَوْ باليَمِيْنِ المُغَلَّظِ قالُوا عَنْ مُتَرْجِمِ تِلْكَ أَنَّهُ مُتَحَدِّثٌ ثَرِيٌّ مِنَ الحَدِيْثِ ما كانَ الحَنْثُ لازِماً، وَإِنْ كانَ مِنْ صَمِيْمِ خُسْرانِ صَفْقَتِهِ بِحُكْمِ التَّنَدُّمِ كالفِرْدَوسي، عَمِلَ الإِسْتِقالَةَ مِنْ تِلْكَ المَقالَة، وَمِنْ تَخَلُّصِ الكِتابِ أَظْهَرَ التَّمَلُّص، وَأَنَّهُ كالبِذْرَةِ بُذِرَتْ في الأَرْضِ المالِحَة، وكالغَرْسَةِ غُرِسَتْ في الأَرْضِ بِلا جَوْهَرٍ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْها الثَّمَر:

يَمِيْني أَجْرَمَتْ شُلَّتْ يَمِيْني فَقَدْ ضَيَّعْتُ تَرْجَمَةَ اليَمِيْني

أَمَّا روزگار لا شُلَّ بَنانُهُ ولا كَلَّ لِسانُهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُو لِتِلْكَ الصَّحِيْفَة، المَمْلُوْءَةِ بِكُلِّ لَطِيْفَة.

وَنَوْعٌ آخَرُ مِثْلَ نَفْثَةِ المَصْدُور، صُنْعُ الوَزِيْر المَرْحوم شَرَف الدِّيْن نوشِروان خالِد، الَّذي وَجَدَ اِسْمُهُ بِذاكَ الخُلُوْد، وَأَلْحَقَ مِنْ دَوْرَةِ الزَّمانِ ما أَجْرى مَعَ الصُّدُورِ والأَحْرارِ في العُهُوْدِ السَّابِقَةِ واللَّاحِقَةِ، وَحِكايَةَ تِلْكَ النِّكايَة، وَما جَرى مِنْ غَدْرِ هذا الغاشِّ الغَرَّارِ، مَعَ المُلُوْكِ واهِبي

التَّاجِ، والسَّلاطِيْنِ ضارِبي الأعْناق، على سَبِيْلِ الاِخْتِصارِ لَمْ يَتْرُكْ باقِياً، وَفي إيْرادِ الحَدِيْثِ بالإيْجازِ الَّذي هُوَ مِنْ بابِ الإعْجازِ ظاهِرٌ.

وَبِذَيْلِ هذا نَفْثَةُ المَصْدُور، مِنْ عَمَلِ نَجْمِ الدِّيْنِ أَبُو الرِّضا القُمِّيّ، مِنْ مُنْقَطِعِ عَهْدِهِ حَتَّى آخِرِ عُمُرِهِ، عَنْ كُلِّ ما سَمِعَ مِنْ تَقَلُّبِ أحْوالِ أَهْلِ الدَّهْرِ والأَفاضِلِ والأماثِلِ والوُزَراءِ والأُمَراءِ والمُلُوْكِ والصُّدُورِ، وما شاهَدَ، وَبِكُلِّ واحِدَةٍ مَزَجَ إشارَةَ لُطْفٍ، وَأَظْهَرَ نُبْذَةً عَنْ رَذائِلِهِم وَفَضائِلِهِم، أنا ما يُمْكِنُ لي أَنْ أَقُوْلَ عَنْ ذاك، وَلَوْ جَعَلْتُ شَرْحَ خَصائِصِ ذاكَ الذَّيْلِ مُذَيَّلاً، لَصارَ بامْتِدادِ الأَيَّامِ المُتَّصِلَة، ذَيْلاً مَمْلُوْءاً بِيَواقِيْتِ النِّكَتِ، وَدُرَرِ الأَمْثالِ، وَقَدْ غُسِلَتِ العِبارَةُ مِنْ أطْرافِ ذاكَ بالماءِ العَذْب، وَلَمْ يَجْلِسْ حَوْلَها غُبارُ التَّكَلُّفِ والتَّعَسُّف.

وَآخَرُ، الطَّرائِقُ المُخْتَلِفَةُ والمُتَبايِنَةُ الَّتي كانَتْ لِأكابِرِ الفُضَلاءِ والبُلَغاءِ، وَلَوْ أَظْهَرْتُ عَنْ كُلِّ واحِدٍ أُنْمُوْذَجاً، لانتَهى بالإطالَة.

أما الطَّرِيْقَةُ الَّتي امْتَلَكَ السَّيِّدُ فاضِل ظَهْر الدِّيْن الكَرْجي، كَتَبَةُ العَجَم، فَإِنَّهُ لَوْ أرادُوا نَسْجَ الكِتابَةِ على مِنْوالِهِ، لَجاؤوا قاصِرِيْن، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْراً.

وَنَوْعٌ آخَرُ، وَلَوْ أَنَّهُ جاءَ خارِجاً عَنْ رُسُومِ الكُتَّاب، مِثْلَ نَفَثاتِ سِحْرِ الكَلام، وَمُجاجاتِ الأَقْلام، لِـ أَمير خاقاني الَّذي كانَ الخاقانَ الأَكْبَرَ

على خَيْلِ فُصَحاءِ الزَّمان، وَفي ذلِكَ المَيْدانِ الَّذي بِهِ يَمْلِكُ ثلاثَةَ أَطْفالِ بَنانٍ، ساقَ الجَوادَ على القَصَبَةِ وَخَطَفَ قَصَبَ سَبْقِ البَراعَةِ مِنَ الجَمِيْعِ، وَلَمْ تَشُقَّ غُبارَ قَدَمِ جَوادِهِ الأَصْفَرِ مِنَ القَصَبِ، أوهامُ السَّابِقِيْنَ بِحَلْبَةِ الدَّعْوى.

وَآخَرُ الرَّسائِلُ والرِّقاع، والفُصُولُ مِنَ الأَنْواع، فَقَدْ صِرْتُ مَحْظُوظاً بِمُطالَعَةِ الكُلّ، وَمِنْ بَعْدِ الوُقُوفِ على حقائِقِ كُرَةِ الدَّقائِقِ المُبْدَعاتِ تِلْك، جِئْتُ واسْتَنْشَقْتُ شَمِيْمَةً مِنْ نَسِيْمِ كُلِّ واحِدَةٍ بِمَشامِّ الرَّغْبَةِ، وَجَلَسْتُ كالنَّحْلِ على كُلِّ بُرْعُمَةٍ مِنْ أَفْنانِ العِبارات، وَحَمَلْتُ مِنْ كُلِّ واحِدَةٍ ذاكَ الَّذي كانَ خُلاصَةَ اللَّطافَةِ، وَمُصاصَةَ الحَلاوَةِ، بِخَلِيَّةِ الخاطِرِ، حَتَّى مِنْ مُفْرَداتِ الأَجْزاء جاءَ حاصِلاً ذاكَ المُرَكَّبُ شَبِيْهُ العَسَلِ بِفَرْطِ الاِمْتِزاج، وارْتَفَعَ إِمْكانُ التَّمْيِيزِ مِنَ الوَسَطِ ما بَيْنَ الكُلِّ والجُزْء:

رَقَّ الزُّجاجُ وَراقَتِ الخَمْرُ   فَتَشابَها وَتَشاكَلَ الأَمْرُ

وَحَيْثُ أَنَّهُ طَلَعَ عَلَيَّ زَمانٌ بمُلابَسَةِ ومُمارَسَةِ هذا الفَنّ، فَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْقُلَ مِنْ فائِدَةِ ذاكَ عائِدَةَ عُمُري ذَخِيْرَةً، وأَنْ أَعْمَلَ كِتاباً يُمْكِنُ فِيْهِ إِعْطاءُ آراءٍ بإِبْداعِ الكَلام، وَلِمُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ ظَلَّتْ تَأَرْجَحُ فِيَّ نَواهِضُ هِمَّةِ هذِهِ العَزِيْمَةِ، إلى أنْ وَقَعَ القَرارُ لِلْمُتَقاضِيْنَ في الباطِنِ بِذاكَ، وَأَنْ آخُذَ بِيَدي مِنْ عرائِسِ مُخْتَرَعاتِ السَّابِقِيْنَ المُخَدَّرَة، الَّتي كانَتْ

مِنْ زِيْنَةِ العِبارَةِ عاطِلَةً، حَتَّى أَكْسُوَها كِسْوَةً مُزَيَّنَةً، مِنْ نَسِيْجِ يَدِ قَرِيْحَتي، وَأَعْقِدَ عَلَيْها حِلْيَةً فاتِنَةً مِنْ صَنْعَةِ صِياغَةِ خاطِري، وَقَدْ سَعَيْتُ كَثِيْراً في بَحْثِ واسْتِقْراءِ ذاكَ، حَتَّى في يَوْمٍ أَظْهَرَتِ الوَجْهَ مِنْ مَطْلَعِ الفِكْر، تَباشِيْرُ بِشارَةِ صُبْحِ هذِهِ السَّعادَةِ، وَمُلْهِمٌ مِنْ وراءِ حِجابِ الغَيْبِ، ضَرَبَ بِرأْسِ أُنْمُلَةِ التَّنْبِيْهِ خاصِرَةَ إِرادَتي،

قُلْتَ لي قَلْبُكَ أَيْنَ يَكُونُ أي رُوْحُ   اُنْظُرْ في زُلْفِكَ المَكانُ غَيْرُ بَعِيْد

وَهُناكَ كِتابُ المَرزِبان الَّذي كانَ وُضِعَ عَنْ لِسانِ الحَيَواناتِ العُجْم، وَما عدا كَلِيْلَة وَدِمْنَة لَمْ يُعْمَلْ في العَجَمِ كِتابٌ آخَرُ مَشْحُونٌ بِغَرائِبِ الحِكْمَةِ، وَمَحْشُوٌّ بِرَغائِبِ العِظَةِ والنَّصِيْحَةِ، مِثْلُ ذاكَ، وَقَدْ جَعَلُوا ذاكَ على تِسْعَةِ أَبْوابٍ، كُلُّ بابٍ مُشْتَمِلٌ على الكَثِيْرِ مِنَ القِصَص، بِلِسانِ طَبَرستان، أُتِيَ بِها بالفارِسِيَّةِ القَدِيْمَةِ مِنْ القُدَماءِ، فَجُعِلَ عالَمُ المَعْنى ذاكَ، باللُّغَةِ النَّازِلَةِ والعِبارَةِ السَّافِلَةِ، وَضِيْعاً في العُيُون،

كالدُّرِّ في صَدَفٍ والخَمْرِ في خَزَفٍ   والنُّوْرِ في ظُلَمٍ والحُوْرِ في سَمَلِ

وَتَظُنُّ هذِهِ العَرُوْسَ الجَمِيْلَةَ الَّتي بَقِيَتْ داخِلَ حِجابِ الخُمُول وَلَمْ تَقُمْ بالسَّفَرِ مِثْلَ الجَواري الأُخْرَياتِ المُنَشَّآتِ في البَرِّ والبَحْر، وَلَمْ تَجِدِ الشُّهْرَةَ اللَّائِقَة، فَذلِكَ كانَ مِنْ هذِهِ الجِهَة، حَيْثُ لمّا لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ الظَّاهِرَ مُزَيَّناً لَمْ تَجِئْ دَواعي الرَّغْبَةِ مِنْ باطِنِ القُرَّاء، بِتَحْصِيْلِ ذاكَ المُتَداعي، فَإِذا كانَتْ لَكَ هذِهِ الرَّغْبَةُ وَلَمْ تَكُنْ شَهْوَةَ العِنِّيْن، باسْمِ

اللهِ، كُنْ مَشْغُولاً بافْتِضاضِ هذِهِ العَذْراء، ولا تَجْعَلْ أَيَّ عُذْرٍ أمامَ الخاطِرِ،

لا فِكْرَ أَعْجَبُ مِنْ ذا جِئْ بِهِ بالعَمَل أَو لا تُعْطِ الطَّرِيْقَ لِلْفِكْرَةِ لِلخاطِرِ

صَدْرُ الأَمَلِ لِي مِنْ شَرْحِ هذا الحَدِيْثِ صارَ مُنْشَرِحا

وَقُلْتُ للنَّفْسِ جِدِّي الآنَ واجْتَهِدي وساعِدِيْني فَهذا ما تَمَنَّيْتِ

ذاكَ الزَّمانَ وَسَطَ الطَّلَبِ أَغْلَقْتُ البابَ وَجَلَسْتُ، حَتَّى أجِيْءَ بِكَنْزِ بَيْتِ الدَّوْلَةِ ذاكَ باليَد، طُفْتُ بِزَوايا ذاكَ جَمِيْعاً، وَرَأَيْتُ خَبايا أَسْرارِ ذاكَ بِنَظَرِ الإِسْتِبْصارِ تَماماً، وَفَكَكْتُ طَلْسَمَ تَرْكِيْبِ ذاكَ بَعْضَهُ عَنْ بَعْضٍ، وَعَمِلْتُ عَنْ حاصِلِ الكُلِّ مُلَخَّصاً، وَأَلْقَيْتُ الباقي، كَفُضُلاتِ أَقْداحٍ رُدِدْنَ على السَّاقي، وَأَجْرَيْتُ على صِيْغَةِ الأَصْلِ ذاتِها، وآنَذاكَ، مُشَمِّراً عَنْ ساقِ النِّيَّة، سافِراً عَنْ وَجْهِ الأُمْنِيَّة، ذَهَبْتُ مِنْ جَدِيْدٍ أمامَ هذا المُراد، وَفِيْ مَعْرَضِ السَّبْقِ لِهذا الغَرَضِ، جَعَلْتُ ناصِيَةَ النَّفْسِ هدَفاً لِسِهامِ الإِعْتِراضات، وما كُلُّ مَنْ نَشَرَ أَجْنِحَتَهُ بَلَغَ الإحاطَة، ولا كُلُّ مَنْ نَثَرَ كِنانَتَهُ فَرْطَسَ الحُماطَة، وَإِجْمالاً، حَيْنَ فَكَّرْتُ الفِكْرَ في بِدايَةِ وَنِهايَةِ العَمَل، ظَنَنْتُ في الحالِ أَنَّ سُلالَةَ آخِرِ العَمَلِ جاءَتْ ظاهِرَةً في مَشِيْمَةِ أَوَّلِ الفِكْر، رَصَدْتُ طالَعَ الوَقْتِ، وَجَدْتُ مُتَّصِلاً بِهِ، نَظَراً واهِباً للسَّعادَةِ مِنْ مُشْتَرِي سَماءِ الجَلالِ والمَنْقَبَة، أعني المالِكَ سَيِّدَ العالَم الصَّاحِبَ الأَعْظَم نِظامَ العالَم، مَلِكَ

وُزَراءِ العَهْد، وَأَجَلَّهُم كمالاً، وَأَفْضَلَهُمْ فَضْلاً وَإِفْضالاً، رَبِيْبَ الدُّنيا والدِّيْن، مُعِيْنَ الإِسْلامِ والمُسْلِمِيْن، أعلى اللهُ شَأْنَهُ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهِ إِحْسانَهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ تَأْثِيْرَ نَظَرِهِ ذاكَ سَيُوْصِلُهُ لِلْمَكان، وَيَجْعَلُهُ مَنْظُوراً لِلْعالَمِيْن، ثُمَّ جَعَلْتُ تِلْكَ الصَّحِيْفَةَ الأَصْلَ أمامي، وَأَخَذْتُ بِنَقْلِها بِعِبارَةِ نَفْسي، وَفَتَحْتُ لِلْمَشَّاطَةِ ماهِرَةِ اليَدِ لِلْفِكْرَةِ بابَ زِيْنَةِ الأَلْعابِ حَسَنَةِ الشَّمائِل، والعالِمُ للسِّرِّ والجَهْرِ علِمَ أَنَّهُ مِنْ باطِنِ مَنْزِلِ الفِكْرَةِ، لَيْسَ في حِمْلي مِنْ أَيِّ صاحِبِ حَدِيْثٍ متاعٌ، وَرَأَيْتُ العُرْيَ لِي خَيْراً مِنَ الثَّوْبِ المُعار، وَكُلَّ دُرٍّ جَعَلْتُ في جَيْبِ الفِكْرِ وَياقَةِ الكَلام، أَخَذْتُهُ وَأَخْرَجْتُهُ مِنْ دُرْجِ مُفَكِّرَةِ نَفْسي، وَكُلَّ مَرْجانٍ نَثَرْتُ مِنْ كُمِّ العَقْلِ والرُّوْح، جِئْتُ بِهِ مِنْ خَزانَةِ حافِظَةِ نَفْسي،

لَمْ تَكُنْ أمامي الدَّواوِيْنُ والدَّفْتَر   وَلَمْ يَكُنْ لِعِيْسى العقاقِيْرُ والهاون

وَحِيْنَ نُسِجَ مِثْلُ هذا الدِّيْباجِ المُلَوَّن، لِهذِهِ العَذْراءِ على قَدِّها المُزَيَّن، جَعَلْتُهُ مُطَرَّزاً باسْمِهِ وَأَلْقابِهِ المُبارَكَة، وَجَعَلْتُ دِيْباجَةَ عُمْري مُطَرَّاةً بِذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ مَفاخِرِ ذاتِهِ، وَمَعالي صِفاتِهِ، وَفِيْ مَقْطَعِ كُلِّ بابٍ جِئْتُ ظاهِراً بِمَخْلَصٍ آخَرَ بالدُّعاءِ والثَّناءِ الزَّاهِرِ لَه، أطابَ اللهُ نَشْرَهُ، وَأَبْقى على الدَّهْرِ ذِكْرَهُ، وَإِذا كانَتْ عَيْنُ البَصِيْرَةِ هذا اليَوْمَ تَعْمَلُ العَمَلَ في كُلِّ أَنْحاءِ وَأَرْجاءِ الدُّنيا، لا سِيَّما في بَسِيْطِ عَرْصَةِ العِراقَيْن، مِنْ أكارِمِ العالَمِ، وَأكابِرِ الأُمَم، وَأَفاضِلِ مُلُوكِ العَرَبِ

وَصُدُورِ العَجَم، تَقْدِرُ تَجِدُ عِقْدَ العَظَمَةِ هذا الوَحِيْد، وَعَهْدَ العَظَمَةِ هذا الفَرِيْد، الَّذي فَضْلُهُ الباهِرُ زِيْنَةُ الكَرَمِ الوافِرِ، وَأَثَرٌ مِنْ آثارِ مَعالِمِ العِلْم، لَوْ كانُوا اليَوْمَ يُعْطُونَ الإشارَةَ لَهُ، لا يَكُونُ قابِلَ الصُّوْرَةِ إلّا على سُدَّةِ السِّيادَةِ، وَوِسادَةِ الحِشْمَةِ، ولا يَلِيْقُ بِمِثْلِ هذِهِ البِضاعَةِ أَنْ تُباعَ إلّا بِيَوْمِ بازارِ دَوْلَتِه، ولا بِمِثْلِ هذِهِ التُّحْفَةِ أنْ تُوْضَعَ إلّا أمامَ بِساطِ جلالِه، نِعْمَ هذِهِ لِهذا، وَأَمَّا قِدَمُ العُبُوْدِيَّةِ، فَإِنَّ لِتَقْدِيْمِ هذِهِ الخِدْمَةِ لَهُ باعِثاً آخَر، أَنَّهُ مِنْ ذاكَ المَقامِ إِذْ أَخَذُوا اِسْمي مِنْ دِيْوانِ إِنْشاءِ الفِطْرَةِ بِقَلَمِ التَّكْلِيْف، وَرَقَمُوا رَقَمَ عَقْلي الَّذي يَكُونُ مَظَنَّةَ التَّمْييزِ على ناصِيَةِ حالي، إلى هذا الزَّمانِ إِذْ وَصَلْتُ مِنْ مَراتِبِ السِّنِّ لِهذِهِ المَرْتَبَة، لَمْ تَكُنْ لِيْ تَرْبِيَةٌ إلّا في مَلْجَأِ هذا الجَنابِ لِلْمَجْدِ والمَكارِم، وَقَدْ أَوْصَلْتُ طِفْلَ البلاغَةِ إلى حَدِّ البُلُوْغِ في حَضانَةِ تَرْبِيَةِ هذِهِ العَتَبَة، وَوَراءَ هذا لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِجْحافٌ، أَنْ يَجِبَ إِتْحافُ كِتابِ مِثْلي أنا هذا العَبْدِ لِمِثْلِ هذا السَّيِّد، وَكُلُّ رُقْعَةٍ مِنْ نَتائِجِ طَبْعِهِ في حِسابِ كُتَّابِ العالَمِ كِتاب، وَكُلُّ كِتابٍ مِنْ نَسائِجِ قَلَمِهِ لِعَبِيْدِ مَعْمَلِ التَّحْبِيْرِ والتَّحْرِيْرِ دُسْتُوْرُ عَمَل،

إِنْ قالَ فالدُّرُّ الثَّمِيْنُ مُنَظَّمُ أَوْ خَطَّ فالوَشْيُ البَدِيْعُ مُنَمْنَمُ

أَيْ مَنْ في مِرْآةِ الرُّوْحِ كُلَّ وَقْتٍ تِسْعَةَ وُجُوْهِ كمالِ الحَدِيْثِ تَرَى
إِنْ نَظَرْتَ في دَفْتَرِ إِنْشائِهِ مَرَّةً جَمالَ الخَطِّ وَجَمالَ الحَدِيْثِ تَرَى

وَكُلُّ مَنْ عَرِفَ طُرَفاً مِنْ هذِهِ التُّحَفِ بِحَضْرَتِهِ واسِطَةَ تَقَرُّبٍ، كانَ كَما قِيْل

أُهْدي كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إلى هَجَرٍ   أو حامِلٍ وَشْيَ أَبْرادٍ إلى اليَمَنِ

وَفي أَثْناءِ قَصِيْدَةٍ مُوَشَّحَةٍ فائِحَةٍ بِثَنائِهِ أَمْلِكُ بَيْتاً يَجِيْءُ في هذا السِّياق،

الجَواهِرُ الَّتي تَسَّاقَطُ مِنْ ساعِدِ قَلَمِه
تُحْمَلُ مِنْ يَدٍ لِيَدٍ إلى رِقابِ الحُوْر

وَلَو عَنْ صَحائِفِ اللَّطائِفِ الَّتي مِنْ قَلَمِ الغَيْبِ حَمْلُها الغَرائِبُ الجميلةُ، المَحْفُوْظَةُ وَالمَكْنُوْنَةُ في خَزائِنِ مُلُوْكِ العالَم، أُعِيْدَ القَوْلُ، لَوَجَبَ في الحالِ سَماعُ هذا مِنْ لِسانِ الحالِ بِسَمْعِ الإنْصاف،

يا مَنْ يُطِيْلُ كلاماً في مَدائِحِهِ
أَمْسِكْ فَحَصْرُ نُجُومِ اللَّيْلِ مِنْ حَصَرِ
تَنَفَّسَ الدَّهْرُ مِنْ ذِكْراهُ عَنْ أَرَجٍ
تَنَفُّسَ الرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ في السَّحَرِ

وبالإجْمالِ مِنَ البِدايَةِ إلى النِّهايَةِ ، مُذْ جَعَلْتُ القَلْبَ بِفِكْرِ هذا الاِخْتِراع، والهِمَّةَ باقْتِراعِ هذِهِ البِكْرِ الآتِيَةِ مِنَ الغَيْب، فَكَّرْتُ بِكُلِّ أَصْلٍ كانَ مالِكَ مَعْنىً، وبِكُلِّ حِلْيَةِ فَنٍّ وَصَلْتُ لها، نَسَجْتُ لِإتْمامِ

ذاكَ المُرَغِّبِ والمُحَرِّضِ، حَتَّى رَأَيْتُ واجِباً الاِحْتِماءَ مِنْ مَعْرَضِ لائِمَةِ *أَحْمَيْتَ فَما أَشْوَيْتَ*، وَرَأَيْتُ التَّحَرُّضَ لِلتَّعَرُّض لِهذِهِ النَّفْحَةِ التَّوْفِيْقِيَّة، الَّتي هَبَّتْ مِنَ مَهَبِّ الكَرامَةِ الإلهِيَّةِ، قَدْ زادَ، وَفي تِلْكَ الحالَةِ إِذْ اضْطِرابُ فَتَراتِ العِراقِ بِذاكَ الزَّخَمِ غَيْرِ المُوافِق، إِذْ خَرَجَ الصَّوْتُ مِنْ حِجابِ الفَلَكِ السَّافِلِ، أَلْقاني مَعَ أَفْرادِ الجَيْشِ، وَإِنْ كُنْتُ فِيْها على مُنْقَلَبٍ مِنَ الأَحْوال، وَمُضْطَرَبٍ مِنَ الأَهْوال، بِمُجالَسَةِ وَمُناقَشَةِ أَهْلِ تِلْكَ البُقْعَةِ، الَّتي هِيَ الرُّقْعَةُ الكُبْرى لِلْبُلْدانِ السَّبْع، فَكُنْتُ أَعْمَلُ تَزْجِيَةَ الأَيَّامِ بِلا مُراد، وَمِنْ أَجْلِ نِظامِ الحالِ في المَدْرَسَةِ النِّظامِيَّةِ، كُنْتُ مَشْغُولاً باقْتِباسِ الفوائِدِ مِنْ أَنْفاسِهِمْ إِذْ بَعْضٌ مِنْهُم كانُوا حَدِيْثِي الوُصُولِ لِعالَمِ المَعْنى، وَبَعْضٌ كانُوا بَقايا سَلَفٍ أَفاضِلٍ، فَكُنْتُ أُعْطِي التَّسْكِيْنَ بِكَأْسِ الاِسْتِئْناسِ بِهِمُ لِثَوْرَةِ خُمارِ الواقِعَةِ ، كُنْتُ أَجْعَلُ جُزْءاً أَو جُزْءَيْنِ مِنْ هذِهِ الأَجْزاءِ في مُطالَعَةِ هذِهِ الطَّائِفَة، رُبَّما مِنَ اسْتِحْلاءٍ جاءَ حاصِلاً لِمَذاقِ الجَمِيْعِ مِنْ قِراءَةِ ذاكَ، أَعْمَلُ العِبارَة ، وَأُعِيْدُ إِظْهارَ اسْتِطْرافٍ أَظْهَرُوهُ مِنْ هذا النَّمَط، فَأَكُونُ أَظْهَرْتُ تَكَلُّفاً في صُوْرَةِ التَّصَلُّف مِنْ غَيْرِ الحاجَة، وَواحِدٌ مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ كانَ واسِطَةَ عِقْدِ القَوْم، وَكانَ مُمْتازاً بِلُطْفِ الطَّبْعِ وَسَلامَةِ الذَّوْقِ وَدِقَّةِ النَّظَرِ وَكَمالِ البَراعَةِ مِنْ أَهْلِ هذِهِ الصِّناعَة، مِنْ مَعْرَضِ سَوادِ ذاكَ أَبَداً لا يَصِيْرُ شَبْعاناً، وَهذا اللَّفْظُ وَإِنْ كانَ مُسْتَهْجَناً، أَجْرى قَوْلَهُ مِنْ جَدِيْدٍ على اللِّسانِ وَقالَ *حُقَّ لَهُ أَنْ يُكْتَبَ*

بِسَوادِ القَلْبِ على بَياضِ العَيْنِ، وَيَوماً بالطَّراوَةِ هَبَّتْ رِيْحٌ في نارِ هَوَسي، وَبإِنْشادِ هذا البَيْتِ الجَمِيْلِ جَعَلَ الخاطِرَ مِنِّي مُشْتَعِلاً اشْتِعالاً جَمِيْلاً، وَقَرَأَ عَلَيَّ،

إِذا سَنَحَ السُّرُورُ فَأَيُّ عُذْرٍ   لِذي الرَّأْيِ المُسَدَّدِ في التَّواني

وَمَعَ كَوْنِ عَوارِضِ الزَّمانِ وما يَجِيْءُ بِهِ لي أمامي اخْتِلافُ الأَدْوارِ في الطَّيِّ والنَّشْر، يَجْعَلُني غَيْرَ مُهَيَّأٍ، فِيْ كُلِّ وَقْتٍ كُنْتُ وَجَدْتُ فِيْهِ مِنَ الزَّمانِ جَرِيْءِ العَيْنِ *خِلْسَةً مِنَ الزَّمانِ وَفُرْصَةً مِنَ الحَدَثانِ* طَرْفَةَ عَيْنٍ في نَوْمِ الذُّهُول، وَصارَتْ حُجْرَةُ خَرابَةِ القَلْبِ خالِيَةً مِنْ مَجِيْءِ وَذَهابِ الأَحْداثِ المُتَوالِيَةِ، كُنْتُ أَعْمَلُ ساعَةً بِقَدْرِ الإِمْكانِ بِتَحْرِيْرِ فَصْلٍ مِنْ تِلْكَ الفُصُول، وَلَوْ أَنَّ عَيَّارَ المُباعَدَةِ والمُساعَدَةِ، لِهذا العَجُولِ مُظْهِرِ التَّمَهُّلِ، وَلِهذا المَلولِ مُزِيْدِ الحُبِّ، لَمْ يَكُنْ على هذا الشَّكْلِ، وما كانَ لِدَواعي الهِمَمِ وَمَساعي القَلَمِ، القَيْدُ على القَيْدِ، ما وَقَعَ التَّراخي، وَلَكانَتِ الفَراغَةُ مِنْ ذاكَ أَظْهَرَتِ الوَجْهَ في قَلِيْلٍ مِنَ الزَّمان، والفِكْرُ مِنْ مَنْزِلِ نِهايَةِ القُوَّةِ البَعِيْد، وَصَلَ إلى رَأْسِ حَدِّ الفِعْل، والذُّنابَةُ مِنْ أواخِرِ الكِتابِ الَّتي لَمْ تُعْمَلْ، وَبَقِيَتْ مُغْلَقَةً مِنْ عَدَمِ مُوافَقَةِ الأَيَّام، كانَتِ اتَّصَلَتْ بالتَّمام، وَوَصَلَتْ لِعَقْدِ مَباني ذاكَ بالنِّظام.

هذا العَبْدُ قائِلُ الثَّناءِ مُتَوَقِّعٌ، وَمَجالُ أَمَلِهِ مُتَوَسِّعٌ، أَنَّهُ بِواسِطَةِ الصِّيْتِ ماسِحِ العالَمِ لِلسَّيِّدِ، سَيِّدِ العالَمِ، ضاعَفَ اللهُ مَعالِيْهِ، وَأَضْعَفَ مُعادِيْهِ، عَنْ قَرِيْبٍ سَيَمْسَحُ عَرْصَةَ الأَقاليمِ، فَسُرْعَةُ سَيْرِهِ سَتَنْثُرُ غُبارَ الغَيْرَةِ على كَوْكَبَةِ الصَّبا والدَّبُور، وَتُشْعِلُ نارَ الغَيْرَةِ في مَجْمَرَةِ الشَّمالِ والقَبُول، وَيَبْقى اِسْمُهُ الكَبِيْرُ مِنْ دَيْباجَةِ كِتابِ المَرْزَبان، مُخَلَّداً وَمُؤَرَّخاً على وَجْهِ الزَّمان، وَتَصِيْرُ مُضِيْئَةً بِسَوادِ وَبَياضِ ذاكَ عَيْنُ أَهْلِ الزَّمان، ولا يُبْطِلُ الطَّراوَةَ والجِدَّةَ لِذاكَ اخْتِلافُ الجَدِيْدَيْنِ واتِّفاقُ الفَرْقَدَيْن، وَذاكَ الَّذي لَمْ يَكُنْ شَرِبَ كَأْسَ الإنْصافِ الصَّافي، وَلَمْ يَصِرْ نَشْوانَ هذا الشَّرابِ مُخْتَلِفِ الأَلْوان، فَلَمْ يُعْطِ عَنْ ذَوْقِ ذاكَ خَبَراً، فَمُمْكِنٌ أَنَّ مَذاقَ حالِهِ يَجْعَلُهُ على عَكْسِ الإِدْراك،

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيْضٍ   يَجِدْ مُرَّاً بِهِ الماءَ الزُّلالا

وَأَرْجُو اللهَ تَعالى أَلَّا يُطالِعَها إِلَّا المُبَرَّؤونَ عَنْ أَدْناسِ خَيالاتِ الخَلَد، ولا يَمَسَّها إِلَّا المُطَهَّرُونَ عَنْ أنجاسِ وَساوِسِ السُّخْطِ والحَسَد، جَعَلَ إِيْزَد تَعالى أَفْواهَ العالَمِيْنَ مُطَيَّبَةً وَمُشَرَّفَةً، بِأَطايِبِ ذِكْرِ مَناقِبِ وَمَآثِرِ السَّيِّدِ، سَيِّدِ العالَمِ، الصَّاحِبِ الأَعْظَمِ، وَأَسْماعَ العالَمِ مُقَرَّطَةً وَمُشَنَّفَةً بِجَواهِرِ مَحامِدِهِ وَمَفاخِرِهِ، وَمَحاسِنَ آثارِ كَرَمِهِ إِلى قِيامِ السَّاعَةِ باقِيَة، وَأَقْدامَ هِمَمِهِ في التَّرَقِّي في مَراقي العُلُوِّ ساعَةً فَساعَة، بِمُحَمَّدٍ وآلِه،

فَهْرَسْت الأَبواب

البابُ الأوَّل

في تَعْرِيْفِ الكِتابِ وَذِكْرِ الواضِعِ وَبَيانِ أَسْبابِ وَضْعِ ذاك

كذا يَجِبُ العِلْمُ أنَّ كِتابَ المَرزبان هذا مَنْسُوبٌ لِواضِعِهِ مرزَبان بن شَروين، وَشَروين كانَ الحَفِيْدَ الثَّاني لِـ كيوس، وَكانَ أَخَ المَلِكِ العادِلِ أَنوشِروان، كانَ المَلِكَ على طَبَرستان، وَكانَ لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ الأولادِ، كُلُّهُمْ بِرَجاحَةِ العَقْلِ وَرزانَةِ الرَّأْيِ وَأَهْلِيَّةِ المُلْكِ وَمُسْتَعِدٌّ لِلمُلْك، حِيْنَ مَضى شَرْوين بايَعَ الإِخْوَةُ الأَخَ الأَكْبَرَ، وعَقَدَ الإِخْوَةُ الآَخَرُونَ كَمَرَ الاِنْقِيادِ لَهُ، وَمِنْ بَعْدِ مُدَّةٍ ظَهَرَتْ دَواعي الحَسَدِ في الوَسَط، صارُوا مُسْتَدْعِيْنَ طَلَبَ المُلْكِ، وَمَرزَبانُ مِنْ جَمِيْعِ الأُخْوَةِ، بِحُكْمِ كَوْنِهِ مُنْفَرِداً بِفَضِيْلَةِ الفَضْل، وَواجِداً الفِطَامَ عَنْ حُطامِ الدُّنْيا، وَجاعِلاً الهِمَّةَ بالتَّفْكِيْرِ بالسَّعادَةِ الباقِيَة، فَكَّرَ أَنْ رُبَّما مَرَّ في خَيالِ الشَّاهِ أَنَّهُ هُوَ أَيْضاً مُتَعَلِّقٌ بالخَوْضِ في مَشْرَعِ مُخالَفَةِ الإِخْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ يُرِيْدُ لِغُبارِ هذِهِ التُّهْمَةِ أنْ يَجْلِسَ على ثَوْبِ مُعامَلَتِهِ، جَلَسَ وَنَظَرَ في مِرْآةِ رَأْيِ نَفْسِهِ، رأى وَجْهَ الصَّوابِ هكذا، أنْ يَلْوِيَ زِمامَ الحَرَكَةِ صَوْبَ مَقْصَدٍ مُعَيَّنٍ، وَيُلقي بالنَّفْسِ إلى رُكْنٍ خارِجَ خِطَّةِ المَمْلَكَة، وَيَتَّخِذَ هُناكَ مَسْكَناً كَيْ لا يَصِيْرَ مَورِدُ صَفاءِ الإِخْوَةِ مِنْهُ مُعَكَّراً، ولا تَصِيْرَ معاقِدُ الأُلْفَةِ واهِيَةً، ولا يَجِدَ الوَهَنُ الطَّرِيْقَ لِقَواعِدِ الأُخُوَّة.

جَمْعٌ مِنْ أكابِرِ وَأَشْرافِ المُلْكِ، كانَ لَهُم وُقُوفٌ وَإِشْرافٌ على هذِهِ الحال، قامُوا بالإلْتِماسِ مِنْهُ أنْ إذا صارَ ذَهابُكَ مِنْ هُنا مُحَقَّقاً، صَنِّفْ لَنا كِتاباً مُشْتَمِلاً على لَطائِفِ الحِكْمَةِ وَفَوائِدِ الفِطْنَةِ، نَجْعَلُ مِنْ ذاكَ دَسْتُورَ حالِ أَنْفُسِنا، في مَعاشِ الدُّنْيا وَمَعادِ الآَخِرَةِ لَنا، حَتَّى يُمْكِنَنا بِقِراءَةِ ذاكَ والعَمَلِ بِهِ التَّوَسُّلُ لِتَحْصِيْلِ السَّعادَتَيْن، والفَوْزِ بِنَجاةِ الدَّارَيْن، وَتَبْقى بِواسِطَةِ ذاكَ آثارُ فَضائِلِ ذاتِكَ، وَمَحاسِنُ صِفاتِكَ، على صَفَحاتِ الأَيَّام، وَتُوْصِلُ مِنْ زَواجِرِ الوَعْظِ والنُّصْحِ لِسَمْعِ الشَّاه بِضْعَ كَلِماتٍ، تَكُونُ لَهُ تَذْكِرَةً عَنْ سَيْرِ الزَّمان.

وَلَدُ المَلِكِ أَصْغى لِهذا الكَلام، وَجَعَلَ إمْضاءَ العَزِيْمَةِ بِتَقْدِيْمِ مُلْتَمَساتِهِم مَوْقُوفاً لِإِذْنِ وَأَمْرِ الشَّاه، نَهَضَ مِنْ مَوْقِفِ التَّرَدُّدِ، وَذَهَبَ بِخِدْمَةِ الشَّاه، وَقالَ ذاكَ الَّذي كانَ يَمْلِكُ في ضَمِيْرِ القَلْب، مِنْ نِيَّةِ الذَّهابِ لِمَكانٍ آخَرَ، وَعَمَلِ كِتابٍ وَفَصْلِ قَوْلٍ مُخالَطٍ بالنَّصِيْحِة، وَجَعَلَ التَّقْرِيْرَ جُمْلَةً في خِدْمَةِ الشَّاهِ، على سَبِيْلِ الإِسْتِجازَة، والشَّاهُ كالمُتَرَدِّدِ عَمِلَ في جَوابِهِ التَّوَقُّفَ، وَحِيْنَ هُوَ صارَ غائِباً جاءَ الوَزِيْرُ حاضِراً، قالَ لِلْوَزِير مِنْ طَرِيْقِ الإِسْتِشارَة، ماذا ترى في إجازَتِنا هذِهِ المَعاني بِذاكَ المَقْصُود الَّذي صارَتِ هِمَّةُ وَنُهْمَةُ أَخِي بِه، قالَ الوَزِيْرُ إِعْطاءُ الإِذْنِ لَهُ بالذَّهابِ مِنْ هُنا إلى مَكانٍ آخَرَ نَتِيْجَةُ رَأْيٍ صَحِيْحٍ وَقَضِيَّةُ فِكْرٍ صائِبٍ، فَإِنَّ عَدُوَّاً مِنْ أَعْداءِ المَلِكِ يَصِيْرُ

مَفْقُوداً، وَشَوْكَةً مِنْ قَدَمِ الدَّوْلَةِ تَصِيْرُ خارِجَةً، واعْلَمْ أنَّ مُرادَهُ مِنْ عَمَلِ الكِتابِ هُوَ أنْ يُظْهِرَ سِيْرَةَ المُلْكِ بالتَّقْبيحِ في حِجابِ التَّعْرِيْض، وَيَجْعَلَهُ السَّمَرَ على أَفْواهِ الخَلْق في آفاقِ العالَمِ، وَذاكَ الَّذي يُرِيْدُ مِنْ إِعْطائِكَ النَّصِيْحَةَ أنْ يَجْعَلَ مَرْتَبَةَ نَفْسِهِ بالعِلْمِ فوْق مَرْتَبَتِك، لكِنَّهُ لا يُثْبِتُ ذاكَ مَعَ النَّفْسِ كذلِك، فَهُوَ مِنْ حِلْيَةِ الكَمالِ الَّتي يُظْهِرُ عاطِل، وَفِكْرُهُ كُلُّهُ جَمِيْعاً باطِل، فَلْيَأْمُرْهُ الشَّاهُ أَنْ يَقُولَ ذاكَ الَّذي يَقُولُ بِحُضُوري، حَتَّى أَقُومَ في فُصُولِ نَصِيْحَتِهِ، بِإِظْهارِ فُضُولِ طَبْعِهِ وَفَضِيْحَتِهِ، وَأُظْهِرَ نُقْصانَهُ لِلشَّاه، وَأَرْفَعَ القِناعَ عَنْ وَجْهِ عَمَلِه، كَيْ يَعْلَمَ الشَّاهُ أنْ هُوَ مِنْ العُلَماءِ أَيَّةَ مَرتَبَةٍ يَمْلِكُ، وَمِنَ الفَضْلِ الَّذي يُلْقي صَلْصَلَةَ صَلَفِهِ في العالَمِ، أَيَّ قَدْرٍ يَمْلِك:

طِبـاعَكَ فـالـزَمْها وَخَـلِّ التَّكـلُّفَا   فـإنَّ الَّـذي غَـطَّيْتَهُ قَـدْ تَـكَشَّفا

مُفاوَضَةُ اِبْنِ المَلِكِ مَعَ الوَزِيْر

في اليَوْمِ الآخَرِ إذْ شاهُ سَيَّاراتِ العالَمِ على سَقْفِ هذا الطَّارَمِ الرَّابِعِ نَصَبَ العَلَم، وَخَرَزَ الثَّوابِتِ عَنْ هذا النَّطْعِ الأَزرَقِ قَطَفُوا، جَلَسَ الشَّاهُ في قَصْرِ الخَلْوَةِ، وَأَعْطى الأَمْرَ لِعِدَّةٍ مِنْ كُلِّ مُعْتَبَرٍ مِنْ كُفاةِ وَدُهاةِ المُلْك، مِمَّنْ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم كانَ ذَكِيَّ زَمانِهِ، أنْ يَحْضُرُوا مَعَ اِبْنِ المَلِكِ والوَزِيْرِ بِحَضْرَتِه، وَأنْ يَعْمَلُوا مَجْمَعاً كما طَلَبَ الوَزِيْر، قالَ المَلِكُ لِلمَرزَبان أَيْ أَخ، كُلُّ ما تَقُولُ خُلاصَةُ الفِكْرِ الجَمِيْلِ

وَنَقاوَةُ الحَفاوَةِ والرَّحْمَةِ، وَإِلَّا مِنْ فَرْطِ المُماحَضَةِ والمُخالَصَةِ لا يُمْكِنُ عَمَلُ صُوْرَةٍ لِذاكَ، الآنَ مِنْ كُلِّ ما تُمْلي داعِيَةُ المَصْلَحَة، يَجِبُ إِفراغُ أَوْعِيَةِ الضَّمِيْر، قَوْلُ القَوْلِ وَنَظْمُ دُرِّ الحِكْمَةِ أولى، اِبْنُ المَلِكِ شَرَعَ بالكَلام، بِلَفْظٍ أَعْذَبَ مِنْ لِسانِ الفُصَحاء، وَعِبارَةٍ أَطْيَبَ مِنْ خُلُقِ الكُرَماء، أَوَصَلَ حَقَّ الدُّعاءِ للشَّاه، والثَّناءَ لِحاضِري الحَضْرَةِ بالرِّعايَة،

بِكلامٍ لَوْ أَنَّ للدَّهْرِ سَمْعاً   مالَ مِنْ حُسْنِهِ إلى الإِصْغاءِ

وَقالَ الآنَ إِذْ أَمَرْتَ بِتَمْكِيْنِ قَوْلِ الكَلام، فَلْتَأْمُرْ بِبَذْلِ حُسْنِ الاِسْتِماع، فَلَوائِمُ النُّصْحِ غَيْرُ مُلائِمَةٍ لِطَبْعِ الإنسان، *لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِيْن*، بُرْعُمُ الكلامِ وَإِنْ كانَ تَفَتَّحَ عَنْ وَرَقٍ لَطِيف، إِذا لَمْ تَصِرْ لَهُ تَرْبِيَةٌ بِصَبا صِدْقِ الإِصْغاء، لا يُمْكِنُ أَنْ نَرْجُوَ مِنْهُ ثَمَرَةَ الفِعْل،

إذا لَمْ يُعِنْ قَوْلَ النَّصِيْحِ قَبُولُ   فَإِنَّ تَعارِيْضَ الكَلامِ فُضُولُ

اِعْلَمْ أيْ مَلِكُ أَنَّ الجَوْهَرَ الأَطْهَرَ الَّذي مِنْ عالَمِ الوَحْدَةِ أَخَذَ الاِرْتِباطَ بِمُرَكَّباتِ العَناصِرِ هُوَ العَقْل، وَأَكْبَرُ نَتِيْجَةٍ مِنْ نَتائِجِ العَقْلِ هِيَ الخَلُقُ الحَسَن، وَقَدْ وَهَبَ شَرَفَ الاِخْتِصاصِ بِهذا الخِطابِ لِأَشْرَفِ المَوْجُوْدات، وَعَنْ تِلْكَ العَظَمَةِ يَحكي *وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْم*، جَمِيْلٌ

أنْ يُمْكِنَ أنْ نَعْمَلَ مِنْ فَضِيْلَةِ ذاكَ وَسِيْلَةً لِلْفَوْزِ بالسَّعادَةِ الأَبَدِيَّة، والمُلُوْكُ هُمْ أَكْثَرُ الخلائقِ احْتِياجاً لِلجَوْهَرِ الطَّاهِر وَلِلْخَلِيْقَةِ المَرْضِيَّة، فالمَلِكُ إذا كانَ حَسَنَ الخُلُقِ لا يَسْلُكُ إلَّا طَرِيْقَ العَدْلِ والصِّدْقِ فَهُوَ مِنْ مُقْتَضَياتِهِ، ولا يَضَعُ إلَّا السُّنَّةَ المَحْبُوْبَةَ والشِّرْعَةَ المَرْغُوْبَة، فإذا كانَ انْتِهاجُ سِيْرَتِهِ على هذا المِنْهاج، كانَ المَحْكُومِونَ والرَّعايا في أَطْرافِ وَزَوايا المُلْك جَمِيْعاً في كَنَفِ الأَمْنِ والسَّلامَةِ باقِيْنَ مُطْمَئِنِّيْن، وَيَصِيْرُ الخلائِقُ كافَّةً بِأَخْلاقِهِ مُتَخَلِّقِيْن، حَتَّى يَحْفَظُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، خَوْفاً أَوْ طَمَعاً، الواحِدُ مَعَ الآخَرِ، رَسْمَ الإنْصافِ وَمَذْهَبَ الحَقّ، وَيَصِيْرُ ما أَعْطَتِ الطَّبائِعُ ابنَ آدَمَ مِنَ الإنْطِباعِ على الاِخْتِلافِ والتَّنافي، مُتَبَدِّلاً بالاِتِّفاقِ والتَّصافي، واعْلَمْ أَنَّ ذاكَ الَّذي كانَ مَذْمُوماً أَكْثَرَ مِنْ عاداتِ المَلِك، هُوَ أَوَّلاً البُخْلُ، فالبَخِيْلُ لا يَصِلُ لِإجْراءِ أَيِّ عَمَلٍ جَمِيْلٍ، ولا يُوْصِلُ النَّفْسَ بَيْنَ الخَلْقِ للسِّيادَةِ،

أَتَرْجُو أنْ تَسُوْدَ وَلَسْتَ تُغْني   وَكَيْفَ يَسُودُ ذُو الدَّعَةِ البَخِيْلُ

والثَّاني الإِسْرافُ في بَذْلِ المال، إِذْ هُوَ في الحَقِيْقَةِ حارِسٌ لِأَمْوالِ عِبادِ الله، ولائقٌ بِهِ التَّصَرُّفُ في أمْوالِهِ بِمِقدار، خاصَّةً في أمْوالِ الآخَرِيْن، ولِجَمالِ هذا الحَدِيْثِ نَصُّ كلامٍ أَزَلِيٍّ تَجَلَّى مِنْ مَنَصَّةِ الصِّدْقِ، إِذْ يَقُولُ *ولا تُسْرِفُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُسْرِفِيْن*، وَحَدِيْثُ *لا*

خَيْرَ *في السَّرَف* حَدِيْثٌ مِنَ الشُّهْرَةِ بِمَقام، فلا حاجَةَ لِتِذْكارِ وَتكْرارِ ذاكَ، ولا يَلِيْقُ بالمَلِكِ إِعْطاءُ الأَمْرِ بِلا تَأَمُّلٍ وَتَثَبُّتٍ، فَإِنَّ إِمْضاءَ أَمْرِهِ شَبِيْهٌ بِنازِلَةِ القَضاء، الَّذي يَجِيْءُ نازِلاً لِلأَرْضِ مِنَ السَّماء، فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ التَّفْكِيْرُ بِأَيِّ وَجْهٍ بِرَدِّهِ، وَإِشارَةُ المَلِكِ بِلا مُقَدِّماتِ التَّدْبير، تَكُونُ مِثْلَ سَهْمِ التَّقْدِيْر، حِيْنَ يَذْهَبُ خارِجاً مِنْ قَبْضَةِ المَشِيْئَة، لا يَصِيْرُ دَفْعُهُ مُمْكِناً بِأَيِّ دِرْعِ عِصْمَة، وفي عاقِبَةِ الأَمْرِ يَبْقى العَقْلُ في عُهْدَةِ الغَرامَة، وَيَقُولُ بِلِسانِ النَّدامَة، *وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وما مَسَّنِيَ السُّوْء*، ولا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ يَأْبى النَّصِيْحَةَ وَيَكُونَ نَفُوراً مِنَ النَّاصِحِيْن، حَتَّى لا يَكُونَ كَالمَرِيْضِ الَّذي بِوَقْتِ عُدُولِ المِزاجِ عَنْ نُقْطَةِ الاِعْتِدال، لا يَشْرَبُ الشُّرْبَةَ المُرَّةَ عَنْ يَدِ الطَّبِيْبِ الحاذِقِ، فَيَصِيْرُ مَذاقُ حالِهِ بالآخِرِ عاجِزاً عَنْ أَخْذِ شُرْبَةِ الصِّحَّة، وَيَجِبُ أَنْ يَمْلِكَ فَضاءَ عَرْصَةِ الهِمَّةِ الَّذي يَتَّسِعُ لِقَضاءِ جُمْلَةِ حوائِجِ المُلْكِ وَقْتَ الاِضْطِرارِ والاِخْتِيار، حَتَّى إِذا ما وَصَلَ سَبَبٌ، أَوْ جاءَتْ حاجَةٌ، وَكَانَ يَجِبُ إِنْفاقُ المالِ الوافِرِ لِأَجْلِ الصَّلاحِ الكُلِّيِّ، لا يَجِيْءُ بِيَدِ المَنْعِ أَمامَ الخاطِر، وَأَنا حِيْنَ طالَعْتُ صَحِيْفَةَ أَحْوالِكَ وَجَدْتُ قاعِدَةَ مُلْكِكَ مُخْتَلَّةً، وَرَأَيْتُ قَضِيَّةَ العَدْلِ مُهْمَلَةً، ورَأَيْتُ مُوَكَّلِيْكَ فَتَحُوا اليَدَ في إِضاعَةِ مالِ الرَّعِيَّةِ بِإِشاعَةِ الجَوْر، وَوَضَعُوا القَدَمَ خارِجَ مِقْدارِ حَدِّ النَّفْس، وَوَجَدْتَ بازارَ العُقَلاءِ

والخُبَراءِ كَساداً، وَقَدْ صارَ أَمْرُ المَحْكُوْمِيْنَ بِعَيْثٍ وَفَسادِ الحاكِمِيْنَ مُضْطَرِباً، قُلْتُ للنَّفْس،

الذِّئْبُ على التَّخْتِ وَيُوْسُفُ بِالجَبِّ   أَقْبَحُ القُبْحِ كانَ في وَلايَةِ الشَّاه
البَدَنُ يَسُـوءُ إذا ما خَرُبَ القَلْبُ   ظُلْمُ الجَيْشِ كانَ مِنْ جَوْرِ الشَّاه

وَهذا النَّظْمُ بَعِيْدٌ عَنِ النَّسَقِ الَّذي وَضَعَهُ أَجْدادُكَ الطَّاهِرُون، وَبَعِيْدٌ عَنْ أَصْلِكَ الطَّاهِرِ، ولا يَلِيْقُ بِمَحْتَدِكَ الشَّرِيْفِ وَمَنْبَتِكَ الكَرِيْمِ بِأَيِّ وَجْه،

وَإِنَّ الظُّلْمَ مِنْ كُلٍّ قَبِيْحٌ   وَأَقْبَحُ ما يَكُونُ مِنَ النَّبِيْهِ

إلى هذا اليَوْمِ كُنْتُ ساكِتاً، فَقَدْ قِيْلَ أَنْ مَعَ المُلُوْكِ لا تَقُلِ الحَدِيْثَ الَّذي لَمْ تُسْأَلْ، وَلا تَعْمَلِ العَمَلَ الَّذي لَمْ تُؤْمَرْ، واليَوْمَ إِذْ وَجَدْتُ إِشارَةَ الشَّاهِ على ذاكَ جُمْلَةً، أنا قائِلٌ ذاكَ الَّذي أَعْلَمُ، وَهذا غَيْضٌ مِنْ فَيْض، وَعَنْ عُهْدَةِ حَقِّ نَفْسي، أَعْني أَخِي، الَّذي هُوَ وراءَ جَمِيْعِ الحُقُوق، أَظْهَرْتُ بَعْضَ التَّقَصِّي، فَقَدْ قِيْلَ، ذاكَ الَّذي لا يُمْكِنُ قَطْعُهُ بالسَّيْفِ هُوَ عُقْدَةُ القَرابَة، وَذاكَ الَّذي مِنَ الزَّمانِ لا يُمْكِنُ أَنْ يُوْجَدَ لَهُ البَدَلُ بِأَيِّ عِلْقٍ نَفِيْسٍ هُوَ عُلْقَةُ الأُخُوَّة، كما قالَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ الَّتي اِسْمُها هَنْبوي، قالَ الشَّاهُ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّة،

حِكايَةُ هَنبوي مَعَ الضَحَّاك

وَلَدُ المَلِكِ قالَ سَمِعْتُ أَنَّهُ في عَهْدِ الضَحَّاكِ الَّذي كانَتْ طَلَعَتْ مِنْ كَتِفَيْهِ حَيَّتان، كانُوا في كُلِّ يَوْمٍ جَدِيْدٍ يُمْسِكُونَ شاباًّ وَيَجْعَلُوْنَ مِنْ دِماغِهِ طُعْمَةً لِتِلْكُما الحَيَّتَيْن، كانَتِ امْرَأَةٌ باسْمِ هَنْبوي، وَقَعَتْ قُرْعَةُ القَضاءِ يَوماً على وَلَدِها وَزَوْجِها وَأَخِيْها، حَبَسُوا الثَّلاثَةَ جَمِيْعاً لِيُجْرُوا عَلَيْهِمْ ذاكَ الظُّلْمَ المَعْهُوْد، المَرْأَةُ ذَهَبَتْ إلى إِيْوانِ الضَحَّاك، جَعَلَتْ على الرَّأْسِ تُرابَ التَّظَلُّم، وَشَرَعَتْ بالنُّواحِ المَخْلُوْطِ بالأَلَم، أنْ رَسْمُ كُلِّ يَوْمٍ رَجُلٌ مِنْ بَيْتٍ، فَكَيْفَ جاءَ أَنْ تَوَجَّهَ اليَومَ مِنْ بَيْتِي ثلاثَةُ رِجالٍ، صَوْتُ صُراخِها وَقَعَ في إِيْوانِ الضَحَّاك، حِيْنَ سَمِعَ وَسَأَلَ عَنْ تِلْكَ الحال، أنْهَوا لَهُ الواقِعَةَ كما كانَتْ، أَمَرَ أَنْ يُخَيِّرُوها لِتَخْتارَ واحِداً مِنَ الثَّلاثَةِ لِيَتْرُكُوْهُ مُعافاً، وَيُعِيْدُوْهُ لَها، حَمَلُوا هَنبوي إلى بابِ السِّجْنِ، وَقَعَتْ عَيْنُها أَوَّلاً على الزَّوْج، تَحَرَّكَتْ في فِطْرَتِها مَحَبَّةُ المُؤالَفَةِ والمُوافَقَةِ، واخَتَلَجَتْ شَفَقَةُ الإزْدِواجِ في ضَمِيْرِها، أرادَتْ أَنْ تَخْتارَهُ فَوَقَعَ نَظَرُها مُجَدَّداً على الإِبْنِ إِذْ كانَ قَرِيْباً، وَضَعَتْ يَدَها على الكَبِدِ، وَبِمَحَلِّ الإبْنِ أَلْقَتْ فِلْذَةَ كَبِدِ النَّفْسِ في مَخْلَبِ عُقابِ الآفَة، وَحَمَلَتْهُ لِلْخارِجِ بالسَّلامَة، فَجْأَةً رَأَتِ الأخَ، رَأَتْهُ مَأْسُوراً في قَيْدِ الإسار، أَلْقَتِ الرَّأْسَ أمامَهُ، سَكَبَتْ دَمَعَ الدَّمِ حَسْرَةً على الوَجْه، فَكَّرَتْ مَعَ النَّفْسِ، أنْ مَهْما أَكُنْ تَوَقَّفَتُ في وَرْطَةِ الحَيْرَةِ عاجِزَةً، لا

أعْلَمُ، مِنْ نُوْرِ العَيْنِ وَسُكُونِ القَلْبِ وَزِيْنَةِ الحَياةِ، أَيَّ اخْتِيارٍ أَخْتار، وَأَيَّ قَرارٍ أُعْطي القَلْبَ بِلا قَرار، لكِنْ ما أَفْعَلُ وَلِقَطْعِ صِلَةِ الأُخُوَّةِ، القَلْبُ لا يُعْطي الرُّخْصَةَ بِأَيِّ تَأْوِيْل، على الَّذي هُوَ بِلا بَدَلٍ كَيْفَ يُعْطي شَخْصٌ البَدَل، أنا امْرَأَةٌ شابَّةٌ أَجِدُ زَوْجاً آخَرَ جَدِيْداً، وَمِنَ المُمْكِنِ أَنْ أُنْجِبَ مِنْهُ وَلَداً جَدِيْداً، حَتَّى أُطْفِئَ مِنْهُ نارَ الفِراقِ بِماءِ الوِصال، وَأُداوِي سُمَّ هذا الفَواتِ بِتِرْياقِ البَقاء، لكِنْ لَيْسَ مُمْكِناً أَنْ يَجِيْئَني مِنَ الأَبِ والأُمِّ المَيِّتَيْنِ أَخٌ آخَر، حَتَّى أُلْقِيَ عَلَيْهِ هذِهِ المَحَبَّةَ فَجْأَةً، خائِبَةً عاجِزَةً، قَطَعَتِ الطَّمَعَ مِنَ الزَّوْج، وَأَخَذَتْ يَدَ الأخِ، وَأَخْرَجَتْهُ مِنَ السِّجْنِ لَلِباب، هذِهِ الحِكايَةُ وَصَلَتْ لِسَمْعِ الضَّحَّاك، أمَرَ أَنْ يُعْطُوا الاِبْنَ والزَّوْجَ أَيْضاً لِهَنْبوي، أنا قَلْتُ هذِهِ القِصَّةَ كَيْ يَعْلَمَ الشَّاهُ أَنْ ما لي مِنْ دَوْرَةِ الزَّمانِ عِوَضٌ عَنْ ذاتِهِ المُبارَكَةِ مِنْ شَخْصٍ، وَغَيْرَ بَقائِهِ العُمُرَ، بِأَيِّ مُرادٍ لا أَكُونُ راضِياً، وَأنا أُفَكِّرُ بِوَبالِ ذاكَ الخُرْقِ الَّذي يَذْهَبُ في خَرْقِ عاداتِ الآباء، أنْ يَصِلَ، عِياذاً بالله، حَبْلُ النَّسْلِ لِلاِنْتِقاض، وَأَنْ يَنْتَهِيَ عَهْدُ الدَّوْلَةِ بالاِنْقِراض، كما قالَ عَزَّ مِنْ قائِلٍ، *فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا*، قالَ الشَّاهُ أنا أَقْرَأُ نَقْشَ صِدْقِ هذِهِ الدَّعْوى مِنْ لَوْحِ عَقِيْدَةِ النَّفْس، وَأَعْلَمُ أَنَّ ذاكَ الَّذي تُظْهِرُ لا يَمْلِكُ رِيْحَ التَّكَلُّف، لكِنَّني أَطْلُبُ في هذِهِ الأَبْوابِ أنْ تَسْمَعَ خِطابَ الوَزِيْر بِطَرِيْقِ المُحاوَلَةِ لا المُجادَلَة، وَأَنْ يَذْهَبَ بَيْنَكُما في التَّجاوُبِ والتَّناوُبِ فَصْلٌ مُشْبَعٌ وَمُسْتَوْفٍ، حَتَّى

مِنْ تَمْحِيْصِ فِكْرِكُما يَخْرُجُ ذاكَ الَّذي هُوَ زُبْدَةُ الأَمْر، وَأنا أَصِيْرُ واقِفاً على ذاكَ، وَلَدُ المَلِكِ قالَ إنَّهُ لا شُبْهَةَ أَنَّهُ إذا كانَ الوَزِيْرُ الحاصِلُ على فَصاحَةِ اللِّسانِ وَحَصافَةِ الرَّأْيِ وَدَهاءِ الطَّبْع وَذَكاءِ الذِّهْن، يُرِيْدُ التَّفْكِيْرَ بِقَلْبِ كُلَّ مَعَنىً دَقِيْقٍ، وَسَلْبِ كُلَّ إِيْجابٍ، وَعَكْسِ كُلِّ طَرْدٍ، فَإِنَّهُ يَستَطِيْعُ، ولكِنْ لا يَصِيْرُ مُتَمَشِّياً الشَّفاعَةُ باللَّجاجِ والنَّصِيْحَةُ بالإحْتِجاجِ، وَأنا بِقَدْرِ وُسْعِ النَّفْسِ سَأَنْقُلُ القَدَمَ، وَأُلقي حِجابَ الإِخْتِفاءِ عَنْ وَجْهِ حَقِيْقَةِ الأَمْر، إذا كُنْتَ تُرِيْدُ أَنْ يَأْخُذَ مَقالي القَرارَ في نِصابِ القَبُول، *قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيّ*، وإِنْ كُنْتَ لا تُرِيْدُ وَتَعْمَلُ حَسَبَ ذاكَ الأمْرِ، *لا إِكْراهَ في الدِّيْن*،

خِطابُ الوَزِيْر مَعَ وَلَدِ المَلِك

الوَزِيْرُ في لِباسِ المُلابَسَةِ والمُخادَعَةِ شَرَعْ بالكَلام، قالَ، وَلَدُ المَلِكِ العالِمُ والخَبِيْرُ وسابِقُ الفِكْرِ وَبَعِيْدُ الرُّؤْيَةِ والعاقِلُ وَصاحِبُ الثَّقافَةِ يَقُولُ كُلَّ ما يَقُولُ مِنْ أَجْلِ إِحْكامِ عُقْدَةِ الدَّوْلَةِ وَنَظامِ عِقْدِ المَمْلَكَة، وهذِهِ النَّصائِحُ مُفْضِيَةٌ لِمْنائِحِ التَّأْيِيْدِ الإلهِيّ، وَتَخْلِيْدِ آثارِ المُلْك، وَلكِنْ نَحْنُ هكذا نَعْلَمُ أَنَّ حِفْظَ وَحِراسَةَ المُلْكِ مُمْكِنانِ بالسِّياسَةِ الَّتي نَعْمَلُ، وَسُلُوكُ هذِهِ الطَّرِيْقَةِ مُطابِقٌ للشَّرِيْعَةِ وَالْعَقْل، إذا لَمْ تَأْمُرْ بِعُقُوْبَةِ الذَّنْبِ لِلْمُجْرِم تَكُونُ عاقَبْتَ البَرِيْء، وَمِنْ مَنْقُولاتِ كلامِ

أردَشير بابَك وَمَقُولاتِ حِكْمَتِهِ أنَّ إراقَةَ الدَّمِ الكَثِيْرِ يَكُونُ مِنْهُ الكَثِيْرُ مِنْ مَنْعِ إراقَةِ الدَّمّ، وَأنَّ الألَمَ الكَثِيْرَ مُوْصِلٌ لِصِحَّةِ البَدَن،

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُوْدٌ عَواقِبُهُ   وَرُبَّما صَحَّتِ الأَجْسامُ بالعِلَلِ

وانْظُرْ إلى هذا المَعْنى كَيْفَ جاءَ مُوافِقاً لِلْكلامِ المَجِيْد، *وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ*، وَيَجِبُ العِلْمُ أنَّ مِزاجَ أَهْلِ الزَّمانِ صارَ فاسِداً، وَأنَّهُم جَعَلُوا النَّظَرَ مِنْ طاعَةِ السُّلْطانِ مَقْصُوراً على خَداعَةِ الشَّيْطان، وَقَدْ وَضَعَ الشَّيْطانُ في دِماغِ كُلِّ واحِدٍ بَيْضَةَ هَوَسٍ مِنْ فِكْرِ المُحالِ وَتِجارَةِ رَغَبَةِ الاِسْتِقْلال، وَرَبَّى طِفْلَ الطَّمَع، وَقَدْ وَقَعَ في رَأْسِهِم هذا التَّصَوُّرُ، أَنِ السِّيادَةَ وَإِعطاءَ الأَمْرِ أَمْرٌ مِنْ أَجْلِ مَنْ هُوَ بِلا رَأْسٍ ولا قَدَمٍ، وَأنَّهُ بِمُجَرَّدِ السَّعْيِ والطَّلَبِ والجَيَشانِ والخَفَقانِ يُمْكِنُ إِيْصالُ يَدِ الإدراكِ لِثَوْبِ الدَّوْلَة، وَهَيْهاتَ!، *يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيْهِمْ وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلَّا غُرُورا*، ولا يَعْلَمُونَ أنَّ المُلُوْكَ خِيْرَةُ الخَلْقِ وَتَرْبِيَةُ الرَّبّ، وَأنَّهُ لَمَّا قَسَمُوا المَواهِبَ الأزَلِيَّة هُناكَ، وَذَهَبَتْ ولايَةُ الشَّأْنِ الإلهِيِّ بالخَرْج، طائِرُ عنقاءِ السَّلْطَنَةِ بَسَطَ الظِّلَّ على الرُّسُلِ أوَّلاً، ثُمَّ على المُلُوْك، ثُمَّ على الرِّجالِ العُلَماءِ، وَرِجالُ وِلايَةِ الخِداعِ عَرِفُوا التَّفْكِيرَ مِنْ عالِمٍ، وَعَدُّوا المَخَرَقَةَ والنِّفاقَ مَعَ المَلِكِ مِنْ بُعْدِ النَّظَر، وَهُمْ حِيْنَ يَذْهَبُونَ بِهذا الطَّرِيْق، لا بُدَّ لَنا مِنَ السَّعْيِ وِفْقَ الحالِ في ضَبْطِ أُمُوْرِ السِّياسَة، وَأَخَذوا وبالَغُوا في شَدِّ قَوْسِ المَصْلَحَة، فَإذا كانَ

إِصْلاحُ فاسِداتِ هذا المُلْكِ يَذْهَبُ على هذا الشَّكْل، حَتَّى الذَّهابِ مُجَدَّداً لِلْقَرارِ الأَصْل، فَإِنَّهُمْ في كُلِّ وقْتٍ يُعْطُونَ اخْتِلالَ تَرْتِيْب، وَيَعْمَلُونَ اضْطِرابَ تَرْكِيْب، مِمَّا يَجِيْءُ بالنَّظَرِ *كَقِرْطاسٍ مُنَقَّشٍ بِنَقْشٍ خَسِيْسٍ فَيُؤَدِّي حَذْفُهُ إِلى خَرْقِهِ وَفَسادِهِ*،

خِطابُ وَلَدِ المَلِكِ مَعَ الوَزِيْر

وَلَدُ المَلِكِ قالَ: المَلِكُ شَبِيْهٌ بالشَّمْسِ المُشِعَّةِ، والرَّعِيَّةُ شَبِيْهَةٌ بالسُّرُجِ المُضِيْئَةِ، فَهُناكَ حَيْثُ تَضْرِبُ الشَّمْسُ بالسَّيْفَ، سِنانُ شُعْلَةِ السِّراجِ لا يُعانِدُ، وَفي مُقابَلَةِ أَنْوارِهِ الذَّاتِيَّةِ يُسْلِمُ نُورَهُ المُسْتَعار، وَهَكَذا حِيْنَ المَلِكُ يُظْهِرُ آثارَ سَجاحَةِ خُلُقِهِ، وَنَظَرُهُ المَلَكِيُّ يَأْخُذُ التَّعَلُّقَ بالرَّعِيَّة، لا بُدَّ أَنْ يَجِيْءَ لازِما مِنْهُم التَّعَلُّقُ بِعادَاتِهِ، وَعُمُومُ الخَلَلِ في طَبْعِ العَوامِّ يَقْبَلُ الخُصُوص، وَقالُوا الزَّمانُ كائِنٌ فِيْ قَلْبِ السُّلَطان، لا يَدُورُ حَتَّى يَراهُ هُوَ على أَيَّةِ حال، وَبِكُلِّ شَيْءٍ كانَ لَهُ المَيْلُ لَهُ مال، *إِذا تَغَيَّرَ السُّلْطانُ تَغَيَّرَ الزَّمان*، وَقالُوا لا يَسْتَرْجِعُ إِيْزَد تَعالى النِّعْمَةَ المُعْطاةَ لِقَومٍ ما لَمْ يَرْجِعْ عَنْهُمْ عِنانُ عِنايَةِ المَلِك، كما وَقَعَ لِـ خَرَّه نماه مَعَ بَهرام كُور، المَلِكُ سَأَلَ وَكَيْفَ كانَ ذلِك،

قِصَّةُ خرَّه نماه مَعَ بَهرام كُور

وَلَدُ المَلِكِ قالَ سَمِعْتُ أَنَّ بَهرام كور خَرَجَ يَوْماً للصَّيْدِ في مُتَصَيَّدٍ،

طَلَعَتْ غَيْمَةٌ أَشَدُّ سَواداً مِنْ لَيْلِ انتِظارِ المُشْتاقِيْن لِوِصالَ جَمالِ المَحْبُوب، وَأَشَدُّ سَكْباً لِلماءِ مِنْ عَيْنِ العاشِقِيْنَ تَدْمَعُ مِنْ فِراقِ المَعْشُوق، نارُ البَرْقِ اشْتَعَلَتْ في قِطْنِ السَّحاب، دُخانُ الضَّبابِ أَثارَ رِيْحاً عَنِيْفَةً طَلَعَتْ مِنْ مَهَبِّ المَهابَةِ الإلهِيَّة، مَشْعَلَةُ الشَّمْسِ انْطَفَأَتْ، عَمامَةُ الظَّلامِ السَّوْداءُ غَطَّتْ رَوزَنَةَ الهَواء، الحُجْرَةُ صارَتْ مُظْلِمَةً مِنْ سِتِّ الجِهات،

فالشَّمْسُ طالِعَةٌ في حُكْمِ غارِبَةٍ والرَّأْدُ في مُسْتَتَارِ النَّقْعِ كالطَّفَلِ

حَشَمُ المَلِكِ في تِلْكُما الظُّلْمَةِ والعَتْمَةِ صارُوا مُتَفَرِّقينَ الواحِدُ عَنِ الآخَر، وَهُوَ وَقَعَ بِضَيْعَةٍ مِنْ ضِياعِ تِلْكَ النَّواحي، كانَ بِتِلْكَ الضَّيْعَةِ دَهْقانٌ مِنْ أَغْنِياءِ الدَّهاقِيْن اِسْمُهُ خَرَّه نَماه، كانَ كَثِيْرَ الثَّرْوَةِ والمالِ مِنَ النَّاطِقِ والصَّامِتِ والمَرْكَبِ والمَواشي، كَأَنَّهُ امْتَلأَ وادِيْهِ مِنْ ثاغِيَةِ الصَّباحِ وَراغِيَةِ الرَّواح، نَزَلَ الملِكُ في مَنْزِلِهِ بِهَيْئَةِ المُتَنَكِّر، المُضَيِّفُ المِسْكِيْنُ لا يَعْلَمُ ضَيْفُهُ مَنْ يَكُونُ، لا جَرَمَ لَمْ يَقُمْ بِتَقْدِيْمِ النُّزُلِ اللَّائِقِ بِنُزُولِ المُلُوْك، وَلَمْ يَقُمْ بالخِدْمَةِ الواجِبَةِ لِلْمُلُوك، بهرام كور وإنْ لَمْ يَجْعَلْ ذاكَ ظاهِراً، فَإنَّ تَغَيُّراً في باطِنِهِ جاءَ ظاهِراً، وَجَعَلَ الخاطِرَ مُلْتَفِتاً لِعَدَمِ الإلْتِفاتِ ذاك، عِنْدَ المَساءِ وَقْتَ دَخَلَ الرَّاعي عائِداً مِنَ الصَّحْراء، أَخْبَرَ خَرَّه نماه أَنْ هذا اليَوْمَ الأَغْنامُ أعْطَتْ لَبَناً أَقَلَّ مِنَ المُعْتاد، خَرَّه نماه كانَ يَمْلِكُ بِنْتاً عَذْراءَ ذاتَ

طَبْعِ جَمِيْلٍ وَوَجْهٍ طاهِرٍ، جَمالُ صُوْرَتِها كانَ يُخْبِرُ عَنْ كمالِ مَعْناها كما تَحْكي نَظافَةُ الظَّرْفِ عَنْ لَطافَةِ الشَّراب، قالَتْ لَهُ إنَّهُ مُمْكِنٌ أنْ تَكُونَ النِّيَّةُ لِمَلِكِنا صارَتْ سَيِّئَةً مَعَ الرَّعِيَّة هذا اليَوْم، فَجَعَلَ حُسْنَ النَّظَرِ مُنْقَطِعاً عَنَّا، فَهُوَ عَمِلَ التَّأْثِيْرَ في قَطْعِ الشِّياهِ اللَّبَنَ، *وَإِذا هَمَّ الوالي بالجَوْرِ على الرَّعايا أَدْخَلَ اللهُ النَّقْصَ في أَمْوالِهِم حَتَّى الضُّرُوْعِ والزُّرُوْعِ*، فالصَّوابُ أَنَّنا نَصِيْرُ بَعِيْدِيْنَ عَنْ هذا المَكانِ وَنَطْلُبُ لِلَمُقامِ مَكاناً آخَرَ، قالَتِ البِنْتُ إنْ كُنْتَ تُرِيْدُ فِعْلَ هذا وَأنتَ لَكَ في البَيْتِ الكَثِيْرُ مِنْ أَلْوانِ الشَّرابِ وَأَنْواعِ الطَّعامِ وَلَذائِذِ الإدام، وَحِيْنَ النَّقْلِ يَجِبُ تَرْكُ بَعْضٍ مِنْ ذاكَ في المَكانِ للتَّخْفِيْف، ثُمَّ الأولى أنْ تَصْرِفَ شَيْئاً مِنْ ذاكَ بالتَّعَهُّدِ لِهذا الضَّيْف، الدَّهْقانُ عَمِلَ الإجابَةَ بالأمْر، أَعَدُّوا خُوانَ الطَّعامِ بالتَّكَلُّفِ وَوَضَعُوهُ أمامَ بَهْرام كُور، وَمِنْ شَرابٍ خِلْتَهُ مِنَ اللَّوْنِ عُقِدَ عَلَيْهِ لَوْنُ عارِضٍ وَرَقِ الوَرْد، وَنُقْلٍ قُلْتَ حَلاوَةُ ذاكَ أُعْطِيَتْ طَعْمَ قُبْلَةِ سُكَّرِ الشِّفاه، وَمِنَ التَّرْتِيْبِ وَكما يَكُونُ الرَّسْمُ جاءَ بالخِدْمَةِ لِبَهرام كُور، الدَّهْقانُ شَرِبَ كَأْساً وَأَعْطاهُ واحِدَةً، وجَعَلَ الوَقْتَ بالأَخْذِ والعَطاءِ وَقالَ، هذِهِ اللَّيْلَةَ لِكُلِّ كاسٍ حاسٍ، نَتَعامَلُ مَعَ مَجِيْءِ البَخْت، لِنَرى ما سَتَلِدُ هذِهِ اللَّيْلَةُ الحُبْلى، حِيْنَ مَرَّ دَورانِ أَوْ ثَلاثَةٌ، تَأْثِيْرُ الشَّرابِ سَحَبَ جِلْبابَ الحَياءِ عَنْ رَأْسِ مُطْرِبَةِ الطَّبِيْعَة، وَصارَ أَقْرَبَ لِيُلْقِيَ لِلْخارِجِ سِرَّ خاطِرِ النَّفْسِ كالعاشِقِيْن،

مَضى بِها ما مَضى مِنْ عَقْلِ شارِبِها
وَفـي الـزُّجـاجَـةِ باقٍ يَطْلُبُ الباقي

وَفي أَثْناءِ المُناوَلاتِ وَتَضاعِيْفِ تِلْكَ الحالات، قالَ بهرام كور للدَّهْقان أنْ إنْ كُنْتَ تَمْلِكُ جارِيَةً حَسْناءَ الوَجْهِ نَكُونُ قانِعِيْنَ مِنْها بالمُشَاهَدِة، وَنُحَرِّرُ النَّفْسَ بِمُؤانَسَتِها مِنْ وَحِشَةِ الغُرْبَة، لا يَكُونُ ذاكَ عَنْ لُطْفِكَ غَرِيْباً، الدَّهْقانُ نَهَضَ وَدَخَلَ في حِجابِ حَرِيْمِهِ، عَلِمَ أَنَّ بِنْتَهُ بِوِقايَةِ الصِّيانَةِ وَتَمْلِكُ زِيْنَةَ النَّفس، مُتَحَلِّيَةٌ بِأَكْثَرَ مِنْ ذاك، أنْ لَوْ هُوَ أَجْلَسَها لإقامَةِ هذِهِ الخِدْمَةِ، كانَتْ خَسارَةٌ، وَوَجْهُ عِصْمَتِهِ الَّذي لَمْ تُصِبْهُ عَيْنٌ يَصِيْرُ وَصْمَةً،

وَمُقَرْطَقٍ نَفَثاتُ سِحْرِ لِحاظِهِ   أَعْيَيْنَ كُلَّ مُعَزِّمٍ وَطَبِيْبِ
أَخْلاقُهُ يُطْمِعْنَ فِيْهِ وَصَوْتُهُ   يُغْنِيْهِ عَنْ مُتَحْفِّظٍ وَرَقِيْبِ

ثُمَّ قالَ لابْنَتِهِ أنْ يَجِبُ عَلَيْكِ أنْ تَجْلِسي ساعَةً أَمامَ هذا الضَّيْف، وَأنْ تُسْكِني رَغْبَتَهُ بِلُقْيَةٍ مِنْ لِقائِك، البِنْتُ صارَتْ مُنْقادَةً لِلأَمْر، وإِلى جِوارِ الشَّاهِ ذَهَبَتْ كما لَوْ قُلْتَ الشَّمْسُ دَخَلَتْ في إِيْوانِ جَمْشِيْد، أو أَنَّ نَظَرَ بَهْرامَ جاءَ على الزُّهْرَة، الشَّاهُ بِتَفَرُّجِ النَّظَرِ مِنْ ذاكَ المَنْظَرِ الرُّوْحانِيِّ جَعَلَ النَّفْسَ راضِيَةً، وَبِلَطائِفِ مُشافَهَتِها ارْتاحَ مِنْ أَلَمِ الدَّهْر، وَبالتَّرَنُّمِ تَحْتَ اللِّسانِ قالَ الحالَ، وَأَنْشِد،

أنتِ بِيَدي ولا أَجْـرُؤُ أمُدُّ إِلَيْكِ يَدي
أَلَما للظَّامِئِ الَّذي يَمُوتَ على الماء

قَدَمُ القَلْبِ مِنَ الشَّاهِ نَزَلَتْ بالطِّيْنِ كما لَمْ تَنْزِلْ مَجَرَفَةُ الدَّهْقان، كذلِكَ بِذاكَ الطِّيْنِ كانَ يَدْهَنُ عَيْنَ الشَّمْسِ، وَيَلْعَبُ خَرْزَةَ عِشْقِ ذاتِ عِذارِ الزُّهْرَةِ تِلْك، عَسى زاوِيَةُ خاطِرِها تُظْهِرُ التِفاتاً لِذاك، أَنْ حِيْنَ أَذْهَبُ لِلْبَيْتِ آخُذُ هذِهِ البِنْتَ في حِبالَتي، وَمَعَ أَبِيْها اللَّائِقِ بِهَذِهِ الخِدْمَةِ أَعْمَلُ الإِكْرام، مَعَ الفَجْرِ إِذْ مَعْجَرُ اللَّيْلِ بِلَونِ القِيْرِ دُهِنَ بِلَبَنِ شُعاعِ النَّهار، ذاكَ الرَّاعي عَيْنُهُ عادَ مِنَ الصَّحْراءِ ثانِيَةً، وَعَنْ كَثْرَةِ لَبَنِ تِلْكَ الأَغنامِ قالَ حِكايَةً، حَتَّى جَعَلَ المُسْتَمِعُونَ إِصْبَعَ الحَيْرَةِ باقِيَةً بالأَسْنان، قالَ الأَبُ والبِنْتُ رُبَّما كانَ نَجْمُ السَّعْدِ عَطَفَ عِنانَ عاطِفَةِ الشَّاهِ إلى جِهَتِنا، وَجَعَلَ قَضِيَّةَ سُوْءِ العِنايَةِ مُنْعَكِسَةً، وإِلَّا فَلَبَنَ الأَغْنامِ الَّذي كانَ لَيْلَةَ الأَمْسِ مِنْ مَجْرى العادَةِ مُنْقَطِعاً، ما المُوْجِبُ لإِعادَةِ ذاكَ هذا اليَوْم، يَقُولُ هذا وَهُوَ عَنْ ذاكَ بِلا خَبَرٍ، أَنَّهُ يَمْلِكُ تَقْدِيْرَ مَنْبَعِ وَمَغارِ اللَّبَنِ في بَيْتِهِ، وَغَداً بِأَيِّ ثَمَنِ لَبَنٍ يُرِيْدُونَ أَنْ يَحْمِلُوا بِنْتَهُ سُكَّرِيَّةَ الشِّفاهِ لِمَنْزِلِ حَرِيْمِ الشَّاه،

لا يَبْرَحُ الدَّهْرُ تَأْتِيْنا عَجائِبُهُ   مِنْ رائِحِ غَيْرِ مُعْتادٍ وَمُبْتَكِرِ

بَهرام كُور حِيْنَ وَصَلَ إلى مُسْتَقَرِّ دَوْلَتِه، أَمَرَ بِمُكافاةِ تِلْكَ الضِّيافَةِ وَأَنْ يُكْتَبَ مَنْشُورُ تِلْكَ القَرْيَةِ مَعَ إِضافاتٍ كَثِيْرَةٍ باسْمِ الدَّهْقان، وَأَنْ

تُجْلَبَ ابْنَتُهُ بالإكْرامِ والإجْلالِ، في لِباسِ التَّمْكِيْنِ وجَلالِ التَّزْيين، مِنْ بَعْدِ عَقْدِ القِرانِ أمامَ الشَّاه، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ وَلِتَعْلَمَ أنَّ الزَّمانَ تَبَعاً لِنيَّةِ الشَّاهِ يَعْمَلُ بِهذِهِ الصِّفَة، والمَلِكُ الَّذي لَيْسَ قَلِيْلَ الأَذى بالطَّبْعِ ولا يَمْلِكُ حُسْنَ العَمَلِ وَذَلاقَةَ اللِّسانِ وَطَلاقَةَ المُحَيَّا مَعَ الرَّعِيَّةِ يَجِدُ طَرِيْقَ التَّفَرُّقِ بِفِرَقٍ، والنُّفُورُ مِنْ قَرِيْبٍ وَبَعِيْدٍ يَجِيْءُ لازِماً، وانْظُرْ إلى المُصْطَفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ الَّذي هُوَ في أَكْمَلِ الكَمالاتِ على أَفْضَلِ الحالات، كَيْفَ خُوْطِبَ بِهذا الخِطاب، *وَلَوَ كُنْتَ فَظّاً غَلِيْظِ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك*، وَحِيْنَ فردٌ واحِدٌ يَصِيْرُ مَوْسُوماً بِذَنْبٍ، لا يَأْمُرُ الملِكُ بالعُقُوْبَةِ العامَّة، *ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى*، فَإنَّ حال الرَّعِيَّةِ بِذاكَ يَنْتَهي آخِرَ الأمْرِ بالإسْتِئْكال، وَيَقْصِدُ كُلّاً للاِسْتِئْصال، حَتَّى بِذَنْبِ البَيْتِ يَأْخُذُوا القَرْيَةَ، وَبِذَنْبِ القَرْيَةِ يَأْخُذُوا المَدِيْنَةَ، وَبِذَنْبِ المَدِيْنَةِ يَأْخُذُوا البِلاد، لَوْ أنَّ المُلُوكَ وَأُولي الأَمْرِ السَّابِقِيْنَ كانُوا ذَهَبُوا على هذا السِّياق، ما قَبِلَ سِلْكُ أُمُورِ المُلْكِ الاِتِّساق، وَما وَصَلَ العالَمُ المَعْمُورُ مِنَ المُتَقَدِّمِيْنَ لِلْمُتَأَخِّرِيْن، وَإذا وَجَبَ لِلْمَلِكِ أنْ تَكُونَ لَهُ شَرائِطُ العَدْلِ مَرْعِيَّةً، وأَرْكانُ العَدْلِ مَعْمُوْرَةً، جاءَ بِعُمَّالٍ يَكُونُ الرِّفْقُ والمُداراةُ غالِباً على أَخْلاقِهِم، لا يَجْعَلُ واحِدُهُمُ نَفْسَهُ مَغْلُوْبَ الطَّمَعِ وَمَغْمُوْرَ الهَوى، وَيَكُونُ دائِماً مَعَ الفِكْرِ مِنَ العَواقِبِ والمُساءَلَة، وَيَجِبُ العِلْمُ أَنْ لَيْسَ لِلْمَلِكِ عَنْ مِثْلِ أولاءِ العُمَّالِ العارِفِيْنَ بالعَمَلِ مِنْ حِيْلَة، فالمَلِكُ مَثَلاً يَمْلِكُ مَنْزِلَةَ

الرَّأْسِ وَهُمْ بِمَثابَةِ البَدَن، وَرَغْمَ أنَّ الرَّأْسَ كانَ أَشْرَفَ عُضْوٍ مِنِ الأَعْضاء، فإنَّهُ كانَ العُضْوَ الأكْثَرَ احْتِياجاً لِلأَعْضاء، فَفِيْ كُلِّ حالَةٍ إذا لَمْ تَجِئْ مِنْ آلَةٍ مِنَ الأَعْضاءِ آلَةٌ بالعَمَل، لا يَكُونُ للرَّأْسِ التَّعَلُّقُ بِحُصُولِ أَيِّ غَرَضٍ، وَما لَمْ تُحَرِّكِ القَدَمُ رِكابَ الحَرَكَةِ لا يَصِيْرُ مُمْكِناً للرَّأْسِ الذَّهابُ إلى أَيِّ مَقْصَدٍ، وما لَمْ تَصِرِ اليَدُ مَعَ الرَّأْسِ في عِنانٍ واحِدٍ، لا تَقْدِرُ الرَّأْسُ على القَصْدِ لِتَناوُلِ أَيِّ مَقْصُود، وَهَكذا يَكُونُ شَرْطاً للرَّأْسِ في تَحْصِيْلِ أَغْراضِ النَّفْسِ سَلامَةُ وَصِحَّةُ الجَوارِح، وَلِكُلِّ جارِحَةٍ مِنْ مَبْدَأِ الخَلْقِ عَمَلٌ مُتَعَيِّنٌ، فَيَجِبُ لِلْمَلِكِ عُمَّالٌ وَوُكَلاءُ يَكُونُونَ بِرَأْيٍ صَحِيْحٍ وَعَمَلٍ صَحِيْحٍ، وَيَكُونُونَ بِجَمْعِ الثَّوابِ وَحُبِّ الثَّناءِ وَبُعْدِ النَّظَرِ، وَيَكُونُوْنَ بالتَّفْكِيْرِ بالعَواقِبِ وَتَرْبِيَةِ العَدْل وَرِعايَةِ الرَّعِيَّةِ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ على جادَةِ الإِنْصافِ راسِخُ القَدَمِ، وَمَشْغُولٌ بِحِفْظِ وَرِعايَةِ حَدِّ شُغْلِ النَّفْس، لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَقامٌ مَعْلُوْمٌ وَحَددٌّ مَحْدُوْدٌ، حَتَّى لا يَمُدَّ القَدَمَ زِيادَةً عَنْ بِساطِ حَدِّ النَّفْس، وَلِيَجْرِيَ طَوْعاً وَهَيِّناً نِظامُ أَسْبابِ المُلْك، والشَّاهُ كَرِيْمُ الأَعْراقِ لَطِيْفُ الأَخْلاقِ الَّذي لا يَكُونُ خَوَلُهُ وَخَدَمُهُ على هذِهِ الشَّاكِلَة، يَكُونُ عاجِزاً عَنْ نَيْلِ ذاكَ العَسَلِ المُصَفَّى، فَمِنَ الخَوْفِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ مِنْ حَوْلِهِ، لا يَقْدِرُ يَصِلُ لِصَفْوِ ذاكَ الشَّراب،

رُضابُهُ الشَّهْدُ لَكِنْ عَزَّ مَوْرِدُهُ وَخَدُّهُ الوَرْدُ لَكِنْ جَلَّ مَجْناهُ

وَعَلى المَلِكِ أَنْ يَحْفَظَ بِهِمَّةِ الحالِ سَبِيْلَ الرَّشادِ وَسُنَنَ الاِعْتِيادِ مِنَ الآباء، وَكُلُّ مَنْ مَنَعَ ذاكَ وَصَلَ لَهُ ذاكَ الَّذي وَصَلَ لِذاكَ الذِّئْبِ المُحِبِّ للطَّرَب، المَلِكُ سَأَلَ وَكَيْفَ كانَ ذاكَ،

قِصَّةُ الذِّئْبِ المُحِبِّ للطَّرَبِ مَعَ الرَّاعي

وَلَدُ المَلِكِ قالَ، سَمِعْتُ أَنَّ ذِئْباً كانَ يَمِلِكُ الوَطَنَ في أَجَمَةٍ، وَفِيْ يومٍ مِنَ الأَيَّامِ طافَ كَثِيْراً حَوالَي المُتَصَيَّدِ الَّذي كانَ مَحَلَّ كَسْبِ رِزْقِهِ، وَرَمى حَبْلَ الطَّلَبِ إلى كُلِّ صَوْبٍ، على أَمَلِ أَنْ يُلْقِيَ صَيْداً في الحِبالَة، وَلَمْ يَصِرْ مُيَسَّراً، وَفي ذلِكَ اليَوْمِ كانَ راعٍ بِجِوارِ مَوْطِنِهِ يَرْعى قَطِيْعَ شِياه، كانَ الذِّئْبُ يَنْظُرُ مِنْ بَعِيْدٍ، وَكَيْ يَأْخُذَ الذِّئْبُ بِحَلْقِ شاةٍ، كانَتْ غُصَّةُ حِمايَةِ الرَّاعي تَأْخُذُ بِحَلْقِ الذِّئْب، لَمْ يَكُنْ يَرى نَصِيْباً مِنَ القَطِيْعِ غَيْرَ الغُبار، ضَغَطَ على أَسْنانِ الاِفْتِقارِ وَقال،

أرى ماءً وَبي عَطَشٌ شَدِيْدٌ   وَلَكِنْ لا سَبِيْلَ إلى الوُرُوْدِ

***

أَبَداً ما كانَ أَنْدَرَ مِنْ هذه الحال

أَنا ظامِئٌ وَأمامي يَجري الماءُ الزُّلال

وَقْتَ اللَّيْلِ حِيْنَ راعي القَطِيْعِ ساقَ القَطِيْعَ جِهَةِ البَيْت، تَخَلَّفَ عَنِ القَطِيْعِ جَدْيٌ، عَيْنُ الذِّئْبِ وَقَعَتْ على الجَدْي، ظَنَّ أَنَّهُ رَبَطَ غَزالَةَ مَرْجِ الفَلَكِ إلى حَمائِلِ سَرْجِهِ، أَغارَ الذِّئْبُ قاصِداً الْجَدْي، وَحِيْنَ رأى الجَدْيُ نَفْسَهُ أَسِيْراً في أَنيابِ النَّوائِب، عَلِمَ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ التَّفْكِيْرُ بِوَجْهِ الخَلاصِ إِلَّا بِلُطْفِ الاِحْتِيال، وَفي الحالِ قامَ باسْتِقْبالِ الذِّئْبِ بِقَدَمِ التَّجاسُر، وَمُكْرَهاً لا بَطَلاً ذَهَبَ أَمامَهُ وَقال، الرَّاعِي أَرْسَلَني إِلَيْكَ وَهُوَ يَقُولُ لَكَ، أنْ هَذا اليَوْمَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنا مِنْكَ أَيُّ أَذىً، الذِّئْبُ مِنْ نَفْسِهِ تَرَكَ عادَةَ الخَطْفِ مِنْ قَطِيْعِنا، دُوْنَكَ ثَمَرَةَ تِلْكَ السِّيْرَةِ الحَسَنَةِ، والفِكْرِ الحَسَنِ، والحُرْمَةِ الَّتي رَعَيْتَ لَنا، ضَعْني كَلَحْمٍ على وَضَمٍ مُهَيَّئٍ وَمُهَنَّئٍ أمامَ عَيْنِ مُرادِك، وَأْمُرْني أنْ أَعْزِفَ لَكَ لَحْنَ الغِناء، وَأَنْ أَعْزِفَ النَّغَمَ الجَمِيْلَ، حَتَّى مِنْ هَزَّةٍ وَنَشاطِ ذاكَ وَقْتَ تَأْكُلُني، الأَكْلُ الَّذي تَأكُلُ يَجِيْءُ مُوافِقاً للذَّوْقِ أَكْثَر، وَيْجْعَلُ الطَّبْعَ أَفْضَلَ أَكْثَر، الذِّئْبُ ذَهَبَ في جُوالِ عَشْوَةِ الجَدْي، وكالضَّبُعِ صارَ بِأَسْرِ مَقالِهِ، أَمَرَ أَنْ يَفْعَلَ ذلِكَ كَذلِكَ الجَدْي ، الجَدْيُ في لَحْنِ أَلَمِ الواقِعَةِ، والشِّكايَةِ مِنْ حَرْقِ الحادِثَةِ، أَطْلَعَ لَحْنَ الأَنِيْنِ مِنَ الصَّدْرِ عالِياً هكذا، حَتَّى وَقَعَ صَدى ذاكَ مِنْ سَفْحِ الجَبَلِ في أُذُنِ الرَّاعِي، أَمْسَكَ الرَّاعي العَصا باليَدِ بِإِحْكام، وَكالرِّيْحِ جَرى إلى رَأْسِ الذِّئْب، وَأَشْعَلَ النَّارَ في حَقْلِ تَمَنِّيْه، الذِّئْبُ هَرَبَ مِنْ هُناكَ إلى رُكْنٍ، وَخائِباً

خاسِراً، وَضَعَ الرَّأْسَ على رُكْبَةِ التَّفَكُّر، أَنْ هذا الَّذي أنا فَعَلْتُ، أَيُّ إِمْهالِ جاهِلِيْنَ وَإِهْمالِ عاجِزِيْن،

القِطَطُ تَمْلِكُ الحلْق وَتَمْلِكُ المَخْلَبَ   ولا تَتْرُكُ المَجالَ لِلْفَأْرِ للرَّقْص

لِماذا تَرَكْتُ المَجالَ لِلْجَدْيِ لِيَخْدَعَني، حَتَّى بِدَمْدَمَةِ هكذا خِداعٍ وَسِحْرٍ أَخَذَ مِنْ يَدِي عِنانَ النُّهْمَةِ، وَجَعَلَ عِفْرِيْتَ عَزِيْمَتي في الزُّجاجَة، أَبِي حِيْنَ كانَ يَجِدُ الطُّعْمَةَ وَيَحْصَلُ على اللُّقْمَة، مِنْ أَيْنَ كانَ لَهُ المُطْرِبُونَ حَسَنُو الصَّوْت، والمُغَنُّوْنَ مُنْشِدُو الغَزَل، حَتَّى يَعْزِفُوا أَمامَهُ الأَلْحانَ الجَمِيْلَةَ، وَيُنْشِدُوا لَهُ الغَزَلِيَّاتِ الكَسْرَوانِيَّةَ على الخُوان،

وَعاجِزُ الرَّأْيِ مِضْياعٌ لِفُرْصَتِهِ   حَتَّى إِذا فاتَ أَمْرٌ عاتَبَ القَدَرا

أنا مِنْ أَجْلِ ذاكَ قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ سَحْبَ اليَدِ مِنْ أُسْلُوْبِ الأَسْلافِ صِفَةٌ ذَمِيْمَةٌ، وَعاقِبَةُ ذاكَ وَخِيْمَةٌ، وَالسِّياسَةُ لِلْمُلْكِ المَوْرُوثِ لَيْسَتْ كالَّتي لِلْمُلْكِ الْمُكْتَسَب، ذاكَ أَنَّ الَّذي أَخَذَ المُلْكَ اكْتِساباً بِعَوْنِ عَضُدِهِ، وَسَقى غَرْسَةَ المُلْكِ بالماءِ مِنْ عَيْنَ السَّيْف، لا بُدَّ أَنَّهُ عَرِفَ مَوارِدَ وَمَصادِرَ ذاكَ الأَمْر، وَعَلِمَ مُقْتَضَياتِ الحالِ والمَآل، ثُمَّ في الغَلْقِ والفَتْحِ والأَخْذِ والدَّفْعِ، والرَّفْعِ والوَضْعِ، لائِقٌ بِهِ يَكُونُ راتِقَ وَفاتِقَ الأَمْرِ، أَمَّا ذاكَ الَّذي بِلا مُعاناةِ الطَّلَب، وَمُقاساةِ

التَّعَب، مِنْ حَيْثُ يَحْتَسِبُ ولا يَكْتَسِبُ، يَصِلُ لِلْمُلْكِ، والآخَرُونَ يُلْقُونَ المَصْنُوْعَ والمَعْمُولَ في مُرادِهِ، وَيَضَعُونَ مَفاتِيْحَ تَدْبيْرِ الدَّوْلَةِ فَجْأَةً في كُمِّ تَدْبِيْرِهِ، إذا عَبَرَ عَنْ رُسُومِ وَحُدُوْدِ السَّابِقِيْن، وَتَخَطَّى بالخُطْوَةِ جادَّتَهُمُ المَحْدُوْدَةَ، وَجَدَتْ أَنْواعُ الخَلَلِ الطَّرِيْقَ لِمَباني الْمُلْكِ والدَّوْلَة، وَمِنْ قِلَّةِ مُبالاتِهِ، في ذاكَ التَّغافُلِ والتَّواني، صارَ لازِماً كَثْرَةُ الخَرابِ في أَساسِ المَمْلَكَة،

وَما لِعِضاداتِ العُرُوْشِ بَقِيَّةٌ إذا اسْتُلَّ مِنْ تَحْتِ العُرُوْشِ الدَّعائِمُ

خِطابُ الوَزِيْرِ مَعَ وَلَدِ المَلِك

الوَزِيْرُ مِنْ هذا الحَدِيْثِ الرَّصِيْنِ جاء بِصَخرَةِ العَجَبِ بالأَسْنان، وَمِنْ غَيْظِ الحالَةِ نارُ غَضَبِهِ أَطْلَعَتْ لَهَباً، جَعَلَ طَوِيْلاً اللِّسانَ بِلا مُسامَحَة، وَقَالَ أَنَّهُ يَبْدُو أَنَّ وَلَدَ المَلِكِ قامَ بِجَمْعِ بِضْعِ رِواياتٍ كُلُّها تَزْوِيْرٌ وَخِداعٌ، مِنْ أَجْلِ تَشْوِيْرِ الحالِ مِنِّي، وَتَقْرِيْرِ المَقالِ مِنْهُ، وَيَجِبُ العِلْمُ أَنَّ الأَعْداءَ لِلْمَلِكِ كانُوا على نَوْعَيْنِ، الأَوَّلُ ضَعِيْفٌ وَخَفِيٌّ، والثَّانِيْ ظاهِرٌ وَقَوِيّ، والضَّعِيْفُ لَيْسَ لَهُ قُوَّةُ المُقاوَمَة، وَضَرْبَةُ قَبْضَةِ المُلاطَمَة، يُظْهِرُ النَّفْسَ في شِعارِ الدِّيانَةِ وَقِلَّةِ الأَذى والصِّيانَةِ وَحُسْنِ العَمَلِ، لِعَيْنِ النَّاظِرِيْنَ للظَّاهِر، حَتَّى هَوى دَوْلَةِ المَلِكِ يَصِيْرُ بارِداً في قَلْبِ الرَّعايا، ويَصِيْرُ مُرادُهُ حاصِلاً، ثُمَّ يَجِبُ

لِلشَّاهِ بِذلِكَ أنْ يَسْعى أَلَّا يَرْبِطُوا خَلَلَ وُجُوْدِ هذِهِ الطَّائِفَةِ بِخِلالِ المُلْك، وَأنْ يَحْفَظَ ثَوبَ عُمُرِهِ مِنْ شِرارِ صُحْبَةِ مِثْلِ هَؤلاءِ الأَشْرار،

خِطابُ وَلَدِ المَلِكِ مَعَ الوَزِيْر

وَلَدُ المَلِكِ قالَ أَنْ ذاكَ الَّذي يُظْهِرُ النَّفْسَ صاحِبَ دِيْنٍ، وَيَطْلُبُ تَرْوِيْجَ بازارِ النَّفْس، إنَّما يَفْعَلُ ذاكَ إِمَّا لِأنَّ أَسْبابَ مَعِيْشَتِهِ غَيْرُ مُهَيَّأَةٍ، وَكانَ وَسَطَ وُجُوهِ وَأَعْيانِ الرِّجالِ غَيْرَ مَذْكُوْرٍ وَغَيْرَ مَنْظُوْرٍ بالوَجاهَةِ بِأَيِّ وَجْهٍ، فاتَّخَذَ مِنْ لِباسِ التَّشَنُّعِ والتَّصَنُّعِ شَبَكَةً لِمُرادِ النَّفْس، أوْ أَنَّهُ رَأى جَرِيْمَةً على جَرِيْدَةِ أَعْمالِ النَّفْس، وَعَلِمَ بِوُقُوْعِ شَيْنٍ على وَجْهِ عَمَلِهِ، فلا يُمْكِنُ مَحْوُ وَإِزاحَةُ ذاكَ إِلَّا بِإِراءَةِ التَّدَيُّنِ والتَّنَسُّك، وَإِمَّا مِنْ خَوْفِ عَدُوٍّ لا يَكُوْنُ دَفْعُ سِلاحِ طَعْنِهِ مُمْكِناً إِلَّا بِإِظْهارِ الصَّلاح، وَبِحَمْدِ اللهِ طَهارَةُ الذَّيْلِ وَنَقاوَةُ الجَيْبِ مِنْ هذِهِ المَعاني مُقَرَّرٌ وَمُصَوَّرٌ، والعِرْضُ عَنْ هذِهِ المَعارِضِ ومَلابِسِ التَّلْبِيْسِ مُسْتَغْنٍ، أَمَّا حِيْنَ أَنْظُرُ في بِدايَةِ وَنِهايَةِ هذا العالَمِ، وَعَنْ يَومِ المَعادِ لِحاكِمِ العالَمِيْن، أُفَكِّرُ لِلشَّاهِ بِقَتْلِ الحِرْصِ والغَضَبِ بِقَدَمِ العَقْلِ، وَأَعْرِفُ أنَّ قَطْعَ رَأْسِ الشَّهْوَةِ الَّذي يَطْلُعُ مِنْ ياقَةِ فُضُولِ الحاجَةِ بِيَدِ النَّفْسِ أولى، عَسى في وَقْتِ الحِسابِ، *يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُون*، لا يَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ يُلْقُونَ الرَّأْسَ مِنَ الخَجالَة، وَأنا لا أُرِيْدُ مِنْ هذِهِ الفُصُولِ إِلَّا ثَباتَ أُصُولِ المُلْكِ، إِذْ بُنْيانُ ذاكَ مَبْنِيٌّ

على عُمْرانِ الرَّعِيَّة، والمَلِكُ العالِمُ هُوَ ذاكَ الَّذي يُحَافِظُ على قاعِدَةِ خَوْفِ وَرَجاءِ الرَّعِيَّةِ مُمَهَّدَةً، كَيْما فاعِلُ الذَّنْبِ يَكُونُ دائِماً مَعَ الخَوْفِ، وَيَصُونُ أحْوالَ النَّفْسِ، وَيُراقِبُ مَواضِعَ سَخَطِ الشَّاه، وَيَكُونُ مُرْتَبِطاً بِفِعْلِ الخَيْرِ بِأَمَلِ المُجازاة، وَيَسْلُكُ طَرِيْقَ الخِدْمَةِ الحَسَنَةِ، وَيَطْلُبُ صِدْقَ الهَوى، وَيَعْرِفُ نُجْحَ مساعي النَّفْسِ في تَقْدِيْمِ مَراضي الشَّاه، وَراعي الخَلْقِ يَجِبُ أنْ يَكُونَ دائِماً شَبِيْهاً بِمِنْشارِ الحَصادِ الثَّقِيْلِ يَذْهَبُ بالاِسْتِقامَةِ جِهَةَ النَّفْسِ وَجِهَةَ الرَّعِيَّةِ، حَتَّى كما يَجْني مِنْهُمْ مَنْفَعَةَ المالِ مَعَ النَّفْسِ، يُحافِظُ على بابِ المُجامَلَةِ والمُساهَلَةِ مَفْتُوحاً لَهُمْ مِنَ النَّفْس، وَيَعْرِفُ مِنْ هذا المَعْنى الحَقِيْقَة،

الشَّاهُ خاطِفُ المالِ مِنَ الرَّعِيَّة
طَلا السَّقْفَ واقْتَلَعَ أَصْلَ الجِدار
الأَسْبابُ للشَّاهِ كائِنَةٌ مِنَ الرَّعِيَّة
فَمُ البَحْرُ يطْلُبُ الماء مِنَ الأَنْهار
كَوْنُ المُلْكِ خراباً والكَنْزِ عُمْراناً
لَيْسَ غَيْرَ طَرِيْقِ الظَّالِمِيْنَ الأَشْرار

ولكِنْ حَيْثُ أنَّ الوَزِيْرَ لا يُمْضِي مَراسِمَ المَعْدَلَةِ بِهذا الشَّكْل، لا يَكُونُ حاصِلاً مِنْهُ إِلَّا انْفِصامُ عُرْوَةِ المُلْكِ وانْهِدامُ عُمْدَةِ الدَّوْلَةِ، *والمُلْكُ يَبْقى مَعَ الكُفْرِ ولا يَبْقى مَعَ الظُّلْم*،

خِطابُ الوَزِيْر مَعَ وَلَدِ المَلِك

حِيْنَ الوَزِيْرُ رأى مِنْ وَلَدِ المَلِكِ فَيْضَ فَتْحِ بابِ البَيان، وَسَمِعَ مِنْهُ فَصْلَ خِطابِ الكلام، عَلِمَ أنَّ مِيْزانَ امْتِحانِ، *يُكْرَمُ الرَّجُلُ أَوْ يُهان*، يُرِيْدُ يَجْعَلُ جِهَةَ وَلَدِ المَلِكِ لِسانَ الرَّجَحان، شُعْلَةٌ مِنْ نارِ عَذابِ باطِنِهِ اشْتَعَلَتْ بِعُذْبَةِ لِسانِهِ، وَقالَ، وَلَدُ المَلِكِ بالكلامِ أَوْصَلَ المُغالَبَةَ لِلْمُبالَغَة، وَخَتَمَ المُكاشَحَةَ بالمُكافَحَة، وَتَوَهَّمَ أَنَّ سَبَبَ الإِغْماضِ على عَثَراتِهِ المُهَذِّرات، مَهارَةُ فَنِّهِ وَغَزارَةُ عِلْمِهِ، وإِنَّما هُوَ عَظَمَةُ وَحِشْمَةُ المَلِك، وَإِنَّ اجْتِنابَ مَوَاقِعِ سُوْءِ الأَدَبِ لَيَضَعُ خَتْمَ الصَّمْتِ على اللِّسان، وَقالُوا: قَوِيُّ الحالِ الَّذي هُوَ بِلا جُرْأَةٍ، وَجَمِيْلُ الوَجْهِ الَّذي لا يَمْلِكُ المَلاحَة، والشُّجاعُ الَّذي لَمْ يَشْتَبِكْ بالقِتالِ مَعَ العَدُوّ، والغَنِيُّ الَّذي لَمْ يَعْمَلِ الجُوْد، والعالِمُ الَّذي ما عَرِفَ مَقامَ التَّحَرُّز، وَصاحِبُ النَّسَبِ الَّذي لَمْ يَتَحَلَّ بالحَسَبِ والأَدَب، أولئِكَ لا يَجِيْءُ أَيٌّ مِنْهُمْ بِأَيِّ عَمَل،

فَأَخْلاقُهُمْ بالمُخْزِياتِ رَهائِنٌ　　وَأَعْراضُهُمْ لِلْمُرْدِياتِ حَصائِدُ
تَقَهْقَرُ عَنْ نَيْلِ المَعالي خُطاهُمُ　　فَسِيَّانَ ساعٍ لِلْمَعالي وَقاعِدُ

خِطابُ وَلَدِ المَلِكِ مَعَ الوَزِيْر

وَلَدُ المَلِكِ قالَ، الوَزِيْرُ باسْتِماعِ هذا الحَدِيْثِ الَّذي عَلَيْهِ إِجْماعُ الأَمَمِ

واتِّفاقُ عُقَلاءِ العالَم، بِهذِهِ الخُصُوْمَةِ وهذا الجِدالِ شَبِيْهٌ بِذاكَ الجَوادِ الحَرُوْنِ الَّذي لا يُظْهِرُ الحَرَنَ كَيْ لا يَأْكُلَ ضَرْبَةَ السَّوْط، وَبِذاكَ الوَلَدِ الَّذي حِيْنَ يَصِيْرُ بالمَكْتَبِ مِنَ الخَوْفِ مِنْ سَوْطِ المُعَلِّمِ يَسْحَبُ القَدَمَ في ثَوْبِ التَّأَدُّب، وَحِيْنَ يَجِيْءُ خارِجاً مِنَ المَكْتَبِ يَفْصِلُ عِقالَ العَقْل، وَيَعُوْدُ مِنْ جَدِيْدٍ لِطَبْعِ الوَلَد، وَبِذاكَ الحِمارِ الأعَرَجِ الَّذي طالَما بَقِيَ مُرْتاحاً يَرْعى بِمَرْعى العَلَفِ، أوْ بَقِيَ مُرْتاحاً على المَرْبَطِ بِلا عَمَل، يَظْهَرُ صَحِيْحاً بِلا عَرَجٍ، وَحِيْنَ يَرى الأَلَمَ القَلِيْلَ مِنْ تَحَمُّلِ حِمْلِ الأَوْقارِ يَجِيْءُ بِعَيْبِ عَرَجِهِ ظاهِراً، وَحَيْثُ أَنَّهُ إلى الآنَ ما كُشِفَ القِناعُ عَنْ أَحْوالِهِ، يُظْهِرُ كُلَّ الرَّزانَةِ والثَّباتِ، وَحِيْنَ نَضَعُ قَدَماً أَعلى مِنْ حَدِّ الحُرْمَةِ، يُظْهِرُ مِزاجَ التَّأَبِّي الَّذي لَهُ عَلَيْهِ التَّرَبِّي، وَنَحْنُ ما دُمْنا أَغْلَقْنا طَرِيْقَ التَّسامُحِ والتَّصالُحِ، نَقُولُ الحَدِيْثَ مَفْتُوحاً أَكْثَرَ، عُمَّالُ الشَّاهِ الَّذِيْنَ لا يَمْلِكُونَ خارِجَ سِمَةِ خِدْمَةِ الشَّاهِ شَرَفاً آخَرَ، صِفاتِيَّاً وَذاتِيَّاً، إِذا أَجْلَسْتَهُمْ بِيَوْمِ العُطْلَةِ والعُزْلَةِ، كانُوا شَبِيْهِيْنَ بِتِلْكَ المَرْأَةِ المُتَجَمِّلَةِ المُتَكَحِّلَةِ، الَّتي رُفِعَتْ عَنْها الزِّيْنَةُ العارِيَة، وَأظْهَرَتْ قُبْحَ وَجْهِها، وَبِذاكَ الجِدارِ المُنَقَّشِ الَّذي الَّذي عَكْسُ تَصاوِيْرِهِ يَجْعَلُ العَيْنَ حائِرَةً، وَحِيْنَ تَغْسِلُهُ بِأَقَلِّ قَدْرٍ مِنَ الماءِ لا تَرى إِلَّا الطِّيْنَ الأَسْوَدَ، وَقالُوا *لا تَمْدَحَنَّ خَسِيْساً بِمَرْتَبَةٍ نالَها مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقاقٍ فَإِنَّها تَحُطُّهُ عَمَّا كانَ عَلَيْهِ وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ كَثُرَتْ ذُنُوْبُهُ وَظَهَرَتْ عُيُوْبُهُ وَصارَ مُوالِيْهِ مُعادِياً وَمادِحُهُ هاجِياً*، والمَلِكُ الَّذي مِنْ

مَقابِحِ أَفْعالِ العامِلِيْنَ وَمَخازي أَحْوالِهِم، يَرْبِطُ رِفادَةَ التَّعامي على عَيْنِ بَصِيْرَةِ النَّفْس، وَيُرِيْدُ أنْ يَعْمَلَ العَمَلَ بالتَّمَحُّلِ والتَّعَلُّلِ، أَشْبَهَ ذاكَ الثَّعْلَبَ راكِبُ الحِمار الَّذي بالجَهْلِ صارَ مَقْتُولاً، المَلِكُ قالَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القَصَّة،

قِصَّةُ الثَّعْلَبَ راكِبِ الحِمار

قالَ وَلَدُ المَلِكِ سَمِعْتُ أَنَّ ثَعْلَباً كانَ يَمِلِكُ المَنْزِلَ بِجِوارِ بُسْتانٍ، وَفي كُلِّ يَوْمٍ كانَ يَدْخُلُ بالبُسْتانِ مِنْ ثُقْبٍ بالجِدار، وَيَأْكُلُ الكَثِيْرَ مِنَ العِنَبِ وَمِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ، وَيُحْدِثُ خَراباً، حَتَّى صارَ البُسْتانيُّ في ضَيْقٍ مِنْهُ، وَفِيْ يَوْمٍ أَدْخَلَ الثَّعْلَبَ في نَوْمِ الغَفْلَةِ وَسَدَّ مَنْفَذَ ثُقْبِ الجِدارِ سَدَّاً مُحْكَمَاً، وَأَدْخَلَ الثَّعْلَبَ في شِباكِ البَلاء، وَبِضَرْبٍ مِنْ عَصاهُ جَعَلَهُ فاقِدَ الوَعْي، الثَّعْلَبُ جَعَلَ مِنَ النَّفْسِ مَيِّتاً، وَهكذا رَفَعَهُ البُسْتانِيُّ بالمَرْوَد وأَلْقاهُ خارِجَ البُسْتان،

إِنَّ ابْنَ آوى لَشَدِيْدُ المُقْتَنَصْ   وَهْوَ إِذا ما صِيْدَ رِيْحٌ في قَفْصْ

حِيْنَ أَفاقَ مِنْ تِلْكَ الصَّدْمَةِ وَعادَ إلى النَّفْس، مِنَ التَّفْكِيْرِ بِجَوْرِ البُسْتانِيِّ تَرَكَ جِوارَ البُسْتان، وَذَهَبَ يَسْحَبُ القَدَمَ وَيَعْرُجُ، كانَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِذِئْبٍ كانَ يَسْكُنُ في أَجَمَةٍ، الذِّئْبُ صارَ إلى جِوارِهِ وَحِيْنَ رآهُ

سَأَلَهُ، ما مُوْجِبُ هذا المَرَضِ وما هذا الضَّعْفُ بِهذا الشَّكْلِ والعَجْزُ، قالَ الثَّعْلَبُ،

جَناحِي إِذا رُمْتُ النُّهُوْضَ مَهِيْضُ وَحَبَّةُ قَلْبي لِلْهُمُومِ مَغِيْضُ
فَلَوْ أَنَّ ما بي بالحَدِيْدِ أَذابَهُ وَبالصَّخْرِ عادَ الصَّخْرُ وَهْوَ رَضِيْضُ

هذا الَّذي جَرى مِنْ الوَطْأِ بالأَقْدامِ مَنَ الحَوادِثِ، أَحْوالٌ لا طاقَةَ لِسَمْعِ المُحِبِّيْنَ بِسَماعِها، بَلْ لَوْ قَرَأْتُها على قَلْبِ الأَعْداءِ مِنَ الصَّخْرِ لَصارَ لَيِّناً كالشَّمْعِ، ولاحْتَرَقَ لِي، مَعَ كُلِّ هذا لَمْ تَكُنْ شِدَّةٌ لي مِثْلَ رَغْبَةِ المُلاقاة، رُؤْيَتُكَ لَمْ تَكُنْ فَأَوْقاتُ العُمْرِ في خَيالِ مُلاقاتِكَ على قَلْبِي كانَتْ تَمْضي مُنَغَّصَةً، إلى أَنْ داعِيَةُ الاِشْتِياقِ بَعْدَ تَحَمُّلِ داهِيَةِ الفِراقِ جاءَتني بالخِدْمَة، قالَ الذِّئْبُ، *إِنَّ الحَبِيْبَ إِذا لَمْ يُسْتَزَرْ زارَا*، أَيُّ شَيْءٍ لِلْحَبِيْبِ أَفْضَلُ مِنْ دَيْدَنِ الحَبِيْب، جِئْتَ مَسْرُوراً وَجِئْتَ بالمَسَرَّات، وَأَيَّةُ تُحْفَةٍ سَماوِيَّةٍ وَوارِدَةٍ رُوْحانِيَّةٍ في مُقابَلَةِ هَذِهِ المَسَرَّةِ وَمُوازَنَةِ هَذِهِ المَبَرَّةِ أَنَّكَ أَظْهَرْتَ فَجْأَةً جَمالَكَ المُبارَك، وَفَتَحْتَ تَجْعِيْدَ الهَمِّ عَنْ جَبِيْنِ مُرادِنا،

أَحْياكُمُ اللهُ وَحَيَّاكُمُ ولا عَدا الوَابِلُ مَغْناكُمُ
فَما رَأَيْنا بَعْدَكُمْ مَنْظَراً مُسْتَحْسَناً إِلَّا ذَكَرْناكُمُ

وَهَكذا صَارَ يَحْنُوْ عَلَيْهِ بِأنْواعِ المُلاطَفاتِ، والتَّعاطُفُ الَّذي نَهَضَ مِنْ تَعارُفِ الأَرْواحِ في عالَمِ الأَشْباحِ جاءَ في الوَسَط، الذِّئْبُ قالَ أنا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ كُنْتُ أَصِيْدُ وَآكُلُ، واليَوْمَ حَيْثُ وَصَلَ مِثْلُكَ ضَيْفٌ عَزِيْزٌ، وَلَيْسَ لَنا مِنْ حاضِرٍ لِنُحْضِرَهُ، لا بُدَّ لِيْ مِنَ الذَّهابِ للصَّحْراءِ عَلِّي أَقْدِرُ أنْ أَجْعَلَ صَيْداً في قَيْدِ المُراد، *وَشَبْعُ الفَتى لُؤْمٌ إِذا جاعَ ضَيْفُهُ*، الثَّعْلَبُ قالَ، أنا لِي في هذا الجِوارِ مَعْرِفَةٌ بِحِمارٍ، سَأَذْهَبُ وَأُلْقي بِهِ في مَخالِبِ قَهْرِك، لِيَكُونَ لَنا طُعْمَةً لِعِدَّةِ أَيَّام، قالَ الذِّئْبُ إنْ كُنْتَ تُظْهِرُ مِثْلَ هذِهِ الكَفالَةِ ولا كُلْفَةَ، *بِسْمِ الله*، الثَّعْلَبُ ذَهَبَ مِنْ هُناكَ، وَصَلَ إلى بابِ قَرْيَةٍ، رأى حِماراً واقِفاً بِبابِ الطَّاحُون، أَخَذَ عَنْهُ الحِمْلَ الثَّقِيْلَ، وَقَدْ دُقَّتْ قَوائِمُهُ الحَمَّالَةُ الأَرْبَعُ مِنْ ثِقَلِ الأَحْمال، تَوَقَّفَ بِجِوارِهِ وَسَأَلَهُ عَنْ أَلَمِ زَمانِهِ وَقالَ لَهُ أَيْ أَخُ إلامَ تَظَلُّ مُسَخَّرَ ابْنِ آدَمَ، وَتَظَلُّ رُوْحُكَ تُسْحَقُ في هذا العَذاب، قالَ الحِمارُ لا أَعْرِفُ لِهذِهِ المِحْنَةِ حِيْلَةً، قالَ الثَّعْلَبُ إنَّ لِي في هذِهِ النَّواحي الوَطَنَ في مَرْجٍ، عَكْسُ خُضْرَةِ ذاكَ يَقَعُ عَلى قُبَّةِ خَضْراءِ الفَلَك، مُتَنَزَّهٌ أَعْذَبُ مِنْ عَيْشٍ مَعَ الفَرَح، وَصَحْراءٌ لَوْنُها زائِدٌ عَنْ قَوْسِ قُزَح، مِثْلَ دَوْحَةِ طُوْبى وُحُلَّةِ الحَوْرا، أَخْضَرُ وَطَرِيٌّ،

تَأَزَّرَ فِيْهِ النَّبْتُ حَتَّى تَمايَلَتْ رُباهُ وَحَتَّى ما ترى الشَّاءَ نُوَّما

وَهُوَ مِنْ آفَةِ الوَحْشِ والفَخِّ خالي الأَطْراف، وَمِنَ الفَسادِ وَزَحْمَةِ السِّباعِ والسَّوامِّ فارِغُ الأَكْناف، إنْ كُنْتَ تَعْمَلُ الرَّأْيَ أَنْ نَذْهَبَ هُناكَ، وَكِلانا بالمُصاحَبَةِ والمُصادَقَةِ، الواحِدُ مَعَ الآخَرِ، بِرَغادَةِ العَيْشِ وَلذاذاتِ العَيْشِ نَحْيا لِآخِرِ العُمْر، هذا الحَديْثُ لِلْحِمارِ وَقَعَ على المَذاقِ والوِفاق، وَأَخَذَ طَرِيْقَ المُشايَعَةِ والمُتابَعَةِ مَعَ الثَّعْلَب، قالَ الثَّعْلَبُ أنا أَتَيْتُ مِنْ طَرِيْقٍ بَعِيْدٍ، لَعَلَّكَ تَحْمِلُني على الظَّهْرِ ساعَةً حَتَّى أَجِدَ الرَّاحَةَ وَنَصِلَ إلى المَقْصَدِ أَسْرَعَ، الحِمارُ صارَ مُنْقاداً، والثَّعْلَبُ قَفَزَ على ظَهْرِهِ، وَظَلَّ بالذَّهابِ حَتَّى وَصَلَ إلى جِوارِ تِلْكَ الأَجَمَة، الحِمارُ نَظَرَ مِنْ بَعِيْدٍ فَرَأى ذِئْباً، قالَ لِلنَّفْسِ، *تَأْتي الخُطُوبُ وَأَنْتَ عَنْها نائِمٌ*، أَيْ نَفْسي الحَرِيْصَةَ، أَنْتِ بِقَدَمِ النَّفْسِ تَسْتَقْبِلِيْنَ المَوْت، وَبِيَدِ االنَّفْسِ تَتَعَلَّقِيْنَ في شِباكِ البَلاء،

لَوْ القَلْبُ مِنْكَ فَكَّرَ التَّفكِيْرَ الحَسَن كانَ جَعَلَ الرُّوْحَ بِالفِكْرِ مُسْرِعاً
إذا مِنْ حَيْثُ وَصَلَ سَحَبَ العِنان جَعَلَ مِنْ أَلْفَ غَمٍّ لَهُ ولِي نَفْعاَ

تَسْوِيْلُ وَتَخْيِيْلُ الثَّعْلَبِ جَعَلَ العِقالَ والرِّباطَ على يَدِ وَقَدَمِ عَقْلي، لَقَدْ أَلْقى في هذِهِ الوَرْطَةِ الخَطَرَ وَخُلابَ الإخْتِلاب، سَأَبْحَثُ عَنِ الحِيْلَةِ للنَّفْس، وَوَقَفَ في مَكانِهِ وَقال، أَيْ ثَعْلَبُ يا لِآثارِ وَأَنْوارِ ذاكَ المَقام، أنا مِنْ بَعِيْدٍ أراها، شُمُومُ الأزاهِيْرِ والرَّياحِيْنِ تَصِلُ لِمَشامِّي، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَمْلِكُ مَأْمَناً وَمَوْطِناً بِهكذا بَهْجَةٍ وَنَضارَةٍ، كُنْتُ أَتَيْتُ

إلى هُنا بِلا مَوْعِدٍ، أنا اليَوْمَ أَرْجِعُ، وَغَداً أَفْرُغُ مِنَ المُهِمَّاتِ وَأَعْزِمُ على المَجِيْءِ إلى هُنا، باخْتِيارِ السَّعْدِ والنَّجْمِ الْمُبارَك، قالَ الثَّعْلَبُ عِنْدِي العَجَبُ، أَيَرْجِعُ شَخْصٌ عَنِ النَّقْدِ بِتَوَهُّمِ النِّسْيَة، قالَ الحِمارُ تَقُولُ حَقّاً، لكِنَّني أَمْلِكُ عَنِ الأَبِ كِتابَ وَصايا، مَوْرُوثاً وَمَشْحُوناً بالفَوائِد، هُوَ يَكُونُ دائِماً مَعِي، وَفِي اللَّيْلِ وَقْتَ النَّوْمِ أَضَعُهُ تَحْتَ وِسادَتي، وَمِنْ دُوْنِهِ يَكُونُ نَوْمِي مُضْطَرِباً، وَأرى خَيالاتٍ فاسِدَةً، سَأَجْلِبُ ذاكَ مَعِي وَأَجِيْء، الثَّعْلَبُ فَكَّرَ أَنْ إذا هُوَ ذَهَبَ وَحِيْداً رُبَّما لا يَعُوْد، مُمْكِنٌ أَلّا يَكُونَ لَهُ باعِثٌ وَمُحَرِّضٌ على المَجِيْء، لكِنْ بِهذا الَّذي يَقُولُ يَجِبُ العَمَلُ على المُطابَقَةِ والمُوافَقَة، أنا أَيْضاً أَرْجِعُ، وَأُرْجِعُ عِنانَ عَزِيْمَتِهِ عَنِ الطَّرِيْق، ثُمَّ قالَ لَهُ قُلْتَ حَسَناً، العَمَلُ على نُصْحِ الأَبِ والوِصايَة، إشارَةُ كِفايَة، وَإِنْ كُنْتَ تَذْكُرُ مِنْ تِلْكَ الوَصايا شَيْئاً، لا تَمْنَعْ عَنِّي فائِدَةَ الإسْتِماعِ والإِبْلاغ، قالَ الحِمارُ هِيَ أَرْبَعَةُ وَصايا، الأولى لا تَكُنْ أَبَداً مِنْ دُونِ كِتابِ الوَصايا ذاك، الثَّلاثُ الأُخْرى لا أَمْلِكُ على الخاطِرِ الآنَ، فَإنَّ في حافِظَتي خَلَلاً، حِيْنَ أَصِلُ إلى هُناكَ أَقْرَأُ عَلَيْكَ ذاكَ مِنَ الكِتاب، قالَ الثَّعْلَبُ، اليَوْمَ نَرْجِعُ، وَغَداً على القَرارِ عَيْنِهِ نَعُوْدُ، الحِمارُ جَعَلَ الوَجْهَ بالطَّرِيْقِ، وَسارَ بِتَمامِ التَّعْجِيْلِ، مِثْلَ جَمَلٍ فُصِلَ زِمامُهُ، وَطائِرٍ تَمَزَّقَتْ شِباكُهُ، حَتَّى وَصَلَ إلى بابِ القَرْيَةِ، قالَ الحِمارُ، تِلْكَ الوَصايا الثَّلاثُ الأُخْرى جاءَتْ لِذاكِرَتِي، أَتُرِيْدُ أَنْ تَسْمَعَها، قالَ تَفَضَّلْ، قالَ النَّصِيْحَةُ الثَّانِيَةُ

كانَتْ، إِذا وَصَلَ إِلَيْكَ سُوْءٌ خَفْ مِنَ الأَسْوَأ، والثَّالِثَةُ لا تَخْتَرِ الصَّدِيْقَ الجاهِلَ على العَدُوِّ العالِمِ، والرَّابِعَةُ كُنْ دائِماً على حَذَرٍ مِنْ جِوارِ الذِّئْبِ وَصَداقَةِ الثَّعْلَب، حِيْنَ سَمِعَ الثَّعْلَبُ هذا عَلِمَ أَنَّ المَقامَ لَيْسَ مَقامَ تَوَقُّفٍ، قَفَزَ عَنْ ظَهْرِ الحِمارِ وَجَعَلَ الوَجْهَ لِلْهَرَب، كِلابُ القَرْيَةِ ذَهَبَتْ فِي إِثْرِهِ، صارَ دَمُ ذاكَ المِسْكِيْنِ هَدْراً، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الأَمْرَ بِتَمادي القَلْبِ على الفِكْرِ الباطِلِ، وَبالتَّسْوِيْفِ والتَّأْمِيْلِ عَنْ سَبِيْلِ الرُّشْد، وَإِظْهارُ التَّمايُل، والإِصْرارُ على ذاكَ لَيْسَ خالِياً مِنَ الإِضْرارِ والإِخْلال، ولا يَلِيْقُ بالمَلِكِ فَتْحُ يَدِ التَّصَرُّفِ والتَّمَكُّنِ الكُلِّيِّ في أَمْرِ المُلكِ لِلْوَزِيْر، وَجَعْلُهُ آمِناً مِنْ عُهْدَةِ المُطالَباتِ دُفْعَةً واحِدَةً، فَمِنْ مُشارَكَتِهِ تِلْكَ بالمُلْك يَجِيْءُ لازِماً أَنْ تُوْلَدَ الآفاتُ الكَبِيْرَةُ.

حِيْنَ وَلَدُ المَلِكِ أَفْرَغَ كِنانَةَ الخاطِرِ مِنْ مَكْنُونِ السِّرِّ وَمَكْتُومِ القَلْب، وَرَمى كُلَّ سَهْمٍ كانَ يَمْلِكُ في جُعْبَةِ الضَّمِيْر، وَفَتَحَ رَأْسَ عَيْبَةِ عَيْبِ الوَزِيْر، المَلِكُ بالأَلْمَعِيَّةِ الثَّاقِبَةِ، والرُّؤْيَةِ الصَّائِبَةِ، اسْتَنْتَجَ أَنَّ كُلَّ ما قالَ وَلَدُ المَلِكِ صِدْقٌ صُراح، وَطَلَبَ طَرِيْقَ النَّجاةِ والنَّجاح، وَصارَ مُحَقَّقاً لَهُ نُقْصانُ وَقُصُورُ الوَزِيْرِ في تَوْفِيَةِ أَداءِ حَقِّ نِعْمَتِه، وَقالَ، *الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ وَعَسْعَسَ الباطِلُ*، ثُمَّ أَمَرَ بالوَزِيْرِ أَنْ يُنْزَلَ عَنْ يَدِ وَمَسْنَدِ الوَزارَةِ، وَأَنْ يُحْمَلَ على قَدَمِ أَهْلِ الذُّلِّ والحَقارَة، وَيُجْعَلَ في

سِجْنِ المُجْرِمِيْن، الَّذِيْنَ أَهْمَلُوا حُقُوْقَ المُنْعِمِيْن، وَأَنْ يُقَيَّدَ، وَأَمَرَ بالأخِ أنْ يُعامَلَ بِلُطْفِ الإكْرام، وتَمامِ التَّوْقِيْرِ والاِحْتِرام، وَقالَ، إذا كُنْتَ اليَوْمَ وَضَعْتَ مِئَةَ أَلْفِ دُرٍّ وَمُرْجان، في جَيْبِنا وَثَوْبِنا مِنَ المَعْنى بِلا أجْرٍ وَبالمَجَّان، وَأَعْطَيْتَ عَطاءَ العِلْمِ وَنَظْمِ الحَدِيْث، وَجَعَلْتَ ظاهِراً عِيارَ إخْلاصِكَ مِنْ عِيارِ الخَصْمِ المَغْشُوْشِ والمَغْلُوْل، الآنَ أُرِيْدُ أنْ أُرْجِعَ قُرْعَةَ الاِخْتِيار، وَعَنْ رُقْعَةِ مَمالِكِ الأَبِ إلى بُقْعَةٍ تَكُونُ مَعْمُوْرَةً، وَبِلُطْفِ الماءِ والهَواءِ مَشْهُوْرَةً، تَصِيْرُ بِها مُتَوَطِّناً، وَتَجْعَلُ مِنْ تِلْكَ مُسْتَقَرّاً للنَّفْس، وَضَعْ هذا الكِتابَ الَّذي طَلَبْتَ وَضْعَهُ وَزَيِّنْهُ، وَأَوْصِلْ كُلَّ ذاكَ الَّذي تَمْلِكُ بالفِكْرِ، مِنْ طَيِّ الإمْكانِ إلى حَيِّزِ الوُجُوْد، حَتَّى يَكُونَ لِغَلِيْلِ الحِكْمَةِ شِفاءً، وَلِعَلِيْلِ العِلْمِ قانُوناً، وَحِيْنَ زَمَنُ السَّعادَةِ يُساعِدُ، أَصِيْرُ مُسْتَأْنِساً بِذاكَ وَمُسْتَفِيْداً مِنْهُ، وَأَعْمَلُ مِنْهُ اسْتِكْمالَ سِياسَةِ المُلْك، وَأُحافِظُ على مِزاجِ المُلْكِ بِرِحالِ الاِعْتِدال، وَيَصِيْرُ الدَّسْتُوْرَ لِعَمَلي في حِفْظِ صِحَّةِ الفِكْرِ مِنِّي، وَيَصِيْرُ كِتابَ عَمَلِ أَخلاقٍ لِلْعالَمِيْن، لا تَجِئْ بِأَيِّ تَوَقُّفٍ، ولا تَجْعَلْهُ مَوْقُوفاً على أَيَّةِ مُقَدِّمَةٍ، ولا تَجْعَلْ جِلْدَ الفِكْرِ خاماً، فَإِنَّهُ، *إذا كَوَيْتَ فَأَنْضِجْ*، وَلَدُ المَلِكِ أَسْرَعَ بِحُكْمِ الأَمْرِ إلى بَيْتِ خَلْوَةِ حُضُوْرِ القَلْب، إلى هذِهِ العَذْراءِ المُخَدَّرَةِ، بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمائَةِ سَنَةٍ وَنَيِّفٍ، مِنْ وُقُوْعِها وَرَاءَ حِجابِ الذُّبُول، وَقَدْ أَثَّرَ بِها عَدَمُ اشْتِهارِها الأَثَرَ الفاحِشَ، فَهِيَ بِأَيَّامِ دَوْلَةِ المَلِكِ، وَسَيِّدِ العالَمِ، تَعُوْدُ للشَّبابِ مِنْ جَدِيْد، وَمِنْ زِيْنَةِ

حَضْرَتِهِ، تَأْخُذُ جَمالاً جَدِيْداً، وَتَقْبَلُ طَراوَةً جَدِيْدَةً، فَلْيَجْعَلْ إِيْزَد تعالى هذِهِ العَتَبَةَ العالِيَةَ، الَّتي هِيَ مَنْشَأُ المَكارِمِ والمَعالي، لِإشادَةِ مَعَالِمِ الفَضْلِ، وَإِحْياءِ رَمَقِ ذاك، وَإِعادَةِ دَوارِسِ العِلْمِ، وَإِبْداءِ رَوْنَقِ ذاكَ، والحِفاظِ عَلَيْهِ مُتَوَفِّراً، وَعلى حَظِّ سَعاداتِهِ مُوَفَّرا، وَأَنْ يَكُونَ على أَعْداءِ الدِّيْنِ والدَّوْلَةِ مُظَفَّراً، بِمُحَمَّدٍ وآلِهِ وَعِتْرَتِهِ الطَّيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْن.

البابُ الثَّاني

في المَلِكِ حَسَنِ البَخْتِ وَوَصاياهُ الَّتي أوْصاها لِأولادِهِ بِوَقْتِ وَفاتِهِ

قالَ وَلَدُ المَلِكِ أنَّهُمْ أَوْرَدُوا أَنَّهُ كانَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ السَّلَف، يَمْلِكُ مِنَ الخَلَفِ سِتَّةَ أولادٍ، الكُلُّ بِسَماحَةِ الطَّبْعِ وَسَجاحَةِ الخُلُقِ وَنَباهَةِ القَدْرِ وَنَزاهَةِ العِرْضِ مَذْكُورٌ وَمَوْصُوف، إِلَّا أَنَّ أَكْبَرَهُمْ كانَ باقِعَةَ القَوْمِ مِنْهُم، وَواسِطَةَ العِقْدِ، أَسْرارُ العِزِّ الإلـهِيِّ أَشْرَقَتْ مِنْ أساريْرِ جَبْهَتِه، وَنُوْرُ النَّظَرِ الإلـهِيِّ أَلْقى الظِّلَّ على الآفاق مِنْ مَنْظَرِهِ وَمَخْبَرِهِ، وَرَأْسُ أُنْمُلَةِ إِيْماءِ العَقْلِ أَعْطَتْ هذِهِ الإشارَةَ مِنْ سَيْمائِهِ،

هذا ابْنُ خَيْرِ مُلُوْكِ الأَرْضِ قاطِبَةً　　فَإنْ حَسِبْتَ مَقالي مُوْهِماً فَسَلِ

حِيْنَ نَوْبَةُ المُلْكِ لِلْمَلِكِ وَصَلَتْ للنِّهايَة، وَهذانِ الفَرَّاشانِ الزِّنْجِيُّ والرُّوْمِيُّ اللَّذانِ نَصَبا خَيْمَةَ كِبْرِيائِهِ على العَرْش، كَتَبا فَرْشَ عُمْرِهِ، وَجاءَ وَقْتُ ذاكَ وَأَنَّهُ يَعْبُرُ مِنْ هذا العالَم، وَيَتْرُكُهُ لِلآخَرِيْن، اسْتَدْعى الأولادَ وَأَجْلَسَهُمْ وَقال، اِعْلَمُوا أَنِّي وَجَدْتُ نَصِيْبَ نَفْسي مِنَ العالَم، أَكَلْتُ ذاكَ الَّذي كانَ مَقْسُوماً لي في الأَزَل، رَأَيْتُ مِنَ الزَّمانِ البارِدَ والحارّ، وَذُقْتُ مِنْهُ المُرَّ والعَذْب، وكُنْتُ دائِماً أَمْلِكُ نُصْبَ عَيْنِ الخاطِرِ تَنْبِيْهَ، *لا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنيا*، وَسَعَيْتُ بِقَدْرِ الوُسْعِ في زَرْعِ الحَسَناتِ لِيَوْمِ الحَصاد، واليَوْمَ إذْ نَجْمَةُ بَقائي صارَتْ سَوْداء،

وَيَوْمُ عُمْري وَصَلَ لِشَمْسِ الفَناءِ الصَّفْراء، وَجاءَتْ أَمامي طَرِيْقٌ لا حِيْلَةَ مِنَ الذَّهابِ بِها، كما قِيْل،

كَيْفَ تُقْطعُ هذي الطَّرِيْقُ للنِّهايَة   وفي أَوَّلِ مَنْزِلٍ مِنْها تُؤخَذُ الرُّوْح

لكِنَّ هذا الذَّهابَ يَظْهَرُ لِي سَهْلاً، حِيْنَ أَتَذَكَّرُ أَنِّي أَمْلِكُ مِثْلَكُمُ الأولادَ اللَّائِقِيْنَ واللَّازِمِيْنَ، ومُظْهِري الفَضْل والأَدَبِ، وَطالِبِي العِلْمِ وَمُقْبِلِي الأَصْل، والآنَ أَطْلُبُ مِنْكُمْ أنْ تَحْفَظُوا وَصاياي في قضايا أُمُوْرِ الدُّنْيا، واعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ وَرْدٍ في البُسْتانِ تَفَتَّحَ عَنِ الأَخْلاق، فَصارَتْ مَشامُّ العَقْلِ مُعَطَّرَةً بِنَسِيْمِ ذاك، اُشْكُرُوا وَحافِظُوا على الشُّكْر، الشُّكْرُ مَجْلَبَةٌ لِمَزِيْدِ النِّعْمَةِ، وَزِيادَةِ المَواهِبِ مِنْ إِيْزَد تَعالى شَأْنُهُ، إِذْ يَحكي عَنْ هذِهِ الصِّفَةِ مِنْ نَفْسِهِ هُناكَ إِذ يُقَرِّرُ في جَزاءِ عَمَلِ العَبِيْد، *إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ شَكُورٌ حَلِيْمٌ*،

قائِلُ الشُّكْرِ طالِبُ الزِّيادَهْ   مِنْ عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَه
غيْرُ ذي اللَّوْنِ وَالوَرَقِ وَالبركار   شاكِرٌ للنِّعْمَةِ وَيَجْزي الشَّاكِرِيْن

وقالُوا، كُنْ شاكِراً لِتَكُونَ بالخَيْرِ لائِقاً، وَمَنْ شَكَرَ القَلِيْلَ اسْتَحَقَّ الجَزِيْل، وَكُنْ صَبُوراً حَتَّى تَكُونَ آمِناً، وَأَعْطِ العَدْلَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى لا يَكُونَ للقاضي مَعَكَ شُغْلٌ، وَبِكُلِّ ذاكَ الَّذي تَعْمَلُ لا تَكُنْ راضِياً عَنِ النَّفْسِ، حَتَّى لا يَتَّخِذَكَ الرِّجالُ عَدُوّاً، وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ

السَّاخِطُونَ عَلَيْه، ولا تَعُدَّ الإسْرافَ والتَّبْذِيْرَ مِنَ الجُوْدِ والسَّخاء، *إِنَّ المُبَذِّرِيْنَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِيْنِ*، ولا تَعْرِفِ البُخْلَ والإمْساكَ مِنْ حُسْنِ التَّدْبير، واحْفَظِ العَدالَةَ ما بَيْنَ كِلْتا الصِّفَتَيْن، وَكما قِيْلَ،

فلا الجُوْدُ يُفْني المالَ والجَدُّ مُقْبِلٌ   ولا البُخْلُ يُبْقي المالَ والجَدُّ مُدْبِرُ

أُسْتاذُ قَصْرِ الأَزَلِ جَعَلَ هذا التَّدْبِيْرَ الحَسَنَ مِنْ أَجْلِك، وَأَعْطاكَ مِيْزانَ تَسْوِيَةِ كِلا الاِثْنَيْنِ بِيَدِك، *ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوْلَةً إِلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ*، ولا تُعْطِ لِلْجَبانِ اِسْمَ الحَلِيْم، *وَحِلْمُ الفَتى في غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ*، ولا تُسَمِّ الكَسَلَ والفَجاجَةَ قَناعَةً، فَهُمْ هكذا نَقَشُوا نَقْشَ عالَمِ الحُدُوثِ في مَعْمَلِ الجَبْرِ والقَدَر، وَأَنْتَ إلى أنْ تَعْقِدَ على الوَسَط لِبابِ فَتْحِ وَغَلْقِ الأَعْمالِ، لَنْ يَنْفَتِحَ لَكَ أَيُّ أَمْر،

بالطَّوافِ حَوْلَ البَحْرِ وَنَهْرِ جَيْحُون   لَسْت بالقادِرِ على طَبْخِ سَمَكَة
الآدَمِيُّ رَغْمَ أَنَّهُ الكَبِيْرُ بالزَّمان   أُتْرُكِ الآدَمِيَّ طَبْخَ الشَّيْطان

واجْعَلِ المَقالَ مُوافِقاً لِلْعَمَل، ولا تَجْعَلْ وَجْهَ حالِ النَّفْسِ بِوَصْمَةِ الخِلافِ وَسِمَةِ الكَذِبِ الأَسْوَدِ، واعْلَمْ أَنَّ الكَذِبَ مَظَنَّةُ الكُفْر، وَضَمِيْمَةُ الضَّلال، حَيْثُ قالَ عَزَّ مِنْ قائِلٍ، *إِنَّما يَفْتَري الكَذِبَ الَّذِيْنَ لا يُؤمِنُونَ بِآياتِ الله*، واعْلَمْ حَقِيْقَةً أَنَّ ذاكَ العَيْبَ الَّذي يَجْلِسُ مِنْ قَوْلِ كَذِبٍ واحِدٍ لا يَرْتَفِعُ بِأَلْفِ صِدْقٍ، وَأَنَّ ذاكَ الَّذي يَصِيْرُ مَنْسُوباً

لِلْكَذِبِ لا يُصَدِّقُوْنَهُ وَلَوْ قالَ صِدْقاً، *مَنْ عُرِفَ بالكَذِبِ لَمْ يُجْزِ صِدْقُهُ*، واسْلُكْ طَرِيْقَ الإِحْسانِ والإِجْمالِ ما اسْتَطَعْتَ مَعَ العَدُوِّ والصَّدِيْق، فَهُوَ أَيْضاً يَزِيْدُ الصَّداقَةَ، وَأَيْضاً يُنْقِصُ العَداوَة،

جامِلْ عَدُوَّكَ ما اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ بالرِّفْقِ يُطْمَعُ في صَلاحِ الفاسِدِ

وَأَيْ أولادُ بِأَيِّ تَأْوِيْلٍ لا تَعْمَلُوا مَعَ السَّيِّئِيْنَ الرِّفْقَةَ، حَتَّى لا يَصِلَ لَكُمْ ذاكَ الَّذي وَصَلَ لِذاكَ الزَّارِعِ مِنَ الحَيَّةِ، وَلَدُ المَلِكِ الأَكْبَرُ الَّذي كانَ دُرَّةَ تاجِ المُلْكِ، وَقُرَّةَ عَيْنِ المَلِكِ قالَ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّة،

قِصَّةُ الزَّارِعِ مَعَ الحَيَّة

قالَ المَلِكُ أوْرَدُوا أَنَّ زارِعاً على سَفْحِ جَبَلٍ كانَتْ لَهُ مَعَ حَيَّةٍ صَداقَةٌ، لَعَلَّهُ عَلِمَ أَنَّ أَبْناءَ الزَّمانِ في لِباسِ تَلْوِيْنِ النِّفاقِ يَمْلِكُونَ صِفَةَ اللَّوْنَيْنِ، وَأَنَّهُمْ بالنُّقْصانِ شَبِيْهُونَ بالحَيَّةِ الكَبِيْرَةِ، وَحِيْنَ طَلَبَ أَصْلَهُ على وَتِيْرَةٍ واحِدَةٍ وَسِيْرَةٍ واحِدَةٍ، وَجَدَ أَنَّهُ لَوْ طَلَبُوا ماهِيَّتَهُ إِلَّا لِلْحَيَّةِ لا يُعْطي نِسْبَةً أُخْرى، بِهذا الاِعْتِبارِ تَعَلَّقَ بِثَوْبِ صُحْبَتِها، وَنَفَضَ ثَوْبَ التَّعَلُّقِ مِنَ المُصاحِبِيْنَ غَيْرِ التَّامِّيْن، القِصَّةُ، في كُلِّ وَقْتٍ يَصِلُ الزَّارِعُ إلى هُناكَ، الحَيَّةُ تَطْلَعُ مِنَ الجُحْرِ، وَبِجُرْأَةٍ تَجِيْءُ أمامَهُ تَتَقَلَّبُ على التُّراب، وَتَلْتَقِطُ لُقاطاتِ الطَّعامِ مِنْهُ على الأَرْض، يَوْماً الزَّارِعُ على عادَتِهِ ذَهَبَ هُناكَ، رأَى الحَيَّةَ مِنْ فَرْطِ البُرُوْدَةِ الَّتي وَجَدَتْ مِنَ

الهَواءِ مُلْتَفَّةً على نَفْسِها، وَقَدْ سَحَبَتِ الرَّأْسَ والذَّنَبَ لِبَعْضِهِما، وَكانَتْ ضَعِيْفَةً وَواهِيَةً وَفاقِدَةً لِلْوَعْي، سَوابِقُ المَعْرِفَةِ وَبَواعِثُ عَهْدِ الخَيْرِ كانَتْ باعِثاً لِلزَّارِعِ على أَنْ يَأْخُذَ الحَيَّةَ وَيَضَعَها في خِرْجٍ وَيُعَلِّقَها على رَأْسِ الحِمارِ حَتَّى تَجِدَ مِنْ أنْفاسِهِ الحَرارَةَ، فَيَجْعَلَ مِزاجَها المُتَجَمِّدَ يَرْجِعُ لِحالِ النَّفْس، رَبَطَ الحِمارَ في نَفْسِ المَكانِ وَذَهَبَ يَطْلُبُ الحَطَبَ، حِيْنَ انْقَضَتْ ساعَةٌ، الحَرارَةُ أَحْدَثَتْ في الحَيَّةِ الأَثَر، وَعادَتْ لِلْنَّفْسِ، وَجاءَ بالعَمَلِ مِنْها خُبْثُ جِبِلَّتِها وَشَرُّ طَبِيْعَتِها، وَلَدَغَتِ الحِمارَ على الشَّفَةِ لَدْغَةً مُؤْذِيَةً للرُّوْح، وَرَجَعَتْ لِلْمَكانِ البارِدِ وَدَخَلَتْ بالجُحْر، *حرامٌ على النَّفْسِ الخَبِيْثَةِ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنيا حَتَّى تُسِيْءَ إلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها*، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أَنْ كُلُّ مَنْ كانَتْ لَهُ الصَّداقَةُ مَعَ السَّيِّئِيْن، صارَ لَهُ السُّوْءُ النَّصِيْبَ مِنْ صَداقَتِه،

أنا ما رَأَيْتُ سَلامَةً مِنَ اللِّئام إِنْ رَأَيْتَ أَوْصِلْ مِنِّي السَّلام

وَأَيْ أولادُ، يَجِبُ في زَمانِ النِّعْمَةِ أَنْ تَذْهَبُوا الواحِدُ مَعَ الآخَرِ على سَبِيْلِ المُواساة، وَإِذا وَصَلَتْ مِحْنَةٌ أَنْ تَصِيْروا الواحِدُ مَعَ الآخَرِ الشَّرِيْكَ والقَسِيْمَ في المُقاساة، وَأَنْ تَرَوا العَوْنَ واجِباً في دَفْعِ شَدائِدِ وَمَكائِدِ الأَيَّام، فَقَد قالُوا، *إِنَّ الذَّلِيْلَ الَّذي لَيْسَ لَهُ عَضُدٌ*، يَعْني أَعْوانَ صِدْقٍ وَإِخْوانَ صَفاء، إِذْ وُجُوْدُهُمْ يَكُونُ مِنْ ذَخائِرِ يَوْمِ الحاجَة، وَمِنْ

عَواصِمِ ضَرْبَةِ الآفَة، وانْظُرْ مِنْ وَخَزِ عَدِيْدِ البَعُوْضِ حِيْنَ بالتَّوازُرِ والتَّعاوُنِ يَعْمَلُ يَداً واحِدَةً، ماذا يَجِيْءُ مِنْهُ على بَدَنِ الفِيْلِ وَهَيْكَلِ الجامُوْس،

كُوْنُوا جَمِيْعاً يا بَنِيَّ إِذا اعْتَرى   خَطْبٌ ولا تَتَفَرَّقُوا آحادا
تَأْبى القِداحُ إذا جُمْعْنَ تَكَسُّراً   وَإِذا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ أَفْرادا

وَلا تَخْتَرِ الغُرَباءَ على الأَصْدِقاءِ القُدَماء الَّذِيْنَ في الخَيْرِ والشَّرِّ جَرَتْ أَحْوالُ تَجْرِبَةِ خِصالِهِم، فَقَدْ قالُوا الشَّيْطانُ المُجَرَّبُ أَفْضَلُ مِنَ الرَّجُلِ غَيْرِ المُجَرَّب، وَخَيْرُ الأَشْياءِ جَدِيْدُها وَخَيْرُ الإِخْوانِ قَدِيْمُها، وَضَعُوا الأَساسَ لِدَوْلَةِ ذاكَ العالَمِ في هذا العالَم، واجْعَلُوا كَسْبَ السَّعادَةِ الباقِيَةَ في هذِهِ الدَّارِ الفانِيَة، واعْمَلُوا عَمَلَ الغَدِ هذا اليَوْم، كما عَمِلَ غُلامُ التَّاجِرِ ذاكَ، وَلَدُ المَلِكِ قالَ، كَيْفَ كانَ ذاك،

قِصَّةُ غُلامِ التَّاجِر

قالَ المَلِكُ أَوْرَدُوا أَنَّ تاجِراً كانَ يَمْلِكُ غُلاماً، الغُلامُ كانَ عالِمَ القَلْبِ وَذَكِيَّاً وَيَقِظَ البَخْتِ، وَكانَ جَعْلَ حُقُوْقَ الخِدْمَةِ الكَثِيْرَةَ ثابِتَةً على السَّيِّدِ، وَأَثْبَتَ المَقاماتِ المَشْكُوْرَةَ، والخَدَماتِ المَقْبُولَةَ والمَبْرُوْرَةَ على جَرائِدِ الزَّمان، يَوْماً السَّيِّدُ قالَ لِلْغُلام، أَيْ غُلامُ، إذا عَمِلْتَ السَّفَرَ في البَحْرِ مَرَّةً أُخْرى وَرَجَعْتَ أَجْعَلُكَ حُرَّاً بِمالِ نَفْسِكَ، وَأُعْطِيْكَ مالاً

وافِراً، تَتَّخِذُ مِنْ كَفافِ ذاكَ زِيْنَةَ عَفافٍ لِنَفْسِك، وَتَجْعَلُ الظَّهْرَ كُلَّ العُمْرِ لِجِدارِ الفَراغَة، الغُلامَ سَمِعَ هذا بالقَبُولِ مِنَ السَّيِّدِ، وَجاءَ بِوَجْهِ التَّقَبُّلِ والتَّكَفُّل، وَأَظْهَرَ في الأَمْرِ الإِقْبال، وَضَعَ الحِمْلَ في السَّفِيْنَة وَجَلَسَ وَقادَ السَّفِيْنَةَ يَوماً وَيَوْمَيْنِ وَثَلاثَةً على البَحْر، فَجْأَةً طَلَعَتْ رِياحٌ مُخالِفَةٌ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، قَلَبَتِ السَّفِيْنَةَ وَكَسَرَتْ زُجاجَ أَمَلِهِ، السَّفِيْنَةُ وَكُلُّ ما كانَ بِها نَزَلَ بالماءِ وَصار غَرِيْقَ الفَناء، وَهُوَ وَصَلَ لِسُلْحُفاةٍ بَحْرِيَّةٍ فَتَعَلَّقَ باليَدِ بِها، وَأَلْقى النَّفْسَ على ظَهْرِها، حَتَّى وَقَعَ بِجَزِيْرَةٍ بِها نَخْلٌ كَثِيْر، وَلِمُدَّةٍ في ذلِكَ المَكانِ كانَ يَأْكُلُ القُوْتَ مِمَّا هُوَ مَقْدُوْر، وَقَدْ جَعَلَ العَيْنَ على طَرِيْقِ مُتَرَقَّباتِ الغَيْب، أَنْ كَيْفَ لُطْفُ إِيْزَد سَيُخْرِجُني مِنْ غَمْرَةِ البلاءِ تِلْك، ولا يَتْرُكُني في وَرْطَةِ الهلاكِ هذِهِ، ألا إِنَّ لُطْفَ اللهِ غادٍ وَرائِحٌ، أَخِيْرَاً لَبِسَ الحِذاءَ بالقَدَمِ وَأَخَذَ الطَّرِيْقَ وَسارَ أَيَّاماً كَثِيْرَةً باللَّيْلِ والنَّهار، حَتَّى ذلِكَ الوَقْتِ إِذْ وَصَلَ إلى جِوارِ مَدِيْنَةٍ، جاءَ ظاهِراً سَوادٌ أَبْهى مِنْ بَياضِ نُسْخَةِ الفِرْدَوْس، وَأَجْمَلَ مِنَ السَّوادِ على بَياضِ العَيْن، عالَمٌ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ جاؤوا خارِجِيْنَ مِنْ تِلْكَ المَدِيْنَة، بِأَسبابِ اللَّهْوِ والبَهْجَةِ، وَأَنْواعِ التَّجَمُّلِ والتَّبَرُّجِ، زَلْزَلَةُ المَواكِبِ في الأَرْضِ، وَحَمْحَمَةُ المَراكِبِ في السَّماء، أَنِيْنُ النَّايِ وَصَوْتُ الكُوسِ والطَّبْلِ مَلَأا دِماغَ الفَلَكِ بالطَّنِيْن، مَنْجُوقُ رايَةٍ على عَيُّوْقِ بُرْدَةٍ، وَهِلالٌ على سَنْجَقٍ رُفِعَ حَتَّى مَنْزِلِ الشَّمْس، الغُلامُ قالَ ما تُرِيْدُوْنَ أَنْ تَفْعَلُوا، قالُوا نُرِيْدُ أَنْ نَطْرِقَ

بابَ المُلْك، لِمَنْ أَعْطَوْهُ هذِهِ المَدِيْنَةَ مِنْ دِيْوانِ القِدَمِ جَدِيْدَةً بإقطاعِه، هذِهِ السَّاعَةَ يَصِلُ مِنْ عَتَبَةِ سَلْطَنَةِ الأَزَلِ، جَوادُ العَزْمِ يَثِبُ الآنَ مِنْ قَنْطَرَةِ الدُّنْيا ذاتِ العُيُونِ الأَرْبَع، هذِهِ اللَّحْظَةَ يَجِيْءُ مِنْ مَنازِلِ بادِيَةِ الغَيْب، يَنْصِبُ الخَيْمَةَ في عالَمِ الظُّهُوْر، وَهذا الَّذي تَرى كُلَّهُ شِعارُ المُلْكِ، وَآثارُ فِعْلِ أَمْرِه، الغُلامُ في ذاكَ التَّعَجُّبِ، كالنَّائِمِ في نَوْمٍ طَوِيْلٍ وَصارَ صاحِياً، مَسَحَ عَيْنَ الحَيْرَةِ، وَقال،

يا رَبِّ أرى هذا باليَقَظَةِ أمْ بالمَنام أنْ أراني بِهَذِهِ النِّعْمَةِ بَعْدَ العَذابِ

تَقَدَّمَ بَعْضٌ مِنْ أولئِكَ القَوْمِ كانُوا يَمْلِكُونَ مَرْتَبَةَ القِيادَةِ وَمَنْزِلَةَ المُقْتَدى، وَضَعُوا أُنْمُلَةَ الخِدْمَةِ على الأَرْض، وَعلى هَيْئَةِ العَبِيْدِ قَبَّلُوا يَدَهُ، وَمِنْ تِلْكَ الجِيادِ السَّوْداءِ سَرِيْعَةِ العَدْوِ الَّتي جالَتْ عَرْصَةَ الخافِقَيْنِ بالخُطى مِرارا، وَمِنْ تِلْكَ الجِيادِ الشَّهْباءِ بَعِيْدَةِ المَيْدانِ الَّتي في مِضْمارِ الضَّمِيْرِ أَخَذَتِ السَّبْقَ على الوَهْم، وَجَوادٌ أَصْفَرُ قُلْتَ كانَ يَرْعى في المَرْجِ الأَخْضَرِ على ضِفَّةِ نَهْرِ الفِرْدَوْس، أَوْ كانَتْ لَهُ التَّرْبِيَةُ بِجِوارِ حَدِيْقَةِ القُدُسِ مَعَ البُراق، في رَأْسِهِ الرَّسَنُ المُرَصَّعُ وَعَلَيْهِ السَّرْجُ المُغَرَّقُ بالتَّعاوِيْذِ المُعَنْبَرَةِ مِثْلَ نَسِيْمِ النِّسْرِيْنِ المُطَيَّب، وَبالقَلائِدِ الذَّهَبِيَّةِ مِثْلَ نِطاقِ الثُّرَيَّا المُكَوْكَب، باللِّجامِ الحَسَن، والسَّيْرِ الحَسَن، يَطْوي الأَرْضَ، يَجُوْلُ كالرِّيْح،

جَوادٌ سَرِيْعٌ مُدَوَّرُ الكِفْلِ كالكُرَه لَهُ قالَبُ زُحَلٍ وَناصِيَةُ الزُّهْرَه

سَحَبُوا الغُلامَ، وَضَعَ القَدَمَ في الرِّكاب، وَساقَهُ بِعِنانِ الإقْبال، حَتَّى وَصَلَ إلى قَصْرٍ شَرْحُ تماثِيْلِهِ وَتَصاوِيْرِهِ لا يُسْتَوْعَبُ بِلِسانِ القَلَم، وَلَوْ أَنَّ ماني وَصَلَ لِرَسْمِ مَنْزِلِهِ لَجَعَلَ مِنَ الغَيْرَةِ مِنَ الإِصْبَعِ القَلَم، وَلَأَخَذَ بِسَكْبِ الدَّمْعِ المُعَصْفَرِ على لازَوَرْدِهِ والإِسْبِيْداج، بُسْتانُ قَصْرِهِ أُنْمُوْذَجُ رِياضِ النَّعِيْم، وَحَوْضُ غَدِيْرِهِ مِنْ حِياضِ الكَوْثَرِ وَتَسْنِيْم، كَأَنَّهُ انْتَقَلَ مِنْ جَنَّةٍ إلى أُخْرى، أَنْزَلُوْهُ هُناكَ، وَنَثَرُوا الكَثِيْرَ مِنَ الدِّرْهَمِ والدِّيْنار، ما مَلأَ كُمَّ وَثَوْبَ الزَّمان، وَكَمْ أَحْرَقُوا مِنْ بُخُوْرِ العُوْدِ والعَنْبَر، ما صارَ يَخْرُجُ دُخانُهُ مِنْ هذِهِ المَجامِرِ السَّبْعَةِ لِلْفَلَك، وَقَدْ حَفِظُوا كُلَّ رَسْمِ احْتِرامٍ وَإِعْظام، والجَمِيْعُ بِلِسانٍ واحِدٍ قالُوا،

قَدِمْتَ قُدُوْمَ البَدْرِ بَيْتَ سُعُوْدِهِ وَأَمْرُكَ عالٍ صاعِدٌ كَصُعُوْدِهِ

أَيْ سَيِّدُ، أنتَ المَلِكُ وَنَحْنُ جَمِيْعاً العَبِيْد، أنتَ تُعْطي الأَمْرَ وَنَحْنُ جَمِيْعاً نُطِيْع، التَّاجُ والتَّخْتُ لائِقانِ بِكَ، وَأَنتَ مِنَ العُمْرِ والبَخْتِ بالِغُ المُراد، فَلْتَأْمُرْ بِكُلِّ ما لَكَ بِهِ الرَّأْيُ، الغُلامُ فَكَّرَ بالنَّفْسِ، أنْ كَيْفَ جاءَ الكَثِيْرُ مِنَ الآلافِ الأَحْرارِ وَدَفَعُوا البَدَنَ لِغُلامٍ، وَجَعَلُوا حَلْقَةَ الطَّاعَةِ لي في آذانِهِم، أنا يَجِبُ عَلَيَّ أنْ أَفْتَحَ عَيْنَ القَلْب، وَأَنْظُرَ حَسَناً في وَجْهِ هذا الأَمْر، حَتَّى أَرى أنْ كَيْفَ وَقَعَ مِثْلُ هذا الاِتِّفاقِ السَّماوِيّ، ومِنْ أَيْنَ لِلَّيْلَةِ الحُبْلى بالحَوادِثِ أنْ تَلِدَ مِثْلَ هذا اليَوْم، ثُمَّ ذَهَبَ على سَرِيْرِ السَّلْوَةِ وَتَخْتِ السَّلْطَنَة،

جَلَسَ وَأَلْفُ نَوْعٍ مِنَ الرِّيْحِ بالرَّأْس   مَنْفَعَةُ أَلْفِ كَيْقَباد في الرَّأْس

جَعَلَ كُلَّ واحِدٍ مَنْصُوباً بِعَمَلٍ، وَجَعَلَهُ مَنْسُوْباً بِخِدْمَةٍ، وَصارَ مَشْغُولاً بِتَرْتِيْبِ الخَيْلِ والخَدَمِ، والجَيْشِ والحَشَم، واخْتارَ واحِداً مِنَ المُقَرَّبِيْنَ كانَ يرى آثارَ حُسْنِ الحِفاظِ، وأماراتِ السِّيَرِ الحَمِيْدَةِ في صُوْرَتِهِ، وَكانَ يُشاهِدُ مَخائِلَ الرُّشْدِ مِنْ شَمائِلِهِ، وَجَعَلَهُ أَعلى دَرَجَةً مِنَ الأَكِفَّاءِ وَأَبْناءِ الجِنْس، حَتَّى صارَ مَحْسُوْداً وَمَغْبُوطاً، اسْتَدْعاهُ أَمامَهُ يَوْماً، أَجْلَسَهُ وَجَعَلَ المَكانَ خالِياً مِنَ الأَغْيار، وَقالَ الآنَ وَقَدْ عَلِمْتُ رُسُوخَ قَدَمِكَ على طَرِيْقِ الصِّدْقِ والإِخْلاص، وَعَرِفْتُ شُمُولَ شَفَقَتِكَ على أَحْوالِ النَّفْس، وَفي حِفْظِ مَناظِمِ الحال، وَضَبْطِ مَصالِحِ المَآل، صارَ حاصِلاً لِي الاِعْتِمادُ عَلَيْكَ بالقَوْلِ وبالفِعْل، وَأَطْلُبُ المَزِيْدَ مِنَ الاِعْتِضاد، أنْ تَجْعَلَني على خَبَرٍ عَنْ حَقِيْقَةِ الأَمْر، حَتَّى أَعْلَمَ صُوْرَةَ الحالِ ما تَكُون، وَلِماذا، وَبِأَيَّةِ واسِطَةِ وَسِيْلَةٍ، وَرابِطَةِ ذَرِيْعَةٍ، جَعَلَ أَهْلُ هذِهِ الوِلايَةِ زِمامَ انْقِيادِهِمْ بِيَدِ أَمْري، وَكَيْفَ فَتَحُوا لي يَدِ الاِسْتِيْلاءِ والاِسْتِعْلاءِ على مَمْلَكَةٍ لا يُمْكِنُ فَتْحُ طَرَفٍ مِنْ أَطْرافِها بالسَّيْفِ البَتَّارِ، والسِّنانِ حامِلِ النَّارِ، والجَيْشِ الجَرَّار، وَما يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ المُوْجِبُ لِهذا الاِخْتِيارِ وَلِهذا الإِيْثارِ، قالَ أَيْ سَيِّدُ سَقَطْتَ على الخَبِيْر، اِعْلَمْ أَنَّهُ كُلَّ سَنَةٍ في هذا الوَقْت، مِنْ هذا الجَانِبِ الَّذي جِئْتَ مِنْهُ، يَجِيْءُ ظاهِراً واحِدٌ، يَجِيْئُونَ بِهِ بِهذِهِ الصِّفَةِ ذاتِها،

وَيُجْلِسُوْنَهُ على أَرْبَعِ وَسائِدِ تَخْتِ الدَّوْلَةِ، إلى أَنْ يُتِمَّ نَوْبَةَ المُلْكِ سَنَةً، يَجْعَلُوْنَ في عُنُقِهِ حَبْلَ الإكْراه، شاءَ أَمْ أبى، وَبِجِوارِ هذِهِ المَدِيْنَةِ بَحْرٌ هائِلٌ، هُوَ بَيْنَ المَدِيْنَةِ والصَّحْراءِ حائِلٌ، يُحْمَلُ إلى هُناكَ، وَتُجْعَلُ وُجْهَتُهُ لِتِلْكَ الصَّحْراء، حَتَّى يَصِيْرَ كالهائِمِ، وَعَلى صِفَةِ البَهائِمِ، وَيَصِيْرُ يَضْرِبُ بالرَّأْسِ وَبالقَدَمِ، بالقَلَقِ وَبالاِضْطِراب،

خَلَعُوا عَلَيْهِ وَزَيَّنُوْهُ وَمَرَّ في عِزٍّ وَرِفْعَهْ
وَكَذاكَ يُفْعَلُ بالجَزُوْرِ لِنَحْرِها في كُلِّ جُمْعَهْ

الغُلامُ أَلْقى الرَّأْسَ لِلأَسْفَلِ ساعَةً بالفِكْر، فَقَدَ التَّدْبِيْرَ وَأَخْطَأَ الظَّنَّ، وَفي البَحْثِ عَنْ حِيْلَةٍ، أَرْسَلَ الخاطِرَ الجَوَّالَ في كُلِّ وُجْهَةٍ، وَفي تَحَرِّيْ جِهاتِ قِبْلَةِ الصَّوابِ، جَرى مُسْرِعاً إلى كُلِّ صَوْبٍ أتى أمامَ عَيْنِ البَصِيْرَة، وَكَيْ يَجِدَ مَخْرَجَ الأَمْرِ، كانَ يَطْلُبُ التَّوَصُّلَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، إلى أَنْ وَجَدَ رَأْسَ حَبْلِ التَّدْبير، الَّذي كانَ أَضاعَهُ الآخَرُون، رَفَعَ الرَّأْسَ وَقالَ، أَيْ خادِمُ الَّذي رَأْيُكَ حَلَّالُ عُقَدِ مُبْهَماتِ الأَغْراض، أنا سَأَجِدُ المَخْرَجَ مِنْ هذا الأَمْرِ، لكِنْ عَنْ عَوْنِكَ، إِنْ كُنْتَ تَجِيْءُ بِرَسْمِ أَداءِ الحَقِّ في المُساعَدَةِ، وَتَتَعَلَّقُ بالإِتْمامِ، الخادِمُ عَقَدَ الحِزامَ بِتَقْدِيْمِ العَمَل، قالَ الغُلامُ الآنَ اجْعَلِ الأُذُنَ لِإِشارَتي، وَبِذاكَ الَّذي آمُرُ لا تَجِئْ بالإِهْمالِ والتَّأْخِيْر، وَبِتَحَمُّلِ المَشاقِّ لِتِلْكَ الحَلاوَةِ الَّتي

بالآَخِرِ سَوْفَ تَصِلُ لِمَذاقِكَ، اِجْعَلِ القَلْبَ نَصْباً قُبالَةَ العَيْن، حَتَّى يَجِيْءَ وَجْهُ المَقْصُوْدِ خارِجاً مِنْ حِجابِ التَّعَذُّرِ بِيُسْرٍ،

عَسى اللهُ يَقْضي ما نَهُمُّ بِنَيْلِهِ فَيَخْتِمَ بالحُسْنى وَيَفْتَحَ بابا

واعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ مُعَظَّماتِ الوَقائعِ، بِغَيْرِ الأَلَمِ والمُثابَرَةِ والذُّلِّ والمُكابَرَةِ، لا يُمْكِنُ الخُرُوْجُ مَعَ دَوْرَةِ الأَيَّام،

النَّمِرُ إِذا أرادَ صَيْدَ صَيْدٍ يَجْعَلُ قامَةَ نَفْسِهِ نَحِيْلَةً

أمامَ العالِمِ لِسانُ شِدَّة الشِّتاءِ يحكيْ القِصَّةَ عَنْ راحَةِ الرَّبِيْع

الآنَ بِجِوارِ هذا البَحْرِ، واجِبٌ صُنْعُ سُفُنٍ كَثِيْرَةٍ، يَجِبُ جَلْبُ كُلِّ أُسْتاذٍ حاذِقٍ وَصانِعٍ ماهِرٍ وَمُهَنْدِسٍ بارِعٍ وَرَسَّامٍ جَمِيْلِ فِعْلِ اليَد، مِنْ ساكِني هذِهِ المَدِيْنَةِ والمُدُنِ الأُخْرى، وَجَعْلُهُمْ يَعْبُرُونَ البَحْرَ، وإِرسالُهُمْ إلى تِلْكَ الصَّحْراءِ، حَتَّى يَجْعَلُوا ذاكَ المَكانَ عِمارَةً، وَيَبْنُوا مَدِيْنَةً، حَتَّى حِيْنَ يَجِيْءُ وَقْتُ الرِّحْلَةِ مِنْ هُنا، نَذْهَبُ إلى هُناكَ وَنَصِلُ إلى ذاكَ المَقامِ الكَرِيْم، وَذاكَ المَكانِ العَزِيْز، بالعَيْشِ المُهَنَّا، والحَظِّ المُسْتَوْفى، وَأَنْ يُخْتارَ لِعَرْصَةِ تِلْكَ الأَرْضِ الطَّاهِرَةِ، وَمَنْبَتِ الجَوْهَرِ، أولئِكَ الَّذينَ يَمْلِكُوْنَ أَهْلِيَّةَ الزِّرْعِ والعَمَلِ، وَجَماعَةٌ مِمَّنْ يَعْرِفُونَ صِناعَةَ الحِراثَةِ والفِلاحَةِ، وَيَعْرِفُونَ حَسَناً رُسُوْمَ الزَّرْعِ والغَرْس، فَلْيَذْهَبُوا إلى هُناكَ، وَكُلُّ ما يَجِيْءُ فاعِلاً مِنَ الآلاتِ والأَدَواتِ والأَسْبابِ الَّتي تَجِبُ لِأَصْحابِ الحِرْفَةِ، أنْ تُوْضَعَ جَمِيْعاً في السُّفُنِ،

وَيَوْماً فَيَوْماً وَساعَةً فَساعَةً، كُلُّ ذاكَ الَّذي تَجِيْءُ لَهُ الحاجَةُ، وَتَكُونُ الأَعْمالُ مَوْقُوْفَةً عَلَيْهِ، أنْ يُوْصِلُوْهُ على التَّواتُرِ، وَكُلَّ ذاكَ الَّذي يَجِبُ صَرْفُهُ في مَصارِفِ المُهِمّاتِ، فَلْيَأْخُذُوْهُ مِنَ الخِزانَة، وَأنْ يَجْعَلُوا أمامَ الخاطِرِ، *لا سَرَفَ في الخَيْر، وَحَبَّذا مَكْرُوْهٌ أَدَّى إلى مَحْبُوْبٍ، وَمَرْحَباً بِأَذىً أَسْفَرَ عَنْ مَطْلُوْب*، الخادِمُ قَبلَ ما دُعِيَ إِلَيْهِ، وَتَقَدَّمَ بِقَدَمِ القَبُولِ، وَصادِقَ العَزِيْمَةِ نافِذَ الصَّرِيْمَةِ، عَقَدَ على وَسَطِ التَّشَمُّرِ، وَأَجْلَسَ طَوائِفَ الصُّنَّاعِ والمُحْتَرِفَةِ، على اخْتِلافِ الطَّبَقاتِ جُمْلَةً في السُّفُن، وَحَمَلَهُمْ إلى هُناكَ، وَأَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ لِلأَساتِذَةِ مَكانٌ مَخْصُوْصٌ، وَأَوَّلاً بَنَوا سُوْرَ المَدِيْنَةِ، ثُمَّ بَنَوا الأَبْنِيَةَ المُرْتَفِعَةَ والقُصُوْرَ العالِيَةَ، والمَناظِرَ مُفَرِّحَةَ القَلْب، بالسَّقْفِ المُقَرْنَسِ، والطّاقِ المُقَوَّسِ، والجُدْرانِ المُلَوَّنَةِ والمُشَبَّكَةِ، كَزُجاجِ الفَلَك، بالأَحْمَرِ والأَصْفَرِ، وجاؤوا بالفُرُشِ الفَيْرُوزِيَّةِ واللّازَوَرْدِيَّةِ، وفي ساحَةٍ كانَتْ مَهَبَّ نَسِيْمِ راحَةٍ، بَنَوا قَصْراً للشّاهِ خاصَّةً، مُضِيْئاً كَأَنَّهُ حُجْرَةُ الشَّمْسِ، وَرُوْحانِيّاً شُرْفَتُهُ رَفَعَتِ الرَّأْسَ على قَصْرِ الفَلَكِ الأَبْيَضِ، شُرُفاتِ إِيْوانِهِ جُعِلَتْ قُبالَةَ مَطامَحِ المُشْتَرِي وَكَيْوان، وَهذِهِ الصِّفَةُ قَرأَ عَلَيْها الزَّمان،

دارٌ على العِزِّ والتَّأْيِيْدِ مَبْناها وَلِلْمَكارِمِ والعَلْياءِ مَغْناها
لَمّا بَنى النّاسُ في دُنْياكَ دُوْرَهُمُ بَنَيْتَ في دارِكَ الغَرّاءِ دُنْياها

وَصَلْتَ المَكانَ لا يَرى لَكَ المُحِيْطَ بِهِ فِكْرٌ وَلَوْ صارَ السِّنِيْنَ جِهَةَ الفَلَك
يَوْمَ كانَ الزَّمانُ يَضَعُ لكَ البِناءَ كانَ مِنَ الشَّمْسِ الفالُ وَمِنَ الزُّهْرَةِ الأَلْحان

ثُمَّ أَشارَ أنْ يُحْدِثُوا بِكُلِّ مَكانٍ حَوْلَ المَدِيْنَةِ المَزارِعَ والضِّياعَ، وَأَنْ يَنْثُروا البُذُوْرَ الكَثِيْرَةَ في الأَرْض، وَأَنْ يَزْرَعُوا الكَثِيْرَ مِنْ أَنْواعِ الحُبُوب، جَعَلُوا الرَّوْضَ بالرَّوْضِ والبُسْتانَ بالبُسْتان، والماءَ العَذْبَ الزُّلالَ الَّذي قُلْتَ جاءَ ظاهِراً مِنْ مَوْضِعِ قَدَمِ الخِضْر، أوْ تَفَجَّرَ مِنْ مُعْجِزَةٍ مِنْ أنامِلِ مُوْسى، وَجَعَلُوْهُ يَجْري في مَجاري وَمَساري ذاك، أَعَدُّوا الرَّوْضَ والمَرْجَ، وَزَيَّنُوا الأَنْهارَ بالأَشْجار، وَغَرَسُوا فَسِيْلَ السَّرْوِ والعَرْعَرِ على أَطْرافِ كُلِّ جَدْوَلٍ وَبُقْعَةٍ، فالرُّبْعُ المَسْكُونُ مِنَ الأَقالِيْمِ السَّبْعَةِ كالرَّبِيْعِ مِنَ الفُصُولِ الأَرْبَعَةِ، عالَمٌ بِلُطْفِ المِزاجِ واعْتِدالِ الطَّبْعِ عُمِلَ تامَّاً، وَجِيْءَ لِتِلْكَ المَدِيْنَةِ بالكَثِيْرِ مِنَ المَفارِشِ والمَطارِحِ والآلاتِ والأَمْتِعَةِ والمَطْعُوْمِ والمَشْرُوْبِ والمَنْكُوْحِ والمَرْكُوْبِ، فلا يُوْصِلُ الزَّمانُ يَدَ الهَلاكِ لِأَمْدادِ وَأَعْدادِ ذاك، وَجَمِيْعُها صارَتْ مُرَتَّبَةً وَمُهَيَّأَةً وِفْقَ المَصْلَحَةِ وَمُقْتَضى الرَّغْبَةِ، وَذاكَ اليَوْمَ الَّذي كانَ آخِرَ السَّنَةِ، وكانَ وَقْتَ الزَّوالِ لِشَمْسِ المَلِكِ، خَلْقُ المَدِيْنَةِ صارُوا مُجْتَمِعِيْنَ بالعَتَبَةِ، حَتَّى على القاعِدَةِ السَّابِقَةِ يَطْرُدُوهُ كالآخَرِيْنَ عَنْ تَخْتِ السَّلْطَنَة، حِيْنَ سَمِعَ خِطابَ ذاكَ الإِلْزامِ والإِرْهاق، رَغْمَ أَنَّهُ كانَ أَكَلَ غَمَّ الأَمْرِ قَبْلَ وُقُوْعِ الواقِعَةِ، وَقَبْلَ الخَطْوِ كانَ نَظَرَ لِمَحَلِّ قَدَمِ

النَّجاة، لكِنَّ جَذْرَ المُؤالَفَةِ والمُؤانَسَةِ الَّذي دامَ سَنَةً بِذاكَ المَوْطِنِ كانَ يُمْسِكُ بِذَيْلِهِ وَكانَ إِخراجُهُ عَسِيْراً،

أَقَمْنا كارِهِيْنَ بِها فَلَمَّا ... أَلِفْناها خَرَجْنا مُكْرَهِيْنا

في الآخِرِ حَمَلُوا الغُلامَ وَأَجْلَسُوْهُ في السَّفِيْنَة، وَمِنَ البَحْرِ أَوْصَلُوْهُ لِجِوارِ الوادي، في الحالِ جَمِيْعُ المُسْتَخْدَمِيْنَ الَّذِيْنَ كانُوا مُسْتَعِدِّيْنَ للاِسْتِقْبالِ وَمُتَرَقِّبِيْنَ لِذلِكَ الإِقْبال، وَكانَتْ عَيْنُهُمْ على طَرِيْقِ قُدُوْمِ الشَّاه، جاؤوا أمامَهُ وَأَقامُوا لَهُ رَسْمَ الخِدْمَةِ والعُبُوْدِيَّةِ، وَهُوَ نَزَلَ بِذاكَ المَحَلِّ لِراحَةِ القَلْبِ، وَوَصَلَ إِلى مُتَنَزَّهاتِ تِلْكَ المَواضِعِ والمَراتِعِ بِمُسْتَقَرِّ السَّعادَةِ، بالعَيْنِ ناظِرَةِ الأَمَلِ والهَواءِ المُضِيْءِ والمُرادِ الصَّافي وَلِباسِ الأَماني المُجَدَّد، وَبِساطَ الدَّوْلَةِ المُمَهَّد، ولا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ هكذا،

مَنْ كانَ يَأْمُلُ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً ... تُنِيْلُهُ قُرَبَ الأَبْرارِ والزُّلَفا
أَوْ كانَ يَطْلُبُ دِيْناً يَسْتَقِيْمُ بِهِ ... ولا تَرى عِوَجاً فِيْهِ ولا جَنَفا

الآنَ أَيْ أَولادُ كُوْنُوا مُسْتَمِعِيْن، واجْعَلُوا الخاطِرَ مُجْتَمِعاً على تَفَهُّمِ رَمْزِ هذِهِ الحِكايَة، واعْلَمُوا أَنَّ ذاكَ الغُلامَ الَّذي جَلَسَ في السَّفِيْنَةِ هُوَ ذاكَ الجَنِيْن، الَّذي مِنْ مَبْدَأِ تَكْوِيْنِ النُّطْفَةِ بِتَلْوِيْنِ حالاتِ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ كانَ يَتَرَدَّدُ في أَطْوارِ الخِلْقَةِ، وَكَذلِكَ يُعْطي القُرْآنُ الخَبَرَ، *ثُمَّ خَلَقْنا*

النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً، إلى ذلِكَ الوَقْتِ الَّذي يَصِلُ بِهِ لِمَرْتَبَةِ تَمامِ الصُّوْرَةِ، وَقَبُولِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ، وَيَصِيْرُ بِكَمالِ الحالِ مُسْتَعِدَّاً لِخِلْعَةِ الخَلْقِ الأُخْرى، *ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ*، يَعْني حُلُوْلَ جَوْهَرِ الرُّوْحِ في المَحَلِّ جِسْمانِيِّ القالَب، وَكَسْرُ تِلْكَ السَّفِيْنَةِ والوُقُوْعُ في الجَزِيْرَةِ والوُصُوْلُ لِجِوارِ المَدِيْنَةِ، وَمَجِيْءُ الخَلْقِ مُجْتَمِعِيْنَ لاسْتِقْبالِهِ، إشارَةٌ لِمَشِيْمَةِ الأُمِّ تِلْكَ الَّتي كانَتْ مُسْتَقَرَّ الطِّفْلِ بِوَقْتِ وَضْعِ الحَمْلِ، لا بُدَّ أَنْ تَصِيْرَ تِلْكَ مُنْخَرِقَةً، وَأنْ تَفْتَرِقَ أَجْزاؤها عَنْ بَعْضِها، لِيَقُومَ بالإنْتِقالِ بَعْدَ انتِهاءِ خَلْقِهِ، وَحِيْنَ يَصِلُ إلى بَوَّابَةِ الحُدُوْثِ على تِلْكَ الحالِ، كَمْ مِنَ الأَشْخاصِ مِنْ أبٍ وَأُمٍّ وَمُوَلِّدَةٍ وَمُرَبِّيَةٍ وَحاضِنَةٍ وَمُرْضِعَةٍ يَقُومُونَ بِتَرْبِيَتِهِ، وَهَلُمَّ جَرَّاً، حَتَّى يَصِيْرَ لِذاكَ المَقامِ، مُرَبَّىً في كَنَفِ كِلاءَتِهِم وَحِجْرِ حِمايَتِهِم وَحِفْظِهِم، وَيَقُومَ بالتَّرَقِّي مِنْ مَنْزِلِ الجَبْرِ والاِضْطِرار، إلى مَقامِ الفِعْلِ والاِخْتِيار، فَإذا كانَتِ الدَّوْلَةُ الأَبَدِيَّةُ قائِداً لَهُ، والتَّوْفِيْقُ الأَزَلِيُّ رائِداً لَهُ، مِثْلَما كانَ لِذاكَ الغُلام، كانَ في كُلِّ لَحْظَةٍ في الفِكْر، أنْ أنا يَوْماً يَجِبُ عَلَيَّ الذَّهابُ مِنْ هُنا، وَسَوْفَ يَكُونَ مَكانٌ آخَرٌ مَوْئِلاً وَمَآباً لي، فَعَمِلَ كُلَّ ما كانَ بالوُسْعِ مِنَ السَّعْي، مِنْ عَمَلِ عَمَلِ ذاكَ المَنْزِلِ، وإِعْدادِ أَسْبابِ ما يَجِيْءُ فاعِلاً في المَنْزِلِ الباقي، ولا يَتْرُكُ باقِياً، وَلَحْظَةً بِلَحْظَةٍ يُرْسِلُ، سابِقاً لَهُ، ذَخائِرَ السَّعادَةِ الأَبَدِيَّة، إلى ذاكَ اليَوْمِ الَّذي يَنْتَهي بِهِ يَوْمُ عُمُرِه، وَيَطْرُدُوْنَهُ

مِنْ هذِهِ الدَّارِ العارِيَة، وَيَحْمِلُوْنَهُ إلى ذاكَ الوادي، الَّذي هُوَ عِبارَةٌ عَنْ عالَمِ الآخِرَة، يَرى مَنْزِلاً مَبْنِيّاً على مُرادِ نَفْسِهِ، وَمُسْتَقَرّاً مُعَدّاً وِفْقَ رَغْبَتِهِ، *وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيْماً وَمُلْكَاً كَبِيْرَاً*، وَإِذا، عِياذاً باللهِ، مِنْ خِدْعَةِ هذا السَّرابِ الغَرُوْر، بَقِيَ في سُكْرِ شَرابِ الغُرُوْر، وَنَزَلَ بِطاقٍ وَإِيْوانٍ مُلَوَّنٍ وَغَيْرِ ثابِتٍ كَخَيْمَةِ قَوْسِ قُزَح، وَصارَ مَخْدُوْعاً بِخَيْمَةٍ كَمَظَلَّةِ حِجابِ السَّحاب، مَمْلُوْءَةٍ بالنَّقْشِ وَمَفْصُوْلَةِ الطَّناب، رَجَعَ مَقْصُورَ الهِمَّةِ على تَطَلُّبِ الحال، وَبَقِيَ عاجِزاً عَنِ التَّأَهُّبِ لِأَمْرِ المَآل، فَإِذا وَصَلَ إلى هُناكَ، لا يَرى إلّا هاوِيَةَ الهَوانِ الدَّائِمِ مَحَلّاً لِلْنَّفْس، وَيَبْقى أَبَدَ الآبِدِيْنَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِيْنَ يَخْبِطُ باليَدِ وبالقَدَمِ في الحَبْسِ عَنْ مُشْتَهى النَّفْس، *أولئِكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِيْن*، وَلَدُ المَلِكِ قالَ، بِهذا الكَلامِ الفَصِيْحِ والنَّصِيْح، مِثْلَ أَنْفاسِ كَلِمَةِ اللهِ المَسِيْح، أَعَدْتَ قَلْبَنا الَّذي كانَ ماتَ مِنْ سِنِيْنَ بَعِيْدَةٍ لِلْحَياة، وَقَطَّرْتَ ماءَ حَياةِ الحِكْمَةِ كالخِضْرِ في حَلْقِ رُوْحِنا، لكِنْ رَغْمَ أَنَّ إِخْوَتي كانُوا عُرَفاءَ وَرُحَماء، أنا لا أَمْلِكُ الاِعْتِمادَ عَلَيْهِم، وَأَنا أَخْشى سَيْلَ تَلْعَتي، حَيْثُ أَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِكَ بِمَعُوْنَةِ البَخْت، وَبِلا تَحَمُّلِ أَيَّةِ مؤونَةٍ، يَضَعُوْنَ القَدَمَ بالكَنْزِ بِسُهُوْلَةٍ، وَفَجْأَةً وَبِلا مَوْعِدٍ سَوْفَ يَصِلُونَ لِلعِيْشَةِ الهَنِيَّةِ والنِّعْمَةِ السَّنِيَّة، فَأَنا أَخْشى أَنْ تَصِيْرَ مَحَبَّتُهُمْ للدُّنْيا سَبَباً لِلْعَداوَةِ بَيْنَنا، وإِذا

كانَتْ هَذِهِ المَعاني في مَكامِنِ نَفْسِ كُلِّ واحِدٍ مَخْفِيَّةً هذا اليَوْمَ، غَداً مِنْ أُمِّ المُلْكِ العَقِيْمِ تُوْلَدُ الفِتَنُ بِلا مَوْعِدٍ،

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوْسِ فَإِنْ تَجِدْ   ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

المَلِكُ في هذِهِ الحالِ إِذْ هُوَ يَمْلِكُ زِمامَ التَّصَرُّفِ باليَد، لَنْ يَتْرُكَني في يَدِ تَصارِيْفِ الزَّمان، وَسَوْفَ يَجْعَلُ المَقامَ في تَوْلِيَةِ المُلْكِ ظاهِراً، وَيَجِيْءُ بالتَّسْوِيَةِ فِيْما بَيْنَنا ظاهِرَةً، وَيَأمُرُ بِإِظْهارِ المَحَجَّةِ الَّتي تَكُوْنُ عَلَيْنا حُجَّةً فارِقَةً، حَتَّى نَمْلِكَ القَدَمَ ثابِتَةً على مَسالِكِ ذاك، وَقَدْ قالَ القَوْمُ العُقَلاءُ، كُلُّ مَنْ قَدِرَ على إِنْقاذِ واقِعٍ وَلَمْ يُنْقِذْهُ، أَصابَهُ ما أَصابَ ذاكَ الفَأْرَ الَّذي صارَ الغَزالُ مُحْتاجاً لَهُ مِنَ العُقاب، قالَ المَلِكُ وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الغَزالِ والفَأْرِ والعُقاب

وَلَدُ المَلِكِ قالَ سَمِعْتُ أَنَّ صَيَّاداً خَرَجَ فِيْ طَلَبِ صَيْدٍ في وَقْتٍ، وَقَعَ في الشِّباكِ الَّتي وَضَعَ غَزالٌ، الغَزالُ المِسْكِيْنُ صارَ يَضْطَرِبُ في الشِّباكِ، وَيَلْتَوِي على النَّفْسِ، وَيَنْظُرُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، حَتَّى وَقَعَتْ عَيْنُهُ على فَأْرٍ كانَ خَرَجَ مِنَ الجُحْرِ وَشاهَدَ حالَهُ، نادى الفَأْرَ بالصَّوْتِ وَقالَ، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَجْرِ بَيْنَنا سابِقَةُ صُحْبَةٍ ورابِطَةُ أُلْفَةٍ، ولا أَمْلِكُ أَيَّ حَقٍّ مِنَ الحُقُوْقِ عَلَيْك، حَتَّى بِذاكَ الوَجْهِ يَجِيْءُ لازِماً

عَلَيْكَ إِظْهارُ مَوْقِفٍ لِتَدارُكِ الحالِ مِنِّي، لَكِنَّني أرى آثارَ حُسْنِ سِيْرَةِ الباطِنِ مِنَ الطَّبْعِ الحَسَنِ والوَجْهِ الغَضِّ، ظاهِرَةً عَلِيْك،

وَجَعَلْتَ عُنْوانَ السَّماحِ طَلاقَةً وَكَذا لِكُلِّ صَحِيْفَةٍ عُنْوانُ

أنا أَتَوَقَّعُ أنْ تَأْخُذَ بِيَدِ هذا الواقِعِ مِنْ صَدْمَةِ النَّوائِب، وَأَنْ تَحُلَّ هذِهِ العُقْدَةَ عَنْ قَدَمي بالأَسْنان، حَتَّى إِذا كانَ خَلاصٌ، أَعُدُّ خِدْمَتَكَ العُمْرَ كُلَّهُ لازِمَةً مِنْ جُذُوْرِ الأَسْنان، وَأَضَعُ طَوْقَ طاعَتِكَ في العُنُقِ، وَأَرْقُمُ لِلأَبَدِ رَقَمَ رِقِّيَّتِكَ على ناصِيَةِ حالي، وَيَصِيْرُ لَكَ الذَّخِيْرَةُ العَظِيْمَةُ مِنَ الإِسْمِ العالي وعُلُوِّ المَنْشَأِ، مُقْتَنىً وَمُثْبَتاً في صَحِيْفَةِ حَسَناتِك،

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ

الفَأْرُ مِنْ ذلِكَ المَكانِ، وَقَدْ كانَ بالدَّناءَةِ الوَخِيْمَةِ، والأَخْلاقِ اللَّئِيْمَةِ، قالَ، حَمْلُ الرَّأْسِ غَيْرِ المَكْسُورِ لِلْقاضي لا يَكُونُ مِنَ العِلْم، أنا أَعْلَمُ حَقارَةَ نَفْسي، وَأَعْرِفُ جَسارَةَ الصَّيَّاد، إِذا وَجَدَ الخَبَرَ عَنْ عَمَلي جَعَلَ مَنْزِلي خَراباً، وَأنا أَكُونُ مِنْ زُمْرَةِ أولئِكَ الجُهَّال، الَّذِيْنَ قِيْلَ عَنْهُم، *يُخْرِبُونَ بُيُوْتَهُمْ بِأَيْدِيْهِم*، وَأنا دائِماً عَنْ أَبِيْ أَتَذَكَّرُ هذِهِ الوَصِيَّةَ دائِماً، *لا تَكُنْ أَجْهَلَ مِنْ فَراشَةٍ*،

الشُّغْلُ الَّذي لَيْسَ شُغْلَكَ لا تَعْمَلْ والطَّرِيْقُ الَّتي لَيْسَتْ طَرِيْقَكَ لا تَسْلُكْ

ثُمَّ أَدارَ الوَجْهَ عَنِ الغَزال، وَتَرَكَهُ هكذا مُقَيَّداً وَمُسَلْسَلاً في قَيْدِ البَلاء، ثُمَّ سارَ خُطْوَتَيْنِ أَوْ ثلاثَةً، أرادَ أنْ يَدْخُلَ في الجُحْرِ، جاء عُقابٌ نازِلاً مِنْ عُقْبَةِ الطَّيَران، أَمْسَكَ الفَأْرَ بالمَخْلَبِ، وَخَطَفَهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْض، وَجاءَ الصَّيَّادُ فَرَأى غَزالاً لا يُمْكِنُ عَمَلُ تَشْبِيْبِ عِشْقِ جَمالِ لَحَظَاتِهِ وَدَلالِ خَطَراتِهِ بِألْفِ غَزَلٍ وَنَسِيْب، وَجَدَهُ عالِقاً في شِباكِهِ، تارَةً يَرى في عَيْنِهِ خَيالَ غَمْزَةِ المَحْبُوْبِيْن، وَتارَةً على عُنُقِهِ زِيْنَةَ حُسْنِ المَعْشُوْقِيْن، فَكَّرَ مَعَ النَّفْسِ، أنْ تُرابُ جِنْسِ هذا الحَيَوانِ أَفْضَلُ مِنْ دَمِ أَلْفِ سافِلٍ مِنْ نَوْعِ الإنْسانِ، أنا سَأَجْعَلُ التُّرابَ في بَطْنِ الحِرْصِ، وَسَوْفَ لَنْ أُرِيْقَ دَمَهُ، حَمَلَ الغَزالَ على الكَتِفِ واتَّجَهَ جِهَةَ البازار، في الطَّرِيْقِ جاءَ أَمامَهُ رَجُلٌ خَيِّرٌ، وَقَعَتْ عَيْنُهُ على ذاكَ الغَزالِ جَمِيْلِ العَيْنِ رَشِيْقِ العُنُقِ، فَكَّرَ أَنْ تَرْكُ مِثْلِ هذا العُنُقِ في دُولابِ البَلاء، وَتَرْكُ مِثْلِ هذِهِ العَيْنِ مُصابَةً بِضَرْبَةِ عَيْنِ الآفَةِ يَبْدُو بَعِيْداً عَنْ مَذْهَبِ المُرُوْءَة، وَرَغْمَ وُجُوْدِ رُخْصَةِ الشَّرِيْعَةِ، أَيَّةُ طَبِيْعَةٍ سَلِيْمَةٍ، وَسَجِيَّةٍ كَرِيْمَةٍ، تَأمُرُ بِإراقَةِ دَمِ الحَيّ، وَخاصَّةً الَّذي لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ مِنْهُ أَيُّ شَرٍ وضَرَرٍ في مَعْرَضِ التَّعَدِّي، اِشْتَرى الغَزالَ مِنَ الصَّيَّادِ بِدِيْنارٍ، وَأَطْلَقَ سَراحَهُ وَحَرَّرَهُ مِنْ مَضِيْقِ الهَلاكِ ذاك، وَقالَ ذاكَ الَّذي حَرَّرَ مِنَ القَتْلِ بِلا ذَنْب، لا يَصِيْرُ أَبَداً مَقْتُولاً بِلا ذَنْب، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاك، حَتَّى المَلِكُ مِنْ قَبْلِ فَواتِ الفُرْصَةِ، يَجِدُ أمْري، وَيَجْعَلُ مَصالِحَ أَحْوالي مِنْ بَعِدِهِ مَعْمُوْلَةً

وَمَنُوْطَةً بالمَحَبَّةِ، حَتَّى تَبْقى مَضْبُوْطَةً، ولا تَصِيْرُ حَبائِلُ المُوالاةِ وَرَوابِطُ المُؤاخاة الَّتي تَكُوْنُ بَيْنَ الإخْوَةِ والأَتراب مَفْصُوْلَةً في غَمَراتِ المُنازَعَةِ بَيْنَنا، قالَ المَلِكُ إنَّ لي مِنَ المُلُوْكِ شامخِي الرَّأْسِ والسَّلاطِيْنِ أَصْحابِ التِّيْجانِ أَصْدِقاءُ كَثِيْرُون، هُمْ في مَضائِقِ الحاجَةِ وَمَصارِعِ الآفَةِ في انْتِعاشِ وارْتِياشِ حالِكَ لا يُبِيْحُونَ التَّقْصِيْر، ولا يَمْنَعُونَ المَدَدَ والإعانَةَ والإغاثَةَ بِوَقْتِ العَجْزِ، لَكِنْ لِي في خُراسانَ صَدِيْقٌ طافَ العالَمَ وَجَرَّبَ العالَمِيْن، مَحْمُوْدُ الأَخْلاقِ مَرْضِيُّ الخِصالِ حَسَنُ العَهْدِ وَرَحِيْمٌ، بِأَصْنافِ العِلْمِ مَوْصُوفٌ، وَبِأَوْصافِ الفَضْلِ مَوْسُوْمٌ، أُسْلِمُكَ لَهُ إِنْ كُنْتَ تُرِيْد، وَفي الحَوادِثِ المُهِمَّاتِ، والعَوارِضِ المُلِمَّاتِ، أَجْعَلُ أَمْرَكَ بِكِفايَتِهِ، قالَ وَلَدُ المَلِكِ أَقْسامُ الصَّداقَةِ مُتَشَعِّبَةٌ، والأَصْدِقاءُ مُتَنَوِّعُونَ، بَعْضٌ مِنْ أولئِكَ مِنَ الطَّمَعِ يَجْعَلُ مِنْكَ الصَّدِيْقَ لِتُوْصِلَهُ لِمَطْلُوْب، فَإِذا لَمْ تُوْصِلْهُ ارْتَفَعَتْ تِلْكَ الصَّداقَةُ، وَيُمْكِنُ أَنْ تُؤَدِّي لِلْعَداوَةِ، كما وَقَعَ لِذاكَ الرَّجُلِ الطَّامِعِ مَعَ نُوخَرَه، قالَ المَلِكُ وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الرَّجُلِ الطَّامِعِ مَعَ نُوْخَرَه

قالَ وَلَدُ المَلِكِ سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ بِأَرْضِ الشَّامِ مَلِكٌ فاضِلٌ مُحِبٌّ لِلْعِلْمِ مُحِبٌّ لِأَهْلِ الحَدِيْث، وَكانَ يَمْلِكُ ما بَيْنَ نُدَماءِ حَضْرَتِهِ كما كانَتْ عادَةُ الزَّمان رَجْلاً باسْمِ نُوخَرَه، رَغْمَ أَنَّ هذا كانَ مُتَأَخِّراً بالأَهْلِيَّةِ عَنِ

الجَمِيْع، فَإِنَّهُ بِرُتْبَةِ القَبُولِ كانَ يَمْلِكُ التَّقَدُّمَ على الجَمِيْع، يَوْماً شَخْصٌ مِنَ الأَشْخاصِ اللَّائِقِيْنَ بِمُجالَسَةِ المُلُوْكِ، جَمِيْلُ المَحْضَرِ طاهِرُ المَنْظَرِ مُلْقٍ لِلْنُّكْتَةِ فاعِلٌ لِلْبِذْلَةِ عَذْبُ اللَّهْجَةِ مَعْسُولُ اللِّسانِ قائِلٌ لِلَّطائِفِ حَسَنُ المَجْلِسِ، جاءَ مُسْرِعاً مِنْ بِلادٍ بَعِيْدَةٍ على صِيْتِ مَحاسِنِ وَمَكارِمِ المَلِكِ بالرَّغْبَةِ الصَّادِقَةِ والشَّوْقِ الغالِبِ، أنْ عَسى يَجِدُ في مَلاذِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ المَكان، وَيَبْقى في جِوارِهِ المَأْمُونِ مَحْرُوْساً وَمَصُوْناً مِنَ الحَوادِث،

أُرِيْدُ مَكاناً مِنْ كَرِيْمٍ يَصُوْنُني وَإِلَّا فَلي رِزْقٌ بِكُلِّ مَكانِ

جاءَ إلى جِوارِ نوخَرَه، وَأَظْهَرَ الصِّدْقَ التَّامَّ في مُصادَقَتِه، مُدَّةَ سَنَةٍ إلى سَنَتَيْنِ يَدْفَعُ العُمُرَ في عَشْوَةِ الأماني، كانَ يَقْضي الزَّمانَ في مُلازَمَةِ صُحْبَتِهِ، وَفي كُلِّ وَقْتٍ في مَعارِضِ إشاراتِ الكَلام، كانَ يَعْرِضُ أنْ مَقْصُوْدي مِنْ هذِهِ الصَّداقَةِ مِنْكَ هُوَ التَّوَسُّلُ، أنا أَبْحَثُ مِنْكَ عَنْ خِدْمَةِ الشَّاه، وَأنا مُرْتَبِطٌ بِكَ للتَّوَصُّلِ لِوُجْدانِ هذا الغَرَض، عَسى بِمَدَدِ اهْتِمامِكَ أَجِدُ شَرَفَ تَقْبِيْلِ يَدِهِ، وَأَدْخُلُ في عِقْدِ الحَواشي والخَدَم، نوخَرَه كانَ يَسْمَعُ ذاكَ وَيَتَغافَلُ عَنْهُ وَيَتَجاهَلُهُ، وَحِيْنَ مَرَّتْ سَنَةٌ وَلَمْ يَصِرْ ذاكَ السَّعْيُ مُفِيْداً، الرَّجُلُ الطَّامِعُ قَطَعَ الطَّمَعَ مِنْهُ، وقالَ بِتَرْكِ نُوْخَرَه، وَأَشْعَلَ النَّارَ في حِمْلِ مِنَّتِه، وَأَطالَ اللِّسانَ بِلا حَياء،

دَعَوْتُ نَداكَ مِنْ ظَمَأٍ إِلَيْهِ فَعَنَّانِي بِقِيْعَتِكَ السَّرابُ
سَرابٌ لاحَ يَلْمَعُ في سِباخٍ وَلا ماءٌ لَدَيْهِ ولا شَرابُ

***

قُلْتُ أَصِيْرُ في ظِلِّكَ كالشَّمْسِ، لا آتِيْك كالعُوْدِ وَأَرُوْحُ كالصَّفْصاف
اليائِسُ يَكُونُ جَرِيْئاً مُسَلَّطَ اللِّسانِ أَيْ صَدِيْقُ لا تَفْعَلْ فَأَصِيْرَ يائِساً

مِنَ الغُصَّةِ مِنْهُ كَتَبَ القِصَّةَ لِلشَّاه، أنْ نُوْخَرَه هذا، حاشا للسَّامِعِيْن، مَعْلُوْلٌ بِعِلَّةٍ مِنَ العِلَلِ العادِيَةِ، وَأَطِبَّاءُ الوَقْتِ يَأْمُرُوْنَ بِتَجَنُّبِ مُجالَسَتِهِ وَمُؤاكَلَتِهِ، المَلِكُ حِيْنَ قَرَأَ القِصَّةَ أَمَرَ أَلَّا يُعْطُوا الطَّرِيْقَ لِنُوْخَرَه مَرَّةً أُخْرى لِحَضْرَتِهِ، وَأنْ يُبْعِدُوا مَعَرَّةَ حُضُوْرِهِ عَنِ الحَضْرَة، وَحِيْنَ جاءَ إلى بابِ الإِيْوانِ، دَفَعُوْهُ بِصَدْرِهِ بِيَدِ الرَّدِّ، رَجَعَ وَظَلَّ سَنْةً مَحْرُوماً مِنْ سِيادَةِ القُرْبِ، وَمَهْجُوراً مِنْ عَتَبَةِ الخِدْمَة، رَبَطَ حَجَرَ الصَّبْرِ على القَلْب، واخْتَبَرَ نَقْدَ عِنايَةِ الشَّاهِ على حَجَرِ الثَّبات، أنْ وَهُوَ عِيارُ الأَصْلِ بِأَيِّ مُوْجِبٍ أُبْعِدَ، وَنَقْشُ سِعايَتِهِ بِأَيِّ شَكْلٍ عُقِدَ، آخِرَ الأَمْرِ حِيْنَ مِنْ جَلِيَّةِ الأَمْرِ وَجَدَ الخَبَرَ، أَحْضَرَ جَمْعاً مِنْ ثِقاتِ وَأَثْباتِ المُلْكِ، وَأُمَناءِ وَجُلَساءِ الحَضْرَة، مِنَ الَّذِيْنَ كانُوا مَحَلَّ اعْتِمادِ المَلِك، وَخَلَعَ ثِيابَهُ أمامَهُمْ، وَأَظْهَرَ لَهُمْ ظَواهِرَ أَعْضائِهِ تَماماً، فَلَمْ يَرَوا سِمَةَ النُّقْصانِ بِأَيِّ مَكان، أَوْصَلُوا إِلى سَمْعِ الشَّاهِ حِكايَةَ الحالِ والنِّكايَةَ الَّتي فَكَّرَ بِها العَدُوُّ بِحَقِّ نُوخَرَه، حَتَّى ارْتَفَعَ مِنْ أَمامِ خاطِرِهِ

الخَيالُ الَّذي نَهَضَ لَهُ، وَصارَ مَعْلُوْماً لَهُ مِنْ أَيِّ غَرَضٍ تَوَلَّدَتْ مادَّةُ هذا الخِصام، لكِنَّهُ قالَ، قِيْلَ صِدْقاً، حِيْنَ تَضْرِبُ الطِّيْنَ على الجِدارِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَعْلَقْ، نَقْشُ ذاكَ لا مَحالَةَ يَبْقى، أنا كُلَّ مَرَّةٍ أرى نُوْخَرَه أَتَذَكَّرُ تِلْكَ التُّهْمَةَ فَتَجِيْءَ ظاهِرَةً في طَبْعي نَفْرَةٌ وَنَبْوَةٌ مِنْ رُؤْيَتِه، بِتَمَحُّلِ تَمامِ تَحَمُّلِ ذاكَ يَجِبُ عَمَلُ الكَراهِيَة، *وَإِذا احْتاجَ الزِّقُّ إِلى الفَلَكِ فَقَدْ هَلَك*، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُرْسَلَ إلى ناحِيَةٍ بَعِيْدَةِ المَنال،

وَما بِكَثِيْرٍ أَلْفُ خِلٍّ وَصاحِبٍ وَإِنَّ عَدُوَّاً واحِداً لَكَثِيْرُ

أَنا قُلْتُ هذِهِ الحِكايَةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى يَعْلَمَ المَلِكُ أنْ إذا كانَتْ صداقَتُهُ مَعَ المَلِكِ مِنْ هذا القَبِيْلِ، فَإِنَّها لا تَجِيْءُ بالعَمَل، قالَ المَلِكُ صَداقَتُنا صافِيَةٌ مِنْ شَوائِبِ الأَغْراضِ والأَطْماع، وَهُوَ في طَرِيْقِ مُخالَصَتي كما قِيْل،

الَّذي إِنْ حَضَرْتَ سَرَّكَ في الحَيِّ وَإِنْ غِبْتَ كانَ أُذْناً وَعَيْناً

وَلَدُ المَلِكِ قالَ القَرابَةُ الأُخْرى تَكُونُ بَيْنَ الأَقارِبِ والعَشائِر، مِثْلُ ذاكَ القَرِيْبِ الَّذي يَمِلِكُ زِيادَةً، مَثَلاً جاهاً أَوْ مالاً، النَّاقِصُ يُرِيْدُ أَنْ يَصِلَ لِلْكامِلِ، والكامِلُ يُرِيْدُ أَنْ يَزِيْدَ في نُقْصانِهِ، *وَما النَّارُ لِلْفَتِيْلَةِ بِأَحْرَقَ مِنَ التَّمادي في القَبِيْلَةِ*، إلى أنْ يَنْهَضَ الاِثْنانِ، الواحِدُ بِمُعاداةِ

الآخَر، والأمْرُ يَنْتَهي بالمُناواة، كما وَقَعَ لِمَلِكِ بابِلَ مَعَ وَلَدِ المَلِك، قالَ المَلِكُ وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ مَلِكِ بابِلَ مَعَ وَلَدِ المَلِك

وَلَدُ المَلِكِ قالَ سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ بِأَرْضِ بابِلَ مَلِكٌ، كانَ لَهُ وَلَدٌ صَغِيْرٌ حِيْنَ مُتَقاضي الأَجَلِ أَمْسَكَ بِثَوْبِ وَلُبَّةِ أَمَلِهِ، وَقْتَ وَصَلَ نُزُولُ القَضاء، وَجاءَ نَقْلُهُ مِنْ دارِ الفَناءِ إلى دارِ البَقاء، اسْتَدْعى الأَخَ وَجَعَلَهُ قائِماً مَقامَهُ في إقامَةِ أَمْرِ المُلْكِ، وَجَعَلَهُ مَوْلىً وَمُوَصَّىً بِتَرْقِيْحِ وَتَمْشِيَةِ حالِ المُلْك، وَتَرْشِيْحِ وَتَرْبِيَةِ وَلَدِ النَّفْس، وَقالَ أنا أَسْلَمْتُ لَكَ زِمامَ القَبْضِ والبَسْطِ، وَعِنانَ التَّوَلِّي والتَّمَلُّكِ في مَجاري أُمُوْرِ المُلْك، وَذاكَ مَرْبُوْطٌ وَمَشْرُوْطٌ بِشَرْطٍ، هُوَ أَنَّهُ حِيْنَ يَصِلُ وَلَدِي لِمَرْتَبَةِ البُلُوْغِ والدِّرايَةِ، وَيَنْهَضُ مِنْهُ حُكْمُ التَّحَكُّمِ وَقَيْدُ الوِلايَة، وَيَجِيْءُ بِإِيْناسِ الرُّشْدِ والتَّهَدِّي مَعَ النَّظَر، أنْ تُجْلِسَهُ في صَدْرِ الاِسْتِقْلال، وَأَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ تَحْتَ يَدِهِ، وَقابِلاً لِأَمْرِهِ، ولا تَعُدَّ حُكْمَهُ عَلَيْكَ إجْحافاً، ولا تُبْدِ عَنْ طاعَتِهِ اسْتِنْكافاً، وَإذا في وَقْتٍ شَيْطانُ الحِرْصِ بِوَسْوَسَةِ الخِيانَةِ، أَمَرَكَ أنْ تَهْتِكَ حِجابَ الدِّيانَةِ، اجْعَلْ أمامَ خاطِرِكَ خِطابَ، *إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها*، عَقَدا على هذا النَّسَقِ عَهْداً وَمِيْثاقاً مُسْتَوْسِقاً، الأَبُ عَبَرَ، والاِبْنُ صارَ بالِغاً وَوَصَلَ لِمَقامِ مُزاحَمَةِ وَمُطالَبَةِ المَلِك، عِشْقُ المَمْلَكَةِ كانَ قَدْ أَخَذَ بالمَلِكِ

بِعُرُوْقِ رُوْحِهِ الثَّلاثِمائَةَ وَسِتِّيْنَ، وَلَذَّةُ تِلْكَ الدَّوْلَةِ والسُّلْطَةِ صارَتْ مُمْتَزِجَةً تَماماً مَعَ مَذاقِ طَبْعِهِ، فكَّرَ أَنْ هذا الوَلَدُ أَخَذَ رُتْبَةَ الأَبِ، وَوَجَدَ دُرْبَةَ الخِبْرَةِ، وَعَنْ قَرِيْبٍ يَنْهَضُ لاسْتِرْدادِ حُكْمِ المَمْلَكَةِ، وَسَوْداءُ الاِسْتِبْدادِ تَجْلِسُ في دِماغِهِ، إِذا أنا جِئْتُ بِوَجْهِ المُمانَعَةِ والمُدافَعَةِ، القادَةُ وَأَبْطالُ المَلِكِ في أَطْرافِ وَحَواشي الوِلايَةِ يُظْهِرُونَ مِنِّي التَّحاشي، فلا أَقْدِرُ بِأَيَّةِ حِيْلَةٍ وَخِدْعَةٍ عَلى جَعْلِهِم مُوافِقِيْنَ وَمُخْلِصِيْنَ لي، الحِيْلَةُ هِيَ أَنْ أَرْفَعَ زَحْمَةَ وُجُوْدِهِ مِنْ أمامِي، وَبِحَيْثُ لا أَصِيْرُ مُتَّهَماً بِهَلاكِهِ، يَوْماً ذَهَبَ خارِجاً بِعَزْمِ الصَّيْد، وَأَخَذَ مَعَهُ وَلَدَ المَلِكِ أَيْضاً، وَحِيْنَ وَصَلُوا لِمَكانِ الصَّيْدِ، والجَيْشُ تَفَرَّقَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وكِلاهُما وَقَعا في مَوْضِعٍ خالٍ، أَنْزَلَ وَلَدَ المَلِكِ عَنِ الجَوادِ، وَفَقَأَ كِلْتا عَيْنَيْهِ مُبْصِرَتَي العالَمِ بِيَدِهِ، وَعادَ راجِعاً مِنْ هُناك، رَغْمَ أَنَّ العَيْنَ الظَّاهِرَةَ لِلْمِسْكِيْنِ أُغْلِقَتْ عَنْ مُطالَعَةِ عالَمِ المَحْسُوْساتِ، فَإِنَّهُ كانَ يَقْرَأُ صحائِفَ أَسْرارِ القَدَرِ بِالعَيْنِ الباطِنَة، وَيَرى شَرْحَ صُنْعِ القِدَمِ على يَدِ إِعْجازِ عِيْسى مَرْيَم، وَفي حِجابِ المُمْكِناتِ كانَ يَسْمَعُ بِسَمْعِ العَقْلِ قُدْرَةَ نِداءِ، *وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيي المَوْتى*، وَيَقُول،

ولا تَيْأَسَنْ مِنْ صُنْعِ رَبِّكَ إِنَّني ضَمِيْنٌ بِأَنَّ اللهَ سَوْفَ يُدِيْلُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ بَعْدَ كُسُوْفِها لَها صَفْحَةٌ تَغْشى العُيُونَ صَقِيْلُ

القِصَّةُ، حِيْنَ زِيْنَةُ النَّهارِ المُنَوَّرِ مِنْ أَطْرافِ العالَمِ فُتِحَتْ، وَتُتُقُ ظَلامِ اللَّيْلِ على آفاقِ العالَمِ أُغْلِقَتْ، أُمُّ النَّهارِ مِنْ فِتْنَةِ الوِلادَةِ صارَتْ عَقِيْماً، واللَّيْلُ صارَ بِنَتائِجِ تَقْدِيْرِ الحَمْل، وَأُخْرِجَ مِنْ هذا الحِجابِ مائِيِّ اللَّوْنِ عَنْ عُيُوْنِ الكَواكِبِ رِباطُ العَيْن، ذاكَ المِسْكِيْنُ لَجأَ لِمَنْزِلٍ خَرابٍ، إلى أَنْ وَصَلَتْ يَدُهُ إلى شَجَرَةٍ، صَعَدَ على تِلْكَ الشَّجَرَةِ مِنْ خَوْفِ المُفْتَرِسات، وَتَمَسَّكَ بِيَدِهِ بِغُصْنٍ مِنْها، وَجَلَسَ على مَرْصَدِ وارِداتِ الغَيْب، أنْ ماذا سَيُخْرِجُ الفَلَكُ مِنَ الحِجاب، فَجْأَةً جاءَ إلى المَجْلِسِ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، كَبِيْرُ الجِنِّ، إِذْ كانَ ذاكَ المَكانُ مَجْمَعاً لِلْجِنِّ وَمَهْجَعاً لَهُمْ، كانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيْهِ في كُلِّ لَيْلَةٍ، جَلَسَ كَبِيْرُ الجِنِّ في مكانَهِ، وَجاءَ مِنْ حَوْلِهِ جِنُّ العالَم، يَقْضُونَ اللَّيْلَ بالمُسامَرَةِ والمُساهَرَةِ الواحِدُ مَعَ الآخَر، وَيُعْطُونَ الخَبَرَ عَنْ مُتَجِدِّداتِ وَقائِعِ الزَّمان، وَيَكْشِفُونَ خَبايا الأَسْرارِ مِنْ أَقْطارِ وَزَوايا الدُّنْيا، حَتَّى قالَ واحِدٌ مِنْ بَيْنِهِم، اليَوْمَ مَلِكُ بابِلَ عَمِلَ كَيْداً مَعَ وَلَدِ المَلِك، وَرأى مِثْلَ ذاكَ الغَدْرِ مُباحاً،

وَرُبَّ أَخٍ نادَيْتَهُ لِمُلِمَّةٍ فَأَلْفَيْتَهُ مِنْها أَجَلَّ وَأَعْظَما

قالَ كَبِيْرُ الجِنِّ، لَوْ أنَّ وَلَدَ المَلِكِ ذاكَ عَلِمَ بِهذِهِ الشَّجَرَةِ، وَصارَ لَهُ الخَبَرُ عَنْ خاصِّيَّةَ وَرَقِها، وَمَسَحَ بِقِطْعَةٍ مِنْ ذاكَ العَيْنَ، لَعادَ لَهُ البَصَرُ، وَفِيْ الأَرْضِ الشَّوْكِيَّةِ الفُلانِيَّةِ شَجَرَةُ طَرفا نَبَتَتْ بِهذِهِ الصِّفَةِ،

وَبِها المَقامُ لِحَيَّةٍ عَظِيْمَةٍ، تِنِّيْنٌ حِيْنَ يَلْتَفُّ على النَّفْسِ، يُمْطِرُ سُمَّ النُّحُوْسَةِ مِنْ عُقْدَةِ الرَّأْسِ والذَّنَبِ على المَرِّيْخِ وَزُحَل، ثُعْبانٌ بِمَحَلِّ السِّحْرِ والنَّفَسِ مِنْ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ ابْتَلَعَ عصا مُوسى، طالِعُ وِلادَةِ تِلْكَ الحَيَّةِ وَذاكَ المَلِكِ واحِدٌ، وَواقِعٌ في نُقْطَةِ حَرَكَةٍ واحِدَةٍ، حِيْنَ الكَوْكَبُ القاطِعُ يَصِلُ لِدَرَجَةِ طالِعِ هذا، يَصِيْرُ هلاكُهُ جائِزاً، إذا كانَ وَلَدُ المَلِكِ يَسْتَطِيْعُ قَتْلَ ذاكَ الثُّعْبان، بَعْدَها قَتْلُهُ وَمَوْتُ شاهِ بابِلَ واحِدٌ،

وَإِنَّ جُسَيْماتِ الأُمُورِ مَنُوْطَةٌ   بِمُسْتَوْدَعاتٍ في بُطُونِ الأَساوِدِ

وَلَدُ المَلِكِ حَيْنَ سَمِعَ هذا، أَخَذَ مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَرَقَةً وَمَسَحَ بِها العَيْن، كِلْتا عَيْنَيْهِ صارَتا مُضِيْئَتَيْنِ كَسِراجَيْن، وَرَأى صُوْرَةَ القُدْرَةِ الإلهِيَّةِ مُضِيْئَةً بِعَيْنِ الرَّأْس، وَقال،

الشُّكْرُ لِلْخالِقِ الطَّاهِرِ الَّذي   جَعَلَ مِنَ التُّرابَ ناطِقاً وَبَصِيْراً

وَآنَذاكَ بِأُذُنِ العَقْلِ كانَ يَقُولُ، *مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَمِيْم*، وَيَقْرَأُ كُلَّ ساعَةٍ، *قُلْ يُحْيِيْها الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْم*، حِيْنَ وَجَدَ نَقْدَ الوَقْتِ الظَّفَرَ بِتِلْكَ السَّعادَةِ، أَسْرَعَ بِتَحْصِيْلِ قَرِيْنَةِ السَّعادَةِ الأُخْرى، وَفي الفَجْرِ حِيْنَ خَرَزَةُ الشَّمْسِ أَلْقَتْ حَيَّةَ اللَّيْلِ السَّوْداءِ مِنْ فَمِ المَشْرِقِ، نَزَل عَنِ الشَّجَرَةِ وَذَهَبَ إلى مَحَلِّ وَطَنِ الحِيَّةِ، وَأَطْلَعَ الدَّمارَ مِنْ وُجُوْدِ الحَيَّةِ، وَفِي الحَالِ مَلِكُ بابِلَ أَسْلَمَ الرُّوحَ لِقابِضِ

الأَرْواحِ، وَأَسْلَمَ المُلْكَ لِقَبْضَةِ وَلَدِ المَلِك، وَسَلِيْمُ لَدْغَةِ الحَوادِثِ ذاكَ، وَصَلَ لِمَرْكَزِ المُلْكِ وَمَنْشَأِ الدَّوْلَةِ، وَجَلَسَ مَلِكاً، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى إِذا كانَتْ صَداقَتُكَ مَعَهُ مِنْ قَبِيْلِ صَداقَةِ مِثْلِ هذِهِ القَبائِلِ، لا تُسْلِمْني لَهُ، قالَ المَلِكُ، صَداقَتُنا بَعِيْدَةٌ عَنْ هذِهِ المَعاني، وَلِدُ المَلِكِ قالَ، نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الأَصْدِقاءِ، أولئِكَ الَّذِيْنَ حِيْنَ يَصِيْرُ بلاءٌ نازِلاً، الرَّجُلُ بابْتِلاءِ الأَصْدِقاءِ يَطْلُبُ حُرِّيَّةَ النَّفْس، كما فَعَلَ ذاكَ الرَّجُلُ الحَدَّادُ مَعَ المُسافِر، قالَ المَلِكُ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الحَدَّادِ مَعَ المُسافِرِ

قالَ وَلَدُ المَلِكِ، سَمِعْتُ أَنَّهُ في وَقْتٍ كانَ مُسافِرٌ يَقْطَعُ بَسِيْطَةَ العالَمِ، وَيَطْوِي بِساطَ الخافِقَيْنِ بِقَدَمِ السِّياحَة،

أَخُو سَفَرٍ جَوَّابُ أَرْضٍ تَقاذَفَتْ بِهِ فَلَواتٌ فَهوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ

يَوْماً كانَ جَعَلَ القَدَمَ في رِكابِ السَّفَر، وَجَعَلَ عِنانَ العَزِيْمَةِ لِمَقْصَدٍ مِنَ المَقاصِد، وَصَلَ إلى جِوارِ قَرْيَةٍ، رَأَى بِذاكَ المَكانِ بِئْراً عَمِيْقَةً مُظْلِمَةً مِثْلَ لَيْلِ مِحْنَةِ الوِلادَة، حُفْرَةً مُدْلَهِمَّةً قَعِيْرَةً قَعْرُها أَشَدُّ سَواداً مِنْ دُخانِ زَفِيْرِ دَرَكاتِ السَّعِيْر، قُلْتَ نَخَّلُوا بِها كُلَّ شَبَهٍ طَحَنَتْ طاحُوْنَةُ دُولابِ الفَلَكِ الفَيْرُوزِيِّ، وَسُكِبَ بِها كُلُّ فَحْمٍ كانَ لِبَيْتِ نارِ

جَهَنَّم، سَوْداءَ كَرَأْيِ مَنْ هُمْ بِلا عَقْلٍ، بِلا رَوْنَقٍ مِثْلَ وَجْهِ السُّفَهاء، وَقَعَ بِها شَيْطانٌ، وَجاءَ بِضْعَةُ أَولادٍ مِنْ حَوْلِ شَفَةِ البِئْرِ شَرَعُوا بِإِمْطارِ الحِجارَةِ على رَأْسِهِ كالكَواكِبِ الَّتي تَرْجُمُ الشَّياطِيْنَ بالحِجارَةِ، الشَّيْطانُ البائِسُ صارَ مَحْبُوساً بِيَدِ الأَطْفال في تِلْكَ المَغارَةِ مِثْلَ جِنِّيٍّ في زُجاجَةِ السَّاحِرِ، المُسافِرُ قالَ للنَّفْسِ، رَغْمَ أَنَّ الشَّيْطانَ مِنْ أَسْوَأِ خَلْقِ الله، هُوَ ألقى بِمِئَةِ أَلْفِ سالِكٍ لِطَرِيْقِ الحَقِيْقَةِ بِبِئْرِ الظَّلامِ وَغارِ الخَيال، وَأَعْطاهُمْ لِيَدِ غُوْلِ الاِغْتِيال، أمَّا وَهُوَ بِفِعْلِهِ الذَّنْبَ لَمْ يَكُنْ عَمِلَ بِحَقِّكَ ذَنْباً مَخْصُوْصاً، فإِنَّ العَفْوَ وَإِظْهارَ الرَّحْمَةِ على سَيِّئِ فِعْلٍ لَمْ يَكُنْ سُوْؤُهُ وَصَلَ إِلَيْك مَقْبُولٌ لِلْعَقْلِ وَمَمْدُوْحٌ في العُرْف، ثُمَّ ذلِكَ الوَقْتَ وَكَمِثْلِ ملاكِ الرَّحْمَةِ نَزَلَ بِرأْسِ البِئْرِ وَسَحَبَهُ مِنْ حُفْرَةِ العَذابِ تِلْك، وَأَعْطاهُ الخَلاصَ، والشَّيْطانُ مِنْ مُبايَنَةِ الطِّيْنَةِ وَمُنافاةِ الطَّبِيْعَةِ، ما بَيْنَ الشَّيْطانِ وابْنِ آدَمَ، جاءَتْهُ تِلْكَ المُؤاساةُ عَجِيْبَةً،

لَقَدْ رَقَّ لي حَتَّى النَّسِيْمُ على السُّرى　وَساعَدَني بالشَّجْوِ وُرْقٌ تَنَغَّمُ
فَمِنْ غَيْرِ مَأْلُوْفٍ تَعاطُفُ مُسْعِدٍ　وَمِنْ غَيْرِ جِنْسٍ رِقَّةٌ وَتَرَحُّمُ

قالَ أَيْ أَخُ بِما أَظْهَرْتَ سَبْقَ يَدِ الكَرَم، وَتَقَدَّمْتَ بِوَجْهِ هذِهِ المُرُوْءَةِ والفُتُوَّةِ، وَجَعَلْتَ صَداقَةَ الشَّيْطانِ مَعَ الإِنْسانِ، الَّتي هِيَ عِنْدَ العُقَلاءِ مُمْتَنِعَةٌ، مُصَوَّرَةً، وامْتِزاجَ الماءِ والنَّارِ الَّذي هُوَ في العَقْلِ غَيْرُ مُمْكِنٍ، مُصَوَّراً أَيْضاً، أنا الآنَ أَيْضاً أجِيْءُ مُتَقَدِّماً بِشَرْطِ الوَفاء،

وَأَعْرِفُ جَزاءَ هذا الإحْسانِ عَلَيَّ فَرِيْضَةً، واجِبٌ إذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ مَأْسُوراً يَوْماً في شِباكِ مِثْلِ هذِهِ الدَّاهِيَةِ، أنْ تُجْرِيَ ذِكْرَ اِسْمي على اللِّسانِ حَتَّى أَجِيْءَ حاضِراً في الحال، وَأُحَرِّرَكَ مِنْ وَرْطَةِ تِلْكَ الآفَة، الشَّيْطانُ عَبَرَ مِنْ ذلِكَ المَكانِ، والرَّجُلُ جَعَلَ الوَجْهَ بالطَّرِيْقِ حَتَّى وَصَلَ إلى مَدِيْنَةِ زامهران، كانَ لَهُ بِتِلْكَ المَدِيْنَةِ صَدِيْقٌ حَدَّادٌ، وَبِحُكْمِ الدَّالَّةِ القَدِيْمَةِ، والصُّحْبَةِ السَّابِقَةِ، نَزَلَ بِمَنْزِلِهِ، وَكَذلِكَ كانَ رَسْمُ تِلْكَ المَدِيْنَةِ أَنَّهُم في كُلِّ سَنَةٍ في اليَوْمِ المُعَيَّنِ يَجْعَلُوْنَ مِنْ غَرِيْبٍ وَصَلَ حَدِيْثاً قُرْباناً، فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا غَرِيْباً فَمَنْ تَقَعُ عَلَيْهِ القُرْعَةُ مِنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ صارَ مُتَعِيِّناً، في ذلِكَ اليَوْمِ كانَ الحَدَّادُ جاءَ هَدَفاً لِسَهْمِ البَلاءِ، وَحِيْنَ رَأى الضَّيْفَ ذَهَبَ لِبابِ مَنْزِلِ ضابِطِ المَدِيْنَةِ، أَعطى أَصْحابَ الخَبَرِ الخَبَرَ، جاؤوا وَحَمَلُوا الضَّيْفَ إلى مَحَلِّ العِقاب، المِسْكِيْنُ وَجَدَ النَّفْسَ مُتَوَرِّطاً في طِيْنِ المِحْنَةِ إلى العُنُق، أَخِيْراً مِنْ تَذَكُّرِ مُواعَدَةِ الشَّيْطانِ وَمُعاهَدَتِهِ جاءَ بِذِكْرِ اِسْمِ الشَّيْطانِ على اللِّسان، الشَّيْطانُ أَظْهَرَ الوَجْهَ مِنْ حِجابِ التَّواري وَجاءَ حاضِراً، عَرِفَ مِزاجَ الحالِ، وَعَلِمَ وَجْهَ العِلاجِ ما يَكُون، مَلِكُ المَدِيْنَةِ كانَ يَمْلِكُ وَلَداً، الوَلَدُ كانَ عَيْنَ وَسِراجَ العالَمِيْن، والأَبُ كانَ يَرى العالَمَ بِعَيْنِهِ، في الحالِ دَخَلَ بِبَدَنِهِ، وَصارَ جارِياً في مَجاري عُرُوْقِهِ وَأَعْصابِهِ، وَسِرُّ حَدِيْثِ، *إنَّ الشَّيْطانَ لَيَجْري مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرى الدَّمِ*، صارَ ظاهِراً عِياناً، الوَلَدُ فَجْأَةً صارَ كالمَجْنُون، وَقَعَ مِنْ حِجابِ

العافِيَةِ، وَ *كَمَنْ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ*، جاءَتْهُ حَرَكاتٌ غَيْرُ جَمِيْلَةٍ، وَهَذَياناتٌ مُشَوَّشَةٌ مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ، والشَّيْطانُ الخَنَّاسُ مِثْلَ الكَنَّاسِ صارَ يَتَرَدَّدُ في تَجاوِيْفِ مَجاري أَعْضائِهِ وَمَنافِذِ جَوارِحِهِ، تارَةً كانَ يَجْلِسُ في صَدْرِهِ مِثْلَ الوَسْواسِ، وَكانَ يُغْلِقُ الطَّرِيْقَ على صُعَداءِ أَنْفاسِهِ، وَتارَةً كانَ يَقَعُ مِثْلَ الخَيالِ في الرَّأْسِ، وَيَجْعَلُ مُظْلِماً مِصْباحَ البَصِيْرَةِ في زُجاجَةِ الفِطْرَةِ، حَتَّى مُراقِبُ البَصَرِ مِنْ مُشَبَّكَةِ الزُّجاجَةِ رَأى التَّمْوِيْهاتِ الباطِلَةَ جَمِيْعاً، تارَةً كانَ يَخِيْطُ براجِمَهُ وَأنامِلَهُ في خامِ التَّشَنُّج، وَتارَةً يَجْعَلُ فُصُوْصَهُ وَمَفاصِلَهُ في عذابِ الأَلَم، كذلِكَ كانَ الخَوْفُ مِنْ أنْ تَنْقَطِعَ حِبالُ الأَوْتارِ والرِّباطاتِ مِنْ شِدَّةِ التَّقَلُّص، وَبِمَحَلِّ الفُضُلاتِ، عَرَقُ دَمِ العَضَلاتِ كانَ يَقْطِرُ مِنْ فَوَّارَةِ مَسامِّ وَفُوَّهاتِ عُرُوْقِهِ، الرَّعِيَّةُ والجَيْشُ جاؤوا مُجْتَمِعِيْنَ جَمِيْعاً، وَجَلَسُوا في مَأْتَمِ الحُزْن، أنْ ما كانَ المُوْجِبُ لِحُدُوثِ هذِهِ الحالَة، وَمِثْلُ هذا المَلاكِ بالصُّوْرَةِ لِماذا صارَ بِصِفَةِ الشَّيْطان، الكَبِدُ لِلأَبِ صارَ مِثْلَ الكَبابِ في غَمِّ فِلْذَةِ كَبِدِهِ، وَمِنْ أَسْياخِ الأَهْدابِ كانَ يَسْكِبُ دَمْعَ الدَّم، في حِيْلَةِ أَمْرِ وَلَدِهِ بَقِيَ عاجِزاً، اسْتَدْعى الأَطِبَّاءَ الحاذِقِيْنَ والمُداوِيْنَ المُحَقِّقِيْن، وَكُلُّ واحِدٍ أَمَرَ بالعِلاجِ بِمِقْدارِ عِلْمِ نَفْسِهِ، وَلَمِ يَجِئْ عِلاجٌ مُفِيْداً، حِيْنَ الأَمْرُ بَلَغَ حَدَّ الصُّعُوْبَةِ، وَأَلَمُ القُلُوْبِ وَصَلَ النِّهايَة، الشَّيْطانُ مِنْ داخِلِهِ أَعْطى الصَّوْتَ، أنْ شِفاءُ هذا المَعْلُوْلِ مُعَلَّلٌ بِخَلاصِ ذاكَ الرَّجُلِ الغَرِيْبِ الَّذي حُبِسَ بِلا

مُوْجِبٍ مِنْ أَجْلِ القَتْل، المَلِكُ أَمَرَ أَنْ يُطْلِقُوْهُ مِنَ الحَبْس، والشَّيْطانُ خَرَجَ مِنْ بَدَنِهِ، قالَ لِلْغَرِيْبِ المُسافِرِ، هذِهِ المَرَّةَ أنا جِئْتُكَ بالعَمَلِ، وَإِنَّ الكَذُوْبَ قَدْ يَصْدِقُ، لكِنْ مِنِّي لا يَكُنْ لَكَ أُمْنِيَةٌ أُخْرى، واعْلَمْ أَنَّهُ رَغْمَ أَنِّيْ بِرَسَنِ الاِعْتِمادِ والاِعْتِصامِ مِنْكَ خَرَجْتُ مِنَ البِئْرِ، فَإِنَّهُ لا يَجِبُ لِلآدَمِيِّ أنْ يَنْزِلَ في البِئْرِ بِرَسَنِ الشَّيْطان، *وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّيْنَ عَضُداً*، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ إِذا كانَتْ صَداقَتُكَ مَعَ الرَّجُلِ الخُراسانِيِّ مِنْ هذِهِ الجِنْسِيَّةِ، في تَوْصِيَتِهِ مِنْ جِهَتي اعْمَلِ الاِحْتِياط، المَلِكُ قالَ سَمِعْتُ كُلَّ ذاكَ الَّذي قُمْتَ بِتَقْرِيْرِهِ، وَتَحْرِيْرُ ذاكَ لائِقٌ أَنْ يُثْبَتَ في أَعاجِيْبِ أَسْمارِ الاِعْتِبار، أَمَّا المُوالاةُ الَّتي بَيْنَنا فَهِيَ غَيْرُ مُلَوَّثَةٍ بِهذِهِ العِلَل، وَلَدُ المَلِكِ قالَ، الصَّداقَةُ الأُخْرى هِيَ تِلْكَ الَّتي تَنْهَضُ مِنْ هَوى الطَّبِيْعَةِ وَحُكْمِ الشَّهْوَةِ، وَتِلْكَ تَقْبَلُ الفُتُوْرَ بِأَقَلِّ سَبَبٍ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَنْتَهِيَ بالقَطْعِ الكُلِّيّ، كما وَقَعَ لِلْبَطَّةِ مَعَ الثَّعْلَب، قالَ المَلِكُ وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الثَّعْلَبِ مَعَ البَطّ

قالَ وَلَدُ المَلِكِ سَمِعْتُ أَنَّ زَوْجاً مِنَ البَطِّ كانَ لَهُ مَنْزِلٌ بِجِوارِ جَدْوَلِ ماءٍ، وَكانَ ثَعْلَبٌ قَدِ اتَّخَذَ المَأْوى في مُجاوَرَتِهِما، أُصِيْبَ الثَّعْلَبُ بِعِلَّةِ داءِ الثَّعْلَب، صارَ ضَعِيْفاً وَنَحِيْلاً، صارَ يَسْقُطُ مِنْهُ اللَّحْمُ والشَّعْرُ،

والرُّوْحُ مُتَعَلِّقَةٌ بالشَّعْرِ الَّذي لا يَمْلِكُ، وَكَخِرْقَةٍ باليَةٍ بالَتْ عَلَيْها الثَّعالِبُ، وَقَعَ في زاوِيَةِ البَيْت، يَوْماً جاءَتْ سُلْحُفاةٌ لِعِيادَتِهِ، وَصارَتْ مَشْغُولَةً بِكَشْفِ حالِهِ والبَحْثِ عَنْ سَبَبِ زَوالِ صِحَّتِهِ، وَقالَتْ، كَبِدُ البَطِّ في مُداواةِ هذا المَرَضِ مُفِيْدٌ، لَوْ قَدِرْتَ تَحْصَلُ على جُزْءٍ مِنْ ذاكَ لَجاءَ ذاكَ نافِعاً جِدّاً لِإزالَةِ هذِهِ العِلَّة، الثَّعْلَبُ فَكَّرَ أنْ كَيْفَ أَقْدِرُ أَحْصَلُ على كَبِدِ البَطِّ وَلَحْمُ ذاكَ الطَّائِرِ مُتَعَذِّرٌ أَكْثَرَ مِنْ لَبَنِ الطَّيْرِ لِي، إلَّا أنْ أَجْلِسَ على طَرَفِ هذا الشَّطِّ وَأَصِيْرَ مُتَرَصِّداً حُضُورَ ذاكَ البَطّ، حَتَّى بالدَّمْدَمَةِ أَسْحَبُهُ في شِباكِ الاِحْتِيال، على هذِهِ الفِكْرَةِ ذَهَبَ إلى هُناكَ، اِتِّفاقاً وَجَدَ أُنْثى البَطِّ، دَخَلَ مَعَها مِنْ طَرِيْقِ المُناصَحَة، على عادَةِ الأَصْدِقاءِ الصَّادِقِيْن، وَشُرَكاءِ الغَمِّ المُشْفِقِيْن، شَرَعَ بالمُلاطَفات، وَقالَ لَها، وَصَلَ لِي في جِوارِكِ الكَثِيْرُ مِنَ الرَّاحَةِ لِلقَلْب، فَقَدْ رَأَيْتُكِ ماهِرَةَ اليَدِ وَحَسَنَةَ الفِعْل، وَقَدْ وَجَدْتُكِ، كَسَيِّدَةِ بَيْتٍ وَمُدِيْرَةِ مَنْزِلٍ، دائِماً نَظِيْفَةَ الطَّرْفِ أرِيْجَةَ العَرْفِ، وَعَرِفْتُكِ مُتَوَفِّرَةً دائِماً على تَقْدِيْمِ شرائِطِ الخِدْمَةِ مَعَ زَوْجِكِ، اليَوْمَ أنا أَسْمَعُ أَنَّ قَلْبَهُ مِنَ الزَّواجِ مِنْكِ مَقْبُوْضٌ، وَأنَّهُ أَرْسَلَ في خِطْبَةِ بِنْتِ السَّيِّدِ، وَهُوَ يَقْرَعُ حَلْقَةَ الطَّلَبِ على بابٍ آخَرَ، وَأَنتِ بَقِيْتِ هُناكَ مِنْ زَوْجِكِ مِثْلَ مِفْتاحٍ على الطَّاق، وَحَلْقَةٍ على الباب، ومُذْ يراها لا يَكُوْنُ مِنْهُ التِفاتٌ إلى جانِبِكِ أَبَداً،

الشَّخْصُ الَّذي يُفَكِّرُ بِكِ زَوْجاً لِنَفْسِهِ   يَضَعُ التَّفْكِيْرَ بِكُلِّ مَوْجُوْدٍ على الطَّاق

أنا أَظْهَرْتُ هذا المَعْنى حَتَّى تَعْلَمِي حَسَناً،

أَنْتِ عَيْني وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْني غَضُّ أَجْفانِها على الأَقْذاءِ

البَطَّةُ حِيْنَ سَمِعَتْ هذا الفَصْلَ مِنْهُ، صارَتْ مُتَأَلِّمَةً حَقَّاً، لكِنْ أَعْطَتِ الجَوابَ أَنِ الحَقُّ جَلَّ وَعلا جَعَلَ النِّساءَ في أُمُوْرِ المُعاشَرَةِ مَحْجُوْرَاتِ حُكْمِ أزواجِهِنَّ، وَمَجْبُوراتٍ على طاعَتِهِم، كما قالَ عَزَّ مِنْ قائلٍ، *الرِّجالُ قَوَّامُوْنَ على النِّساء*، ما أَسْتَطِيْعُ أَفْعَلُ، أنا أَيْضاً وِفْقَ أَحْكامِ الشَّرْعِ أَمْلِكُ الأُذُنَ في حَلْقَةِ انْقِيادِهِ، وَأنا أَعْمَلُ وِفْقَ مُرادِهِ، قالَ الثَّعْلَبُ تَقُوْلِيْن حَسَناً، أمَّا وَهُوَ قَدِ اخْتارَ عَلَيْكِ شَخْصاً آخَرَ، إذا أَنْتِ اخْتَرْتِ لا يَجِيْءُ عَيْبٌ، وَبِما أَنَّ عِيارَ جانِبِهِ مَعَكِ صارَ مَغْشُوْشاً، وَقَدْ جَعَلَ مِيْزانَ رَغْبَتِهِ عَنْكِ مائِلاً لِلْجانِبِ الآخَرِ، وَهُوَ بِعَيْنِ القَلْبِ يَقُوْمُ بِمُلاحَظَةِ ذاكَ الجانِب، وَيُلْقِي بِالمُحافَظَةِ على حُقُوْقِكِ مِنْ خَلْفِ الظَّهْرِ، إِذا أَنْتِ أَرْجَعْتِ الوَجْهَ عَنْ مُوافَقَتِهِ، وَقُمْتِ بِفَصْلِ سِلْكِ إِلْفَتِهِ تِلْكَ وَمُزاوَجَتِهِ، أنا أَرْبِطُكِ بِزَوْجٍ آخَرَ لا إِشارَةَ تَحْتَ هذا الطَّاقِ اللَّازَوَرْدِيِ عَنْ رَجُلٍ آخَرَ بِرُجُوْلَتِهِ وَمُرُوْءَتِهِ، لَقَدْ قالُوا، النَّارَ ولا العارَ، أَيَّ واجِبٍ يَجِيْءُ أَنْ تَكُوْنَ جابِراً لِرَأْسِ الأَضْدادِ المَرْضُوْض، وَصابِراً على مَضَرَّاتِ الضَّرائِرِ، وَمُكْمِلاً للنِّهايَةِ مَعَ الأَصْحابِ الدُّوْنِ وَكُلِّ خَؤونٍ بِخِلافِ الطَّبْع، *في طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلٍ*، البَطَّةُ قالَتْ كُلَّ الَّذي تَقُوْلُ قَضِيَّةُ وَفاقٍ، وَنَتِيْجَةُ كَرَمٍ وَإِشْفاقٍ، لكِنَّهُ

مُباحٌ للرَّجُلِ في عَقْدِ النِّكاحِ حَتَّى أَرْبَعِ زَوْجات، وَهُوَ في هذِهِ العَزِيْمَةِ يَمْلِكُ التَّمَسُّكَ بِرُخْصَةِ الشَّرْعِ، *فانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ*، وَهُوَ شَخْصٌ يَنْظُرُ لِلأمامِ وَبَعِيْدُ الفِكْرِ وَطاهِرُ الرَّأْيِ، وَعلى خَبَرٍ عَنْ سِرِّ إِشارَةِ، *فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً*، لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الجَمْعَ بَيْنَ كِلا الضِّدَّيْنِ، وَحِفْظَ طَرِيْقِ العَدالَةِ والنَّصَفَة مُمْكِنُ العَمَل، وَلَوْ كانَ لَكَ الوُثُوْقُ بِتَوافُقِنا، وَبِعَدالَتِهِ، ما أَخَذْتَ هذِهِ الفِكْرَةَ أَمامَ الفِكْر، فَإِنَّ الرِّجالَ الشُّجْعانَ يَسْتَطِيْعُونَ الضَّرْبَ بِسَيْفَيْنِ باليَدَيْن، وَبالمِزاجِ القَوِيِّ يَسْتَطِيْعُونَ شُرْبَ رَطْلَيْن، وَذاكَ الَّذي لا يَعْرِفُ النَّفْسَ في المُحارَبَةِ قادِراً على خَصْمَيْن، لا يَجْعَلُ النَّفْسَ بالقِتال، وَذاكَ الَّذي في طَرِيْقِ السِّباحَةِ لا يَكُوْنُ ماهِراً جِدَّاً، لا يَعْقِدُ في مَعْبَرِ جَيْحُونَ على القَدَمِ جَرَّتَيْن، وَلَوْ مَثَلاً ذاكَ الَّذي أَرْجَعَ قَرِيْني، تَقَدَّمَ بِمُضادَّةِ الأَقْران، وَسَلَكَ مَعي طَرِيْقَ الحَيْفِ والتَّحامُلِ، أرى تَحَمُّلَهُ واجِباً، وَعلى، *إِذا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنْ*، أَعْقِدُ الأَمْرَ، قالَ الثَّعْلَبُ، ما دامَ التَّعْرِيْضُ والتَّلْوِيْحُ لا يَمْلِكانِ النَّفْعَ، وَذاكَ الَّذي هُوَ حَقِيْقَةُ الحالِ واجِبُ القَوْلِ صَرِيْحاً، اِعْلَمِيْ أَنَّ زَوْجَكِ هذا مُتَّهِمٌ لَكِ بِمَيْلِ الطَّبْعِ جِهَةَ شابٍّ آخَرَ أَنْضَرَ مِنْكِ، وَقَدْ جَعَلَ هذا الخَيالَ أمامَ الخاطِر، وَأَنَّكِ مَقْبُوْضَةُ القَلْبِ مِنْهُ، وَأنا كَثِيْراً ما عَرَضْتُ لَهُ طَهارَةَ عِرْضِكِ، فَعَلْتُ ذاكَ لِإِزالَةِ خُبْثِ تِلْكَ الصُّوْرَةِ وَلَمْ يَجِئْ نافِعاً، وَهُوَ كانَ هكذا،

إِذا ساءَ فِعْلُ المَرْءِ ساءَتْ ظُنُوْنُهُ وَصَدَّقَ ما يَعْتادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وَيَجِيْءُ كُلَّ ساعَةٍ بِحَطَبٍ مِنْ هذا النَّوْعِ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ نارِ الطَّبِيْعَة، حَتَّى مَسَحَ لَها كَثِيْراً زَيْتَ الحِيَلِ واللَّطافَةِ بالشَّمْع، حَتَّى صارَتْ لَيِّنَةً وَأَطْلَعَتِ الرَّأْس،

شَيْئانِ يَعْجِزُ ذُو الرِّئاسَةِ عَنْهُما رَأْيُ النِّساءِ وَإِمْرَةُ الصِّبْيانِ
أَمَّا النِّساءُ فَمَيْلُهُنَّ إلى الهَوى وَأَخُو الصِّبا يَجرِي بِغَيْرِ عِنانِ

ثُمَّ قالَتْ، أَيْ أَخُ هذا الَّذي تَأْمُرُ بِهِ، إنَّما تَقُوْلُهُ جَمِيْعاً مِنْ صَمِيْمِ الشَّفَقَةِ والإِسْلامِ وَرِقَّةِ القَلْبِ والرَّحْمَةِ، وَأنا أَرى مَخائِلَ صِدْقِ هذا الحَدِيْثِ على شَمائِلِ زَوْجِي، وَأنا أَعْلَمُ مَقامَ إرادَتِكَ الخَيْرَ وَحُسْنَ مُعامَلَتِك، وَأَعْلَمُ أَنَّ شَوائِبَ الخِيانَةِ بَعِيْدَةٌ عَنْ مَشارِعِ دِيانَتِك، وَإِلَّا ما كُنْتَ أَظْهَرْتَ ذاكَ الَّذي هُوَ مُقْتَضى الوَفاءِ والأَمانَةِ، *والرَّائِدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ*، الآنَ مُرْ لِيَصِيْرَ خلاصي مِنْهُ مُيَسَّراً بِأَيِّ وَجْهٍ، قالَ الثَّعْلَبُ إنَّ مِنْ نَباتاتِ بِلادِ الهِنْدِ نَباتاً جِيْءَ لِيْ بِهِ، وَهُمْ يُسَمُّوْنَ ذاكَ مَوْتَ البَطِّ، إذا أَعْطَيْتِهِ مِنْهُ طَلَعَ مَقْصُوْدُكِ، البَطَّةُ صارَتْ حامِلَةَ المِنَّةِ، وَجَرَعَتْ عَشْوَةَ ذاكَ النَّباتِ كالسُّكَّر، الثَّعْلَبُ ذَهَبَ لِإِيْصالِ وَعْدِهِ ذاكَ الَّذي وَعَدَ للإنْجاز، غابَ يَوْمَيْنِ، عَمِلَ التَّوَقُّفَ في المَنْزِلِ، صَارَتْ بَواعِثُ التَّحَرُّصِ على مَجِيْءِ الثَّعْلَبِ وَجَلْبِهِ الدَّواءَ تَزِيْدُ لَحْظَةً فَلَحْظَةً لِلْبَطَّةِ، وَكباحِثٍ عَنْ مُدْيَةٍ فِيْها رَداهُ، نَهضَتْ وَجاءَتْ إلى بَيْتِ الثَّعْلَبِ،

لِتَعْرِفَ أنْ ما كانَ المُوْجِبُ لِتَقاعُدِهِ وَتَباعُدِهِ عَنِ المَزارِ وَمَعْهَدِ المُلاقاة، وَبِأَيٍّ مانِعٍ وَقَعَ التَّخَلُّفُ عَنِ الوَفاءِ بالوَعْدِ الَّذي جَرى، وَحِيْنَ وَضَعَتِ القَدَمَ بالعَتَبَةِ، والثَّعْلَبُ وَجَدَ المَكانَ خالِياً، فَتَحَ كَمِيْنَ الغَدْرِ على رُوْحِها، وَمَزَّقَ مَوْضِعَ كَبِدِها تَمْزِيْقاً، وَصارَ مَعْلُوْماً أَنَّ كَبِدَ البَطِّ جاءَ وَبالاً لَهُ مِثْلَ رِيْشِ الطَّاوُوْس، وَصارَ مَماتُهُ ظاهِراً مِنْ مَنْبَعِ حَياتِهِ،

لَوْ كُنْتُ أَجْهَلُ ما عَلِمْتُ لَسَرَّني   جَهْلي كما قَدْ ساءَنِي ما أَعْلَمُ
الصَّعْوُ يَصْفِرُ آمِناً في سِرْبِهِ   حُبِسَ الهَزارُ لِأَنَّهُ يَتَرَنَّمُ

أنا قُلْتُ هذِهِ القَصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى يَعْلَمَ المَلِكُ أَنَّهُ على مِثْلِ هذِهِ الصَّداقَةِ لا يُمْكِنُ عَمَلُ اتِّكاءِ الاِعْتِماد، قالَ المَلِكُ أَيْ وَلَدُ سَبَبُ صداقَتي مَعَهُ غايَةُ الفَضْلِ، وَكِفايَةُ وَغَزارَةُ العِلْمِ، والكَياسَةُ والخِلالُ الحَمِيْدَةُ، وخِصالُهُ المُجَرَّبَةُ، وَأنا اخْتَرْتُهُ مِنَ العالَمِ بِفَضِيْلَةِ العِلْم، مِثْلَ ذاكَ الَّذي اخْتارَ الرَّجُلُ التَّاجِرُ، وَلَدُ المَلِكِ قالَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّة،

قِصَّةُ التَّاجِرِ مَعَ الصَّدِيْقِ العالِمِ

قالَ المَلِكُ سَمِعْتُ أَنَّ تاجِراً كانَ يَمْلِكُ وَلَداً مُقْبِلَ الطَّالِعِ مَقْبُولَ الطَّلْعَةِ عالِيَ الهِمَّةِ تامَّ الخِلْقَةِ، عَبِيْرُ الرُّشْدِ والنَّجابَةِ مِنْ حَرَكاتِهِ فائِح، ولَوْنُ العِزِّ والثَّقافَةِ على وَجَناتِهِ لائِح، يَوماً الوالِدُ في أَثْناءِ

النَّصائحِ مَعَهُ قال، مِنْ كُلِّ ما يَحْتاجُ لَهُ النَّاسُ بالدُّنْيا، وَذاكَ الَّذي يَجِيْءُ فاعِلاً إذا جَاءَتْ في الزَّمانَ حاجَةٌ، الصَّدِيْقُ أولى، خُذْ مِنْ مالي أَلْفَ دِيْنارٍ وَسافِرْ، وَخُذْ مَعَكَ صَدِيْقاً خالِصاً، وَطُفْ كالقَمَرِ حَوْلَ كُرَةِ الأَرْض، رُبَّما بِمَنازِلِ السَّيْرِ تَصِلُ لِمُشْتَرِي سِيْرَةٍ، يَهَبُكَ بِنَظَرِ المَوَدَّةِ سَعادَةً، تَجْعَلُ مِنْ ذاكَ ذَخِيْرَةً لِعُمْرِك، وَتَحْتَفِظُ بِهِ مِنْ أَجْلِ فَكِّ قَيْدِ الحَوادِثِ، وَمَرْهَماً لِجُرْحِ الزَّمان،

أَخاكَ أَخاكَ إِنَّ مَنْ لا أَخا لَهُ   كَساعٍ إلى الهَيْجا بِغَيْرِ سِلاحِ

ولا شُبْهَةَ في أَنَّ المُرادَ مِنَ الأَخِ هُنا هُوَ الصَّدِيْقُ المُوافِقُ، والصَّاحِبُ المُخالِصُ والمُصادِق، وإِلَّا فالأَخُ مِنَ الصُّلْبِ الَّذي كانَ عَنِ المَحَبَّةِ والمُوافَقَةِ بَعِيْداً، أَيُّ حاصِلٍ مِنْ أُخُوَّتِهِ، وَمِنْ هُنا قِيْلَ، *رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ*، ثُمَّ بِأَمْرِ الأَبِ، الوَلَدُ أَخَذَ المالَ وَذَهَبَ، وَبِأَقَلِّ وَقْتٍ مِنَ الزَّمانِ رَجَعَ، قالَ الأَبُ رَغْمَ أَنَّ خُرْقَ الفُجُوْرِ عَنْ طَبْعِكَ بَعِيْدٌ، وَأَنَّكَ مَشْهُوْرٌ بِنَزاهَةِ الطَّبْعِ عَنْ تَلْوِيْثِ الفِسْق، لكِنَّني أَعْلَمُ أَنَّكَ مِنَ الوَلْدَنَةِ وَفِعْلِ غَيْرِ ذَوِي التَّجْرِبَةِ، لَمْ تَصْرِفِ المالَ في مَصَبِّ الصَّواب، فَأَنْتَ رَجَعْتَ مِنَ المَقْصَدِ بِهذِهِ السُّرْعَةِ وَجِئْتَ، الآنَ قُلْ كَيْفَ صَرَفْتَ المالَ وَكَيْفَ حَصَلْتَ على الصَّدِيْق، قالَ الوَلَدُ جَمَعْتُ خَمْسِيْنَ صَدِيْقاً كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم طافَ العالَمَ بِمِئَةِ فَضْلٍ، وَأَدَّيْتُ قَرْضَ نَصِيْحَتِكَ مِنْ ذِمَّةِ

عَقْلِي، قالَ الأَبُ أَخشى أَنْ تَكُوْنَ قِصَّةُ أَصْدِقائِكَ شَبِيْهَةً بِذاكَ الدَّهْقان، قالَ الوَلَدُ كَيْفَ كانَ ذاك،

قِصَّةُ الدَّهْقان مَعَ وَلَدِهِ

قالَ التَّاجِرُ سَمِعْتُ أَنَّ دَهْقاناً كانَ يَمْلِكُ الكَثِيْرَ مِنَ العَقارِ والضِّياعِ والمالِ والمَتاع، كانَ يَمْلِكُ دُنْيا، وَجِهازاً بِعُقُوْدِ النُّقُوْدِ مِثْلَ ثَوْبِ البَحْرِ وَجَيْبِ المَنْجَمِ، مَمْلُوْءاً بالدَّفَائِنِ والخَزائِنِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، كانَ مِثْلَ الرَّوْضِ في الرَّبِيْعِ غَنِيَّاً، وَمِثْلَ الغُصْنِ في الشِّتاءِ مُسْتَظْهَراً، كانَ دائِماً يُعْطي الوَلَدَ النَّصائحَ المَرْغُوْبَةَ، وَفي اسْتِحْفاظِ المالِ والمُحافَظَةِ على دَقائِقِ الدَّخْلِ والخَرْجِ وَحُسْنِ تَدْبِيْرِ المَعِيْشَةِ في مُباشَرَةِ البَذْلِ والإمْساكِ، كانَ يُظْهِرُ المُبالَغات، وكانَ ادِّخارُ الصَّدِيْقِ في وَصاياهُ رَأْسَ كَلِماتِ الدَّفْتَر، وَكانَ يَعْرِفُهُ مِنْ أَهَمِّ المُهِمَّات، قالَ أَيْ وَلَدُ لا تَأْكُلِ المالَ بالتَّبْذِيْر، حَتَّى لا تَأْكُلَ في العاقِبَةِ النَّدامةَ، وَقُمْ باخْتِيارِ الصَّدِيْقِ بِقانُوْنِ العَقْلِ واخْتِيارِهِ، حَتَّى لا تَصِيْرَ عَدُوَّ وَجْهِ العُقَلاء، واحْمِلِ الأَلَمَ بِتَحْصِيْلِ العِلْمِ، حَتَّى لا يَصِيْرَ عُمْرُكَ صَرْفاً بِلا فائِدَةٍ، فَإِنَّ الدُّنيا جَمِيْعاً قاذُوْرَةٌ، أُخِذَتْ في هذِهِ القارُوْرَةِ الشَّفَّافَةِ، إِذا شَخْصٌ نَظَرَ فِيْها بِعَيْنِ العَقْلِ النَّاظِرَةِ صَحِيْحاً، عَرِفَ مِزاجَها وَعَلِمَ أَنَّ ذاكَ الَّذي في العاجِلِ يَجِيْءُ نافِعاً هُوَ الصَّدِيْقُ، وَذاكَ الَّذي في الآَجِلِ لا زَوالَ لِمَنْفَعَتِهِ هُوَ العِلْمُ،

تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ   شِيْبا بِماءٍ فَعادا بَعْدُ أَبْوالا

حِيْنَ الأَبُ عبَرَ وَتَرَكَ كُلَّ تِلْكَ الثَّرْوَةِ وَما عَمِلَ أَمامَ الاِبْنِ، الاِبْنُ مَدَّ يَدَهُ لِذاكَ بِالإِتْلافِ والإِسْرافِ، وَبِجَمْعٍ مَعَ إِخْوانِ الشَّياطِيْنِ كانَ يَمُدُّ الخُوانَ والبِساطَ بالإِفْراط، وَفِيْ أَيَّامٍ مَعْدُوْداتٍ نَثَرَ الرِّبْحَ والخُسْرَ بِلا حُدُوْد، كانَ لَهُ أُمٌّ عالِمَةٌ وَحَسَنَةُ الرَّأْيِ وَناظِرَةٌ لِلْعَواقِبِ، قالَتْ للاِبْنِ، اِحْفَظْ نَصِيْحَةَ الأَب، ولا تُعْطِ الاِسْتِظْهارَ الَّذي تَمْلِكُ سُدَىً مِنَ اليَد، فَإِنَّكَ إِذا أَعْطَيْتَهُ وَقْتَ لا يَجِبُ، لا يَكُوْنُ مَوْجُوْداً وَقْتَ يَجِبُ، وَلا تَعْتَبِرْ أَيَّ صَدِيْقٍ صافِياً ما لَمْ تُصَفِّ أَوْصافَهُ بِراوُوْقِ التَّجْرِبَةِ، وَلا تَدْعُهُ الصَّدِيْق إِلى أَنْ تَعْلَمَ مُماحَضَتَهُ مِنْ مُماذَقَتِهِ،

النُّدَماءُ على الكَأْسِ كَثِيْرُون   لكِنَّ النُّدَماءَ على الأَلَمِ قَلِيْلُون
عَهْدُ عِشْقِ آكِلِي اللُّقْمَةِ لا مَدَدَ   لَهُ مِثْلَ سِراجِ النِّساءِ الأرامِل
اعْرِفْ الشَّرِيْفَ والخَسِيْسَ بِلا نَفْعٍ   قُلْ مَنِ الشَّخْصُ الَّذي يَكُونُ للشَّخْص

مِنْ هذا الحَدِيْثِ جاءَتْ ظاهِرَةً لِوَلَدِ الدَّهْقانِ الرَّغْبَةُ بامْتِحانِ حالِ الأَصْدِقاء، ذَهَبَ إِلى واحِدٍ مِنْ الأَصْدِقاءِ وَمِنْ وَجْهِ الاِمْتِحانِ قالَ لَهُ، عِنْدي في البَيْتِ فَأْرَةٌ تُحْدِثُ الكَثِيْرَ مِنَ الخَلَلِ والفَسادِ في البَيْت، ولا تُوْجَدُ قُدْرَةٌ على دَفْعِها، وَلَيْلَةَ الأَمْسِ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ وَجَدَتِ الظَّفَرَ على هاوُنٍ يَزِنُ عَشْرَةَ أَمْنانٍ، وَأَكَلَتْ ذاكَ كُلَّهُ تَماماً، الصَّدِيْقُ قالَ مِنَ المُمْكِنِ أَنَّهُ كانَ على الهاوُنِ دَسَمٌ، وَغَيْرُ مَخْفِيٍّ حِرْصُ الفَأْرِ

على أَكْلِ الدَّسَم، وَلَدُ الدَّهْقانِ مِنْ ذاكَ التَّصْدِيْقِ مِنْهُمْ لَهُ، زادَ الاِعْتِمادُ مِنْهُ على الأَصْدِقاء، وَبِأَسْرَعِ وَقْتٍ جاءَ بالاِهْتِزازِ أَمامَ الأُمِّ وَقالَ، لَقَدْ جَرَّبْتُ الأَصْدِقاءَ بِهذِهِ الكَبِيْرَةِ، قُلْتُ خَطَأً وَهُمْ لَمْ يَصِيْروا مَشْغُوَلِيْنَ باستِصغارِهِ ، وَمِنْ غايَةِ الحَياءِ والحُرْمَةِ لَمْ يَقُوموا بِتَكْذِيْبي، وَأَخذُوا كَذِبي على أنَّهُ صِدْقٌ، الأُمُّ ضَحِكَتْ مِنْ ذاكَ الحَدِيْث،

وَرُبَّما ضَحِكَ المَكْرُوْبُ مِنْ عَجَبٍ فالسِّنُّ تَضْحَكُ والأَحْشاءُ تَضْطَرِبُ

ثُمَّ قالَتْ، أَيْ وَلَدُ، العَقْلُ يَضْحَكُ على هذا الحَدِيْث، ولكِنْ يَجِبُ البُكاءُ عَلَيْكَ بِأَلْفِ عَيْن، فَأَنْتَ لا تَمْلِكُ عَيْنَ البَصِيْرَةِ لِكَي ترى وَجْهَ الصَّداقَةِ والعَداوَةِ في مِرْآةِ العَقْلِ، الصَّدِيْقُ هُوَ ذاكَ الَّذي يَقُوْلُ لَكَ الصِّدْقَ لا ذاكَ الَّذي يُصَدِّقُكَ، الوَلَدُ مِنْ غايَةِ الغَباوَةِ وَفَرْطِ الشَّقاوَةِ قالَ، حَقّاً قالُوا، لا يَجِبُ جَعْلُ النِّساءِ مَحْرَمَ أَسْرارٍ، وَإِعْطاؤُهُنَّ مَقامَ الإِصْغاءِ لِكُلِّ حَدِيْثٍ، وَهَكَذا أعْطى كُلَّ ما جَمَعَ وادَّخَرَ الأبُ جُمْلَةً بِأُسْلُوْبِ العَتَهِ والسَّفَهِ لِرِيْحِ الهَوى والهَوَس، حَتَّى وَصَلَ يَوْمُهُ لِلَيْلِ الإِفْلاس، وَصارَ أَمْرُهُ مِنْ مَلْبَسِ الحَرِيْرِ والأَطْلَسِ، إلى فُرُشِ الصُّوْفِ وَفِراشِ الكِرْباس، وَرِيْحُ الإفلاسِ أَجْلَسَتْهُ على تُرابِ المَذَلَّةِ، يَوْماً كانَ جالِساً بِجِوارِ ذاكَ الصَّدِيْقِ ما بَيْنَ الأَصْحابِ الآخَرِيْن، حكى حِكايَةَ اضْطِرابِ أَمْرِهِ وَجَرى على لِسانِهِ في الوَسَطِ أنْ لَيْلَةَ الأَمْسِ كُنْتُ أَمْلِكُ على السُّفْرَةِ خُبْزَةً واحِدَةً، جاءَتْ فَأْرَةٌ وَأَكَلَتِ الخُبْزَةَ

كُلَّها، ذاكَ الصَّدِيْقُ عَيْنُهُ الَّذي كانَ أَلْبَسَ مُمَوِّهاتِ أكاذِيْبِهِ وَتُرَّهاتِ أقاوِيْلِهِ لِباسَ الصِّدْقِ، وَأَرْسَلَ لِلْقَبُولِ باسْتِقْبالِ أَباطِيْلِهِ مَنْزِلَيْن، قالَ مِنْ طَرِيْقِ التَّمَسْخُرِ والتَّخْجِيْل، أَيْ رِجالُ اسْمَعُوا هذا العَجَبَ، وانْظُرُوا هذا المُحال، كَيْفَ لِفَأْرَةٍ أَنْ تَقْدِرَ على أَكْلِ خُبْزَةٍ بَلَيْلَةٍ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ أَصْدِقاءَ اللُّقْمَةِ والخِرْقَةِ، يُراعُوْنَ جانِبَ الحُرْمَةِ طالَما عَرِفُوا مالَكَ مَنْبَعَ نَفْعٍ وَضَرَرٍ، وَمَطْمَعَ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَإِذا لَمْ يَرَوا مَعَكَ الإِسْعادَ مِنَ البَخْتِ، وَعَرِفُوا ذاكَ الاِسْتِعْدادَ الَّذي تَمْلِكُ باطِلاً، يَعُدُّوْنَ صِدْقَكَ كَذِباً، وَلَوْ كُنْتَ تَقُولُ كُلَّ كَلِمَةِ الإِيْمانِ حَمَلُوا ذلِكَ على الكُفْر، كَمِثْلِ كُوْزِ الفُقاعِ مَثَلاً، طالَما هُوَ مَمْلُوْءٌ يَطْبَعُوْنَ على شَفَتِهِ وَفَمِهِ القُبَلَ، فَإِذا صارَ فارِغاً رَمَوْهُ مِنَ اليَد،

أَلَسْتَ تَرى الرَّيْحانَ يُشْتَمُّ ناضِراً وَيُطْرَحُ في الرَّمْضا إِذا ما تَغَيَّرا

أَيْ وَلَدُ أَخْشى أَنَّ أَصْدِقاءَكَ والعِياذُ باللهِ مِنْ هذِهِ الطَّائِفَة، فَأَنا فيَ الثَّمانِيْنَ سَنَةً الَّتي كانَتْ مُدَّةَ عُمْري، عَمِلْتُ الخَرْجَ بِتَجْرِبَةِ أَحْوالِ العالَمِ في أَمْرِ الصَّدِيْقِ والعَدُوِّ، حَتَّى حَصَلْتُ باليَدِ على صَدِيْقٍ وَنِصْفِ صَدِيْق، كانا لائِقَيْنِ في اقْتِرافِ ثُمالَةِ وَصافي الأَيَّام، فَكَيْفَ أَنْتَ بِأَيَّامٍ عِدَّةٍ حَصَّلْتَ خَمْسِيْنَ صَدِيْقاً، تَعالَ وَأَظْهِرْ لِيْ أَصْدِقاءَكَ لِأُظْهِرَ لَكَ مَقامَهُم، وَأُظْهِرَ لَكَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ أَيْنَ يَكُونُ في مُراعاةِ

جانِبِ الصَّداقَةِ، وَمُداراةِ رُفَقاءِ طَرِيْقِ الصُّحْبَةِ، الوَلَدُ عَمِلَ الإِجابَةَ وَحِيْنَ جاءَ اللَّيْلُ ذَبَحَ التَّاجِرُ شاةً وَلَفَّها بالكِرباس، وَوَضَعَها على كَتِفِ حَمَّالٍ، وَأَلقى ابْنَهُ أمامَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَذْهَبَ لِبابِ واحِدٍ مِنَ الأَصْدِقاءِ وَيُنادِيَهُ لِلخُرُوْجِ مِنَ البَيْتِ، وَيَقُولَ لَهُ، هذا الرَّجُلُ مِنْ مشاهِيْرِ المَدِيْنَةِ، وَهذِهِ اللَّيْلَةَ جاءَ إِلَيَّ فَجْأَةً سَكْرانَ واشْتَبَكَ مَعِي، أنا ضَرَبْتُهُ سِكِّيْناً في مَقْتَلٍ، جاءَ مَقْتُولاً عَنْ يَدِي، الآنَ وَدائِعُ الأَسْرارِ في مِثْلِ هذِهِ الوَقائِعِ تُوْضَعُ أمامَ الأَصْدِقاء، أنا أَتَوَقَّعُ مِنْكَ أنْ تَضَعَ هذِهِ الجِيْفَةَ تَحْتَ التُّراب، وَتَجْعَلَ ثَوْبَ أَحْوالي مُطَهَّراً مِنْ لَوْثِ دَمِهِ، وَكذلِكَ فَعَلَ الاِبْنُ، ذَهَبَا إلى بابِ بَيْتِ صَدِيْقٍ كانَ يعَرِفُهُ، قَرَعَ الحَلْقَةَ فَجاءَ خارِجاً، والحَدِيْثَ كما كانَ جَرى تَلْقِيْنُهُ، عَمَلَ التَّقْرِيْرَ لَهُ، أعْطى ذاكَ الجَوابَ أَنِ البَيْتُ مِنْ زَحْمَةِ العِيالِ والأَطْفالِ ضَيِّقٌ عَلَيْنا، لَنْ تَجِدَ المَكانَ الَّذي يُمْكِنُ إِخْفاءُ ذاكَ فِيْه، وَأنا أَمْلِكُ الجِيْرانَ قائِلِي العَيْبِ طالِبِي العَثْرَةِ، والكُلُّ بالغَمْزِ والنَّمِيْمَةِ عَلَيَّ مَشْغُولٌ، فلا يَطْلَعُ عَنْ يَدِ الإمْكانِ مِنِّي، رَجَعا مِنْ ذاكَ المَكانِ وَعلى ذاكَ الشَّكْلِ طافا على عَدَدٍ مِنْ بُيُوْتِ الأَصْدِقاء، أَيُّ شَخْصٍ ما وَضَعَ يَدَ القَبُولِ على الصَّدْرِ، وَسَهْمُ التَّمَنِّي أَخْطَأَ جَمِيْعَ الأَهداف، الأَبُ قالَ جَرَّبْتُ أَصِدِقاءَكَ وَعَرِفْتُهُم جَمِيْعاً بالاِعْتِبارِ نَقْشاً على جِدار، وَشَجَرَةَ شَوْكٍ بِأَرْضِ الخَيْبَةِ لا تَمْلِكُ أَغْصانُها فاكِهَةَ المَنْفَعَةِ، لِتُعْطي لِتِلْكَ الأَفْواهِ اللَّذَّةَ، ولا تُلْقِي أَوْراقُها ظِلَّ الرَّاحَة، كَيْ يَلْجَأَ إِلَيْها المُتْعَبُون،

إِذا كُنْتَ لا تُرْجى لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ   وَلَمْ يَكُ لِلْمَعْرُوفِ عِنْدَكَ مَطْمَعُ
وَلا أَنْتَ مِمَّنْ يُسْتَعانُ بِجاهِهِ   ولا أَنْتَ يَوْمَ الحَشْرِ مِمَّنْ يُشَفَّعُ
فَعَيْشُكَ في الدُّنْيا وَمَوْتُكَ واحِدٌ   وَعُوْدُ خِلالٍ مِنْ وِصالِكَ أَنْفَعُ

الآنَ تَعالَ لِتُجَرِّبَ أَصْدِقاءَ الرِّجال، أَوَّلاً ذَهَبا لِبابِ ذاكَ النِّصْفِ صَدِيْق، وَنادَياهُ بالصَّوْتِ فَجاءَ خارِجاً، قالَ لَهُ التَّاجِرُ انْظُرْ ما وَصَلَ إِلَيَّ مِنَ القَضاء، وَبِماذا جاءَ القضاءُ أمامي مِنَ التَّقْدِيْرِ، هذا شَخْصٌ صارَ مَقْتُولاً عَنْ يَدِي، في إِخْفاءِ هذِهِ الحالَةِ لَمْ أَعْرِفْ حِيْلَةً غَيْرَ إِظْهارِها لِرَأْيِكَ، يَجِبُ أَنْ تُخَبِّئَني وَتُخْفِيَ هذا المَقْتُول، لِنَرى أَيْنَ يَنْسَحِبُ رَأْسُ هذا الخَيْط، وَهَذا التَّقَبُّلُ والتَّفَضُّلُ لا يَقَعانِ بَعِيْداً عَنْ كَرَمِ عَهْدِكَ وَحُسْنِ حِفاظِكَ، نِصْفُ الصَّدِيْقِ قالَ أنا رَجُلٌ مُفْلِسٌ فلا خَوْفَ لي مِنْ مُؤاخَذَةِ الجِنايَةِ مِنَ القاضي، وَأُظْهِرُ في هذا مُسامَحَةَ البُخْل، لكِنِّي أَمْلِكُ مَنْزِلاً أَضْيَقَ مِنْ قَلْبِ البُخَلاءِ وَيَدِ المُفْلِسِيْن، وَتَزاحُمُ الأَطْفالِ الصِّغارِ مِنَ الذُّكُورِ والإِناثِ، وَتَراكُمُ المَتاعِ والأَثاث، يَجِيْءُ مانِعاً مِنْ ذاكَ وَأَنِّي أَقْدِرُ أُخْفي الاِثْنَيْن، إِمَّا أَنْ تَأْتِيَ أَنْتَ، أَوْ أَنْ تُسْلِمَ لي هذا المَقْتُولَ، واحِدٌ مِنَ الاِثْنَيْنِ مَقْبُولٌ، أَجْعَلُ لَهُ المَكانَ مِثْلَ سَوادِ البَصَرِ في العَيْنِ، وَسُوَيْداءِ القَلْبِ في الصَّدْر، قالَ رُبَّما أَذْهَبُ وَأَعُوْدُ، وجاءا مِنْ هُناكَ، قالَ لِلاِبْنِ هذا هُوَ نِصْفُ الصَّدِيْقِ ذاك، الَّذي قُلْتُ لَكَ شَرْحَ حالِهِ، تَعالَ لِنَصِيْرَ إلى ذاكَ الصَّدِيْقِ التَّام،

وَنَضْرِبَ نَقْدَ ولائِهِ على مَحَكِّ الاِبْتِلاء، ذَهَبا وَحِيْنَ وَصَلا إلى بابِ مَنْزِلِهِ، جاءَ خارِجاً فاتِحاً حاجِبَ الصَّباحَةِ، وَعاقِداً على وَسَطِ السَّماحَةِ، مُتَعَثِّراً في أَذْيالِ العَجْلَةِ والخَجْلَةِ، وَمُتَوَفِّراً على حُقُوْقِ الزِّيارَةِ بِلا مَوْعِدٍ، قالا التَّحِيَّةَ والسَّلامَ وَحِكايَةَ المَقْتُول، وَتَحَدَّثا عَنْ ذاكَ الاِسْتِخْفاءِ، وَحِيْنَ سَمِعَ الحال، وَضَعَ إِصْبَعَ القَبُولِ على العَيْنِ وَقال،

ما لَمْ تَتْرُكْ جانِباً كُلَّ ما مَعَكَ الحَدِيْثُ مِنْكَ عَنِ العِشْقِ خَطَأٌ

تَرْجِيْحُ جانِبِ الأَصْدِقاءِ وَتَرْقِيْحُ أَحْوالِهِم، على كُلِّ مَصالِحِ وَمَناجِحِ وآمالِ وَأماني هذا العالَمِ في مَذْهَبِ الفُتُوَّةِ والشَّرِيْعَةِ كَرَمٌ واجِبٌ، والاِمْتِناعُ عَنْ تلافي الخَلَلِ الَّذي يَصِيْرُ مُتَطَرِّقاً بِأَمْرِ الأَصْدِقاء، أمامَ مُفْتي العَقْلِ مَحْظُوْرٌ، وإِذا كانَ الأَصْدِقاءُ وَمَنْ يُدْعَوْنَ الإِخْوَةَ هذا اليَوْمَ لا يَصِيْرُونَ مُنْتَفِعِيْنَ الواحِدُ مِنَ الآخَر، يَصِيْرُ يَوْمُ، *يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ*، نَقْدَ الحال، أَيَّةُ فائِدَةٍ مُمْكِنَةُ التَّصَوُّرِ مِنَ الواحِدِ للآخَر، لا يَجِبُ إِعْطاءُ الطَّرِيْقِ لِأَيَّةِ فِكَرَةٍ وانْكِسارٍ بالخاطِرِ، حَتَّى وَلَو كانَتِ القُوَّةُ البَشَرِيَّةُ عَنْ كِتْمانِ ما يَقْتَضي الكِتْمانَ قاصِرَة،

فَلا أَنا عَمَّا اسْتَوْدَعُوْني بِذاهِلِ ولا أنا عَمَّا كاتَمُوْني بِفاحِصِ

أنا أَجْعَلُ هذا المَقْتُوْلَ مَخْفِيَّاً تَحْتَ الأَرْضِ ما حَيِيْتُ، أُحافِظُ عَلَيْهِ مَخْفِيَّاً مِثْلَ سِرِّ المَعْشُوْقِ عَنِ الرَّقَيْبِ، وَضَمِيْرِ المَكِيْدَةِ مِنَ العَدُوِّ، وَهَكَذا كُلَّ العُمُرِ مِثْلَ سِرِّ الأَنْجُمِ والأَفْلاكِ يَبْقى مَخْفِيَّاً عَنِ العالَمِيْنَ في حِجابِ التُّراب، وَأَنا أَحْتَفِظُ لَكَ ذاكَ الوَقْتَ بِحُجْرَةٍ خالِيَةٍ مِنْ حُضُوْرِ الأَغْيارِ كَرَوْضَةٍ بِجَنَّةٍ خالِيَةٍ مِنْ زَحْمَةِ الأَشْواك، يُعِدُّوْنَها لَكَ مَجْلِساً لائِقاً، وَيُعِدُّونَ كُلَّ ما كانَ مِنْ أَسْبابِ الفَراغَةِ والإِسْتِراحَة، التَّاجِرُ حِيْنَ شاهَدَ كُلَّ هذا العَطْفِ وَنَضارَةَ الوَجْهِ وَمُلاطَفَةَ الضَّيْفِ وَحُسْنَ الخِصالِ مَنْهُ، خَرَجَ مِنَ الجِلْدِ لِذاكَ الصَّدِيْقِ الَّذي كانَ مِنْ وَجْهِ المَعْنى جَمِيْعاً لُبَّاً بِلا جِلْدٍ، وَوَضَعَ لَهُ في الوَسَطِ مَقْصُوْدَ الأَمْرِ وَمَصْدُوْقَةَ الحال، وَقالَ اعْلَمْ أَنِّي بَرِيْءٌ مِنْ هذِهِ الجَرِيْمَةِ الَّتي أَلْحَقْتُها بالنَّفْسِ، والغَرَضُ مِنْ هذا كانَ امْتِحانَ عِيارِ صَداقَتِكَ وَمَعْرِفَةَ جَوْهَرِ أَصْلِك، وَلِأَعْرِفَ إلى أَيْنَ تَصِلُ في مَحاسِنِ الأَخْلاقِ وَمَكارِمِ الأَوْصاف، وَلِأُظْهِرَها للسَّيِّئِيْنَ الَّذِيْنَ لا يَعْلَمُون، ثُمَّ جَعَلَ الوَجْهَ لِلْوَلَدِ وَقالَ، أَيْ وَلَدُ أنا اخْتَرْتُ الصَّدِيْقَ العالِمَ، وَأَخَذْتُ حِسابَ الصَّداقَةِ مِنَ العِلْمِ، غَرْبَلْتُ كُلَّ العالَمِ بِغِرْبالِ الخِبْرَةِ، حَتَّى وَجَدْتُ هذا الأَكْمَلَ،

إِذا كانَ العالِمُ لِرُوْحِكَ العَدُوَّ   خَيْرٌ مِنَ الصَّدِيْقِ رَجُلٌ كانَ جاهِلاً

أَنا أَيْضاً جَعَلْتُ لَكَ مِنْ هذا الصَّدِيْقِ العالِمِ الدَّلِيْلَ، حَتَّى إِذا يَوْماً غَرِيْمُ الحَوادِثِ مَدَّ اليَدَ لَكَ وَأَمْسَكَ بِلُبَّةِ ثَوْبِكَ، أَظْهِرِ الاِعْتِصامَ بِذَيْلِ

عِصْمَتِهِ، واجْعَلْ رَأْيَهُ في مُداخَلَةِ الأَعْمالِ مُقْتَدى النَّفْسِ، أوْ إِذا ما وَقَعَتْ ما بَيْنَكُمْ أنتُمُ الإِخْوَةُ ذاتُ البَيْن، يُظْهِرُ في إِصْلاحِ ذاكَ تَدَخُّلَ يَدِ الكِفايَةِ، وَيَجْعَلُ مَوارِدَ الأُلْفَةِ والأُخُوَّةِ صافِيَةً مِنْ شَوائِبِ المُنازَعَة،

يَرى للـزَّائـِرِيْـنَ إذا أَتَـوْهُ حُقُوْقاً غَيْرَ واهِيَةٍ عُراها
إذا نَزَلُوا بِساحَتِهِ رَآهُمْ قَذَىً في عَيْنِهِ حَتَّى قَضاها

المَلِكُ انْتَقَلَ مِنْ دارِ غُرُوْرِ الدُّنْيا إلى دارِ سُرُوْرِ الآخِرَة، وَأَسْلَمَ سَرِيْرَ المُلْكِ والرِّئاسَةِ لِوَلَدِهِ الأَكْبَرِ، والأَوْلادُ كُلٌّ واحِدٍ حَفِظَ مَقامَ تَوْلِيَتِهِ حَسَبَ وَصِيَّةِ الأَبِ، وَأَخْرَجُوا مِنَ الوَسَطِ النِّفاقَ والشِّقاق، حَتَّى بَقِيَ أَمْرُهُمْ وِفْقَ الإِصْلاحِ بِيُمْنِ الوِفاق، والمُلْكُ بَقِيَ على قَرارِ العَمارَةِ، وَصارَ مُتَوافِقاً الاِبْتِداءُ والاِنْتِهاءُ، وَصارَ مُقْتَرِناً البِدايَةُ والنِّهايَة، فَلْيُبْقِ إِيْزَد تعالى سِلْكَ أَحْوالِ العالَمِيْنَ بِواسِطَةِ رَأْيِ فاتِحِ العالَمِ السَّيِّدِ الأَعْظَمِ مُعِيْنِ الإِسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ مَنْظُوْماً، وَعِزَّ جَلالِهِ مِنْ وَصْمَةِ عَيْنِ الكَمالِ مَصُوْناً وَمَعْصُوْماً، وَبِساطَ مَكارِمِهِ مُمَهَّداً، وَذِكْرَ مَآثِرِهِ وَمَفاخِرِهِ مُخَلَّداً، بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَعِتْرَتِهِ الطَّاهِرِيْن.

البابُ الثَّالِث

في المَلِكِ أرْدَشِيْر والعالِم مهران به

وَلَدُ المَلِكِ قالَ سَمِعْتُ أَنَّ الشَّاهَ أَرْدَشير الَّذي كانَ مُتَقَدِّماً على قُدَماءِ المُلُوْكِ وَعُظَمَاءِ السَّلاطِيْنِ بِخَصائِصِ العَدْلِ والإحْسانِ، وَأُمُّ الدَّهْرِ ما وَلَدَتْ وَلَداً بِذَكائِهِ، كانَ يَمْلِكُ بِنْتاً عَذْراءَ طاهِرَةَ البَدَنِ، كُلُّ مَنْ نَظَرَ إلى بَشْرَتِها، أَجْرى القَوْلَ على اللِّسانِ، *ما هذا بَشَراً*، وَكُلُّ مَنْ رأى لَحْظَةَ غَمْزَةِ أَلْحاظِها قَرَأَ، *أَفَسِحْرٌ هذا*، صُوْرَةُ مِثْلَ تِلْكَ غَيْرُ مُمْكِنَةِ النَّقْشِ على لَوْحِ المُخَيِّلَة، جَمالٌ لَمْ يَرَ النَّظَرُ في مِرْآةِ التَّصَوُّرِ لَهُ النَّظِيْر،

كانَتْ رُوْحُها عَقْلاً وَبَدَنُها رُوْحاً طاهِراً قُلْتَ أَنَّها لا تَمِلِكُ مِنَ التُّرابِ نَصِيْباً
وَجْهُها كَالبُسْتانِ في شَهْرِ نَيْسان بِقامِتِها ما زَرَعَ السَّرْوَةَ الدَّهْقان

ذاتُ وَجْهِ القَمَرِ الَّتي الشَّمْسُ مِنْ رَوْزَنَةِ إيْوانِها تَجِيْءُ تَسْرِقُ إِلَيْها النَّظَرَ، وَزُحَلُ يَعْمَلُ حارِساً على حِجابِ عِصْمَتِها، إِلَّا المِشْطُ لَمْ يَكُنْ وَصَلَ لِزُلْفِها، وَإِلَّا عَيْنُ المِرْآةِ لَمْ يَكُنْ رأى جَمالَها، إلى الآنَ دُرْجُها البِلَّوري يَمْلِكُ خَتْمَ العُذْرَةِ، وَعِذارُها الفِضِّيُّ يَمْلِكُ نِقابَ الصِّيانَةِ،

غَزالٌ لَهُ مَرْعىً مِنَ القَلْبِ مُخْصِبٌ   وَظِلٌّ صَفِيْقُ الجانِبَيْنِ ظَلِيْلُ

هُوَ الشَّمْسُ تَغْشى النَّاظِرِيْنَ بِنُوْرِها   وَلَـيْس إِلَـيْها للأَكُفِّ سَبِيْلُ

حِيْنَ وَصَلَتْ لِمَرْتَبَةِ البُلُوْغِ، جاءَتْ لِأَشْرافِ المُلُوْكِ مِنْ أَطْرافِ العالَمِ جَواذِبُ الرَّغْبَةِ بِخُطْبَتِها، وَلَمْ يُلْقِ طَرَفُ مَقْنَعَتِها الظِّلَّ على أَيِّ صاحِبِ تاج، حَتَّى طَلَعَ زَمانٌ طَوِيْلٌ، والبِيْضُ قَدْ عَنِسَتْ وَطالَ جِراؤها، يَوْماً الشَّاهُ قالَ، أَيْ بِنْتُ تَعْلَمِيْنَ أَنَّ الزَّوَاجَ زِيْنَةُ النِّساء، وَصِوانُ حالِهِنَّ، وَتَزْيِيْنُ عُمْرِهِنَّ، وَرَغْمَ أَنَّكِ فَخْرُ الأُمَّهاتِ والآباءِ، فَإِنَّ إِباءَكِ الزَّوْجَ، وَإِظْهارَ زِيادَةِ التَّأَنُّقِ والتَّأَبِّي، في هذا البابِ، يَبدْو بَعِيْداً عَنِ الصَّواب، وَطُوْلُ مَكْثِ البَناتِ في بَيْتِ الآباءِ مُشَبَّهٌ بِذاكَ الماءِ الزُّلالِ الَّذي يَبْقى في الحَوْضِ زِيادَةً عَنِ العادَة، فَإِنَّهُ لا بُدَّ أَنَّ رائِحَةَ ذاكَ لا تَكُونُ خالِيَةً مِنَ النَّتَن، وَصاحِبُ الشَّرِيْعَةِ الَّذي في مَغَبَّةِ الحالِ عَرِفَ آفَةِ ذاكَ، عَدَّ المَوْتَ أَلْيَقَ بِحالِهِنَّ مِنَ الحَياة، وَقالَ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ، *نِعْمَ الخَتَنُ القَبْرُ*، وَقالَ جَمِيْلاً ذاكَ الَّذي قالَ،

مَنْ كانَ يَمْلِكُ بِنْتاً خَلْفَ الحِجابِ   سَيِّئُ النَّجْمِ وَلَوْ كانَ يَمْلِكُ التَّاج

إِنَّهُ أولى أَنَّكِ تُعْطِيْنَ الرِّضا حَتَّى أُعْطِيَكِ لِوَلَدِ المَلِكِ فُلان، فَهُوَ يَمْلِكُ كَفاءَةَ الحَسَبِ والنَّسَب، لِأَجْعَلَ الخاطِرَ فارِغاً مِنَ التَّفْكِيْرِ بِكِ، البِنْتُ قالَتْ، البَناتُ مِحَنٌ والبَنُوْنَ نِعَمٌ، فالمِحَنُ مُثابٌ عَلَيْها والنِّعَمُ

مَسْؤولٌ عَنْها، الأولادُ نِعْمَةٌ، وَنِعْمَةُ هذا العالَمِ تَكُونُ سَبَبَ الحِسابِ والعِقاب، والبَناتُ مِحْنَةٌ، وَمِحْنَةُ هذا العالَمِ مَظَنَّةُ المَغْفِرَةِ والثَّواب، وَصَبْرُ الآباءِ على ذاكَ، والتَّعامُلُ مَعَ شَدَّةِ ذاك، مِنْ حَيْثُ العَقْلُ والشَّرْعُ لازِمٌ، وَإِمْعانُ النَّظَرِ في إِعْطاءِ البِنْتِ للزَّوْجِ واخْتِيارِ الصِّهْرِ شَرْط، وَحَقُّ الوِلايَةِ والإِجْبارِ المُثْبَتُ لِلآباء، اعْرِفْهُ أَيْضاً بِكَمالِ الشَّفَقَةِ لِلأَبِ والبِنْت، فَهُوَ كانَ باعِثاً على الاِحْتِياطِ والاِسْتِقْصاءِ في طَلَبِ مَصالِحِ البَنات، والزَّوْجُ الَّذي لا يَكُوْنُ كُفُؤاً لِلبِنْتِ عَدَمُ إِعْطائِهِ أَولى، والوَلَدُ الَّذي لَمْ يُوْلَدْ سَعِيْداً أولى أَلَّا يَكُون، إِذا كُنْتَ تَطْلُبُ الكَفاءَةَ بالمُلْكِ والمالِ، فَهذا بَعِيْدٌ عَنِ الكِفايَة، الشَّخْصُ الكُفُؤُ لي شَخْصٌ يَمْلِكُ في العالَمِ ما لا يَعْرِفُ الزَّوال، ولا يَقْبَلُ النُّقْصان، فَإِنَّ المالَ وَلَوْ كانَ كَثِيْراً، هُوَ هُنا في مَعْرَضِ التَّلَف، وَفِيْ مَعْبَرِ سَيْلِ الحادِثِ والوارِث، وَهُوَ هُناكَ خالٍ مِنْ ثَمَرَةِ المَنْفَعَة، والنَّسَبُ هُنا بِلا ضَمِيْمَةِ الحَسَبِ لا يَجِيْءُ بالعَقْل، وَهُوَ هُناكَ مُعَطَّلٌ مِنْ فائِدَةِ الاِعْتِبار، *فلا أَنْساب بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ*، المَلِكُ قالَ لَها أَنْتِ بِنْتُ مَلِكٍ وَيَلِيْقُ بِكِ زَوْجٌ مِنْ أَولادِ المُلُوْك، وَحُسْنُ اللَّآلِئِ في النِّظامِ ازْدِواجُها، البِنْتُ قالَتْ، المَلِكُ هُوَ الَّذي كانَ على نَفْسِهِ وَغَيْرِ نَفْسِهِ حاكِماً آمِراً، قالَ المَلِكُ وَمَنْ يَكُوْنُ ذاكَ الَّذي يَمْلِكُ هذِهِ الصِّفَة، قالَتِ البِنْتُ هُوَ ذاكَ الَّذي يَجْعَلُ الحِرْصَ والغَضَبَ تَحْتَ قَدَمِ العَقْل، وَيَكُونُ آمِراً على النَّفْس، وَذاكَ الَّذي يُعْرِضُ عَنْ طَلَبِ عَيْبِ الآخَرِيْن، حَتَّى لا

يَطْلِبُوا عَيْبَهُ، وَهُوَ الحاكِمُ على نَفْسِهِ وَعلى غَيْرِ نَفْسِهِ، ثُمَّ المَلِكُ بَقِيَ في طَلَبِ مِثْلِ هذا الرَّجُلِ مُتَفَحِّصاً زَمَناً طَوِيْلاً، حَتَّى أَعْطَوْهُ الإِشارَةَ عَنْ شَخْصٍ مُسْتَجْمِعٍ لِهذِهِ الخِصال، وَمُتَحَلٍّ بِهذِهِ الخَصائِص، مُعْرِضٍ عَنْ زَخارِفِ الدُّنْيا، وَصائِنٍ لِعَرْضِهِ مِنْ رَزائِلِ الأَوْصافِ الَّتي تَظْهَرُ غَيْرَ جَمِيْلَةٍ في نَظَرِ الحِكْمَةِ، ومُتَّخِذٍ مِنْ بِضاعَةِ العِلْمِ رَأْسَمالٍ للسَّعادَة، هُوَ العَالِمُ مهران به، المُقِيْمُ في المَدِيْنَةِ الفُلانِيَّةِ، رَأْيُ المَلِكِ والبِنْتِ أَخَذَ بِذاكَ القَرار، أنْ تُعْطى لِذاكَ الشَّخْص، أَرْسَلَ إِلَيْهِ وَجاءَ التَّراضي حاصِلاً مِنَ الجانِبَيْن، قَرَؤوا خُطْبَةَ الزَّواجِ وَأَرْسَلُوا البِنْتَ مِنْ حُجْرَةِ الصَّوْنِ والعَفافِ إلى حَجْلَةِ زَفافِ الزَّوْج، حِيْنَ انْقَضَتْ عِدَّةُ أَيَّامٍ بَحَثَ المَلِكُ عَنْ حالِ البِنْتِ والصِّهْر، وَسَأَلَ عَنْ محاسِنِ وَمَقابِحِ خَلْقِ وَخُلُقِ الزَّوْجِ بالتَّفْصِيْل، عَلِمَ بالحَقِيْقَةِ أنَّ مُقارَنَتَهُما كانَتْ مَسْعُوْدَةً أَكْثَرَ مِنْ تَثْلِيْثِ السَّعْدَيْن، وَكانَتْ مَحْمُوْدَةً أَكْثَرَ مِنَ اتِّصالِ النَّيِّرَيْنِ ، وَطَعْمَ وِفاقِ كِلا الاِثْنَيْنِ عِنْدَ ذَواقِ العُسَيْلَةِ وَقَعَ على مذاقِ الاِثْنَيْن، والزَّمانُ مِنْ تِلْكَ المُوافَقَةِ والمُصادَقَةِ قَرَأَ عَلَيْهِما، *وافَقَ شَنٌّ طَبَقَهُ*، يَوماً أَرْدِشِيْرِ بِحُكْمِ ما تَقْتَضِيْهِ مَحَبَّةُ الوَلَدِ وَرابِطَةُ الأَبِ، نَهَضَ وَذَهَبَ إلى بَيْتِ البِنْتِ وَسَأَلَها أنْ كَيْفَ تَتَعامَلِيْنَ مَعَ الزَّوْجِ وَهَلْ طَرِيْقَةُ التَّعَيُّشِ في الوَسَطِ مَقْرُوْنَةٌ بالرِّضا مِنَ الواحِدِ والآخَرِ أمْ لا، البِنْتُ قالَتْ أَنْ أنا بِكُلِّ ما أُشاهِدُ مِنْ أَخْلاقِهِ وَعاداتِهِ راضِيَةٌ، وَلَيْسَ مِنْهُ مِنْ نَفْرَةٍ وَنَبْوَةٍ إِلَّا أَنَّهُ يَضَعُ الأَكْلَ والفَرْشَ واللِّباسَ

جَمِيْعاً في مَكانٍ واحِدٍ، وَذاكَ يَبْدُو بَعِيْداً عَنِ التَّرْتِيْبِ والصَّواب، قالَ الشَّاهُ، رُبَّما أَلْتَمِسُ مِنْهُ أَنْ يَتْرُكَ هذا الرَّسْمَ غَيْرَ المَعْهُوْد، قالَتِ البِنْتُ بلى،

قِصَّةُ الشَّاهِ أَرْدَشير مَعَ العالِمِ مَهران به

الشَّاهُ أَرْدَشِير أَعَدَّ خَلْوَةً مَعَ العالِمِ مَهران به، وَطَلَبَ مِنْهُ الفَصْلَ بَيْنَ الطَّعامِ واللِّباس، وَأَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ مَأكُولٍ وَمَلْبُوْسٍ وِعاءً خاصَّاً وَمَكاناً مَخْصُوْصاً، مَهْرانَ به قالَ، اِعْلَمْ أَنِّي جَعَلْتُ أَجْزاءَ هذا العالَمِ مَجْمُوْعَةً في مَكانٍ واحِدٍ، وَوَضَعْتُ عَلَيْهِ خَتْمَ القَناعَةِ، إذا جَعَلْتُهُ مُتَفَرِّقاً وَجَبَ لِكُلِّ جُزْءٍ مَوْضِعاً، وَلِكُلِّ جُزْءٍ حافِظاً وَمُرَتِّباً عامِلاً، وَصارَ أَعْدادُ وَأَعْيانُ ذاكَ زائِداً، ثُمَّ صارَ الأَمْرُ عَلَيَّ طَوِيْلاً، وَإِذا تَأَمَّلْتَ فإِنِّي أَكُوْنُ قَدْ أَيْقَظْتُ هذِهِ الأَفْعى النَّائِمَةَ الَّتي اِسْمُها الحِرْصُ، وَأَكُوْنُ أَكَلْتُ لَدْغَةَ أَنْيابِها المُخُالَطَةَ بالسُّمّ، قالَ لَهُ أَرْدَشِيْرُ، مِنْ ضِيْقِ مَقامِكَ وَمَأواكَ لا يَكُنْ لَكَ الفِكْرُ، فَأنا لي القُصُوْرُ الجَمِيْلَةُ والمُبْهِجَةُ بِمِئَةِ أَلْفِ تَلْوِيْنٍ وَتَزْيِيْنٍ مِثْلَ نُقُوْشِ بَيْتِ الصِّيْن، صُحُوْنُ ذاكَ أَوْسَعُ مِنْ مَيْدانِ الوَهْم، وَسُقُوْفُ ذاكَ أَعلى مِنْ نَظَرِ العَقْل، بُيُوْتٌ مُضِيْئَةٌ مِثْلَ رَأْيِ العُقَلاء، وَمُزَيْدَةٌ للطَّرَبِ مِثْلَ وُجُوْهِ الأَصْدِقاء، أَيَّ واحِدٍ طَلَبْتَ وَقَلْبُكَ مالَ لِذاكَ قُمْ بالاِخْتِيارِ حَتَّى أهَبَهُ لَكَ، وَحَتَّى يَفْرِشُوا لَكَ في ذلِكَ المَكانِ الفُرُشَ اللَّائِقَةَ والجَمِيْلَةَ، وَيُعِدُّوا لَكَ كُلَّ ما

يَلْزِمُ مِنْ أَسْبابِ المَأكُولِ والمَطْعُوم، وَيُعِدُّوا لَكَ الخَدَمَ والغِلْمانَ لِكُلِّ واحِدٍ خِدْمَةٌ، فَقَد قالُوا، الدُّنْيا سَعَةُ المَنْزِلِ وَكَثْرَةُ الخَدَمِ وَطِيْبُ الطَّعامِ وَلِيْنُ الثِّياب، وَإِنْ كُنْتَ مُحْتاجاً لِلْجُنْدِ والجَيْشِ والأَتْباعِ فَمَهْما تَطْلُبُ يَجِيْئُكَ حاضِراً، العالِمُ مَهْران بَه قالَ، مَعْلُوْمٌ أَنَّ صَدْمَةَ هادِمِ اللَّذَّات إِذا وَصَلَتْ قَلَبَتْ بَيْتَ المُلُوْكِ وَقَصْرَ السَّلاطِيْنِ كما تَقْلِبُ بُيُوتَ النِّساءِ الأَرامِل، وَتَقْدِرُ تَفْعَلُ ذلِكَ كذلِكَ مَعَ قَصْرِ قَيْصَرَ، كَما تَفْعَلُ مَعَ أَكْواخِ الشَّحَّاذِيْن، وَداهِيَةُ المَوْتِ حِيْنَ يَجِيْءُ أوانُ الحُلُوْلِ تَجِدُ الطَّرِيْقَ لِتِلْكَ العَمارَةِ العالِيَةِ المُعْتَبَرَة، كما تَجِدُهُ لِتِلْكَ الخَرابَةِ المُخْتَصَرَة، وَتُنْزِلُ الزَّوالَ والفَناءِ بِساحَةِ وَفِناءِ بَيْتِ الطَّرَبِ ذاكَ كما تَفْعَلُ مَعَ بَيْتِ الأَحْزانِ مُحَقَّرِ البِناءِ، وَلَوْ أَوْصَلْتَ شُرُفاتِ القَصْرِ إِلى كَيْوان، يَجْلِسُ علَيْها بُوْمُ البَوار، وَلَوْ أَوْصَلْتَ سَقْفَ القَصْرِ لِأَوْجِ الفَرْقَدَيْن، وَفَرْقِ المِرْزَمَيْن، قَرَأَ على رُكْنِ إِيْوانِهِ غُرابُ بَيْنِ المَوْتِ، باللَّحْنِ وأَنِيْنِ العَجْزِ والحُرْقَةِ، أَيْنَ الأَمِيْرُ، وَما فَعَلَ السَّرِيْرُ، وَأَيْنَ الحاجِبُ والوَزِيْرُ، وَقال،

يا مَنْزِلاً لَعِبَ الزَّمانُ بِأَهْلِهِ طَوْراً يَجُوْدُ لَهُمْ وَطَوْراً يَمْنَعُ
أَيْنَ الَّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ بِكَ مَرَّةً كانَ الزَّمانُ بِهِمْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

وَحِكايَةَ عَيْنِ هذِهِ الحالِ قالَ ذاكَ الَّذي قال،

كانَ لِلُقْمانَ دارٌ صَغِيْرَةٌ كَحَلْقِ   النَّاي وَصَدْرِ العُوْدِ مِنْ دار
فُضُوْلِيٌّ سَأَلَ قالَ ما هذِهِ الدَّارُ   مِنْ ثَلاثَةِ أَقْدامٍ وَسِتَّةِ أَشْبار
الشَّيْخُ بالآهِ البارِدَةِ والعَيْنِ الباكِيَةِ   قالَ هذه لِمَنْ يَمُوْتُ كَثِيْر
كَيْفَ أَعْمَلُ بَيْتَ الطِّيْنِ المَعْمُور   اِقْرَأْ على قَلْبي *أَيْنَما تَكُونُوا*

وَأَمَّا المُبالَغَةُ في الاِسْتِلْذاذِ بالطَّعامِ والشَّراب، والتَّنَعُّمِ بالمَلابِسِ والمَفارِش، وَذاكَ الَّذي تَعْرِضُ، اِعْلَمْ أَنَّ للنَّفْسِ تِلْمِيْذَيْنِ غَيْرَ مُطِيْعَيْنِ هُما الحِرْصُ والشَّهْوَةُ، اِسْمُ واحِدٍ شَرَهُ الأُكْلِ والشُّرْبِ، والثَّاني الرُّعُوْنَةُ والكِبْر، لَوْ كُلَّ النَّهارِ في بَيْتِ العَناصِرِ الأَرْبَعَةِ، كانُوْا يُعِدُّونَ الطَّعامَ المَرْغُوبَ لِهذا أَكَلَ وَلَمْ يَعْرِفِ الشِّبَعَ، *ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّراب*، وَلَوْ كُلَّ العُمْرِ في مَعامِلِ الأَفْلاكِ السَّبْعَةِ، كانُوا يَنسِجُونَ لِباسَ هذا، لَبِسَ ولا زالَ يَطْلُبُ الزِّيادَةَ، والمُؤْمِنُ لا يَكُونُ وَبَّاصاً ولا شَحَّاباً، فَسَحْبُ عِنانِ اخْتِيارِ كِلا الاِثْنَيْنِ أَوْلى، حَتَّى لا يَذْهَبا إِلَّا على طَرِيْقِ الاِقْتِصادِ الَّذي هُوَ مَسْلَكُ الذَّاهِبِيْنَ بِطَرِيْقِ الحَقِيْقَةِ، إِذا كُنْتَ تَتَأَمَّلُ حَسَناً، حارِسُو كَنْزِ المُكْنَةِ مُقْتَصِدُون، فَهُمْ في أُمُوْرِ المَعاشِ يُحافِظُونَ على القَدَمِ على الجادَّةِ الوَسَطِ، وَأَبَداً لا يَجِدُونَ صَدْعَ الزَّوالِ وَنَقْبَ الاِخْتِلالِ بِذاكَ الطَّرِيْق، *لا زِلْتَ غَنِيًّا ما دُمْتَ سَوِيًّا*، واعْلَمْ يا مَلِكُ أَنِّي أَمْلِكُ جَيْشاً وَنِعْمَةً أَفْضَلَ مِنْ هذا الَّذي تَمْلِك، قالَ وَكَيْفَ هذا، العالِمُ مَهران بَه قال، هذِهِ النِّعْمَةَ الَّتي تَمْلِكُ،

أَتَبْقى لَكَ إذا وَهَبْتَها، قالَ لا، قالَ إذا أَرَدْتَ تَخْزِنُها أَلَسْتَ مُحْتاجاً لِحارِسٍ، قالَ بَلى، قالَ إِذا صارَ شَخْصٌ أَقْوى مِنْكَ مُتَعَرِّضاً لَكَ أَلا يَسْتَطِيْعُ انْتِزاعَها مِنْكَ، قالَ بلى، قالَ حِيْنَ تَعْبُرُ مِنْ هذا العالَمِ أَتَسْتَطِيْعُ أَخْذَها مَعَكَ، قالَ لا، قالَ أَيْ مَلِكُ، تِلْكَ النِّعْمَةُ الَّتي أنا أَمْلِكُ هِيَ العِلْمُ والحِكْمَةُ، وَأنا كُلَّما أَعْطَيْتُ الخَلْقَ مِنْ تِلْكَ نَصِيْبَ التَّعْلِيْمَ أَكْثَرَ، وَأَفَضْتُ مِنْ تِلْكَ على الطَّالِبِيْنَ أَكْثَرَ، أَخَذَتْ مِنَ العالَمِ بِلا نِهايَةٍ رَأْسَمالٍ أَكْثَر، وَبابُ خَزانَةِ حافِظَتي لا حاجَةَ بِهِ لِأَيِّ أَمِيْنٍ وَحَفِيْظٍ، ولا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُ أَيِّ مُتَغَلِّبٍ جَبَّارٍ وَجائِرٍ قَهَّارٍ، وَوَقْتَ العُبُوْرِ مِنْ مَنْزِلِ الإنْقِطاعِ هذا، لا يُخْفي الوَجْهَ، وَثَمَرَةُ الإنْتِفاعِ هُناكَ تُعْطي الزِّيادَة، المَلِكُ قالَ هذا أَفْضَل، العالِمُ قالَ، هذا الجَيْشَ الَّذي تَمْلِكُ، أَيُمْكِنُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْكَ رَغَباتٍ بِلا قِياسٍ، فَإِذا أَقْلَلْتَ نَفَقَتَهُ مِنَ المَواجِبِ والرَّاتِبِ، وَجَعَلْتَ مَجالَ الطَّمَعِ ضَيِّقاً عَلَيْهِ، أَيُمْكِنُ أنْ يَكُونَ مُطِيْعاً لَكَ، قالَ لا، قالَ فَإذا رأى أَفرادُ الجَيْشِ مَثَلاً عَدُوَّاً لَكَ غالِباً عَلَيْكَ، أَيُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْكَ وَأَنْ يَخْتارُوْهُ عَلَيْكَ، قالَ نَعَم، قالَ أنا جَيْشي الصَّبْرُ والقَناعَةُ، وَجَيْشي يَطْلُبُ كُلَّ شَيْءٍ مِنِّي بالوَقْتِ، وَيَطْلُبُهُ بِمِقْدار، فَإذا كُنْتُ أَمْلِكُهُ وَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ شَكَرَ، وإنْ كُنْتُ لا أَمْلِكُهُ أَوْ لَمْ أُعْطِهِ إِيَّاهُ رَضِيَ وَصَبَرَ، وَلَوْ صارَ أَهْلُ وَجْهِ الأَرْضِ جَمِيْعاً خَصْماً لِي، لَمْ يَلْوِ العِنانَ عَنْ مُتابَعَتي، المَلِكُ قالَ، هذا أَفْضَل، العالِمُ قالَ، أَيْ مَلِك، اِغْسِلِ اليَدَ مِنْ نَجاسَةِ وَخَساسَةِ هذا

العالَم، واجْعَلْ على رَأْسِهِ التُّراب، فذاكَ التُّرابُ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُرَ عَلَيْه، وما تَفْعَلُ مَحَبَّةُ تِلْكَ الَّتي إِذا مَدَحْتَها لا تَقْبَلُ المِنَّةَ، وإِذا ذَمَمْتَها لا تُبالي، تُعْطي بلا مُوْجِبٍ وَتَسْتَرْجِعُ بِلا سَبَبٍ، *تُقْبِلُ إِقْبالَ الطَّالِبِ وَتُدْبِرُ إِدْبارَ الهارِبِ، تَصِلُ وِصالَ المَلُوْلِ وَتُفارِقُ فِراقَ العَجُوْلِ*، بالوَعْدِ الَّذي تَعِدُ لا يَجِبُ الأَمَلُ بالوَفاء، وَبِعَقْدِ المَحَبَّةِ الَّذي تَعْقِدُ لا يَجُوْزُ تَوَقُّعُ الثَّبات، وَهذا الصَّدِيْقُ بالظَّاهِرِ العَدُوُّ بالقَلْب، أَعْني الحِرْصَ، الَّذي يَمْلِكُ الأَسْنانَ بالبَطْنِ، لا تُعْطِهِ الطَّرِيْقَ في نَفْسِك، فَإِنَّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكْنِسَ البَيْتَ تَماماً مِنَ العافِيَةِ لا يَخْرُجُ، واعْلَمْ أَنَّ جَبْرَهُ واسْتِيْلاءَهُ عَلَيْكَ أَصْعَبُ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ تَعْرِفُ، فَإِنَّهُ وَقْتَ كَوْنِكَ مَغْلُوْباً مِنْ عَدُوٍّ الهَرَبُ مُمْكِنٌ، وَإِذا ما طَلَبْتَ مِنْهُ الأَمانَ فَقَبُوْلُهُ مُمْكِن، وَإِذا قُمْتَ باسْتِعْطافِهِ بالهَدِيَّةِ فَمِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَصِيْرَ عَطُوْفاً، أَمَّا هُوَ فَحِيْنَ يَجِدُ يَدَ الاِسْتِحْواذِ مَهْما هَرَبْتَ مِنْهُ يَجِيْءُ مِنْ أَمامِكَ وَخَلْفِكَ كالظِّلّ، وَلَوْ أَخْرَجْتَهُ لِلْخارِجِ مِنَ البابِ لَدَخَلَ إِلى البَيْتِ مِنَ الرَّوْزَنِةِ كالشَّمْس، وَإِذا تَعَلَّقَ بِكَ مَهْما صَرَخْتَ لا يُعْطِيْكَ الخَلاص، وَما لَمْ يَجْعَلْكَ هلاكاً لا يَرْجِعُ عَنْكَ، كما فَعَلَ بِأولئِكَ الشُّرَكاءِ الثَّلاثَةِ، قالَ المَلِكُ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الشُّرَكاءِ الثَّلاثَةِ قاطِعي الطَّرِيْقِ الواحِدُ مَعَ الآخَر

العالِمُ مَهْران بَه قالَ، سَمِعْتُ أَنَّهُ وَقْتاً ثلاثَةُ رِجالٍ صَعاليْكٍ قاطِعي

طَرِيْقٍ صَاروا شُرَكاءَ الواحِدُ مَعَ الآخَر، وَظَلُّوا سِنِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الكَمِيْنَ على مَدارِجِ طُرُقِ المُسْلِمِيْنَ دُوْنَما رَحْمَةٍ، وَحِيْنَ نَوائِبُ الزَّمانِ أَطْلَعَتِ الدَّمارَ مِنْ قَوافِلِ أرواحِ الخَلائِق، وَصَلُوا مِنْ حَوْلِ مَدِيْنَةٍ إلى أَطْلالِ خَرابَةٍ كانَتْ جَعَلَتْها القُرابَةُ فَيْرُوْزِيَّةُ اللَّوْنِ خَراباً بِدَوْرِ جَوْرِ الزَّمان، وَبابُها وَجِدارُها مِثْلَ سَكْرانَ طافِحٍ واقِعٍ وَواضِعِ الرَّأْسَ على القَدَم، طافوا حَوْلَها جَيِّداً، وَجَدُوا تَحْتَ صَخْرَةٍ صَنْدُوْقاً صَغِيْراً مَمْلُوْءاً بالذَّهَب، صارُوا بِغايَةِ السَّعادَةِ وَسُرُوْرِ القَلْب، بالاِتِّفاقِ قامُوا بِتَعْيِيْنِ واحِدٍ لِيَذْهَبَ إلى هذِهِ المَدِيْنَةِ وَيَجِيْءَ بالطَّعامِ لِإنْجازِ العَمَل، مُضْطَرَّاً أَظْهَرَ المُبادَرَةَ للذَّهاب، وَذَهَبَ واشْتَرى الطَّعامَ، والحِرْصُ آكِلُ المَيْتَةِ قاتِلُ الرِّجالِ جَعَلَهُ على ذاكَ، أنْ يَمْزِجَ شَيْئاً مِنَ السُّمُومِ القاتِلَةِ في ذلِكَ الطَّعامِ على أَمَلِ أَنْ يَأْكُلَ ذانِكَ الاِثْنانِ وَيَصِيْرا هلاكاً، وَيَبْقى لَهُ المالُ المَوْجُوْدُ، وَداعِيَةُ رَغْبَةِ المالِ كانَتْ باعِثاً لِذَيْنِكَ الاِثْنَيْنِ أنْ يُزِيْلا زَحْمَةَ وُجُوْدِهِ مِنَ الوَسَطِ حِيْنَ يَرْجِعُ، وَأَنْ يَقْتَسِما ذاكَ الَّذي وَجَدُوا، الرَّجُلُ رَجَعَ وَجاءَهُما بالطَّعامِ، والرَّجُلانِ نَهَضا، وَأَوَّلاً ضَغَطا على حَلْقِهِ وَأَهْلَكاهُ، ثُمَّ جَلَسا على الطَّعام، وأكَلا وَماتا بالمَكان، وَلِسانُ الحالِ يَقُولُ، هِيَ الدُّنْيا فاحِذَرُوْها،

لا تَطْلُبِ دِيَتَكَ مِنْ شَخْصٍ فَأَنْتَ المُرِيْقُ لِدَمِكَ

لا تَطْلُبِ مَتاعَكَ في الخارِجِ فالسَّارِقُ في داخِلِك

أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أَنَّهُ لا يَجِبُ طَلَبُ رِضا النَّفْسِ بالقَلِيْلِ والكَثِيْر، ولا يَجِبُ تَرْكُها في مَرْتَعِ اخْتِيارِ الطَّبْعِ خَلِيْعَةَ العِذارِ حُرَّةً،

النَّفْسُ قدَ دارَتْ كما دَوَّرْتَها والنَّفْسُ إِنْ طَبَّعْتَها تَتَطَبَّعُ

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذا رَغَّبْتَها وَإِذا تُرَدُّ إِلى قَلِيْلٍ تَقْنَعُ

والحُكَماءُ قالُوا، الأَمَلُ شِباكُ إِبْلِيْس، أُنْظُرْ أَنْ تَحْفَظَ النَّفْسَ مِنْ حَبَّتِهِ، لَقَدْ سَحَبَ أَلْفَ طاوُوْسِ عَقْلٍ وَطائِرِ هَمَا هِمَّةٍ، وَأَنْزَلَهُمْ بِصَفِيْرِ الوَسْوَسَةِ عَنْ غُصْنِ شَجَرَةِ القَناعَةِ، أَنْزَلَهُمْ مِنْ أَوْجِ هَواءِ الاِسْتِغْناءِ لِلأَسْفَل، وَجَعَلَهُمْ مُقَيَّدِيْنَ بِقَيْدِ النَّفْس، فلا يَجِدُوْنَ الخَلاصَ أَبَداً، وَقالُوا إِذا صارَ البَطْنُ شَبْعاناً لا تَأْكُلْ غَمَّ الجُوْع، فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ شَبْعانَ وَجَدَهُ المَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَصِيْرَ جَوعاناً، وَإِذا صارَ البَدَنُ مَكْسُوَّاً لا تَحْمِلْ هَمَّ العُرْي، فَكَمْ مِنْ عُراةٍ قَبْلَ أَنْ يُكْسَوا، وَكُساةٍ قَبْلِ أَنْ يَعْرَوا، ما لَبِسُوا إِلَّا لِباسَ الكَفَن، ولا تَجْعَلْ فِكْرَ الخَرْجِ وَصَرْفِ الإِنْفاقِ مُسْتَوْلِياً عَلَيْكَ، فَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيْرِيْنَ ذَهَبُوا في طَلَبِ الزِّيادَةِ، وَبَقِيَ مِنْهُمْ مُكْتَسَبٌ حَقِيْرٌ جِداً وَقَلِيْلٌ،

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعاتِ في جَمْعِ مالِهِ مَخافَةَ فَقْرٍ فالَّذي فَعَلَ الفَقْرُ

واعْلَمْ هذِهِ النُّكْتَةَ، أَنَّ مُقَدِّرَ الأَقْواتِ وَمُدَبِّرَ الأَوْقاتِ جَعَلَ القُوْتَ عِلَّةً لِلْحَياة، ولا يَصِيْرُ المَعْلُوْلُ مَفْصُولاً عَنِ العِلَّةِ أَبَداً، فَصارَ واضِحاً أَنَّهُ

لا يُمْكِنُ أَنْ تَكُوْنَ حَياةُ شَخْصٍ بِلا قُوْتٍ، *قَدْ فَرَغَ اللهُ تَعالى مِنْ أَرْبَعَةٍ، مِنَ الخَلْقِ والخُلْقِ والرِّزْقِ والأَجَلِ*،

ما تَنْظِيْمُكَ العالَمَ وَهُوَ نَفْسُهُ مَنَظَّم   خالِقُ العالَمِ فَرِغَ مِنْ أَمْرِ هذا العالَم

وَأَيْ مَلِكُ اعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّما عَقَدْتَ العُقَدَ مَعَ العالَمِ أَشَدَّ، كُلَّما هُوَ تَحَرَّرَ مِنْها أَسْهَلَ، وَكُلَّما أَكْثَرْتَ مِنَ الإِرْتِباطِ بِهِ أَكْثَرَ، كُلَّما هُوَ انْفَصَلَ عَنْكَ أَكْثَر، العالَمُ جَعَلَ عِنْدَكَ وَدِيْعَةً، وَسَوْفَ يَقُوْمُ بِتَفْرِيْقِ ما جَمَعَ عِنْدَكَ على الآخَرِيْن، وَيُعْطي ثَمَرَةَ الشَّجَرَةِ الَّتي غَرَسْتَ لِلآخَرِيْن، وَكُلَّ بِساطٍ بَسَطْتَ يَطْوِيْه، وَكُلَّ أَساسٍ وَضَعْتَ يُلْقِيْه، لا يَمْلِكُ لِلْعُمْرِ أَيَّ مَشْرَبٍ بِلا شائِبَةِ التَّكْدِيْر، ولا يَتْرُكُ لِلْعَيْشِ أَيَّ مائِدَةٍ بِلا عائِدَةِ التَّنْغِيْص، للشَّخْصِ الَّذي يَقُوْمُ عَنْ مائِدَتِهِ، أَبَداً ما نَزَلَ بِحَلْقٍ واحِدٍ نوالٌ واحِدٌ بِلا عَظْمٍ، لا يَجِيْءُ مِنْ قَلْبِهِ أَنْ تَنْزِلَ شُرْبَةٌ واحِدَةٌ بِلا تَجْرِيْعِ المَرارَةِ في حَلْقِ شَخْصٍ، لَوْ واحِداً بالمِئَةِ مِنْ ذاكَ الَّذي تَعْمَلُ مَعَكَ الدُّنْيا رَأَيْتَ مِنْ صَدِيْقٍ مُخْلِصٍ لاتَّخَذْتَ مِنْهُ عَدُوّاً مِئَةَ سَنَةٍ، فالعَيْنُ ناظِرَةُ الخَطَأِ مِنْكَ كَيْفَ تَجْعَلُ مِنْ غِطاءِ المَحَبَّةِ الحِجاب، فلا تُدْرِكُ مِنْها كُلَّ هذِهِ المَعاني مَعَ كُلِّ هذا الوُضُوح، والسَّمْعُ باطِلُ السَّمْعِ كَيْفَ صارَ مَمْلُوْءاً بِقِطْنِ الغَفْلَةِ، فَلا يَسْمَعُ نِداءَ أَيَّةِ نَصِيْحَةٍ مِنْ مُنادي العَقْل، *حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمي وَيُصِمّ*، وَأَيْ مَلِكُ كُلُّ ما يَنْزِلُ مِنَ العالَمِ العُلْوِيِّ وَكُلُّ ما في مُنْخَفَضِ هذِهِ المَزْبَلَةِ جَمِيْعاً عُرْضَةُ

عَوارِضِ التَّقْدِيْر، وَقابِلٌ للتَّبْدِيْلِ والتَّغْيِيْر، وَإِطْلاقُ نَفَسٍ بِلا قَبُوْلِ أَذِيَّةِ العَناصِرِ الأَرْبَعَةِ وَحُلُوْلِ آَفَةِ الأَمْزِجَةِ الثَّمانِيَةِ، غَيْرُ مُمْكِنٍ، فَإِنَّ تَرْكِيْبَ وُجُوْدِ الآدَميِّ والعالَمِ خُلْقَ مِنْ أَجْزاءِ مُفْرَداتِ هذِهِ البَسائِطِ بانْتِقالِ الصُّوْرَةِ، تارَةً الهَواءُ يَأْخُذُ هَيْئَةَ الماء، تارَةً الماءُ يَصِيْرُ مُكْتَسِياً بَصُوْرَةِ الهَواء، تارَةً يُبُوْسَةُ الأَوْعِيَةِ تَرْفَعُ الرُّطُوْبَةَ، تارَةً بُرُوْدَةُ السِّراجِ تَطْفِئُ الحَرارَة، وابْنُ آَدَمَ لا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَكُونَ حُرَّاً مِنْ هذِهِ التَّأْثِيْراتِ أَبَداً، مِنَ البُرُوْدَةِ يَجْمُدُ، وَمِنَ الحَرارَةِ يَفْسُدُ، وَمِنَ المالِحِ يَصِيْرُ نافِراً، وَمِنَ الحُلْوِ يَصِيْرُ مَلُوْلاً، المَرَضُ يَأْخُذُ مِنْهُ الطَّراوَةَ، والهَرَمُ يُزِيْلُ مِنْهُ النَّداوَة، إِذا وَصَلَ أَقَلُّ غَمٍّ لِقَلْبِهِ ذَبُلَ، بِأَقَلِّ أَلَمٍ شَكا، مِنَ الجُوْعِ يَصِيْرُ مُضْطَرِباً، مِنَ العَطَشِ يَصِيْرُ مُلْتَهِباً، كُلُّ شَيْءٍ ارْتَبَطَ بِحَيِّزِ الوُجُوْدِ، في اعْتِوارِ هذِهِ الحالاتِ والتَّاراتِ جَمِيْعاً لَوْنٌ واحِدٌ، وَلِلْكُلِّ حُكْمٌ واحِدٌ،

وَأَيُّ قَناةٍ لَمْ تُرَنَّحْ كُعُوْبُها وَأَيُّ حُسامٍ لَمْ يُصِبْهُ فُلُوْلُ
وَأَيُّ هِلالٍ لَمْ يَشِنْهُ مُحاقُهُ وَأَيُّ شِهابٍ لَمْ يَخُنْهُ أُفُوْلُ

واعْلَمْ أَيْ مَلِكُ أَنَّ إِيْزَد تَعالى جَعَلَكَ راعِي الرَّعِيَّةِ وَمُراعي مَصالِحِهِم، بِسَيْفِ الأَخْذِ وَسَوْطِ العَطاء، وَذاكَ التَّاجُ التُّرْكِيُّ وتَزْيِيْنُ طَرَفِ الكَمَرِ، مُوْرِثٌ وَبالَيْنِ، وَمُوْجِبٌ نَكالَيْن، واحِدٌ سَفالَةُ السُّؤال، كما قالُوا،

الطَّلَبُ أَدَعَوْتَهُ العُشْرَ أَمْ دَعَوْتَهُ الخِراج كِدْيَةٌ
وَلَوْ سَمَّيْتَهُ مِئَةَ اِسْمٍ الحَقِيْقَةُ مِنْهُ واحِدَة

بِما أَنَّ الاِسْتِجْداءَ هُوَ الطَّلَبُ لا شَيْئاً آخَرَ
كُلُّ مَنْ طَلَبَ أَكانَ سُلَيْمانُ أَمْ قارُوْنُ شَحَّاذٌ

والثَّاني عُهْدَةُ المَسْؤولِيَّةِ عَلَيْكَ حِيْنَ يُوْقِفُوْنَكَ في دِيوانِ المُحاسَبَةِ على القَدَم، *كُلُّكُمْ راعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ*، وَيَكُونُ واجِباً نَكْسُ الرَّأْسِ مِنَ الخَجَل، *وَلَوْ تَرى إِذِ المُشْرِكُونَ ناكِسُوا رُؤوْسِهِمْ*، واعْلَمْ أَنَّ لَكَ عَقْلاً هُوَ الأَمِيْرُ على سَبْعِ وِلاياتِ البَدَن، والحِسُّ مُعِيْنُ العَقْلِ، والشَّهْوَةُ خادِمُ البَدَن، لا تَدَعْ أَيَّ واحِدٍ يَضَعُ القَدَمَ أَعلى مِنْ مَقامِ نَفْسِهِ، اِحْفَظْ مُعِيْنَ العَقْلِ حَتَّى لا يَقُوْمَ بِإِعانَةِ الشَّهْوَة، وحَتَّى لا يَصِيْرَ خادِمُكَ أَمِيْرَكَ، واعْلَمْ أَنَّ زَخارِفَ وَزَهْراتِ الدُّنْيا ضَئِيْلَةٌ، وَلَو كانَتْ خادِعَةً جِدَّاً وَساحِرَةً لِلْعَيْنِ، أَمَّا إِذا أَرادَ الرَّجُلُ أنْ يَمْنَعَ النَّفْسَ عَنْ مَطْلُوْباتِ وَمَرْغُوْباتِ الطَّبْعِ، فَلْيَنْظُرْ حَسَناً في مُنْكَراتِ تِلْكَ، حَتَّى بِلَطائِفِ الحِيَلِ والتَّدَرُّجِ يَصِيْرُ بَعِيْداً عَنْها، هكذا مَثَلاً لِشارِبِ الخَمْرِ الَّذي كُلَّ مَرَّةٍ مِنْ مَرارَةِ الخَمْرِ وَتَقْطِيْبِ جَبِيْنِهِ وَنَفْرَةِ طَبِيْعَتِهِ وَقَيْئِهِ وَتَلَوُّثِ ثَوْبِهِ مِنْ ذاكَ، وَصُداعِهِ وَقْتَ السَّحَرِ وَنَدامَةِ حَرَكاتِهِ وَعَرْبَدَتِهِ باللَّيْلِ وَكَسْرِهِ الكَأْسَ والجامَ وَخِصامِهِ باليَدِ والسَّبِّ وَتَقْدِيْمِ المُلْهِياتِ وَتَأْخِيْرِ المُهِمَّاتِ وَأَلَمِ الخُمارِ والأَفْعالِ الَّتي لا تَكُوْنُ على

النِّظامِ والخَجالَةِ مِنْ ذاكَ يَجِيْءُ بِتَذَكُّرِ شَناعَةِ ذاكَ، بَشاعَةُ ذاكَ تَعْمَلُ الأَثَرَ في مَذاقِ العَقْلِ، وَلْيَجِئْ كُلَّ زَمانٍ بِصُوْرَةِ ذاكَ أمامَ عَيْنِ القَلْب، قَلِيْلاً قَلِيْلاً يَرْجِعُ بالقَدَمِ وَيَتَوَقَّفُ، وهكذا لِمُحِبِّ الصَّيْدِ الَّذي أَثْناءَ عَدْوِ الجَوادِ في طَلَبِ الصَّيْدِ، مِنَ المُخاطَرَةِ بِعَثْرَةِ الجَوادِ وَسَقْطَةِ نَفْسِهِ الَّتي بِها مَظَنَّةُ الهَلاكِ فَلْيُفَكِّرْ، ولْيَجِئْ أمامَ الخاطِرِ بِمَعَرَّةِ تَعَرُّضِ الطَّرِيْدَةِ، وَخَوْفِ ضَرْبَةِ قَبْضَةِ النَّمِرِ، وَأَسْنانِ الخِنْزِيْرِ، وَغُصَّةِ هُرُوْبِ الفَهْدِ والبازِ، وَتَضْيِيْعِ وَقْتِ النَّفْسِ، وَلْيَضَعِ المَضَرَّةَ الكَثِيْرَةَ في مُقابَلَةِ المَنْفَعَةِ القَلِيْلَة، لا شَكَّ يَصِيْرُ ذاكَ بارِداً على قَلْبِهِ، وَيَنْتَهي بالتَّرْكِ الكُلِّيِّ، وَيَحْمِلُ النَّفْسَ مِنْ مَوْقِعِ الخَطَرِ إلى مَلْجَأِ العَقْل، وَأَيْ مَلِكُ في أَيَّامِ طَراوَةِ الشَّبابِ الَّتي هِيَ رَبِيْعُ العُمْرِ، فَلْيَظَلَّ يَتَذَكَّرُ ذَبُوْلَ الشَّيْخُوْخَةِ الَّتي هِيَ خَرِيْفُ العُمْرِ وَناثِرَةُ وَرَقِ الأَمَل،

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيْمِ عَرارِ نَجْدٍ فَما بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرارِ

وَهكذا يَذْكُرُ في وَقْتِ الفَراغَةِ الاِنْشِغال، وَفي وَقْتِ عِزِّ الغِنى ذُلَّ الفَقْرِ، وَفي نِعْمَةِ السُّرُوْرِ مِحْنَةَ الحُزْنِ، وَفِيْ صِحَّةِ مِزاجِ البَدَنِ عَوارِضَ المَرَض، وَفي سَعَةِ مَجالِ العُمْرِ جِئْ بِتَذَكُّرِ ضِيْقِ اسْتِرْجاعِ النَّفَس، حَتَّى يَصِيْرَ حَقُّ كُلِّ شَخْصٍ مُؤَدَّىً مِنْ قَبْلِ فَواتِ الفُرْصَةِ وَضَياعِ الوَقْت، لِأَنَّ هذِهِ الأَحْوالَ ذاتَ عَشَرَةِ أَلْوانٍ هِيَ أَخَواتُ صُلْبِ المَشِيْئَة، وَلَدَتْها السَّماءُ أزواجاً، في كُلِّ بَطْنٍ زَوْجاً، فَهِيَ تَوائِمُ رَحِمِ

الفِطْرَة، لا تَنْفَصِلُ الواحِدَةُ عَنِ الأُخْرى، وَعِنْدَ مَجِيْئِهِما لِلْوُجُوْدِ فَإِنَّ قابِلَةَ الوُجُوْدِ بِلا فاصِلَةٍ تَقْطَعُ سُرَّتَهُما في مَكانٍ واحِدٍ، وَأَفْضَلُ المَخْلُوْقاتِ في هذا المَعْنى يُقَرِّرُ، *اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ، شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَياتَكَ قَبْلَ مَماتِكَ*، وَأَيْ مَلِكُ في ذِمَّةِ عَقْلِكَ ما مِنْ شَيْءٍ أَوْجَبُ أَداءً مِنَ العُمُر، فَإِذا صارَ الأَجَلُ حالّاً فَعَدَمُ أَداءِ ذاكَ مُحالٌ، وَفي فَوائِدِ المَكْتُوْباتِ قَرَأْتُ أَنَّ الإمامَ أَحْمَدَ الغَزالي رَحِمَهُ اللهُ يَوماً في مَجْمَعِ التَّذْكِيْرِ وَمَجْلِسِ الوَعْظِ تَوَجَّهَ لِلْحاضِرِيْنَ وَقالَ، أَيْ مُسْلِمُونَ كُلُّ ما قُلْتُ لَكُمْ في أَرْبَعِيْنَ سَنَةً مِنْ على رَأْسِ هذا المَنْبَر، الفِرْدَوْسي قالَهُ في بَيْتٍ واحِدٍ، إذا أَرَدْتَ المِضِيَّ على ذاكَ صِرْتَ مُسْتَغْنِياً عَنِ الكُلِّ،

فَكِّرْ كَيْفَ تَقْضي الأَيَّامَ اِجْعَلْ عِبادَةَ العادِلِ حِرْفَةً

وَكَفى بالمَوْتِ واعِظاً، العَدْلُ يُعْطي هذا المَعْنى، وَأَيْ مَلِكُ اعْلَمْ أَنَّ هذا المالَ المُنَضَّدَ، وَيَظْهَرُ بِصُوْرَةِ العَسْجَدِ والزَّبَرْجَد، هُوَ حَطَبُ جَهَنَّمَ، وَنَفْسُكَ حَمَّالَةُ الحَطَب، *يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوْبُهُمْ وَظُهُوْرُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوْقُوا ما كُنْتُمْ تَكنِزُون*، الآنَ اِسْعَ حَتَّى تَسْتَطِيْعَ أَنْ تُعْطِيْها الخَلاصَ بِحِيْلَةِ العِلْمِ مِنْ صُحْبَةِ هذِهِ المُنْتِنَةِ المُسِنَّةِ الرَّعْناء، وَهذِهِ العَجُوْزِ الشَّوْهاء، الَّتِي

أَلْقَتْ بالكَثيْرِ مِنَ الأزْواجِ مِثْلَكَ في البِئْرِ مَنكوسِيْنَ تائِهِيْنَ، وَحَتَّى تَحْصَلَ على طَرِيْقِ السَّعادَةِ الأَبَدِيَّةِ والنَّعِيْمِ الباقي، المَلِكُ أَرْدَشِير مازَجَ كَلِماتِهِ المَمْزُوْجَةَ بالحِكْمَةِ كالقَلْبِ مَعَ الرُّوْح، وَعَلَّقَ حَلْقَةَ قَبُولِ وَصاياهُ في الأُذُنِ الباطِنَةِ، ثُمَّ مِنْ ذلِكَ المَكانِ جاءَ أَمامَ البِنْتِ وَقالَ لَها، مُبارَكٌ لَكِ الزَّوْجُ الَّذي هُوَ لِسابِقي العالَمِ الطَّاق، وَفي العِلْمِ علا على الآفاق، هذا الَّذي يَتَقَدَّمُ بِهِ هُوَ طَرِيْقُ صِدْقِ العَمَلِ، وَعلى ما يَفْعَلُ لا مقامَ للاِعْتِراض، هكذا يُمْكِنُ أَكْلُ غَمِّ هذا المَتاعِ المُسْتَعارِ، في مِثْلِ هذا المَنْزِلِ المُسْتَجار، وَبَعْدَما جَرى ذلِكَ صارَ يَتَأَمَّلُ في حاصِلِ الأَمْرِ وَكَذلِكَ في حالِ النَّفْسِ، وَيَقُولُ بِلِسانِ الاِعْتِبارِ والاِنْتِباه،

أَضَعُ عُمُري الماضي هذا بالحِساب
آخِراً بِأَيِّ عَمَلٍ كُنْتُ السِّنِيْنَ الكَثِيْرَةَ

أَخَذَ لِلأَمامِ أُسْلُوْبَ الاِجْتِهادِ، وَوَضَعَ القَدَمَ في طَرِيْقِ السَّدادِ، وَسَحَبَ النَّفْسَ جانِباً مِنَ الاِنْقِيادِ للنَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِقَدَرِ الاِسْتِطاعَةِ، إلى أنْ ماتَ على ما عاشَ عَلَيْه، واللهُ المُوَفِّقُ لِذلِكَ والهادِي إِلَيْه، صارَ تَماماً بابُ المَلِكِ أَرْدَشِيْر والعالِمِ مَهران بَه، بَعْدَ هذا أنا ذاكِرٌ بابَ الشَّيْطانِ بِقَدَمِ الثَّوْرِ وعالِمِ الدِّيْن، وَمُبَيِّنٌ ما تَكُوْنُ فائِدَةُ العِلْمِ، وَإِذا صارَتْ شَجَرَةُ العِلْمِ حامِلاً لِثَمَرَةِ العَمَل، أَيَّ أَثَرٍ تُظْهِرُ، وَكَيْفَ تَرْمي خَرْزَةَ

الخَصْمِ الجاهِلِ في سِتَّةِ أَبوابِ القُصُور، جَعَلَ مُيَسَّراً الباري تَعالى لِصاحِبِ وَسَيِّدِ العالَمِ مُعِيْنِ الإِسْلامَ، تَوْفِيْقَ الجَمْعِ بَيْنَ الحَقَّيْنِ، وَتَحْصِيْلَ السَّعادَتَيْن، وَجَعَلَهُ مُواظِباً على الخَيْرِ بِمَنِّهِ وَسَعَةِ جُوْدِه.

البابُ الرَّابِعُ

بابَ الشَّيْطانِ بِقَدَمِ الثَّوْرِ وعالِمِ الدِّيْن

وَلَدُ المَلِكِ قالَ، في العُهُوْدِ المُتَقَدِّمَةِ والدُّهُوْرِ المُتَقادِمَةِ، الشَّياطِيْنُ الَّتي الآنَ تُخْفي الوَجْهَ في حِجابِ التَّواري، وَصارَتْ مَحْجُوْبَةً عَنْ عُيُونِ الظَّاهِرِ، كانَتْ تَجُوْلُ ظاهِرَةً، وَكانَتْ تَتَّصِلُ بالآدَمِيِّيْنَ عَنْ طَرِيْقِ المُخالَطَةِ والاِمْتِزاجِ، وَتُرْجِعُ الخَلْقَ عَنْ طَرِيْقِ الحَقِّ والنَّجاةِ بالإِغْواءِ والإِضْلال، وَتُظْهِرُ أَباطِيْلَ الخَيالاتِ مُزَيَّنَةً في عُيُوْنِ الآدَمِيِّيْن، حَتَّى وَقْتَ ظَهَرَ في أَرْضِ بابِلَ رَجُلٌ ذُوْ دِيْنٍ، اتَّخَذَ المَسْكِنَ على رَأْسِ جَبَلٍ، وَهَيَّأَ هُناكَ صَوْمَعَةً، وَفَرَشَ هُناكَ سَجَّادَةَ العِبادَةِ، وَصارَ يَدْعُو الخَلْقَ لِجادَّةِ العِصْمَةِ، حَتَّى بِأَقَلِّ زَمَنٍ بَسَطَ بِساطَ الدَّعْوَةِ واسِعاً، واتَّبَعَ أَشْخاصٌ كَثِيْرُونَ عِلْمَهُ، وَنَهَضَ لَهُ أَتْباعٌ بِلا عَدَدٍ، وَتَمَسَّكُوا بِقَواعِدِ التَّنَسُّكِ، وَجاؤوا مِنْ بِدْعَةِ الكُفْرِ إلى شِرْعَةِ الإِيْمان، وَأَقْبَلُوا إلى قِبْلَةِ عِبادَةِ الله، وَأَظْهَرُوا الإِعْراضَ عَنِ الشَّياطِيْنِ وَأَفْعالِهِم، وَأَخَذَ ذِكْرُهُ يَنْتَشِرُ في أَقالِيْمِ العالَمِ، وَجاءَ قَرِيْباً أَنْ يَصِيْرَ سِرُّ حَدِيْث، *سَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتي ما زُوِيَ لِي مِنْها*، في حَقِّهِ ظاهِراً عِياناً، الشَّياطِيْنُ مِنْ غُبْنِ تِلْكَ الحالَةِ، مُضْطَرِبِيْنَ وَحائِرِيْنَ، جاؤوا أمامَ رَئِيْسِهِمُ الشَّيْطانِ بِأَقْدامِ الثَّوْر، الَّذي كانَ مِنْ مَرَدَةِ عَفارِيْتِهِم،

وَفَجَرَةِ طَواغي طَواغِيْتِهِم، شَيْطانٌ بِوَقْتِ السِّحْرِ مِثْلَ إِبْلِيْسَ يَهْرَبُ مِنْ *لا حَوْلَ*، وَيَتَعَلَّقُ بالحَدِيْدِ مِثْلَ المَغْناطِيْس، كانَ مُقْتَدى جَيْشِ الشَّياطِيْن، وَقائِدَ الجُنُوْدِ المَلاعِيْن، وَقائِدَ قافِلَةِ وَرَكْبِ الضَّلال، وَرَأْسَ نَفَرِ قاطِعِي الطَّرِيْقِ بالوَهْمِ والخَيال، جَعَلَ النَّقْبَ في خَزِيْنَةِ عِصْمَةِ آدَمَ، وَكَسَرَ خَتْمَ خاتَمِ سُلَيْمان، وَعَقَدَ طَلْسَمَ سَحَرَةِ فِرْعَوْن، الشَّياطِيْنُ جَمِيْعاً أَمامَهُ أَطْلَقُوا صَرْخَةَ الإِسْتِغاثَةِ بِلِسانٍ واحِدٍ، أَنْ رَجُلُ الدِّيْنِ هذا جَلَسَ على الحَجَرِ، وَرَمى على زُجاجِ عَمَلِنا الحَجَرَ، وَأَخَذَ عَظَمَتَنا مِنْ قَلْبِ الخَلائِقِ، إِذا لَمْ نَعْمَلْ هذا اليَوْمَ سَدَّ هذِهِ الثُّلْمَةِ، وَكَشْفَ هذِهِ الكُرْبَةِ، غَداً إِذا هُوَ نَصَبَ خَمْسَ نُوَبِ أَرْكانِ الشَّرِيْعَةِ، وَمَظَلَّةُ دَوْلَتِهِ فَرَشَتِ الظِّلَّ على أَطْرافِ العالَمِ، وَشَمْسُ سَلْطَنَتِهِ أَطْلَعَتِ الرَّأْسَ مِنْ ذُرْوَةِ هذا الجَبَلِ، لا تَكُوْنُ لَنا حِيْلَةٌ مِنَ الإِنْقِيادِ لَهُ وَتَتَبُّعِ مُرادِهِ،

أَمْسَكْتُ بالبَخْتِ خاصَمْتُ كَثِيْراً   كَيْفَ لِي أَهْرَبُ مِنْ ظِلِّ الشَّمْسِ

الشَّيْطانُ بِأَقْدامِ الثَّوْرِ حِيْنَ سَمِعَ هذا الفَصْلَ، أَحْدَثَ بِهِ تَأْثِيْراً عَجَباً، نارُ شَيْطَنَتِهِ أَطْلَعَتْ لَهَباتِ الغَضَب، لكِنْ لَمْ يُعْطِ العِنانَ العَجَلَةَ مِنَ اليَد، قالَ أنا أَطْلُبُ مِنْكُمُ الزَّمانَ، فَإِنَّ مِثْلَ هذِهِ الأَعْمالِ وَإِنْ كانَتْ لا تَحْتَمِلُ التَّواني، فَإِنَّهُ لا يَجُوْزُ عَمَلُها إِلَّا بالتَّأَنِّي، وَإِنْ كانَتْ لا تَحْتَمِلُ التَّأْخِيْرَ الكَثِيْر، بِلا تَقْدِيْمِ الفِكْرِ العَمِيْقِ لا يُمْكِنُ الخَوْضُ في ذاك،

ثُمَّ أَحْضَرَ رُؤوسَ الشَّياطِيْنِ الثَّلاثَةَ، الَّذِيْنَ كانُوا وَزَراءَ المَمْلَكَةِ، والمُعِيْنِيْنَ يَوْمَ المِحْنَةِ، وَبَدَأَ المُشاوَرَةَ مَعَ الوَزِيْرِ الأَكْبَرِ، وَقالَ لَهُ، رَأْيُكَ في هذِهِ الحادِثَةِ الَّتي جاءَتْ أمامَنا ما يَقْتَضِي، قالَ عَنْ رَأْيِ الأَذْكِياءِ المُجَرِّبِيْنَ لَيْسَ مَخْفِيَّاً أَنْ شَيْئَيْنِ لا يَبْقَيانِ ثابِتَيْنِ على حالٍ واحِدَةٍ، واحِدٌ الدَّوْلَةُ في الطَّالِعِ، والثَّاني الرُّوْحُ في البَدَنِ، فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنَ الاِثْنَيْنِ غايَةٌ مَعْلُوْمَةٌ، وَأَمَدٌ مُعَيَّنٌ، وهكذا وِفْقَ مَذْهَبِ تَناسُخِ الرُّوْحِ مِنَ القالَبِ الَّذي يَكُونُ مَحَلَّاً لَها، لِتَحِلَّ في قالَبٍ آخَرٍ، الدَّوْلَةُ تَقْبَلُ الاِنْتِقالَ مِنَ الطَّالِعِ الَّذي يَكُونُ مُلائِماً لَها إلى طالِعٍ آخَر، والخَلْقُ في أَيَّامِ الدَّوْلَةِ لا يَصِيْرُ مُتَأَثِّراً مِنَ النَّكَبات، وَقَواعِدُ العَمَلِ لا تَأْخُذُ إِحْداثَ خَلَلٍ مِنَ الصَّدَمات، فَهُوَ مِثْلَ جَبَلٍ لا تُحْدِثُ بِهِ الصَّدْعَ عَرَّادَةُ الرَّعْدِ وَنَفَّاطَةُ البَرْقِ وَمَنْجَنِيْقُ الصَّواعِقِ وَحِجارَةُ أَمْطارِ البَرَدِ وَسِهامُ الأَمْطارِ الطَّائِرَة، وَحِيْنَ يَصِلُ زَمانُ الدَّوْلَةِ للنِّهايَةِ، تَصِيْرُ شَبِيْهَةً بِشَجَرَةٍ كانَتْ تَمْلِكُ رَأْسَمالِ النَّداوَةِ والطَّراوَة، فَوَجَدَ البُرُوْدُ والذُّبُولُ والفُتُوْرُ لها الطَّرِيْق، بِأَرَقِّ رِيْحٍ يَنْكَسِرُ غُصْنُها، وَأَقَلُّ يَدٍ تَقْتَلِعُها مِنْ جَذْرِها، وَبِلا مُوْجِبٍ تَقَعُ عَنِ القَدَم، وَهكذا كانَتْ دائِماً دَوْرَةُ الزَّمانِ الغَدَّار، وَقاعِدَةُ الفَلَكِ الدَّوَّار،

فَيَوْمٌ عَلَيْنا وَيَوْمٌ لَنا   وَيَوْمٌ نُساءُ وَيَوْمٌ نُسَرّ

اليَوْمَ إِذِ الأَيَّامُ في عَهْدِ وَلائِهِ، والقَضاءُ هُناكَ حَيْثُ رِضاهُ، وَكُلُّ سَهْمِ تَدْبِيْرٍ نَرْمِيْهِ على الهَدَفِ لا يَجِيْءُ فاعِلاً، وَكُلَّ تَفْكِيْرٍ نَعْمَلُ في دَفْعِ أَمْرِهِ يَظْهَرُ فَجّاً، فَيَجِبُ عَلَيْنا إِرْجاعُ العِلَّةِ للطَّبِيْعَةِ، وَأَنْ نَكُوْنَ مُتَرَقِّبِيْنَ وَمُتَرَصِّدِيْنَ لِذاكَ الزَّمانِ الَّذي تَصِلُ بِهِ شَمْسُ دَوْلَتِهِ للزَّوال، والمالِكُ يُحَوِّلُ الطَّالِعَ مِنْ بَيْتِ السَّعادَةِ، والبَخْتُ يُلْقي الظِّلَّ على عَمَلِنا، *وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاس*، حَتَّى إِذا أَظْهَرْنا القِيامَ بِمُقاوَمَتِهِ وَجَدْنا الظَّفَرَ، وَجِئْنا غالِبِيْنَ، وَتَكُونُ لنا النُّصْرَةُ، وَيَكُوْنُ لَهُ الاِنْتِكاسُ والنَّكْبَةُ، قَدَمُ الثَّوْرِ أَشارَ لِلْوَزِيْرِ الثَّانِي، أنْ رَأْيُكَ في هذا البابِ على أَيَّةِ جُمْلَةٍ، أَعْطى الجَوابَ أنْ ذاكَ الَّذي قالَ الوَزِيْرُ مَقْبُولُ الحَقِّ وَمَمْدُوْحُ العَقْل، لَكِنْ مَنْعُ القُدْرَةِ عَنِ الفِكْرِ، وَوَضْعُ قَيْدِ التَّعْطِيْلِ والتَّسْوِيْفِ على يَدِ وَقَدَمِ القُدْرَةِ والإرادَةِ لَيْسَ بالصَّوابِ بِأَيِّ وَجْهٍ، ذلِكَ أَنَّهُ إذا صارَ بَخْتُهُ قَوِيَّ الحالِ، وَأَنتَ أَيْضاً أَظْهَرْتَ التَّقاعُدَ عَنْ قَصْدِهِ، تَكُونُ عَمِلْتَ المَدَدَ لِقُوَّتِهِ، وَزِدْتَ في ضَعْفِ نَفْسِكَ، والرَّجُلُ العالِمُ مَهْما رأى الدَّوْلَةَ مُساعِدَةً لِلْعَدُوِّ، لا يُقِلُّ مِنَ السَّعْيِ في المُقاوَمَةِ بِوُسْعِ النَّفْس، وَيَسْعى لِلْحِفاظِ على ذاكَ القَدْرِ الَّذي يرى باقِياً مِنْ قُدْرَتِهِ، مِثْلَ طَبِيْبٍ جاءَ عاجِزاً عَنِ اسْتِرْدادِ صِحَّةِ المَرِيْض، فَإِنَّهُ يُحافِظُ على بَقايا قُواهُ الغَرِيْزِيَّةِ بِحُسْنِ المُداواةِ وَحِيَلِ الحِكْمَةِ باقِيَةً في المَكان، فَإِنَّهُ إنْ لَمْ يَفْعَلْ هكذا جاءَ لازِماً الهَلاكُ، إِذَنْ فَكُلُّ ما كانَ بالإمْكانِ لِهَدْمِ مَباني أَمْرِهِ، واجِبٌ عَلَيْنا التَّقَدُّمُ بِهِ، وَلَوْ كانَ

سَحَبَ مَقاوِدِ التَّقْلِيْدِ على رَأْسِ القَوْمِ، وَأَخَذَ مَقالِيْدَ حُكْمِهِم في المَسْلَك، وَكُلُّ مُجْرٍ *في الخَلاءِ يُسَرُّ*، يَجِبُ عَلَيْنا الخُرُوْجُ لِمَيْدانِ المُحارَبَة، وَعَدَمُ الخَوْفِ مِنَ المَوْتِ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ إِعْطاءُ جَوابِ الخَصْمِ بِلِسانِ السَّيْف، لا أَنْ تَطْلُبَ الزَّحْفَ في طَرِيْقِ العِزَّةِ بِدِرْعِ السَّلامَةِ،

فَحْبُّ الجَبانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقى وَحُبُّ الشُّجاعِ العِزَّ أَوْرَدَهُ الحَرْبا

قَدَمُ الثَّوْرِ جَعَلَ الوَجْهَ لِلْوَزِيْرِ الثَّالِثِ، أنْ مُقْتَضى رَأْيِكَ في إِمْضاءِ أَفْكارِهِما ما يَكُوْنُ، أَعْطى الجَوابَ أَنْ ذاكَ الَّذي أَلْقَيا أَخَذَ المَكانَ في قَلْبِكَ، فَإِنَّ خِلْقَةَ جَمِيْعِ المَخْلُوْقاتِ هكذا، أَنَّ الواحِدَ سَرِيْعاً يَصِيْرُ مُسْتَرْسِلاً بِقَبُولِ ذاك الَّذي يَسْمَعُ إِذا جاءَ مُوافِقاً وَمُلائِماً لِطَبِيْعَتِهِ، لا سِيَّما إِذا كانَ الحَدِيْثُ يَمْلِكُ النَّظْمَ الحَسَنَ والعِبارَةَ المُهَذَّبَةَ واللَّفْظَةَ المُسْتَعْذَبَةَ، وَكانَ ذاكَ الحَدِيْثُ مَسْبُوْكاً في قالَبٍ مَرْغُوْبٍ، وَكَذلِكَ قالُوا، إِنَّهُ بِحَدِيْدِ البُولادِ يُمْكِنُ فَلْجُ أَنْواعِ الحَدِيْد، وبالأَلْفاظِ العَذْبَةِ اللَّذِيْذَةِ تُسْلَبُ وَتُسْلَخُ عادَةُ الرِّجالِ، كما بالشِّعْرِ المَرْغُوْبِ لِلْقَلْبِ، والنِّكاتِ المُخالَطَةِ باللُّطْفِ، يَجْعَلُوْنَ السَّخاءَ بِالبُخَلاءِ، والشَّجاعَةَ بالجُبَناءِ، وَيَجْعَلُوْنَ اللُّؤَماءَ كُرَماء، والمَلُوْلِيْنَ ذَلُوْلِيْنَ، والسُّفَهاءَ نُبَهاءَ، أَمَّا رَأْيِي فَهُوَ ذاكَ، أَنَّهُ لا صلاحَ في سَفْكِ دَمِ رَجُلِ الدِّيْنِ هذا حَتَّى وَلَوْ كانَ مُيَسَّراً لَك، وَوَخامَةُ ذاكَ تَصِيْرُ لاحِقَةً بِنا سَرِيْعاً، وَهَذا الإِلْقاءُ بَعِيْدٌ عَنِ الحَزْمِ وَبُعْدِ النَّظَر، فَإِنَّهُ إِذا رُفِعَ مِنَ الوَسَطِ بِلا سَبَبٍ

واضِحِ وَإِلْزامٍ فاضِحٍ وَعِلَّةٍ ظاهِرَةٍ وَحُجَّةٍ باهِرَةٍ، يَجِيْءُ مُتَدَيِّنٌ آخَرٌ وَيَجْلِسُ في مَكانِهِ، وَيَجْعَلُوْنَ آخَرَ قائِماً في مَقامِهِ، وَتَبْقى هذِهِ الفِتْنَةُ قائِمَةً إلى قِيامِ السَّاعَةِ، وَيَذْهَبُ الأَمْرُ خارِجاً عَنْ مَقامِ التَّدارُكِ، فَعامَّةُ الخَلْقِ بالطَّبْعِ مُحِبُّوْنَ للضُّعَفاءِ، وَأَعْداءٌ لِلأَقْوِياء، أمَّا التَّدْبِيْرُ الصَّالِحُ والفِكْرُ المُنْجِحُ فَهُوَ ذاكَ، أَنَّهُ بِوَسْوَسَةِ شَيْطانٍ وَهَنْدَسَةِ عالِمِ سِحْرٍ تُلْقي في صَدْرِهِ حُبَّ الدُّنْيا، وَتَجْعَلُهُ بِنَقْشِ الزَّخارِفِ في دُنيا الغُرُوْرِ هذِهِ مَشْغُولاً وَمَشْغُوْفاً، وَتُعْطِي الجَلْوَةَ في عَيْنِهِ لِجِدارِ بَيْتِ الشَّهَواتِ واللَّذَّاتِ المُلَوَّنِ بالنَّقْشِ، وَتَقْطِرُ في حَلْقِهِ قَطَراتِ عَسَلِ الحِرْصِ مِنْ رَأْسِ غُصْنِ شَجَرَةِ الأَمَلِ، هكذا حَتَّى لا يَرى ثُعْبانَ الأَجَلِ فاغِرَا الحَلْقِ تَحْتَ قَدَمِهِ، وَتَكْتُبُ على ناصِيَةِ حالَهِ، *وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُوْن*، إلى أنْ يَراهُ كافَّةُ الخَلائِقِ مَشْغُولاً بالدُّنْيا عَنْ مُمارَسَةِ الكَفافِ وَطَلَبِ العَفافِ، حَتَّى إذا أنتَ فَتَحْتَ اللِّسانَ بِإِظْهارِ مَعائِبِهِ وَكَشْفِ مَثالِبِهِ صَدَّقُوكَ، وَيَرْجِعُوْنَ عَنْهُ، وَبازارُ دَعْوَتِهِ يَصِيْرُ كاسِداً، هذا الفَصْلُ ظَهَرَ لِقَدَمِ الثَّوْرِ أَبْعَدَ عَنِ الغَرَضِ، وَأَقْرَبَ لِلصَّواب، ثُمَّ قالَ قُلْتَ الرَّأْيَ الحَسَنَ، وَأَظْهَرْتَ الطَّرِيْقَ الصَّحِيْحَ،

إذا نَحْنُ أَدْلَجْنا وَأَنتَ أمامَنا   كَفى لِمَطايانا بِلُقْياكَ هادِيا

الآنَ رَأْيِي أنا هُوَ ذاكَ، أنِّي أَجْلِسُ في مَجْمَعٍ عامٍّ، وَأَسُوْقُ الحَدِيْثَ مَعَهُ في أَسْرارِ العُلُوْمِ وَحَقائِقِ الأَشْياءِ، حَتَّى في السُّؤالِ والجَوابِ

مِنِّي يَعْجِزُ، وَأَجْعَلُ عَوْرَةَ جَهْلِهِ مَكْشُوْفَةً لِلْخَلْق، وَآنَذاكَ أُرِيْقُ دَمَهُ، فَإِنَّ جَعْلي قَتْلَهُ مَوْقُوفاً على تَمْهِيْدِ هذِهِ المُقَدِّماتِ الَّتي تَقُولُ، لا يُعْطِي نَتِيْجَةً غَيْرَ إِضاعَةِ الوَقْتِ، ثُمَّ جَعَلَ الوَجْهَ لِلْوَزِيْرِ الأَكْبَرِ، أنْ خاطِرُكَ في إِعْمالِ هذا الفِكْرِ ما يَرى، قالَ إِذا وَقَعَ أَمْرٌ بَيْنَ طَرَفَيِ النَّقِيْضِ، لَيْسَ اخْتِياراً لِلْعَقْلِ جَعْلُ الحُكْمِ في تِلْكَ القَضِيَّةِ إلى جانِبٍ واحِدٍ، والتَّفْكِيْرُ مِنْ جانِبٍ واحِدٍ، *عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئَاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئَاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ*، كَمْ مِنَ الأَخْطاءِ جاءَ بِها الوَهْمُ بالنَّظَرِ بِصُوْرَةِ الصَّواب، وَكَمْ مِنَ الأكاذِيْبِ أَظْهَرَها الخَيالُ في لِباسِ الصِّدْق، كَمِثْلِ ذاكَ الَّذي وَقَعَ لِوَلَدِ المُضَيِّفِ الأَحْوَلِ، قَدَمُ الثَّوْرِ قالَ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ وَلَدِ المُضَيِّفِ الأَحْوَل

الوَزِيْرُ قالَ سَمِعْتُ أَنَّهُ في وَقْتٍ كانَ رَجُلٌ كَرِيْمٌ قابِلٌ للضَّيْفِ مُمْسِكٌ بالعِنانِ مُفْرِغٌ لِلْهَمْيانِ مُؤْنِسٌ لِلْغَرِيْب، جَمِيْعُ الأَوْصافِ الحَمِيْدَةِ كانَتْ لازِمَةَ ذاتِهِ، بَلْ كَانَ مُتَعَدِّيَ الإِحْسان، وَكُلُّ خِصْلَةٍ شَرِيْفَةٍ كانَتْ في طَبْعِهِ خاصَّةً، إِلَّا الإِنْعامَ فَإِنَّهُ كانَ يَأْمُرُ بِهِ عامَّاً، خَرْجُهُ كانَ مِنْ كِيْسِ كَسْبِهِ، لا مِنْ دَخْلِ مالِ المَظْلُوْمِيْن، كما يَفْعَلُ أَهْلُ الزَّمان، يُشْعِلُونَ النَّارَ في بَيْدَرِ مِئَةِ مُسْلِمٍ كَيْ يَطْلَعَ الدُّخانُ مِنْ مَطْبَخِهِم، وَحِيْنَ يَضَعُونَ خُبْزَةً على سُفْرَتِهِم، يَجْعَلُوْنَ الماءَ في بُنْيانِ مِئَةِ مَنْزِلِ

بريءٍ بلا ذَنْب، وَلِتَصِلَ حَفْنَةُ مِلْحٍ إلى قِدْرِهِم يَنْثُرُونَ حِمْلَ حِمارٍ على جِراحَةِ الدَّراوِيْش، وَلِيَصِلَ عُوْدانِ مِنَ الحَطَبِ إلى مَجْمَرِ نارِهِم، يَضْرِبُونَ بالعُوْدِ مائتَي ضَرِبَةٍ على أَوْساطِ العاجِزِيْن، كِرامُ العالَمِ تَعَلَّمُوا مِنْهُ رَسْمَ إِفاضَةِ الكَرَمِ، خاصَّةً في الضِّيافَة، وَتِلْكُ العُقْدَةُ الَّتي يَعْقِدُها السَّفَلَةُ بالحاجِبِ وَقْتَ نُزْوْلِ الضَّيْفِ خاصَّةً، هُوَ يَمْلِكُها في نَقْشِ الكَأْسِ وَزِيْنَةِ سُفْرَةِ المَطْبَخِ، وَذاكَ التَّقْطِيْبُ الَّذي يَجِيْءُ بِهِ البُخَلاءُ بالجَبِيْنِ وَقْتَ مُلاقاةِ الوارِدِيْن، كانَ لَهُ في سَكْبِ الحِساء،

وَيَكادُ عِنْدَ الجَدْبِ يَجْعَلُ نَفْسَهُ　　حُبَّ القِرى، حَطَباً على النِّيْرانِ

حِيْنَ نَزَلَ في بَيْتِهِ صَدِيْقٌ عَزِيْزٌ، عَظَّمَهُ وَتَعَهَّدَهُ بِأَنْواعِ الإِكْرام، وَتَقَدَّمَ لاسْتِقْبالِهِ عِنْدَ قُدُوْمِهِ، وَتَقَدَّمَ وِفْقَ ما كانَ مُقْتَضى الحالِ مِنْ تَقْدِيْمِ التَّعَهُّدِ وَإِسْعادِ القَلْبِ، وَحِيْنَ فَرِغا مَنِ تَناوُلِ الطَّعامِ، المُضَيِّفُ على سَبِيْلِ الاِعْتِذارِ، حَكى عَنْ تَعَذُّرِ الشَّراب، وَقالَ إِنَّهُ لا شَكَّ أَنَّهُ لا صَيْقَلَ لِزُجاجَةِ العَيْشِ الَّتي صَدِئَتْ مِثْلَ الشَّراب، وللطَّبْعِ المُسْتَوْحِشِ وَسَطَ الحُرَفاءِ ما بَقِيَتِ الصُّحْبَةُ، لائِقٌ يُطْلَبُ لَهُم بالمَكانِ زُجاجَةُ الشَّراب، وَوَفاءُ عَهْدِهِمْ بِزُجاجَةٍ كالسَّفِيْنَةِ بالمَجْلِسِ مِنْ مَكارِهِ الزَّمان، فلا مَجْلِسَ أَجْمَلُ مِنْهُ،

أَدِرْها وُقِيْتَ الدَّائِراتِ فإِنَّها　　رَحَىً طَالَما دارَتْ على الهَمِّ والحَزَنْ

وَلَسْتُ أُحِبُّ السُّكْرَ إِلّا لِأَنَّهُ　　يُخَدِّرُني كَيْ لا أُحِسَّ أَذى المِحَنْ

وَمَعَ هذا كُلِّهِ، فَمِنْ ذاكَ الَّذي صَرَفْنا في هذِهِ اللَّيالي مَعَ الأَصْدِقاءِ بَقِيَتْ زُجاجَةٌ، إنْ كانَتْ رَغْبَةٌ بِتَناوُلِ تِلْكَ ساعَةً تَزْجِيَةً للزَّمان، قالَ الضَّيْفُ، الجُوْدُ بالمَوْجُوْدِ غايَةُ الجُوْد، الحُكْمُ لَكَ، أَمَرَ الوَلَدَ أَنِ اذْهَبْ واجْلِبْ الزُّجاجَةَ الفُلانِيَّةَ المَوْضُوْعَةَ في المَكانِ الفُلانِيّ، الوَلَدُ المِسْكِيْنُ كانَ مُبْتَلىً بِحَوَلِ العَيْنِ وَخَبَلِ العَقْلِ، ذَهَبَ وَحِيْنَ جاءَتْ عَيْنُهُ على الزُّجاجَةِ، عَكْسُ تِلْكَ في مِرآةِ بَصَرِهِ مُظْهِرِ الاِنْحِرافِ أَظْهَرَ زُجاجَتَيْن، جاءَ إلى جِوارِ الأبِ وَقالَ هُناكَ زُجاجَتانِ، أَيَّتَهُما أَجْلِبُ، الأَبُ عَلِمَ ما تَكُوْنُ الحالُ، لكِنْ مِنَ الخَجَلِ مِنْ وَجْهِ الضَّيْفِ جاءَ على جَبِيْنِهِ العَرَقُ، أنْ رُبَّما جاءَ في خَيالِهِ أنَّهُ ضَنَّ بالزُّجاجَةِ الأُخْرى، وَنَسَبَهُ لِوَهَنِ الرَّأْيِ وَنُزُوْلِ الهِمَّةِ، فَلَمْ يَعْرِفْ حِيْلَةً غَيْرَ أَنْ يَقُوْلَ لِلْوَلَدِ، مِنْ تِلْكُما الزُّجاجَتَيْنِ اِكْسِرْ واحِدَةً واجْلِبِ الأُخْرى، الوَلَدُ بِحُكْمِ إشارَةِ الأَبِ رمى حَجَراً على الزُّجاجَةِ، حِيْنَ لَمْ يَجِدِ الأُخْرى عادَ خائِباً وَخاسِراً، وَحَكى حِكايَةَ الحالِ فَصارَ مَعْلُوْماً للضَّيْفِ أَنَّ ذاكَ الخَلَلَ كانَ في بَصَرِ الوَلَدِ، لا في نَظَرَ الأَبِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ حاسَّةَ البَصَرِ، مَعَ أَنَّها في إدْراكِ أَعْيانِ الأَشْياءِ أَسْلَمُ الحَوَّاس، لَيْسَتْ آمِنَةً مِنْ مَواقِعِ الغَلَطِ، وَحاسَّةُ البَصِيْرَةِ الَّتي هِيَ مِنْ حَواسِّ الباطِنِ تَنْظُرُ خَلْفَ حُجُبِ الأَوْهامِ والخَيالات، لِكَي يُمْكِنَ الكَوْنُ خالِياً مِنْ مَوارِدِ الخَطَأِ والصَّواب، يَجِبُ أَنْ تَنْظُرَ بِصَرْفِ التَّفْكِيْرِ العَمِيْقِ في هذا الأَمْر، وَأَلَّا تَضَعَ القَدَمَ في

طَرِيْقِ هذِهِ العَزِيْمَةِ بِلا تَأَمُّلٍ وَتَثَبُّتٍ، فَإِنَّ الخالِقَ جَلَّ وَعَلا مَعَ أَنَّهُ خَلَقَ جَوْهَرَ الآدَمِيِّ أَطْهَرَ مِنْ جَواهِرِ الحَيَواناتِ جَمِيْعاً، وَأَعْطاهُ نَصِيْباً أَكْثَرَ مِنَ العِلْمِ وَحِدَّةِ النَّظَرِ والذَّكاء، وَحَرَسَ أَحْوالَهُ بِكُلِّ نَجْمٍ مِنَ النُّجومِ العُلْوِيَّةِ والسُّفْلِيَّةِ، حَتَّى تَقُومَ بِتَرْبِيَتِهِ وَتَنْمِيَتِهِ كَما تُرَبِّي المُرَبِّياتُ الطِّفْلَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ واحِدٍ مَلَكاً مِنْ عالَمِ قُدْسِ المَلَكُوْتِ مُعَلِّماً، وَوَضَعَ أَمامَهُ لَوْحَ التَّعْلِيْمِ والتَّفْهِيْم، كَما يَجِيْءُ في صِفَةِ أَفْضَلِ المَوْجُوْداتِ، *عَلَّمَهُ شَدِيْدُ القُوَى ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوَى*، ولكِنْ إِذا وَضَعَ قَدَماً في إِثْرِ الهَوى، صارَ أَسِيْراً لَنا نَحْنُ الشَّياطِيْن، وَصارَ مُسَخَّراً وَمَقْهُوراً لَنا، ثُمَّ نَحْنُ الَّذِيْنَ نَمْلِكُ الجَوْهَرَ مِنَ الدُّخانِ المُعْتِمَ المُظْلِمَ والجَهْلَ المُرَكَّب، وَقَدْ أَعْطَيْنا زِمامَ القَلْبِ لِيَدِ الهَوى، وَقَطَعْنا اليَدَ عَنِ التَّفَكُّرِ والتَّأَنِّيْ، أَيَّةُ حالٍ تَكُوْنُ، كَيْفَ نَطْلَعُ مَعَ الآدَمِيِّ الَّذي يَمْلِكُ كُلَّ هذِهِ العُدَّةِ والآلَةِ، وَيَتَّصِفُ بالخِصالِ الكَثِيْرَةِ، *أَخُو الظَّلْماءِ أَعْشى بِاللَّيْلِ*، أَخشى أَنَّهُ مِنْ طَلَبِ هذِهِ الرِّئاسَةِ وَهَذِهِ الرِّفْعَةِ يَقَعُ لَكُمُ الأَسْوَأُ، كما قالَ ذاكَ الرَّجُلُ الضَّيْفُ لِرَبِّ البَيْتِ، قَدَمُ الثَّوْرِ قالَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الرَّجُلِ الضَّيْفِ مَعَ رَبِّ البَيْت

الوَزِيْرُ قالَ سَمِعْتُ أَنَّ زارِعاً كانَ لَيْلَةً مِنْ لَيالي الشِّتاءِ إِذْ مِزاجُ الهَواءِ كانَ مُتَجَمِّداً، وَمَفاصِلُ الأَرْضِ مَضْغُوْطَةً على بَعْضِها، وَقَدْ

صارَ السَّيَلانُ مِنْ مَدامِعِ جَبَلِ سَبَلان مُنْقَطِعاً، والسَّيْلُ مِنْ أَطْرافِ العُيُوْنِ وَقَعَ على طَبَقاتِ الزُّجاج، وَمَسامُّ جِلْدِ الأَرْضِ خَيْطَتْ بِمَسامِيْرِ الجَلِيْد، والماءُ الجامِدُ مُقَيَّدٌ مِثْلَ يَدِ المُمْسِكِيْنَ عَنْ إِفاضَةِ الخَيْرِ، والهَواءُ البارِدُ يَفْتَخِرُ على نَفَسِ السُّفَهاء،

وَتَرى طُيُوْرَ الماءِ في وَكُناتِها تَخْتارُ حَرَّ النّارِ والسَّفُّوْدا
وَإِذا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ في الهَوا عادَتْ إِلَيْكَ مِنَ العَقِيْقِ عُقُوْدا

في مِثْلِ هذِهِ الحالَةِ نَزَلَ صَدِيْقٌ في مَنْزِلِه، فَجاءَ بِذاكَ الَّذي يُكْرَمُ بِهِ الأَضْيافُ بالرَّسْم، جَلَبَ ما حَضَرَ وَوَضَعَهُ أَمامَهُ، وَأَعَدّا العَمَلَ وَأَشْعَلا ناراً جَمِيْلَةً، وَمِنْ لُطْفِ المُحاوَراتِ والمُفاكَهاتِ مَزَجا الفَواكِهَ الرُّوْحانِيَّةَ مَعَ شَرابِ الشِّتاءِ الرَّيْحانِيِّ، وَصَيْرَفِيُّ الطَّبْعِ في رَغْبَةِ قَلْبِ الشِّتاءِ، كُلَّ ساعَةٍ يَقْرَأُ هذِهِ الأَبيات،

اِجْعَلْ ذاكَ الذَّهَبَ الصِّرْفَ بِالتَّنُّوْرِ بِلا صَرْفٍ
كَيما يُلْقِي الشُّعَلَ مِنْهُ بالصُّرْفَةِ وَعَوّا

وانْظُرِ الطّاوُوْسَ يَأْكُلُ الغُرابَ وَآنَذاكَ مِنَ الحَلْقِ
يُلْقي مَنْثُوراً حَبَّ الذُّرَةِ المُنَقَّى

ثُمَّ بِحُكْمِ ما كانَ جَرى في السّابِقِ مِنَ المُباسَطَةِ والمُخالَطَةِ، الضَّيْفُ والزّارِعُ وَسَيِّدَةُ البَيْتِ، الثَّلاثَةُ جَمِيْعاً جَلَسُوا إِلى التَّنُّوْرِ، شِقُّ عَوْرَةِ

سَيِّدَةِ البَيْتِ في المُحاذاةِ جاءَ ظاهِراً مِنَ السَّراوِيْل، الضَّيْفُ كانَ يَسْرِقُ النَّظَرَ وَظَلَّ صامِتاً، الزَّوْجُ وَقَفَ على ذاكَ وَفَكَّرَ، أنْ إِذا أنا تَرَكْتُ الضَّيْفَ يَنْظُرُ، حِجابُ الصِّيانَةِ يَصِيْرُ مُمَزَّقاً، رَفَعَ عُوْداً وَحَمَلَهُ بِبِطْءٍ حَتَّى يَجْعَلَهُ على طَرْفِها لَعَلَّها تَجِدُ الاِنْتِباهَ، الضَّيْفُ كانَ على دِرايةٍ، وَفي أَثْناءِ الحِكايَةِ، كُلَّ وَقْتٍ بِتَعِلَّةِ هذِهِ العِبارَةِ يَعْمَلُ التَّلْقِيْن، أَنْ لا يَجِبُ أَنْ تَعْمَلَ الأَسْوَأَ، إِيَّاكَ أَعْني واسْمَعِي يا جَارَة، والزَّوْجُ عَنْ مَعْنى الحَدِيْثِ غافِلٌ، فَجْأَةً رَأْسُ العُوْدِ جاءَ على المَوْضِعِ المَخْصُوْص، المَرْأَةُ ارْتَجَفَتْ وأَخْرَجَتْ مِنَ المَخْرَجِ رِيْحاً، جاءَتِ الخَجالَةُ حاصِلَةً، والنَّدامَةُ على تِلْكَ الحَرَكَةِ لَمْ تُجْدِ نَفْعاً، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أنْ لا تُفَكِّرْ بِحِيْلَةِ هذا الأَمْرِ كُلِّهِ مِنْ طَرَفٍ واحِدٍ، ولا تَجْعَلِ التَّفْكِيْرَ مَقْصُوراً على جانِبٍ واحِدٍ، قَدَمُ الثَّوْرِ قالَ سَمِعْتُ ذاكَ الَّذي قُلْتَ، وَقَدْ أَخَذَ القَرارَ في نِصابِ الحَقّ، لكِنْ بِمَهارَةِ الفَنِّ وَغَزارَةِ العِلْمِ وَعَوْنِ العَقْلِ والحَصافَةِ يُمْكِنُ أنْ تَجِدَ التَّسَلُّطَ على العَدُوِّ، كما كانَ مِنَ الفَأْرِ على الحَيَّةِ، الوَزِيْرُ سَأَلَ أَنْ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الفَأْرِ والحَيَّةِ

قَدَمُ الثَّوْرِ قالَ سَمِعْتُ أَنَّهُ في وَقْتٍ، فَأْرٌ وَجَدَ مَسْكَناً في بَيْتِ غَنِيٍّ، وَمِنْ هُناكَ جَعَلَ طَرِيْقاً إِلى المَخْزَنِ، وَطَرِيْقاً إلى البُسْتان، وَظَلَّ

يَعِيْشُ مُدَّةً في ذاكَ المَكانِ، يُكْمِلُ العَيْشَ بِلا غَوائِلِ زَحْمَةِ المُتَعَرِّضِيْن،

كُلُّ مَنْ كانَ بالسَّلامَةِ وَالخُبْزَ يَمْلِكُ وَمَحَلَّ السَّكَنِ مِنْ أَجْلِ الجُلُوْسِ يَمْلِكُ
لا مَخْدُوْمَ شَخْصٍ ولا خادِمَ شَخْصٍ   قُلْ عِشْ سَعِيْداً فالعالَمَ الجَمِيْلَ تَمْلِكُ

وَذاكَ الَّذي مَلَكَ المَجْلِسَ مُيَسَّراً على أَرْبَعَةِ مسانِدِ الرِّضا في مَلْجَأِ ظِلِّ حِصْنِ الأَمْنِ مَعَ كِفايَةِ النِّعْمَةِ، وعلى رَأْسِ هذا يَطْلُبُ فُضْلَةَ الطَّمَعِ، لائِقٌ أَلَّا يَكُونَ لَهُ أَيُّ خَيْرٍ،

إذا الــصِّحَّةُ والقُوَّةُ   بــاقٍ لَكَ والأَمْنُ
وَأَصْبَحْتَ أَخا حُزْنٍ   فلا فارَقَكَ الحُزْنُ

يَوْماً حَيَّةٌ كَبِيْرَةٌ بِقالَبِ ثُعْبانٍ، مَعَ صُوْرَةٍ جِدُّ مُنْكَرَةٍ، جاءَتْ مِنَ الصَّحْراءِ المالِحَةِ ظامِئَةَ الشَّفَةِ وَمُحْتَرِقَةَ الكَبِدِ، وَبِطَلَبِ ماءِ الشُّرْبِ دَخَلَتْ في ذاكَ البُسْتان، وَمِنْ ذاكَ المَكانِ عَبَرَتْ إلى بَيْتِ الفَأْر، وَقَعَتْ عَيْنُها على ذاكَ المَكانِ للرَّاحَةِ، بِمِثْلِ ذاكَ البابِ المَفْتُوْحِ إلى بُسْتانِ القَصْر، بِما في الأَمْنِ والنُّزْهَةِ يُعْطي الإشارَةَ عَنْ رَوْضَـةِ إِرَم وَعَرْصَةِ الحَرَم، قالَتْ للنَّفْسِ،

أُنْظُرْ الرِّزْقَ فَبَبَّغاءُ رُوْحي نَحْوَ شَفَتِكَ   جاءَ بِأَمَلِ الفُسْتَقِ وَوَقَعَ على السُّكَّر

الحَيَّةُ وَجَدَتْ رُكْنَ بَيْتِ العافِيَةِ، وَجَلَسَتْ على رَأْسِ كَنْزِ المُراد، وَوَضَعَتِ الرَّأْسَ على قَدَمِ السَّلامَةِ، وَعَقَدَتْ نَفْسَها حَلَقَةً على بابِ الكَنْز، حُقَّ لِكُلِّ مَنْ نَزَلَتْ قَدَمُهُ بِكَنْزِ السَّعادَةِ أَنْ يَقْرَعَ حَلْقَةَ هذا الباب، أمَّا طالِبُو الدُّنْيا فَيَرَوْنَ حَلْقَةَ بابِ القَناعَةِ بِشَكْلِ حَيَّةٍ، واليَدُ الَّتي تَهُزُّ تِلْكَ الحَلْقَةَ لَيسَتْ لِكُلِّ شَخْصٍ، لا جَرَمَ هُمْ عَنْ سَلْوَةِ قَصْرِ الإِقْبالِ والدَّوْلَةِ، كَحَلَقَةٍ على الباب،

الشَّخْصُ الَّذي ما وَجَدَ عِزَّةَ العُزْلَةِ ما وَجَدَ أَيَّ شَيْء

الشَّخْصُ الَّذي ما رأى وَجْهَ القَناعَةِ ما رأى أَيَّ شَيْء

الحَيَّةُ لَبِسَتْ حِذاءَ السَّيْرِ والطَّلَبِ وَذَهَبَتْ وَعادَتْ، آمَنَ مِنْ ظَبْيِ الحِمى، وآلَفَ مِنْ حَمامَةِ مَكَّةَ، الفَأْرُ دَخَلَ بالمَنْزِلِ وَمِنْ بَعِيْدٍ نَظَرَ، رأى حَيَّةً في بَيْتِهِ مِثْلَ دُوْدَةٍ سَوْداءَ مُلْتَفَّةٍ، العالَمُ صارَ مُظْلِماً أَمامَ عَيْنِهِ، وَأَخَذَ يُطْلِقُ الآهَ كالدُّخانِ مِنْ صَدْرِهِ، وَقالَ يا رَبِّ أَيُّ خَصْمٍ ظالِمٍ وَصَلَ إِلَيَّ، حَتَّى جَعَلَ بَيْتي وَمُلْكي مُظْلِماً هكذا، رُبَّما كانَتْ تِلْكَ الظُّلُماتُ مِنَ الخِياناتِ الَّتي كُنْتُ عَمِلْتُ مَعَ خَلْقِ الله، أو كانَتْ دُخانَ النَّارِ الَّتي أَشْعَلْتُ في قَلْبِ الجِيْران، *ولا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِيْن*، القِصَّةُ، الفَأْرُ بِقَلْبٍ جَرِيْحٍ، وَظَهْرِ طاقَةٍ مَكْسُوْرٍ مِنْ حِمْلِ الغُبْنِ، جاءَ أَمامَ الأُمِّ، وَحَكى الحِكايَةَ عَنْ وُقُوْعِ الواقِعَةِ واسْتِيْلاءِ الحَيَّةِ على بَيْتِهِ وَأَسْبابِهِ، وَمِنَ الأُمِّ باسْتِرْشادِ طَرِيْقِ الدَّفْعِ مِنْ تَغَلُّبِها

أَظْهَرَ المُبالَغات، قالَتِ الأُمُّ، كُنْ كالضَّبِّ يَعْرِفُ قَدْرَهُ وَيَسْكُنُ جُحْرَهُ، ولا تَكُنْ كالجَرادِ يَأْكُلُ ما يَجِدُ وَيَأْكُلُهُ ما يَجِدُهُ، رُبَّما عَمِلْتَ زِيادَةَ الطَّلَبِ على مُلْكِ القَناعَةِ والكِفايَةِ، وَجَعَلْتَ يَدَ التَّعَرُّضِ بالغُبار، وَقَصَدْتَ ما خَزَنَ الآخَرُون، اِذْهَبْ وَخُذْ مَنْزِلاً آخَرَ، وَتَعامَلْ مَعَ مَسْكَنَةِ النَّفْس، فَلَيْسَتْ لَكَ قُوَّةُ ذِراعِ الحَيَّةِ، ولا قُدْرَةَ لَكَ على شَدِّ قَوْسِ عَداوَتِها، وَإِذا كُنْتَ مِنْ صَمِيْمِ العِنادِ مَغْرُوْراً بِحِدَّةِ أَسْنانِكَ فَإِنَّ لِلْحَيَّةِ أَسْناناً، مِنْ أَسْنانِها يَطْلَعُ لِلْفِيْلِ السَّكْرانِ الصَّخْرُ بالأَسْنان، وَمِنْ سُمِّها تَتَمَزَّقُ لِلأَسَدِ الهَصُوْرِ المَرارَة،

لِمائَةِ كَأْسٍ مِنَ العَسَلِ تَكْفي قَطْرَةٌ واحِدَةٌ
مِنْ ذاكَ المَذاقِ الَّذي في قَعْرِ أَسْنانِ الأَرْقَم

وَرَغْمَ أَنَّ الاِبْتِعادَ عَنْ مَوْطِنِ وَمَأْلَفِ النَّفْسِ، والهِجْرَةَ عَنْ مَرْكَزِ الاِسْتِقْرارِ بالاِضْطِرار، وَرُؤْيَةَ الآخَرِيْنَ يَنْعَمُونَ بِما كانَ عَمِلَ وَأَعَدَّ لِلنَّفْسِ، مِمَّا يُعَدُّ مُجاهَدَةً عَظِيْمَةً، وَمُكابَدَةً أَلِيْمَةً، وَإِيْزَد جَلَّ وَعَلا جَعَلَ قَتْلَ عَبِيْدِهِ أَنْفُسَهُمْ مُقابِلاً لإِزْعاجِهِمْ وإِخْراجِهِمْ مِنْ مَقَرِّهِمُ وَمَأْواهُمُ الأَصْلِيّ، *أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُم*، أَمَّا الرَّجُلُ فَذاكَ الَّذي إِذا جاءَتْ أَمامَهُ ضَرُوْرَةٌ رَبَطَ مَحْمَلَ العَزْمِ على غَوارِبِ الاِغْتِرابِ، وكالقَمَرِ جابَ عَرْصَةَ المَشارِقِ والمَغارِبِ، وَكالشَّمْسِ وَضَعَ السَّرْجَ على مَناكِبِ الكَواكِب، وَمَضى،

لَوْ أنَّ في شَرَفِ المَأوى بُلُوْغَ عُلىً   لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يَوْماً دارَةَ الحَمَلِ
إنَّ العُـلى حَـدَّثَتْني وَهْيَ صادِقَةٌ   فِـيْما تُحَدِّثُ إنَّ العِزَّ في النُّقَلِ

إلى ذلِكَ المَكانِ الَّذي يُهَيِّئُ مِنْهُ مَقَرّاً جَدِيْداً وَمُسْتَقَرّاً، وَيُوْصِلُ لِلتَّوافي حَقَّ التَّلافي لِذاكَ الَّذي قَدْ يَكُونُ صارَ التَّلَفَ مِنْ دَوْرَةِ الزَّمانِ، الفَأْرُ قالَ رَغْمَ أَنَّكِ قُلْتِ هذا الفَصْلَ مُشْبَعاً فَأنا لَمْ أَصِرْ شَبْعاناً، أَيَّةُ حَمِيَّةِ نَفْسٍ وَأَبِيَّةُ طَبْعٍ لا تُعْطي رُخْصَةَ تَحَمُّلِ ذاكَ الَّذي لا يُحْتَمَلُ، فَإِنَّ رِجالَ الرِّجالِ، ما اسْتَطاعُوا، لا يَرْجِعُونَ عَنْ مُكافأةِ جَوْرِ الجائِرِيْنَ وَقَصْدِ القاصِدِيْنَ، وَما بَقُوا يَمْلِكُونَ سَهْماً واحِداً في جُعْبَةِ الإمْكانِ، لا يُثْنُوْنَ العِنانَ عَنْ مُناضَلَةِ وَمُطاوَلَةِ الخَصْم، ولا يَرْمُونَ سِلاحَ الفَنِّ مَفْصُولاً على القَدَم،

لا تَــكُ كالجــاري إلــى غايَةٍ   حَــتَّى إذا قــارَبَهــا قــاما

قالَتِ الأُمُّ إذا كُنْتَ تُرِيْدُ مُقاوَمَةَ هذا الخَصْمِ بِمُظاهَرَةِ الفِئْرانِ وَمُعاوَنَتِهِم، فَإِنَّكَ سَرِيْعاً تَصِيْرُ هَلاكاً، ولا تَصِلُ إلى المَقْصُوْدِ أَبَداً، فَإِنَّهُ مِنْ شُعاعِ الشَّمْسِ الَّذي وَقَعَ في الرَّوْزَنَةِ لا يُمْكِنُ الصُّعُوْدُ على سَقْفِ السَّماء، وَبالشِّباكَ الَّتي نَسَجَها العَنْكَبُوْتُ مِنْ لُعابِهِ حَوْلَ زَوايا بَيْتِهِ، لا يُمْكِنُ صَيْدُ النَّسْرِ الطَّائِرِ، *إلى ذاكَ ما باضَ الحَمَامُ وَفَرَّخَا*، هذا العَمَلُ لَنْ يَطْلُعَ لَكَ، أنتَ بِهذا العَمَلِ لَنْ تُفْلِحَ، الفَأْرُ قالَ، لا تَنْظُري إلَيَّ بِعَيْنِ الإسْتِحْقار، *إيّاكُمْ وَحَمِيَّةُ الأَوْقاب*، أنا سَآخُذُ هَذِهِ

الحَيَّة بِيَدِ البُسْتانِيِّ، أَقُومُ بِتَحْرِيْضِهِ على قَتْلِ الحَيَّةِ بِشَعْبَذَةِ الحِيَل، قالَتِ الأُمُّ إِذا كُنْتَ تَمْلِكُ مِثْلَ هذِهِ المَقْدِرَة، وَتَقْدِرُ تُظْهِرُ مِثْلَ هذِهِ الغَلَبَة، أَصَبْتَ فالزَمْ، ذَهَبَ الفَأْرُ وَظَلَّ مُلازِماً شُغْلَهُ بِضْعَةَ أَيَّامٍ، كانَ يَجْلِسُ مُتَرَقِّباً وَمُتَرَصِّداً، أَنْ كَيْفَ يَفْتَحُ كَمِيْنَ المَكْرِ على خَصْمِهِ، وَكَيْفَ يُلْقي النوْمَ على عَيْنِ حَزْمِهِ، يَوماً شاهَدَ الحَيَّةَ وَكَيْفَ دَخَلَتْ في البُستانِ مِنَ الجُحْرِ، وَتَحْتَ شَجَرَةِ وَرْدٍ كانَتْ كُلَّ وَقْتٍ تُعْطِي الأمانَ والرَّاحَةَ، جَعَلَتِ الظَّهْرَ لِلشَّمْسِ وَنامَتْ بِلا خَبَرٍ عَنْ ذاكَ، أَنَّ الجِهاتِ السِّتَّ لِكَعْبَتَي التَّقْدِيْر، سَتَجِيْءُ مُوافِقَةً لِجِهَةِ الفَأْرِ، وَأَرْبَعَةُ أَرْكانِ لَوْحِ النَّرْدِ سَتَنْثُرُ العَناصِرَ على وَجْهِ بَقائِهِ، حَتَّى يَعْلَمَ ماهِرُو اللَّعِبِ غالِبُو اليَدِ، أنَّ لَعِبَ أَخْذِ المَنْزِلِ مَعَ المَظْلُوْمِيْنَ ذَوِي اليَدِ السُّفلى لَعِبٌ غَيْرُ مُبارَكٍ، وَتِلْكَ السَّاعَةَ اتِّفاقاً، رَأَتِ البُسْتانِيَّ نائِماً بِمَحَلِّ اسْتِراحَتِهِ، الفَأرُ اليَقِظُ مِنْ بَخْتِهِ قَفَزَ على صَدْرِ البُسْتانِيِّ فَجاءَ مُسْتَيْقِظاً وَوَثَبَ مِنَ النَّوْمِ، والفَأْرُ اخْتَفى، وَمَرَّةً أُخرى البُسْتانِيُّ ذَهَبَ بالنَّوْمِ والفَأْرُ عَمِلَ العَمَل نَفْسَهُ، وَصارَ البُسْتانِيُّ صاحِياً مِنَ النَّوْمِ، وَصارَ الأَمْرُ مُكَرَّراً مِنْ هذا الشَّكْلِ عِدَّةَ كَرَّاتٍ، وَقَعَتْ نارُ الغَضَبِ في قَلْبِ البُسْتانِيِّ، وَمِثْلَ الدُّخانِ نَهَضَ مِنَ المَكانِ، وَجَعَلَ تَحْتَ إِبِطِهِ دَبُّوساً ثَقِيْلاً وَمَعْقُوْفَ الرَّأْس، وَظَلَّ يَرْقُبُ وَقْتَ حَرَكَةِ الفَأْرِ، الفَأْرُ على القاعِدَةِ السَّابِقَةِ وَثَبَ على بَطْنِ البُسْتانِيِّ، البُسْتانِيُّ قَفَزَ مِنَ المَكان، وَمِنْ غَيْظِ الحالَةِ ذَهَبَ مِنْ يَدِهِ زِمامُ السُّكُونِ، ذَهَبَ

يَجْري في إِثْرِهِ، والفَأْرُ بالهَرْوَلَةِ وبالبِطْءِ يَذْهَبُ حَتَّى وَصَلَ إلى جِوارِ الحَيَّةِ، وَفي ذلِكَ المَكانِ نَزَلَ في جُحْرٍ، البُسْتانِيُّ وَجَدَ الظَّفَرَ على الحَيَّةِ النَّائِمَةِ وَدَقَّ رَأْسَها، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، لِتَعْلَمَ أَنَّهُ حِيْنَ اسْتِبْدادُ الضُّعَفاءِ يَجِيْءُ قاصِراً عَنْ إنْجازِ الأَعْمالِ، يَقُوْمُوْنَ بالاِسْتِمْدادِ مِنْ قُوَّةِ العَقْلِ وَرَزانَةِ الرَّأْيِ وَمَعُوْنَةِ البَخْتِ وَمُساعَدَةِ التَّوْفِيْقِ، حَتَّى يَرْبِطُوا الغَرَضَ بالحُصُول، وَفي المَثَلِ، *التَّجَلُّدُ ولا التَّبَلُّدُ*، الوَزِيْرُ قالَ، تَقْرِيْرُ هذِهِ الفُصُوْلِ جَمِيْعاً مَرْغُوْبٌ لِلْقَلْب، لكِنْ اعْلَمْ أَنَّهُ حِيْنَ يُمْضي شَخْصٌ عُمُراً في مُمارَسَةِ عَمَلٍ، وَيَصِلُ إلى غَوامِضِ أَسْرارِ ذاكَ، وَيَصِيْرُ مَوْسُوْماً بِذاك، مَهْما عَلِمَ شَخْصٌ آخَرُ ذاكَ العَمَلَ، وَعَرِفَ كَمالَ وَنُقْصانَ ذاكَ، لَكِنْ بِما أَنَّهُ لا يَمِلْكُ الحِرْفَةَ، وَقْتَ المُجادَلَةِ والمُقابَلَةِ تَكُونُ المَهارَةُ والغَلَبَةُ لِصاحِبِ الحِرْفَةِ، قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ما ناظَرْتُ ذا فُنُوْنٍ إِلَّا وَقَدْ غَلَبْتُهُ وَما ناظَرَنِي ذُو فَنٍّ إِلَّا وَقَدْ غَلَبَنِي، لِرَجُلِ الدِّيْنِ هذا، العِلْمُ والحِكْمَةُ حِرْفَةٌ، والبَيانُ وَالفَصاحَةُ حِرْفَتُهُ، وَهُوَ على الجَلِيْلِ والدَّقِيْقِ والجَلِيِّ والخَفِيِّ مِنَ العُلُوْمِ واقِفٌ، وَأَنتَ في جَمِيْعِ المَواقِفِ مُتَرَدِّدٌ وَمُتَوَقِّفٌ، إذا كانَ لَكُما الاِتِّفاقُ على المُناظَرَةِ، يَجِيْءُ ظاهِراً وُفُوْرُ عِلْمِهِ وَقُصُوْرُ جَهْلِك، وَيَصِيْرُ تَرْجِيْحُ فَضِيْلَتِهِ مُوْجِباً لِتَنَجُّحِ وَسِيْلَتِهِ، وَيَجْلِسُ أَمْرُهُ عالِياً في كَمالِ النِّصابِ، وَيَكُونُ نَصِيْبُنا

الخِذْلانَ والحِرْمان، وهكذا وَقَعَتْ قِصَّةُ بزورجَمَهْر مَعَ كِسْرى، قَدَمُ الثَّوْرِ قالَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ بزورجمهر مَعَ كِسْرى

الوَزِيْرُ قالَ سَمِعْتُ أَنَّ بزورجمهر مَعَ الفَجْرِ أَسْرَعَ لِخِدْمَةِ كِسْرى وَقالَ لَهُ، كُنْ بالاِسِيْقاظِ بِاللَّيْلِ حَتَّى تَكُونَ بالِغَ المُنى، وَكِسْرى بِحُكْمِ أَنَّهُ كانَ يَقْضي اللَّيْلَ بالمُعاشَرَةِ والمُعاقَرَةِ في سَماعِ الأَغاني واجْتِماعِ الغَواني، وَمَعَ المَعْشُوْقاتِ بِصُوْرَةِ القَمَرِ إلى مَطْلَعِ الشَّمْسِ، كانَ يَضَعُ الرَّأْسَ بالدَّلالِ على وِسادَةِ التَّنَعُّمِ، صارَ مُتَأَثِّراً وَمُتَكَدِّراً مِنْ بزورجمهر بِسَبَبِ هذِهِ الكَلِمَةِ، وَعَرِفَ هذا المَعْنى بِمَثابَةِ عِصْيانٍ، يَوْماً كِسْرى أَمَرَ الخَدَمَ أنْ بِوَقْتِ الصُّبحِ حِيْنَ تَكُونُ عَيْنُ العالَمِ مِنْ سوادِ الظُّلُماتِ وَبَياضِ النُّوْرِ نِصْف مَفْتُوْحَةٍ، وحِيْنَ بزورجمهر يَجْعَلُ الوَجْهَ لِلْخِدْمَةِ، أنْ يَهْجُمُوا عَلَيْهِ مُتَنَكِّرِيْنَ، وَأَنْ يَأْخُذُوا ثَوْبَهُ مِنْ دُوْنِ أَنْ يُوْصِلُوا إِلَيْهِ الأَذى، الخَدَمُ بِحُكْمِ الأَمْرِ ذَهَبُوا، وَأَظْهَرُوا ذاكَ اللَّعِبَ في حِجابِ ظَلامِ اللَّيْلِ مَعَ بزورجمهر، هُوَ رَجَعَ وَلَبِسَ ثَوْباً آخَرَ، وَحِيْنَ وَصَلَ لِلْحَضْرَةِ على خِلافِ الأَوْقاتِ السَّابِقَةِ، مُتَأَخِّراً قَلِيْلاً عَنِ المَوْعِدِ، سَأَلَهُ كِسْرى أنْ ما مُوْجِبُ هذا التَّأَخُّرِ، قالَ كُنْتُ قادِماً وَجاءَ إِلَيَّ السُّرَّاقُ وَأَخَذُوا ثَوْبي وَأنا صِرْتُ مَشْغُولاً بِتَرْتِيْبِ ثُوْبٍ آخَرَ، قالَ لَهُ كِسْرى أَلَمْ تَكُنْ هذِهِ نَصِيْحَتُكَ أنْ كُنْ قائِماً اللَّيْلَ حَتَّى يَكُوْنَ مُتاحاً

لَكَ المُراد، وَهذِهِ الآَفَةُ وَصَلَتْ لَكَ مِنْ قِيامِ اللَّيْلِ أَيْضاً، بزورجمهر بالاِرْتِجالِ أَعْطى الجَوابَ، أنِ السُّرَّاقُ أَيْضاً كانُوا مُسْتَيْقِظِيْنَ بِاللَّيْل، وكانُوا اسْتَيْقَظُوا قَبْلي، وَمِنْ ذاكَ صارَ مُرادُهُمْ مُتاحاً، كِسْرى مِنْ بَداهَةِ المَقالِ بالصَّوابِ وَحُضُورِ الجَوابِ، خَجِلَ وَصارَ مُلْزَماً مِنْهُ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أنْ كِسْرى رَغْمَ أَنَّهُ كانَ عالِماً فَقَدْ جاءَ مَغْلُوْباً مِنْ بزورجمهر الَّذي كانَ يَمْلِكُ نَظْمَ الكَلامِ مَلَكَةً في النَّفْسِ، حاشا أَنْ تَصِيْرَ قَضِيَّةُ حالِكَ مَعْكُوْسَةً، وَيَجْعَلَ الزَّمانُ فِكْرَكَ مَغْلُوْباً، *وَرُبَّ حِيْلَةٍ كانَتْ على صاحِبِها وَبِيْلَةً*، قَدَمُ الثَّوْرِ مِنْ ذاكَ الحَدِيْثِ صارَ بالغَضَبِ، وَكَذلِكَ ظَنَّ أَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ ذاكَ كُلَّهُ مِنْ طَرِيْقِ اسْتِعْظامِ عالِمِ الدِّيْنِ واسْتِصْغارِ جانِبِهِ، ثُمَّ قالَ لِلْوَزِيْرِ الأَكْبَرِ، أنْ إشارَةُ رَأْيِكَ إلى أَيَّةِ جِهَةٍ، وَفي هذِهِ الأَبْوابِ أَيُّ طَرِيْقٍ يُظْهِرُ الصَّواب، الوَزِيْرُ قالَ اليَومَ بازارُ دَوْلَةِ الدِّيْن، والزَّمانُ قابِلُ أَمْرِهِ، الفَلَكُ الفَيْرُوزِيَّ الَّذي هُوَ فَصُّ خاتَمِ حُكْمِهِ، وَضَعَ الخَتْمَ على لِسانِ اعْتِراضِنا، وَإلى انْقِراضِ الأَمْرِ، كُلُّ مَنْ رَفَعَ قَدَمَ التَّعَدِّي، وَصارَ لِقِتالِهِ المُتَصَدِّي، جاءَ مَنْكُوباً وَمَغْلُوْباً،

لا تَسْعَ في الأَمْرِ حَتَّى تَسْتَعِدَّ لَهُ   سَعْيٌ بِلا عُدَّةٍ قَوْسٌ بِلا وَتَرِ

قَدَمُ الثَّوْرِ قالَ، مِنْ قَبْلِ أنْ يَنْهَضَ لَنا العَمَلُ عَنْ يَدِ رَجُلِ الدِّيْنِ هذا، وَقْعُ الخَوْفِ والبَأْسِ مِنْهُ جلَسَ في قُلُوْبِكُم، *وَقَذَفَ في قُلُوْبِهِمُ الرُّعْبَ*،

لكِنَّ أَمْرَ الدَّوْلَةِ شَبِيْهٌ بالماءِ في الجَدْوَلِ، لَوْ ذَهَبَ مِئَةَ سَنَةٍ على مَجْرىً واحِدٍ مِنْ دُوْنِ أَنْ تَسُدَّ مَجْراهُ ذاكَ لا يَجْعَلُ الوَجْهَ لِلْجانِبِ الآخَر، أنا سَأَضَعُ قَدَمَ الاِجْتِراءِ للأمامِ، وَأُرْجِعُ مَجْرى ماءِ الدَّوْلَةِ هذا، وَأُجْرِيْهِ بِمَجرى مُرادِ نَفْسي، الوَزِيْرُ كانَ يَسْمَعُ هذِهِ المُفاوَضَةَ وَيَقُولُ،

أَيْ مَنْ صارَ الماءُ في جَدْوَلِكَ عَكِراً مِنْكَ

الوَجْهُ مِنْكَ لَمْ يَصِرْ لائِقاً مِنَ الطَّبْعِ مِنْكَ

ثُمَّ هُوَ أَيْضاً أَسْلَمَ زِمامَ الاِسْتِسْلامِ بِيَدِهِ، أنْ إِذا أنا زِدْتُ على هذا الَّذي قُلْتُ شَيْئاً، وَأَظْهَرْتُ مُبالَغَةً في نَقْضِ عزائِمِهِ أَكْثَرَ مِنْ هذا، لا شَكَّ أَنِّي أَصِيْرُ مُنْسُوْباً بِتُهْمَةٍ، وَأرْجِعُ مَوْصُوْفاً بِوَصْمَةِ خِيانَةٍ، *وَإِنَّ كَثِيْرَ النُّصْحِ يَهْجُمُ على كَثِيْرِ الظِّنَّةِ*، رَأْيُ قَدَمِ الثَّوْرِ اسْتَقَرَّ على ذاكَ، أَنَّهُ يَخْتارُ أَلْفَ شَيْطانٍ عالِمٍ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَزَّقَ مِئَةَ شَبَكَةِ مَكْرٍ، وَعَقَدَ لِلكَثِيْرِ مِنَ الزَّاهِدِيْنَ زُنَّارَ الإنْكارِ مِنْ بَعدِ كَمَرِ الطَّاعَةِ على الوَسَط، وَأَرْجَعَ الكَثِيْرَ مِنَ العابِدِيَنَ مِنْ رُكْنِ زاوِيَةِ القَناعَةِ إلى هاوِيَةِ الحِرْصِ والطَّمَعِ أَسْرى بِسَلاسِلِ الوَسْواس، حَشَرَ هؤلاءِ جَمِيْعاً، وَذَهَبَ إلى جِوارِ ذاكَ الجَبَلِ، وإلى ذاكَ المَكانِ الَّذي كانَتْ بِهِ صَوْمَعَةُ ذاكَ الدِّيْنِيّ، أرْسَلَ واحِداً كانَ مَعْرُوْفاً بالجَراءَةِ والبَسالَةِ بِرَسْمِ الرِّسالَةِ أمامَ الدِّيْنِيِّ أنْ أنا قائِدُ وَمُقْتَدى شَياطِيْنِ العالَمِ، أنا أَسْتَرِقُ

السَّمْعَ مِنْ مَلائِكَةِ السَّماء، *فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ*، نَزَلَتْ في شَأْني، إضْلالُ سالِكِي الأَرْضِ شُغْلي، *وَإِنَّ الشَّياطِيْنَ لَيُوْحُوْنَ إلى أَوْلِيائِهِم*، أُنْزِلَتْ في حَقِّ وُكَلائي، أنا في مَنْزِلِ مُزاحَمَتِكَ أجِيْءُ نازِلاً، أنتَ جِئْتَ وَصِرْتَ تَمْسَحُ عَرْصَةَ دَعْوى العِلْمِ بالخُطْوَةِ الواسِعَةِ، تَجْعَلُ العالَمِيْنَ بِإظْهارِ التَّوَرُّعِ وَأَمْثالِ هذا التَّصَنُّعِ مَخْدُوْعي المَكْرِ وَمَأْسُوري السِّحْر، وَتُرِيْدُ أَنْ تَجْعَلَ مُشَوَّهاً وَمُشَوَّشاً الوَجْهَ المُزَيَّنَ لِدَوْلَتِنا، وَطُرَّةَ طِرازِ مَمْلَكَتِنا، الآنَ أنا جِئْتُ حَتَّى تَكُونَ بَيْنَنا المُلاقاة، وَبِمَحْضَرِ العُلَماءِ، وَمَجْمَعِ الفُضَلاءِ، في عالَمٍ مِنْ عُلَماءِ الفَرِيْقَيْنِ، وَعُظَماءِ الثَّقَلَيْنِ، تَذْهَبُ المُناظَرَةُ ما بِيْنَنا، حَتَّى مِقْدارُ عِلْمِ الكَلامِ مِنِّي وَمِنْكَ يَجِيْءُ ظاهِراً، الشَّيْطانُ حَفِظَ هذا الفَصْلَ وَذَهَبَ، وَحِيْنَ وَصَلَ لِخِدْمَةِ الدِّيْني، أَخَذَتِ الشَّيْطانَ المَهابَةُ والعِزَّةُ مِنْهُ، فَلَمْ يَجِدِ المَجالَ لإطْلاقِ نَفَسٍ، *كَأَنَّهُ عَرَتْهُ بَهْتَةٌ أَوْ أَخَذَتْهُ سَكْتَةٌ*، الدِّيْنِيُّ سَأَلَهُ أَنْ أَنْتَ أَيُّ شَيْطانٍ، وَبِأَيِّ شُغْلٍ أَتَيْتَ، قالَ جِئْتُ مِنَ قَدَمِ الثَّوْرِ الَّذي نَزَلَ في نِهايَةِ هذا الجَبَلِ مَعَ جَيْشٍ مُجْتَمِعٍ مِنْ مَرَدَةِ عَفارِيْتِ الشَّيْطانِ، وَعَبَدَةِ طَواغِيْتِ الطُّغْيانِ، وَقَدْ أَرْسَلَ لَكَ بِضْعَ رَسائِلَ على لِساني، إنْ كُنْتَ تُعْطي الإشارَةَ أَقُوْمُ بالأداء، الدِّيْنِيُّ أَعْطى الإجازَةَ، والشَّيْطانُ أَعادَ قَوْلَ كُلَّ ما كانَ سَمِعَ، الدِّيْنِيُّ قالَ على هذا العَزْمِ إذْ جاءَ الشَّيْطانُ قَدَمُ الثَّوْرِ، وَوَضَعَ القَدَمَ في وَرْطَةِ الخَطَرِ، يَسُوْقُ الحِمارَ في الطِّيْنِ والحَمامَةَ بالمِضْراب، وَبَخْتُ السُّوْءِ يَقْرَأُ عَلَيْهِ، *أرى*

قَدَمَكَ أراقَ دَمَكَ، عَسى أَنَّ إرادَةَ الأَزَلِ تُرِيْدُ إزالَةَ خُبْثِكُمْ عَنْ ظَهْرِ الأَرْض، وَقَدَّرَتْ طَهارَةَ ثَوْبِ آخِرِ الزَّمانِ مِنْ لَوْثِ وُجُوْدِكُم، وَأَنْهَتْ زَمانَ إِفْسادِ الشَّياطِيْنِ في عالَمِ الكَوْنِ والفَسادِ، الآنَ هكذا أَعِدَّ ما تُرِيْدُ، واجْعَلْ كما تُرِيْدُ مَبْنِيَّةً هذِهِ المُناظَرَةَ وَالمُنافَرَةَ، وَرَغْمَ أَنَّ نَصِيْبي مِنْ عالَمِ لَدُنِيَّةِ العِلْمِ لَمْ يَجِئْ زائداً، وَمِنْ مُحِيْطِ المَعْرِفَةِ اللّامُتناهي، بِراسِخِ أَقْدامِ النُّبُوَّةِ والوِلايَةِ، لَمْ يُفِضْ لي أَكْثَرَ مِنْ بِضْعِ قَطَرات، *وَما أُوْتِيْتُم مِنَ العِلْمِ إِلّا قَلِيْلاً*، إِلّا أَنَّني وَجَدْتُ مِنَ العِلْمِ ذاكَ القَدْرَ مِنَ التَّخْصِيْص، بِحَيْثُ لا أَعْجِزُ عَنْ سُؤالِهِ وَجَوابِهِ، وَمِنْ مُطْلَقي الدَّعْوى قَلِيْلاً لا أَجْني خَرْزَةَ العَجْز، *إِنْ تَكُ ضَبّاً فَإِنِّي حِسْلُهُ*، المُرْسَلُ جاءَ راجِعاً وَجاءَ بالأَجْوِبَةِ، قَدَمُ الثَّوْرِ سَأَلَ أَنْ ها كَيْفَ وَجَدْتَ الدِّيْنِيَّ، وما رَأَيْتَ على ظاهِرِهِ وَباطِنِهِ، فَمِنْ ذاكَ يُمْكِنُ الاِسْتِدْلالُ على خَيْرِ وَشَرِّ أَحْوالِهِ، قالَ وَجَدْتُهُ بِشَفَةٍ يابِسَةٍ وَعَيْنٍ نَدِيَّةٍ وَوَجْهٍ أَصْفَرٍ وَجُثَّةٍ نَحِيْلَةٍ وَهَيْئَةٍ بِكُلِّ هَيْبَةٍ وَشِيْمَةٍ، بَكُلِّ لَطافَةٍ يَتَكَلَّمُ بِكَلِماتٍ قاسِيَةٍ في عِبارَةٍ لَطِيْفَةٍ، وَلِمَرارَةِ الحَقِّ بِوَقْتِ التَّجْرِيْعِ في ظَرْفِ التَّفْرِيْعِ يُعْطي بِعَسَلِ التَّلَطُّفِ المَذاق،

تَمازَجَ مِنْهُ الحِلْمُ والبَأْسُ مِثْلَما　　　يُمازِجُ صَوْبَ الغادِياتِ عُقارُ

قَدَمُ الثَّوْرِ مِنْ حِكايَةِ حالِهِ خافَ شَدِيْداً، فَكَّرَ أَنْ رُبَّما كانَتْ هذِهِ جَمِيْعاً أَماراتِ التَّقْوى وَعَلاماتِ فِعْلِ الشَّرِيْعَةِ وَتَرْبِيَةَ الدِّيْن، وَتَظْهَرُ

مِنْ عاداتِ المُتَجَرِّدِيْنَ والمُتَهَجِّدِيْن، فالرِّياضَةُ تَجْعَلُ تَوَحُّشَ الطَّبِيْعَةِ طَيِّعاً، فَهُوَ في قَوْلِ الكَلامِ لا يَسُوْطُ النَّفْسَ بالسَّوْط، وَفي الجِهادِ الأكْبَرِ مَعَ النَّفْسِ الكافِرَةِ يَضْرِبُ بالسَّيْف، فَمِنْ قِتالِنا لا يَرْمي الدِّرْعَ، أمَّا ما أَفْعَلُ وَقَدْ صارَ الشُّرُوْعُ مُلْزِماً، لا مَناصَ يَجِبُ الخَطْوُ لِلأمام،

حَتَّى يَجِيْءَ حاصِلاً مِنِّي أوْ مِنْهُ المُرادُ
مَنْ يَعْمَلُ الخَسارَةَ للنَّفْسِ وَلِمَنْ يَكُوْنُ الرِّبْحُ

مَناظَرَةُ قَدَمِ الثَّوْرِ مَعَ عالِمِ الدِّيْن

في اليَوْمِ الآخَرِ حَيْنَ سُلالَةُ الصُّبْحِ مِنْ مَشِيْمَةِ الظَّلامِ دَخَلَتْ، وَكُلالَةُ اللَّيْلِ عَنْ شَحْمَةِ أُذُنِ السَّحَرِ انْفَتَحَتْ، قَدَمُ الثَّوْرِ مَعَ خَيْلِ الشَّياطِيْنِ نَزَلُوا حَوْلَ ذاكَ المَوْضِعِ، وَجَماهِيْرُ الخَلْقِ مِنَ الشَّياطِيْنِ والجِنِّ والإِنْسِ صارُوا مُجْتَمِعِيْنَ في مَجْمَعٍ واحِدٍ، وَأَجْمَعُوا على ذاكَ بِمَواثِيْقِ العُهُوْد، أنْ إذا كانَ الدِّيْنِيُّ في هذِهِ المُناظَرَةِ يَجِيْءُ خارِجاً مِنْ عُهْدَةِ سُؤالاتِ قَدَمِ الشَّيْطان، وَيَقْدِرُ يَقُوْلُ لَهُ الجَوابَ، فَإِنَّ على الشَّياطِيْنِ أَنَ يَتْرُكُوا مَعْمُوْرَةَ العالَمِ، وَيَتَّخِذُوا المَساكِنَ والأَماكِنَ في غائِراتِ الأَرْضِ، وَيَصِيْرُوا مُتَوطِّنِيْنَ في المُنْخَضاتِ والمَغاراتِ، وَمُبْتَعِدِيْنَ عَنْ مُواصَلَةِ وَمُخالَطَةِ الآَدَمِيِّيْنَ، وَإِذا هُوَ جاءَ مَحْجُوْجاً وَمَرْجُوْحاً مِنَ الشَّيْطانِ، فَإِنَّهُمْ يُهْلِكُوْنَهُ، اسَتَقَرَّا على هذا القَرارِ، وَشَرَعا بالمُساءَلَةِ، قالَ الشَّيْطانُ، العالَمُ كَمْ قِسْمٌ، وَكَمْ مِنْ خالِقٍ

لِلْعالَمِ، قالَ الدِّيْنِيُّ، العالَمُ على ثَلاثَةِ أَقْسامٍ، قِسْمٌ هُوَ مُفْرَداتُ العَناصِرِ والمُرَكَّباتُ الَّتي تَجِيْءُ حاصِلَةً مِنْ أَجْزاءِ تِلْكَ، وَتِلْكَ لا تَكِفُّ عَنِ الحَرَكات، ولا تَسْتَقِرُّ على حالٍ واحِدَةٍ، والتَّغَيُّرُ والتَّبَدُّلُ حالاً فَحَالاً مِنْ لَوازِمِ تِلْكَ، والقِسْمُ الثَّاني هُوَ الأَجْرامُ العُلْوِيَّةُ السَّماوِيَّةُ الَّتي بَعْضٌ مِنْها دائِماً مُتَحَرِّكٌ بِوَجْهٍ، مِثْلَ الثَّوابِتِ وَسَيَّاراتِ الكَواكِبِ، الَّتي تَكُوْنُ مَوْسُوْمَةً بالصُّعُوْدِ والهُبُوْطِ والشَّرَفِ والوَبالِ والرُّجُوْعِ والاِسْتِقامَةِ والأَوْجِ والحَضِيْضِ والاِحْتِراقِ والاِنْصِرافِ والاِجْتِماعِ والاِسْتِقْبالِ، وإِلى غَيْرِ ذلِكَ مِنْ عَوارِضِ الحالاتِ، وَمَنْسُوْبَةً بِبُطْءِ وَسُرْعَةِ السَّيْرِ، وَتَأْثِيْرِ السَّعادَةِ والنُّحُوْسَةِ، وَهِيَ بِوَجْهٍ لا مُتَحَرِّكَةٌ، فَقَدَ جَعَلُوا كُلَّ واحِدٍ مَرْكُوزاً في دائِرَةِ فَلَكِ البُرُوْجِ أَوْ في دَوائِرِ الأَفْلاكِ الأُخْرى الَّتي هِيَ مُحاطُ ذاكَ، كما لَوْ قُلْتَ جَعَلُوا الجَواهِرَ الذَّهَبِيَّةَ مَنْقُوْشَةً في تِلْكَ الحَلَقَةِ الفَيْروزِيَّةِ، والفَلَكُ الأَعْظَمُ مُحِيْطٌ وَمُتَشَبِّثٌ بِجُمْلَةِ الأَفْلاكِ، حَتَّى يَدُوْرَ بالطَّبِيْعَةِ الَّتي هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْها مِنْ عَطاءِ فاطِرِ السَّماوات، وَيَجْعَلُ الجَمِيْعَ بالحَرَكَةِ القَسْرِيَّةِ في تجاوِيْفِ نَفْسِهِ يَدُوْرُ حَوْلَ هذِهِ الكُرَةِ الغَبْراء، والأُخْرى في مَرْكَزِ نَفْسِها ثابِتَةٌ وَساكِنَةٌ، القِسْمُ الثَّالِثُ عالَمُ العُقُوْلِ وَنُفُوْسِ الأَفلاكِ الَّتي جَوْهَرُها بَرِيْءٌ مِنَ البَساطَةِ والتَّرْكِيْب، وَعارٍ مِنْ نِسْبَةِ السُّكُوْنِ والحَرَكَةِ، وَمِنْ نَقْصِ الحَدَثانِ وَتَغَيُّرِ الزَّمانِ والمَكان، مَغْسُولُ لِباسِ الفِطْرَةِ مِنْ عَيْنِ القُدُسِ والطَّهارَةِ، وَقَدْ وَجَدَ سَبْقَ خِدْمَةِ عِلِّيِّيْنَ، *فالمُقَسِّماتِ أَمْراً*،

والخالِقُ واحِدٌ، فَهُوَ مُبْدِعُ الكائِناتِ، وَذاتُهُ مُقَدَّسَةٌ أنْ يَكُونَ لَهُ في إبْداعِ وَإيْجادِ المَوْجُوْداتِ شَرِيْكٌ بالأَمْر، *تَعالى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُوْنَ عُلُوَّاً كَبِيْراً*، الشَّيْطانُ قالَ، خَلْقُ الإنْسانِ مِمَّ يَكُوْنُ، وَاِسْمُ الإنْسانِ على ماذا، وَكَمْ للإنْسانِ مِنْ رُوْحٍ، وَإلى أَيْنَ مَرْجِعُهُم، الدِّيْنِيُّ قالَ خَلْقُ الإنْسانِ مِنْ أَرْبَعَةِ عَناصِرَ، وَثَمانِيَةِ أمْزِجَةٍ مُفْرَدَةٍ وَمُرَكَّبَةٍ، يَصِيْرُ حاصِلاً على سَبِيْلِ الاِعْتِدالِ، وَاِسْمُ الإنْسانِ يُطْلَقُ على تِلْكَ القُوَّةِ المُمَيِّزَةِ الَّتي تَعْرِفُ الحَسَنَ مِنَ السَّيِّئِ والصَّحِيْحَ مِنَ الفاسِدِ والحَقَّ مِنَ الباطِلِ وَالجَمِيْلَ مِنَ القَبِيْحِ والخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَتُخْرِجُ المَعانِي المُتَصَوَّرَةَ بالذِّهْنِ بِواسِطَةِ مَقاطِعِ الحُرُوْفِ وَفَواصِلِ الأَلْفاظِ، وَهُمْ يُطْلِقُونَ على ذاكَ الجَوْهَرِ اِسْمَ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ، وَرُوْحُ الإنْسانِ ثَلاثَةُ حَقائِقٍ، قائِمَةٌ بِثَلاثَةِ أَعْضاءٍ مِنَ الأَعْضاءِ الرَّئِيْسَةِ، واحِدَةٌ الرُّوْحُ الطَّبِيْعِيَّةُ الَّتي تَصِيْرُ مُنْبَعِثَةً مِنَ الكَبِدِ، وَبَقاؤها يَكُوْنُ بِمَدَدٍ، وَمَدَدُها يَكُونُ مِنَ القُوَّةِ الغاذِيَةِ، والثَّانِيَةُ الرُّوْحُ الحَيَوانِيَّةُ الَّتي مَنْشَؤُها القَلْبُ، وَمِنْ هُنا يَكُونُ مَبْدَأُ الحِسِّ والحَرَكَةِ، وَقُوَّتُها مُسْتَفادَةٌ مِنْ حَرَكَةِ الأَفْلاكِ والنَّيِّراتِ، الثَّالِثَةُ هِيَ الرُّوْحُ النَّفْسانِيَّةُ الَّتي مَحَلُّها الدِّماغُ، وَمِنْ هُناكَ يَنْهَضُ التَّفَكُّرُ والتَّدَبُّرُ، وَكَما تَطْلُبُ القُوَّةُ النَّامِيَةُ في الرُّوْحِ الطَّبِيْعِيَّةِ الغِذاءَ، القُوَّةُ المُمَيِّزَةُ في الرُّوْحِ النَّفْسانِيَّةِ تَطْلُبُ سَعادَةَ العالَمَيْنِ، وَتُظْهِرُ الاِجْتِنابَ عَنْ أَسْبابِ الشَّقاوَةِ، واسْتِمْدادُ قُواها يَكُوْنُ مِنَ الأَجْرامِ العُلْوِيَّةِ والهَياكِلِ القُدُسِيَّةِ، وَخِلْعَةُ كَمالِها هِيَ

هذِهِ، *وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْراً كَثِيْراً وَما يَذَّكَّرُ إِلّا أُوْلُوْ الأَلْبَاب*، أَمَّا الرُّجُوْعُ إلى عالَمِ الغَيْبِ الَّذي هُوْ مَقامُ الثَّوابِ والعِقاب، وَإِشارَةُ أَيْنَ لا تَصِلُ لِللَّامَكان، الشَّيْطانُ قالَ، على أَيِّ نَسَقٍ جُعِلَ وَضْعُ العَناصِرِ الأَرْبَعَةِ، الدِّيْنِيُّ قالَ، كُلُّ ما كانَ مِنْها أَثْقَلَ بالطَّبْعِ نَزَلَ لِأَسْفَلَ، وَكُلُّ ما كانَ أَخَفَّ علا، حَتَّى صارَتِ الأَرْضُ الَّتي هِيَ بارِدَةٌ يابِسَةٌ، وَأَثْقَلُ مِنَ الكُلِّ مَشْمُولَةً بالماءِ والماءُ شامِلٌ لَها، والماءُ الَّذي هُوَ بارِدٌ رَطْبٌ وَأَثْقَلُ مِنَ الهَواء، جاءَ مَشْمُوْلاً بالهَواءِ والهَواءُ شامِلٌ لَهُ، والهَواءُ الَّذي هُوَ حارٌّ رَطْبٌ وَأَثْقَلُ مِنَ النَّارِ جاءَ مَشْمُوْلَ النَّارِ والنَّارُ شامِلَةٌ لَهُ، والنَّارُ الَّتي هِيَ حارَّةٌ وَيابِسَةٌ جاءَ مَرْكَزُها وَمَقَرُّها أَعلى الثَّلاثَةِ، والسَّطْحُ الباطِنُ مِنَ فَلَكِ القَمَرِ مَماسٌّ لَها، وَرَغْمَ أَنَّهُ في أَصْلِ الخَلْقِ وَمَبْدَأِ التَّكْوِيْنِ، كُلُّ واحِدٍ بِبَساطَةِ نَفْسِهِ وَقَعَ مُنْفَرِداً عَنْ الآخَر لَكِنْ مِنْ أَجْلِ مَناظِمِ عَمَلِ العالَمِ، وَمَجاري أَحْوالِ العالَمِيْن، على وِفْقِ الحِكْمَةِ، أَجْزاءُ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الأَرْبَعَةِ أُعْطِيَتِ الإِخْتِلاطَ والإِمْتِزاجَ الواحِدُ مَعَ الآخَر، حَتَّى كُلُّ شَيْءٍ نَقُصَ مِنْ واحِدٍ زادَ في الآخَرِ، وَبِتَغَيُّرِ المِزاجِ قَبِلَ الإِنْتِقالَ مِنْ حَقِيْقَةٍ لِحَقِيْقَةٍ وَمِنْ ماهِيَّةٍ لِماهِيَّةٍ، كما يَكُوْنُ لِلْغَيْمِ البُخارِيِّ الَّذي يَنْهَضُ مِنَ الرُّطُوْبَةِ العارِضَةِ في أَجْزاءِ الأَرْضِ بِواسِطَةِ حَرارَةِ شُعاعِ الشَّمْسِ، وَبِذاكَ السَّبَبِ إِذْ هُوَ كانَ أَلْطَفَ مِنَ الماءِ، لا يَأْخُذُ القَرارَ في مَرْكَزِ الماءِ والتُّراب، وَيَجْعَلُ الوَجْهَ بِمَصاعِدِ الهَواء، وَيَذْهَبُ لِأَعْلى، وَبِقَدْرِ ما

يَكُونُ أَثْقَلَ مِنَ النَّارِ يَقِفُ في الوَسَطِ، وَحِيْنَ رُطُوْبَتُهُ تَصِلُ لِلْغايَةِ يَقْبَلُ التَّحْلِيْلَ وَيَصِيْرُ المَطَرَ، وَحِيْنَ حَرارَتُهُ تَصِيْرُ لِلْكَمالِ تَصِيْرُ النَّارُ بِإِذْنِ اللهِ وَلُطْفِ صُنْعِهِ، قالَ الشَّيْطانُ، ما هُوَ الأَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ جَمِيْعِ الأَشْياءِ وَما هُوَ الأَبْعَدُ عَنْكَ مِنْ جَمِيْعِ الأَشْياء، وما الشَّيْءُ الَّذي لا يُمْكِنُ اسْتِرْجاعُهُ والشَّيْءُ الَّذي لا يُمْكِنُ امْتِلاكُهُ مِنْ جَدِيْد، وما الشَّيْءُ الَّذي لا يُمْكِنُ تَعَلُّمُهُ والشَّيْءُ الَّذي لا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ، قالَ الدِّيْنِيُّ، ذاكَ الَّذي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ جَمِيْعِ الأَشْياءِ الأَجَلُ، فَهُوَ كقادِمٍ مُقْبِلٍ إِلَيَّ بالوَجْهِ، وَأنا كَمُسْتَقْبِلٍ أَجْري إِلَيْهِ على جَوادَيْنِ، على أَشْهَبِ الصُّبْحِ وَأَدْهَمِ المَساء، وَما هِيَ إِلَّا نَظْرَةٌ وَنَصِلُ الواحِدُ لِلآخَر،

هٰذاكَ مَرْكُوْبي وَتِلْكَ جَنِيْبَتي　بِهِما قَطَعْتُ مَسافَةَ العُمُرِ

وَذاكَ الَّذي هُوَ أَبْعَدُ عَنِّي مِنْ جَمِيْعِ الأَشْياءِ هُوَ الرِّزْقُ غَيْرُ المُقَدَّر، فَكَسْبُ ذاكَ غَيْرُ مَقْدُوْرٍ لِلْبَشَر، وَذاكَ الشَّيْءُ الَّذي لا يُمْكِنُ اسْتِرْجاعُهُ هُوَ أَيَّامُ الشَّبابِ وَرَيْعانُ الفُتُوَّةِ الَّتي هِيَ رَيْحانُ بُسْتانِ الأَماني، وَحِيْنَ تَصِيْرُ اليَدُ مَسْحُوَقاً مِنَ العُمُرِ تَصِيْرُ إِعادَةُ رَوْنَقِ تِلْكَ غَيْرَ مُمْكِنَةٍ، والشَّيْءُ الَّذي لا يُمْكِنُ مُلْكُهُ مُجَدَّداً هُوَ الدَّوْلَةُ المُنْتَهِيَةُ، فَهِيَ مِثْلَ سَفِيْنَةٍ مَكْسُوْرَةٍ يَدْخُلُ بِها الماءُ مِنَ الشُّقُوْق، وَتَمِيْل للرُّسُوبِ، حَتَّى تَجْلِسَ بالقَعْرِ، إِصْلاحُ المَلَّاحِ لا يُجْدِي أَيَّ نَفْعٍ، وَمِثْلَ وَرَقَةِ الشَّجَرَةِ الَّتي وَقْتَ السُّقُوْطِ، جَمِيْعُ الأَيْدي الماهِرَةِ في العالَمِ بِمِئَةِ أَلْفِ حِيْلَةٍ لا تَقْدِرُ تُبْقِيْها على الشَّجَرَةِ، والشَّيْءُ الَّذي لا

يُمْكِنُ تَعَلُّمُهُ الفِطْنَةُ، فَإِنَّها إِذا لَمْ تَكُنْ مَجْبُولَةً في جَوْهَرِ الفِطْرَةِ، وَمُعْطاةً مِنْ خَزانَةِ، *يُؤتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ*، أَيُّ تَعْلِيْمٍ في المَكْتَبِ لا يَصِلُ لِتَحْصِيْلِ تِلْكَ، وَذاكَ الشَّيْءُ الَّذي لا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ هُوَ كَمالُ كُنْهِ إِيْزَدَ وَحَقِيْقَةُ ذاتِهِ، فلا يُتَصَوَّرُ في إِحاطَةِ عِلْمِ أَيِّ شَخْصٍ، وَأَعْلَمُ الخَلْقِ وَأَنْبَهُ البَشَرِ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ في وَقْتِ إِظْهارِ العَجْزِ عَنْ إدراكِ كَمالِهِ وَصِفَةِ جَلالِهِ يَقُولُ، *لا أُحْصِيْ ثناءً عَلَيْكَ أَنْتَ كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ*، حِيْنَ وَصَلَتْ مُجادَلَتُهُما وَمُحاوَرَتُهُما إِلى هُنا، دَخَلَ اللَّيْلُ، وَحاضِرُو الجَمْعِ تَفَرَّقُوا مِثْلَ أَنْجُمْ بَناتِ النَّعْشِ، وعُقُوْدُ الثُّرَيَّا مِثْلَ دُرَرِ دَراري الجَوْزاءِ المُعَلَّقَةُ مِنْ عَلَّاقَةِ حَمائِلِ الفَلَكِ صارَتْ مُتَفَرِّقَةً، قَدَمُ الثَّوْرِ فَتَلَ عِنانَ المُعارَضَةِ، ثُمَّ صار مَعَ قَوْمٍ كانُوا مُجاوِري الخِدْمَةِ وَمُشاوِري الخَلْوَةِ، كُلَّ اللَّيْلِ في لُجَّةِ اللِّجاجِ مَعَ النَّفْسِ غائِصاً في النَّدامَةِ، وَيَجْرَعُ غُصَّةَ تِلْكَ الحالَةِ وَأَنْ يَصِيْرَ ظاهِراً أمامَ جَماهِيْرِ الخَلْقِ نُزُوْلُ مَنْزِلَتِهِ بِفُنُوْنِ العِلْمِ عَنْ مَنْزِلَةِ الدِّيْنِيِّ، وَيَصِيْرَ وَجْهُ دَعْواهُ أَسْوَداً، في اليَوْمِ الآخَرِ حِيْنَ الشَّمْسُ زَيَّنَتْ حُجُبَ حَرِيْرِ السَّماءِ بالدِّيْباجِ المَنْقُوْشِ بالذَّهَبِ، وَضَعَ الأَساسَ للشُّرُوْعِ بالكَلامِ مِنْ طَرْزٍ آخَرَ، وَجاءَ أمامَ عالِمِ الدِّيْنِ، وَصارَ الخَلائِقُ مُجْتَمِعِيْن، قالَ الشَّيْطانُ، مِنْ أَجْلِ ماذا خُلِقَ حُبُّ الدُّنيا، ولِماذا جاءَ غَالِباً على الرِّجالِ الحِرْصُ والطَّمَعُ، قالَ الدِّيْنِيُّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعمُرَ العالَمُ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الطَّمَعُ وَلَوْ لَمْ تُجْعَلْ عَيْنُ بَصِيْرَةِ الآَدَمِيِّ مَكْفُوْفَةً بِذاكَ الحِجابِ عَنْ رُؤْيَةِ عَواقِبِ الأُمُوْرِ، ما كانَ شَخْصٌ مِنَ

العالَمِيْنَ يَأْكُلُ غَمَّ الغَدِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِأَيِّ آدَمِيِّ الأَمَلُ بِتِلْكَ الفاكِهَةِ الَّتي وَجَدَ مَذاقَ حالِها لِيَسْتَمْتِعَ بِطَعْمِ تِلْكَ، ما غَرَسَ غَرْسَةً بالأَرْضِ أَبَداً، وَما كانَ مِنْ أَجْلِ القُوْتِ الَّذي يَعْرِفُهُ مَدَدَ بَقائِهِ في مُسْتَقْبَلِ الحالِ نَثَرَ بِذْرَةً، وَلَصارَ سِلْكُ نِظامِ العالَمِ مَقْطُوْعاً، بَلْ ما كانَ أَظْهَرَ واحِداً مِنْ هذِهِ النُّقُوْشِ في عالَمِ الإبْداع، وما وَقَعَ التِحامُ خَيْطِ وَنَسِيْجِ المُكَوِّنات، الشَّيْطانُ قالَ ما يَكُونُ جَوْهَرُ المَلائِكَةِ، وَما هُوَ جَوْهَرُ الآَدَمِيِّ، وَأَيُّ جَوْهَرٍ جَوْهَرُ الشَّياطِيْن، قالَ الدِّيْنِيُّ، جَوْهَرُ المَلائِكَةِ العَقْلُ الطَّاهِرُ، فَلَيْسَتْ لَهُمْ أَيَّةُ مَعْرِفَةٍ بالسُّوْء، وَجَوْهَرُ الشَّياطِيْنِ مِنَ الطَّمَعِ والغَضَبِ فَلا يَأْمُرُ إِلَّا بالسُّوْءِ والقُبْحِ، وَجَوْهَرُ الإنْسانِ مُرَكَّبٌ مِنْ هذَيْنِ الاِثْنَيْنِ، فَفِيْ كُلِّ وَقْتٍ يَتَحَرَّكُ فِيْهِ جَوْهَرُ العَقْلِ، تَصِيْرُ ذاتُهُ مُكْتَسِيَةً بِلِباسَ المَلَكِيَّةِ، وَنَفْسُهُ في الأَفْعالِ تَسْمَعُ التَّلْقِيْنَ الرَّحْمانِيَّ كُلَّهُ، وَفي كُلِّ مَرَّةٍ يَسْتَوْلي عَلَيْهِ جَوْهَرُ الطَّمَعِ والغَضَبِ يَجِيْءُ خارِجاً بِصِفَةِ الشَّياطِيْن، وَيَقْصِدُ بالإِلْقاءِ الشَّيْطانِيِّ في عالَمِ الأَمْرِ والنَّهْيِ، قالَ الشَّيْطانُ ما فائِدَةُ العَقْل، قالَ الدِّيْنِيُّ ذاكَ عِنْدَما تُضَيِّعُ طَرِيْقَ الحَقِّ فَإِنَّهُ يَسْحَبُ زِمامَ ناقِةِ طَلَبِكَ إلى جادَّةِ الصَّواب، وَحِيْنَ تَصِيْرُ مَغْمُوْماً يَكُوْنُ الأَنِيْسَ وَشَرِيْكَ الغَمّ والجَلِيْسَ الَّذي يَفِيْ بِحَقِّك، وَحِيْنَ في مُصادَماتِ الوَقائِعِ تَزِلُّ قَدَمُكَ، يَكُوْنُ آخِذاً بِيَدِكَ، وَحِيْنَ يُلْقي بِكَ الزَّمانُ بِيَوْمِ الفَقْر، يَهَبُكَ رَأْسَمالِ الغِنى مِنْ كِيْسِ كِيْمِياءِ السَّعادَةِ، وَحِيْنَ تَخافُ تَكُوْنُ في كَنَفِ حِفْظِهِ آَمِناً، وَهُوَ يَصُوْنُ الرُّوْحَ مِنَ الخَطَأِ والخَطَلِ، وَالقَلْبَ مِنَ النِّسْيانِ والزَّلَلِ،

كُلُّ شَخْصٍ مَلَكَتْ رُوْحُهُ العَقْلَ   نَظَرَ النَّظَرَ في أَصْلِ الأَعْمال
العَقْلُ دَلِيْلٌ والعَقْلُ فاتِحُ طَرِيْقٍ   والعَقْلُ مُنْجِدٌ في كِلْتا الدَّارَيْن
هُـوَ مُـعْـطٍ وَأَيْـضـاً آخِـذٌ   وَأَيْـضـاً قـابِلٌ وَأَيْـضاً مُوْصِلٌ

***

وسِيْطٌ بَيْنَ البدنِ والرُّوْحِ فَمِنْ   هذِهِ الجِهَةِ لِسانٌ وَمِنْ تِلْكَ أُذُنٌ
حِيْنَ الرَّجُلُ يلْتَجِئُ إلى جِهَتِهِ   يَجْعَلُ مِنَ السُّهى بالعِلْمِ القَمَر
المُلْكُ يَصِيْرُ مِنْ رَأْسِ مـالِهِ   والشَّمْسُ تَصِـيْرُ مِنْ ظِـلِّـهِ

قالَ الشَّيْطانُ، مَنِ العاقِلُ بَيْنَ البَشَر، قالَ الدِّيْنِيُّ ذاكَ الَّذي حِيْنَ يُجْرُوْنَ عَلَيْهِ الظُّلْمَ يَعْرِفُ مَقامَ الاِحْتِمال، وَيَعْرِفُ التَّواضُعَ مَعَ المَمْلُوْكِيْنَ مِنَ الكَرَم، وَيَعْرِفُ العَفْوَ بِوَقْتِ القُدْرَةِ واجِباً، وَيَأْخُذُ أَمْرَ العالَمِ الفاني سَهْلاً، ولا يَكُوْنُ خالِياً مِنَ التَّفْكِيْرِ بالعالَمِ الباقي، وَإِذا رأى إِحْساناً مَلَكَ الشُّكْرَ لِذاكَ بالمِقْدار، وإِذا وَجَدَ إِساءَةً قَرَّرَ يَجْعَلُ شُغْلاً لَهُ المُصابَرَةَ على تِلْكَ، وإِذا أَثْنَوا علَيْهِ بِمَحامِدِ الأَوْصافِ طَلَبَ الزِّيادَة، وَإِذا ذَمُّوْهُ صارَ مُحْتَرِزاً مِنْ مَذامِّ السِّيْرَة، وَجَدَ صَمْتَهُ خَتْمَ السَّلامَةِ، كَأَنَّكَ تَراهُ فَتْحَ بابِ المَنْفَعَةِ، حَتَّى يَكُوْنَ بَيْنَ النَّاسِ مِثْلَ الشَّمْعَةِ، يُعْطِي العُيُونَ الضِّياءَ بِنُوْرِ وُجُوْدِهِ، حِيْنَ بِجِوارِهِ يَجلِسُونَ، بِسِراجِهِ يَطْلِبُون، مِنْ أَجْلِ صلاحِ النَّفْسِ لا يَطْلِبُ فَسادَ آخَر، ولا يَخْتارُ الثَّرْوَةَ على القَناعَة، وفي تَحْصِيْلِ ما لَمْ يَحْصَلْ لا يَسْعى

بِشِدَّة، وَفي إِدْراكِ وَتلافي الفائِتِ لا يَجْعَلُ الأَلَمَ على القَلْب، وفي عَدَمِ إِدْراكِ المُرادِ لا يَصِيْرُ مَحْزُوناً، وَفِي نَيْلِ ذاكَ لا يَزِيْدُ سُرُوْراً، *لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ*، الشَّيْطانُ قالَ ما الشَّيْءُ الَّذي هُوَ مُوْجُوْدٌ وَغَيْرُ مَوْجُوْد، وما هُوَ الشَّيْءُ المَوْجُوْدُ وَسَلْبُ الوُجُوْدِ مِنْهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ، الدِّيْنِيُّ قالَ، ذاكَ الَّذي هُوَ مَوْجُوْدٌ وَغَيْرُ مَوْجُوْدٍ كُلُّ ما هُوَ تَحْتَ فَلَكِ القَمَرِ مِنْ مُفْرَداتِ الطَّبائِعِ وَمُرَكَّباتِ الأَجْسامِ، إِذْ حَقائِقُ تِلْكَ ثابِتَةٌ، وَأَجْزاءُ تِلْكَ في التَّلاشي والتَّحَلُّلِ، وَكُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ تِلْكَ تَذْهَبُ راجِعَةً لِعالَمِ العَدَمِ، وَتَجِيْءُ أُخْرى لِلْوُجُوْدِ قائِمَةً بِمَقامِ تِلْكَ، على سَبِيْلِ انْتِقالِ الصُّورَةِ، وَذاكَ الَّذي هُوَ مَوْجُوْدٌ وَسَلْبُ الوُجُوْدِ مِنْهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ، فَهُوَ عالَمُ الأُلُوْهِيَّةِ والذَّاتُ الطَّاهِرَةُ لِواجِبِ الوُجُوْدِ، فلا طَرِيْقَ لِلْفناءِ والزَّوالِ لِذاكَ الوُجُودِ، الشَّيْطانُ قالَ ما هُوَ الجُزْءُ الَّذي يَصِيْرُ مُحِيْطاً على كُلِّ نَفْسِهِ، وَما هُوَ الجُزءُ الَّذي كانَ ابْتِداءُ الكُلِّ مِنْهُ، وَهُوَ أَشْرَفُ مِنَ الكُلِّ، وَما هُوَ الشَّيْءُ الَّذي هُوَ مِنْ وَجْهٍ هَزْلٌ وَمِنْ وَجْهٍ جِدٌّ، الدِّيْنِيُّ قالَ، الجُزْءُ الَّذي هُوَ مُحِيْطٌ على كُلِّ نَفْسِهِ، ذاكَ هُوَ العَقْلُ، فَقَدْ جُعِلَ مَنْزِلُهُ في حُجُبِ الدِّماغ، وَحِيْنَ مِنَ القُوى النَّفْسانِيَّةِ يَصِيْرُ مُرَبَّىً طَوْراً فَطَوْراً، وَيَصِلُ لِبُلُوْغِ الحالِ، يَصِيْرُ مُشْرِفاً على العَقْلِ الكُلِّيِّ مِنْ وَجْهِ الإِدْراك، وَيَعْرِفُ ماهِيَّةَ ذاك، وَذاكَ الجُزْءُ الَّذي هُوَ ابْتِداءُ الكُلِّ وَأَشْرَفُ مِنَ الكُلِّ هُوَ القَلْبُ، فَهُوَ نُقْطَةُ مَرْكَزِ بِركارِ الخَلْق، وَمَنْشَأُ

الرُّوْحِ الحَيَوانِيِّ، وَهُوَ الأَصْلُ الواهِبُ لِجُمْلَةِ القُوى، كما هُوَ بالاِتِّفاقِ أَشْرَفُ كُلِّ الأَعْضاءِ والأَجْزاءِ، وَذاكَ الَّذي هُوَ مِنْ وَجْهٍ جِدٌّ وَمِنْ وَجْهٍ هَزْلٌ، فَذاكَ هُوَ القِصَصُ والأَسْمارُ المَوْضُوْعَةُ مِنْ وَضْعِ العُقَلاءِ الباحِثِيْنَ في العِلْمِ، جَمَعُوْها وَأَثْبَتُوها في الأَسْفارِ والكُتُب، فَمِنْ ذاكَ الوَجْهِ وَهُمْ يَحْكُونَ الحِكايَةَ عَنْ أَلْسُنِ الحَيَواناتِ العُجْمِ، تَمْلِكُ صُوْرَةَ الهَزْلِ، وَمِنْ ذاكَ الوَجْهِ وَأَنَّها جَمِيْعاً إِشارَةٌ، وَأَنَّ الحِكَمَ الخَفِيَّةَ مُنْدَرِجَةٌ في مَضامِيْنِها، فَهِيَ جِدٌّ مَحْضٌ، حَتَّى تَجْذِبَ القارِئَ بِمَيْلِ الطَّبْعِ بِمُطالَعَةِ ظاهِرِ ذاكَ، ثُمَّ يَجِدُ الوُقُوْفَ على أَسْرارِ الباطِنِ بِطَرِيْقِ التَّوَصُّلِ، الشَّيْطانُ حِيْنَ رَأى غَلَبَةَ الدِّيْنِيِّ في بَيانِ الحَدِيْث، وَرَأى الحاضِرِيْنَ مِنْ حُضُورِ جَوابِهِ بَقُوا مُتَحَيِّرِيْنَ وبالعَجَب، وَمِنْ تَقَدُّمِ الدِّيْنِيِّ في حَلْبَةِ المُسابَقَةِ قَرَؤوا عَلَيْهِ، *جَرْيَ المُذَكِّي حَسَرَتْ عَنْهُ الحُمُر*، الشَّياطِيْنُ مِنْ تِلْكَ المُباحَثَةِ، *كالباحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ*، صارُوا نادِمِيْن، وَمِنْ ذاكَ المَكانِ جُمْلَةً شَرَعُوا بالهَزِيْمَةِ، وَجاءَتِ الخَسارَةُ والخَيْبَةُ نَصِيْباً لَهُمْ، وَذَهَبُوا تَحْتَ الأَرْضِ واتَّخَذُوا المَسْكَنَ في الوَهَداتِ والغائِراتِ، وانْتَهى شَرُّ مُخالَطَتِهِمْ للآدَمِيِّيْنَ بالكِفايَة، حَتَّى يَعْلَمَ أَهْلُ البَصائِرِ أَنَّ إِعانَةَ الحَقِّ وَإِهانَةَ الباطِلِ سُنَّةُ اللهِ، تَعالى وَتَقَدَّسَ، وَتَزْوِيْرُ الزُّوْرِ لا يَجِيْءُ مَعَ تَقْرِيْرِ الصِّدْقِ، وَعَلَمُ العِلْمِ لا يَصِيْرُ مَنْكُوْساً مِنَ الجَهْلِ، والحَقُّ دائِماً مَنْصُوْرٌ والباطِلُ مَقْهُوْر،

كانَ قَدِيْراً كُلُّ مَنْ كانَ ذا عِلْمْ   قَلْبُ الشَّيْخِ كانَ يافِعاً مِنَ العِلْمْ

صارَتْ لِلتَّمامِ قِصَّةُ الشَّيْطانِ قَدَمِ الثَّوْرِ وَعالِمِ الدِّيْن، بَعْدَ هذا نَذْكُرُ بابَ دادَمَه وَداستان، نُظْهِرُ فِيْهِ ذاكَ الَّذي هُوَ مِنْ شرائِطِ آدابِ خِدْمَةِ المُلُوْك، وَكَيْفَ يَجِبُ على عُمُوْمِ وَخُصُوْصِ الخَدَمِ والحَشَمِ، في مدارِجِ وَمَسالِكِ ذاكَ أَنْ يَضَعُوا القَدَم، جَعَلَ الحَقُّ تَعالى رَأْيَ مُزَيِّنِ المَمالِكِ، سَيِّدِ العالَمِ، دَسْتُوْرِ وَمُقْتَدى العالَمِيْنَ، مُضِيْئاً دائِماً، وَأَقْدامَ السَّالِكِيْنَ لِهذا الطَّرِيْقِ مَصُوْنَةً وَمَعْصُوْمَةً مِنْ غَوائِلِ الجَهْلِ، بِنُوْرِ الرَّوِيَّةِ وَهِدايَةِ الأَلْمَعِيَّةِ، بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِيْن.

البابُ الخامِسُ

في دادَمَه وَداستان

وَلَدُ المَلِكِ قالَ، سَمِعْتُ أَنَّ أَسَداً كانَ قَلِيْلَ الأَذى وَصاحِبَ تَقْوى، كانَ مُتَمَيِّزاً عَنْ جُمْلَةِ السِّباعِ والضَّواري، وَمُتَحَرِّزاً عَنِ التَّعَرُّضِ لِضِعافِ الحَيَوانات، كانَ المَلِكَ على كُلِّ مَلِكٍ وذي أمْرٍ مُتَوَطِّنٍ في الأَجَمَةِ، أَجَمَةٍ قُلْتَ أَشْجارُها المُتَداخِلَةُ جُعِلَتْ مِنَ الأَغْصانِ المُتَشابِكَةِ لِدَوْحَةِ طُوبى، وَطَعْمُ فَواكِهِها مِنْ نَهْرِ العَسَلِ في الفِرْدَوْسِ الأَعلى، الأَطْيارُ على أَغْصانِها المُتَشابِكَةِ كالنَّسْرِ والدَّجاجِ على شُرْفَةِ هذا القَصْرِ الزُّمُرَّدِيِّ، جالِسَةٌ فارِغَةً مِنْ قَوْسِ جُمُوْعِ الآفات، الغِزْلانُ في مَراتِعِ مُرُوْجِها الخَضْراءِ مِثْلَ الجَدْيِ والحَمَلِ تَرعى فَوْقَ هذا المَرْجِ النَّيْلُوفَرِيِّ، آمِنَةً مِنْ سَهْمِ الحَوادِثِ القاسي، لا شَخْصَ وَصَلَ لِمَقاطِفِ أَشْجارِها مِنَ القَواصي والدَّواني، الزَّمانُ عَنْ مَجاني ثِمارِها قَطَعَ يَدَ تَعَرُّضِ الجاني، النَّخْلُ والأَعْنابُ مِثْلَ كَواعِبِ الأَتْرابِ، باقِيَةٌ على خَتْمِ بَكارَتِها، رُمَّانُ صَدْرِها وَتُفَّاحُ ذَقْنِها ما لاحَظَهُ إِلَّا الشَّمْسُ وَضَوْءُ القَمَرِ مِنْ رَوْزَنَةِ الأَفْنانِ المُشَبَّكَةِ، ما رَفَعَ جَوانِبَ حُجُبِ أوراقِها عَنْ فُسْتَقِ شِفاهِها وَلَوْزِ عُيُوْنِها إِلَّا الشِّمالُ والصَّبا، أَسْنانُ الطَّامِعِيْنَ ما وَصَلَتْ لِشَفَةِ أُتْرُجِها وَغَبْغَبِ نارَنْجِها، يَدُ

المُتَناوِلِيْنَ لَمْ تَخْطِفْ قُبْلَةً مِنْ وَجْهِها المائِيِّ وَتُفَّاحِ عارِضِها، عُتَّابُها ما رأى العَناءَ، وَما سَمِعَ العِتاب،

فاخْضَلَّ مِنْ سُقْياهُ كُلُّ مُضَرَّجٍ   واخْضَرَّ مِنْ رَيَّاهُ كُلُّ مُصَنَّفِ
وَتَلَثَّمَتْ شَمْسُ النَّهارِ بِبُرْقُعٍ   مِنْ طُرَّتَيْهِ والسَّماءُ بِمِطْرَفِ

كانَ لِلأَسَدِ ثَعْلَبانِ نَدِيْمانِ وَأَنِيْسانِ، ذَكِيَّا الطَّبْعِ جَمِيْلا المَحْضَرِ مَرضِيَّا المَنْظَرِ، واحِدٌ باسْمِ دادَمَه، والآخَرُ باسْمِ داستان، كُلٌّ مِنْهُما وَجَدَ مَرْتَبَةَ التَّقَدُّمِ بِمَزِيْدِ القُرْبَةِ عَنْ خَواصِّ الخَدَمِ الآَخَرِيْن، وَصارَ مُشِيْرَ ومُحْرِمَ أَسْرارِ المَمْلَكَةِ، وَكانَ دُبٌّ الوَزِيْرَ لِمَمْلَكَتِهِ، كانَ الدُّبُّ دائِمَ التَّفْكِيْرِ بِذاكَ، أَنْ هذانِ الصَّاحِبانِ المُخْتَصَرانِ بالشَّكْلِ، اللَّذانِ مُعَظَّماتُ الأُمُوْرِ تَرْجِعُ إِلَيْهِما، سَيَصِيْرانِ يَوْماً مَتَصَدِّيَيْنِ بالتَّعَرُّضِ لِمَنْصِبي، وَسَيَجْعَلانِ أَمْرَ الوَزارَةِ مُضْطَرِباً لِي،

فَلا تَحْقِرَنَّ عَدُوّاً رَماكَ   وإِنْ كانَ في ساعِدَيْهِ قِصَرْ
فَإِنَّ السُّيُوْفَ تَحُزُّ الرِّقابَ   وَتَعْجِزُ عَمَّا تَنالُ الإِبَرْ

لا جَرَمَ حَمَلَ الحَسَدَ على ارْتِفاعِ دَرَجَةِ جاهِهِما وَمَنْزِلَتِهِما، وَمُتَواصِلاً كانَ يَقُوْلُ للنَّفْسِ، تَجِبُ لي الحِيْلَةُ في هذا الأَمْر، فَكَّرَ وَجَعَلَ العَيْنَ على عِلَّةٍ، أنْ سَأُلْقِيْهِما مِنْ عَيْنِ عِنايَةِ المَلِكِ، وَأَرْمي ذاتَ البَيْنِ بالوَسَطِ، بِحِيْثُ لا يَصِيْرُ ذاكَ الإِنْثِلامُ مُمْكِنَ الإِصْلاحِ

والإلْتِئام، يَوْماً المَلِكُ على القاعِدَةِ المَعْهُوْدَةِ، وَقَدْ أُعِدَّ لَهُ مُتَّكَأُ الإسْتِراحَةِ وَنامَ جَمِيْلاً وَكِلا الإثْنَيْنِ قَدْ جَلَسا إلى وِسادَتِهِ يَرْوِيانِ القِصَصَ، وَيَقْرَأانِ عَلَيْهِ سِحْرَ سُكَّرِ نَوْمِ الفَراغَةِ، في هذِهِ الأَثْناءِ خَرَجَتْ مِنَ المَلِكِ رِيْحٌ مِنَ المَخْرَجِ المُعْتادِ، جاءَتْ لِـ دادَمَه فَجْأَةً ضُحْكَةٌ، سَمْعُ المَلِكِ وَجَدَ حِسَّ ذاكَ وَصارَ صاحِياً، لكِنَّهُ ظَلَّ في مَكانِهِ وَحافَظَ على التَّناؤُمِ والتَّصامُمِ، وَأَظْهَرَ النَّفْسَ نائِماً، أنْ ماذا سَيَسْمَعُ مِنْهُما، قالَ داسْتان، لِماذا تَضْحَكُ على المَلِكِ، ما رَأَيْتَ واقِعَةً بَدِيْعَةً ولا صُوْرَةً شَنِيْعَةً جاءَتْ صادِرَةً عَنْهُ، فَعلى ماذا هذا الضَّحِكُ البارِدُ والإسْتِهْزاءُ غَيْرُ الوارِدِ،

أَيْ أَخُ ما جاءَ المِزاجُ خالِياً مِنَ الفُضْلَةِ
كُنْتَ آدَمِيَّاً أَمْ مَلَكاً أَمْ شَيْطاناً أَمْ جِنِّيَّاً

لَمْ تَكُنْ لَكَ القُوى الماسِكَةُ والدَّافِعَةُ بالبَدَنِ
للطِّفْلِ مِنَ الخُطْوَةِ الأولى لا تَكُوْنُ الرِّفْعَةُ

فِعْلُ الطَّبْعِ مِنْ طَرِيْقِ التَّسْخِيْرِ بِلا أَيِّ اخْتِيارٍ
في الجَمادِ وَفِي النَّباتِ وَكذلِكَ جَرى عَلَيْنا

وَغَيْرُ مَخْفِيٍّ أَنَّ قَلَمَ التَّكْلِيْفِ رُفِعَ عَنِ السَّكْرانِ والمَجْنُوْنِ والنَّائِمِ والطِّفْلِ، وَخُطَّ رَقَمُ العُذْرِ، ولا تُوْجَدُ رُخْصَةُ الشَّرْعِ والرَّسْمِ بِالمُؤاخَذَةِ بِأَيِّ مُنْكَرٍ شُوْهِدَ مِنْهُم، وَمِنْ جَمِيْعِ الأَعْذارِ عُذْرُ النَّائِمِ هُوَ المَقْبُولُ

أَكْثَرَ، والنَّائِمُ مَعْذُوْرٌ أَكْثَر مِنَ الجَمِيْعِ عِنْدَ العَقْلِ، حَيْثُ أَنَّهُ في الحالاتِ الأُخْرى، كالسُّكْرِ والجُنُوْنِ مَثَلاً، لا تَخْلُو أَيَّةُ حَرَكَةٍ وَسُكُوْنٍ مِنَ الفِعْلِ والاِخْتِيارِ، وَجُعِلَ عِنانُ التَّصَرُّفِ للنَّائِمِ في يَدِ الطَّبِيْعَةِ دُفْعَةً واحِدَةً، وَوُضِعَ قَيْدُ التَّعْطِيْلِ على قَدَمِ الحواسّ، وَجُعِلَتْ قُوى الإرادَةَ مَعزُوْلَةً عَنْ شُغْلِها، وَمِنْ هُنا قالَ الحُكَماءُ، النَّوْمُ مَوْتٌ جُزْئِيٌّ والمَوْتُ نَوْمٌ كُلِّيٌّ، *والنَّوْمُ أَخُو المَوْت*، وَقَدْ قَرَأْتُ في كُتُبِ الأَخْلاق، أَنَّ العاقِلَ، بالعَيْبِ الَّذي يَكُونُ لازِمَ ذاتِهِ، لا يُعَيِّرُ آخَراً، خاصَّةً المَلِكَ الَّذي، مِنْ مُقْتَضى العَقْلِ، عَيْبُهُ يُعْتَبَرُ فَضْلاً، وَباطِلُهُ يُظَنُّ حَقّاً، وَإِنَّهُ لَأَوْجَبُ لِخَواصِّ الحَضْرَةِ وَمُقَرَّبي الخِدْمَةِ أنْ يَكُونُوا مُراقِبِيْنَ لِهذِهِ الحالِ، فَهُمْ على صِلَةٍ بِمَزِلَّةِ الأَقْدامِ، وَواقِفُونَ *على شَفا جُرُفٍ هارٍ*، وَمَنْ جالَسَ المُلُوْكَ بِغَيْرِ أَدَبٍ فَقَدْ خاطَرَ بِنَفْسِهِ، والخِطابُ مِنْ جَنابِ الكِبْرِياءِ في تَقْوِيْمِ أَعْلَمِ الخَلائِقِ في العالَمَيْنِ، جاءَ هكذا، *فاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ*، فَلِسانُ النُّبُوَّةِ مِنْ هَيْبَةِ نُزُوْلِ هذِهِ الآيَةِ يَقُوْلُ، *شَيَّبَتْني سُوْرَةُ هُوْد*، قالَ دادَمَه، اَلْعِرْضُ الَّذي هُوَ مِنَ العَيْبِ طاهِرٌ، واللِّسانُ الَّذي لا يَجْرِيْ عَلَيْهِ الكَذِبُ، والنَّفْسُ الَّتي لا تَكُوْنُ مَنْسُوْبَةً بِمَعَرَّةِ الجَهْل، لا تَمْلِكُ الخَوْفَ مِنْ ضَحِكِ شَخْصٍ، داستان قالَ، ثلاثُ عاداتٍ هِيَ مِنْ عاداتِ الجَاهِلِيْن، واحِدَةٌ ظَنُّ النَّفْسِ بِلا عَيْب، والثَّانِيَةُ وَضْعُ الآخَرِيْنَ في مَرْتَبَةِ العِلْمِ أَخْفَضَ مِنَ النَّفْس، والثَّالِثَةُ

الكَوْنُ مَسْرُوْراً بِعِلْمِ النَّفْس، وَمَعْرِفَةُ النَّفْسِ على قَدَمِ الإنْتِهاء، واعْتِبارُها في غايَةِ الكَمال،

حِيْنَ تَقُولُ تَعَلَّمْتُ كُلَّ عِلْمٍ دَفَعْتُ قَرْضَ الجَهْلِ مِنَ النَّفْسِ
يَلْعَبُ لَكَ الزَّمانُ لُعْبَةً جَمِيْلَةً حَتَّى يُجْلِسَكَ مِنْ أمامِ المُعَلِّم

وَفي لَطائِفِ العِظَةِ مِنْ أَصْحابِ الحِكْمَةِ يَجِيْءُ، أنْ كَيْفَ تَطْلُبُ عَيْبَ الآَخَرِيْنَ وَتَرى فَضْلَ نَفْسِكَ، عَنْ طَلَبِ عَيْبِ نَفْسِكَ وَفَضْلِ الآَخَرِيْنَ لا تَكُنْ غافِلاً، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَصِرْ واقِفاً على عَيْبِ نَفْسِهِ وَفَضْلِ الآَخَرِيْنَ لَمْ يَصِرْ طاهِراً مِنَ العَيْبِ أَبَداً، ولا يَصِلُ إلى غُبارِ الفُضَلاء، *إذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ*، وَبُقْراطُ يَقُوْلُ، *كُنْ في الحِرْصِ على تَفَقُّدِ عُيُوْبِكَ كَعَدُوِّكَ*، قالَ دادَمَه، ذاكَ الشَّخْصُ الَّذي يَصِيْرُ مَشْغُولاً بِتَفْتِيْشِ رَذائِلِ العُيُوْبِ في النَّفْسِ الطَّاهِرَةِ يَكُوْنُ كَمَنْ يُحَرِّكُ وَيُثِيْرُ عَيْنَ الماءِ الزُّلال، لِيَعْرِفَ بِشَكْلٍ أفْضَلَ صَفاءَ تِلْكَ مِنْ كُدُوْرَتِها، لا شَكَّ تَصِيْرُ مِنَ المُبالَغَةِ في تَحْرِيْكِ ذاكَ الصَّفاءِ تَمِيْلُ لِلْكَدَرِ، وَتَجِيْءُ خارِجَةً كَثافَةٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ مِنْ لَطافَةِ الأَجْزاء، قالَ داسْتان، ما مِنْ عاشِقٍ يَرى عَيْبَ المَعْشُوْق، وَلَمْ يَكُنْ للرِّجالِ العَيْبُ في لَعِبِ العِشْقِ ذاكَ مَعَ أَيِّ مَعْشُوْقٍ حَسَنِ الوَجْهِ مِثْلَ مُشاهَدَةِ النَّفْس، وَمِنْ هذا السَّبَبِ يرى دائِماً مَحاسِنَ آثارِ النَّفْسِ وَمَساوِئَ الآَخَرِيْنَ، كما قِيْلَ،

أَيْ مَنْ تَرى رَأْسَكَ لِلفَلَكِ في النَّفْسِ جَعَلْتَ العُمْرَ وَقْفاً على رُؤْيَةِ النَّفْس
النَّاظِرُ للنَّفْسِ بالمَثَلِ لَوْ نَظَرَ لِحَجَرٍ عدَّهُ مِرْآةً للجَمال مِنْ رؤْيَةِ النَّفْس

وَكُلُّ مَنْ رَأى دَوْرَ الزَّمانِ مُساعِداً لَهُ، ظَنَّ أَنَّهُ يَمْلِكُ ذاكَ المِزاجَ مَعَ الجَمِيْعِ، كَمِثْلِ مُنَعَّمٍ في مَنْزِلِ راحَتِهِ الصَّيْفِيِّ بالصَّيْفِ، عِنْدَهُ الغِلْمانُ كُلُّ غلامٍ شَحْمَةُ أُذُنِهِ مِنَ الفِضَّةِ، وَقُرْطُهُ مِنَ الذَّهَب، بالمَرْوَحَةِ يَجْعَلُوْنَ زُلْفَ رَأْسِهِ مُشَوَّشاً، يُحافِظُوْنَ عَلَيْهِ سَعِيْداً، فَهُوَ يَحْمِلُ الظَّنَّ على أَنَّ المُحْتَرِقِيْنَ مِنْ شَرَرِ الشَّمْسِ، والَّذِيْنَ المِحْنَةُ بِكُلِّ مِكانٍ تُظِلُّهُم، وَتَظَلُّ تَذْهَبُ في إِثْرِهِم، هُمْ في نَفْسِ ذاكَ النَّصِيْبِ مِنَ اللَّذَّةِ والرَّاحَةِ، أَوْ مِثْلَ صاحِبِ ثَرْوَةٍ في مَوْسِمِ الشِّتاءِ، الهَواءُ الحارُّ في بَيْتِهِ مِنْ تَأْثِيْرِ شُعْلَةِ النَّارِ كالأَثِيْر، بِفَصْلِ كانُوْنَ يُعْطي المِزاجَ مَعَ الحُوْر، وَمَعَ الجَمِيْلاتِ بِقالَبِ الحُوْرِ وَبِمَنْظَرِ القَمَرِ يَشْرَبُ الشَّرابَ الأُرْغُوانِيَّ على سَماعِ الأَرْغَنُون، يَعْمَلُ قِياسَ نَفْسِهِ لِحالِ أولئِكَ المَقْتُوْلِيْنَ مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ، والمُتَجَمِّدِيْنَ مِنْ نَفَسِ الزَّمانِ البارِدِ، الَّذِيْنَ في نِهايَةِ العَقَباتِ يَصِيْرُونَ راضِيْنَ، أَنْ يَضَعُوا ساعِدَهُمْ بِمَحَلِّ ساقِ الحَطَبِ على نارِ أَتُوْنِ الأَغْنِياءِ، وَهَذا كُلُّهُ مِنْ بابِ الجَهْلِ وعَدَمِ العِلْمِ والفَجاجَةِ والفِسْقِ، وَيُعْطي وَخامَةً كُلَّ لَحْظَةٍ بالعاقِبَة، وَكُلَّما فَتَحَ المَلِكُ بابَ الإِنْبِساطِ أَكْثَر، عَنْ بِساطِ حِشْمَتِهِ يَجِبُ الجُلُوْسُ بَعِيْداً أَكْثَر، *إِنِ اتَّخَذَكَ المَلِكُ أَخاً فاتَّخِذْهُ رَبّاً وَإِنْ زادَكَ إِيْناساً فَزِدْهُ إِجْلالاً*، قالَ دادَمَه، تِلْكَ الضُّحْكَةُ حَقّاً جاءَتْ خَطأً مِنِّي، لَكِنِ الكَلامُ الَّذي

ذَهَبَ خارِجاً مِنَ الفَمّ، والسَّهْمُ الَّذي وَجَدَ العُبُوْرَ مِنْ قَبْضَةِ القَوْسِ، والطَّائِرُ الَّذي طارَ مِنَ الشِّباكِ، لا يُمْكِنُ إِعادَةُ صُوْرَةِ ذاك،

القَوْلُ كاللَّبَنِ المَحْلُوْبِ لَيْسَ لَهُ　　رَدٌّ وَكَيْفَ يَرُدُّ الحالِبُ اللَّبَنا

وَهذا المَعْنى مُقَرَّرٌ، فإِنَّهُ إلى أَنْ يَصِيْرَ الذَّنْبُ ظاهِراً لا يَكُوْنُ خَوْفُ العُقُوْبَةِ، ثُمَّ أنا حالِيَّاً مِنْ أَذِيَّةِ وَبالِ هذِهِ الخَطِيْئَةِ آمِنٌ، بِما أَنَّ الَّذي جَرى جَرى بَيْني وَبَيْنَكَ، والمُجَرِّبُونَ أَصْحابُ الحِنْكَةِ الَّذِيْنَ أَبْلَقُ أَيَّامِهِمُ المُبارَكُ كانَ عَضَّ على لِجامِ الرِّياضَةِ قالُوا، سِرُّ الرَّجُلِ لا يُخْتَزَنُ في قَلْبِ شَخْصٍ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ في قَلْبِ الصَّدِيْق، *خِزانَةُ سِرٍّ أَعْجَزَتْ كُلَّ فاتِحٍ*، إِذا كُنْتَ تَحْفَظُ هذا السِّرَّ مَسْتُوْراً في حِجابِ الخاطِرِ، فَلَيْسَ مُسْتَبْدَعاً مِنْ حُسْنِ عَهْدِكَ وَصِدْقِكَ وَعَدْلِكَ، داسْتان قالَ، أَلَمْ تَسْمَعْ ما يَقُوْلُوْنَ، عادَتانِ مِنْ لَوازِمِ الجاهِلِيْن، واحِدَةٌ أَنْ يُعْطِيَ فِضَّتَهُ قَرْضاً لِشَخْصٍ لا يَسْتَطِيْعُ بالضَّراعَةِ والشَّفاعَةِ أَنْ يَسْتَرْجِعَها مِنْهُ، والثَّانِيَةُ أنْ يَفْتَحَ سِرَّهُ لِشَخْصٍ وَيَكُوْنُ باسْتِحْفاظِ ذاكَ مُحْتاجاً لِإِعطاءِ القَسَمِ بالأَيْمانِ الغِلاظِ والشِّدادِ، وَقالُوا السِّرُّ شَيْءٌ في المُحافَظَةِ عَلَيْهِ بَلاءٌ، وَفِيْ إِفْشائِهِ هَلاكٌ، كما وَقَعَ للسَّارِقِ مَعَ البَرْغُوْثِ، قالَ دادمَه، وَكَيْفَ كانَ ذاكَ،

قِصَّةُ السَّارِقِ مَعَ البَرْغُوث

قالَ داسْتان سَمِعْتُ أَنَّ سارِقاً في وَقْتٍ عَزَمَ أَنْ يُلْقِيَ حَبْلاَ على شُرْفَةٍ قَصْرِ لِخَسْرو، وَأَنْ يَتَسَلَّلَ بالمَهارَةِ إلى خَزانَتِهِ، مُدَّةً غَوْغاءُ هذِهِ السَّوْداءِ اسْتَوْلَتْ على بابِ وَسَقْفِ دِماغِ السَّارِقِ، وَوِعاءُ ضَمِيْرِهِ صارَ مُمْتَلِئاً مِنْ هذِهِ الفِكْرَةِ، طاقَتُهُ في إِخْفاءِ ذاكَ وَصَلَتْ للنِّهايَة، *وَالمَصْدُوْرُ إِذا لَمْ يَنْفُثْ جَوِيَ*، لَمْ يَرَ في العالَمِ مُحْرِماً لائِقاً وَمُوافِقاً، لِيَضَعَ سِرَّهُ مَعَهُ في الوَسَط، أَخِيْراً وَجَدَ بَرْغُوْثاً في ثَوْبِهِ، قالَ ذُو الرُّوْحِ الضَّعِيْفُ هذا لا يَمْلِكُ اللِّسانَ لِيَقُولَ، وَحَتَّى لَوْ كانَ يَسْتَطِيْعُ القَوْلَ، بِما أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أُرَبِّيْهِ بِدَمِ نَفْسي، مَتى يَقْبَلُ أَنْ يَجْعَلَ سِرِّي ظاهِراً، الرُّوْحُ مِنَ المِسْكِيْنِ صارَتْ في مِثْلَ قالَبِ البَرْغُوثِ في السِّرْوال، أَوْ كَمِثْلِ حَصاةٍ في الحِذاءِ، تُظْهِرُ الطَّلَبَ بانْتِزاعِ الشِّدَّةِ، حَتَّى قالَ ذاكَ السِّرَّ لَهُ، ثُمَّ في اللَّيْلِ هَجَمَ القَضاءُ على رُوْحِهِ، وَصارَ لارْتِكابِ ذاكَ الخَطَرِ المُحَرِّضِ، وَأَلْقى بالنَّفْسِ بِفُنُوْنِ الحِيَلِ في قَصْرِ خَسْرُو، اِتِّفاقاً وَجَدَ مَحَلَّ النَّوْمِ خالِياً مِنْ حُضُورِ الخَدَم، وَذَهَبَ تَحْتَ التَّخْتِ وَأَخْفى النَّفْسَ، والتَّقْدِيْرُ يُنْمي مِنْ أَجْلِهِ شَجَرَةَ العُقُوْبَةِ، خَسْرو دَخَلَ وَذَهَبَ مُسْتَقِيْماً للتَّخْت، وَوَضَعَ الرَّأْسَ على الوِسادَةِ بِعَزْمِ النَّوْم، البَرْغُوْثُ دَخَلَ مِنْ ثَوْبِ السَّارِقِ إلى ثَوْبِ نَوْمِ خَسْرو، وَعَمِلَ الكَثِيْرَ مِنَ الاِضْطِرابِ حَتَّى زادَ طَبْعَ خَسْرو مَلالاً،

أَمَرَ أَنْ يَجِيْئُوا بالضَّوْء، وَنَظَرُوا جَيِّداً بالطَّلَبِ في مَعاطِفِ ثِيابِ النَّوْمِ، وَثَبَ البَرْغُوْثُ لِلْخارِجِ وَذَهَبَ تَحْتَ التَّخْتِ، في طَلَبِ البَرْغُوْثِ وَجَدُوا السَّارِقَ، وَأَجْرَوا عَلَيْهِ حُكْمَ العِقاب،

مَشى بِرِجْلَيْهِ عَمْداً نَحْوَ مَصْرَعِهِ　　لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُوْلاً

أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ لا يَجِبُ قَوْلُ سِرِّ القَلْبِ مَعَ كُلِّ ذِي رُوْح، حِيْنَ وَصَلَتْ مُناظَراتُهُما وَمُعارَضاتُهُما إلى هُنا، الأَسَدُ جَعَلَ مِنَ النَّفْسِ مُضْطَرِباً وَقَطَعَ زَنْجِيْرَ الصَّبْرِ بِزَمْجَرَةِ غَضَبٍ أَطْلَعَها مِنَ النَّوْم، وَأَمَرَ أَنْ يُحْبَسَ دادَمَه، وَأَنْ تُوْضَعَ على قَدَمِهِ الخَشَبَةُ، داستان بِذاكَ الشَّكْلِ الَّذي حَدَثَ، وَلِهَ بِشِدَّةٍ، وَمِنَ التَّلَهُّفِ والتَّأَسُّفِ ذَهَبَ بِبابِ سِجْنِ القَصْرِ، وَشَرَعَ يُعاتِبُ دادَمَه بالمُعاتَباتِ المُثِيْرَةِ للاِضْطِراب، والخِطاباتِ المَخْلُوْطَةِ بالسُّمّ، وَكانَ بالتَّثْرِيْبِ والتَّوْبيخِ الخَوْفُ، أنْ هُوَ اقْتَلَعَ جَذْرَ وُجُوْدِهِ، وَقالَ، الرِّجالُ العُقَلاءُ قالُوا أنَّ بَذْلَ المالِ الَّذي لا تَعْمَلُ على قِياسِ اليَسار، يُعْطِيْ ثَمَرَةً الاِحْتِياجَ والاِفْتِقار، والحَدِيْثَ الَّذي تَقُولُ وَلَيْسَ مِنْ مَقامِ النَّفْسِ، يُلْقِيْكَ عَنِ المَقام، وَرَأْسُ اللِّسانِ الَّذي يَكُوْنُ مِنْهُ الخَوْفُ على الرَّأْسِ قَطْعُهُ أولى، والمَضَرَّةُ مِنْ كَثْرَةِ الأَكْلِ للطَّبِيْعَةِ أَكْثَرُ مِنَ المَضَرَّةِ مِنْ قِلَّةِ الأَكْل، والنَّدامَةُ والمَلالَةُ مِنْ إكْثارِ القَوْلِ أَكْثَرُ مِنْهُما مِنْ إقلالِ القَوْل،

ما إنْ نَدِمْتُ على سُكُوْتي مَرَّةً لكِنْ نَدِمْتُ على الكلامِ مِرارا

وَبَراهِمَةُ الهِنْدِ الَّذينَ يَمْلِكُونَ بَراهِيْنَ الحِكْمَةِ في البيان، قالُوا هكذا، أَنِ الكَلامُ الَّذي ما قِيْلَ شَبِيْهٌ بِتِلْكَ المُخَدَّرَةِ الَّتي لَمْ تُفَضَّ، تَكُونُ مَرْغُوْبَةً للطِّباعِ وَمَحْبُوْبَةً لِلْقُلُوْب، وللخاطِبِيْنَ بِها الرَّغَباتُ الصَّادِقَةُ، والكَلامُ الَّذي قِيْلَ شَبِيْهٌ بِتِلْكَ المَرْأَةِ الَّتي رَأَتِ الزَّوْجَ، فَيَجِبُ عَمَلُ الحِيَلِ حَتَّى بازارُ التَّزْوِيْجِ مِنْها بالعُسْرِ يَقْبَلُ التَّزْوِيْج، وَقَرَأْتُ في لَطائِفِ كَلِماتِهِمْ أَنَّ الصَّمْتَ سَتْرٌ لِعَوْرَةِ الجَهْل، كما هُوَ مَهابَةٌ لِعَظَمَةِ العِلْم،

شَخْصٌ كانَ مَمْلُوْءَ اللُّبِّ مِنَ العَجَلَةِ
هُوَ شَخْصٌ حَدِيْثُهُ كَثِيْرٌ وَفَهْمُهُ قَلِيْلٌ

إِنْ لَمْ يَكُنْ لِرُوْحِكَ النَّصِيْبُ مِنَ العِلْمِ
لا زِيْـنَةَ لَــكَ أَفْـضَلُ مِنَ الصَّمْت

وَقَدْ أَخَذُوا صِفَةَ طَلَبِ العَيْبِ وَتَعَوُّدَ اللِّسانِ على ذِكْرِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ دَلِيْلاً على رَذالَةِ الأَصْلِ وَلُؤمِ الطَّبْعِ وَخِسَّةِ النَّفْس، وَأَنْتَ عَمِلْتَ الإِصْرارَ في اسْتِحْسانِ صُوْرَةِ حالِ النَّفْس، دادمَه قالَ، خَوْفي يا داسْتان مِنْ غُبْنِ مَقالِكَ أَنْ أَقْرَأَ، *السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ*، وَأَنْتَ تَعْتَبِرُ المَلِكَ بِمِثْلِ ذاكَ الَّذي جاءَ مِنْهُ مَعْذُوراً، وَتَضَعُ عَلَيْهِ فِعْلَ الطَّبِيْعَةِ وَسَلْبَ الاِخْتِيار، لِماذا لا تَجْعَلُني أنا أَيْضاً مَعْذُوراً بِهذا العُذْرِ نَفْسِهِ،

ولكِنْ ما أَفْعَلُ وَأَمْرُ ابْنِ آدَمَ على هذا، ما ضَحِكَ يَوْماً إِلَّا وَبَكى سَنَةً، كُلُّ دَمْعِ الحَسْرَةِ هذا، الَّذي جامِعُ الجُلَّابِ يَجْعَلُ يَقْطِرُ مِنْ أَحْداقِ الوَرْدِ، نَتِيْجَةٌ لِضُحْكَةٍ واحِدَةٍ، هِيَ الضُّحْكَةُ الَّتي ضَحِكَها بُرْعُمُ الوَرْدِ أوقاتَ السَّحَرِ، أَطْلَقَ تِلْكَ الضُّحْكَةَ على أَمْرِ العالَمِ، وَقَهْقَهَةُ الزُّجاجَةِ لا تَزالُ في الحَلْقِ، فَهِيَ بالبُكاءِ بِحُرْقَةٍ تُقَطِّرُ دَمَ القَلْب،

لا تَحْسَبَنَّ سُرُوْراً دائِماً أَبَداً مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أَزْمانُ

وَآنَذاكَ أَيْ داستانُ تَعْلَمُ، أنْ حِيْنَ يَرْجِعُ البَخْتُ، كُلُّ ما كانَ أَجْوَدَ فِكْراً يَجِيْءُ أَسْوَأَ في العِبارَةِ، وَيَصِيْرُ مُطالَباً بِكُلِّ لَغْوٍ صَدَرَ سَهْواً فَكَيْفَ إذا كانَ صَدَرَ عَمْداً، كَمِثْلِ مِزاجِ المِمْراضِ، فَإِنَّهُ في تَرْتِيْبِ الغِذاءِ وقاعِدَةِ الاِحْتِماءِ مَهما زادَ بِشَرْطِ الاِحْتِياطِ بالإِجْراء، فَإِنَّهُ بِأَقَلِّ زِيادَةٍ يَجِيْءُ بِها في الأَمْرِ، يَصِيْرُ مُنْحَرِفاً عَنْ سَمْتِ الاِعْتِدال سَرِيْعاً، وَعلى عَكْسِ ذاكَ فإِنَّهُ حِيْنَ يُعِيْنُ الإِقْبالُ، رَغْمَ أَنَّ القائِلَ لا يَمْلِكُ الزِّيادَةَ مِنْ أَهْلِيَّةِ قَولِ الحَدِيْثِ، فَإِنَّ الحَدِيْثَ الرَّكِيْكَ مِنْهُ يَظْهَرُ مُحْكَماً وَمَتِيْناً، وَيَجْلِسُ في مَقاعِدِ سَمْعِ القَبُول، وَكَمِثْلِ رَجُلٍ رامٍ للسِّهامِ رَغْمَ أَنَّهُ كانَ يَمْلِكُ السَّاعِدَ واهِياً وَضَعِيْفاً، إذا كانَ الحَظُّ مُساعِداً لَهُ، فَإِنَّ كُلَّ سَهْمٍ يَذْهَبُ خارِجاً مِنْ قَبْضَةِ يَدِهِ يَجِيْءُ على الهَدَف، وَحِيْنَ الزَّمانُ يَجِيْءُ بالمَيْلِ عَنْ طَرِيْقِ العَوْنِ، فَإِنَّهُ يَسْحَبُ المَيْسَمَ على عَيْنِ البَصِيْرَةِ، وَيَجْعَلُ النَّهارَ المُضِيْءَ يَظْهَرُ لَهُ كاللَّيْلِ

المُظْلِمِ، كما وَقَعَ لِذاكَ الرَّجُلِ مَعَ الهُدْهُدِ، داستان قالَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الرَّجُلِ الطَّيِّبِ مَعَ الهُدْهُد

قالَ دادَمَه، سَمِعْتُ أَنَّ رَجُلاً كانَ تَعَلَّمَ لِسانَ الطُّيُوْرِ في مَكْتَبِ، *عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْر*، وَصارَ لائِقاً بِزَفَّةِ بَبَّغاواتِ مَنْزِلِ العَرْش، وَطَواوِيْسِ رَوْضَةِ القُدُس، كانَتْ لَهُ صَداقَةٌ مَعَ هُدْهُدٍ، يَوماً كانَ بالمُرُوْرِ فَرَأى الهُدْهُدَ جالِساً على رَأْسِ جِدارٍ، قالَ أَيْ هُدْهُدُ بِهذا المَكانِ حَيْثُ تَجْلِسُ كُنْ مُنْتَبِهاً للنَّفْسِ وَكُنْ مُتَيَقِّظاً، فَهُنا مَحَلُّ الكَمِيْنِ لِلْمُغِيْرِيْنَ مِنَ القَضاء، هُنا يَفْتَحُوْنَ سَهْمَ البلاءِ مِنْ قَبْضَةِ الحَوادِثِ، قَوافِلُ ضِعافِ الطَّيْرِ بِحُكْمِ الاِخْتِيارِ تَجِيْءُ لِهذا المَكان، وَتَعْبُرُ بالاِحْتِراز، قالَ الهُدْهُدُ في هَذِهِ الحَوالي وَلَدٌ يَنْصِبُ لي الشِّباكَ طَمَعاً بِصَيْدي، وَأنا أَتَفَرَّجُ عَلَيْهِ وَهُوَ يُضَيِّعُ وَقْتَهُ عَبَثاً، وَيَحْمِلُ أَلَماً بِلا فائِدَة، الرَّجُلُ الطَّيِّبُ قالَ لَهُ أنا على القَوْلِ الَّذي قُلْتُ لَكَ، وَذَهَبَ، وَحِيْنَ عادَ راجِعاً وَجَدَ الهُدْهُدَ أَسِيْراً في يَدِ ذاكَ الطِّفْلِ، قالَ لَهُ أَنتَ أَلَمْ تَكُنْ تَضْحَكُ على نَصْبِ ذاكَ الطِّفْلِ الشِّباكَ وَتَضْيِيْعِ وَقْتِهِ، وما دامَتِ الحَبَّةُ كانَتْ قُبالَتَكَ، والشَّبَكَةُ كانَتْ ظاهِرَةً، أنتَ بِأَيِّ مُوْجِبٍ وَقَعْتَ بالشِّباكِ، قالَ أما سَمِعْتَ، *الهُدْهُدُ إذا نَقَرَ الأَرْضَ يَعْرِفُ مِنَ المَسافَةِ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ الماءِ ولا يُبْصِرُ شَعِيْرَةَ الفَخِّ لِيَنْفُذَ ما هُوَ في*

مَشِيْئَةِ اللهِ تَعالى مِنَ القَضاءِ والقَدَرِ، إنَّهُ لَيْسَ مَخْفِيَّاً أنْ هَوى الرَّجُلِ يَجْعَلُ جَمالَ المَصْلَحَةِ مَخْفِيَّاً عَنْ عَيْنِ العَقْلِ، وكُلُّ مَنْ رَجَعَ الفَلَكُ الدَّائِرُ عَنْ سَمْتِ مُرادِهِ، سِمَةُ النُّقْصانِ وَجَدَتْ لِحَوالَي أحْوالِهِ الطَّرِيْق، أنا كُنْتُ أحْكَمْتُ عَقْدَ القَباءِ المُلَمَّعِ، وَأَمَلْتُ على الرَّأْسِ التَّاجَ المُرَصَّعَ، وَطِرْتُ بِجَناحِ المَهارَةِ والعِلْمِ، واعْتَمَدْتُ على ذكائي وَحِدَّةِ نَظَري، الحَبَّةُ كَنَتْ تَعِلَّةً، وَسَحَبَتْني للشِّباكِ، واعْلَمْ أَنَّهُ حِيْنَ أُجْرِيَ قَلَمُ الإرادَةِ في الأزَل، رُقِمَتِ الحَوادِثُ، جاؤوا بِطُيُوْرِ أَغْصانِ شَجَرَةِ المَلَكُوتِ مِنْ عِشِّ العِصْمَةِ، وَجَعَلُوْها مُقَيَّدَةً بِشِباكِ التَّعِلَّةِ، وآدَمُ الصَّفِيُّ الَّذي كانَ يَمْلِكُ مِرْآةَ القَلْبِ صافِيَةً هكذا، فَفي عالَمِ الشَّهادَةِ كانَ يَحْكي عَنْ نَقْشِ أَلْواحِ الغَيْب، وَأَظْهَرَ التَّفاضُلَ بِعِلْمِ النَّفْسِ مَعَ المَلأِ الأَعْلى، وَقَعَ بالشِّباكِ وَكانَ يَرى حَبَّةَ القَمْحِ، وَكانَ يَعْرِفُ إبْلِيْسَ، وَكانَ سَمِعَ وَصِيَّةَ، *ولا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ*، فَقَدْ جاءَ مُقَيَّدَ القَدَمِ بالخِدْعَةِ وَغُرُوْرِ النَّفْس،

صِرْتُ خائِباً وَبِمُرادِ العَدُوِّ   لِنَرَ ما يَطْلَعُ لي مِنْكَ مِنْ رِزْق
قَلْبي طائِرٌ عالي الطَّيَرانِ لكِنْ   مِنَ القَضاءِ الشِّباكُ لَهُ رِزْق

الرَّجُلُ الطَّيِّبُ عَلِمَ أَنَّ ذاكَ الَّذي يَقُولُ مَحْضُ الصِّدْقِ وَعَيْنُ الصِّدْقِ، دَفَعَ دِرْهَمَيْنِ لِذاكَ الوَلَدِ واشْتَرى مِنْهُ الهُدْهُدَ وَحَرَّرَهُ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ حَتَّى تَنْقُلَني مِنْ طِيْنِ هذِهِ المَخافَةِ وَمَخْلَبِ هذِهِ الآفَةِ، ولا

تَسْمَحْ بالمَزِيْدِ مِنْ هذا التَّوْبِيْخِ والملامَةِ، وَذاكَ الَّذي تَصْرِفُ مِنَ الوَقْتِ في تَقْرِيْعي والتَّشْنِيْعِ عَلَيَّ، إِنَّهُ لَأولى أنْ تَجْعَلَ عِنانَ تَفْكِيْرِكَ بِهِ مَصْرُوفاً لِذاكَ الَّذي بِهِ تَدْبِيْرُ أَمْرِي،

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْراءُ وَداوِني بالَّتي كانَتْ هِيَ الدَّاءُ

قَلْبُ داسْتان صارَ لَيِّناً مِنْ هذا الحَدِيْث، وَزادَتِ الشَّفَقَةُ بِقَلْبِهِ على دادَمَه، وَقالَ لا تُعْطِ الطَّرِيْقَ للتَّوَزُّعِ والتَّوَجُّعِ لِلْخاطِرِ، ولا تَعْمَلْ هذا التَّصَوُّرَ، أنَّهُ إذا جاءَتْ أَيَّةُ مُلِمَّةٍ وَمُهِمَّةٍ، أو أظْهَرَتِ الوَجْهَ أَيَّةُ داهِيَةٍ مِنَ الدَّواهي، أنِّي يُمْكِنَ أَنْ يَكُونَ مِنِّي الإِغْفالُ والإِذْهالُ في تَقْدِيْمَ العَوْنِ لَكَ، فَإِنَّ حُقُوْقَ المُمالَحَةِ والمُصاحَبَةِ ثابِتَةٌ لِأَحَدِنا على الآخَرِ، وَعُقُوْدَ المُوالاةِ والمُؤاخاةِ مُتَأَكِّدَةٌ في الوَسَطِ، والفُرْسُ يَقُوْلُوْنَ، المالُ يَجِيْءُ بالعَمَلِ بِيَوْمِ الشِّدَّةِ، والصَّدِيْقُ بِوَقْتِ المِحْنَة، وَأَرْبَعُ خِصالٍ في شَرِيْعَةِ المُرُوْءَةِ مَعَ الأَصْدِقاءِ تَجِيْءُ فَرْضَ عَيْنٍ، واحِدَةٌ حِيْنَ يَصِلُ للصَّدِيْقِ بلاءٌ، أَنَّهُ يَجْعَلُ النَّفْسَ في مُقاساةِ ذاكَ مَعَ الصَّدِيْقِ شَرِيْكاً، والثَّانِيَةُ هِيَ حِيْنَ يُفَكِّرُ الصَّدِيْقُ بِعَمَلٍ غَيْرِ حَسَنٍ، أنْ يُرْجِعَ عِنانَ عَزْمِهِ عَنْ طَرِيْقِ الإِرادَة، ولا يَتْرُكُهُ يُكْمِلُ ذاكَ الفِعْلَ، والثَّالِثَةُ أَنَّهُ في أَسْبابِ المَنافِعِ لا يَكُوْنُ مُتَأَخِّراً عَنْ مَعُوْنَتِهِ، والرَّابِعَةُ هِيَ أَنْ يَجْعَلَ إِتْمامَ مَهامِّهِ في عَوارِضِ الحاجاتِ مُقَدَّماً على النَّفْسِ، *أُنْصُرْ أَخاكَ ظالِماً أَوْ مَظْلُوْماً*، لكِنْ عَنِ الإشارَةِ الدَّقِيْقَةِ الَّتي هِيَ ضِمْنَ هذا

الحَدِيْثِ يَجِبُ الكَوْنُ مُتَنَبِّهاً، حَتَّى لا تَجِيْءَ قَدَمُ الفَهْمِ لِقاصِرِ نَظَرٍ هُنا على صَخْرَةِ الغَلَطِ، أنِ الشَّارِعُ هُنا يُحَرِّضُ على الإِعانَةِ على الظُّلْمِ، بَلِ المُرادُ مِنْ نُصْرَةِ الظَّالِمِ مَنْعُهُ عَنِ الظُّلْمِ، إذا فَلا حِيْلَةَ لي إلَّا حِفْظُ دَمِكَ وَمالِكَ، فَإِنَّهُ وإِنْ كانَ للصَّدِيْقِ مِنَ الصَّدِيْقِ نُقْطَةُ كُدُوْرَةٍ على حَواشي الخاطِرِ، فَإِنَّها في وَقْتِ وُقُوْعِ أَمْرٍ تُغْسَلُ جُمْلَةً بِماءِ الوَفاءِ، وَفي فَوائِدِ حُكَماءِ الهِنْدِ جاءَ، ذاكَ الَّذي لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ لَيْسَ لَهُ مُكافَأَةٌ، وَذاكَ الَّذي لَيْسَ لَهُ صَدِيْقٌ لَيْسَ لَهُ سلامٌ، فَكُنْ مُطْمَئِنَّ الخاطِرِ، فَإِنَّني إِذْ لَمْ أَكُنْ مُتَعاوِناً مَعَكَ فإنَّما ذاكَ كانَ مِنْ أَجْلِكَ، أنا ذاهِبٌ لِخِدْمَةِ المَلِكِ، لِأرى عِيارَ خاطِرِهِ، وَبِتَخْمِيْرِ الفِكْرِ والتَّدْبير، أُخْرِجُكَ مِثْلَ الشَّعْرَةِ مِنَ الخَمِيْر، دادمَه قالَ، عِنْدِي الثِّقَةُ أَنَّ سِيْرَتَكَ المُنَشَّأَةَ بالصَّفاءِ، سَتُبْقِيْكَ على حَقِّ الوَفاءِ لي، وَمِنْ طِيْبِ الأَصْلِ مِنْكَ وَطَهارَةِ المَوْلِدِ، مِنْ ذاكَ الَّذي يَجِيْءُ بالوُسْعِ سَوْفَ لَنْ تَتْرُكَ باقِياً، لكِنَّ الرِّجالَ أولي العَقْلِ مَعَ الواقِعِيْنَ المَصْدُوْمِيْنَ بالمِحْنَةِ، لا يَقْبَلُوْنَ زِيادَةَ الاِخْتِلاطِ بِهِم، والتَّعَلُّقِ بِصُحْبَتِهِمْ، إِلَّا بِقَدَرِ الضَّرُوْرَةِ، فالمِحْنَةُ شَبِيْهَةٌ بالنَّارِ الحارَّةِ، سَرِيْعاً ما تَحْرِقُ ذاكَ الأَقْرَبَ مِنْها، فَإِلى أَنْ يَنْتَهِيَ هذا النَّحْسُ المُسْتَمِرُّ مِنْ أَيَّامِ خَيْبَتِي، رُبَّما تَصِيْرُ مُنْقَطِعاً عَنِّي، فَقَدْ قالُوا أَنَّ جَهْلَ نَفْسِ الإِنْسانِ مَرَضٌ، وَعَدَمُ تَوْفِيْقِ حالِ الإِنْسانِ مَرَضٌ، وَيَجِبُ عَمَلُ وَسِيْلَةِ الاِحْتِرازِ مِنَ عَدْوى

ذاكَ، وَرَغْمَ أَنَّهُ يَجِبُ عَدَمُ تَرْكِ الأَصْدِقاءِ في المَرَضِ، فَإِنَّهُ لا يَجِبُ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَيْهِمْ بِعِلَّةِ مَرَضِهِ،

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ تَدْوى يَمِيْنُهُ فَيَقْطَعُها عَمْداً لَيَسْلَمَ سائِرُهْ

الآنَ لَكَ أنْ تَنْظُرَ وَقْتَ نَجْمُ سَعادَتي يَجْعَلُ الوَجْهَ بالإِسْتِقامَةِ، حَتَّى لا يَبْقى الأَلَمُ بِلا فائِدَةٍ، كما فَعَلَ ذاكَ المَلِكُ العالِمُ مَعَ خَسْرُو، قالَ داستان وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ خَسْرو مَعَ المَلِكِ العالِمِ

قالَ دادَمَه، سَمْعْتُ أَنَّهُ وَقَعَتْ لِخَسْرُو خُصُوْمَةٌ مَعَ مِلِكٍ مِنْ مُلُوْكِ الوَقْتِ، وَجاءَتْ ظاهِرَةً مِنَ الطِّباعِ داعِيَةُ الطَّبْعِ بانْتِزاعِ المُلْكِ لِلْواحِدِ مِنَ الآخَرِ، حَتَّى وَصَلَ الأَمْرُ لِمُناهَضَةِ الحَرْبِ والقِتالِ مِنَ الجانِبَيْنِ، فَغَيْرُ السَّهْمِ ما عادَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُما مِنْ سَفِيْرٍ، وَما عادَ يَجْري بَيْنَهُما الجَوابُ والسُّؤالُ إِلَّا بِلِسانِ السِّنان، صَفَّا الصُّفُوْفَ لِلْمَعْرَكَة، وَعَمِلا حَرْباً عَظِيْمَةً، آخِرَ الأَمْرِ جاءَ خَسْرو مُظَفَّراً، صَبا الظَّفَرِ هَبَّتْ على زُلْفِ رايَتِهِ وَقُرْطِ عَلَمِهِ، وَدَبُورُ الإِدْبارِ جَعَلَتْ غُبارَ الخَسارِ في كَأْسِ خَصْمِهِ، صارُوا مُنْهَزِمِيْنَ وَمُشَرَّدِيْن، أُسِرَ المَلِكُ وَجِيْءَ بِهِ أَمامَ خَسْرو، وخَسْرُو مِنْ هُناكَ حَيْثُ كانَ بِهِمَّةِ المُلُوْكِ وَسِيْرَةِ السَّلاطِيْن، قَرَأَ، *إِذا مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ*، قالَ مِنْ كَسْرِ النَّفْسِ لا يَجِبُ أَنْ تَمْلِكَ

مُوْمِياءَ الأَسَفِ، ولا أنْ تَمْلِكَ النَّفْسَ مُلْقىً، فَهذا رَسْمُ السُّنَّةِ مَعَ الكِرام، نَقْضُ العَهْدِ مَعَهُمْ عادَةُ اللِّئام، وَإِنَّ إِيْصالَ اليَدِ لِأَيِّ واحِدٍ بِعَدَمِ المُسامَحَة، وَوَضْعَ قَدَمِ عَدَمِ المُجامَلَةِ على عُنُقِ أَيٍّ كانَ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا عَمَلَ رَجُلٍ بِلا وَقارٍ وَسافِلِ الطَّبْعِ وَمُلَوَّثِ الأَصْلِ وَغَيْرِ مَمْدُوْحِ الخِصال، ثُمَّ أَمَرَ أنْ يَرْجِعَ إلى مَنْزِلِهِ وَأَهالِيْهِ بِوَجْهِ الإِعْظامِ والاِحْتِرامِ، مَعَ العِتادِ والعُدَّةِ والآلَةِ والأُهْبَةِ والمَراكِبِ والمَوالي، المَلِكُ قالَ لِخَسْرو الثَّناءَ والمَحْمَدَةَ والمَدْحَ وَأَنَّهُ يَحْمِلُ المِنَّةَ، وَقالَ هذا غايَةُ الفُتُوَّةِ وَعُلُوِّ الهِمَّةِ، لكِنْ لِي مِنْكَ تَوَقُّعٌ، إذا تَعَلَّقَ القَبُولُ بِذاكَ عَلِمْتُ إِشارَةَ إِقْبالِ نَفْسي، قالَ خَسْرُو، عَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَ كُلَّ ما يَجِيْءُ أمامَ خاطِرِكَ، وإنَّهُ لا حِيْلَةَ عَنْ إجابَةِ ذاكَ، قالَ في بُسْتانِ القَصْرِ هذا في المَكانِ الَّذي أَنْزَلُوْني بِهِ شَجَرَةُ تَمْرٍ، أُرِيْدُ أنْ تَهَبَني تِلْكَ وَأَنْ أَكُونَ سَنَةً هكذا في ظِلِّ جِوارِكَ، خَسْرُو تَعَجَّبَ مِنْ هذا الحَدِيْثِ تَماماً وَبَقِيَ مُتَعَجِّباً، أنْ لَعَلَّهُ مِنْ هَوْلِ هذِهِ الواقِعَةِ وَخَوْفِ هذِهِ الحادِثَةِ الَّتي وَقَعَتْ لَهُ أصابَ دِماغَهُ خَلَلٌ، وَقَبِلَ عَقْلُهُ النُّقْصانَ، لِيَسْأَلَ سُؤالاً بِهذِهِ الرَّكاكَةِ، وَيَلْتَمِسَ التِماساً بِهذِهِ الخَساسَةِ، وَإِلَّا ما لِلْمُلُوْكِ والمَطامِعِ الدَّنِيَّةِ، وَمَعَ كُلِّ هذا فَإِنَّهُ يَجِبُ جَعْلُ حاجَتِهِ مَبْذُوْلَةً، وَعَدَمُ اعْتِبارِ رَأْيِهِ مُبْتَذَلاً، فَالأولى أنْ يُعْطى بُسْتانَ القَصْرِ ذاكَ وَتِلْكَ الشَّجَرَةَ، المَلِكُ كانَ يَنْظُرُ إلى تِلْكَ الشَّجَرَةِ كُلَّ أُسْبُوْعٍ فَيَرى أوراقَها وَأَثْمارَها تَسقُطُ، وَقَدْ وَجَدَ اليَباسُ والجُمُوْدُ الطَّرِيْقَ إِلَيْها، حَتَّى

لَمْ يَبْقَ بِها أَيُّ أَمَلٍ بالتَّحَسُّنِ، يَوْماً ذَهَبَ هُناكَ على القاعِدَةِ السَّابِقَةِ، رأى الشَّجَرَةَ مِثْلَ بَخْتِ صاحِبِ الدُّوَلِ، صارَتْ يانِعَةً منْ جَدِيْدٍ، وَصارَتْ نَضِيْرَةً كالسَّابِقِ، وَتَغَصَّنَتْ أَغْصانُها، وَفُكَّتْ عُقَدُ التَّشَنُّجِ عَنْ عُرُوْقِها، وكالبُرْعُمِ المُتَفَتِّحِ والنَّافِجَةِ المَشْقُوْقَةِ، أَخَذَتْ لَوْنَ وَعَبِيْرَ أَعْراسِ الرَّوْضِ، وَفي حُلَّةِ الخُضْرَةِ والحَرِيْرِ الأَصْفَرِ طَلَعَتْ بِآلافِ الأَيْدي الجَمِيْلَةِ كالحَوْرِ،

مَجْمَرُها داخِلَ الطَّبْعِ وَحَرْقُ العُوْدِ مِنْ جِهَةِ الخارِجِ
القُدْرَةُ مِنْ الدَّاخِلِ جِهَةَ رَقْمِ القَلَمِ وَنَقْشُها في الخارِجِ

المَلِكُ مِنْ ذلِكَ المَكانِ ذَهَبَ بِخِدْمَةِ خَسْرو، وَعَنْ مُشاهَدَةِ حالِ الشَّجَرَةِ أَعْطاهُ الخَبَرَ، وَقالَ أنا في هذِهِ المُدَّةِ كُنْتُ أُدِيْرُ قُرْعَةَ التَّفَأُّلِ باسْمِ هذِهِ الشَّجَرَةِ، وَكُنْتُ أرى تِمْثالَ حالِ النَّفْسِ في نَوْمِ الأماني بِحالِها، اليَوْمَ عَلِمْتُ أنَّ أَمْري وَجَّهَ الوَجْهَ مِنْ حَضِيْضِ التَّراجُعِ إلى ذِرْوَةِ التَّرَفُّعِ، مِثْلَما بِهذِهِ الشَّجَرَةِ مِنْ بَعْدِ تَغَيُّرِ الحالِ الَّذي كانَ، هذِهِ الطَّراوَةُ وَهذا الرَّوْنَقُ أَظْهَرا الوَجْهَ، أَمْري بِنَسَقِ المُلْكِ سَوْفَ يَجِيْءُ راجِعاً مِنْ جَدِيْدٍ، إذا كُنْتَ هذا اليَوْمَ تُرْسِلُني راجِعاً إلى مَحَلِّ نَفْسي، والتَّفْكِيْرَ الَّذي عَمِلْتَ بالعِنايَةِ في شَأْني، يَجِيْءُ مُتَوافِقاً بالعَمَلِ، فَهذا هُوَ الوَقْتُ، خَسْرُو أَرْسَلَهُ راجِعاً لِلمَنْزِلِ مَعَ الجَهازِ والأُهْبَةِ والجَلالِ والأُبَّهَةِ، في ملابِسِ التَّمْكِيْنِ، وَمَعارِضِ التَّزْيِيْنِ، والمَلِكُ وَصَلَ بِمُرادِ

القَلْبِ لِلْمَمْلَكَةِ والمُلْكِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تُمْسِكَ اليَدَ عَنْ إِصْلاحي إلى أنْ يَصِلَ دَوْرُ مِحْنَتي للنِّهايَةِ، كَيْ يَكُوْنَ السَّعْيُ الَّذي تَسْعى مُؤَثِّراً، وَتَجِيْءَ البِذْرَةُ الَّتي تَبْذُرُ مُثْمِرَةً،

هذا الأَلَمُ يَعْبُرُ عَنِّي فَقَدْ عبَر مُلْكُ الخاقانِ وَدَوْلَةُ قَيْصَر

داستان قالَ، بِكُلِّ سُوْءٍ جاءَ بِهِ الزَّمانُ بِوَجْهِ الأَصْدِقاءِ، يَقَعُ الاِنْقِطاعُ عَنِ الصَّدِيْقِ وَجَعْلُ الظَّهْرِ لِأَمْرِهِ، بَعِيْداً عَنْ قَضِيَّةِ المَكارِمِ، وَسَجِيَّةِ الأكارِمِ، بَلْ يَجِبُ الكَوْنُ واحِداً، في حالَةِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والخَيْبَةِ والرَّجاءِ، أنا مِنْ هذِهِ السَّاعَةِ ذاهِبٌ لِخِدْمَةِ المَلِكِ، أبْحَثُ عَنْ خَلاصِكَ بِلَطائِفِ التَّدْبِيْرِ، وَأُوْصِلُ الأَمْرَ لِمَخْلَصِ الخَيْر، وَأَجِيْءُ بِفُرْجَةِ الفَرَجِ ظاهِرَةً مِنْ مَضِيْقِ هذا الحَبْسِ، ثُمَّ مِنْ هُناكَ ذَهَبَ لِخِدْمَةِ المَلِكِ، اتِّفاقاً كانَ الدُّبُّ مَوْجُوْداً، فَكَّرَ أَنْ إِذا أنا قُلْتُ حَدِيْثَ دادَمَه بِحُضُوْرِهِ، لا بُدَّ أنَّ باعِثَ العَداوَةِ مِنْ أَصْلِهِ يَرْفَعُ الرَّأْسَ، وَأَنَّهُ يَفْتَحُ لِسانَ الاِعْتِراض، وَيَجْعَلُ الاِبْتِداءَ بِقَوادِحِ العِرْضِ، ولا يَسْمَحُ أَنْ يَقَعَ حدِيْثي في نِصابِ القَبُول، وَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ في غَيْبَتِهِ، رُبَّما حِيْنَ يَصِيْرُ لَهُ الخَبَرُ يَطْلُبُ فُرْصَةً مِنْ بَعْدِ ذاكَ، وَباخْتِلاسِ الوَقْتِ مِنْ بَعْدِ ذاكَ يَجْعَلُ أَساسَ مَقالي مُنْهَدِماً جُمْلَةً، وَيَجْعَلُ قَواعِدَ سَعْيي مُنْخَرِمَةً، وَيَعْقِدُ على وَسَطِ الجُهْدِ بِإِبْطالِ غَرَضي، وَيُوْصِلُ للتَّزْييفِ كُلَّ الَّذي أَكُونُ قَدْ جَعَلْتُ مُقَرَّراً، وَقالُوا، مَكِيْدَةُ الأَعْداءِ وَفِكْرُ

الخُصَماء، مِمَّا يَجِيْءُ أَكْثَرَ فِعْلاً في الخَفاء، فَهُمْ يَجْعَلُوْنَ الماءَ مَخْفِيَّاً تَحْتَ القَشِّ بالحِيْلَةِ، وَيُوْصِلُوْنَ الخَصْمَ لِلْغَوْصِ بالهَلاكِ أَسْرَعَ، *وَما حِيْلَةُ الرِّيْحِ إذا هَبَّتْ مِنْ داخِلٍ*، أعادَ التَّفْكِيْرَ، أنْ بِحُضُوْرِهِ أولى، فَإنَّهُ إذا كانَ الدُّبُّ يَتَقَدَّمُ ظاهِراً بِمُدافَعَتي، وَيَجِيْءُ بالعِبارَةِ بِكُلِّ ما كانَ مُتَمَكِّناً مِنَ الحِقْدِ في باطِنِهِ على دادَمَه، المَلِكُ لا شَكَّ يَعْلَمُ أَنَّ حَدِيْثَهُ مَنْسُوبٌ بِغائِلَةِ الغَرَض، وَمَشُوْبٌ بِشائِبَةِ الحَسَد، وَإِذا هُوَ أَطْلَقَ نَبْلَةً عَنْ إِبْهامِ التَّعَنُّتِ، لا تَجِيْءُ على هَدَفِ الغَرَض، ثُمَّ إِنَّ داسْتان افْتَتَحَ الحَدِيْثَ بالدُّعاءِ لِلْمَلِك، وَقالَ، مِنْ كرائِمِ عاداتِ المُلُوْكِ، وَمَحاسِنِ شِيَمِهِم، واحِدَةٌ أَنَّهُمْ واهِبُونَ لِلْعَطاء، وواحِدَةٌ أَنَّهُمْ عافُوْنَ عَنِ الخَطاء، إِذِ اسْتِغْناءُ النَّاسِ عَنِ المالِ مُمْكِنٌ، أمَّا العِصْمَةُ الكُلِّيَّةُ عَنِ الذَّنْبِ فذاكَ لَيْسَ مُسَلَّماً لِأَيِّ شَخْصٍ، وَلِمُحَقِّقي الشَّرْعِ حَصَلَ الخِلافُ، أَلَيْسَ خَرَجَ مِنْ هذِهِ الدَّائِرَةِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَعِشْرونَ أَلْفَ نُقْطَةِ نُبُوَّةٍ بِكَمالِ حالِ النَّفْسِ لِلْخارِجِ، إنَّهُ وَإِنْ كانَ دادَمَه مُجْرِماً، إلَّا أَنَّ اعْتِرافَهُ بِجَرِيْمَةِ نَفْسِهِ صارَ ضَمِيْمَةَ الشَّفاعَةِ مِنِّي، إذا كانَ الشَّاهُ يَسْتُرُ عَثَراتِهِ بِذَيْلِ العَفْوِ، فَذاكَ غَيْرُ بَعِيْدٍ عَنْهُ، مِنْ كَمالِ الأَرْيَحِيَّةِ، وَكَرَمِ السَّجِيَّةِ، *والكَرِيْمُ مَنْ عَفا عَنْ قُدْرَةٍ*، المَلِكُ حِيْنَ اسْتَمَعَ لِهذا الحَدِيْثِ عَلِمَ أَنَّ الغَرَضَ الكُلِّيَّ والمَقْصُوْدَ الجُمْلِيَّ لِداسْتان مِنْ هذِهِ الكَلِماتِ، وَمِنْ تَقْرِيْرِ هذِهِ المُقَدِّمات، لَيْسَ غَيْرَ السُّمْعَةِ الحَسَنَةِ لِلْمَلِكِ، وَإِشاعَةِ ذِكْرِهِ بِحُسْنِ السِّيْرَةِ، وَعَرِفَ حِمايَةَ جانِبِ دادَمَه فَرْعاً

لِذاكَ الأَصْل، آخِراً جُمُوْحُ طَبِيْعَتِهِ صارَ هادِئاً، وَزِمامُ الاِهْتِمامِ لِجانِبِهِ جاءَ مَسْحُوْباً، أَلْقى الرَّأْسَ لِلأمامِ وَبَقِيَ ساعَةً في مَوْقِفِ التَّرَدُّدِ والتَّحَيُّرِ، الدُّبُّ فَكَّرَ أَنْ سُكُوْتُ المِلِكِ دَلِيْلُ رِضاهُ بِخَلاصِ دادَمَه، والعَدُوُّ الَّذي وَقَعَ مِنْ لَطْمَةِ القَهْر، واجِبٌ إِبقاؤهُ تَحْتَ القَدَمِ حتَّى لا يَنْهضَ، ثُمَّ قالَ، يَعْلَمُ المَلِكُ حَسَناً أَنَّ الرَّجُلَ سَيِّئَ الجَوْهَرِ شَبِيْهٌ بالحَيَّةِ المُؤْذِيَةِ، والحَيَّةُ الَّتي صارَتْ مُصابَةً يَجِيْءُ واجِباً لَها دَقُّ الرَّأْسِ، وَإِلَّا لا يُمْكِنُ الكَوْنُ بِأمانٍ مِنْ لَدْغَةِ أَسْنانِها نافِثَةِ السُّمّ،

وَكَمْ مِنْ قائِلٍ إِنِّي نَصِيْحٌ وَتَأْباهُ الخَلائِقُ والرُّواءُ

وَأَيْ داسْتان، كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ ذَنْبَ المُذْنِبِ مَسْتُوراً عَنِ المَلِكِ، وَيُرِيْدُ أَنْ يَجْعَلَ وَجْهَ حالِهِ جَمِيْلاً بِتَزْوِيْرِ الباطِلِ في حِجابِ تَقْرِيْرِ الحَقِّ، وَيُعْطي لِمَقابِحِهِ جَلْوَةَ التَّمْوِيْهِ في لِباسِ المَحاسِن، هُوَ خائِنٌ وَغادِرٌ، وَفي نَبْذِ حُقُوْقِ المُنْعِمِ مُبادِرٌ، داستان قالَ، لَيْسَ كُلُّ مَنْ قالَ الحَدِيْثَ في أَمْرِ مُذْنِبٍ جَعَلَ ذَنْبَهُ مُسْتَهاناً، فَإِنَّ العاقِلَ لا يَطْلُبُ العُذْرَ عَنِ الفِعْلِ الجَمِيْل، ولا يَحْمِلُ الخَجَلَ مِنَ الفِعْلِ الحَسَن، والعُقَلاءُ قالُوا كُلُّ ذَنْبٍ يَصِيْرُ صادِراً عَنِ الإِنْسانِ مُنْقَسِمٌ على أَرْبَعَةِ أَقْسامٍ، واحِدٌ الزَّلَّةُ، والثَّاني التَّقْصِيْرُ، والثَّالِثُ الخِيانَةُ، والرَّابِعُ المَكْرُوْه، وَلِكُلِّ واحِدٍ عُقُوْبَةٌ مُناسِبَةٌ، وَمُجازاةٌ لائِقَةٌ مُعَيَّنَةٌ، عُقُوْبَةُ الزَّلَّةِ العِتابُ، وَعُقُوْبَةُ التَّقْصِيْرِ المَلامَةُ، وَعُقُوْبَةُ الخِيانَةِ القَيْدُ والحَبْسُ، وَعُقُوْبَةُ المَكْرُوْهِ

إِيْصالُ المَكْرُوْهِ بالمُكافاة، كما جاءَ في مُحْكَمِ تَنْزِيْلِهِ تعالى، *وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيْهاَ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ*، الآَيَة، وآنَذاكَ جَعَلَ العَفْوَ والتَّجاوُزَ زِيْنَةَ قَواعِدِ السِّياسَةِ، وَأَعطى الحُدُوْدَ الشَّرْعِيَّةَ الجَمالَ بِلِباسِ هذِهِ المُجامَلَة، إِذْ قالَ، *فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ*، وَإِنَّ ذَنْبَ دادَمَهْ مِنْ هذِهِ الأَقْسامِ لَيْسَ غَيْرَ ذَلَّةٍ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ شَخْصٌ مَعْصُوماً مِنْ ذاك، وَكَما ذَكَرْتُ، إِذا كانَ المَلِكُ يَقْتَصِرُ على فَرْكَةِ الأُذُنِ هذِهِ، وَيَجْعَلُ رُكْنَ الخاطِرِ طاهِراً مِنْ غُبارِ الكَراهِيَةِ، يَكُونُ ذَهَبَ على سُنَّةِ كِرامِ المُلُوْكِ،

والعُلا مَحْظُوْرَةٌ إِلَّا على مَنْ بَنى فَوْقَ بِناءِ السَّلَفِ

قالَ الدُّبُّ، في الشَّرْعِ رُسُومُ المُلْكِ واجِبَةٌ على المَلِكِ، وَواجِبٌ إِظْهارُ التَّحَرُّزُ والتَّوَقِّي مِنْ عِدَّةِ أَنْواعٍ مِنَ النَّاسِ، وَتَوَقُّعُ سُوْءِ الفِكْر مِنْهُمْ، واحِدٌ مِنْ هذِهِ الأَنْواعِ مَنْ جُعِلَ مَعْزُولاً عَنْ عَمَلِهِ بِلا ذَنْبٍ، والآخَرُ ذاكَ الَّذي عَمِلَ الصَّداقَةَ مَعَ العَدُوّ، والآخَرُ ذاكَ الَّذي يرى نَفْعَ نَفْسِهِ في خُسْرانِ المَلِك، والآخَرُ ذاكَ الَّذي كانَ عَمِلَ خَدَماتٍ كَثِيْرَةً على أَمَلِ المُجازاة، وَلَمْ يَجِدِ الجَزاء، والآخَرُ ذاكَ الَّذي أعطى سِرَّ المَلِكِ لِغَيْرِ المُحْرِمِ، الآنَ وَهُوَ قَدْ صارَ مُؤاخَذاً بِمِثْلِ هذا الذَّنْب، فَقَدِ ارْتَفَعَ عَنْهُ الاِعْتِمادُ، واسْتِعْطافُهُ لا يَجِيْءُ نافِعاً،

إِذا أنتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وإنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيْمَ تَمَرَّدا

داسْتان قالَ، دادَمَه عَبْدٌ لائِقٌ، وَخادِمٌ مَمْلُوْءٌ بالخِدْمَةِ لِمَخْدُوْمِه، وَنَدِيْمٌ قَدِيْمُ الخِدْمَةِ، وَجَلِيْسٌ حَسَنُ المَجْلِسِ، وَأَنِيْسٌ مُحْرِمٌ وَأَمِيْنٌ، إِذا كانَ صَدَرَ عَنْهُ بالسَّهْوِ سَيِّئَةٌ، فَإِنَّهُ أَثْبَتَ الكَثِيْرَ مِنْ حَسَناتِ الأعْمالِ في صَحِيْفَةِ جَدْوَلِ خِدْمَتِهِ، حَتَّى بِمِثْلِ هذِهِ الصَّغائِرِ يُلْقى بالذُّلِّ والصَّغار، وَيَشْطُبُ القَلَمُ مَرْضِيَّاتِ خِدْمَتِهِ وَمُقْتَضَياتِ طاعَتِهِ،

فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الَّذي ساءَ واحِداً　　فَأَفْعالُهُ اللَّائي سَرَرْنَ أُلُوْفُ

إنْ كانَ المَلِكُ يَتَجاوَزُ عَنْ هذِهِ الهَفَواتِ، وَيَأْمُرُ بِعَيْنِ الكَرَمِ بالإِغْماضِ، لا شَكَّ يَكُوْنُ عارِفاً بِحَقِّ العَبِيْدِ، وَتَصِيْرُ فائِدَةُ البِناءِ على كَمالِ الرَّأْفَةِ حاصِلَةً لِلْمَلِكِ، ثُمَّ جَعَلَ الوَجْهَ للدُّبِّ وَقالَ، أنا سَأَجْعَلُ الاِسْمَ في جَرِيْدَةِ شُفَعاءِ الإِثْباتِ، *مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيْبٌ مِنْها*، أَنْتَ أَيْضاً كُنْ مَعِي أنا داسْتان، مُوافِقاً، ولا تَصِرْ مُتَعَرِّضاً لِصاحِبِ الواقِعَةِ بِفُرْصَةِ الوَقِيْعَةِ، واجْعَلْ مُواساتَكَ مَشْفُوْعَةً بِمَقالي، حَتَّى لا تَبْقى مِنْ أَنْصِباءِ هذِهِ السَّعادَةِ بِلا نَصِيْب، فَإِنَّ صَفْقَةَ حَسَني الفِعالِ ما كانَتْ أَبَداً خاسِرَةً، وَطَمَعُ قَلِيْلي الأَذى ما كانَ البَتَّةَ خائِباً، *إِنَّ اللهَ لا يُضِيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً*، حِيْنَ حَدِيْثُهُما وَصَلَ إلى هذا المَقامِ، قالَ المَلِكُ، أنتُمْ اليَوْمَ ارْجِعُوا، حَتَّى أَنْظُرَ في هذِهِ الحالِ نَظَرَ الإمْعانِ والإِيْقانِ، أنْ ما اللَّائِقُ مُباشَرَتُهُ مِنْ وُجُوْهِ المَصْلَحَة، وَعلى أَيَّةِ جُمْلَةٍ يَسْتَقِرُّ الرَّأْيُ، هُمْ خَرَجُوا مِنْ

عِنْدِهِ، وَدَسْتان ذَهَبَ لِبابِ سِجْنِ القَصْرِ، وَأَوْصَلَ هذا الَّذي جَرى كما جَرى لِسَمْعِ دادَمَه، وَقالَ، الآنَ لا تَأْكُلِ الغَمَّ، فَلَمَعانُ صَباحِ النَّجاحِ يُظْهِرُ الوَجْهَ، وَتَباشِيْرُ البِشْرِ مِنْ أَسارِيْرِ جَبِيْنِ المَلِكِ تَجِيْءُ مُشْعِرَةً بِحُصُوْلِ الغَرَضِ، وَإِذا ما جاءَتْ في الأَمْرِ عُقْدَةُ تَأْخِيْرٍ، وَجاءَتْ مِنْ أَمامِنا عَقَبَةُ عائِقٍ، وَوَجْهُ المُرادِ بِعُذْرٍ بَقِيَ في حِجابِ التَّعَذُّرِ، كذلِكَ لا يَجِبُ جَعْلُ القَلْبِ يَضِيْقُ،

الحالُ وَإِنْ كانَ صارَ أَكْثَرَ ظُلْمَةً　　القَلْبُ في العاقِبَةِ يُضِيْءُ كالنَّهار

ألا تَرى اللَّيْلَ يَصِيْرُ أَكْثَرَ ظَلاماً　　ذَاكَ الوَقْتَ الَّذي يَطْلُعُ بِهِ النَّهار

قالَ دادَمَه، لا أُرِيْدُ أَنَّهُ في أَيَّامِ نَكُوْصِ الحالِ، وَعَدَمِ اتِّساقِ الأَمْرِ، وَنَفاقِ بازارِ نِفاقِ الخَصْمِ، تَقُولُ حَدِيْثِي، وَتَعْمَلُ جُرْأَةَ المُجاهَرَةِ في أَمْري، فَإِنَّ حَدِيْثَ السُّوْءِ في حَقِّ الرَّجُلِ الواقِعِ يَجِيْءُ مُؤَثِّراً، فَتَعْبِيْرُ الأَحْلامِ السَّيِّئَةِ في أَحْوالِ أَصْحابِ المِحْنَةِ، والرَّجُلُ العالِمُ بِوَقْتِ الاِبْتِلاءِ إلى انْجِلاءِ نَجْمِ السَّعادَةِ، مِنْ ظُلْمَةِ كُسُوْفِ الإِدبارِ لا يَرى طاهِراً، وَيَجِبُ أَنْ يَجْلِسَ ثابِتاً بالمَكانِ مِثْلَ القُطْبِ، وَيَنْظُرَ إلى حَرَكَةِ الخَلْقِ شَبِيْهَةِ الطَّاحُوْنِ، أَنْ مَتى تَتَوَقَّفُ عَنِ الدَّوَرانِ بِغَيْرِ المُراد، كما فَعَلَ بُزُورْجَمَهْر مَعَ خَسْرُو، قالَ دَاسْتان، وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ بُزُورجَمَهْر مَعَ خَسْرُو

قالَ دادَمَه، سَمِعْتُ أَنَّ خَسْرو كانَ يَتَمَشَّى بالدَّلالِ يَوْماً مَعَ بوزَرجَمَهْر في بُسْتانِ القَصْرِ، فَجَلَسا على حافَّةِ حَوْضٍ يَنْظُرانِ إلى البَطِّ، كُلُّ بَطَّةٍ كانَتْ على هَيْئَةِ زَوْرَقٍ فِضِّيٍّ، تَعْبُرُ على سَطْحِ بَحْرٍ زِئْبَقِيٍّ، مِثْلَ مَلَّاحٍ بِمَجْدَفَةٍ مِنْ أَصابِعِ القَدَمِ، تَسْحَبُ قالَبَ السَّفِيْنَةِ بالجِوارِ، فَواحِدَةٌ مِثْلَ اللَّاعِبِيْنَ بالماءِ بِتَعْلِيْمِ السِّباحَةِ تَرْمي بالنَّفْسِ عَنْ سُلَّمِ الهَواءِ على سَطْحِ دِجْلَةَ، ثُمَّ تَصِيْرُ نازِلَةً في الماءِ مَنْكُوْسَةً، وَواحِدَةٌ تَغْتَسِلُ غُسْلَ جَنابَةِ السِّفادِ، غَسَلَتْ مِنْ أَخامِصِ القَدَمِ إلى أَعالي السَّاقِ، وَقامَتْ بالمَضْمَضَةِ والاِسْتِنْشاقِ، لِرَفْعِ حَدَثِ المُلامَسَة، وَحِيْناً مِثْلَ الزُّهَّادِ أَلْقَتِ السَّجادَةَ على الماء، وَجاءَتْ بالصَّلاةِ أمامَ خَسْرُو، وَحِيْناً مِثْلَ القَصَّارِيْنَ لِباسُهُمْ مِنَ الماءِ، غَسَلَتِ الجَناحَيْنِ بِقُرْصِ الصَّابُوْنِ، أَطْلَقَتِ الزَّبَدَ، وَتارَةً مِثْلَ زُرَّادِ الدِّرْعِ جَعَلَتِ الغَدِيْرَ على شَكْلِ غَدائِرَ مُعَنْبَرَةٍ كَسَلاسِلَ جَمِيْلَةٍ، تَجْعَلُ الحَلْقَةَ في الحَلْقَةِ، والعُقْدَةَ في العُقْدَةِ، ساعَةً على طَرَفِ ذاكَ الحَوْضِ كانا يَنْظُرانِ إلى مَعْمَلِ القَدَرِ، حَتَّى تِلْكَ الطُّيُوْرُ نَفْسُها بِحَرَكَةٍ مِنْ ثَوْبِ تَمَوُّجِ الماءِ شَبِيْهٍ بالشَّعْرِ بِلَوْنِ السَّماء، أَظْهَرَتْ نَقْشَ كَيْفَ يَكُوْنُ، كُنْ *فَيَكُون*، خَسْرُو كانَ يَمْلِكُ جَوْهَرَةً غالِيَةَ الثَّمَنِ باليَدِ، كانَ يَلْعَبُ بِتِلْكَ في كُلِّ وَقْتٍ، مَرْجانَةٌ لَمْ يَجْعَلِ الخَلْقُ في حُقَّةٍ فَمِ أَيِّ

مَعْشُوْقٍ مِثْلَ تِلْكَ، لُؤلُؤَةٌ لَمْ يَنْظِمِ الزَّمانُ بَطَرَفِ هَدَبِ أَيِّ عاشِقٍ نَظِيْراً لِتِلْكَ، العَيْنُ ما رَأَتْ أَيَّ نَرْجِسَةٍ مِثْلَ تِلْكَ الزَّهْرَةِ، وَما رَبَّى رَحِمُ أَيَّةِ صَدَفَةٍ مِثْلَ تِلْكَ السُّلالَةِ، في اسْتِغْراقِ تِلْكَ الحالَةِ وَقَعَتْ مِنْ يَدِهِ، بَطَّةٌ أَخَذَتْها بالمِنْقارِ وابْتَلَعَتْها، بزورجمهر كانَ يُشاهِدُ، وَكانَ يُخْفي الأَمْرَ، إلى تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتي ذَهَبَ بِها خَسْرُو مِنْ ذلِكَ المَكانِ إلى بَيْتِ خَلْوَتِهِ، وَبزورجمهر جاءَ إلى غُرْفَتِهِ، خَسْرُو تَذَكَّرَ تِلْكَ الجَوْهَرَةَ، أَرْسَلَ مُعْتَمَداً حَتَّى يَطْلُبُوا تِلْكَ بالجِدِّ البَلِيْغِ بِذاكَ المَوْضِعِ، طَلَبَها كَثِيْراً وَلَمْ يَجِدْها، خَسرو في تَغابُنِ تَضْيِيْعِ تِلْكَ كانَ بالخَوْفِ، حَتَّى فَتَحَ حَبْلاً مَمْلُوْءاً مِنْ الجَوْهَرِ مِنْ دَمْعِ عَيْنِهِ، وَأَحْضَرَ بُزُورجمهر وَسَأَلَهُ، إنْ كانَ ذاكَ الدُّرُّ اليَتِيْمُ سَيَجِيْءُ لي باليَدِ، ولا يَجْعَلُ اللهُ مِثْلَ ذاكَ اليَتِيْمِ ضائِعاً، فَأنا أرى حالي على فَواتِ ذاكَ بِأَلَمِ القَلْب، ما حِيْلَةُ هذا العَمَلِ، بُزورجَمَهر بِحُكْمِ أَنَّهُ كَنَ يَعْرِفُ أَنَّ صاحِبَ الطَّالِعِ في ذلِكَ الوَقْتِ كانَ طالِعُهُ مُوْبِلاً، وَأَنَّ نُحُوْسَ الكَواكِبِ كانَ يَنْظُرُ لَهُ بِنَظَرِ العَداوَةِ، فَكَّرَ أَنْ بِما أَنَّ تِلْكَ البَطَّةَ كانَتْ مُشْتَبِهَةً وَسَطَ أَلْفَيْ بَطَّةٍ، فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ الإشارَةُ لِواحِدَةٍ بِعَيْنِها، وَإِنْ قُلْتُ مُجْمَلاً أَنَّهُ في بَطْنِ البَطِّ، أَخْشى مِنْ تَأْثِيْرِ الطَّالِعِ غَيْرِ المُساعِدِ إِصابَةَ الحُكْمِ بالتَّأْخِيْر، حَتَّى يَصِيْرَ كَثِيْرٌ مِنَ البَطِّ مَقْتُولاً، وَإِذا لَمْ يَجِدُوا الجَوْهَرَةَ أَخَذَ خَسْرُو الغَضَبُ، وَجَعَلَني مَنْسُوباً بالجَهْلِ أو بالخِيانَةِ، أمْضى

ذلِكَ اليَوْمَ بالفِكْرِ، وَلَمْ يَقُلْ أَيَّ شَيءٍ حَتَّى إذا نَجْمُ الإِقْبالِ جاءَ خارِجاً مِنَ الوَبالِ، والزَّمانُ صارَ مَعَهُ كما يُرِيْدُ،

السُّمُّ في حَلْقِهِ صارَ سُكَّراً   الحَجَرُ في يَدِهِ صارَ جَوْهَراً

أَسْرَعَ لِخِدْمَةِ كِسْرى، وقالَ كانَ جَوْهَرُ سَيْفِ المَلِكِ دائِماً مُضِيْءَ لَيْلِ حَوادِثِ الأَيَّامِ، اليَوْمَ بِضِياءِ عِزِّ المَلِكِ في مِرْآةِ فِراسَتِهِ رَأَيْتُ هكذا، أَنِ الجَوْهَرَةَ في بَطْنِ واحِدَةٍ مِنْ هذِهِ البَطَّات، فَإِنَّهُنَّ كالغَوَّاصَّاتِ طائِفاتٌ في الحَوْضِ في طَلَبِ الجَوْهَرِ، إذا كانَ المَلِكُ يَأْمُرُ بِقَتْلِ بِضْعِ بَطَّاتٍ، يُمْكِنُ بِثَمَنِ دَمِهِنَّ أَخْذُ هذِهِ الجَوْهَرَةِ مِنَ الزَّمان، بِحُكْمِ الأَمْرِ، مِنْ أَوَّلِ بَطَّةٍ قَطَعُوا رَأْسَها، اسْتَخْرَجُوا الخاتَمَ مِنْ دُرْجِ حَوْصَلَتِها بِرَأْسِ السِّكِّيْن، ثَمَّ وَقَعَ خارِجاً مِنَ الوَسَطِ بِضْعُ قَطَراتٍ مِنَ اللَّعْلِ السَّيَّالِ والياقُوْتِ المُذابِ مِنْ تِلْكَ الجَوْهَرَةِ مِثْلَ قَطْرَةِ الماءِ، في ذاكَ العَجَبِ مِنْ بزورجمهر سَأَلَهُ، أنْ لِماذا لَمْ تَقُلْ هذا أَسْرَعَ، قالَ لَمْ أَرَ طالَعَ السَّعادَةِ على سَبِيْلِ المُساعَدَةِ، فَكَّرْتُ أَنْ إذا قُلْتُ، مُشَعْبِذُ هذِهِ الحِقاقِ الفَيْرُوْزِيَّةِ السَّبْعِ، يَخْلِطُ هذِهِ الجَوْهَرَةَ مَعَ عَقِيْقِ النَّهارِ وَشَبَهِ اللَّيْلِ، وَيَجْعَلُها مَخْفِيَّةً عَنْ أَنْظارِ الأَوْهامِ، وبالسِّحْرِ يُخْرِجُها مِنْ تَحْتِ يَدِ التَّصَرُّفِ، فالعَقْلُ ماهِرُ الفِكْرِ وَحادُّ النَّظَرِ لا يَقْدِرُ يَحْصَلُ على تِلْكَ أَبَداً، اليَوْمَ إِذْ وَجَدْتُ الدَّوْلَةَ مُعاوِنَةً للشَّاهِ، والأَيَّامَ مُوافِقَةً، قُلْتُ، وَهكذا جاءَتْ، *وَقَدْ يُوافِقُ بَعْضَ المُنْيَةِ*

القَدَرا، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى لا تَسْعى بالعَبَثِ مِنْ أَجْلِي، فَكُلُّ حَدِيْثٍ في خِدْمَةِ المُلُوْكِ تَقْرِيْرُهُ مُمْكِنٌ في وَقْتٍ خاصٍّ، قالَ داسْتان، تَأْثِيْرُ الحَدِيْثِ في النُّفُوْسِ الإِنْسانِيَّةِ كانَ بِحَسَبِ الاِعْتِقاد، حِيْنَ أنا أَنْظُرُ في قَلْبِ المَلِكِ وَأَرى أَنَّ قَصْدَهُ كانَ مَعِي مِنْ عِنايَةٍ، *تَعارَضا فَتَساقَطا*، كَفَّةُ مَقْصُوْدِي مِنْ مِيْزانِ التَّجْرِبَةِ لا تَكُوْنُ راجِحَةً ولا مَرْجُوْحَةً، *وَكانَ كَفافاً لا عَلَـيَّ وَلا لِيا*، وَإِذا كانَ لا يَزالُ على صَلابَةِ الحالِ الأولى، فَبالأَحادِيْثِ المُلَيِّنَةِ، والمَقالاتِ المَعْسُوْلَةِ المُبَيِّنَةِ، إِنْ هُوَ لَمْ يَصِرْ لَيِّناً فَهُوَ لَنْ يَزِيْدَ بالشِّدَّةِ، اليَوْمُ الآخَرُ حِيْنَ هذا اليُوْسُفُ بالوَجْهِ عُلْوِيُّ الأَصْلِ، الَّذي كانَ يَرى القَمَرَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَعَ الكَواكِبِ الأُخْرى مِنْ أَجْلِ الاِقْتِباسِ مِنْ نُوْرِهِ في سَجْدَةِ التَّقَرُّبِ لَهُ، تارَةً بَهاءُ جَمالِهِ يَصِيْرُ بالاِنْخِفاضِ بالمِيْزان، وَتارَةً دَرَجَةُ كمالِهِ تَظْهَرُ بالاِرْتِفاعِ بالدَّلْو، يُطْلِعُ الرَّأْسَ مِنْ بِئْرِ سِجْنِ بَيْتِ الظُّلْمَةِ، داسْتان مِنْ بابِ السِّجْنِ باسْتِخْلاصِ دادَمَه، ذَهَبَ بالخِدْمَةِ بِعَتَبَةِ المِلِكِ، وَطَبَعَ قُبْلَةً على أَرْضِ الخِدْمَةِ، وَرَفَعَ يَدَ الدُّعاءِ للسَّماءِ وَقالَ، *الصَّادِقُ يُرامُ إِذا وَعَدَ، والبارِقُ يُشامُ إِذا رَعَدَ*، يَوْمَ أَمْسِ إِذْ أنا العَبْدُ جَدَّدْتُ الحَدِيْثَ عَنْ ذاكَ العَبْدِ القَدِيْمِ في الخِدْمَةِ، وَجَدْتُ مِنْ نَضارَةِ وَجْهِ المَلِكِ دَلِيْلاً واضِحاً لِلْعَفْوِ عَنْهُ، عَسى هذا اليَوْمَ يُوْصِلُ ذاكَ الرَّجاءَ بالوَفاء، وَيَجْعَلُ حَقَّ عُبُوْدِيَّتِهِ مِنْ ذِمَّةِ كَرَمِهِ مُوَفَّىً، فَيَكُوْنُ أَمَرَ بالإِحْياءِ لِسُنَّةِ كِرامِ الأَسْلاف، وَأَوْصَلَ صِيْتَ كَرَمِ الأَعْراقِ وَلُطْفَ الأَخلاقِ لِأَطْرافِ

الآفاق، وَجَعَلَ المَسامِعَ والمَجامِعَ مُطَيَّبَةً بِنَشْرِ مَحامِدِ الأوْصاف، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الواسِطَةُ لِذَنْبِ المُجْرِمِيْنَ، مِنْ أَيْنَ كانَتْ تَجِيْءُ ظاهِرَةً فَضِيْلَةُ العَفْوِ،

لَولا اشْتِعالُ النَّارِ فِيْما جاوَرَتْ　　ما كانَ يُعْرَفُ طِيْبُ عَرْفِ العُوْدِ

وَسَعِدَتْ رُوْحُ ذاكَ الشَّخْصِ الَّذي قالَ،

الزَّيْتُ المِصْرِيُّ وَالمِسْكُ التَّبِتِي في الوَقْتَيْنِ
أَيْضاً مُزَكِّيانِ للشِّبَعِ وَأَيْضاً مُعرِّفانِ للدَّواء

الدُّبُّ حِيْنَ سَمِعَ هذا، أَطْلَعَتْ نائِرَةُ البُغْضِ مِنْ داخِلِهِ شُعْلَةً، وَشَرَعَ بِإِلْقاءِ قارُوْرَةِ القَدْحِ في مَقالِ داسْتان، وَقالَ، كُلُّ مَنْ عَرِفَ ذَنْبَ الرَّعِيَّةِ صَغِيْراً، لَمْ يَعْرِفْ عَفْوَ المَلِكِ كَبِيْراً، وَكُلُّ مَنْ عَدَّ المُذْنِبَ بَرِيْءَ السَّاحَةِ، لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ تَجاوُزِ الشَّاه. هذِهِ الوَقاحَةُ مِنْهُ جاءَتْ جِدَّ مُنْكَرَةٍ لِلمَلِك.، قالَ الملِكُ، لَيْسَتْ بِأَوَّلِ قارُوْرَةٍ كُسِرَتْ، التَّقْصِيْرُ وَالغَرامَةُ والذَّنْبُ والنَّدامَةُ، تَجِيْءُ جَمِيْعاً بالطَّرِيْقِ مِنَ المَحْكُوْمِيْن، ويَجِيْءُ القَبُولُ والإجابَةُ جَمِيْعاً مِنَ الكِبارِ المُسْتَقْبِلِيْنَ لِذاكَ، الإِصْرارُ لَيْسَ شَرْطاً، حَدِيْثُكَ بالنِّزاعِ والدِّفاعِ يَنْتَهي بالتَّطْوِيْل، وَمَجالُ التَّطَوُّلِ يَصِيْرُ ضَيِّقاً، وما دامَ الحَدِيْثُ لَمْ يَذْهَبْ في حِجابِ الخَجَلِ والحَياء، بَقِيَ وَجْهُ حَقِيْقَةِ الأَعْمالِ مَسْتُوراً بالغَرَض، وَنارُ الحَسَدِ مِنْ بَواطِنِكُما

سَرَتْ بِبَيْدَرِ وَدَوْلَةِ المَلِكِ، وَمِنْ تَعادِيْكُما وَتَناصِيْكُما بالغَرَضِ الخاصِّ سَرِيْعاً يَكُونُ أَنْ تَصِلَ الفِتْنَةُ العامَّةُ لِأداني وَأَقاصي الوِلايَة، داستانَ رَغْمَ أَنَّهُ في هذِهِ الفُصُوْلِ يَحْفَظُ جانِبَ الأَصْدِقاء، وَتِلْكَ مِنْ أَرْضى خِصالِ وَأَشْرَفِ خِلالِ الخَلْق، ولكِنَّهُ مِنْ هذِهِ المَعاني يَطْلُبُ اقْتِناءَ ذَخائِرِ حُسْنِ الاِسْمِ، واجْتِناءَ ثَمَراتِ حُسْنِ حِفاظِنا، فَإِنَّهُ إِذا كَانَ بِكُلِّ خَطِيْئَةٍ تَجِيْءُ في سُلُوكِ الخَدَمِ، يَجِيْئُونَ مُطالَبِيْنَ وَمُعاقَبِيْنَ، يَرْتَفِعُ رَسْمُ خادِمِ المَخْدُوْمِ مِنَ العالَمِ،

فَلَوْ أَخَذَ اللهُ العِبادَ بِذَنْبِهِمْ　　　أَعَدَّ لَهُم في كُلِّ يَوْمٍ جَهَنَّما

ولا شُبْهَةَ في أَنَّ الغَرَضَ لَكَ مِنْ مُوْحِشاتِ هذِهِ الكَلِماتِ في بابِ دادَمَهْ، هُوَ أَلَّا يَضَعَ القَدَمَ في طَرِيْقِ الجُرْأَةِ إِلَّا بِحُسْنِ الأَدَبِ طَوائِفُ الخَدَمِ الآَخَرِيْنَ، وَأَلَّا يُظْهِرُوا الجُرْأَةَ على ارْتِكابِ الجَرائِمِ، وَأَنْ يَسْحَبُوا وَيَحْفَظُوا اللِّسانَ مِنْ طَلَبِ المَعائِبِ، إِذْ نَفْسُ الآَدَمِيِّ مَنْبَعُ وَمَنْشَأُ ذاكَ، الآنَ يَجِبُ لَكَ الاِبْتِعادُ عَنِ المُشاحَنَةِ والمُداهَنَةِ، والتَّبْصِيْصِ والنِّفاقِ والمُراوَغَةِ، وَتَرْكُ طَلَبِ العَيْبِ أَيْضاً، وَمَعْرِفَةُ الحَقِيْقَةِ، أنْ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِدَوْرِ الأَفْلاكِ وَسَيْرِ الأَنْجُمِ بِما لَها مِنْ اخْتِلافِ الرُّجُوْعِ والاِسْتِقامَةِ، اتِّفاقٌ آَخَرُ، وَلَوْ لَمْ تَجِئْ طَبَائِعُ الأَرْكانِ مَعَ كُلِّ المُضادَّةِ بِعَمَلِ التَّرْكِيْبِ وَتَداخُلِ الأَجْزاءِ في الوَسَطِ، لَمْ يَكُنْ قَلَمُ المُشْتَرِي وَعُطارِدِ بِلِسانٍ واحِدٍ، وَلَمْ يُجْمَعْ سَيْفُ الشَّمْسِ والمَرِيْخِ بِغِلافٍ واحِدٍ،

وما وَضَعَ الماءُ مَعَ التُّرابِ اليَدَ في عُنُقِ المُوافَقَة، وَلَمْ يُمْسِكِ الهَواءُ بِحَمائِلِ مُجاوَرَةِ النّار، وَما كانَتْ صَنْعَةُ الخَلْقِ وَصَلَتْ للتَّمام، وما انتَظَمَ نَظْمُ سِلْكِ هذا النِّظام، وَما قَبِلَ صَحْنُ هذا الرِّباطِ السُّفْلِيِّ، وَسَقْفُ هذا السّاباطِ العُلْوِيِّ العِمارَةَ، وَكَذلِكَ جاءَ في نَفْيِ الشِّرْكِ وَإِثْباتِ الوَحْدانِيَّةِ، *لَوْ كانَ فِيْهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا* ، الدُّبُّ حِيْنَ رَأى عِنايَةَ المَلِكِ مَعَ دادَمَه على هذا العِيارِ، صارَ نادِماً مِنْ كُلِّ ما كانَ قالَ، وَفَرَكَ أُذُنَ غَرامَةِ الطَّبْعِ، وَعَضَّ على إِصْبَعِ نَدامَةِ العَقْلِ، وَجاءَ بِلَوْنِ التَّسْلِيْمِ لِمَقالِ المَلِك، وَأَظْهَرَ مِنَ النَّفْسِ الإِسْتِسْلامَ، وَصارَ مَشْغُولاً بِتَصْوِيْبِ وَتَذْنِيْبِ الحَدِيْث، وَفي حِجابِ لَعِبِ الخَجِلِ نَهَضَ مِنْ أَمامِ المَلِك، وَذَهَبَ إلى البَيْتِ وَجَلَسَ مُتَفَكِّراً وَمَغْمُوْماً، مِنْ جِهَةِ خلاصِ دادَمَه، كما مِنْ جِهَةِ تجاسُرِهِ في قَصْدِهِ، وَإِظْهارِهِ العَداوَةَ لَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ إِلْقاءَ سِرِّ ضَمِيْرِهِ مِنْ حِجابِ الكِتْمانِ لِلْخارِجِ بِذاكَ الوَجْهِ كانَ ضَرْبَةً غَيْرَ مُوَفَّقَةٍ، وَذاكَ السَّهْمُ مِنْ قَبْضَةِ الكِفايَةِ ذَهَبَ خَطَأً، قالَ لِلْنَّفْسِ، إِذا مِنْ بَعْدِ هذِهِ المُكاشَحَةِ قَرَعْتُ بابَ المُصالَحَةِ يَكُونُ اضْطِرارٌ مُغَطَّىً بِلِباسِ الاِخْتِيار، وَتَمَحُّلٌ بالطَّبْعِ جِيْءَ بِهِ بالتَّكَلُّفِ، وَتَكَحُّلٌ أُظْهِرَ مِنْ عَيْنِ الرِّضا، مِنْ أَيَّةِ طَرِيْقٍ يُمْكِنُ تَدارُكُ هذِهِ الواقِعَةِ، في مُضْطَرَبِ هذِهِ الحالِ، أَرْنَبٌ باسْمِ فُرَّخ زاد، كانَ يَدْعُوْهُ الصَّدِيْقَ والأخ، كانَ مَشْهُوْراً بِفَطانَةِ الذِّهْنِ وَرَزانَةِ الرَّأْيِ، وَبِمَعْرِفَةِ العَمَلِ وَبُعْدِ النَّظَرِ، كانَ وَزِيْرَ وَمُرْشِدَ الأَصْدِقاءِ والأَصْحابِ بِوُقُوْعِ

الأَمْرِ مِنْ أَبْناءِ جِنْسِهِ، اِبْنُ بَجْدَةَ الرُّشْدِ والكَياسَةِ بالطَّبْعِ، جاءَ كُلُّ الحَدَسِ والفَراسَةِ فَجْأَةً مِنْ بابِهِ، رَآهُ بِتِلْكَ الصِّفَةِ مُضْطَرِباً، وَوَجَدَهُ في نارِ الهَمِّ مُلْتَهِباً، سَأَلَ أَنْ هذا التَّوَحُّشُ والتَّشَوُّشُ وَعْقْدَةُ التَّعَبُّسِ على الجَبِيْنِ ما يَكُوْنُ، الدُّبُّ وَضَعَ كَيْفِيَّةَ الحالِ في الوَسَطِ، وَأَخْرَجَ مِنَ القَلْبِ نَفْثَةَ المَصْدُوْرِ الَّتي تَكُونُ مِنْ وَدائِعِ صُدُورِ الأَحْرارِ، وَساقَ الحِكايَةَ عَنْ كُلِّ ما كانَ جَرى، فُرَّخ زاد قالَ، كُلُّ مَنْ لَمْ يَنْظُرْ في جامِ العَقْلِ مُظْهِرِ الدُّنيا، نِهايَةَ الأَعْمالِ، وَلَمْ يَجِئْ بالذِّكْرِ في مَطْلَعِ الفِكْرِ عَنِ المَخْلَصِ، كانَ دائِماً مُشَتَّتَ القَلْبِ وَحَائِرَ الرَّأْسِ وَغَيْرَ مُتَّسِقِ الأَمْرِ، وَما وَقَعَ حَسَناً، أنتَ ظَنَنْتَ أَنَّ رَأْيَ المَلِكِ مَعَ دادَمَه قَبِلَ مِثْلَ ذاكَ التَّغَيُّرِ الَّذي يُجْلِسُ وَقِيْعَتَكَ في مَوْقِعِ القَبُوْل، وَأَنَّهُ وَقَعَ الوَقْعَةَ الَّتي لا يُمْكِنُ أَنْ يَنْهَضَ مِنْها أَبَداً، هَيْهاتَ *اسْتَسْمَنْتَ الوَرَم، وَنَفَخْتَ في غَيْرِ ضَرَم*، وَما مِنْ حَسْرَةٍ وَراءَ تِلْكَ الَّتي تَصِلُ مِنْ فِعْلِ النَّفْسِ لِلإِنْسان، الرَّجُلُ حَسَنُ الرَّأْيِ طاهِرُ الفِكْرَةِ ذَكِيُّ القَلْبِ سَلِيْمُ الفِطْرَةِ، ما لَمْ يَرَ اشْتِمالَ الحَدِيْثِ على المَنْفَعَةِ المَحْضَةِ، يَكُوْنُ مُجْتَنِباً لِلْقَوْلِ، وَإِذا عَلِمَ في الحَدِيْثِ مَضَرَّةً مُمْكِنَةَ الوُقُوْعِ، عَرِفَ الكَوْنَ مُمْتَنِعاً عَنْ ذاكَ واجِباً، وما لَمْ تَكُنِ الضَّرُوْرَةُ حامِلاً، لَمْ يُلْقِ النَّفْسَ في تَحَمُّلِ أَعْباءِ ذاكَ الحَدِيْث، *مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيْه*، والعاقِلُ ما اسْتَطاعَ لا يَخْتارُ العَداوَةَ على المَحَبَّةِ، ولا يَعْمَلُ تَرْجِيْحَ الغُرْبَةِ على الصَّداقَةَ، وقالُوا كَذلِكَ يَجِبُ أَنْ يُتَعامَلَ مَعَ العَدُوِّ،

مِثْلَ كُرَةٍ مِنَ البِلَّوْرِ تُوْضَعُ في الحُقَّةِ، وَفِيْ كُلِّ وَقْتٍ تُخْرَجُ لِلْخارِجِ وَتُغْسَلُ طاهِرَةً، وَمَهْما جَعَلُوا ذاكَ بالاِحْتِياطِ وَعامَلُوْهُ عَزِيْزاً وَجَعَلُوا لَهُ المَكانَ، يَجِيْئُونَ بِهِ يَوْماً إلى مَكانٍ بِهِ الصَّخْرُ الصَّلْدُ الأَصَمُّ لِيَضْرِبُوهُ بِذاكَ الصَّخْر، وَيَجْعَلُوْهُ مُكَسَّراً، بِحَيْثُ لا يَكُونُ إِمْكانٌ لِتَرْكِيْبِ وَتَأْلِيْفِ أَجْزاءِ ذاكَ، وَكُلُّ مَنْ سَحَبَ عِنانَ مَرْكُوْبِ الهَوى، وَوَضَعَ القَدَمَ مُحْكَماً في رِكابِ الصَّبْر، يَجِيْءُ لَهُ في العاقِبَةِ السُّرُوْرُ والنَّشاطُ في عِنانٍ واحِدٍ، مِثْلَما وَقَعَ لِذاكَ الرَّجُلِ التَّاجِرِ مَعَ زَوْجَتِهِ، الدُّبُّ قالَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الرَّجُلِ التَّاجِرِ مَعَ زَوْجَتِهِ

فُرَّخ زاد قالَ، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ في بَلْخَ تاجِرٌ صاحِبُ ثَرْوَةٍ، فَمِنْ كَثْرَةِ نُقُوْدِ خَزائِنِهِ كانَ يَعْمَلُ المُكاثَرَةَ مَعَ مَخازِنِ البَحْرِ وَمَعادِنِ البَرّ، حِيْنَ انْقَضَتْ مُدَّةٌ، حالُهُ رَجِعَ عَنْ قَرارِهِ، وَجاءَ بالوَجْهِ بالتَّراجُعِ، وَفِيْ تَتابُعِ أَحْداثِ الزَّمانِ، نَثَرَ رُقْعَةَ مَوْرُوْثِهِ وَمُكْتَسَبِهِ، وَصارَ في عَيْنِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْدِقائِهِ وَأَوْلادِهِ حَقِيْراً وَبِلا جاهٍ وَمِقْدارٍ، يَوْماً جَعَلَ عَزْمَ المُهاجَرَةِ عَنِ الوَطَنِ صَحِيْحاً، وَداعِيَةُ الفَقْرِ والفاقَةِ سَحَبَ زِمامَ ناقَةِ نَهْضَتِهِ صَوْبَ مَقْصَدٍ بَعِيْدِ المَنال، وَذَهَبَ إلى مَدِيْنَةٍ في أَقْصى دِيارِ المَغْرِبِ، وَحَصَلَ على رَأْسِ مالِ تِجارَةٍ باليَد، إلى أَنْ مَرَّةً أُخْرى جاءَ راجِعاً لَهُ الزَّمانُ الَّذي مَضى، والبَخْتُ الَّذي نَفَرَ، وَمِنَ النِّعَمِ الوافِرَةِ

وَصَلَ بالحَظِّ المَوْفُورِ، فَجاءَتْ بِنَظَرِهِ دواعي مُراجَعَتِهِ للدِّيارِ وَمَنْشَأِ النَّفْسِ،

مَلأْتُ يَدي فاشْتَقْتُ والشَّوْقُ عادَةٌ لِكُلِّ غَرِيْبٍ زالَ عَنْ يَدِهِ الفَقْرُ

قالَ مَعَ النَّفْس، قَبْلَ هذا لَمْ يَكُنْ وَجْهٌ لِجَعْلِ الوَجْهِ لِلْوَطَنِ، لَكِنِ الآنَ وَقَدِ ارْتَفَعَتِ المَوانِعُ مِنَ الطَّرِيْق، الرَّأْيُ هُوَ أَنْ أَجْعَلَ الوَجْهَ لِمَدِيْنَتي، وَأَنْ أَرى مِنْ جَدِيْدٍ زَوْجَتي الَّتي كانَتْ في حُبالَةِ حُكْمي، هَلْ هِيَ باقِيَةٌ على خَتْمِ صِيانَةِ النَّفْسِ، أَمْ لا، أمَّا أَنْ أَذْهَبَ مَعَ العُدَّةِ والأَسْبابِ والمَمَالِيكِ والدَّوابِّ والأَثْقالِ والأَحْمالِ، فَذاكَ شَبِيْهٌ بِحارِسِ شَجَرَةٍ صارَتْ نامِيَةً وَجاءَتْ مُثْمِرَةً، اقْتَلَعَها مِنْ جَذْرِها وَغَرَسَها في مَكانٍ آَخَرٍ، فَإِنَّ نَماءَ تِلْكَ لا يَمْلِكُ الإِمْكانَ، ولا تَقْبَلُ التَّرْشِيْحَ والتَّرْبِيَةَ ولا تَأْخُذُ المَكانَ، *كَدابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الأَدِيْمُ*، إِذَنْ فالأَوْلى أَنْ أَذْهَبَ وَحِيْداً وَبِلا عَلائِق، وَأَنْظُرَ أَنِ الأَمْرُ على أَيِّ طِرازٍ، وَماذا يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَ، أَخَذَ الطَّرِيْقَ وَجاءَ إِلى أَنْ وَصَلَ إِلى مَدِيْنَتِهِ، صَبَرَ حَوالَي المَدِيْنَةِ إِلى أَنْ تَخَضَّبَتْ مَفارِقُ الآفاقِ بِسَوادِ اللَّيْل، ذَهَبَ داخِلَ المَدِيْنَةِ مُتَنَكِّراً في حَجابِ الظُّلْمَةِ، وَحِيْنَ وَصَلَ إِلى بابِ بَيْتِهِ رأى البابَ مُغْلَقاً، ذَهَبَ على السَّطْحِ مِنْ طَرِيْقٍ كانَ يَعْرِفُها، وَصارَ يَنْظُرُ مِنْ مَنْفَذٍ، رَأى زَوْجَتَهُ نائِمَةً مَعَ شابٍّ آخَرَ في ثَوْبِ نَوْمٍ واحِدٍ، وَقَعَتْ لِلرَّجُلِ رَعْدَةُ الحَمِيَّةِ والأَبِيَّةِ في الأَعْضاءِ والجَوارِحِ، وَوَصَلَتْ إِلى

داخِلِ قَلْبِهِ جِراحَةٌ شَدِيْدَةٌ مِنْ مُطالَعَةِ تِلْكَ الحال، أرادَ أَنْ يَسْتَلَّ سِكِّيْناً وَيَنْزِلَ وَيَجْعَلَ مِنْ دَمِ الاِثْنَيْنِ مَعْجُوْنَ مَرْهَمٍ مِنْ أَجْلِ جِراحَتِهِ، مُجَدَّداً أَمْسَكَ عِنانَ التَّعَنُّتِ بِيَدِ الكِفايَةِ، قالَ أَنْ أَجْعَلَ مِنِّي مَأْمُوراً للنَّفْسِ لَيْسَ شَرْطُ العَقْل، عَلَيَّ أَنْ أَصِيْرَ أَوّلاً مَشْغُولاً بِتَحْقِيْقِ هذِهِ الحالِ، رُبَّما مِنْ طُوْلِ عَهْدِ غَيْبَتي كانَ أُعْطِيَ خَبَرُ وَفاتي، وقاضِي الوَقْتِ، بِقِلَّةِ ذاتِ اليَدِ وَعِلَّةِ إِعْسارِ النَّفَقَةِ، أَمَرَ بالنِّكاحِ مِنْ زَوْجٍ آخَر، مِنْ ذلِكَ المَكانِ نَزَلَ لِأَسْفَلَ وَقَرَعَ الحَلْقَةَ على بابِ الجارِ، فَتَحُوا البابَ وَهُوَ دَخَلَ وَقالَ، أنا رَجُلٌ غَرِيْبٌ وَهذِهِ اللَّحْظَةَ وَصَلْتُ مِنْ طَرِيْقٍ بَعِيْدٍ، هذا البَيْتُ مَقْفُوْلُ البابِ كانَ يَمْلِكُهُ رَجُلٌ تاجِرٌ، كانَ غَنِيّاً جِدّاً وَمُكْرِماً للدَّرْوِيْشِ ومُواسِياً لِلغَرِيْب، وَفِيْ كُلِّ وَقْتٍ كُنْتُ أَجْعَلُ النُّزُوْلَ هُنا، أَيْنَ هُوَ وَما هِيَ حالُهُ، الجَارُ ذَكَرَ واقِعَةَ الحالِ وَقَدْ كانَتْ كما فَكَّرَ، أعادَ قِراءَةَ النَّقْشِ المَنْقُوشِ لَهِ مِنْ لَوْحِ التَّقْدِيْر، شَكَرَ إِيْزَدْ تَعالى عَلى عَمَلِ الصَّبْرِ، وَقالَ الحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّ وَبالَ هَذِهِ الفِعالِ السَّيِّئَةِ مِنَ القُوَّةِ لَمْ يَنْتَهِ بالفِعْلِ، وَعِقالُ العَقْلِ جَعَلَ يَدَ تَصرُّفِ الطَّبْعِ مُقَيَّدَةً، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، لِتَعْلَمَ أَنَّ العَجَلَةَ مِنْ فِعْلِ الشَّيْطان، وَعَدَمَ الصَّبْرِ مِنْ بابِ الجَهْلِ، الدُّبُّ قالَ، إِنَّهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَذْهَبَ الأَمْرُ خارِجاً عَنْ حَدِّ التَّدارُكِ، يَجِبُ طَلَبُ الخُرُوْجِ مِنْ ذاكَ، فلا مَجالَ للتَّأْخِيْرِ والتَّعَلُّلِ، قالَ فُرَّخ زاد، إِنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ أنْ تَدْخُلَ مَعَ دادَمَه مِنْ بابِ المُصالَحَةِ، وَأَنْ تَتْرُكَ المُكاشَحَة، وَأَنْ تَجِيْءَ بِنَفْضِ

غُبارِ التُّهْمَةِ بِخَفْضِ جَناحِ الذِّلَّةِ، وباسْتِمالَةِ الخاطِرِ، وَأَنْ تَصِيْرَ مَشْغُوْلاً بالاِسْتِقالَةِ مِنْ فَسادِ ذاتِ البَيْنِ الحاصِلَ في الجانِبَيْن، الدُّبُّ قالَ، كُلُّ ما تَأْمُرُ بِهِ مُتَّبَعٌ، ولا اعْتِراضَ على ذاكَ، فُرَّخ زاد ذَهَبَ مِنْ هُناكَ لِمَنْزِلِ داستان، وَواساهُ مِنْ أَلَمِ القَلْبِ الَّذي كانَ وَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ دادَمَه، وَجَعَلَ مُكَرَّراً بِضْعَ أَحادِيْثَ جَمِيْلَةً وَقَبِيْحَةً وَلَطِيْفَةً وَشَدِيْدَةً، مِنْ مُثِيْرٍ لِلْوَحشَة، وَمِنْ مَمْزُوْجٍ بالأُلْفَة، مِمَّا كانَ جَرى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّبِّ، وَمِنْ جِهَةِ كِلا الاِثْنَيْنِ بالعُذْرِ والعِتابِ، وَضَعَ في الوَسَطِ لَطائِفَ مَعانٍ أَكْثَرَ عُذُوْبَةً مِنَ السُّكَّر، وَنِكاتٍ جَعَلَها باللِّسانِ المَعْسُولِ مِثْلَ اللَّوْزِ المُكَسَّر، وَأَخَذَ اللُّبابَ لِلْخارِجِ جَمِيْعاً، وَأَظْهَرَ في كُلِّ بابٍ المُكْنَةَ الَّتي تَكُوْنُ لِذَوِي الأَلْبابِ في تَزيِيْنِ الحَدِيْثِ، وَأَعَدَّ مَعْجُوْناً، رَغْمَ أَنَّهُ نَزَلَ بِصُعُوْبَةٍ في حَلْقِ الدُّبِّ، فَإِنَّهُ آخِراً أَعادَ مِزاجَ حالِهِ للصَّلاحِ مَعَ دادَمَه، ثُمَّ مِنْ هُناكَ ذَهَبَ لِبابِ السِّجْنِ، وَأَعْطى المُؤانَسَةَ ساعَةً لِدادَمَه، بِلَطائِفِ التَّحايا والسُّؤالِ عَنْ واقِعَةِ الأَحْوالِ، وَقالَ، إنْ كُنْتُ لَمْ أَجِئْ لِغايَةِ الوَقْتِ لِلْخِدْمَةِ فَسَبَبُ ذاكَ كانَ أَنَّ رُؤْيَةَ الأَصْدِقاءِ في قَيْدِ البَلاءِ، وَأَنْ تَجِدَهُمْ أُسارى في حَبْسِ الآفَةِ، وَلَيْسَ لِمَجالِ الوُسْعِ المُتَّسَعُ لِتَقْدِرَ تَضَعُ القَدَمَ بِسَعْيِ الاِسْتِخْلاصِ اللَّائِقِ، عَرِفْتُ ذاكَ أَمْراً صَعْباً، لكِنِ الكُلُّ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْ صفاءِ النِّيَّةِ وَصَرْفِ الهِمَّةِ في سَبِيْلِكَ لَمْ أَكُنْ خالِياً أَبَداً، وَلَمَّا كانَتِ اليَدُ لا تَصِلُ إِلَّا للدُّعاءِ فَقَدْ أَبْقَيْتُها مَرْفُوْعَةً بالدُّعاءِ للهِ تَعالى، وَما تَرَكْتُ شَعْرَةً واحِدَةً

مِنْ دَقائِقِ الإخلاصِ ظاهِراً وَباطِناً، وَها هُوَ مَخْلَصُ صُبْحِ الأَمَلِ أَعْطى النُّوْرَ بِهِمَّةِ الأَصْدِقاءِ، وَمُساعَدَةُ البَخْتِ أَلْقَتِ الظِّلَّ، والمَلِكُ جاءَ بالعَفْوِ، أنتَ لا تَكُنْ ضَيِّقَ القَلْبِ بإِصابَةِ هذا المَكْرُوْه، فَمِنْ هذِهِ الحادِثَةِ لَمْ يَجْلِسْ على دِثارِ وَشِعارِ أَحْوالِكَ غُبارُ العار،

فَلا تَجْزَعَنْ لِلْكَبْلِ مَسَّكَ وَقْعُها   فإِنَّ خَلاخِيْلَ الرِّجالِ كُبُوْلُ

وَقالُوا، الآفَةُ إِذا وَصَلَتْ لِلْمالِ كُنْ شاكِراً حَتَّى لا تَصِلَ لِلْبَدَنِ، وَإِنْ وَصَلَتْ لِلْبَدَنِ كُنْ شاكِراً حَتَّى لا تَصِلَ للرُّوْح، *فَإِنَّ في الشَّرِّ خِياراً*، قالَ دادَمَه، عُقُوْبَةُ المُسْتَعْقِبِ جِنايَةٌ، والجانِي مُسْتَحِقُّ العُقُوْبَة، وَكُلُّ مَنْ يَعْمَلُ التَّكَبُّرَ والاِسْتِبْدادَ بالحَياةِ، وَيُدِيْرُ الوَجْهَ عَنِ اسْتِمْدادِ مُشاوَرَةِ المُشْفِقِيْنَ النَّاصِحِيْنَ والرُّفَقاءِ الصَّالِحِيْنَ، لا يَجْلِبُ لَهُ الزَّمانُ إِلَّا الخَيْبَةَ أَمامَهُ، قالَ فُرَّخ زاد، إِذا كانَ الدُّبُّ في خِدْمَةِ المَلِكِ ساقَ بِضْعَ كَلِماتٍ غَيْرَ مُوافِقاتٍ عَنْ رَأْيِنا، لا يَجْبُ أَنْ تَعْرِفَها مَمْزُوْجَةً بالغَرَضِ، فالمَقْصُوْدُ مِنْ ذاكَ لَيْسَ غَيْرَ اسْتِعْمالِ الرَّأْيِ على وِفْقِ المَصْلَحَةِ، والاِسْتِرْسالِ مَعَ طَبْعِ المَلِكِ الَّذي هُوَ مِنْ واجِباتِ أَحْوالِهِ، وَحِيْنَ رَآهُ الدُّبُّ مُتَغَيِّراً، وَمِنْ جِهَتِكَ مُتَنَفِّراً، لَوْ كانَتْ بِمُناقَضَةِ وَمُعارَضَةِ قَوْلِهِ ذَهَبَتْ مُقاوَلَةٌ، لَكانَتْ بَعِيْدَةً عَنْ قَضِيَّةِ العَقْلِ، وَلِأُسْلُوْبِ قَوْلِ الحَدِيْثِ مَعَ المَلِكِ طَرِيْقٌ خاصٌّ، وَنَسَقٌ مُنْفَصِلٌ، وَلِمجارِي تِلْكَ المُكالَمَةِ، حَتَّى وَلَوْ أَنَّ اللِّسانَ الجارِيَ، والقَلْبَ

المُجْتَرِئَ، كانا مُعِيْناً، يَجِبُ الأوانُ لِتَمْشِيَةِ الأَمْرِ، خاصَّةً على خِلافِ إرادَتِهِ، والتَّماشي مَعَهُ قَلِيْلاً، والكَيْلُ بِصاعِهِ أَيْضاً، وَلَوْ صارَ كُلُّهُ الهَواءَ، *وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ*، إشارَةٌ لِمِثْلِ هذا المَقام، حَتَّى إذا جَلَسَتْ سَوْرَةُ غَضَبِ المَلِكِ، وَمِنْ ذاكَ الَّذي كانَ، صارَ أَكْثَرَ ارْتِياحاً، أَجْرى الكَلِمَةَ الَّتي كانَتْ لائِقَةً بالسِّيْرَةِ الحَمِيْدَةِ، والأَخْلاقِ الكَرِيْمَةِ على اللِّسانِ، وَأَنْ يَحْفَظَ مَرْعِيَّةً في الحَضْرَةِ شَرائِطَ حِفْظِ الغَيْبِ، الَّتي تَنْهَضُ مِنْ قَضايا الفُتُوَّةِ والمُرُوْءَةِ، في كُسْوَةٍ مُزَيَّنَةٍ وَحِلْيَةٍ لائِقَةٍ، وَيَجِبُ أَنْ يَجِيْءَ مُسْتَدْعِياً مَزِيْدَ الشَّفَقَةِ والمَرْحَمَةِ، لِيَجْعَلَ ساحَةَ الصَّدْرِ مُطَهَّرَةً مِنْ غُبارِ العَداوَةِ والحِقْدِ، وَيُبْعِدَ قاذُوْراتِ الكُدُوْراتِ عَنْ مَشْرَعِ المُعامَلَةِ،

اِقْبَلْ مَعاذِيْرَ مَنْ يَأْتِيْكَ مُعْتَذِراً   إنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيْما قالَ أَوْ فَجَرا

حَتَّى بِبَرَكَةِ المُخالَصَةِ وَيُمْنِ المُماحَضَةِ، تَصِيْرُ عُقْدَةُ التَّعَسُّرِ مِنْ الأَمْرِ مَحْلُوْلَةً دُفْعَةً واحِدَةً، مِنْ هذا النَّمْطِ نَفَثَ عَلَيْهِ فَصْلاً دافِئاً، وَأَظْهَرَ اسْتِعْطافاً، حَتَّى جَعَلَ أَعْطافَ مَحَبَّتِهِ تَهْتَزُّ، ثُمَّ قالَ لَهُ أَيْ فُرَّخ زاد،

باللَّهِ إنَّ النَّهارَ مُبارَكٌ لِشَخْصٍ   رَأى مِنْ أَوَّلِ الصُّبْحِ وَجْهَكَ فِيْهِ

عَلِمَ اللهُ أَنِّي حِيْنَ جَعَلْتُ العَيْنَ على هذا اللِّقاءِ المُرَوِّحِ، ارْتَحْتُ مِنَ الأَلَمِ المُبَرِّحِ، وَفِي رُكْنِ وَحْشَةِ مَنْزِلِ الحُزْنِ هذا، صِرْتُ مُسْتَأْنِساً بِرُوائِكَ الكَرِيْمِ، وَمِنْ لُطْفِ هذِهِ المُحاوَرَةِ، وَسَعادَةِ هذِهِ المُجاوَرَةِ، وَجَدْتُ الرَّاحاتِ، ولا شَكَّ في أَنَّ كُلَّ ما قُلْتَ لِي جُمْلَةً كانَ لائِقاً بالحالِ، وَمُناسِباً لِلْوَقْت، وَإِنَّ رَأْسَ خَيْطِ رِضا المَلِكِ ما أَمْكَنَ الحُصُوْلُ عَلَيْهِ إِلَّا بِذاكَ الرِّفْقِ، وَإِطْفاءُ نَوائِرِ غَضَبِهِ ما صارَ مُمْكِناً إِلَّا بِماءِ تِلْكَ اللَّطافَةِ، وَأنتَ لَسْتَ مُحْتاجاً لِإِبْلاءِ أَيِّ عُذْرٍ، وَبِكُلِّ ما قَرَّرْتَ أَنتَ مَعْذُوْرٌ وَمَشْكُورٌ، وَعَلى لِسانِ العَقْلِ مَذْكُور، في الجُمْلَةِ، *هُدْنَةٌ على دَخَنٍ*، جَدَّدا عَهْدَ المُصادَقَةِ، وَمِنْ ذلِكَ المَكانِ بالاِتِّفاقِ جُمْلَةً ذَهَبُوا إلى جِوارِ المَلِكِ، وَفَتَحُوا مَعاً مَرَّةً واحِدَةً لِسانَ المُوافَقَةِ والإِخْلاصِ بِخَلاصِهِ، المَلِكُ وَجَدَ الوُقُوْفَ على خُلاصَةِ عَقائِدِهِم، أَنَّهُم مِنْ ذاكَ السَّعْيِ لا يَطْلُبُوْنَ إِلَّا حُسْنَ الاِسْمِ لِلْمَخْدُوْمِ وَإِشاعَةَ الاِسْمِ بالحِلْمِ والرَّحْمَةِ، وَإِذاعَةِ حُسْنِ السِّيْرَةِ، ولا يُرِيْدُونَ إِلَّا التَّرْغِيْبَ وَتَقْرِيْبَ الخَدَمِ بِطَرِيْقِ الطَّاعَةِ والخِدْمَةِ، أَمَرَ بِخَلاصِ دادَمَه، الَّذي خَرَجَ وَذَهَبَ بِخِدْمَةِ العَتَبَةِ، وَعلى عادَةِ مَنِ وَجَدُوا العِتابَ، طَبَعَ القُبْلَةَ على العَتَبَةِ بِشَفَةِ الاِسْتِكانَةِ، وَمَعَ أَقْرانِهِ وَأَمْثالِهِ، وَقَفَ بالمُثُولِ بالمَجْلِسِ خافِضاً الرَّأْسَ مِنَ الخَجَلِ، المَلِكُ حِيْنَ نَظَرَ في صَكِّ وَجْهِهِ عَلِمَ أَنَّ سَبِيْكَةَ فِطْرَتِهِ مِنْ أَتُونِ الحَبْسِ وَصَلَتِ إلى ذاكَ الخَلاصِ تامِّ

العِيار، وَلَمْ يَبْقَ فِيْها شائِبَةُ غِشٍّ ولا غائِلَةُ غِلٍّ، وَقَدْ قَبِلَ التَّأَدُّبَ والتَّهَذُّبَ، واسْتَبْدَلَ السَّفاهَةَ بالنَّباهَةِ،

وَقَدْ يَسْتَقِيْمُ المَرْءُ فِيْما يَنُوْبُهُ كَما يَسْتَقِيْمُ العُوْدُ مِنْ عَرْكِ أُذْنِهِ

الوَرْدُ حَمَلَ الصُّداعَ بالقُرْنِ لِأَجْلِ حَمْلِ الصُّداعِ صارَ الجُلَّاب

داسْتان بِحُكْمِ إِشارَةِ المَلِكِ أَمْسَكَ يَدَ دادَمَه، وَأَوْصَلَ مِنْهُ لِيَدِهِ قُبْلَةً، المَلِكُ أَمَرَ بالعاطِفَةِ المَلَكِيَّةِ وَأَظْهَرَ المُلاطَفَةَ، فَطَرِيْقُ انْبِساطِهِ صارَ مَبْسُوْطاً أَمامَ بِساطِ خِدْمَتِهِ، ثُمَّ قالَ نَحْنُ سَتَرْنا عَوْرَةَ ذَنْبِ دادَمَه بِسِتْرِ الكَرامَةِ، وَعَفَوْنا عَنْ فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ، *واخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنِيْن*، في هذِهِ الحالِ جَعَلْناهُ مَتْبُوعاً لَنا، حَتَّى فِيما بَعْدُ، هُوَ والحاضِرُوْنَ الآخَرُوْنَ، يَكُوْنُوْنَ جَمِيْعاً مَعَ حُضُوْرِ النَّفْسِ، وَيَعْرِفُونَ مَواضِعَ وَمَواطِئَ القَدَمِ والنَّفْسِ، وَيَقُولُوْنَ ذاكَ الكلامَ الَّذي يَقُوْمُ القَبُوْلُ باسْتِقْبالِهِ، لا ذاكَ الَّذي يَجِبُ الجُهْدُ والأَلَمُ لِإِجلاسِهِ في أَسْماعِ وَطِباعِ السَّامِعِيْن، كما وَقَعَ لِنَدِيْمٍ مِنْ نُدَماءِ *رايِ* الهِنْدِ، قالَ الحاضِرُوْنَ إذا كانَ المَلِكُ يَقُولُ تِلْكَ القِصَّةَ، رُبَّما نَصِيْرُ مُسْتَفِيْدِيْنَ مِنْ نَصِيْحَةِ تِلْكَ،

قِصَّةُ *رايِ* الهِنْدِ مَعَ النَّدِيْم

المَلِكُ قالَ سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ لِـ رايِ الهِنْدِ نَدِيْمٌ مُرَبٍّ لِلْفَضْلِ وَمُحِبٌّ

لِلْعِلْمِ وَقائِلٌ لِلْحَدِيْثِ، فَفي أَثْناءِ المُحاوَرَةِ كانَ يَسْكِبُ الدُّرَّ في ثَوْبِ الزَّمان، وَكانَ يَمْلأُ بِظَرافَةِ الطَّبْعِ ظَرْفَ الزَّمانِ وَظَرْفَ المَكانِ، وَمِنْ خِفَّةِ الرُّوْحِ والمَحْبُوْبِيَّةِ كانَ يَسْكُنُ في حُجُبِ جَمِيْعِ القُلُوْبِ مِثْلَ حَبَّةِ القَلْب، وَمِنْ قَبُوْلِهِ وَحُسْنِ مَجْلِسِهِ كانَ يَأْخُذُ المَكانَ في جَمِيْعِ العُيُوْنِ مِثْلَ إِنْسانِ العَيْنِ، يَوْماً في وَسَطِ الحِكاياتِ عَنِ النَّوادِرِ والأَعاجِيْبِ الَّتي كانَتْ تَجْرِي على لِسانِهِ، قالَ أنْ أنا رَأَيْتُ طائِراً آكِلاً لِلنَّارِ ابْتَلَعَ النَّارَ الَّتِي تَصْهَرُ الصَّخْرَ وَتُذِيْبُ الحَدِيْدَ، نُدَماءُ المَجْلِسِ وَجُلَساءُ الحَضْرَةِ جَمِيْعاً جاؤوا بالإنكارِ لِهذا الحَدِيْث، والجَمِيْعُ فَتَحُوا اللِّسانَ بِتَكْذِيْبِهِ، وَمَعَ كُلِّ ما أَظْهَرَ بِبَراهِيْنِ العَقْلِ وَدَلائِلِ العِلْمِ جَوازَ هذا المَعْنى، لَمْ يُجْدِ نَفْعاً، وَحِيْنَ عَمِلَ الحَوالَةَ لِلْخاصِّيَّةِ، أنْ ذاكَ الَّذي هُوَ مُسْتَوْدَعُ الخالِقِ مِنْ سِرِّ الخَواصِّ والطَّبائِعِ في الجَواهِرِ والحَيَواناتِ، لا يَعْرِفُهُ إِلَّا خالِقُ الصُّوَرِ والمَوادِّ، وَكُلُّ مَنْ عَرِفَ المُمْكِنَ مِنَ المَحال، رَغْمَ أَنَّ وَهْمَهُ يَجِيْءُ عاجِزاً عَنْ تَصَوُّرِ هذا المَعْنى، عَقْلُهُ يَنْقِشُ ذاكَ على لَوْحِ الوُجُوْد، هذِهِ التَّقْرِيْراتُ لَمْ تَجِئْ مُفِيْدَةً أَبَداً، فَكَّرَ مَعَ النَّفْسِ، أنْ لا يُمْكِنُ رَفَعُ حِجابِ هذِهِ الشُّبْهَةِ مِنْ أَمامِ أَعْيُنِ أَفْهامِ هؤلاءِ القَوْمِ إِلَّا بِمُشاهَدَةِ الحِسِّ، في تِلْكَ اللَّحْظَةِ خَرَجَ مِنْ مَجْلِسِ الشَّاهِ، وَجَعَلَ الوَجْهَ صَوْبَ بَغْداد، وَظَلَّ مُدَّةً طَوِيْلَةً يَطْوِي المَنازِلَ والمَراحِلَ، وَيَقْطَعُ المَخاوِفَ والمَهالِكَ، حَتَّى وَصَلَ إلى ذلِكَ المَكانِ الَّذي حَصَلَ بِهِ على عِدَّةٍ مِنْ طُيُورِ النَّعامِ باليَد،

واسْتَصْحَبَهُنَّ مَعَهُ بالرُّجُوْعِ في السَّفِيْنَةِ، وَصارَ مُنْصَرِفاً جِهَةَ بِلادِ الهِنْدِ، وَتَوْفِيْقُ السَّعادَةِ جاءَ رَفِيْقَ طَرِيْقِهِ، حَتَّى في ضَمانِ السَّلامَةِ وَصَلَ إلى جِوارِ عَتَبَةِ الشَّاه، الشَّاهُ وَجَدَ الخَبَرَ عَنْ مَجِيْئِهِ، أَمَرَ أَنْ يَجِيْءَ حاضِراً، حِيْنَ اتَّصَلَ بالخِدْمَةِ أقامَ رَسْمَ الدُّعاءِ والثَّناء، سَأَلَهُ راي، ما كانَ سَبَبُ غَيْبَتِكَ كُلَّ هذِهِ المُدَّةِ الطَّوِيْلَةِ، قالَ في اليَوْمِ الفُلانِيِّ كُنْتُ قُلْتُ حِكايَةً في الحَضْرَةِ، أَنِّي رَأَيْتُ طائِراً آكِلاً للنَّار، فَلَمْ يُصَدِّقُوا، وَذَهَبَ مِنْ ذاكَ اسْتِبْداعٌ بَلِيْغٌ، وَأنا لَمْ أُرِدْ أنْ أَكُونَ مِهْذاراً قائِلاً لِلْجُزافِ، وَمِكْثاراً ماسِحاً لِلْهَواء، وَأَنْ يَصِيْرَ ثَوْبُ أَحْوالي مُلَوَّثاً بِقَذَرِ الهَذْر، وَأَنْ يَطْلَعَ اِسْمي في جُمْلَةِ قائلي العَبَثِ ناسِجِي الكَذِبِ صانِعي المَكْرِ، فَقَدْ قِيَلَ، *إيَّاكَ أَنْ تَكُونَ لِلْكَذِبِ واعِياً وَراوِياً فإِنَّهُ يَضُرُّكَ حِيْنَ ترى أَنَّهُ يَنْفَعُكَ*، نَهَضْتُ وَذَهَبْتُ لِبَغْدادَ، حَتَّى بِبَرَكَةِ إقْبالِ الشَّاهِ وَمَدَدِ هِمَمِهِ وَصَلْتُ لِلْمَقْصَدِ وَرَجَعْتُ مَعَ المَقْصُوْدِ، وَها أنا جِئْتُ بِبِضْعِ طُيُوْرٍ آكِلَةٍ للنَّارِ، حَتَّى ذاكَ الَّذي سَمِعُوْهُ مِنِّي بالخَبَرِ، يَرَوْنَهُ بالعِيان، والنَّقْشُ الَّذي لَمْ يَصِرْ مُرْتَسِماً بِمِرْآةِ عَقْلِهِمْ، يَقْرَؤونَهُ مِنْ لَوْحِ حِسِّ البَصَرِ، قالَ راي، الرَّجُلُ الَّذي كانَ مُزَيَّناً بِزِيْنَةِ العَقْلِ وَرَأْسِ مالِ العِلْمِ، لا يَقُوْلُ إلَّا الصِّدْقَ، لكِنِ الحَدِيْثُ الَّذي يَجِبُ صَرْفُ سَنَةٍ مِنَ العُمْرِ في إِثْباتِهِ، عَدَمُ قَوْلِهِ أَولى، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى يَكُوْنَ عُمَّالُ خاصَّةِ خَواصِّ مَجْلِسِ المُلُوْكِ مُتَوَفِّرِيْنَ على دَأْبِ آدابِ الخِدْمَةِ، وَمُتَيَقِّظِيْنَ مِنَ التَّعَثُّرِ في

أَذْيالِ الهَفَواتِ، صارَ للتَّمامِ بابُ دادَمَه وَداسْتان، بَعْدَ هذا سَنَذْكُرُ بابَ زِيْرَكَ وَزَرْوي، وَفِيْهِ نُظْهِرُ كَيْفَ يُوْصِلُ عُلُوُّ الهِمَّةِ شَخْصاً مِنْ حَضِيْضِ السَّفالَةِ إلى أوْجِ العَظَمَةِ والجَلالَةِ، ويُعْطِيْهِ زِمامَ الأَمْرِ بِيَدِ الكِفايَةِ والسِّياسَةِ، وَيَضَعُ تاجَ الرِّئاسَةِ والسِّيادَةِ على مَفْرَقِ إِقْبالِهِ، وَما وَجْهُ تَرَقِّيْهِ في أَمْرِ نَفْسِهِ، وَتَوَقِّيْهِ مِنَ مَوانِعِ تَقَدُّمِهِ، وما طَرِيْقُ التَّمْشِيَةِ وَسَبِيْلُ التَّسْوِيَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ للرَّشادِ في المَعاشِ والمَعاد، فَلْيَجْعَلْ إِيْزَد عَزَّ اِسْمُهُ وَتَعالى، أَقْدامَ جاهِ وَجَلالِ السَّيِّدِ صاحِبِ العالَمِ في مَراقي المَنْزِلَةِ راقِيَةً، وَمَآثِرَهُ وَطِرازَ مفاخِرِهِ على ثَوْبِ الدِّيْنِ والدَّوْلَةِ باقِيَةً، بِمُحَمَّدٍ وآلِهِ الأَطْيَبِيْنَ الأَكْرَمِيْن.

البابُ السَّادِسُ

في زَيْرَكَ وَزَروي

وَلَدُ المَلِكِ قالَ، سَمْعْتُ أنَّ راعِياً كانَ يَمْلِكُ قَطِيْعاً مِنَ الخِرافِ، وكانَ لَهُ تَيْسٌ اِسْمُهُ زَروي، كانَ بالقِيادَةِ يَجْعَلُ القَطِيْعَ مُرَتَّباً، وَكانَ غالِباً على طَبْعِهِ الشَّراسَةُ والجَسارَةُ بِإِفْراطٍ، كُلَّ يَوْمٍ بِضَرْبَةِ القَرْنِ يَجْعَلُ خَرُوفاً مَجْرُوْحاً، وَيَجِيْءُ بالأَذى للنِّعاجِ والجِداء، حَتَّى صارَ الرَّاعي مِنْهُ في ضَيْقٍ، قالَ إنَّهُ لَخَيْرٌ أَنْ أَقْطَعَ هذا الأَذى مِنْ جانِبِ زَرْوي، حَمَلَهُ للبازارِ لِيَبِيْعَهُ، زَروي نَظَرَ فَرأى مِنْ بَعِيْدٍ رَجُلاً قَصَّاباً ذا شَكْلٍ سَمْجٍ وَثَوْبٍ مُتَّسِخٍ، بِيَدِهِ سِكِّيْنٌ، وَعلى وَسَطِهِ قِطْعَةٌ مِنْ حَبْلٍ، فَكَّرَ أَنْ هذا الرَّجُلُ سَبَبُ هلاكي، وَهُوَ قادِمٌ بِقَصْدِ إِراقَةِ دَمي، وَرَغْمَ أَنَّهُمَ قالوا، *الظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيْبُ*، يَجِبُ عَلَيَّ ضَغْطُ قَدَمِ الثَّباتِ، وَحِفْظُ الخاطِرِ فيما يَجِيْءُ أمامي، فَإِنَّهُ إِذا جاءَ غالِباً على قَلْبِ الرَّجُلِ الخَوْفُ والخَشْيَةُ، عَجِزَتْ يَدُ وَقَدَمُ القُدْرَةِ عَنِ العَمَلِ، الرَّجُلُ القَصَّابُ اقْتَرَبَ واشْتَرى زَروي، وَأَلْقاهُ على الأَرْضِ وَقَيَّدَ يَدَهُ وَقَدَمَهُ بِإِحْكامٍ، وَذَهَبَ للدُّكَّانِ بِطَلَبِ سِكِّيْنٍ حادَّةٍ، قالَ زَروي مَعَ النَّفْسِ، هُنا لَيْسَ المَقامُ للصَّبْرِ، وَجاءَ بالفِعْلِ بِكُلِّ ما مَلَكَ مِنْ الجُهْدِ والسَّعْيِ، أنْ إِذا أنا صِرْتُ مُتَحَرِّراً مِنْ هذا القَيْدِ وَوَجَدْتُ النَّجاةَ، فَهُوَ المُرادُ، وَإِذا مَرَّةً أُخْرى صِرْتُ مَأْسُوراً، وَدُولابُ الفَلَكِ مَرَّةً أُخْرى جَعَلَ هذا الرَّسَنَ

بِرَقَبَتِي، تَكُونُ الحالَةُ كما هِيَ الآنَ، *أنا الغَرِيْقُ فَما خَوْفي مِنَ البَلَلِ*، مِنْ هَوْلِ الواقِعَةِ وَخَوْفِ الرُّوْحِ، صارَ يَضْرِبُ باليَدِ والقَدَمِ بِكُلِّ قُوَّةٍ كانَتْ مُمْكِنَةً، قُلْتَ لِسانُ النَّصِيْحَةِ كانَ يَقْرَأُ في أُذُنِ قَلْبِهِ،

في هذا البَحْرِ بلا طَرَفٍ كَأَنَّما هُوَ الغَوْرُ
اِضْرِبْ باليَدِ والقَدَمِ ما عِلْمُكَ بِما يَكُونُ

أَخِيْراً انْقَطَعَ الرَّسَنُ، والرُّوْحُ الَّتي كانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِشَعْرَةٍ، وَثَبَتْ بِدُولابِ النَّجاةِ، وانْطَلَقَتْ كالسَّهْمِ مِنَ القَوْسِ، ذَهَبَ كالطَّائِرِ مِنَ الشِّباكِ والقَصَّابُ يَجْري في إِثْرِهِ، في جِوارِ مَنْزِلِ القَصَّابِ كانَ بُسْتانٌ مُلاصِقٌ لِلْمَنْزِلِ، وَزَوْجَتُهُ، *حاشا لِمَنْ يَسْمَعُ*، كانَ لَها مَعَ البُسْتانِيِّ شُغْلٌ، وَفِيْ كُلِّ وَقْتٍ كانا يَجِدانِ المَكانَ خالِياً، وَتَصِيْرُ الفُرْصَةُ مُيَسَّرَةً، كانَتْ تَقَعُ لَهُما المُلاقاةُ في البُسْتان، في ذلِكَ اليَوْمِ صارَ واقِعاً هذا الاِتِّفاقُ، حِيْنَ زَروي وَصَلَ لِبابِ البُسْتانِ، مِنَ الخَوْفِ مِنَ القَصَّابِ ضَرَبَ بابَ البُسْتانِ بالقَرْنِ، وَأَلْقاهُ مِنَ الجِهَةِ الأُخْرى، وَوَثَبَ بالبُسْتانِ والخَصْمُ مِنْ وَرائِهِ بِيَدِهِ السِّكِّيْن، فَجْأَةً وَجَدَ زَوْجَتَهُ أَمامَ البُسْتانِيّ، وَحِيْنَ وَقَعَتْ عَيْنُهُما عَلَيْهِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، كِلا الاِثْنَيْنِ حَقَّقا أَنَّهُ مَلَكَ الخَبَرَ عَنْ حالِ اجْتِماعِهِما، وَجاءَ لِلْمُقاتَلَةِ، واشْتَبَكَ القَصَّابُ والبُسْتانِيُّ كِلاهُما الواحِدُ مَعَ الآَخَرِ، وارْتَفَعَ الصَّوْتُ وَمَشْغَلَةُ الرِّجالِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وَفي ذلِكَ الوَسَطِ فَرَّ زَروي مِنَ الوَجْهِ لِلْخارِجِ بِفُرْجَةِ

الفَرَجِ، وَحَمَلَ الرُّوْحَ، *مَصائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوائِدُ*، آخِرَ الأَمْرِ وَقَعَ مِنَ البُسْتانِ بالصَّحْراء، وَزَحَفَ إلى مَلْجَأِ غارٍ، حَتَّى إذا الشَّمْسُ مِنْ هذِهِ القُبَّةِ المَطْلِيَّةِ باللّازَوَرْدِ أَنْزَلَتِ الظَّهْرَ بِجِدارِ المَغْرِبِ، وَنَصَبَتِ الخَيْمَةَ مِنَ الأَطْلَسِ الأَسْوَدِ وَثَبَّتَتْها بِأَوْتادِ الطَّالِعِ والغارِبِ على رَأْسِ ساكِني العالَمِ، زَرْوي جاءَ خارِجاً مِنَ الغارِ، أنْ عَساهُ يَطْلُبُ العَوْنَ، أَظْهَرَ التَّوَسُّمَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَعَمِلَ التَّنَسُّمَ لِرائِحَةِ راحَةٍ، حَتَّى جاءَ في أُذُنِهِ صَوْتُ كَلْبٍ، قالَ لَقَدْ كانَ الكَلْبُ لِأَصْحابِ الكَهْفِ في ذلَكَ الغارِ رابِعاً وَخامِساً، وَهُوَ يُرِيْدُ أنْ يَصِيْرَ لي في هذا الغارِ ثانِيَ اثْنَيْنِ، لكِنَّ صَوْتَ الكَلْبِ دَلِيْلُ العُمْرانِ، وَخَرابُ أَمْري مِنَ العُمْرانِ، هُوَ ذَهَبَ على صَوْتِ الكَلْبِ، والكَلْبُ جاءَ مُقْبِلاً إلى أنِ التَقَيا، مِثْلَ صاحِبَيْنِ مُتَوافِقَيْنِ، وَصَدِيْقَيْنِ مُشْفِقَيْنِ، وَصَلا مِنْ بَعْدِ تَمادي عَهْدِ الفِراقِ لِمَعْهَدِ الوِصالِ وَمَشْهَدِ مُشاهَدَةِ الواحِدِ لِلآخَرِ، أَعْطَيا التَّحِيَّةَ الواحِدُ لِلآخَرِ، قالَ زَروي، لَمْ تَكُنْ جَرَتْ سابِقَةُ خِدْمَةٍ وَمُقَدِّمَةُ مَعْرِفَةٍ، عَرِّفْ أنتَ مَنْ تكُونُ وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ، قالَ الكَلْبُ اِسْمي زَيْرَك، تَخَلَّفْتُ عَنِ القَطِيْعِ الَّذي كُنْتُ بِحِراسَتِهِ، فَأنا أَبْحَثُ أَيْنَ أجِدُهُ، زَروي بِمُلاقاتِهِ نَسِيَ المُقاساةَ الَّتي كانَ حَمَلَ مِنْ أَلَمِ الوَحْدَةِ، وارْتاحَ مِنْ فِكْرِ المَخافاتِ وَأَنْواعِ الآفاتِ،

فَمَنْ يَأْتِهِ مِنْ خائِفٍ يَنْسَ خَوْفَهُ   وَمَنْ يَأْتِهِ مِنْ جائِعِ البَطْنِ يَشْبَعِ

جَعَلَ ظَهْرَ الاِسْتِظْهارِ قَوِيَّاً بِهِ، وَزادَ الثِّقَةَ بِشَفَقَتِهِ، وَجَّهَ الوَجْهَ لَهُ وَسَأَلَهُ، ما تُرِيْدُ أَنْ تَفْعَلَ، وَما المَنْظُوْرُ في نَظَرِكَ المُبارَكِ، وَهِمَّتُكَ مَقْصُوْرَةٌ على أَيِّ شَيْءٍ، قالَ زَيْرَك، إلى ذلِكَ الوَقْتِ الَّذي بِهِ تَحْتَرِقُ خِرْقَةُ اللَّيْلَ تَماماً، وَتَشْتَعِلُ بِهِ مَشْعَلَةُ النَّهار وَأَذْهَبُ إلى ذلِكَ المَكانِ عَيْنِهِ، أَكُوْنُ في جِوارِ صُحْبَتِكَ، غَداً أَجِيْءُ طائِفاً حَوْلَ هذِهِ النَّواحِي، إِلى أَنْ أَجِدَ مِنْ جَدِيْدٍ القَطِيْع، وَأَصِيْرَ لِلْمَكانِ، وَبَعْدَ إِحْمادِ السُّرى عِنْدَ الصَّباحِ، لَعَلِّي أَقْرَأُ، العَوْدُ أَحْمَدُ، قالَ زَروي، أَيْ زَيْرَكُ الأَلْقابُ تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ، اِسْمُكَ الَّذي مَعْناهُ الذَّكِيُّ وَقَعَ جِهَةَ الذَّكاءِ والكِياسَةِ، والدَّهاءِ والفَراسَةِ، وَأَنْتَ بِأَخْذِ الشُّهْرَةِ بالذَّكاءِ مِثْلَ اِسْمِكَ لائِقٌ، حالُكَ هِيَ تِلْكَ، أنَّ كُلَّ ما تُفَكِّرُ بِهِ وَتَفْعَلُهُ مِنَ الذَّكاءِ، كُنْتَ في المُتابَعَةِ لِلرَّاعي السِّنِيْنَ، وَقَضَيْتَ في المُحافَظَةِ على الخِرافِ الكَثِيْرَ مِنَ الوَقْتِ، وَأَمْضَيْتَ في ذلكِ العُمُرَ، وَحَرَمْتَ نَفْسَكَ مِنْ لَذَّةِ النَّوْمِ والرَّاحَةِ لَيْلاً وَنَهاراً، وَأَبْعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْ مُخالَطَةِ وَمُصاحَبَةِ النَّاسِ، وَصِرْتَ قانِعاً بِقِطْعَةٍ مِنْ خَبْزِ الشَّعِيْرِ فَضُلَتْ مِنْ طَعامِ الرَّاعي، بِأَلْفِ صُراخٍ وَعَوِيْلٍ كُنْتَ تَأْخُذُ لُقْمَةً، وَما أَكَلْتَ نَوالاً بِغَيْرِ عَظْمِ الجَفاءِ أَبَداً، لَوْ يَوْماً وَضَعْتَ الرَّأْسَ في كَأْسِ طَعامِهِ، لَأَرادَ يَشُقُّ كَأْسَ رَأْسِكَ بِضَرْبَةِ العَصا، وَمِنْ عارِ لُعابِ فَمِكَ يَغْسِلُ ذاكَ بِسَبْعَةِ مِياهٍ، وَلِتَمامِ طَهارَةِ ذاكَ يَغْسِلُهُ بالتُّرابِ أَيْضاً، وَأَنْتَ تَخْطُو بالقَدَمِ إِلَيْهِ، لِماذا بِلا إِلْمامِ ضَرُوْرَةٍ وَإِلْجاءِ حاجَةٍ، تَنْزِلُ بِهذا الهَوانِ

وَهَذِهِ المَذَلَّةِ، وَتُعْطي البَدَنَ لِمُعاناةِ هَذِهِ المَشَقَّة، سِيَّما وَأَنا أرى في سَيْمائِكَ المُبارَكَةِ دلائِلَ حُسْنِ اليَوْمِ، وَمَخائِلَ الظَّفَرِ والنَّصْرِ وَنَيْلِ كُلِّ مُرادٍ،

وَلَمْ أَرَ في عُيُوْبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْصِ القادِرِيْنَ على التَّمامِ

الرَّأْيُ هَوَ ذاكَ، أَنَّهُ بِما أَنَّكَ تَقْدِرُ أَنْ تُوْصِلَ النَّفْسَ مِنْ مَقامِ الصَّغارِ إِلى دَرَجَةِ الكِبار، وَتَصِلَ مِنْ صَفِّ نِعالِ الخاضِعِيْنَ إِلى صَدْرِ صُفَّةِ الآمِرِيْنَ، لا تُعْطِ الرِّضا بِنَذالَةِ هذا المَقامِ، واجْعَلِ العَيْنَ على مَطامِحِ الرِّفْعَةِ، واجْعَلْ دَواعي الهِمَّةِ لِذاكَ، لِتَأْخُذَ زِمامَ المُلْكِ على السِّباعِ والسَّوائِمِ بِهذِهِ الصَّحْراء باليَد، حَتَّى أنا بِإِعْدادِ أَسْبابِ هذا الأَمْرِ أَعْقِدُ كَمَرَ التَّقْدِيْم، وَأَفْتَحُ عُقْدَةَ المُشْكِلاَتِ وَعُرْوَةَ المُعْضِلاتِ مِنْ ذاكَ بِسِحْرِ المُجاهَدَةِ، وَرَغْمَ أَنَّهُمْ قالُوا، *إِذا عَظُمَ المَطْلُوْبُ قَلَّ المُساعِدُ*، أنا بالمُساعَدَةِ والمُعاضَدَةِ مَعَكَ في إِتْمامِ هذا المُهِمِّ، سَأُظْهِرُ تَمامَ عِيارِ التَّدْبِيْرِ وَمَعْرِفَةَ العَمَلِ وَثَباتَ القَدَمِ في طَرِيْقِ الخِدْمَةِ، وَأَداءَ الحَقِّ لِلْعالَمِيْن، إِذْ نَحْنُ جَمِيْعاً نَكُونُ في حِجْرِ حِمايَتِكَ وَكَنَفِ كِلاءَتِكَ، مِنْ شَرِّ أعادِي، *آمِنُ السِّرْبِ*، وَفي ظِلِّ شَوْكَتِكَ وَسَطْوَتِكَ نَحْيا فارِغي البالِ مِنْ قَصْدِ الأَشْرار،

بَقاؤكَ فِيْنا نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَنا فَنَحْنُ بِأَوْفى شُكْرِهِ نَسْتَدِيْمُها

زَيْرَك قالَ، إِنْ كُنْتَ تُرِيْدُ الصِّدْقَ، نَحْنُ مِنْ إفراطِ مَحَبَّتِكَ، وَتَفْرِيْطِ حُرْمَةِ السِّباعِ، نَكُوْنُ جَعَلْنا الكُلَّ عَدُوَّاً لِأَنْفُسِنا، والجِنْسِيَّةَ تِلْكَ الَّتي يَدْعُوْنَها عِلَّةَ الضَّمِّ، تَكُوْنُ قَدْ رُفِعَتْ مِنَ الوَسَطِ، بِالجَرِّ الثَّقِيْلِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ لَنا أَيُّ تَكَلُّفٍ الواحِدُ مَعَ الآَخَرِ، وَمَقامُ الاِنْجِذابِ والاِجْتِماعِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَبَداً،

أَيُّـها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً   عَمَرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيانِ

هِيَ شامِيَّةٌ إِذا ما اسْتَقَلَّتْ   وَسُهَيْلٌ إِذا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

وَما دامَتْ هذِهِ كانَتْ عادَةُ الأَسْلافِ السَّابِقِيْن، نَحْنُ على رَسْمِهِمْ وَسُنَّتِهِمْ نَقْدِرُ نَضَعُ أَصْلَ الصَّداقَةِ والعَداوَة، وَحَدِيْثُ، *الحُبُّ يُتَوارَثُ والبُغْضُ يُتَوارَثُ*، يَجِيْءُ مُفِيْداً هُنا، أَمَّا عَمَلُ طَلَبِ المُلْكِ والسِّيادَةِ، والكَوْنُ مُتَصَدِّياً لِمِثْلِ هذا الأَمْرِ العَظِيْم، بِلا مُظَاهَرَةِ الجَيْشِ والحَشَمِ، ولا مُعاضَدَةِ الخَيْلِ والخَدَمِ، فَإِنَّهُ لا يَجِيْءُ صَحِيْحاً، وَهذا المَعْنى يَتَطَلَّبُ عُدَّةً بِلا حِسابٍ، وَمُدَّةً كَثِيْرَةً، وَعَدَدَ جَيْشٍ، وَمَدَدَ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ، وَنَحْنُ مُعْسِرانِ ذَلِيْلانِ وَمُفْلِسانِ بِلا مالٍ حَتَّى أَنَّنا لا نَمْلِكُ فِلْساً مِنْ كُلِّ زِيْنَةِ وَحِلْيَةِ المُلُوْكِ، في كِيْسِ الاِسْتِظْهارِ، فَكَيْفَ لَنا أَنْ يَجِيْءَ لَنا التَّمَنِّي بِحُصُولِ مِثْلِ هذا،

مَهْما نَظَرْتُ في الشِّمالِ وفي اليَمِيْنِ

بِهذا القَلْبِ لي أنا لَسْتُ رَجُلَ غَمِّكَ

قالَ زَروي، حَسَناً تَقُوْلُ، وَهذا الرَّأْيُ السَّدِيْدُ مِنْ بَصارَةِ نَظَرِكَ وَغَزارَةِ عِلْمِكَ يُشْرِقُ، وَمِنْ هذا الحَدِيْثِ يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ كمالِ الاِسْتِعْدادِ فِيْكَ لإِعطاءِ الأَمْر، *لَكِنِ المَرْءُ يَطِيْرُ بِهِمَّتِهِ كالطَّيْرِ يَطِيْرُ بِجَناحَيْهِ*، أَنْتَ أَيْضاً فَطِنْ، وَكُنْ طائِراً بِجَناحِ الهِمَّةِ في طَلَبِ الأَمْرِ العالي، حَتَّى تَرى نُسُوْرَ الفَلَكِ الَّتي هِيَ حَوامِلُ هذا القَفَصِ بِلَوْنِ الماءِ مُسَخَّرَةً في قَبْضَةِ مُرادِكَ، وَحافِظْ على قَدَمِ الإِقْدامِ ثابِتَةً في تَحْصِيْلِ وَتَسْهِيْلِ هذا المُرامِ، حَتَّى تَبْقى مَصُوْناً مِنْ إِزْلالِ شَيْطانِ الضَّلالَةِ، وَمَقْصُوْدُنا بِبَذْلِ المَجْهُوْدِ يَجِيْءُ خارِجاً مِنْ حَيِّزِ الاِمْتِناعِ، أنا كَذَلِكَ أُعِدُّ أَنْ تَجِيْءَ جُمْلَةُ جَوارِحِ الوُحُوْشِ وَضَواري السِّباعِ في قَيْدِ اتِّباعِكَ، وَتَصِيْرَ مُنْقادَةً وَمِطْواعَةً لِأَمْرِكَ، وَهذا المَعْنى كذلِكَ يَلِيْقُ أَنْ يَكُونَ، أَنْ تَرْجِعَ مُدَّةً عَنْ طَبْعِ الاِفْتِراسِ وَصِفَةِ الكَلْبِ، وَأَنْ تَعْمَلَ التَّوْبَةَ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ وَشُرْبِ الدَّمِ، حَتَّى يُسافِرَ في أَرْجاءِ وَأَنْحاءِ الدُّنْيا صِيْتُ عَدِيْمِ الأَذى وَاِسْمُ حَسَنِ الفِعالِ مِنْكَ، وَيَزِيْدَ اْرتِجاءُ الخَلْقِ بِزَمانِكَ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ النِّهايَةَ الحَسَنَةَ بالأَمْرِ، وَضَعَ القَدَمَ أَوَّلاً على عُنُقِ النَّفْسِ، وَكَسَرَ رَغَباتِهِ في نَحْرِ النُّهْمَةِ، وَوَجَدَ الطَّرِيْقَ لِطَلَبِ النَّعِيْمِ الأَبَدِيِّ، وَكانَ مَقْصُوْدُ نَفْسِهِ، *وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوى*، وَحِيْنَ على هذا المِنْهاجِ تَضَعُ قَدَمَ الاِنْتِهاجِ، وَفي أَقَلِّ مُدَّةٍ تَقْضيها على هذِهِ القاعِدَةِ والعادَةِ، كُلُّ مَنْ لَمْ يَكُنْ آمِناً مِنَ الوُحُوْشِ الأُخْرى، فَرَّ إِلى مَلْجَأِ أَمانِكَ وَصِوانِ إِحْسانِكَ،

وَبَعْضٌ مِنَ السِّباعِ كانَتْ طِباعُها أَقْرَبَ بالمُساهَلَةِ والْمُجامَلَةِ بِجَذْبِ طَبْعِكَ قَصَدَتْ إِلَيْكَ، وَجاءَتْ في زُمْرَةِ مُتابِعِيْكَ وَمُطاوِعِيْكَ، وآنَذاكَ يُؤَثِّرُ الأَثَرَ في الآخَرِيْنَ، مُشاهَدَةُ هذِهِ السِّيْرَةِ والسَّبِيْلِ مِنْكَ، حَتَّى يَجِيْءَ الطَّالِحُ بِشِعارِ الصَّالِحِ، وَيَأْخُذَ الأَشْرارُ لَوْنَ الأَخْيارِ، ثُمَّ يَصِلُ لِلْمَكانِ الأَعْوانُ والأنْصارُ والآلَةُ والإِسْتِظْهارُ، حَتَّى لَوْ هَبَّتْ رِيْحُ هَيْبَتِكَ بالعُبُوْرِ على الأَجَمَةِ، احْتَرَقَ الأَسَدُ مِنْ حَرارَةِ رَعْشَةِ التَّفْكِيْرِ بِكَ، وَوَقَعَ نابُ التِّمْساحِ في البَحْرِ، وَمِخْلَبُ النَّمِرِ في الجَبَلِ، مِنْ خَوْفِ شَوْكَتِكَ وَمَهابَتِكَ،

لا تُشْبِهُ إِلَّا القَمَرَ على الفَلَكَ   لا يَـلِيْقُ بِكَ إِلَّا عَرْشُ المَلِك

الفَلَكُ العالي يَصِيْرُ بِمُرادِكَ   كان بَدَنُكَ سَعِيْداً وَقَلْبُكَ عَزِيْزاً

زَيْرَك قالَ، كُلُّ مَنْ جَعَلَ الوَجْهَ بِطَلَبِ مَطْلُوْبٍ، يرى المَذَمَّةَ إِذا لَمْ يَجِدْ ذاكَ أَكْثَرَ مِنَ المَحْمَدَةِ فِيْما لَوْ وَجَدَهُ، أنا أُفَكِّرُ أَنْ رُبَّما الأَمْرُ على قَضِيَّةِ أَمَلي وَحَسَبَ فِكْري لا يَحْصَلُ، فَيَصِلُ لي بِذاكَ الأَسَفُ، كما وَصَلَ لِلْحَدَأَةِ آكِلَةِ السَّمَك، قالَ زَروي، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قَصَّةُ الحَدَأَةِ آكِلَةِ السَّمَكِ مَعَ السَّمَكَة

قالَ زَيْرَك، أَوْرَدُوا أنَّهُ كانَتْ حَدَأَةٌ مَرَّتْ عَلَيْها عِدَّةُ أَيَّامٍ لَمْ تَجْدْ مِنَ النَّمْلِ والجَرادِ والهَوامِّ والحَشَراتِ الَّتي هِيَ طُعْمَتُها شَيْئاً، لِتَسُدَّ بِذاكَ

جُوْعَها، وَتُسَكِّنَ بِهِ لَوْعَةَ نائِرَةِ الجُوْعِ، نَهَضَتْ يَوْماً بِطَلَبِ الرِّزْقِ، وَجَلَسَتْ على ضَفَّةِ جَدْوَلِ ماءٍ مِثْلَ مُتَصَيِّدٍ مُتَرَصِّدٍ، حَتَّى تَرْمِيَ صَيْداً مِنْ شَبَكَةِ الأرزاق، فَجْأَةً عَبَرَتْ سَمَكَةٌ مِنْ أَمامِها، الحَدَأَةُ وَثَبَتْ وَأَمْسَكَتْها وَأَرادَتْ أَنْ تَبْتَلِعَها، قالَتِ السَّمَكَةُ، *ما العُصْفُوْرُ وَدَسَمُهُ والبَرْغُوْثُ وَدَمُهُ*، أَيُّ شِبَعٍ يَكُونُ لَكِ مِنْ أَكْلي، لكِنْ إذا كُنْتِ تُعْطِيْنَني الأمانَ بالرُّوْحِ أَجْعَلُ يَمُرُّ في عَيْنِ هذا المَكانِ وَعَيْنِ هذا المَمَرِّ عَشْرَ سَمْكاتٍ بِحَراشِفَ مِنَ الفِضَّةِ والذَّهَبِ، وأَشَدَّ بَياضاً وَأَطْهَرَ مِنْ ثَلْجِ كانُونَ، حَتَّى تَأْخُذِيْها واحِدَةً واحِدَةً، وَتَأْكُلِيْها بِمُرادِ القَلْبِ، وَإِنْ كُنْتِ لا تَصِيْرِيْنَ واثِقَةً، وَبِقَوْلي المُجَرَّدِ مُصَدِّقَةً، اجْعَلِيْني أُقْسِمُ القَسَمَ المُغَلَّظَ أَنِّي أَجِيْءُ بِعَمَلِ كُلِّ الَّذي قُلْتُ، قالَتِ الحَدَأَةُ قُولي بالله، فَتَحَتِ المِنْقارَ، والسَّمَكَةُ مِثْلَ لُقْمَةِ قَلِيْلي الرِّزْقِ وَقَعَتْ بالماءِ،

الفَلَكُ أَلْقى النَّوالَ مِنْ فَمِي بالتُّراب   الحَظُّ جاءَ بِالقَدَحِ أمامَ فَمِي وَأَراقَه

وَهِيَ بَقِيَتْ خائِبَةً وَنادِمَةً، *كَراجٍ آبَ مَكْسُوْرَ النِّصابِ*، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَنْظُرَ حَسَناً في أَوَّلِ وَآخِرِ هذا الأَمْرِ، وَتَجْعَلَ الفاتِحَةَ قُبالَةَ الخاتِمَةِ، وَتَعْلَمَ هَلِ الاِرْتِباطُ بالخَوْضِ أَولى، أَمْ سَحْبُ عِنانِ العَزْمِ، حَتَّى لا يَكُونَ تَعْجِيْلٌ فَيُلْقِيَ في وَرْطَةِ النَّدامَةِ، ولا تَوَقُّفٌ فَيَمْنَعَ مِنْ إِدْراكِ الفُرْصَةِ،

وَإِيَّاكَ والأَمْرُ الَّذي إنْ تَوَسَّعَتْ   مَدارِكُهُ ضاقَتْ عَلَيْكَ المَصادِرُ

قالَ زَروي، قالُوا إِذا وَصَلَتِ العَظَمَةُ للإنْسانِ فَلْيَجِئْ بِكُلِّ تَدْبِيْرٍ صائِبٍ وَرَأْيٍ صَحِيْحٍ، وَلْيَفْتَحْ عَيْنَ البَصِيْرَةِ المُغْلَقَةِ، حَتَّى يُطالِعَ تَمامَ المُطالَعَةِ، في مِرْآةِ الفِكْرَةِ، مَغَبَّاتِ الأَحْوالِ، وَمُغَيَّباتِ المَآلِ، وَأَصْغَرُ أَمْرٍ مِنْهُ يَظْهَرُ كَبِيْراً، مِثْلَ قِطْعَةٍ مِنَ الصَّخْرِ تُلْقِيْها في الماءِ الصَّافِي، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَها بِأَضْعافِ ذاكَ الَّذي تَكُونُ، أنتَ مِنْ هذا المَعْنى كُنْ فارِغاً، واعْلَمْ أَنَّهُمْ يَعُدُّوْنَ خَمْسَةَ أَصْنافٍ مِنَ الرِّجالِ مِنَ الدَّراوِيْش، واحِدٌ مِنْهُمْ ذاكَ الَّذي لا يَمْلِكُ مِنَ العَقْلِ والعِلْمِ النَّصِيْب، والثَّانِي ذاكَ الَّذي يَمْلِكُ المِزاجَ مَلُوْلاً، والثَّالِثُ ذاكَ الَّذي هُوَ مِنْ لَذَّةِ الأَمْنِ مَحْرُوْمٌ، والرَّابِعُ ذاكَ الَّذي يُنْظَرُ إِلَيْهِ بِنَظَرِ الحَقارَةِ، والخامِسُ ذاكَ الَّذي يَكُونُ دائِماً مُفْتَقِراً وَمُحْتاجاً، وَأَنتَ مِنْ وَسَطِ الرِّجالِ كُنْتَ دائِماً مَطْرُوْداً وَمَأْذِيَّاً، كَأَنَّما قَطَعُوا سُرَّةَ وُجُوْدِكَ على ذِلَّةِ البَطْنِ والاِفْتِقار، اِسْعَ حَتَّى تُعْطي الطَّهارَةَ لِعِرْضِكَ مِنْ تَلْوِيْثِ هذِهِ النَّقائِصِ، قالَ زَيْرَك، قُلْتَ الحَدِيْثَ حَسَناً، لكِنْ أنا كُلَّما نَظَرْتُ في حاصِلِ أَمْرِ هذا العالَمِ، وَجَدْتُ كُلَّ مَنْ طَلَبَ زِيادَةً عَنِ الحاجَةِ يَجْعَلُ مِنَ النَّفْسِ عَبْداً لِلْحِرْصِ والغَضَب، وَهذانِ الخَصْمانِ حِيْنَ يَجِدانِ التَّسَلُّطَ على الرَّجُلِ، يَجِيْءُ دَفْعُهُما عَسِيْراً، والنَّاسُ الجاهِلُوْنَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ بُنْيانَ بَيْتِ أَمَلِهِم مِثْلَ قُبَّةِ الحُبابِ وَسُدَّةِ السَّحابِ، لَهُ

الأَساسُ على الماءِ والهَواء، وَقَدْ جاؤوا بِأَسْبابِ الزَّخارِفِ أَمامَ السَّيْلِ الجارِفِ، وَوَضَعُوْها بَعْضَها على بَعْضٍ، وآخِرَ الأَمْرِ أعْطَوْها لِلْماءِ الأَسْوَدِ لِلْعَدَمِ، *قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِيْنَ أَعْمالاً الَّذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعاً*، وَجَماعَةٌ يَعُدُّوْنَ الزِّيادَةَ في مالِ الدُّنْيا نُقْصاناً، وَيَعْرِفُونَ ذاكَ الشَّمْلَ شَتاتاً، وَذاكَ الجَمْعَ تَفْرِقَةً، في العَقِبِ، جاؤوا نازِلِيْنَ في هذا الرِّباطِ القَدِيْمِ مِنْ أُمُوْرِ هذا العالَمِ بِمَنْزِلِ الأوْساطِ، وَحَصَلُوا على سَبِيْلِ الصَّوابِ في أَثْناءِ الذَّهابِ مِنْ ذلِكَ المَكان، كما قالَ صاحِبُ القَطِيْعِ ذاكَ للرَّاعي، قالَ زَروي، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ صاحِبِ القَطِيْعِ مَعَ الرَّاعي

قالَ زَيْرَك، قَطِيْعٌ كُنْتُ أنا لَهُ الحارِسَ، كانَ لِلْقَطِيْعِ صاحِبٌ مُكْثِرٌ، مُسْتَظْهِرٌ بِأَجْناسِ وَنُقُوْدِ الأَمْوال، إِلَّا أَنَّ قَطِيْعَ خِرافِهِ بالعَدَدِ كانَ أَقَلَّ مِنْ أَلْفٍ، حَتَّى إِذا صارَ النِّتاجُ زائِداً عَنْ أَلْفٍ باعَ مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ يُجاوِزُ الأَلْفَ، يَوماً سَأَلَهُ الرَّاعي أَنْ آخَرُوْنَ لا يَمْلِكُونَ مَقامَ العَبِيْدِ لَكَ، وبالثَّرْوَةِ والاِسْتِظْهارِ لا يَكُوْنُوْنَ واحِداً بالمِئَةِ مِنْكَ، وَيَمْلِكُوْنَ مِنَ الخِرافِ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَيْنِ بالقَطِيْع، وَأَنْتَ لا يَصِلُ قَطِيْعُكَ لِأَلْفٍ أَبَداً، فَما المُوْجِبُ، قالَ اِعْلَمْ أَنَّ الأَلْفَ نِهايَةُ العَدَدِ، وَكُلُّ شَيْءٍ وَصَلَ لِلْغايَةِ، لا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ مُسْتَعْقِبَ النِّهايَةِ، أنا مِنْ هذِهِ الجِهَةِ أَمْلِكُ

القَطِيْعَ تَحْتَ الأَلْف، وَرَأَيْتُ القَطِيْعَ الزَّائِدَ عَنِ الأَلْفِ وَمُحاسِبُو الأرزاقِ على لَوْحِ قِسْمَةِ عَدَدِ تِلْكَ الخِرافِ، جاءَ مِنْ مَرْتَبَةِ الأُلُوْفِ بالمِئاتِ والعَشَراتِ، وَأَوْصَلَها للآحادِ، وَأَبَداً لَمْ يَصِلِ القُصُوْرُ والكُسُوْرُ بِأَعْدادِ خِرافِنا في قانُوْنِ الأَلْف، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنْ أنا ما دُمْتُ حارِسَ القَطِيْعِ، أَسْتَطِيْعُ أَنْ أكُونَ مَحْرُوساً مِنْ آفَةِ الخُصُوْمِ، أمَّا حِيْنَ أَعْمَلُ المُلابَسَةَ لِشِعارِ المُلْكِ، أَكُونُ فَتَحْتُ بابَ مُناقَشَتِهِمْ على النَّفْسِ، وَتَتَوَلَّدُ أماراتُ الفِتَنِ العَظِيْمَةِ مِنْ تِلْكَ الإمارَةِ، وباسْتِخْراجِ العَسَلِ الَّذي يَجِيْءُ حاصِلاً مِنْ تَوَهُّمِ حَلاوَةِ المُلْكِ، أَكُوْنُ أَثَرْتُ نَحْلَ بَيْتِ حَسَدِ الأَضْداد، وَأَكُونُ قُمْتُ بِتَحْرِيْكِ وَتَحْرِيْشِ الأَصْدِقاءِ على عَداوَتي، إنَّهُ أَفْضَلُ أَلَّا أُلْقِيَ الكُرَةَ بالمَيْدانِ الَّذي لا نِهايَةَ لَهُ، وَأَلَّا أَضَعَ القَدَمَ مِنْ صَمِيْمِ الغَفْلَةِ والجُرْأَةِ في هذا التِّيْهِ بِلا جَذْرٍ ولا رَأْسٍ،

أَيْ قَلْبُ أُنْظُرْ حَسَناً لا تَذْهَبْ هُناكَ حَيْرَةً
فَذاكَ الطَّرِيْقُ لا يَصِيْرُ مَقْطُوْعاً بِقَدَمِ مِثْلِكَ

على كِيْسِ الطَّرَّارِ فَجْأَةً لا تَجْعَلِ العَيْنَ
فَما أَنْ تَنْظُرَ حَتَّى يَكُوْنَ قَدْ شَقَّ جَيْبَكَ

قالَ زَروي الكلامُ صَحِيْحٌ وَلكِنْ، لا يَعْلَمُ مَجِيْءَ الأَحْوالِ صَحِيْحاً إِلَّا مُسَبِّبُ الأَسْبابِ، وَهَذِهِ القاعِدَةُ غَيْرُ مُطَّرِدَةٍ، وَلِعَكْسِ هذِهِ القاعِدَةِ

أَخَواتٌ وَنَظَائِرُ كَثِيْرَةٌ، هكذا كما رَأَيْتَ أَلْفَ صاحِبِ غايَةٍ جاءَ مِنْ أَعلى التَّرَقِّي إلى مُنْخَفَضِ الاِنْحِطاطِ، وَرَأَيْتَ أَلْفَ صاحِبِ بِدايَةٍ ذَهَبَ مِنْ حَضِيْضِ التَّسَفُّلِ إلى ذُرْوَةِ الاِرْتِفاعِ، الطَّبِيْبُ يَعْمَلُ خِدْمَةَ الطَّبِيْعَةِ، أَمَّا الشِّفاءُ مِنَ المَرَضِ فَيَجِدُهُ ذاكَ الَّذي وَجَدَ الدَّواءَ مِنْ صَيْدَلِيَّةِ، *وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِي*، وإذا كانَ لِلْمَرِيْضِ الأَجَلُ المَحْتُوْمُ فالطَّبِيْبُ غَيْرُ مَلُوْمٍ، ولا يَكُوْنُ مُعاتَباً، *اِعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ*، زَيْرَك مِنَ الإِصْغاءِ لِهَذِهِ الفُصُوْلِ الَّتي كانَتْ جَمِيْعاً أُصُوْلَ العَمَلِ، صارَتْ لَهُ الهِمَّةُ بِتَحَرُّكِ الأَمَلِ وَدَخَلَ بالعَمَلِ، وَقالَ، لَقَدْ جَعَلْتُ زِمامَ تَصَرُّفِ هذا المُهِمِّ في كَفِّ كِفايَتِكَ، وَأَعْطَيْتُ عِنانَ رِياضَةِ هَذا المَرْكَبِ الجَمُوْحِ لِيَدِ اخْتِيارِكَ، واتَّخَذْتُكَ إماماً في تَحَرِّي جِهَةِ الصَّوابِ وَتَتَبُّعِ قِبْلَةِ الحَقِّ، فَتَقَدَّمْ بِالأَمْرِ كما تَعْلَمُ وَتَقْدِرُ بِلا تَكاسُلٍ وَتَوانٍ، فَكُلُّ ما كانَ مَوْضُوْعَ التَّقْدِيْرِ، لا مَحالَةَ يَجِيْءُ في قالَبِ التَّدْبِيْرِ، وَعَلى اخْتِلافِ الأَيَّامِ يَصِلُ للظُّهُوْرِ،

وَلَيْسَ امْرُؤٌ في النَّاسِ أَنْتَ سِلاحُهُ   عَشِيَّةَ يَلْقى الحادِثاتِ بِأَعْزَلِ

زَرْوِي قالَ، ما دُمْتَ جَعَلْتَ النِّيَّةَ على تَيْسِيْرِ هذا المُرادِ، فَيَجِبُ أَلَّا تَصِيْرَ مُتَبَرِّماً بِإِنْفاذِ هَذِهِ العَزِيْمَةِ، وَأَلَّا تُرْجِعَ مُنْصَرِمَةً عُرْوَةَ الصَّرِيْمَةِ، ولا تُعْطِيَ الطَّرِيْقَ للتَّرَدُّدِ والتَّبَلُّدِ لِلْخاطِرِ، كُنْ قَوِيَّ القَلْبِ وَثابِتَ الرَّأْيِ وَراسِخَ القَدَمِ وَنافِذَ العَزْمِ وَصاحِيَ الحَزْمِ، حَتَّى وَجْهُ

الآمالِ مِنْ حُجُبِ الإمْكانِ سَرِيْعاً يَعْطِي الخَيْرَ، وَسَعادَةُ حُصُوْلِ ذاكَ عَنْ قَرِيْبٍ تُلْقي الظِّلَّ، وَأنا لِيْ مَعَكَ الآنَ بِضْعُ أَحادِيْثَ أَقْدِرُ أَقُوْلُها لَكَ اليَوْمَ، لا ذلِكَ اليَوْمَ الَّذي تَصِيْرُ فِيْهِ هَيْأَةُ مُلْكِكَ في لِباسِ الهَيْبَةِ، وَقامَةُ دَوْلَتِكَ مُرْتَدِيَةً قَباءَ الاِسْتِقامَةِ، حَيْثُ تَأْخُذُني دَهْشَةُ مِثْلِ تِلْكَ الحَضْرَةِ، فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَقُوْلُ الحَدِيْثَ في مَصالِحِ المُلْكِ، وَأُرِيْدُ أَنْ أُعْطِيَ العَرْضَ لِمَحاسِنِ وَمَقابِحِ ذاكَ، وَأُطْلِقَ النَّفَسَ في رَتْقِ وَفَتْقِ أُمُوْرِ الدَّوْلَةِ، وَرَفْعِ وَوَضْعِ مَباني المَمْلَكَةِ، وَأَعْمَلَ الرِّعايَةَ لَكَ بِشَرائِطِ الرُّجُوْعِ في مَجارِي الأُمُوْرِ مَعَ الرَّأْيِ والرَّوِيَّةِ، لا أَقْدِرُ على الجُرْأَةِ وَعَدَمِ مُراعاةِ الحُرْمَةِ والكَوْنِ بِلا وَقارٍ أَبَداً، وَإِلَّا باخْتِلاسِ الفُرْصَةِ وانْتِهازِ وَقْتِ القَوْلِ لا أَرى الصَّلاحَ، وَمُقَرَّرٌ أَنَّ بَعْضاً مِنَ النَّاسِ حِيْنَ يَصِلُوْنَ مِنَ الدَّرَجَةِ النَّازِلَةِ إلى الدَّرَجَةِ الرَّفِيْعَةِ، يَتَغَيَّرُ طَبْعُهُمْ، وَيُظْهِرُوْنَ بِمِقْدارِ دَوْرَةِ الحالِ تَفاوُتاً في مُعاشَرَةِ الصُّحْبَةِ مَعَ الغَرِيْبِ والصَّدِيْقِ، غَداً حِيْنَ مَشَّاطَةُ التَّقْدِيْرِ تُمَشِّطُ زُلْفَكَ، وَتَرى النَّفْسَ في مِرْآةِ البَخْتِ العَظِيْمِ وَتَرى صَغارِي، وَأنا لي أَسْنانُ ذاكَ الطَّمَعِ، أنْ كَيْفَ تَكُونُ مَعي كَأَسْنانِ المِشْطِ بالدَّرَجَةِ، مُتَوازِياً وَمُتَساوِياً، يَجِبُ العَمَلُ حَتَّى لا تَجْلِسَ بالوَسَطِ تُهْمَةُ الإشْتِراكِ بالمُلْكِ، ولا يَقْبَلَ مِزاجُ الأَمْرِ الفَسادَ بالتَّخالُفِ والتَّجانُفِ، قالَ زَيْرَك، قُلْتَ حَسَناً، لكِنْ بِمُساعَدَةِ الزَّمانِ، طَلَبُ مُباعَدَةِ الإخْوانِ، وَجَرُّ ثَوْبِ التَّجَبُّرِ والخُيَلاءِ على الأَرْضِ مَعَ الأَخِلَّاءِ، علامَةُ خَساسَةِ النَّفْسِ وَنَجاسَةِ العِرْضِ

وَدَناءَةِ الهِمَّةِ وَرَداءَةِ السِّيْرَةِ وَمِنْ ذاكَ المَعْنى أُظْهِرَ تَصْغِيْرُ وَتَنْزِيْرُ مِقْدارِ النَّفْسِ، كُلُّ شَيْءٍ بِشَرْطِ القَوْلِ والفِعْلِ مَشْرُوْطٌ، وَمُفْضٍ لِتَمَشِّي الأُمُورِ يَجِبُ قَوْلُهُ، وَيَجِبُ رَفْعُ نِقابِ الخَجَلِ عَنْ وَجْهِ مَصْلَحَةِ الحال، وَإِظْهارُ كُلِّ ما هُوَ لائِقٌ بِأَخْلاقِ المُلُوْكِ، وَلِكَيْ يَجِيْءَ الحُكْمُ فاعِلاً، كَيْما في عَقْدِ الأَمْرِ نَطْلُبُ ذاكَ التَّوْفِيْقَ والفَتْحَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قالَ زَروي، الشَّرْطُ الأَوَّلُ هُوَ ذاكَ، أنْ تَجْعَلَ قائِلِي السُّوْءِ بَعِيْدِيْنَ عَنْ مُجاوَرَتِكَ، وَكُلَّ الَّذي تَسْمَعُ مِنْ نَفْيٍ وَإِثْباتٍ، بلا اسْتِقْصاءٍ واسْتِقْراءٍ يَذْهَبانِ في تَحْقِيْقِ ذاكَ، لا تُجِيْزُ الحُكْمَ على أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ، وَبِأَوَّلِ وَهْلَةٍ بِلا مُهْلَةٍ لا تُعْطي المَجال في سَمْعِ رِضا النَّفْسِ، حَتَّى على الفِعْلِ الَّذي يَجِبُ تَجَرُّعُ النَّدامَةِ مِنْهُ لا يَكُوْنُ ذَهابٌ بالمُبادَرَةِ، *يا أَيُّها الَّذيْنَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُم فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيْبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا على ما فَعَلْتُمْ نادِمِيْن*، وَإِذا طَلَبَ واحِدٌ مِنَ المُتَحاكِمَيْنِ رَفْعَ الظُّلامَةِ، اِجْعَلْ رَفْعَ تِلْكَ مَوْقُوْفاً على حُضُوْرِ الخَصْمِ وَجَوابِهِ، واعْرِفِ الاِقْتِداءَ بِقُدْوَةِ أَصْحابِ الرَّسُوْلِ واجِباً، كما أَمَرَ القاضِي بالحَقِّ والخَلِيْفَةُ المُطْلَقُ أَمِيْرُ المُؤمِنِيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِ، *لا تَقْضِ لِأَحَدِ الخَصْمَيْنِ دُوْنَ أَنْ تَسْمَعَ كلامَ الآخَرِ*، وَيَجِبُ أَلَّا تَأْمُرَ بِتَعَوُّدِ اللِّسانِ على قَوْلِ السُّوْءِ، وَعلى الخُشُوْنَةِ والفُحْشِ، فَقَدْ حَصَلَ لِعِيْسى عَلَيْهِ السَّلامُ في وَقْتٍ أَنَّهُ صادَفَ كَلْباً عَقُوْراً مَجْنُوْناً فَقالَ لَهُ، *صَحِبَتْكَ السَّلامَةُ*، سَأَلُوا أنْ لِماذا

في حَقِّ مِثْلِ هذا الحَيَوانِ النَّجِسِ تَجِيْءُ بِمِثْلِ هذا اللَّفْظِ، قالَ حَتَّى يَصِيْرَ اللِّسانُ مُعْتاداً على الخَيْر، فالنَّفْسُ الإِنْسانِيَّةُ تَقْبَلُ الطَّبْعَ، وَيَجِبُ على سَمْعِكَ أَنْ يَأْبى سَماعَ السُّوْءِ، فَإِنَّ مَساوِئَ الخَلْقِ وَإِنْ كانَتْ لا تُظْهِرُ السُّوْءَ في الحال، مَعَ الزَّمَنِ تَصِيْرُ مُؤَثِّرَةً، وَآثارُ ذاكَ شَيْئاً فَشَيْئاً تَصِيْرُ ظاهِرَةً، مِثْلَما وَقَعَ لِلْفَأْرِ مَعَ الهِرِّ، سَأَلَ زَيْرَك، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّة،

قِصَّةُ الفَأْرِ مَعَ الهِرِّ

قالَ زَروي، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ في وَقْتٍ، رَجُلٌ دَرْوِيْشٌ ضَيِّقُ ذاتِ اليَدِ وَمُقِلُّ الحالِ، كانَ يَمْلِكُ في البَيْتِ هِرَّاً ، الهِرُّ كانَ دائِماً جائِعاً، مِنْ فَقْدِ القُوْتِ صارَتْ قُوَّتُهُ ساقِطَةً، وَوَقَعَ ضَعِيْفاً وَمَرِيْضاً، الفَأْرُ كانَ مِنْ زَمَنٍ بَعِيْدٍ اتَّخَذَ في رُكْنِ ذاكَ البَيْتِ وَطَناً، وَمِنْ مَنافِذِ الأَرْضِ مِنْ أَنْواعِ الغِلالِ جَعَلَ مُدَّخَراً، قالَ مَعَ النَّفْسِ، هذا الهِرُّ الَّذي وَقَعَ هكذا عاجِزاً وَضَعِيْفاً، يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ مِنْ عالَمِ الغَيْبِ قُوْتٌ لَمْ يُعْطَهُ والآنَ يُعْطاهُ، وَيَصِيْرُ قَوِيَّ الحالِ، وَيَصِلُ مِنْ فِراشِ المَرَضِ لانْتِعاشِ الصِّحَّةِ، وَيَصِيْرُ مُسْتَغْنِياً عَنِّي، وَيَصِيْرُ الحالُ كما قالُوا،

فَبادِرْ بِمَعْرُوْفٍ إِذا كُنْتَ قادِراً　　حِذارَ زَوالٍ أَوْ غِنىً عَنْكَ يَعْقُبُ

وَأنا هذا اليَوْمَ أَتَرَدَّدُ بالتَّجَرُّؤِ، وَأَمُرُّ على مَكامِنِ مَكْرِهِ بالتَّجاسُرِ، في ذاكَ اليَوْمِ الآَخَرِ عَلَيَّ أنْ أَسْحَبَ القَدَمَ في ثَوْبِ السُّكُونِ، وَأنْ أَصِيْرَ مُنْزَوِياً في مَسْكَنِ بَيْتِ الأَحْزان، وَأَنْ أَزْحَفَ كُلَّ العُمْرِ خائِفاً وَخافِياً في الجُحْرِ، أمَّا إذا في مَقامِ الحاجَةِ هذا، دَخَلْتُ مَعَهُ مِنْ بابِ المُواساةِ، وَمُحاماةً لِلْنَّفْسِ جَلَبْتُ شَيْئاً تُحْفَةً مِنْ هذِهِ المَآكِلِ اللَّذِيْذَةِ الَّتي أَمْلِكُ، والَّتي زَوايا بَيْتِي مَمْلُوْءَةٌ مِنْها، وَإذا أنا قَرَأْتُ، *وَخَيْرُ المالِ ما وُقِيَ بِهِ النَّفْسُ*، لا شَكَّ بِواسِطَةِ تِلْكَ المُفاداةِ، تَرْتَفِعُ المُعاداةُ مِنَ الوَسَطِ بَيْنَنا، وَمِنْ هذِهِ المُواصَلَةِ أَصِيرُ آمَناً مِنَ المُصاوَلَةِ مَعَهُ، وَأَبْقى دائِماً آمِناً، وَفي كُلِّ نَوْبَةٍ يَرى مِنِّي هذا التَّبَرُّعَ والتَّبَرُّكَ يَجْلِسُ في قَلْبِهِ حُبٌّ جَدِيْدٌ، وَذاكَ الَّذي قالُوا أَنِ العِلْمُ الكامِلُ هُوَ ذاكَ الَّذي يَقْبَلُهُ أَهْلُ العِلْمِ، والفَضْلُ الفائِقُ هُوْ ذاكَ الَّذي يَعْتَرِفُ بِهِ العَدُوُّ، والعَطاءُ الحَسَنُ هُوَ ذاكَ الَّذي لا يَجْعَلُكَ دَرْوِيْشاً، والمالُ الفاعِلُ هُوَ ذاكَ الَّذي يَجْعَلُ مِنَ العَدُوِّ صَدِيْقاً، يَجِبُ عَمَلُ اِسْتِعْمالِهِ هُنا، *قِيْلَ ما اسْتُرْضِيَ الغَضْبانُ ولا اسْتُعْطِفَ السُّلْطانُ ولا اسْتُمِيْلَ المَحْبُوبُ ولا تُوُقِّيَ المَحْذُوْرُ إِلّا بالهَدِيَّةِ*، ثُمَّ أجْعَلُ تِلْكَ الصَّداقَةَ مَعَهُ مُؤَكَّدَةً بِمَواثِيْقِ العُهُوْدِ وَمُغَلَّظاتِ الأَيْمانِ، حَتَّى لا يَكُوْنَ قاصِداً لي فَيْما بَعْد، وَحَتَّى يَقْطَعَ الطَّمَعَ مِنِّي كُلِّيّاً، وَيَصِيْرَ مَعي قَلْباً واحِداً، وَحَبْلُ الوِدادِ والاِتِّحادِ الَّذي يَلِيْقُ باسْتِمْساكِ الأَصْحابِ والأحْبابِ يَكُونُ مُضاعفاً مِنَ الجِهَتَيْنِ، على هَذِهِ الفِكْرَةِ ذَهَبَ وَجَمَعَ حَفْنَةً مِنَ

المَأْكُولاتِ الَّتي عَرِفَها مُشْتَهى طَبْعِ وَمُنْتَهى طَلَبِ الهِرِّ، وَحَمَلَها أَمامَ الهِرِّ، وَعَلى عادَةِ العَبِيْدِ جاءَ بِعِيادَتِهِ بِمَكانِها، وَوَضَعَ تِلْكَ التُّحْفَةَ أَمامَهُ وَقالَ، الباعِثُ لي لِلْمَجِيْءِ بالخِدْمَةِ هُوَ ذاكَ، أَنِّي وَجَدْتُكَ بِهذِهِ الصِّفاتِ، بالعَقْلِ وَقِلَّةِ الأَذى وَطَلَبِ العافِيَةِ ومُمارَسَةِ العِفَّةِ وَقَصْرِ اليَدِ وَفُنُوْنِ الخَصائِلِ الكَرِيْمَةِ والخَصائِصِ الحَمِيْدَةِ، في هذا الأَلَمِ أنا أَمْلِكُ الأَسَفَ، وَلَوْ كانَتْ هَذِهِ العارِضَةُ تَقْبَلُ الإِسْتِبْدالَ، كُنْتُ صِرْتُ بِقَبُولِ اسْتِقْبالِ تِلْكَ،

لَوْ كانَتِ الأَمْراضُ مَحْمُوْلَةً يَحْمِلُها القَوْمُ عَنِ القَوْمِ
حَمَلْتُ عَنْ جِسْمِكَ ثِقْلَ الأَذى حَمْلَ جُفُوْني ثِقَلَ النَّوْمِ

أَعْلَمُ أَنَّ سَبَبَ ضَعْفِكَ وانكِسارِكَ انْقِطاعُ مَدَدِ الغِذاءِ، لا مادَّةُ عِلَّةٍ أُخرى، أَعْطَيْتُ عُجالَةَ الوَقْتِ هذا التَّرْتِيْب، وَبَعْدَ اليَومِ أَجْعَلُ رَواتِبَ الخِدْمَةِ هذِهِ جارِيَةً يَوْماً فَيَوْماً، وَكُلَّ يَوْمٍ مِنْ كُلِّ ذاكَ الَّذي هُوَ مَقْدُوْرٌ أَحْمِلُ حِمْلاً مُرَتَّباً حَتَّى تَتَناوَلَهُ بالسَّعادَةِ، وَتَجِيْءُ ظاهِرَةً آثارُ السَّلامَةِ، قالَ الهِرُّ، لا شَكَّ أَنَّهُ إِذا كُنْتَ تُرِيْدُ بِهذِهِ المُواعَدَةِ وسُلُوكِ الاِسْتِقْبالِ إِظْهارَ الوَفاءِ، وَكُلُّ ذاكَ الَّذي تَمْلِكُ بالفِكْرِ يَصِيْرُ مُقارِنَ العَمَلِ، وَيَجِيْءُ مِنَ القَوْلِ لِلْفِعْلِ، يَجِيْءُ ظاهِراً في امْتِنانِ هذا، الخَيْرُ والإِحْسانُ لَكَ، مَعَ فَضِيْلَةِ اليَدِ العُلْيا، وَمُعْجِزَةِ اليَدِ البَيْضا بِمُعالَجَةِ هذا الدَّاءِ المُعْضِلِ الَّذي وَصَلَ إِلَيَّ، وَحَدِيْثُ، *حُبُّ الهِرَّةِ مِنَ الإِيْمانِ*،

يَجِدُ النُّزُولَ في شَأْنِكَ بِحَقٍّ، قالَ الفَأْرُ، رَغْمَ أَنِّي بِحُسْنِ طَرِيْقَتِكَ واثِقٌ، وَعَنْ باطِنِكَ بِلا غائِلَةٍ مُدْرِكٌ، لكِنَّني أَطْلُبُ رُكُونَ النَّفْسِ وَسُكُوْنَ القَلْبِ، وَأَنْ تُجَدِّدَ لِي الإِيْمانَ بِحُسْنِ عَهْدِكَ بالأَيْمانِ المُغَلَّظَةِ، وَفي هذا الاِلْتِماسِ لا تُلْقِ عَلَيَّ الشَّكَّ، فَطَلَبُ خَلِيْلِ اللهِ مَعَ مَنْقَبَةِ النُّبُوَّةِ وَكَمالِ الخُلَّةِ هُناكَ، أَنْ كانَ يَطْلُبُ مِنْ أُسْتاذِ قَدَرِ صَنْعَةِ العَمَلِ الإِحْياءَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى، حَتَّى المُعايَنَةُ تُعْطي الجَلْوَةَ في مِرْآةِ الحِسِّ، وَهكذا كانَ حَتَّى قالَ، *أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بلى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي*، وَأَنَّكَ مَعَ الإلهِ واهِبِ الرُّوْحِ لِلْجِسْمِ تَرْتَبِطُ بِعَمَلِ العَهْدِ مَعَ النَّفْسِ، أنْ إِذا جاءَ البُرْءُ مِنْ هذا المَرَضِ حاصِلاً لِمِزاجِكَ الشَّرِيْفِ وَنَفْسِكَ العَزِيْزَةِ، والصِّحَّةُ والاِعْتِدالُ أَظْهَرا الوَجْهَ، والقُوى الطَّبِيْعِيَّةُ رَجَعَتْ لِقَرارِ الأَصْلِ، أَنَّكَ لا تَرْجِعُ عَنْ قرارِ هذا العَهْدِ، ولا تُشِيْبُ عِيارَ الرَّحْمَةِ والإِشْفاقِ بِشائِبَةِ النِّفاقِ، حَتَّى مِنْ سَعادَةِ، *أَوفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُم*، لا تَبْقى بِلا نَصِيْبٍ، قالَ الهِرُّ، بالإِلهِ الَّذي جَعَلَ البَيْتَ الظَّلْمانِيَّ لِلْبَشَرِيَّةِ مُنَوَّراً بِنُوْرِ المَعْرِفَةِ، وَجَعَلَ الإِيْمانَ العُرْيانَ مُزَيَّناً بِزِيْنَةِ حُسْنِ العَهْدِ، هُناكَ وَقْتَ تَوَسُّطُ لُطْفِهِ يَنْهَضُ بِتَأْلِيْفِ شَوارِدِ القُلُوْبِ النَّافِرَةِ، تَجْلِسُ ما بَيْنَ الفَأْرِ والهِرِّ مَحَبَّةُ الأُمِّ والوَلَدِ، وَوَقْتَ كَرامَةُ رِفْقِهِ بِإِصْلاحِ ذاتِ البَيْنِ تَضَعُ القَدَمَ بالوَسَط، يُعْطي لِلذِّئْبِ مَعَ الشَّاةِ أُلْفَةَ الأَخِ والأُخْتِ، والَّذي شَقَّ عَنْ أَشْواكِ النِّفاقِ أَوْرادَ الوِفاقِ، وَغَرَسَ في وَحْشَةِ آبادِ التَّناكُرِ غَرْسَةَ التَّعارُفِ، *لَوْ*

أَنْفَقْتَ ما في الأَرْضِ جَمِيْعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، أنَّهُ مِنْ بَعْدِ هذا نُزِيْلُ طاهِراً مِنْ داخِلِ القُلُوْبِ دَرَنَ العَداوَةِ وَخَبائِثَ الدَّخْلَةِ الواحِدُ مَعَ الآخَرِ، ولا نَجْعَلُ واهِياً عَقْدَ المُوالاةِ والمُؤاخَاةِ، وَفي مَجالِ التَّيَسُّرِ وَمَضِيْقِ التَّعَسُّرِ يَأْخُذُ أَحَدُنا بِيَدِ الآخَرِ، وَقَدَمَ المُرُوْءَةِ والمُعاوَنَةِ والمُظاهَرَةِ نَعْرِفُ واجِبَةً، وَنَجْعَلُ الظَّاهِرَ والباطِنَ بِرِعايَةِ حُقُوْقِ الصُّحْبَةِ مُراقَباً وَمُراعىً، وَإِذا عَنْ هذا عَبَرْنا، وَقَضِيَّةَ الشَّرْعِ والرَّسْمِ أَهْمَلْنا، وَكُنَّا ناقِضِيْنَ لِلْعَهْدِ والأَيْمانِ، وَأَبْطَلْنا حُدُوْدَ أَوامِرِ الحَقِّ، نَكُوْنُ، *اَلَّذِيْنَ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيْثاقِهِ وَيَقْطَعُوْنَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُوْنَ في الأَرْضِ أولَئِكَ هُمُ الخاسِرُوْنَ*، على هذا النَّمْطِ عَمِلا المُعاهَدَةَ، الهِرُّ الَّذي كانَتْ قَبْضَةُ يَدِهِ مِنَ النُّحُولِ خَلْفَ رُكْبَتِهِ كانَ جالِساً، عِرْقُ رُوْحِهِ جاءَ بالرَّقْصِ طَرَباً، وَنايُ حَلْقِهِ الَّذي كانَ يُطْلِقُ الآهاتِ مِنَ العَجْزِ صارَ حَسَنَ الحالِ بِأَمَلِ تِلْكَ النَّوالاتِ، وَبِإِنْجازِ مَواعِيْدِ تِلْكَ الفَوائِدِ، وَعَوائِدِ تِلْكَ المَوائِدِ، زادَ لَهُ السُّرُوْرُ والنَّشاطُ، والتَّبَجُّحُ والاِغْتِباطُ، قالَ لِلْفَأْرِ بِما أَنَّكَ أَلْقَيْتَ أَساسَ المُوافَقَةِ، وَرَبَطْتَ سِلْسِلَةَ المُصادَقَةِ، وَبِما أَنَّهُ صارَتْ مُنْزَوِيَةً دائِماً في ضَمائِرِنا وَضَمائِرِكُمُ العَداوَةُ والبَغْضاء، وَصارَتْ مُنْطَوِيَةً مِنْ أَنْحاءِ القَلْبِ وَأَحْناءِ الصَّدْرِ العَداوَةُ والضَّغِيْنَةُ، الواحِدُ لِلآخَرِ، وَغايَةُ الكِفايَةِ وَكَمالُ الدِّرايَةِ مِنْكَ يَكُونُ الباعِثَ لِذاكَ، إِذْ أنا المَصْدُومُ بِهذِهِ المِحنَةِ، والواقِعُ بالاِضْطِرابِ بالشِّدَّةِ، لا أَكُونُ

في مَقامِ الخَوْفِ وَفِي مَعْرَضِ الطَّمَعِ بِإهداءِ هذِهِ التُّحَفِ والهَدايا، أنَّكَ تَعْمَلُ الإفْتِتاحَ لِهَذِهِ اللُّطَفِ، وَتَجِدُ قَدَمُكَ فَضْلَ التَّقَدُّمِ في حَلْبَةِ المُسابَقَةِ، إذا كُنْتَ تُجْري الحَقَّ وَتَمْلِكُ المِنَّةَ، لا أُظْهِرُ القِيامَ، وَإلى قِيامِ السَّاعَةِ أَكُوْنُ رَهِيْنَ هذِهِ الأرْيَحِيَّةِ، وَرَقِيْقَ هذِهِ الحُرِّيَّةِ، لا أَكُونُ الكَلْبَ الَّذي هُوَ أَخَسُّ وَأَنْجَسُ الحَيَواناتِ، فَأنا الهِرُّ الَّذي جاءَ ذِكِري على لِسانِ النُّبُوَّةِ، وَأُعْطِيْتُ هذا التَّشْرِيْفَ، *إِنَّها مِنَ الطَّوَّافِيْنَ عَلَيْكُمْ والطَّوَّافات*، على هذِهِ المُخالَصَةِ والمُلاطَفَةِ مِنْ أَحَدِهِما لِلآخَرِ افْتَرَقا، ذَهَبَ الفَأْرُ وَشَمَّرَ عَنِ الوَسَطِ بِتَرْتِيْبِ راتِبَةِ الغَدِ، وَهكذا إلى مُدَّةٍ ظَلَّ يَضْبِطُ وَيُرَتِّبُ وَظائِفَ الغَدَواتِ والعَشَوات، وَظَلَّتْ هذِهِ الطَّرِيْقَةُ ما بَيْنَهُما مَعْمُولَةً مُدَّةً، الهِرُّ صارَ بَطْنُهُ بِأَرْبَعَةِ خَواصِرَ مِنَ النِّعْمَةِ، وَمِنَ البَطْنِ صارَ مَمْلُوْءَ العُنُقِ وَبارِزَ الكِفْلِ، إلَّا أَنَّ دِيْكاً كانَ جَلِيْساً لَهُ، وَكانَ لَهُما الاِخْتِلاطُ مَعاً، كانا مَعاً في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والعِيانِ والخَفاء، وَإِلَّا بالهَوى لَمْ يَكُونا يَتَكَلَّمانِ الواحِدُ لِلآخَرَ، الدِّيْكُ حِيْنَ شاهَدَ اخْتِصاصَ الفَأْرِ بالمُجالَسَةِ والمُؤانَسَةِ مَعَ الهِرِّ، فَكَّرَ أنْ مُوافَقَتُهُ سَتَجْعَلُ الهِرَّ مُسْتَغْنِياً عَنْ مُصادَقَتي، وَإذا وَجَدَ الاِسْتِغْناءَ، لا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لائِقاً بِيَ الطَّمَعُ مِنْهُ، فالعاشِقُ يَجْذِبُهُ كَثِيْراً دَلالُ المَعْشُوْقِ، إِذْ كانَ مُحْتاجاً إِلَيْهِ، وَقَدِ ارْتَبَطَ بِمَحَبَّتِهِ كَثِيْراً إذْ لَمْ يَرْبِطِ القَلْبَ بِمَحَبَّةِ آخَرَ،

وَكـانَتْ لَـوْعَةٌ ثُـمَّ اسْتَقَـرَّتْ كَـــذاكَ لِكُلِّ سائِلَـةٍ قَـرارُ

بالاِنْقِطاعِ مِنْ مَوادِّ هذِهِ المَوَدَّةِ فَكَّرْتُ، سَوْفَ أُلْقي بُنْيانَ تَأْكِيْدِ هذِهِ الصَّداقَةِ بالمَكِيْدَةِ، ثُمَّ نَهَضَ وَذَهَبَ أَمامَ الهِرِّ وَقالَ، أَيَّاماً كُنْتُ أَسْمَعُ هذا الفَأْرَ قَبِيْحَ المَنْظَرِ سَيِّئَ المَخْبَرِ ذَمِيْمَ الدَّخْلَةِ دَمِيْمَ الطَّلْعَةِ، طُوْلَ النَّهارِ يَحْكِي مَقابِحَ سِيْرَتِكَ وَمَفاضِحَ سَرِيْرَتِكَ أَمامَ الجِيْرانِ، وَيُعِيْدُ القَوْلَ عَنْكَ، عَنْ عَدَمِ الوَفاءِ وَقِلَّةِ الحَياءِ وَكَثْرَةِ الأَذى وَقِلَّةَ الشَّرَفِ، وَيُظْهِرُ بالقَوْلِ أَنْ أَنا سَبَبُ بَقائِهِ، وَأَنا الَّذي أَعَدْتُ لَهُ الرُّوْحَ الجَدِيْدَةَ لِلْقالَبِ الذَّابِلِ، وَمِثْلَ الاِسْكَنْدَرِ عَقَدْتُ لَهُ سَدَّ الرَّمَقِ الَّذي كانَ صَدَعَهُ ياجُوْجُ الفَناءِ، وَمِثْلَ الخِضْرِ جِئْتُ لَهُ بِماءِ الحَياةِ، لكِنْ مِنْ مُساوَرَتِهِ في مُجاوَرَتِهِ لَيْسَ حاصِلاً لِيَ الأَمْنُ، وَفي النَّوْمِ واليَقَظَةِ خَيالُ غَدْرِهِ أَمامَ خاطِرِي، في الجُمْلَةِ خَطَرُ صُحْبَتِكَ في الخَواطِرِ جَلَسَ هكذا، أَنْ لا تَسْأَلْ، وَغُبارُ الغَيْظِ مِنَ القُلُوْبِ أُثِيْرَ هكذا، أَنْ إِذا يَوْماً جاءَتْ قَدَمُكَ على صَخْرَةِ مِحْنَةٍ لا شَخْصَ يَمُدُّ لَكَ يَدَ الإعانَةِ، وما اسْتَطاعُوا يَقْصِدُوْنَكَ باللَّطْمِ والأذى، إذا أَضَأْتَ مِصْباحَ البَصِيْرَةِ، وَوَجَدْتَ صَباحَ الهِدايَةِ، فَمُبارَكٌ، وَإِلَّا قَرَأْتُ، *على الدِّيْكِ الصِّياحُ*، أنتَ تَعْلَمُ، الهِرُّ اعْتَبَرَ هذا الحَدِيْثَ مُسْتَبْدَعاً، وَجاءَ في مَذاقِ قَبُوْلِهِ مُسْتَبْشَعاً، لكِنْ كَما هُوَ مَعْهُوْدٌ مِنْ تَسْوِيْلِ المُسَوِّلِيْنَ وَتَخْيِيْلِ المُخَيِّلِيْنَ، لَمْ يَبْقَ خالِياً مِنَ التَّأَثُّرِ وَتَغَيُّرِ الحالِ، *وَمَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ*،

قالَ لِلْنَّفْسِ، *ما الحُبُّ إِلّا لِلْحَبِيْبِ الأَوَّلِ*، الدِّيْكُ كانَ دائِماً مَعِي في بُرْدَةِ الاِحْتِراقِ، وَكانَ مُغْتَمّاً لِأَمْرِي وَمُوافِقاً لِي، وَمِنَ العَهْدِ الأَوَّلِ إِذْ كُنْتُ لا أزالُ مُدَلَّلَ المَنْزِلِ، وَكانَ هُوَ فَرْخاً بالعُشِّ، كانَ لِيْ مَعَهُ اللِّقاءُ بالفَأْلِ المَيْمُونِ والمُبارَكِ، وَصِدْقُ مُصاحَبَتِهِ في تِلْكُ المُداعَبَةِ والمُلاعَبَةِ الَّتي كانَتْ لَنا، مِنْ أَيَّامِ الصِّبا وَمَوْسِمِ الطُّفُوْلَةِ إلى يَوْمِنا هذا، وَجَدْتُهُ مُتَضاعِفاً، وَرَغْمَ أَنِّي هذا اليَوْمَ ارْتَبَطْتُ بِآخَرَ، فَإِنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أَرْجِعَ عَنْ ذاكَ،

كَتارِكَةٍ بَيْضَها بالعَراءِ   وَمُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخرى جَناحا

كُلُّ الَّذي يَقُوْلُ في حِسابِ العَقْلِ مَحْسُوْبٌ، وَفِي كِتابِ العِلْمِ مَكْتُوْبٌ، لكِنَّني سَأَسْتَعْلِمُ شَيْئاً عَنْ علاماتِ الأَمْرِ، أنْ ما هذا الَّذي يَقُوْلُ، ثُمَّ قالَ، أَيْ أَخُ، مِنْ أَيْنَ تَكُونُ طُمَأْنِيْنَتي على صِدْقِ هذا الحَدِيْثِ، الدِّيْكُ قالَ، *يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيْماهُمْ*، لَوْ أَنَّكَ نَظَرْتَ في لَوْحِ ناصِيَتِهِ، لاسْتَطَعْتَ مُطالَعَةَ لَوائِحِ هذِهِ الأَماراتِ مِنْهُ، بِأَنَّهُ يَجِيْءُ إلى أَمامِكَ وَيَجْلِسُ خافِضَ الرَّأْسِ وَخائِفاً، وَأَنَّهُ يَجْلِسُ مُتَحَرِّزاً وَمُتَحَذِّراً، وَيُلْقِي بالنَّظَرِ إلى كُلِّ جانِبٍ، وَلَحْظَةً فَلَحْظَةً يَكُونُ مُنْتَظِراً أَنْ يَرى مِنْكَ آفَةً،

فَلا تَصْحَبْ أَخا حُمْقٍ   وَإِيَّــاكَ وَإِيَّــاهُ
فَكَمْ مِنْ جاهِلٍ أَرْدى   حَكِيْماً حِيْنَ واخاهُ

وَلِلْقَلْبِ على القَلْبِ   دَلِيْلٌ حِيْنَ يَلْقاهُ
وَلِلْنَّاسِ مِنَ النَّاسِ   مَقايِيْسٌ وَأَشْباهُ

وَبَيْنَما هُما في هذا الحَدِيْثِ إِذْ دَخَلَ الفَأْرُ مِنَ الباب، نَظَرَ الهِرُّ إِلَيْهِ نَظَرَ السُّخْطِ والعِداء، حَتَّى جاءَ بِكُلِّ ذاكَ الَّذي كانَ مِنْ محاسِنِ صِفاتِهِ بِلِباسِ المَقابِحِ أَمامَ خاطِرِهِ،

صُوْرَةٌ أَجْمَلُ مِنْ صُوْرَةِ المَلاكِ   تَظْهَرُ لَكَ وَجْهَ شَيْطانٍ مِنَ الخَنْجَر

جَعَلَ الدِّيْكَ بِكُلِّ ما قالَ مُصَدَّقاً، وذاكَ الَّذي جاءَ في خَيالِهِ صارَ مُحَقَّقاً، أنْ مَجِيْءُ الفَأْرِ أَمامَهُ كانَ مِنْ وَجْهِ الاِضْطِرارِ والاِفْتِقار، لا مِنْ سَبِيْلِ الرَّغْبَةِ والاِخْتِيار، وَلَو أَنَّهُ كانَ لَهُ سِلاحُ المُقاوَمَةِ وَشَوْكَةُ المُصارَعَةِ، كانَ أَظْهَرَ بِذاكَ المُبادَرَةَ والمُسارَعَةَ، في هذا التَّصَوُّرِ والفِكْرِ الخَشِنِ، ذَهَبَ مِنَ المَكانِ، وآثارُ الغَضَبِ مُنْتَشِرَةٌ مِنْ بَشَرَتِهِ، صارَ الفَأْرُ مِنْ ظُهُوْرِ هذِهِ الحالَةِ الَّتي لَمْ يَكُنْ رَأى مِثْلَها مِنَ الهِرِّ، وَبِلا سَبَبٍ مَعْلُوْمٍ، في غايَةِ الاِخْتِلاطِ، حالَةٌ أَلْقَتِ الرَّعْشَةَ بِأَعْضائِهِ، واللُّكْنَةَ على لِسانِهِ، هكذا إلى أَنْ لَمْ تَبْقَ لَهُ قُوَّةُ التَّماسُكِ، وَحَتَّى كُلٌّ مِنَ الصَّدِيْقَيْنِ رَأى صُوْرَةَ حالِ الآخَرِ مُشَوَّشَةً، في حِجابِ نَمِيْمَةِ وَخُبْثِ شِيْمَةِ صاحِبِ الغَرَضِ، واتَّصَلَتِ المُؤانَسَةُ بالمُدالَسَةِ في الوَسَطِ، وانْتَهَتِ المُصافاةُ بالمُنافاةِ، الدِّيْكُ بالأمارَةِ الَّتي كانَ جَعَلَ مِنْها علامَةَ الأمْرِ عَمِلَ إشارَةً إلى جِهَتِهِ، كانَ الهِرُّ جالِساً مُتَشَمِّراً

وَمُتَنَمِّراً، وَعلى صَوْتِ الدِّيْكِ الَّذي جاءَ فَجْأَةً، وَثَبَ وُثُوْبَ الباز على طَيْرِ القَطا، وَالفَهْدِ على الغَزالِ، وبالهَوى والهَذْرِ جَعَلَ دَمَ ذاكَ المِسْكِيْنِ الهَباءَ وَالهَدْر، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى يَصِيْرَ مُعْلُوْماً أنَّ الكَثِيْرَ مِنَ الهَيْئَةِ مِنَ الرِّضا والسُّخْطِ والأُمُوْرِ النَّفْسانِيَّةِ الأُخْرى مِمَّا لَمْ يَكُنْ مَوْجُوْداً يَجِيْءُ ظاهِراً في طَبائِعِ الخَلْقِ، وَخاصَّةً مِنَ الحاسِدِيْنَ المَكَّارِيْنَ الَّذِيْنَ كانَ قَلَمُ التَّصْوِيْرِ والتَّزْوِيْرِ في يَدِهِم، وَرَسَمُوا صُوْرَةَ الأَحْوالِ هكذا كما يُرِيْدُوْنَ، ثُمَّ بِكَمالِ نَفْسِ المَلِكِ يَجِبُ أَنَّهُ يَحْفَظُ النَّفْسَ مِنْ مَغْلَطَةِ الأَوْهامِ وَمَزْلَقَةِ الأَقْدامِ، حَتَّى لا تَرْجِعَ وَخامَةُ ذاكَ لِعُمْرِهِ، قالَ زَيْرَك سَمِعْتُ ذاكَ الَّذي قُلْتَ، وَجَلَسَ قَوْلُكَ في مَجالِسِ سَمْعِ القَبُوْلِ، وَلْتَأْتِ بِكُلِّ ما تَمْلِكُ مِنَ المُلْتَمَساتِ الأُخْرى، قالَ زَرْوِي أُرِيْدُ أَنْ تُعامِلَني بِمَزِيَّةِ التَّوْقِيْرِ والإكْبارِ، وَتَجْعَلَني المُمَيَّزَ مِنْ طوائِفِ الخَدَمِ جَمِيْعاً، وَتَجْعَلَني عَزِيْزَ الجانِبِ في جَنابِكَ، فَكُلُّ مَنْ أَعَزَّ أَهْلَهُ يَكُونُ قَدْ أَعَزَّ جَوْهَرَ النَّفْسِ، وَكُلُّ مَنِ احْتَرَمَ أَهْلَ الخِبْرَةِ عِنْدَهُ يَكُوْنُ حافَظَ على أَمْرِهِ مُحْتَرَماً، والوَزِيْرُ الَّذي لا يَكُوْنُ أمامَ حَضْرَةِ المَلِكِ مَقْبُوْلَ القَوْلِ وَمَتْبُوْعِ الفِعْلِ لا يَنالُ إِعْظامَ الحُرْمَةِ مِنَ الجَيْشِ، ولا يُظْهِرُ أَفْرادُ الجَيْشِ الإنْقِيادَ لِأَمْرِ المَلِك، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الدَّعْوَةُ مِنَ الرَّسُولِ الَّذي جاءَ مُرْسَلاً لِلْخَلْقِ وَجَدَتْ مَقامَ الإجابَةِ، كانَ أَفرادُ الأُمَّةِ جاؤوا بالشُّبْهَةِ في دَعْوَتِهِ، وفي قَوْلِهِ، وَما

كانُوا وَضَعُوا الأَعْناقَ خاضِعِيْنَ بِطاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِصَّةُ بِنْتِ الزَّاغِ مَعَ الزَّاغِ هكذا كانَتْ، زَيْرَك سَأَلَ أنْ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ بِنْتِ الزَّاغِ مَعَ الزَّاغ

قالَ زَروي، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَتْ لِزاغٍ بِنْتٌ، كانَتْ جَمِيْلَةَ الخِلْقَةِ فَإِذا تَجَلَّتْ وَعَرَضَتْ جَمالَ النَّفْسِ جَعَلَتِ الطَّاوُوْسَ حائِراً، وَفي حِجابِ التَّعَزُّزِ وَعُشِّ التَّعَذُّرِ، خَتْمُ خاتَمِ عُذْرَتِها كانَ يَمْلِكُ هذا النَّقْشَ،

لا تَطْلُبْ وَجْهِي فَإِنَّهُ الشَّمْسُ في الحُقَّةِ
لا تَطْلُبْ شَفَتي فَهِيَ لِلسِّيْمُرْغِ في المِنْقار

الطُّيُورُ في كُلِّ رَوْضٍ على صِفَةِ البَلابِلِ كَانَتْ تَرَنَّمُ بِحُبِّها، وكانَتْ تَشْرَبُ بالسُّرُوْرِ على جَمالِها بُلْبُلَةَ كَأْسِ الشَّرابِ، نَهَضَ لِبُوْمِ العِشْقُ لَها، وَأَنْ يَصِيْرَ زَوْجاً لِطاقِ الحَسْناواتِ تِلْكَ، أَرْسَلَ الدَّلّالَةَ لِأُمِّها، وَتَقَدَّمَتْ بِطَلَبِها، الزَّاغُ الأُمُّ اسْتَدْعتِ البِنْتَ أَمامَها وَقالَتْ، أَيْ بِنْتُ، الأَشْرافُ مِنَ الأَطْرافِ وَجَّهُوا لَنا الوَجْهَ، وَبِخُطْبَتِكِ والرَّغْبَةِ بِكِ يَجْري التَّنازُعُ والتَّزاحُمُ، لكِنَّني أُرِيْدُ أَنْ أُعْطِيَكِ لِزَوْجٍ يَكُونُ مُطِيْعاً لِلأَمْرِ، وَيَكُوْنُ تَحْتَ يَدِكِ، ولا يَمُدُّ الرِّجْلَ زِيادَةً عَنْ قَياسِ بِساطِ النَّفْسِ، هذا اليَوْمَ بُوْمٌ أَرْسَلَ بالاِسْتِدْعاءِ الشَّخْصَ، إذا كانَ يَقَعُ مَقْرُوْناً بِرِضاكِ، هُوَ أَلْيَقُ مِنَ الجَمِيْعِ، فَهُوَ بِكُلِّ نَكْسَةٍ يَراها مِنْكِ يَدْفَعُ البَدَنَ، كما

يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ لِخِدْمَتِكِ وَمُراعاتِكِ مُلْجَأً، وَيَكُوْنَ بِحُكْمِكِ وَأَمْرِكِ مُلْجَماً، لا يَتَدَلَّلُ كالفاخِتَةِ بالطَّوْقِ المُعَنْبِرِ، ولا يَرْفَعُ الرَّأْسَ كالهُدْهُدِ بالتَّاجِ المُرَصَّعِ، ولا يَدَّعي دَعْوى عُلُوِّ النَّسَبِ كالحَمامَةِ، ولا يَعْرِفُ العالَمِيْنَ مُحْتاجِيْنَ لِعِزِّ ظِلِّهِ كالهَما، يَرْضى بِضِيْقِ عُشِّهِ، وَيَقْنَعُ بِضَنْكِ عَيْشِهِ، إذا صانَعْتِهِ قالَ لَكِ الشُّكْرَ، وَلَوْ أَحْرَقْتِهِ ما مَلَكَ وَرَقَ الشِّكايَةِ،

لِكُلٍّ مِنَ الأَيَّامِ عِنْدِيَ عادَةٌ فَإِنْ ساءَني، صَبْرٌ، وَإِنْ سَرَّني، شُكْرُ

بِنْتَ الزَّاغِ قالَتْ، أَيْ أُمُّ قُلْتِ حَسَناً، وَفي هذا الحَدِيْثِ أنتِ تَطْلُبِيْنَ راحَتي وَفَراغَ خاطِري، لكِنِ الزَّوْجُ الَّذي تَقْدِرِيْنَ أَنْ تَدْفَعِيْنِي وَتَسُوْقِيْنِي إِلَيْهِ، أَيَّ قَدْرٍ يَمْلِكُ، وَهُوَ هكذا مِنْ زَوْجٍ، وَأَيَّةُ رِفْعَةٍ تَكُوْنُ لي في وَسَطِ طَوائِفِ الخَلْقِ والأَقْرانِ، أنا كَيْفَ أَقْبَلُ بِوَغادَةِ الزَّوْجِ مِنْ أَجْلِ رَغادَةِ العَيْشِ، وَأَنْ أَجْعَلَ نَفْسي في حُكْمِهِ،

ألا رُبَّ ذُلٍّ ساقَ للنَّفْسِ عِزَّةً وَيا رُبَّ نَفْسٍ بالتَّعَزُّزِ ذَلَّتِ

أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أنْ حِيْنَ على جَيْشِكَ يَجِيْءُ ظِلِّيْ ثَقِيْلاً، ولا يَرَوْنَ مَقامي أَمامَكَ رَفِيْعاً، فَإِنَّ مُلْكَكَ أَيْضاً يَصِيْرُ بِلا عَظَمَةٍ، وَعَدُوِّي يَصِيْرُ بِلا خَوْفٍ أَيْضاً، قالَ زَيْرَك، هذا الحَدِيْثُ أَيْضاً ذَهَبَ بِأُذُنِ الإِصْغاءِ، وَصارَ الفِكْرُ مُعَدّاً لِتَنْفِيْذِ أَحْكامِ ذاكَ، إذا

كانَ مِنْ ضَوابِطِ وَرَوابِطِ هذا الأَمْرِ شَيْءٌ باقٍ، قُلْهُ ولا تَتْرُكْهُ غَيْرَ مَقُوْلٍ، فَكُلُّ الَّذي تَقُوْلُ لا بُدَّ لَهُ مِنَ القَبُوْلِ،

وَإِنِّي لَوْ تُحاوِلُنِي شِمالي　　عِنادَكَ ما وَصَلْتُ بِها يِمِيْنِي

قالَ زَروي، اِعْلَمْ أَنِّي إذا عَقَدْتُ كَمَرَ الخِدْمَةِ لَكَ على الوَسَطِ، وَأَنتَ وَضَعْتَ على الرَّأْسِ تاجَ الرِّئاسَةِ، لا أَقْدِرُ أَقُوْلُ كُلَّ حَدِيْثٍ لَكَ وَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ، كما حَصَلَ لِذاكَ الرَّجُلِ مَعَ الشَّجَرَةِ المُعْبُوْدَةِ للنَّاسِ، زَيْرَكَ سَأَلَ أَنْ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الشَّجَرَةِ مَعْبُوْدَةِ الخَلْق

قالَ زَروي، سَمِعْتُ أَنَّهُ في مَدِيْنَةٍ مِنْ أَقاصي بِلادِ الصِّيْنِ كانَتْ شَجَرَةٌ، أُصُولُها ضارِبَةٌ بِعُمْقِ الثَّرى، وَفُرُوْعُها واصِلَةٌ لِسَمْكِ الثُّرَيَّا، بالعُمْرِ قَدِيْمَةٌ، وَبالشَّكْلِ فَتِيَّةٌ، قَدِيْمَةٌ بالسِّنِيْنَ، وَنَضِيْرَةٌ بالوَجْهِ، كَأَنَّما جِيْءَ بِأَصْلِها مِنْ جَرْثُوْمَةِ باسِقاتِ الخُلْدِ، وَمِنْ أَرُوْمَةِ رَوْضِ إِرَمَ، بُسْتانِيُّ الإِبْداعِ أَعْطاها الماءَ مِنْ رَأْسِ عَيْنِ الحَياةِ، أَطْلَسُ أَوراقِها الفُسْتُقِيُّ، وَمَعْجَرُ أَغْصانِها العُنَّابِيُّ، مَعْقُوْدُ اللَّوْنِ مِنْ مَصْبَغَةِ القُدْرَةِ مِنَ الأَزَلِ، لا الرَّبِيْعُ مُجَدِّدُ وَمُزَيِّنُ القَدِيْمِ جَعَلَها مُطَرَّاةً، ولا الخَرِيْفُ أَعْطى لَوْنَ أعنابِها مِن بَعْدِ اللَّوْنِ المُعَصْفَرِ اللَّوْنَ المُزَعْفَرَ، طَبِيْعَتُها في إِظْهارِ خَوارِقِ العادَةِ أَعادَتْ صِفَةَ نَخْلَةِ مَرْيَمَ، حَتَّى صارَتْ مِثْلَ

شَجَرَةِ آَدَمَ مَزَلَّةَ قَدَمِ أولادِهِ، خِلْتَها كانَتْ شَجَرَةَ الكَلِيْمِ، مِنَ الخَشَبِ بِسَمْعِ العالَمِيْنَ تَعْطي التَّلَقِيْنَ، *إِنِّي أنا اللهُ رَبُّ العالَمِيْن*، حتَّى أمامَها وَضَعُوا الوَجْهَ على تُرابِ المَذَلَّةِ، يَوْماً وَصَلَ مُسافِرٌ إلى مَدِيْنَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، رَأى أُمَّةً في عِبادَتِها، مِنْ تِلْكَ الحالِ أَظْهَرَ تَمامَ التَّعَجُّبِ، وَجاءَ بِعَرْبَدَةِ المَلامَةِ مَعَ عَبَدَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، أنْ جَمادٌ لا يَمِلْكُ الحَواسَّ المُدْرِكَةَ لِلْحَيَوانِ، ولا القُوَّةَ المُحَرِّكَةَ الإرادِيَّةَ، ولا الدَّافِعَةَ الأَلَمِيَّةَ في الطَّبِيْعَةِ، ولا جاذِبَةَ الرَّاحَةِ في الطِّيْنَةِ، ولا الواسِطَةَ لِكَسْرِ الشَّهْوَةِ، ولا الوَسِيْلَةَ لِجَرِّ المَنْفَعَةِ، بِأَيِّ سَبَبٍ جَعَلْتُمْ مِنْها قِبْلَةَ الطَّاعَةِ، *لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْني عَنْكَ شَيْئاً*، ثُمَّ مِنَ الغُبْنِ الَّذي كانَ يَرى مِنْ عِبادَةِ أولئِكَ القَوْمِ لِتِلْكَ الشَّجَرَةِ، نَهَضَ وَأَخَذَ فَأْساً وَصارَ لِجِوارِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وأرادَ أَنْ يَضْرِبَها ضَرْبَةً على وَسَطِها، الشَّجَرَةُ أَطْلَقَتِ الصَّوْتَ، أَنْ أَيُّها الرَّجُلُ ماذا فَعَلْتُ لَكَ، حَتَّى عَقَدْتَ على الوَسَطِ بِقَصْدي، وَنَهَضْتَ بالتَّعَدِّي عَلَيَّ، قالَ أُرِيْدُ أَنْ أُظْهِرَ مَجْبُوْرِيَّتَكِ وَمَقْهُوْرِيَّتَكِ لِلْخَلْق، كَيْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ فِيْكِ أَيُّ أَمْرٍ، وَيَجْعَلُوا مَعْلُوْماً أَنَّكِ كُنْتِ لَهُمْ مُدَّةً طَوِيْلَةَ الحَطَبَ لِنارِ جَهَنَّمَ، مُجَدَّداً الشَّجَرَةُ أَعْطَتِ الصَّوْتَ، أَنْ أَعْرِضْ عَنْ هذا التَّعَرُّضِ واذْهَبْ، وَفي كُلِّ يَوْمٍ مَعَ الفَجْرِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَقَعَ الذَّهَبُ المَغْرِبِيُّ الخالِصُ مِنْ جَيْبِ أُفُقِ المِشْرِقِ في ثَوْبِ سَماءِ الفَلَكِ النِّيْلِيِّ، أُظْهِرُ لَكَ قِطْعَةً مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ مِنَ المَوْضِعِ الفُلانِيِّ، تَحْمِلُها وَبِأَقَلِّ زَمَنٍ تُصْبِحُ ذا مالٍ

كَثِيْرٍ، الرَّجُلُ مِنْ أمامِ الشَّجَرَةِ مَعَ فَرْطِ التَّحَيُّرِ والتَّفَكُّرِ ذَهَبَ، أنْ كَيْفَ سَيَصِيْرُ حاصِلُ الأَمْرِ، في اليَوْمِ الآخَرِ ذَهَبَ بِالوَقْتِ لِمَحَلِّ المِيْعادِ، رأى قِطْعَةً مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ أَخَذَها، وَظَلَّ أُسْبُوعاً يَذْهَبُ على هذا النَّسَقِ، وَيَجِدُ الذَّهَبَ، وَيَوْماً على القاعِدَةِ ذَهَبَ إلى هُناكَ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً، أَخَذَ الفَأْسَ مَرَّةً أُخْرى وَجاءَ إلى جِوارِ الشَّجَرَةِ، جاءَ الصَّوْتُ مِنَ الشَّجَرَةِ أنْ ما تُرِيْدُ تَفْعَلُ، قالَ الرَّجُلُ، إلى اليَوْم كُنْتِ تَكْشِفِيْنَ عَنْ شَيْءٍ، وَكانَتْ راحَةٌ، وَكُنْتُ في عُهْدَةِ الشَّرَفِ وَأداءِ حُقُوْقِ تِلْكَ نَشِيْطاً، حِيْنَ أنتِ تَرَكْتِ حُسْنَ عادَتِكِ، واسْتَرْجَعْتِ الدِّيْنارَ الَّذي كانَ كُلَّ يَوْمٍ مُوَظَّفاً، فَأنا أُرِيْدُ اسْتِئْصالَكِ، وَأُرِيْدُ قَطْعَكِ مِنَ الجِذْعِ، فَإنَّ الشَّجَرَةَ الَّتي لا انْتِفاعَ مِنْ اِرْتِفاعِها قَطْعُها أولى،

إِذا العُوْدُ لَمْ يُثْمِرْ وَإنْ كانَ أَصْلُهُ مِنَ المُثْمِرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ في الحَطَب

قالَتِ الشَّجَرَةُ، ذاكَ الَّذي وَجَدْتَ مِنِّي كانَ اصْطِناعاً، جَعَلْتُكَ بِواسِطَةِ ذاكَ مُتَقَلِّداً، وَجِئْتُ بِرَقَبَتِكَ في رِبْقَةِ خِدْمَتي وَمِنَّتي، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ ذاكَ الَّذي تَكُونُ لَهُ عَلَيْكَ يَدُ الإِحْسان، يَكُونُ لَهُ القُدْرَةُ والإِمْكانُ لِلإساءَةِ لَكَ أَيْضاً، للرَّجُلِ مِنْ هذا الحَدِيْثِ جَلَسَ وَقْعٌ شَدِيْدٌ على القَلْب، وَعَمِلَ المُشاهَدَةَ تَماماً لاسْتِغْنائِها وافْتِقارِ نَفْسِهِ، وَصارَ مَأْخُوْذاً كُلِّيّاً حَتَّى أَنَّهُ جاءَ مُنْقَطِعاً بالجَواب، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى يَصِيْرَ مَعْلُوْماً أَنَّهُ حِيْنَ أَنْتَ تَصِيْرُ السَّيِّدَ وَأنا أَجْلِسُ

عَبْدَ وَقارِ السَّيِّدِ بافْتِقارِ العَبْدِ، وكُلُّ ذاكَ الَّذي يَجِيْءُ بالخاطِرِ لا أَسْتَطِيْعُ قَولَهُ بِجُرْأَةٍ ولا مُبالاةٍ، واعْلَمْ أَنَّ عَمَلَ الاِخْتِلاطِ وَإِظْهارَ التَّبَسُّطِ مُرَكَّبٌ في جِبِلَّتِكَ، وَلا يَجِبُ أَنْ تَجْعَلَ ذاكَ بالعَمَلِ في جَمِيْعِ الأَوْقاتِ، خاصَّةً المُلُوْكُ فَهُوَ يَكُونُ بِهِمْ عَيْباً كَبِيْراً وَمَنْقَصَةً شَنِيْعَةً، والرَّجُلُ العالِمُ لا يَكُونُ أَبَداً جَرِيْئاً بِلا خِبْرَةٍ، وَلا يُجِيْزُ التَّعْجِيْلَ والتَّوَغُّلَ في الأُمُوْرِ بِلا تَجْرِبَةٍ وامْتِحانٍ، وَيَعْرِفُ لِكُلِّ كلامٍ مَقامَ تَصْدِيْقٍ وَتَحْقِيْقٍ، حَتَّى لا يَصِلَ إِلَيْهِ ذاكَ الَّذي وَصَلَ لِلرَّجُلِ الحَذَّاءِ، زَيرَك سَأَلَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ زَوْجَةِ بائِعِ الدِّيْباجِ والحَذَّاء

قالَ زَروي، بائِعُ دِيْباجٍ ذَهَبَ للسُّوْقِ في وَقْتٍ، كانَ رَجُلٌ يَبِيْعُ طَيْراً، سَأَلَهُ أَنْ ما هذا الطَّائِرُ وَبِأَيِّ عَمَلٍ يَنْفَعُ، قالَ هذِهِ حَدَأَةٌ، هذِهِ تَقُولُ كُلَّ ما ترى بالبَيْتِ لِسَيِّدِ البَيْت، كانَ لِبائِعِ الحَرِيْرِ زَوْجَةٌ فَمِنْ دِيْباجَةِ وَجْهِها نَقَّاشُ الصِّيْنِ كانَ يَتَّخِذُ نُسْخَةَ جَمالٍ، وَما رَسَمَ رَسَّامٌ مِثْلَها أَيَّ رَسْمٍ بِأَيِّ كِتابٍ، كانَتْ كالمُحْصَناتِ سَيِّئاتِ الفِعْلِ، وَكانَ الزَّوْجُ دائِماً بِرَجْمِ الظَّنِّ، بائِعُ الدِّيْباجِ حِيْنَ سَمِعَ أَنَّ الحَدَأَةَ تَمْلِكُ تِلْكَ الخاصِّيَّةَ، صارَ صادِقَ الرَّغْبَةِ بِشِرائِها، فَكَّرَ أَنْ أنا أَجْعَلُها مُشْرِفَةً على أَحْوالِ البَيْتِ، وَأَقُوْمُ بِتَخْوِيْفِ المَرْأَةِ بِإِشْرافِها، حَتَّى في غَيْبَتي تَحْفَظُ النَّفْسَ، وَمِنْ رِقْبَةِ الطَّائِرِ تَكُوْنُ على حَذَرٍ، وَأَنا في جَزاءِ

أَفْعالِها لا يَجِبُ عَلَيَّ فِعْلُ شَيْءٍ يَكُوْنُ مُوْجِباً لِلْفَضِيْحَةِ وَهَتْكِ حِجابِ الحُرْمَةِ، اِشْترى الطَّائِرَ وَحَمَلَهُ لِلْبَيْتِ، وَقالَ للزَّوْجَةِ، قُوْمي بِمُراعاةِ هذا الطَّائِرِ، وَحافِظِي عَلَيْهِ عَزِيْزاً، فَإِنَّ هذا الطَّائِرَ مُمَيَّزٌ عَنْ جَمِيْعِ الطُّيُوْرِ بالحَدسِ والعِلْمِ، وَإِنْ كانَ لا يَحمِلُ الكُتُبَ كالحَمامِ الزَّاجِلِ، إِلَّا أَنَّهُ يَقْرَأُ الكُتُبَ المُغْلَقَةَ، إِنَّهُ نَمَّامٌ أَكْثَرَ مِنَ القَمَرِ، وَغَمَّازٌ أَكْثَرَ مِنَ المِسْكِ، طَلِيْعَةُ غَوارِبِ الغَيْبِ، جاسُوْسُ شَوارِقِ النَّظَرِ،

أَنَمُّ مِنَ النُّصُوْلِ على خِضابٍ　　وَمِنْ صافِي الزُّجاجِ على عُقارِ

كُلَّ ما يَرى مِنَ الدَّاخِلِ يُعْطي الخَبَرَ عَنْهُ لِلْخارِجِ، المَرْأَةُ وَقَعَ لَها العَجَبُ مِنْ ذاكَ الحَدِيْث، وَخافَتْ شَدِيْداً، فَحِيْنَ كانَ بائِعُ الدِّيْباجِ يَذْهَبُ لِلْخارِجِ، كانَ لَها جارٌ حذَّاءٌ شابٌّ جَمِيْلُ الوَجْهِ، حُوْرُ الخُلْدِ يَتَّخِذْنَ مِنْ غُبارِ حِذائِهِ البَدِيْلَ لِلْكُحْلِ وَيَكْحُلْنَ بِهِ الأَعْيُنَ، وَكانَ لَهُ مَعَ المَرْأَةِ في الرَّأْسِ عِشْقٌ قَدِيْمٌ، على العادَةِ السَّابِقَةِ كانَتْ تَرْقُبُ غَيْبَةَ الزَّوْجِ، وَتَقُوْمُ بِدَعْوَتِهِ لِحُجْرَةِ الوِصال، حِيْنَ وَقَعَ اتِّفاقُ المُلاقاةِ، قالَتْ اُنْظُرْ لا تَمُدَّ لِيَ اليَدَ بِحُضُوْرِ هذا الطَّائِرِ، ولا تَقُمْ بَحَرَكَةٍ، فَهُوَ يَصِيْرُ واقِفاً على أَمْرِنا، وَيُوْصِلُهُ للزَّوْجِ، الرَّجُلُ ضَحِكَ مِنْ ذاكَ الحَدِيْثِ وَقالَ يا لِسَخافَةِ عَقْلِ النِّساءِ وَقُصُوْرِ مَعْرِفَتِهِنَّ، ثُمَّ أَقْسَمَ أَنَّهُ سَوفَ يُباشِرُها، وَسَوْفَ يَمْسَحُ رَأْسَ القَضِيْبِ بِمِنْقارِ الحَدَأَةِ، أَنْ أَيَّ خَبَرٍ سَوْفَ تُعْطي عَنْ ذاك، المَرْأَةُ بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَتْ كَثِيْراً مِنَ

الإمْتِناعِ، بالتِماسِهِ أَعْطَتْهُ الجَسَدَ، وَحِيْنَ صارَ فارِغاً مِنَ الأَمْرِ، جَعَلَ رَأْسَ القَضِيْبِ قُبالَةَ مِنْقارِ الحَدَأَةِ، الحَدَأةُ بِتِلْكَ السَّاعَةِ كانَتْ بِغايَةِ جُوْعِ الغُراب، وَظَنَّتْ أَنَّ ذاكَ قِطْعَةُ لَحْمٍ، قَفَزَتْ وَأَنْشَبَتْ بِهِ المِخْلَبَ والمِنْقارَ، حَتَّى صارَ الرَّجُلُ مِنَ الأَلَمِ بِلا وَعْيٍ، قالَ لِلْمَرْأَةِ اِدْفَعي لَهُ طَرَفَكِ عسى أَنَّهُ يُفْلِتُني، المَرْأَةُ جَعَلَتِ طَرَفَها عارِياً بِجِوارِ الحَدَأَةِ، والحَدَأَةُ أَمْسَكَتْ بِطَرَفِها بالمِخْلَبِ الآخَرِ، وَضَغَطَتْ بِإِحْكامٍ، وَفي هذِهِ الأَثْناءَ وَصَلَ بائِعُ الدِّيْباج، وانْقَضَّ عَلَيْهِما، وَأَنْزَلَ بِهِما العِقابَ اللَّائِقَ، وَصارَتْ تِلْكَ القِصَّةُ مَشْهُوْرَةً بالمَدِيْنَةِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ ما كُلُّ حَدِيْثٍ جائِزَ الإِصْغاءِ، ولا يَجِبُ الشُّرُوْعُ بِعَمَلٍ بالجُزاف، زَيرَك قالَ، سَمِعْتُ كُلَّ الَّذي قُلْتَ، وَمِنَ القَوْلِ سَوْفَ يَكُوْنُ مَقْرُوْناً بالفِعْلِ، بِسْمِ اللهِ اِبْدَأْ، ولا تُفَكِّرْ بِحُسْنِ وَسُوْءِ العاقِبَةِ أَكْثَرَ، وَفي مَقامِ الاِجْتِهادِ الَّذي هُوْ مَوْقِفُ الرِّجالِ، كُنْ مُسْتَحْضِراً وَمُتَيَقِّظاً هكذا، فَقَدْ قالُوا،

إذا هَمَّ أَلْقى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَواقِبِ جانِبا

حِيْنَ وَصَلَ الحَدِيْثُ إلى هُنا، وَوَصَلَ تَحاوُرُهُما وَتَشاوُرُهُما إلى هذا المَنْزِلِ، حَمامَةٌ مِنْ أَعلى الشَّجَرَةِ الَّتي كانا تَحْتَها كانَتْ بِعُشِّها هُناكَ وَسَمِعَتْ مُخاطَباتِهِما وَمُجاوَباتِهِما تَماماً، فَكَّرَتْ مَعَ النَّفْسِ، أنْ هذانِ الحَيَوانانِ، رَغْمَ أَنَّهُما بالجِنْسِيَّةِ مُتَبايِنانِ، حِيْنَ يَتَعاوَنانِ، بِدالَّةِ آلَةِ

الكِياسَةِ، وَأَداةِ الفَراسَةِ، بالفِكْرِ البَعِيْدِ، وَمَعْرِفَةِ الدَّقائِقِ، يُوْصِلانِ نَفْسَيْهِما سَرِيْعاً لِلْمَطْلُوْبِ، وَحِيْنَ يَجِدانِ الرِّئاسَةَ والمُلْكَ، وَيَصِيْرُ كِلا الدِّيْوانِ والإِيْوانِ مُسْتَغْرَقاً بازْدِحامِ الخَدَمِ والرَّعايا، وَسواءً باخْتِيارِ الطَّبْعِ أَو بإِلْجاءِ الحاجَةِ، أَرَدْتُ أَنْ أَجِيْءَ في تِلْكَ الجُمْلَةِ، وَأَنْ أَصِيْرَ مُنْحَصِرَةً في عَدَدِهِم، يَحْصَلُ ذاكَ بِعُسْرٍ، وَيَكُوْنُ ذاكَ كما قالُوا،

مِنْ ازْدِحامِ الأَرْواحِ والقُلُوْبِ في كَوْكَبَةِ عِشْقِكَ
آهٍ أنا المِسْكِيْنُ لَمْ تَكُنْ لِي إِلى جِهَتِكَ الطَّرِيْقُ

الوَجْهُ الأَوْفى والطَّرِيْقُ الأولى هُوَ أَنِّي، قَبْلَ أَنْ تَصِيْرَ شَجَرَةُ دَوْلَتِهِ عالِيَةً، وَتَجْعَلَ ثَمَرَةَ الأَماني ظاهِرَةً، أَتَعَلَّقُ باليَدِ بِغُصْنِ حِمايَتِهِ مِثْلَ بُرْعُمَةٍ، سَأَطِيْرُ نازِلَةً مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ، وأُظْهِرُ تَقَرُّباً يَكُوْنُ مُتَضَمِّناً قُرْبَةً، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَجِيْءَ المُزاحِمُونَ الآخَرُونَ إلى رَأْسِ هذا المَشْرَبِ السَّائِغِ للاِغْتِرافِ، أَعْمَلُ لِحَظِّ نَفْسي الاِقْتِراف، فَإِنَّ حَقَّ أَقَلِّ خِدْمَةٍ هذا اليَوْمَ يَصِيْرُ ثابِتاً ذلِكَ اليَوْمَ حِيْنَ الآخَرُوْنَ مِنْ أَمثالي يَصِيْرُوْنَ مَوْسُوْمِيْنَ بِوَسْمِ الاِخْتِصاصِ، وَيَصِيْرُ ذا أَثَرٍ تامٍّ، في الحالِ جاءَتْ نازِلَةً، وَفَتَحَتِ اللِّسانَ بِفَوائِحِ الثَّناءِ وَفَواتِحِ الدُّعاءِ وَقالَتْ،

إِذا كانَ السَّلامُ وَقَعَ اتِّفاقاً باللَّيْلِ   وَرَسْمُ السَّلامِ يَكُوْنُ مَعَ الصَّباح
فَإِنَّهُ بِما أَنَّكَ تَكُوْنُ نَهارَ الزَّمانِ   كُلُّ وَقْتٍ أَراكَ فِيْهِ هُوَ الصَّباح

كانَ لَيْلُكَ مَقْرُوناً بِنَهارِ الإِقْبالِ، وَكانَ نَهارُ الأَعْداءِ دائِماً بِلَوْنِ اللَّيْلِ، الباعِثُ لِهذِهِ المَشَقَّةِ بِلا مَوْعِدٍ بالمَجِيْءِ بِخِدْمَةِ هذا الجَنابِ، دامَ على الزَّمانِ لِلْمُحْتاجِيْنَ المَوْئِلَ والمَآبَ، وَكانَ في راحَةٍ إلى الأَبَدِ مِنْ وُصُوْلِ المَكارِهِ وَنُزُوْلِ النَّوائِبِ، هُوَ ذاكَ، إِنَّ لي بَيْتاً على رَأْسِ هذِهِ الشَّجَرَةِ، مَرَّتْ سِنُوْنَ مُنْذُ صِرْتُ مُتَوَطِّنَةً هُنا، هذِهِ اللَّيْلَةَ إِذْ نُوْرُ حَضْرَتِكَ أَلْقى ضِياءَ السَّعادَةِ على هذا المَوْضِعِ، وَإِذْ لِهذِهِ الخادِمَةِ العالِمَةِ سابِقَةُ الفِكْرِ بالتَّفْكِيْرِ بِهذِهِ المُهِمَّاتِ، الَّتي أَخَذَتْ مِنْ قَبْلُ الأَعْمالَ الدَّقِيْقَةَ، الكِفايَةُ والكَياسَةُ في مُفاوَضَتِكُما كانَتْ تَصِيْرُ ظاهِرَةً، أنا كُنْتُ أَعْمَلُ اسْتِراقَ حَدِيْثِكُما جُمْلَةً، وزادَ اعْتِمادي وارْتِفاقي بِواسِطَةِ ذاكَ، وَجاءَتْ في لَحْنِ الأغارِيْدِ وَزَمْزَمَةِ الأناشِيْدِ بالتَّرَنُّمِ، وَجاءَتْ بِغايَةِ التَّرَنُّحِ مَعَ فَرْطِ الاِهْتِزازِ والتَّبَجُّحِ، وَقالَتْ،

يكادُ غُرابُ البَيْنِ عِنْدَ حَدِيْثِكُم يَطِيْرُ ارْتِياحاً وَهْوَ بالوَكْرِ واقِعُ

حَتَّى أَثارَتْني جَواذِبُ الرَّغْبَةِ وَنَوازِعُ الاِحْتِياجِ، وها أَنَذا جِئْتُ، طَوْقُ العُبُوْدِيَّةِ في رَقَبَتي، وَنِطاقُ الخِدْمَةِ على وَسَطي، وَنُطْقُ الدُّعاءِ والثَّناءِ على لِساني،

أَتُرِيْدُ أَيْ صَدِيْقُ أَنْ تُجَرِّبَني اُطْلُبِ الرُّوْحَ وأُنْظُرْ دَفْعي للرُّوْح

مَعَ أنِّي بِحَمْدِ اللهِ وَزِيْرٌ قَدِيْرٌ، وَأَنِّي خازِنٌ لِخَزائِنِ الأَسْرارِ مِنْ أمامِ العَمَلِ، أنا بِعُلُوِّ الهِمَّةِ وَسُمُوِّ الرُّتْبَةِ وَإِصابَةِ النَّظَرِ وَأَصالَةِ الرَّأْيِ، سابِقَةٌ على الجَمِيْعِ،

فَجَلَّى غِياباتِ الأُمُوْرِ بِرَأْيِهِ كما صَدَعَ الصُّبْحُ الدُّجى بِشُعاعِهِ

لكِنْ خارِجَ العامِلِيْنَ والمُوَكَّلِيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ قَوائِمِ سَرِيْرِ المَمْلَكَةِ وَدَعائِمِ قُصُوْرِ الدَّوْلَةِ، مِنْ أَجْلِ شُهْرَةِ ونامُوْسِ المَلِكِ، الذُّبابَةُ تَجِيْءُ بالعَمَلِ كالطَّاوُوْس، فَلْتُعْطِ الإشارَةَ حَتَّى أَجِيْءَ بِكُلِّ ذاكَ الَّذي يَجِيْءُ تَحْتَ اسْتِطاعَتي، وَفي طَيِّ إمْكاني، وَأُوْصِلَهُ لِمَظْهَرِ الفِعْلِ، لِـ زَروي مِنْ هذِهِ الحالِ صارَ الجَبِيْنُ مُتَفَتِّحاً، وَجاءَ مُوافِقاً لِرَغْبَتِهِ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قَوِيّاً بالمُظاهَرَةِ، وَجَّهَ الوَجْهَ لِزَيْرِكَ وَقال، دُوْنَكَ مُبَشِّرُ قُدُوْمِ الإقْبالِ، إِذْ فَجْأَةً وَمِنَ الوَهْلَةِ الأولى وَمُفْتَتَحِ الأَمْرِ، مِثْلُ هذِهِ الخادِمَةِ الَّتي كَأَنَّها مِفْتاحُ بابِ السَّعادَةِ، وَمِصْباحُ لَيالي الشُّبْهَةِ، جاءَتْ حاضِرَةً بِلا إِحْضارٍ، وبلا اِنْتِظارٍ جاءَتْ بالإِسْفارِ عَنْ وَجْهِ التَّرَهُّبِ والتَّرَغُّبِ، وَكَدَوْلَةٍ غَيْرِ مَحْسُوْبَةٍ أَظْهَرَتِ الوَجْهَ مِنْ وراءِ حِجابِ الغَيْب،

أَهْلاً بِهذا القَمَرِ القادِمِ وَمَرْحَباً بالمَطَرِ السَّاجِمِ
فَرَأْيُهُ بَيْنَ الوَرى حارِسٌ وُكِّلَ باليَقْظانَ والنَّائِمِ

زِيْرَك *أَيْضاً* قَرَأَ الثَّناءَ عَلَيْها، وَبِأَمَلِ العَواطِفِ وإِعلاءِ الجاهِ والمَنْزِلَةِ وَإِغْلاءِ القَدْرِ والقِيْمَةِ أَعْطى الاِسْتِظْهارَ الكَثِيْرَ، الرَّأْيُ لِزَيركَ وَزَروي أَخَذَ القَرارَ بِذاكَ، أَنْ يُرْسِلا الحَمامَةَ بالسَّفارَةِ أَمامَ الطُّيُوْر، يُعْطِيانِها الرَّسائِلَ المَمْزُوْجَةَ باللُّطْفِ المَرْغُوْبَةَ لِلْقَلْبِ، وَأَنْ تَذْهَبَ مِنْ ذاكَ المَكانِ لِجِوارِ الآَخَرِيْن، وَتَعْرِفَ بِنَظَرِ الإِمْعانِ والإِيْقانِ أَحْوالَهُم، تُؤَدِّي الرِّسالَةَ وَتَجِيْءُ راجِعَةً، وَتُعْطِيْ الخَبَرَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الأَعْمالِ، زَيركَ اسْتَدْعى الحَمامَةَ أَمامَهُ، وبالتَّقْرِيْبِ والمُلاطَفَةِ كانَ بِتَمامِ حُسْنِ الاِلْتِفاتِ لِقِلَّةِ قَدْرِها، ثُمَّ قالَ يَجِبُ عَلَيْكِ الذَّهابُ وَإِيْصالُ التَّحْمِيْلاتِ عَنْ لِساني إلى طَوائِفِ الطُّيُوْرِ الَّتي على قَوْلِكِ تَمْلِكُ الثَّباتَ أَكْثَرَ، وَهِيَ مِنْ أَمْرِكِ آمِنَةٌ، ولا تَعْتَبِرُكِ غَرِيْبَةً عَنْها، فَإِنَّهُ حِيْنَ إِيْزَدْ تَعالى جَعَلَ تَوْفِيْقَ التَّوْبَةَ عَنْ إراقَةِ الدَّمِ وَأَكْلِ الحَرامِ رَفِيْقَ طَرِيْقي، والإِنابَةَ عَنِ الشَّرِّ والإِصابَةَ لِلْخَيْرِ كَرامَةً لي، وَجَعَلَني مُشَرَّفاً بِخِلْعَةِ الاِخْتِصاصِ مِنْ جِنْسِ السِّباع، وَجاءَ بِداعِيَةِ طَلَبِ المُلْكِ والحُكْمِ عَلَيْكُمُ وعلى الأَنْواعِ الأُخْرى ظاهِرَةً مِنْ باطِني، وزادَ التَّعَرُّضَ مِنِّي للرِّئاسَةِ والسِّيادَةِ عَلَيْكُم، ولائِقٌ حَمْلُ هذا المَعْنى على نَظَرِ رَحْمَةِ الخالِقِ تَعالى، أَنَّهُ يَأْمُرُ إِلى جِهَتِكُم، وَإِضافَةُ هذا لِإِفاضَةِ الكَرَمِ الإِلهِيِّ بِلا نِهايَةٍ، أَنَّهُ يَجْعَلُ فَيَضانَهُ عَلَيْكُمْ، فَكما هُوَ واجِبٌ عَلَيَّ الآنَ رِعايَتُكُمْ وَحِمايَتُكُمْ، واجِبٌ عَلَيْكُمْ جَعْلُ أَعْناقِكُم بِطاعَتي وَمُتابَعَتِي، حَتَّى أَنْشُرَ عَلَيْكُمْ جَناحَ الرَّأْفَةِ والرَّحْمَةِ، وَأَجْعَلَ النَّجاحَ

والسَّلامَةَ قَرِيْنَ حالِكُم، وَأُحافِظَ على كُلِّ واحِدٍ مِنْكُّمْ في بَيْتِهِ وَمَسْكَنِهِ بِحَضانَةِ الحِفْظِ، ولا أَدَعَ أَيَّ غاشِمٍ ظالِمٍ يَمُدُّ يَدَ الإِطالَةِ طَوِيْلاً لِواحِدٍ مِنْكُمْ، وَكُلُّ واحِدٍ وَصَلَ لَهُ مِنْ كواسِرِ الطُّيُوْرِ كَسْرٌ، أُظْهِرُ لَهُ القِيامَ بِجَبْرِ ذاكَ، وَحَيْثُما حَصَلَتْ جِراحَةُ وَحْشَةٍ مِنْ جَوارِحِ الوُحُوْش، آمُرُ لَها بِمَرْهَمِ لُطْفِ الإِلْتِئام، حتَّى يَبْنِيَ العُصْفُورَ العُشَّ في مَنْظَرِ الباز، وَيَكُوْنَ العُقابُ حارِساً على مَنْزِلِ الصَّعْوَةِ، ولا يَصِلَ مِقْراضُ مِنْقارَ الصَّقْرِ إلى ثَوْبِ الحَجَلِ المُرَقَّعِ، ولا يَجْعَلَ الشَّاهِيْنُ مِخَلَبَهُ الحادَّ غائِراً في ياقَةِ التَّذْرُجِ المُلَوَّنَة، وَإِذا، والعِياذُ باللهِ، أَرْجَعَكُمْ اسْتِهْواءُ هَوى الشَّيْطانِ عَنْ طَرِيْقِ مُتابَعَتِنا، وَنَفَخَ رِيْحَ الاِسْتِكْبارِ لَكُمْ في نارِ العُصْبَةِ والعَصَبِيَّة، حَتَّى أَبَيْتُمْ أَمْرَنا، فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ الحَقِيْقَةَ، أَنَّنا بِصَواعِقِ الغَضَبِ وَزَلازِلِ القَهْرِ نَهْدِمُ بُنْيانَكُمْ، وَبِيَدِ النَّهْبِ والغارَةِ والإِجْلاءِ والإِزْعاجِ نَجْعَلُ بُيُوْتَكُمْ مَأوىً لِبُوْمِ الشُّؤْمِ، حَتَّى يَصِيْرَ العالَمُ الواسِعُ عَلَيْكُم أَضْيَقَ مِنْ حَواصِلِكُمْ، وَتَكُوْنُوا في الحَسْرَةِ لِلماءِ والحَبَّةِ مُضْطَرِبِيْنَ كالحَبَّةِ على المِقْلاةِ، ولا يَصِيْرَ مُمْكِناً لَكُمْ اتِّخاذُ مَحَلٍّ لِلجُلُوْسِ إِلَّا على شاهِقاتِ أعالي الأشْجارِ، وباسِقاتِ الأَغْصان، وَحَتَّى تَهْرَبُ الطُّيُورُ الوَحِشِيَّةُ مِنْ مَعْرَضِ الصَّحراءِ والسُّهُولِ والمُتَنَزَّهاتِ المُلَوَّنَةِ كَرِيْشِ الدِّيْكِ الرُّوْمِيِّ مِنْ مخالِبِ سَطْوَتِنا وَجَواذِبِ صَوْلَتِنا إلى رُؤوْسِ الجِبالِ، وَتَذْهَبَ مَكاناً تَمَشَّى بِهِ على الشَّوْكِ بَدَلَ الوَرْدِ، وَتَرْعى فِيْهِ العُشْبَ البَرِّيَّ عِوَضَ السُّنْبُلِ، وَيَكُوْنُ واجِباً عَلَيْها

أَكْلُ التُّرابِ الأَسْوَدِ مِثْلَ النَّباتِ الأَخْضَرِ، وَرَبْطُ صَخْرِ الصَّبْرِ على القَلْبِ، وَيَصِلُ الأَمْرُ لِمَكانٍ، صَيَّادُ الأَوْهامِ في مُرْتَفَعٍ وَمُنْخَفَضِ الآجامِ والآكامِ لا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُصِيْبَ واحِداً مِنْها بِسَهْمِ التَّصَوُّرِ، ها قَدْ أَعْطَيْناكُمْ عِنانَ التَّخْيِيْرِ في تَقْدِيْمِ وَتَأْخِيْرِ الأُمُوْرِ بِيَدِكُمْ، حَتَّى تَعْلَمُوا مَقامَ سُخْطِنا وَرِضانا، ولا تُعْطُوا سَعادَةِ الطَّاعَةِ لِشَقاوَةِ العِصْيانِ والطُّغْيان،

فَأْوُوا إِلَيْهِ ولا تَبْغُوا بِهِ بَدَلاً   مَنْ ضَرَّهُ اللَّيْثُ لَمْ يَنْفَعْهُ سِرْحانُ

الحَمامَةُ حِيْنَ اسْتَمَعَتْ لِهذا الفَصْلِ بِحُسْنِ الإِصْغاءِ، وَوَضَعَتْ في الأُذُنِ حَلْقَةَ القَبُوْلِ والاِسْتِرْضاء، مَعَ الفَجْرِ حِيْنَ بازُ المَشْرِقِ الأَبْيَضُ بِطَيَرانٍ واحِدٍ مِنْهُ رَمى حمائِمَ بُرُوْجِ الفَلَكِ تَحْتَ الأَقْدام، نَهَضَتْ مِنَ المَكانِ وَوَضَعَتِ القَدَمَ في رِكابِ الصَّبا، وَأَخَذَتْ باليَدِ عِنانَ الشِّمالِ، ساقَتْ جَوادَيْنِ على جَبَلِ العُلُوِّ، وَعَبَرَتْ مِنْ مَحْمَلِ الضَّبابِ، وَأَلْقَتْ خَلْفَ الظَّهْرِ هَوْدَجَ الدَّبُور، وَمِنْ هُناكَ ذَهَبَتْ بالقَدَمِ تَنْخَفِضُ بالهَواءِ، وَبِمَيْدانٍ ضَيِّقٍ زَحَفَتْ بالعَزِيْمَةِ إلى حَدِّ وَطَنِ الطُّيُورِ، وَحِيْنَ وَجَدَتِ الطُّيُورُ الخَبَرَ جاءَتْ أَمامَها جَمِيْعاً، وَبِحُكْمِ المَعْرِفَةِ السَّابِقَةِ صارُوا يَتَسابَقُونَ الواحِدُ مَعَ الآخَرَ في إِعْزازِ قُدُوْمِها، يُثِيْرُونَ عَلَيْها الهَواءَ بالمَرْوَحَةِ مِنْ رِيْشِ جناحِ الطَّاوُوس، وَنَشَرُوا المَنادِيْلَ حَوْلَها مِنْ جَناحِ السَّمَنْدَر، وَعادُوا وَسَأَلُوْها عَنْ نَشاطِها، وَسَأَلُوْها لِتَعَرُّفِ أَحْوالِها

عَنِ الحارِّ والبارِدِ مِنْ أَيَّامِها، وَجاؤوا بالتَّكَلُّفِ الَّذي كانَ وَظِيْفَةَ الوَقْتِ، بِتَهْيِئَةِ أَسْبابِ الاِسْتِراحَةِ، الحَمامَةُ قالَتْ، أَنا أَمْلِكُ غَلَبَاتِ الاِشْتِياقِ القَدِيْمِ لَكُم، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ اتِّفاقَ المُلاقاةِ في أَفْضَلِ الأَوْقاتِ بِأَفْضَلِ الأَسْبابِ، وَكُنْتُ أَسْتَعْذِبُ أُمْنِيَّةَ الرُّوْحِ الَّتي صارَتْ مُيَسَّرَةً بِذَوْقِ هذِهِ الحالَةِ، *وَرُبَّ أُمْنِيَّةٍ أَحْلى مِنَ الظَّفَرِ*، إلى الآنَ إِذِ الكَلْبُ باسْمِ زَيْرَك، الَّذي بِفَرْطِ الشَّجاعَةِ وَعُلُوِّ الهِمَّةِ يَضْرِبُ بالقَبْضَةِ مَعَ أُسُوْدِ العالَمِ جَمِيْعاً، وَفي القَناعَةِ وَضَبْطِ النَّفْسِ يَشْعُرُ بالخَجَلِ مِنْ ظِلِّ الهَما، صارَ مُتَصَدِّياً لِلْمُلْكِ، وَسَحَبَ يَدَ التَّعَدِّي عَنْ ضِعافِ الحَيَواناتِ بِكُلِّ القَدْرَةِ، وَتَرَكَ خُلُقَ الخَلْقِ المُؤْذِيْنَ، قُلْتَ خَطَفَ التَّقَدُّمَ مِنْ جَمِيعِ المُتَقَدِّمِيْنَ والمُتَأَخِّرِيْنَ بِثَقابَةِ العَزْمِ وَصَلابَةِ الحَزْمِ وَسَماحَةِ الطَّبْعِ وَرَجاحَةِ العَقْلِ، وَقَدْ أَرْسَلَني إلى جِوارِكُمْ، ثُمَّ فَتَحَتِ اللِّسانَ بِأَداءِ الرِّسالَةِ، وَأَظْهَرَتِ الإِعْجازَ والإِيْجازَ في البَلاغَةِ والإِبْلاغ، وَحِيْنَ فَرِغَتْ مِنَ التَّحْمِيْلِ، وَأَلْقَتْ أَعْباءَ الرِّسالَةِ عَنْ كَتِفِ الأَمانَةِ، وَأَعادَتْ قَوْلَ كُلِّ ما كانَتْ سَمِعَتْ، مِنْ وَعِيْدِ القَهْرِ وَمَواعِيْدِ اللُّطْفِ وَخَيْرِ وَشَرِّ الأَحْوالِ وَلَيِّنِ وَشَدِيْدِ المَقال، فَقامُوا بَلا تَوَقُّفٍ وَتَبَرُّمٍ، وَلا تَرَدُّدٍ وَتَلَعْثُمٍ، بِقَبُوْلِ الدَّعْوَةِ، وَأَظْهَرُوا الإِقْبالَ على البَيْعَةِ، وبالنِّيَّةِ الصَّادِقَةِ والطَّوِيَّةِ الصَّافِيَةِ، صارُوا مُتَّفِقِيْنَ جَمِيْعاً على أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنا المَجِيْءُ بالخِدْمَةِ، وَأَنْ نَصِيْرَ مُسْتَعِدِّيْنَ لِسَعادَةَ الوُصُوْلِ وَشَرَفِ المُثُولِ بِذاكَ الجَناب، وَأَنْ نَنْثُرَ الأَرْواحَ في مَحَلِّ الدِّرْهَمِ والدِّيْنارِ،

وَنَشْكُرَ هذِهِ المَوْهِبَةِ مِنَ الواهِبِ على الإكْمالِ، وَوُجْدانِ الاِخْتِصاصِ بالتَّشْرِيْفِ بالمُشافَهَةِ، والتَّكْرِيْمِ بالمَواجَهَةِ، ثُمَّ أَلْقَوا الحَمامَةَ بالذَّهابِ أمامَهُمْ، وبالاِتِّفاقِ أَسْرَعُوا لِخِدْمَةِ زَيْرَك، وَحِيْنَ وَصَلُوا إلى هُناكَ، جاءَ أَمامَهُمْ زَرْوي بالاِسْتِقْبالِ والإجْلالِ، وَأَوْصَلَ الجَمِيْعَ لِلْخِدْمَةِ، وَأَمَرَ أَنْ يَجْلِسَ كُلَّ واحِدٍ في مَقامِهِ اللَّائِقِ وَمَنْزِلَتِهِ، وَحِيْنَ صارَ المَجْمَعُ الغاصُّ بالعَوامِّ والخَواصِّ مُزَيَّناً، فَتَحَ زَيْرَك لِسانَ الفَصاحَةِ وَحاجِبَ الصَّباحَةِ، وَلاطَفَ طَوائِفَ الطُّيُورِ مُلاطَفَةِ العَبِيْدِ باللَّطائِفِ، وَغَرائِبِ إسعادِ القُلُوْب، وَنَظَمَ فَصْلاً مُشْبَعاً وَمُسْتَوْفىً في بابِ الكَرَمِ والوَفاءِ، وَسَكَبَ غُرَرَ الكَلِماتِ وَدُرَرَ العِباراتِ مِنْ حُقَّةِ الخاطِرِ وَدُرْجِ الضَّمِيْر، *إلى أَنْ غَرَّتْهُمْ مَحاسِنُهُ الغُرُّ وَصَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ*، حِيْنَ رَأوا لِكُلِّ ذاكَ الَّذي كانَتْ قَرَّرَتْهُ الحَمامَةُ، عِنْوانَ صِدْقٍ على صَفَحاتِ ذاكَ، وَزادَتْ ثِقَتُهُمْ بِمَخائِلِ رَحْمَتِهِ وَعاطِفَتِهِ، دَخَلُوا جَمِيْعاً بالسُّجُوْدِ لِلْخِدْمَةِ، وَأَوْصَلُوا شَرائِطَ الشُّكْرِ والثَّناءِ بالإقامَةِ، ثُمَّ إنَّ زَيْرَك قامَ باسْتِنْهاضِ الحَمامَةِ بِتِلْكَ الرِّسالَةِ ذاتِها جِهَةَ الصَّيْدِ، وَبِحُكْمِ الأَمْرِ شَدَّتْ شَدِيْداً على مَرْكَبِ العَزِيْمَةِ، وَفي مَيْدانِ صَحْنِ الهَواءِ الواحِدِ، كَتَبَتْ بالقَوادِمِ والخَوافي، وَنَزَلَتْ بالصَّحْراءِ، حَيْثُ كانَ مَوْضِعُ سُكُوْنِهِم، وَمِنْ قَبْلِ مَجِيْئِها كانَ وَصَلَ لِأَسْماعِهِم، شُهْرَةُ المَلِكِ زَيْرَك وَعَمَلُهُ الدَّعْوَةَ لِلحَيَواناتِ واسْتِتْباعُهُ الوُحُوْشَ والسِّباعَ، وافْتِتاحُهُ المُراسَلَةَ مَعَ الطُّيُوْرِ، وامْتِثالُهُم وانْقِيادُهُم لَهُ، وَصارَ ذاكَ الخَبَرُ شائِعاً

وَمُسْتَفِيْضاً، وفي الحالِ ذَهَبُوا أمامَها بِقَدَمِ الصِّدْقِ، وقامُوا بالاِسْتِعْلامِ أنْ ما سَبَبُ المَجِيْءِ، الحَمامَةُ أَدَّتِ الرَّسائِلَ الَّتي كانَتْ تَمْلِكُ، وَبِشَرْحِ الأَحْوالِ جَعَلَتِ الصُّدُوْرَ مَشْرُوْحَةً، وَكَمْ نَفَثَتِ السِّحْرَ بالدَّعْوَةِ لَهُم، فَأَخَذَتْ بِهِمْ كالنَّارِ في الحُرَّاقَةِ، حَتَّى تَحَرَّكَتْ داعِيَةُ إِنْفاذِ الأَمْرِ في الباطِنِ لِلْجَمِيْعِ، وَصارَتْ آَثارُ الوَلاءِ والهَوى ظاهِرَةً على الجَمِيْعِ، وَقالُوا لا شَكَّ أنَّ الكِلابَ مَجْبُوْلَةٌ على الوَفاءِ وَمَعْرِفَةِ الحَقِّ والرَّحْمَةِ وَطَلَبِ الحِفاظِ، وَلَوْ كانتْ جِبِلَّةُ زَيْرَك مَثَلاً على خِلافِ هذا، فَإِنَّ بُنْيانَ حِفْظِ مَصْلَحَةِ المُلْكِ قائِمٌ على رِعايَةِ الرَّعِيَّةِ، وَيَمْنَعُ عَنَّا جَوْرَ الآَخَرِيْنَ، *ما يَضُرُّ الطِّحالَ يَنْفَعُ الكَبِدَ*، وَعِزَّةُ انْتِمائِنا للاِحْتِماءِ بِهِ، تَصُوْنُنا مِنْ شَرِّ الأَشْرارِ، وَمَهْما فَكَّرَ بالإِضْرارِ بِنا مِنَ الوَقْتِ وَقْتاً، ما دُمْنا نَكُوْنُ مِنْ ضَرَرِ الآَخَرِيْنَ في حَوْزَةِ حِمايَتِهِ، أَثَرُ ذاكَ التَّضَرُّرِ لا يَجِيْءُ ظاهِراً عَلَيْنا، وَذاكَ القَدْرُ مِنَ الأَلَمِ يَظْهَرُ عَيْنَ الرَّاحَةِ، إلَّا أَنَّ أَرْنَباً كانَ بالدَّهاءِ والذَّكاءِ مِثْلَ اِبْنِ ذُكاءَ يُشِعُّ مِنْ وَسَطِ الأَنْجُمِ، كانَ حاضِراً هُناكَ، وَوَضَعَ بِدايَةَ الاِعْتِراضِ وَقالَ، عِنْدي العَجَبُ مِنْكُمْ مِنْ بُلَهاءَ تُجِيْزُونَ بِلا فِكْرِ الإجْماعَ والاِتِّفاقَ على مِثْلِ هذا الأَمْرِ، ولا تَعْلَمُوْنَ أَنَّ الرِّجالَ وَقْتَ المُداجاةِ، حِيْنَ بالمُهاجاةِ يَذُمُّ الواحِدُ الآخَرَ، يَقُولُ لَهُ أنتَ مِثْلَ الكَلْبِ، وَهُمْ يَضْرِبُونَ بِهِ المَثَلَ بِقِلَّةِ القَدْرِ، وَهُوَ في جَوْهَرِ النَّفْسِ وَقَعَ ناقِصاً هكذا حَتَّى أَنَّ صاحِبَ الشَّرِيْعَةِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَمَرَ مِنْ وَجْهِ الاِسْتِنْكافِ مِمَّا وَضَعَ

عَلَيْهِ فَمَهُ أَنْ يُغْسَلَ بِسَبْعَةِ مِياهٍ وبالتُّرابِ، وَجِلْدُهُ لا يَأْخُذُ حُكْمَ الطَّهارَةِ بِأَيِّ دِباغَةٍ، والنَّتَنُ رَذِيْلَةٌ صارَتْ مَمزُوْجَةً في ماءِ وَطِيْنِ طِيْنَتِهِ، ولا تَصِيْرُ زائِلَةً بِأَيَّةِ خِصْلَةٍ وَفَضِيْلَةٍ،

مَنْ وَسَّخَتْهُ غَدْرَةٌ أَوْ فَجْرَةٌ　　　لَمْ يُنْقِهِ بالرَّحْضِ ماءُ القُلْزَمِ

وَمِنْ لَوازِمِ اسْتِعْدادِ المُلْكِ أَوَّلاً النَّسَبُ الطَّاهِرُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَمِلِكُهُ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَجِيْءُ مِنْهُ يَكُوْنُ مُلَوَّثاً بِنَوْعٍ مِنَ النُّقْصانِ، ولا يَنْبِتُ السَّرْوُ والياسَمِيْنُ أَبَداً مِنْ مَنْبَتِ الثُّوْمِ والزَّنْجَبِيْلِ، والقاقِلَةُ والرَّيْحانُ لا يَطْلُعانِ مِنْ مَغْرَسِ الخَيْزَرانِ، *والَّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً*، قالَتِ الحَمامَةُ، أُعْبُرْ مِنْ خَيالاتِ المُحالِ هذِهِ،

لا بِقَوْمي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بي　　　وَبِنَفْسي فَخَرْتُ لا بِجُدُوْدِي

المُلْكُ أَمْرٌ كَبِيْرٌ، وَإِلى أَوْجِ مَعالي ذاكَ يُمْكِنُ الطَّيَرانُ بِجَناحِ الهِمَّةِ العالِيَةِ لا غَيْر، فَإِنَّ النَّسَبَ زِيْنَةُ وَجْهِ الحَسَب، وَإِذا لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فالحَسَبُ بِذاتِهِ أَصْلٌ، وَمُغْنٍ عَنِ الكُلِّ، وَمَقامٌ مُسْتَغْنٍ عَنِ الكُلّ، وَمِنْ هُنا يَكُوْنُ أَنَّهُمْ يَسْأَلُوْنَ عَنِ الرَّجُلِ أَوَّلاً عَنِ المَحامِدِ الصِّفاتِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ كالفَضْلِ والفُتُوَّةِ والمَنْقَبَةِ والمُرُوْءَةِ، ثُمَّ آنَذاكَ يَسُوْقُونَ الحَدِيْثَ عَنْ نِسْبَةِ الأُبُوَّةِ، فَما كُلُّ ما كانَ غَزالاً يَطْرَحُ المِسْكَ، وَما كُلُّ ما يَجِيْءُ مِنَ النَّحْلِ يَكُونُ العَسَلَ المُصَفَّى، وَما كُلُّ ما ضَمَّ الصَّدَفُ كانَ

اللُّؤلُؤَ اللّآلا، وَما كُلُّ ما وُلِدَ مِنَ الأَسَدِ كانَ الشُّجاعَ، وَما كُلُّ ما عُمِلَ مِنَ الحَدِيْدِ كانَ السَّيْفَ،

الرَّجُلُ الَّذي رَأى الفِرْدَوْسَ مَتى نَظَرَ إلى المَزْبَلَةِ
وَذاكَ الَّذي وَصَلَ لِلْبَحْرِ مَتى طَلَبَ ماءَ الحُفْرَة

أُنْظُرِ الخَرْزَةَ، لا تَكُوْنَ الأَفْعى المُؤْذِيَةَ لِلْخَلْق
واطْلُبِ النَّافِجَةَ وَلَو لَمْ تَكُنْ مِنْ غَزالِ الصَّحْراء

وتِلْكَ الفُضْلَةُ الدَّنِسَةُ المَوْلُوْدَةُ مِنَ المَعْدِنِ الطَّاهِرِ، مَوْسُوْمَةٌ بِوَسْمِ عَدَمِ القَبُولِ على ناصِيَتِها، *إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ*، فَإِذا عَلِمْنا أَنَّ مُجَرَّدَ النَّسَبِ لَيْسَ عِلَّةَ العَظَمَةِ والمُلْكِ، وَإِلَّا ما اسْتَطاعَ الحَسَبُ الذَّاتِيُّ وَجُوْداً وَعَدَماً أنْ يَكُوْنَ مُكَمِّلاً وَمُنَقِّصاً لِذاكَ، وَأَنْ يَجِيْءَ الفَرْعُ هكذا مَفْخَراً لِلأَصْلِ،

كَمْ مِنْ أَبٍ قَدْ علا بابْنٍ ذُرى شَرَفٍ   كما علا بِرَسُولِ اللهِ عَدْنانُ

وَذاكَ الَّذي تَقُولُ عَنِ الكَلْبِ أَنَّهُ مَنْسُوْبٌ بِخِسَّةِ الطَّبْعِ، اِعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ العاقِلَ يَطْلُبُ عَيْبَ نَفْسِهِ دَوْماً بِسِراجِ العَقْلِ، حَتَّى إِذا وَجَدَ في نَفْسِهِ عادَةً مَذْمُوْمَةً وَصِفَةً مُنَفِّرَةً أَبْعَدَ عَنْهُ ذاكَ بالجُهْدِ والتَّكَلُّفِ، مِثْلَما فَعَلَ ذاكَ السَّارِقُ العالِمُ، الأَرْنَبُ سَأَلَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ السَّارِقِ العالِمِ

قالَتِ الحَمامَةُ أورَدُوا أنَّهُ كانَ سارِقٌ أَشَدَّ سُرْعَةً مِنَ الوَهْمِ، وَأمْضى مِنْ خَيالِ اللَّيْلِ، لَوْ شاءَ لَعَمِلَ النَّقْبَ في قَلْعَةِ كَيْوان، وَخَطَفَ النِّقابَ عَنْ وَجْهِ الزُّهْرَةِ، كانَ يَنْزِلُ مِنْ صَدْعِ كُلِّ رَوْزَنَةٍ كَضَوْءِ القَمَرِ، وَيَتَسَلَّلُ مِنْ شِقِّ كُلِّ بابٍ كالشَّمْس، والي الوِلايَةِ كانَ يَطْلُبُهُ السِّنِيْنَ، لِيَجْعَلَ رَأْسَهُ تَقَعُ بالقَيْدِ بالحِيْلَةِ وَلَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ ذلِكَ، لَيْلَةً هذا السَّارِقُ على عادَةِ نَفْسِهِ كانَ جَلَسَ مُتَرَصِّداً خَلْفَ عَطْفَةِ جِدارٍ، حَتَّى يَسْلِبَ مِنَ العابِرِيْنَ مَتاعاً، نَظَرَ إلى جَماعَةٍ فَرأى امْرَأَةً سَيِّئَةَ الفِعْلِ أمامَ رَجُلٍ مَأْخُوْذَةً بالزِّنا تُسْحَبُ إلى قَصْرِ الحاكِمِ، المَرْأةُ رَفَعَتِ الصُّراخَ قالَتْ، أَي مُسْلِمُونَ أنا لَمْ أَقُلْ بُهْتاناً وَلَمْ أَسْرِقْ شَيْئاً، مِنِّي أنا المِسْكِيْنَةِ ما تُرِيْدُون، هذا الحَدِيْثُ أَثَّرَ بالسَّارِقِ تَأْثِيْراً مَحْكَماً، قالَ للنَّفْسِ أُفٍّ مِنْ هذا الفِعْلِ الَّذي فَعَلْتُهُ أَوْقاتاً كَثِيْرَةً، والمَرْأَةُ الزَّانِيَةُ تَجِدُ العَارَ مِنْهُ، ذَهَبَ وَتابَ عَنْ تِلْكَ المِهْنَةِ، وَلَمْ يَعُدْ لَها بَعْدَها، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ زَيْرَكَ، وَهُوَ شَدِيْدُ العِلْمِ وَحادُّ الذِّهْنِ وَطالِبُ الفَضْلِ وَمُرَبِّي الفَضِيْلَةِ، لَوْ كانَ وَجَدَ مِثْلَ هذا العَيْبِ بالنَّفْسِ، لَعَرَفَ اجْتِنابَ ذاكَ واجِباً، وَإذا كانَتْ هذِهِ المَعاني مِنِّي غَيْرَ مَسْمُوْعَةٍ، اِجْعَلُوا واحِداً مُوْكَّلاً عَلَيَّ، واجْعَلُوْهُ مَوْكُولاً بِتَحْقِيْقِ هذِهِ المَعاني، حَتَّى يَجِيْءَ إلى هُناكَ وَيَقُومَ بالمُشاهَدَةِ، أَنْ أَيُّ مَلِكٍ هُوَ،

فَهُوَ مُزَيَّنٌ بَلَطافَةِ الحِدِيْثِ وَذَلاقَةِ اللِّسانِ وَنَظَافَةِ العِرْضِ، وَمُطَهَّرٌ مِنْ جَمِيْعِ عَوارِضِ النَّقَائِصِ، وَفَضائِحِ الخَصائِصِ، *وَقَدِ اشْتَهَرَ مِنْ مناقِبِهِ ما راقَ وَفاقَ وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ الآفاقَ حَتَّى اعْتَرَفَ بِهِ العَدُوُّ المُبايِنُ واشْتَرَكَ في مَعْرِفَتِهِ المُخْبَرُ والمُعايِنُ*، ثُمَّ طَوائِفُ الوُحُوْشِ اتَّفَقُوا على ذاكَ القَرارِ، أَنَّهُمْ يَنْصُبُونَ غَزالاً يَضُمُّوْنَهُ إلى الحَمامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ إلى هُناكَ وَيَرْجِعَ بِرَفْعِ أَحْوالِهِ إِلَيْهِم بالجَوابِ والسُّؤالِ، وَيُوْصِلَ كُلَّ ما هُوَ مَأْمُولٌ وَمُتَمَنَّىً مِنْهُ بالحُصُولِ، وَيُعِيْدَ وَسائِطَ القَسَمِ والاِسْتِظْهارَ بِشَرائِطِ الوَفاءِ مُؤَكَّدَةً، صارَ غَزالٌ مُعَيَّناً، وفي الفَجْرِ إِذْ كانَ عارِضُ بَياضِ الصُّبْحِ لا يَزالُ في خِضابِ الشَّبابِ، وَذَنَبُ طاوُوْسِ المَشْرِقِ تَحْتَ جَناحِ الغُرابِ، جَعَلَ الوَجْهَ بالطَّرِيْقِ مَعَ الحَمامَةِ، الحَمامَةُ أَسْرَعَتْ سابِقَةً لِلْخِدْمَةِ، وَقالَتْ نُبْذَةً عَمَّا جَرى مِنَ الأَحْوالِ، زَروي عَمِلَ الإِشارَةَ، أنْ فَلْتَأْمُرْ أنْ يَسْتَدْعُوا الطُّيُورَ، وَأَنْ يُقِيْمُوهُم جَمِيْعاً واقِفِيْنَ على القَدَمِ وَيُبْقُوْهُم واقِفِيْنَ كُلٌّ في مَقامِ نَفْسِهِ، وَيَجْعَلُوا لِكُلِّ واحِدٍ مَكاناً مُعَيَّناً على اخْتِلافِ المَراتِبِ، حَتَّى حِيْنَ يَدْخُلُ الغَزالُ يَرى المَجالِسَ في ملابِسِ الهَيْبَةِ والوَقارِ، وواحِدَةٌ مِنْ وَظائِفِ الوَقْتِ كانَتْ أَنْ يُحافِظُوا على مِقدارِ القِيامِ والقُعُوْدِ مَعَهُ، وَيكُونُوا في الوَسَطِ ما بَيْنَ الاِنْقِباضِ والاِنْبِساطِ، ولا يَمِيْلُوْا إلى طَرَفَي التَّفْرِيْطِ والإِفراطِ، وَقالَ، في وَقْتِ أَداءِ رِسالَتِهِ إِذا جاءَتِ الحاجَةُ لِلأَجْوِبَةِ والأَسْئِلَة، لا تَسُقْ مَرْكَبَ العِبارَةِ بِنَشاطٍ، وَفي مَضائِقِ الدَّقائِقِ أَعْطِني عِنانَ

الحَدِيْثِ باليَد، واجْعَلْ مُناظَرَتَهُ تَكُوْنُ مَعِي، حَتَّى العَثْرَةُ الَّتي يَجْدُ العاقِلُوْنَ العُثُوْرَ عَلَيْها لا تَجِيْءُ بالطَّرِيْق، فَإِنَّكَ إِذا جِئْتَ غالِباً لَهُ لا يَزِيْدُ الشَّرَفُ، وَإِذا صِرْتَ مَغْلُوباً جَلَسَتْ وَصْمَةٌ كَبِيْرَةٌ وَمَنْقَصَةٌ تامَّةٌ، وَحِيْنَ صارَ المَحْضَرُ مَشْحُوْناً بِعَوامِّ الحَشَمِ وَخَواصِّ الخَدَمِ، وَجَلَسَ زَيْركُ في مَجْلِسِ الرُّخْصَةِ بالزِّيْنَةِ الَّتي كانَتْ لائِقَةً بالوَقْتِ، وَجاؤوا بالتَّقْرِيْبِ والتَّرْحِيْبِ لِلْغَزالِ بالقَدْرِ الَّذي كانَ لائِقاً بِهِ، وَأَجْلَسُوْهُ مُحْتَرَماً وَمُكَرَّماً، وَساءَلُوْهُ عَنْ وَحْشَةِ الطَّرِيْقِ وَمَشَقَّةِ وَوَعْثاءِ السَّفَرِ، وبالإكرامِ ولُطْفِ التَّحِيَّةِ جَعَلُوا الحَياءَ والخَجَلَ زائِلَيْنِ مِنْهُ، وَدَخَلَ بالكَلامِ باللِّسانِ المَعْسُولِ واللَّهْجَةِ العَذْبَةِ، راحَ يَنْظِمُ الأحادِيْثَ المُسْتَعْذَبَةَ المَمْزُوْجَةَ باللُّطْفِ بِلا حَشْوٍ في العِبارَةِ، وَصارَ لِلْغَزالِ حَلاوَةُ مُرادِ الرُّوْحِ تِلْكَ، ارْتَفَعَ كَثِيْرٌ مِنَ الدَّهْشَةِ مِنَ الوَسَطِ، عَرْصَةُ الأَمَلِ صارَتْ واسِعَةً، والشُّجاعُ دَخَلَ بالمُكالَمَةِ، بِلا تَحاشٍ وَمُكاتَمَة، وَكُلُّ ما كانَ مِنْ اِلْتِماسٍ، في لِباسِ الخُضُوْعِ والعُبُوْدِيَّةِ والخُشُوْعِ، قامَ بِعَرْضِ شَرْحِهِ، وَرَبَطَ الجُمْلَةَ بالإِسْعافِ وَقالَ، يَجِبُ الكَوْنُ آمِناً مِنِّي، كَثِيْرٌ مِنَ المُلُوْكِ يُعامِلُونَ الصِّغارَ كَأَعْداء، فَإِذا عَلِمُوا ضَرُوْرَتَهُم في الأَعْمالِ، وَظَهَرَتْ لِياقَتُهُمْ في الأَشْغالِ، صارُوا مَحْبُوْبِيْن وَمَنْظُوْرِيْنَ، وَأنتَ تَعْلَمُ أولئِكَ الَّذينَ هُمْ بِأَصْلِ الفِطْرَةِ مِنْ جَوْهَرِنا وَطِيْنَتِنا، يَكُونُوْنَ جَمِيْعاً قاصِدِيْنَ لَكُمْ، لكِنْ لا مِنْ تِلْكَ الجِهَةِ أَنَّهُمْ رَأوا مِنْكُمْ فِعْلاً لَمْ يَكُنْ مُوافِقاً، أو أَنَّهُم وَجَدُوا مِنْكُمْ ضَرَراً لاحِقاً، بَلْ مِنْ تِلْكَ الجِهَةِ،

أَنَّهُمْ أَسْرى الطَّمَعِ وَعَبِيْدُ الشَّهْوَةِ وَتَحْتَ يَدِ الطَّبِيْعَةِ، لا جَرَمَ هُمْ دائِماً لِدَمِكُمْ وَلَحْمِكُم مُحْتاجُونَ وَظامِئُون، وَكُلَّ العُمْرِ في كَمِيْنِ تِلْكَ الفُرْصَةِ جالِسُون، لِيَجْعَلُوا واحِداً مِنْ تِلْكَ المُجْتَرَّاتِ يَقَعُ في مَخالِبِ قَهْرِهِم أَسِيْراً، وَأنا بِعَوْنِ التَّأْيِيْدِ الإِلهِيِّ جَعَلْتُ العَقْلَ مُسَيْطِراً على الهَوى، وَأَغْلَقْتُ عَيْنَ الطَّمَعِ والغَضَبِ عَنْ ذاكَ الَّذي يَكُونُ مَطْمَعاً وَمَطْعَماً لِلمُفْتَرِساتِ، وَصِرْتُ مُبْتَعِداً عَنِ الكُلِّ، وَجَعَلْتُ العَقْلَ في أَمْرِ الدَّسْتُور، حَتَّى لا يَصِلَ مِنَّا الأَذى لِأَيِّ كائِنٍ حَيٍّ، ولا يَأْخُذ البُغْضُ والحَسَدُ لَنا المَكانَ في قَلْبِ أَيِّ حَيْوانٍ، وَيَجِبُ بَعْدَ اليَوْمِ أَنْ يَكُونَ عَدْلُنا حارِساً لِلْجَمِيْعِ، وَيَعْرِفُوْنا راعِياً لِقَطِيْعِنا، وَيَكُونُوا مُرْتاحِيْنَ في كَنَفِ أَمْنِنا وَأمانِنا، وَأَنْ تُرْجِعُوا النَّافِرَةَ مِنْ أَطْرافِ وَأَكْنافِ العالَمِ، بِمَواثِيْقِ عَهْدِنا وَمَواعِيْدِ لُطْفِنا، لِيَجْعَلَ الجَمْيْعُ العَيْنَ على رَحْمَتِنا وَعَدَمِ أَذانا وَرِفْقِنا وَمُراعاتِنا لِرَعِيَّتِنا، فلا يَتَصَوَّرُوا فَتْحَنا وَسَعْيَنا حالاً وَمَآلاً إِلَّا بالثَّناءِ الجَمِيْلِ والثَّوابِ الجَزِيْلِ الَّذي يَصِيْرُ مُدَّخَراً، الغَزالُ قالَ، كانَ البَقاءُ والنَّصْرُ لِلْمَلِكِ المُوَفَّقِ، لا شَكَّ أَنَّ طَرِيْقَ الخَلاصِ والمَناصَ مِنْ خُصُومِنا بِلا مُحاباةٍ هُوَ عَيْنُ هذا، أنْ نَصِيْرَ بِوَسْمِ العُبُوْدِيَّةِ لَكَ مَوْسُوْمِيْن، وَأَنْ نُحافِظَ على مَنْطَقَةِ أَمْرِكَ مِنْ مَخْنَقَةِ قَبْضَةِ المُتَعَدِّيْنَ، ولا تُلْقِيْنا شَوْكَةُ أظافِرِكَ لِمَشافِرِ السَّفَّاكِيْن، لكِنْ بِما أَنَّنا نَمْلِكُ المَنازِلَ مُتَناثِرَةً في الجِبالِ والتِّلالِ، والمَأوى والمَساكِنَ مُتَفَرِّقَةَ في المَصاعِدِ والقِلال، وَلِكُلِّ طائِفَةٍ مِنَّا عَدُوٌّ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ،

فَمرارَتْنا مِنْهُمْ على التَّواصُلِ تَجِيْشُ، وَزَهْراتُ وَثَمَراتُ سَفْحِ الجَبَلِ تَظْهَرُ لَنا مِثْلَ النَّباتِ السَّامِّ، وَلَسْنا مِثْلَ جَماعَةٍ وَقَطِيْعِ الأَغْنامِ الَّتي تَمْلِكُ المَجْمَعَ والمَضْجَعَ في مَكانٍ واحِدٍ، وَجَماعَةً جَماعَةً يَرْعَوْنَ وَيَرْتَعُوْنَ معاً في مَرْعىً واحِدٍ وَعلى مَعْلَفٍ واحِدٍ، زَيرَك جَعَلَ الوَجْهَ إلى زَرْوي، يَعْني ما جَوابُ هذا الحَدِيْثِ، قالَ اِعْلَمْ أَنَّ المَلِكَ شَبِيْهٌ بالشَّمْسِ المُشِعَّةِ، الَّتي مِنْ مَكانٍ واحِدٍ تُشِعُّ على جُمْلَةِ أَقْطارِ العالَمِ، وَضِياءُ أَنْوارِها يَصِلُ إلى كُلِّ مَكانٍ، وَيَظْهَرُ أَثَرُها بِنَوْعٍ آخَرَ، حَتَّى يَأْخُذَ رَوْعُ البَأْسِ وَرُعْبُ الخَوْفِ في الأداني والأقاصي الاِسْتِيلاءَ على كُلِّ قَلْبٍ بِشَكْلٍ آخَرَ، وَذاكَ الَّذي قالُوا عَنِ المَلِكِ، رَغْمَ أَنَّكَ تَكُونُ بَعِيْداً عَنْهُ لا تَكُنْ آمِناً مِنْه، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَيْنَ هذا،

كالشَّمْسِ في كَبِدِ السَّماءِ مَحَلُّها وَشُعاعُها في سائِرِ الآفاقِ

فاعْلَمْهُ حَقِيْقَةً أَنَّهُ حِيْنَ المُلْكُ يَأْخُذُ الاِسْتِقرارَ، وَيَقْبَلُ حُكْمَ الاِسْتِمرارِ، وَتَجِيْءُ الكَثْرَةُ ظاهِرَةً في سَوادِ الجَيْش، لا يَبقى في سُوَيْداءِ أَيِّ قَلْبٍ سَوْداءُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَقْدِرَ على التَّفْكِيْرِ بِقَصْدِكُمْ، فَلا مَخْلَبُ النَّمْرِ يَتَعَلَّقُ بِثَوْبِ جِلْدِ الغَزالِ، ولا قَدَمُ الذِّئْبِ تَمْسَحُ رِيْحَ الهَوَسِ لِلْخَرُوْف، وَعَظْمُ غُصَّةِ الثَّوْرِ يَأْخُذُ في لُقْمَةِ فَمِ الأَسَدِ بالحَلْقِ في البَلْع، وَدَمْعُ حَسْرَةِ الغَزالِ يَغْسِلُ كُحْلَ عَيْنِ الفَهْدِ، قالَ الغَزالُ، الآنَ لَنا اِلْتِماسٌ آخَرُ، ذاكَ أَنْ يَجْعَلَ المَلِكُ طَرِيْقَ الذَّهابِ والإِيابِ لَنا مَفْتُوْحاً دائِماً،

حَتَّى إِذا ما وَقَعَتْ واقِعَةٌ، وَصِرْنا بِتِلْكَ مُحْتاجِيْنَ لِلْمُرافَعَةِ، عِنْدَ مَساسِ الحاجَةِ يَسْمَعُ تِلْكَ الظُّلامَةَ مِنَّا بِسَمْعِهِ المُبارَكِ بِلا واسِطَةٍ، وَيَجْعَلُ الصَّغِيْرَ والكَبِيْرَ والرَّفِيْعَ والوَضِيْعَ والخَطِيْرَ والحَقِيْرَ والمَجْهُوْلَ والوَجِيْهَ والخامِلَ والنَّبِيْهَ جَمِيْعاً بِوَقْتِ الاِسْتِغاثَةِ مُنْخَرِطِيْنَ في نَظْمٍ واحِدٍ وَسِلْكٍ واحِدٍ، ولا يَجْعَلُ واحِداً مُنْفَرِداً عَنِ الآخَرِ، كما فَعَلَ أَنوشروان مَعَ حِمارِ الطَّحَّان، زَيْرَك سَأَلَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ كِسْرى مَعَ حِمارِ الطَّحَّان

قالَ الغَزالُ، سَمِعْتُ أَنَّ كِسْرى مِنْ غايَةِ رِعايَتِهِ للرَّعِيَّةِ وَنَشْرِهِ لِلْعَدْلِ، إِذْ كانَ طَبْعُهُ مُنْطَبِعاً عَلى ذاكَ، وَحَتَّى لا تَبْقى جُزْئِيَّاتُ أَحْوالِ الرَّعايا، مِنْ رَعاعِ النَّاسِ وَأَشْرافِهِمْ، مَخَفِيَّةً عَنْهُ، فَإِنَّهُمْ حِيْنَ يَطْلُبُونَ العَدْلَ بِلِسانِ الآخَرِيْنَ، يَذْهَبُ في كَشْفِ ذاكَ تَقْصِيْرٌ، وَقاعِدَةُ العَدْلِ، الَّتي مَناجِحُ الخَلْقِ وَمَصالِحُ المُلْكِ مُبْتَناةٌ عَلَيْها، تَقْبَلُ الخَلَلَ، أَمَرَ أَنْ يُفْتَلَ حَبْلٌ مِنَ الحَرِيْرِ، وَأَنْ تُعَلَّقَ عَلَيْهِ الأَجْراسُ، وَيُرْبَطَ بِجِوارِ ساحَةِ القَصْرِ، حَتَّى كُلُّ مَنْ وَصَلَ لَهُ الظُّلْمُ، وَصارَ مَسْحُوْقاً بِأَقْدامِ الذِّلَّةِ، يَمُدُّ اليَدَ لِذاكَ الحَبْلِ فَيُحَرِّكَ الجَرَسَ، وَصَوْتُ ذاكَ يُوْصِلُ حِكايَةَ حالِ المُتَظَلِّمِ لِسَمْعِهِ، قُلْتَ في ذلِكَ العَهْدِ قَلْبُ الجَرَسِ مِنَ الحَدِيْدِ كانَ يَرِقُّ لِقَلْبِ المَظْلُوْمِيْن، وَيَجِيْءُ بالرَّحْمَةِ عَلَيْهِم، وفي كَشْفِ البَلْوى وَبَثِّ الشَّكْوى، كانَ يُؤَدِّي لَهُمْ حَقَّ المُسْلِمِ بالكلامِ بِلا لِسان، أَوْ أَنَّ عِرْقَ

الحَرِيْرِ مِنْ ذاكَ الرَّسَنِ كانَ يَمْلِكُ الوُصْلَةَ مَعَ رُوْحِ المَلْهُوْفِيْن، فَفي حِمايَتِهِمْ كانَ يَتَحَرَّكُ بِكُلِّ بَدَنِهِ، اليَوْمَ لَوْ أَلْفُ مُتَظَلِّمٍ عُلِّقُوا بِحَبْلٍ واحِدٍ، لا شَخْصَ بِإِغاثَتِهِم يُطْلِقُ النَّفَسَ كالجَرَس، خِلْتَ ذاكَ الأبْرِيْشَمَ على مِنْهاجِ عَدْلِهِ كانَ أُمَّ الأوْتار، فَحِيْنَ يُطْلِقُ النَّفَسَ، أَنَّاتُ المَنْكُوْبِيْنَ بالمِحْنَةِ جَمِيْعاً تَقَعُ خارِجَةً مِنَ الحِجاب، أوْ أَنَّهُ مِنْ زَمانِ ذاكَ المَلِكِ إلى اليَوْم، بِنَوْبَةِ السَّماعِ كُلَّما وَصَلَ ذاكَ النَّغَمُ لِسَمْعِهِ كانَ يُنْقِصُ حَبْلاً مِنْ تِلْكَ الحِبالِ إلى أنْ صارَ بِلا عَمَلٍ الآنَ كُلِّيّاً، كانُوا يُحافِظُوْنَ على هذا النَّغَمِ، وَيَوْماً كانَ مُحِيْطُ قَصْرِ أنوشروان خالِياً مِنَ النَّاسِ، وَدَخَلَ إلى هُناكَ حِمارٌ بِغايَةِ الضَّعْفِ وَسُوْءِ الحالِ والنُّحُولِ، الشَّوْكُ واقِعٌ لَهُ في الأَعْضاءِ، راحَ يَمْسَحُ النَّفْسَ على ذاكَ الرَّسَنِ، وَصَلَ صَوْتُ الجَرَسِ إلى أُذُنِ أنوشروان، وَمِنْ فَرْطِ الأَنَفَةِ الَّتي كانَتْ لَهُ مِنَ الجَوْرِ، والنَّصَفَةِ الَّتي كانَتْ لَهُ على خَلْقِ اللهِ، وَثَبَ مِنَ المَكانِ وَجاءَ إلى زاوِيَةِ سَقْفِ قَصْرِ الخَلْوَةِ، وَنَظَرَ فَرَأى الحِمارَ على تِلْكَ الصِّفَةِ، أَمَرَ بالبَحْثِ عَنْ حالِهِ، قالُوا هُوَ حِمارُ الطَّحَّانِ صارَ كَبِيْراً وَهَزِيْلاً، وَصارَ عاجِزاً عَنِ العَمَلِ والحَمْلِ، وَقَدْ فَكَّ الطَّحَّانُ قَيْدَهُ وَطَرَدَهُ خارِجَ البَيْت، أعْطى الأَمْرَ، أنْ على الطَّحَّانِ أنْ يَأْخُذَهُ لِلْبَيْتِ وَيُحافِظَ على إِعْطائِهِ الرَّواتِبَ مِنَ الماءِ والعَلَفِ على القاعِدَةِ، وَأَلّا يُؤْذِيَهُ في الباقي مِنْ حَياتِهِ، وَأَلّا يَسْتَعْمِلَهُ بالعَمَلِ، ثُمَّ أَمَرَ مُنادِياً يُنادي، كُلُّ مَنْ كانَتْ لَهُ دابَّةٌ اسْتَعْمَلَها بالعَمَلِ

في شَبابِها، فَلا يَطْرُدْها مِنَ البَيْتِ وَقْتَ هَرَمِها، ولا يَتْرُكْها ضائِعَةً، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، كَي يَصِيْرَ مَعْلُوْماً كَيْفَ كانَ مُلُوْكُ العالَمِ يَحْرِسْونَ العالَمَ، وَكَيْفَ كانُوا يَأْمُرُوْنَ بِتَأْسِيْسِ مَباني المَعْدَلَةِ وَقواعِدِ الشَّفَقَةِ على الخَلْق، وَشَيْءٌ آخَرُ، يَجِبُ إذا أَمَرْتَ بِعُقُوْبَةٍ أَنْ يَكُونَ باعِثَ ذاكَ تَأدِيْبُ الرَّعِيَّةِ وَتَعْدِيْلُ أُمُورِ المَمْلَكَةِ، لا الهَوى والغَضَبُ اللَّذانِ يَجِيْئانِ ظاهِرَيْنِ مِنْ إغراءِ الطَّبِيْعَةِ، وَأَنْ تَجْعَلَ حِمْلَ التَّكْلِيْفِ على مِقْدارِ الطَّاقَةِ، حَتَّى لا يَصِيْرَ المُتَحَمِّلُوْنَ مَكْسُوْرِيْنَ، ولا يَبْقى العَمَلُ غَيْرَ مَعْمُولٍ، *إنْ أَرَدْتَ أَنْ تُطاعَ فَسَلْ ما يُسْتَطاع*، وَحِيْنَ تَضَعُ على شَخْصٍ جِنايَةً، يَجِبُ عَلَيْكَ تَمْيِيْزُ المُعْتَمِدِ مِنَ السَّاهِي، والمُكافِئِ مِنَ البادئِ، وَذاكَ الَّذي تُوَكِّلُهُ بِنا أنْ يَكُوْنَ مُتَبَصِّراً صاحِياً، وَمُتَيَقِّظاً عاقِلاً، وَحافِظاً بالطَّبْعِ وَطالِباً للصَّلاح، وَأنْ يَطْلُعَ ذاكَ مِنَ الأَصْلِ، ولا تَظْهَرُ آثارُ التَّكَلُّفِ والتَّقْلِيْدِ بِذاكَ، وَأنْ يَكُونَ مُخاصِماً للنَّفْس، كما قالَ ذاكَ المُغَنِّي للصِّهْرِ، زَيْرَك سَأَلَ وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قَصَّةُ المُغَنِّي مَعَ الصِّهْرِ

قالَ الغَزالُ سَمِعْتُ أَنَّهُ في وَقْتٍ عَقَدَ شَخْصٌ على كَرِيْمَةٍ بالزَّواجِ، وَصارَ مَشْغُولاً بالعُرْسِ والوَلِيْمَةِ كما هُوَ الرَّسْمُ، وَكُلُّ شَيْءٍ كانَ واجِباً مِنْ قانُوْنِ تِلْكَ الضِّيافَةِ عَمِلَهُ جُمْلَةً، وَحِيْنَ أَتَمَّ كُلَّ ذاكَ، وكانَ

يَمِلِكُ جاراً مُغَنِّياً، زُهْرَةُ السَّعْدِ مِنَ الغَيْرَةِ مِنْ قَيْثارَتِهِ كانَتْ تَجِيْشُ كما جاشَتْ مَرارَةُ دَعْدٍ في فِراقِ رَباب، وَغِناءُ البُلْبُلِ على وَرَقِ الوَرْدِ كانَ يُثِيْرُ ضَرْبَ نَقِراتِهِ، وَضُحْكَةُ الوَرْدِ في وَجْهِ البُلْبُلِ تَجِيْءُ بِنَشاطِ نَغَماتِهِ، سَماعُ هذا الأَرْغَنُونِ المَنْكُوْسِ في ثواني وَثَوالِثِ الحَرَكاتِ، لَمْ يُؤَثِّرْ في عارِفي اللَّحْنِ الرُّوْحانِيِّ تَأْثِيْرَ مَثالِثِهِ وَمَثانِيْهِ، أَرْسَلَ مُضِيْفاً بِطَلَبِهِ، أنْ أَعِدَّ العُدَّةَ واحْضَرْ ساعَةً، المُغَنِّي سَأَلَ المُرْسَلَ، أنْ هَلِ الصِّهْرُ طَلَبَ المَرْأةَ بِرَغْبَةِ القَلْبِ وَمُرادِ الطَّبْعِ، أَمْ أَنَّ الأُمَّ والأَبَ عَمِلا الحُكْمَ لَهُ، المُرْسَلُ جاءَ بالإِنْكارِ، أنْ مَعْرِفَةُ هذا بِأَيِّ شَيْءٍ تَنْفَعُكَ، المُغَنِّي قالَ، إذا كانَ الرَّجُلُ طَلَبَ المَرْأَةَ عَنْ عِشْقٍ، يَمْتَزِجُ سماعي مَعَ رُوْحِهِ، وَكُلُّ الَّذي أَعْزِفُ يَتَعَلَّقُ بِقَلْبِهِ، مِنَ الأَغارِيْدِ والأَغاني، مَعَ خَيالِ وَجْهِ الغَواني، لَعِبُ العِشْقِ يَعْمَلُ الوِصالَ والفِراق، وَمِنْ كُلِّ نَغَمٍ أَعْزِفُ يَسْمَعُ أَنِيْنَ العُشَّاقِ، فَلي مِنْ أَخْذِ السَّماعِ في طَبْعِ الصِّهْرِ وَقُلُوْبِ الحاضِرِيْنَ تَنْهَضُ الفَوائِدُ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ هكذا، أَيُّ حاصِلٍ لَهُ مِنَ السَّماع،

فَرْقٌ بَيْنَ الحَرْقِ الَّذي يَنْهَضُ مِنَ الرُّوْحِ وَبَيْنَ ذاكَ الَّذي تَرْبِطُهُ عَلَيْهِ بالحَبْلِ

أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى يَكُونَ مُقَرَّراً، أنَّ أَمْرَ الرَّعايا وَرِعايَةَ أَحوالِهِم، لا يَجُوْزُ أَنْ يَكُونَ مُفَوَّضاً لِكُلِّ شَخْصٍ، قالَ زَروي، قُلْتَ حَسَناً، وَكانَ الثَّناءُ على الثَّناءِ لِذاكَ الَّذي أَخَذَ مِثْلَ هذا الطَّرِيْقِ

بِحْقائِقِ الأَعْمال، وَمَلَكَ هذا القَدَمَ في طَرِيْقِ رِفْقَةِ الأَصْحاب، الآنَ اقْتِضاءُ رَضانا هُوَ ذاكَ، أنَّكُمْ بِجَمِيْعِ الأَحْوالِ تَسْعَوْنَ بالسَّيْرِ بِطَرِيْقِ الصِّدْقِ، فَإِنَّ كُلَّ أَساسٍ لا تَضَعُهُ على الصِّدْقِ لا يَبْقى ثابِتاً، واعْلَمْ أَنَّ مَحَلَّ الصِّدْقِ شَيْئانِ، واحِدٌ القَوْلُ والثَّانِي الفِعْلُ، صِدْقُ المَقالِ كانَ ذاكَ، أنَّكَ إِذا قُلْتَ شَيْئاً تَقْدِرُ أنْ تَجِيْءَ خارِجاً مِنْ عُهْدَةِ ذاكَ، وَصِدْقُ العَمَلِ أَنَّكَ لا تَعْبُرُ عَنْ قاعِدَةِ الاِعْتِدال، واعْلَمْ أَنَّ الاِعْتِدالَ لَيسَ المُساواةَ في مَقادِيْرِ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ اعْتِدالُ العَمَلِ على وِفْقِ المَصْلَحَةِ، وَكُلُّ مَنْ مِنَ العَدالَةِ فَهِمَ المَعْنى الأَوَّلَ فَهُوَ عَمِلَ مِثْلَما عَمِلَ ذاكَ الطَّبَّاخُ مِنَ الجَهْلِ، الغَزالُ سَأَلَ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الطَّبَّاخِ الجاهِلِ

زَروي قالَ، سَمِعْتُ أنَّهُ في يَوْمٍ، حَكِيْمٌ خَبِيْرٌ كانَ في مَجْلِسٍ لِلْحَدِيْثِ، وكانَ جَعَلَ الكَلامَ المَمْزُوْجَ بالحِكْمَةِ حارَّاً، وَكانَ يَقُوْلُ الفُصُوْلَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ، حَتَّى وَصَلَ لاعْتِدالِ الأَخْلاطِ والأَرْكانِ، أنْ في كُلِّ وَقْتٍ كانَتِ الصَّفْراءُ والسَّوْداءُ والبَلْغَمُ والدَّمُ بالمَقْدارِ الصَّحِيْح، والمَوادُّ مُتَساوِيَةُ الأَجْزاء، بَقِيَ المِزاجُ الكُلِّيُّ غالِباً على القَرارِ الأَصْلِيِّ، وَهكذا الشَّمْسُ حِيْنَ تَصِلُ لِنُقْطَةِ الاِعْتِدالِ الرَّبِيْعِيِّ، ساعاتُ زَمانِ النَّهارِ واللَّيْلِ تَرْجِعُ لِمِقْدارٍ واحِدٍ، وَكذلِكَ حِيْنَ مِيْزانُ الفَلَكِ يَتَحَرَّكُ بِعَيْنِ الشَّمْسِ، الاِعْتِدالُ المُطْلَقُ يَجِيْءُ ظاهِراً بِمِزاجِ العالَمِ،

طَبَّاخٌ كانَ واقِفاً ما بَيْنَ النَّظَّارَةِ، لَمْ يَكُنْ قادِراً على الفَهْمِ، ظَنَّ أَنَّ المُرادَ مِنْ ذاكَ الاِعْتِدالِ هُوَ تَسْوِيَةُ المَقادِيْر، ذَهَبَ وَأَعَدَّ قِدْراً مِنَ الحِساءِ، وَجَعَلَ فِيْهِ اللَّحْمَ والزُّعْفَرانَ والفُلْفُلَ والمِلْحَ والماءَ والتَّوابِلَ الأُخْرى مُتَساوِيَةً تَماماً، وَحِيْنَ فَرِغَ وَضَعَهُ أَمامَ الأُسْتاذِ، وَجَعَلَ بُرْهانَ جَهْلِهِ ظاهِراً،

وَكَمْ مِنْ عائِبٍ قَوْلاً صَحِيْحاً وَآفَـتُـهُ مِـنَ الـفَـهْـمِ السَّـقِـيْـمِ

أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ المُحافَظَةَ على العَدالَةِ طَرِيْقٌ دَقِيْقٌ، ولا يُمْكِنُ سُلُوْكُ ذاكَ الطَّرِيْقِ إِلَّا بِآلَةِ العَقْل، العَقْلُ هُوَ الَّذي يُحافِظُ على مَقادِيْرِ الأُمُورِ العُرْفِيَّةِ والشَّرْعِيَّةِ في فَوائِدِ الدِّيْنِ مَرْعِيَّةً، وَيُوْصِلُ بالفِعْلِ الإشارَةَ النَّبَوِيَّةَ، *ما دَخَلَ الرِّفْقُ في شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زانَهُ وَما دَخَلَ الخُرْقُ في شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شانَهُ*، الغَزالُ حَفِظَ هذا الفَصْلَ، وَنَقَشَ الكَلِماتِ الَّتي كانَ سَمِع مِنْ زَيْرَك وَزَروي على سَوادِ وَبَياضِ العَيْنِ والقَلْب، وقالَ الدُّعاءَ اللَّائِقَ بالحالِ والثَّناءَ باسْتِحْقاقِ الوَقْتِ، وَبِحُكْمِ الأَمْرِ جَعَلَ الوَجْهَ مَعَ الحَمامَةِ لِلْمَقْصَدِ، بِوَجْهٍ صَبِيْحٍ وَأَمَلٍ فَسِيْحٍ وَحُصُوْلِ مُرادِ القَلْبِ وَخِصْبِ مَرادِ الأمانِي، مَقْضِيَّ الوَطَرِ مَرْضِيَّ الأَثَرِ والنَّظَرِ، وَحِيْنَ وَصلا إلى مَحَلِّ الإقامَةِ، وَجاءَتِ الوُحُوْشُ حاضِرَةً، وَصارَ الواحِدُ يُهَنِّئُ الآخَرَ بِقُدُوْمِهِما، ثُمَّ

الغَزالُ فَتَحَ اللِّسانَ بِذِكْرِ مَحاسِنِ الأَوْصافِ، وَمَحامِدِ الأَخْلاقِ، والسِّيَرِ المَرْضِيَّةِ مِنْ زَيْرك، وَقال،

لَهُ خُلُقٌ كالرَّوْضِ غازَلَهُ الصَّبا   فَضَوَّعَ في أَكْنافِهِ أَرَجَ الزَّهْرِ
يَزِيْدُ على مَرِّ الزَّمانِ سَجاحَةً   كما زادَ طُوْلُ الدَّهْرِ في عَبَقِ الخَمْرِ

وَبِتَمْشِيَةِ أُمُورِ الوَقْتِ وَتَمْنِيَةِ الرَّاحاتِ الَّتي كانَتْ مُتَوَقَّعَةً في مُسْتَقْبَلِ الحالِ، عَمِلُوا المَسَرَّاتِ، ثُمَّ وَقَفُوا لِتَبْلِيْغِ الرِّسالَةِ والإشاراتِ مِنْ زَيْرَك، وَمِنَ الجُمْلَةِ، الوَصايا الَّتي كانَتْ جَرَتْ في قَضايا أُمُوْرِ المُلْكِ والرَّعِيَّةِ، وَأَوْصَلُوا الأُصُوْلَ والفُصُوْلَ الَّتي كانَتْ وُضِعَتْ في ذاكَ البابِ، وَصارَتِ القُلُوْبُ على قَبُولِ الطَّاعَةِ مُسْتَقِرَّةً وَمُطْمَئِنَّةً، ثُمَّ إِنَّ الغَزالَ جاءَ طائِفاً على أَطْرافِ تِلْكَ الحُدُوْدِ، وَجَمَعَ جَماهِيْرَ الوُحُوْشِ، وباحْتِشادِ كُلِّ ما كانَ أَتَمَّ، جَعَلُوا الوَجْهَ إِلى عَتَبَةِ زَيرَك، الحَمامَةُ بِرَسْمِ الحِجابَةِ سَبَقَتْ وَوَصَلَتْ بالخِدْمَةِ وَأَوْصَلَتْ عَنْ وُصُوْلِهِمُ الخَبَرَ، زَيْرَك قالَ، مَهْما تَكُنْ عَقائِدُهُم هذِهِ السَّاعَةَ عَنْ مَكائِدِ قَصْدِنا خالِيَةً، وَضَمائِرُهُمْ عَنْ تَصَوُّرِ جَرائِرِ وَضَرائِرِ الإِيْذاءِ والإِضْرارِ صافِيَةً، وَلَيْسَ بَعِيْداً أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ صَوْلَتِنا وَمَهابَتِنا في طِيْنَتِهِمْ بِأَصْلِ الفِطْرَةِ مُتَمَكِّنَةٌ، فَحِيْنَ يَصِيْرُوْنَ قَرِيْبِيْنَ يَخافُوْنَ، فَإِذا كانَ ضَعْفُ القَلْبِ غالِباً على واحِدٍ بالوَسَطِ، ولا يَمْلِكُ العِلْمَ، فَعِنانُ الطَّبِيْعَةِ يَأخُذُهُ، أَوْ أَنَّهُ يَكُونُ بِلا خَبَرٍ عَنْ كَيْفِيَّةِ الحالِ، فَجْأَةً يَثِبُ

وَيَجْعَلُ الوَجْهَ لِلْهَرَب، لا كانَ أَنَّ تِلْكَ الحَرَكَةَ تَعْمَلُ أَداءَ التَّحْرِيْشِ والتَّشْوِيْش، وَتَصِيْرُ مُوْجِبَ تَرَدُّدِ الوُحُوْشِ والطَّرائِدِ وَتَبَدُّدِ هذا النِّظام، وَتَبْقى الأَعْمالُ غَيْرَ مُنْجَزَةٍ وَبَواراً، كما وَقَعَ للثَّعْلَبِ مَعَ الدِّيْكِ، الحَمامَةُ سَأَلَتْ وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الثَّعْلَبِ مَعَ الدِّيْك

قالَ زَيْرَك، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ دِيْكٌ قَدْ طَوَّفَ العالَمَ وَمَزَّقَ شِباكَ المَكْرِ، وَرَأى الكَثِيْرَ مِنْ قِصَصِ الثَّعالِبِ، وَسَمِعَ الكَثِيْرَ مِنْ حِكاياتِ حِيَلِها، يَوْماً حَوْلَ القَرْيَةِ كانَ يَطْوفُ يَتَفَرَّجُ بِبُسْتانٍ، ذَهَبَ لِلأَمامِ كَثِيْراً وَوَقَفَ على رَأْسِ طَرِيْقٍ، تَفَتَّحَ كالوَرْدِ والشَّقائِقِ، كُلالَةُ الجَعْدِ المِسْكِي مِنَ الفَرْقِ والمَفْرَقِ مَنْشُوْرَةٌ على الكَتِفِ والعُنُقِ، الزِّرُّ مِنَ اللَّعْلِ مُثْبَتٌ على طَرَفِ القُبَّعَةِ، في الكِساءِ المُنَقَّشِ والقَباءِ المُزَرْكَشِ، مِثْلَ العِرْسانِ في غُرْفَةِ الزِّفافِ، وَمِثْلَ الطَّواوِيْسِ في الجَلْوَةِ، يَدُوْرُ يَسْحَبُ ثَوْبَ الحُسْنِ على القَدَمِ، صاحَ صَوْتاً، سَمِعَهُ ثَعْلَبٌ في تِلْكَ الحَوالي، صارَ لَهُ الطَّمَعُ بالدِّيْكِ، وبالحِرْصِ التَّامِّ راحَ يَجْري إلى جِوارِ الدِّيْك، الدِّيْكُ مِنَ الخَوْفِ قَفَزَ على الجِدارِ، قالَ الثَّعْلَبُ، لِماذا تَخافُ مِنِّي، أنا هذِهِ السَّاعَةَ كُنْتُ أَطُوْفُ في هذا المُحِيْطِ، فَجْأَةً صَوْتُ نِداءِ الصَّلاةِ مِنْكَ جاءَ بِأُذُني، وَمِنْ نَغَماتِ حُنْجُرَتِكَ القَلْبُ في نافِذَةِ صَدْري أَخَذَ يَخْفِقُ، وَرَغْمَ أَنَّكَ رَجُلٌ مِنْ أَصْلٍ رُوْمِيٍّ، فَقَدْ أَوْصَلُوا في

حِجابِ الذَّوْقِ والسَّماعِ لِسَمْعي، حَدِيْث، *أرِحْنا* ، الَّذي كانَ جَرى مَعَ بِلالِ الحَبَشِيِّ، وَسِلْسِلَةُ وَجْدي تَحَرَّكَتْ، وَدَواعي المَحَبَّةِ وَجَواذِبُ نِزاعِكَ جَذَبَتْني، كما جَذَبَتْ بِلالَ مِنَ الحَبَشَةِ وَصُهَيْبَ مِنَ الرُّوْمِ،

أنا لأَجْلِكَ كُنْتُ أَطُوْفُ حَوْلَ حِماكَ

اَلْبُلْبُلُ لِأَجْلِ الوَرْدِ جاءَ طَرَفَ الرَّوْض

ها أنَذا جِئْتُ على عَزِمِ هذا التَّبَرُّكِ، حَتَّى أَجِدَ مِنْكَ بَرَكاتِ الأَنْفاسِ والاِسْتِئْناس، وَأَرْتاحَ لَحْظَةً بِمُحاوَرَتِكَ وَمُجاوَرَتِكَ، وَأُعْلِمَكَ الخَبَرَ أَنَّ مَلِكَ الوَقْتِ أَمَرَ المُنادي يُنادي، أن لا كانَ شَخْصٌ يَفْعَلُ الظُّلْمَ لِشَخْصٍ، أوْ يَجْعَلَ فِكْرَ الجَوْرِ والظُّلْمِ يَعْبُرُ بالقَلْب، حَتَّى لا تَطُوْلَ يَدُ التَّطاوُلِ مِنَ الأَقْوِياءِ على الضُّعَفاء، ولا يَكُوْنَ عَيْشُهُمُ الواحِدُ مَعَ الآَخَرِ إِلَّا بالتَّطَوُّلِ والإحْسان، وَحَتَّى تَشْتَرِكَ الحَمامَةُ في عُشٍّ واحِدٍ مَعَ العُقابِ، وَتنامَ الشَّاةُ مَعَ الذِّئابِ، والأَسَدُ في الغابَةِ لا يَصِيْرُ مَشْغُولاً بالتَّعَرُّضِ للثَّعْلَبِ، والفَهْدُ يَنْزَعُ أَسْنانَ الطَّمَعِ عَنْ مَذْبَحِ الغَزال، ولا يَقَعَ الكَلْبُ في جِلْدِ الثَّعْلَبِ، ولا يَخْطِفَ الباز قُبَّعَةَ الدِّيْكِ، الآنَ يَجِبُ أَنْ يَرْتَفِعَ التَّناكُرُ والتَّنافي بَيْنَكَ وَبَيْني، وَيَزِيْدَ الاِسْتِظْهارُ التَّامُّ بالعَهْدِ الوافي مِنَ الجانِبَيْنِ، الدِّيْكُ في أَثْناءِ الحَدِيْثِ مَدَّ طَوِيْلاً العُنُقَ وَراحَ يَنْظُرُ جِهَةَ الطَّرِيْق، قالَ الثَّعْلَبُ إلى ماذا تَنْظُرُ، قالَ أرى حَيَّاً مِنَ الأَحْياءِ يَجِيْءُ مِنْ هذا الجانِبِ مِنَ الصَّحْراء، هُوَ بالبَدَنِ

شَبِيْهٌ بالذِّئْبِ، لَهُ ذَنَبٌ وَأُذْنانِ كَبِيْرَتان، وَقَدْ جَعَلَ الوَجْهَ لِجِهَتِنا، يَجيْءُ لا تَصِلُ الرِّيْحُ لِغُبارِهِ، مِنْ هذا الحَدِيْثِ وَقَعَتْ للثَّعْلَبِ حَجَرُ اليَأْسِ بالأَسْنانِ، وَوَقَعَتْ بِأَعْضائِهِ مِنَ الهَوْلِ حُمَّى الرَّجَفانِ، وَتَوَقَّفَ عَنْ قَصْدِ الدِّيْكِ، وَفَجْأَةً عاجِزاً طَلَبَ مَكاناً مَلْجَأً، أنْ عَساهُ يَقْدِرُ يَصِيْرُ مُتَحَصِّناً بِمَكانٍ، الدِّيْكُ قالَ تَعَالَ نَنْظُرْ أَيُّ حيَوانٍ هذا، قالَ الثَّعْلَبُ هذِهِ الأماراتُ والعلاماتُ الَّتي أَعْطَيْتَ شَرْحَها تُعْطي الدَّلِيْلَ أَنَّ ذاكَ كَلْبُ صَيْدٍ، وَأنا مِنْ رُؤْيَتِهِ لا أَكُونُ زائِدَ السُّرُوْرِ، قالَ الدِّيْكُ أَلَسْتَ أنتَ الَّذي تَقُولُ أنَّ المُنادي عَنْ عَدْلِ الشَّاهِ نادى النِّداءَ في العالَمِ، أنْ لا شَخْصَ يُوْصِلُ لِشَخْصٍ العُدْوانَ والتَّغَلُّبَ، واليَوْمَ كُلُّ طُلَّابِ الباطِلِ مُحْتَرِفي الجَوْرِ، مِنْ خَوْفِ قَهْرِهِ وَعِقابِهِ، تَرَكُوا أَذى الخَلْقِ، قالَ الثَّعْلَبُ بَلى، وَلكِنْ هُناكَ إِمْكانٌ أنَّ هذا الكَلْبَ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمِعَ هذا المُنادي، أَكْثَرَ مِنْ هذا لا مَقامَ للتَّوَقُّفِ، فَرَّ مِنْ هُناكَ وَدَخَلَ في وَكْرٍ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أنَّهُ رُبَّما واحِدٌ مِنْ هَؤلاءِ القَوْمِ لَمْ يَسْمَعْ نَغْمَةَ مُوافَقَةِ وَمُواثَقَةِ العَهْدِ الَّتي بَيْنَنا إلى أَيَّةِ غايَةٍ ذَهَبَتْ، الآنَ هُوَ الوَقْتُ اللَّائِقُ أَنِّي أُرْسِلُكَ لاسْتِقْبالِهِم، أنتَ الَّذي تَكُونُ زَروي، حَتَّى حِيْنَ يَرَوْنَكَ مِنْ أَبْناءِ جِنْسِهِمْ، وَأنتَ تَذْهَبُ مِنْ أَمامِنا، يَجِيْءُ حاصِلاً سُكُوْنُ واطْمِئْنانُ الجَماعَةِ، وَتَصِيْرُ ساحَةُ الصُّدُوْرِ طاهِرَةً مِنْ غُبارِ الظَّنِّ والشُّبْهَةِ، الحَمامَةُ أَظْهَرَتِ المُساعَدَةَ في هذا الرَّأْيِ، ثُمَّ أَعْطى الإِشارَةَ لِزَرْوي أنْ يَفْعَلَ الاِنْتِهاضَ بِإِتْمامِ

هذا المُهِمِّ، وَأنْ يَرْمِيَ ناحَيَةً الفُتُوْرَ والإنْتِقاضَ عَنْ عَزِيْمَتِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَ القِيامَ بِتَكْمِلَةِ العَمَل، فَهُوَ بِحُكْمِ أَنَّهُ مَمْدُوْحٌ وَمُجَرَّبٌ بِشَهامَةِ القَلْبِ وَصَرامَةِ العَزْمِ وَوُفُورِ الحَزْمِ في جَمِيْعِ المُعَظَّماتِ والمُخْتَصَراتِ، غَيْرُ مُحْتاجٍ لِلْوَصِيَّةِ، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّهُ في كُلِّ ما يَقُولُ لا يَسْعى إلَّا باسْتِصْلاحِ مَفاسِدِنا واسْتِنْجاحِ مَقاصِدِنا، ولا يَمْنَعُ رَضانا بِهَوى نَفْسِهِ، ولا يَشْتَرِي أَبَداً عَشْوَةَ الغُرُوْر، ولا يَبِيْعُ المَخْدُومَ بِأَيِّ غَرَضٍ، ثُمَّ أَشارَ أَنِ انْهَضْ وَحُلَّ هذِهِ العُقْدَةَ الأُخْرى مِنَ العَمَلِ، وَأَخَرِجْ لِلْخارِجِ هذِهِ العُهْدَةَ الأُخْرى مِنْ ذِمَّةِ النَّفْس،

وَمِثْلُكَ إنْ أَبْدى الفَعالَ أَعادَهُ   وَإِنْ مَنَحَ المَعْرُوْفَ زادَ وَتَمَّما

زَروي على مُقْتَضى الأَمْرِ ذَهَبَ جِهَتَهُم، وَجاءَ بالعَمَلِ بِكُلِّ ذاكَ الَّذي كانَ واجِباً مِنْ وَظائِفِ هذِهِ الخِدْمَةِ، وَأَوْصَلَ العَمَلَ لِلإِتْمامِ تَماماً، باسْتِرْضاءِ الجَوانِبِ مِنَ المُؤالِفِ والمُجانِبِ، والأَقارِبِ والأَباعِدِ والمُوالي والمُعانِدِ والمُضايِقِ والمُسامِحِ والمُنافِقِ والمُصانِحِ والمُخالِصِ والمُماذِقِ، وَجَعَلَ الجَمِيْعَ يُسْرِعُوْنَ لِخِدْمَةِ زَيْرَك، وَحِيْنَ قامُوا بِتَقْبِيْلِ عَتَبَتِهِ، وَالكُلُّ صارَ مَخْصُوْصاً بِعِنايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ، وَوَجَدُوا بُنْيانَ العَدْلِ والرَّأْفَةِ مَرْصُوْصاً، وَكُلُّ ذاكَ الَّذي كانَ وَصَلَ لِسَمْعِ الجَمْعِ، شاهَدُوْهُ مُشاهَدَةً بِبَصَرِ البَصِيْرَةِ، وَجاؤوا بِتَشْدِيْدِ مُعاقَدَةِ الأَيْمانِ، وَتَجْدِيْدِ المُعاهَدَةِ على مَباني الإِيْمان، وَوَجَدُوا المِثالَ، أنِ الكُلُّ في مَواطِنِ

النَّفْسِ مُكَرَّمٌ وَمُسَلَّمٌ، عادُوا راجِعِيْنَ، وَهذِهِ النَّغْمَةُ وَصَلَتْ لِجَمِيْعِ الوُحُوْشِ في جَمِيْعِ النَّواحي، وَجَلَسَ في قَلْبِهِمْ وَقارُ جَمْعِ الجَيْشِ والحَشَرِ مِنْ أَصْنافِ الحَيَواناتِ، وَمِنْ إحكامِ ذاكَ التَّدبِيْرِ الَّذي وَضَعُوا في أَوْضاعِ وَأَحْكامِ المُلْكِ فَكَّرُوا، وَجاءَ ظاهِراً التَّفَزُّعُ والتَّوَزُّعُ في خَواطِرِ المُفسِدِيْنَ، فَأَمْسَكُوا عَنِ الأَطْماعِ الفاسِدَةِ مِنَ الإفْتِراسِ والإخْتِلاسِ، وَجَعَلُوا النَّظَرَ على قَصْرِ اليَدِ وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَفي خَفْضِ العَيْشِ وَلَذَّةِ العُمُرِ، بالأَمْنِ والإسْتِنامَةِ وَفراغِ القَلْبِ واسْتِقامَةِ الحالِ، في تِلْكَ المَراتِعِ والمَراعي، بِلا عَناءِ الحافِظِ وَمِنَّةِ الرَّاعي، اسْتَمَرُّوا بالعَيْشِ للنِّهايَةِ،

وَمَجاثِمُ الأَسادِ في أَيَّامِهِ   بالعَدْلِ صِرْنَ مَرابِضَ الأَطْلاءِ

زَيْرَك مِنْ تَتَبُّعِ إشاراتِ وَتَقْدِيْمِ مُقَدِّماتِ زَرْوي، وَجَدَ بالنَّتِيْجَةِ المُلْكَ، وَزَروي مِنَ الفِكْرِ الَّذي عَمِلَ بِتَأْسِيْسِ بُنْيانِ ذاكَ على عُمْدَةِ العَدْلِ وَقاعِدَةِ الحَقِّ وَأَساسِ الشَّرْعِ والعَقْلِ، وَصَلَ للتَّمَتُّعِ بِكُلِّ ما هُوَ مُهَنَّأٌ أَكْثَرَ،

وَتَقاسَمَ النَّاسُ المَسَرَّةَ بَيْنَهُمْ   قِسَماً فكانَ أَجَلُّهُمْ حَظَّاً أنا

تَمَّ بابُ زَيْرَك وَزَروي، بَعْدَ هذا أنا ذاكِرٌ بابَ الفِيْلِ والأَسَدِ، وَمُظْهِرٌ فِيْهِ أنْ عاقِبَةُ الظَّالِمِيْنَ مُحَتَرِفي البَغْيِ، وَزِيادَةُ طَلَبِ فِكْرِ المُحالِ ما

تَكُوْنُ، وَوَبالُ وَنَكالُ ذاكَ إلى أَيْنَ يَصِلُ، جَعَلَ إِيْزَد تعالى الذَّاتَ المُقَدَّسَةَ لِلْمَلِكِ سَيِّدِ العالَمِ مُزَيَّنَةً بِزِيْنَةِ العَمَلِ بالشَّرْعِ، وَمُحَلَّاةً بِحِلْيَةِ الدِّيْنِ، وَمُغَذَاةً بالعَدْلِ دائِماً، وَطَهَّرَ نَفْسَهُ المُقَدَّسَةَ مِنْ كُلِّ ما كانَ مِنْ مَذامِّ أَوْصافِ البَشَرِ، بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِيْن.

البابُ السَّابِعُ

في الأَسَدِ وَشاهِ الفِيلَةِ

وَلَدُ المَلِكِ قالَ، رَوَوا أَنَّهُ في أَرْضٍ كانَتْ مَوْطِنَ الفِيلَةِ وَمَعْدِنَ جَوْهَرِهِم، جاءَ ظاهِراً فِيْلٌ عَظِيْمٌ بِهَيْكَلٍ جَسِيْمٍ وَقالَبٍ مَهِيْبِ المَنْظَرِ، حَتَّى أَنَّ الفَلَكَ في حَمائِلِهِ البَعِيْدَةِ ما كانَ رَأى مِثْلَ ذاكَ الهَيْكَلِ، وَالزَّمانُ تَحْتَ هذِهِ القَلْعَةِ ذاتِ الثَّمانِيَةِ عَشَرَ بُرْجاً ما جاءَ بِمِثْلِ ذاكَ البَدَنِ، صارَ المَلِكَ على فِيلَةِ الهِنْدِ، كُلُّهُم جَعَلُوا رَقَبَةَ الطَّاعَةِ لَيِّنَةَ لِرِبْقَةِ أَمْرِهِ، يَوماً في خِدْمَتِهِ حَكَوا حِكايَةً، أَنِ المَكانُ الفُلانِيُّ مَوْضِعٌ مُزَيَّنٌ بالماءِ والنَّباتِ والخِصْبِ والنِّعْمَةِ، وَمِنْ أَنْحاءِ وَأَقْطارِ الدُّنيا كالرَّبِيْعِ مِنَ الزَّمانِ، جاءَ مَمْلُوْءاً بِعَجائِبِ الأَثْمارِ وَغَرائِبِ الأَشْجارِ، الطُّيُوْرُ بِمَنْطِقِ الطَّيْرِ السُّلَيْمانِيِّ في لَحْنِ الأَغاني الدَّاوُدِيِّ أَعْطَتْ وَصْفَ تِلْكَ المَغاني وَأَخْرَجَتْهُ لِلْخارِجِ بِهذا النَّغَمِ،

مَغاني الشِّعْبِ طِيْباً في المَغاني بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيْعِ مِنَ الزَّمانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سارَ فِيْها سُلَيْمانٌ لَسارَ بِتُرْجُمانِ

كُلُّ وارِدٍ رأى مَنْبَعَ اللَّذَّاتِ الرُّوْحانِيَّ ذاكَ، وَمَرْتَعَ الآمالِ والأَمانِيّ، وَوَصَلَ إلى مَسْرَحِ نَظَرِ الرَّاحَةِ، وَمَطْرَحِ مفارِشِ الفَراغَةِ، ذاكَ، وَجَدَ

نَسِيْئَةَ الجَنَّةِ المَوْعُوْدَةِ نَقْدَ الوَقْتِ بالدُّنيا، وَشاهَدَ مُعايَنَةً وَجْهَ إِرَمَ الَّذي هُوَ عَنْ عَيْنِ غَيْرِ المُحْرِمِيْنَ بالتَّواري،

تُمْسي السَّحابُ على أَطْوادِها فِرَقاً   وَيُصْبِحُ النَّبْتُ في صَحْرائِها بِدَدَا
فَلَسْتَ تُبْصِرُ إِلَّا واكِفاً خَضِلاً   أَوْ يانِعاً خَضِراً أَوْ طائِراً غَرِدا

أَسَدٌ كانَ يَمِلْكُ المُلْكَ في ذلِكَ المَكانِ، جَعَلَ مِثْلَ هذا المَوَطِنِ البَدِيْعِ مَحَلَّ صَيْدِهِ، وَأَخْضَعَ وُحُوْشَ تِلْكَ النَّواحي وَجَعَلَها في شِباكِ طاعَتِهِ، لَمْ يَكُنْ يُعاني مِنْ مَشْرَبِ التَّمَتُّعِ بِذاكَ المَكانِ بِلا كُدُوْرَةٍ مِنْ زَحْمَةِ أَيِّ مُزاحِمٍ، وَقَدْ هَيَّأَ أَسْبابَ التَّعَيُّشِ في عِيْشَةٍ راضِيَةٍ وَجَنَّةٍ عالِيَةٍ في ذاكَ المَكانِ الوادِعِ، مِنْ سَماعِ هذِهِ الحِكايَةِ تَحَرَّكَتْ سِلْسِلَةُ انْعِدامِ الصَّبْرِ لِشاهِ الفِيَلَةِ في الدَّاخِلِ، وَمِثْلَ ذاكَ الفِيْلِ الَّذي في دِيارِ غُرْبَتِهِ تَذَكَّرَ بِلادَ الهِنْدِ، مِنْ جَذْبِ الشَّوْقِ لِذاكَ المُنْتَزَهِ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ زِمامُ السُّكُوْنِ والقَرار، وَفي شَبَقِ النَّشاطِ وَنَشْوَةِ الاِغْتِباطِ مِنْ غايَةِ نَخْوَةِ الشَّبابِ الَّتي كانَ يَمْلِكُ في الرَّأْسِ، كانَ كُلَّ لَحْظَةٍ يَعْمَلُ اسْتِعادَةَ ذِكْرِ ذاكَ وَيَقُولُ،

أَعِدْ ذِكْرَ نَعْمانٍ لَنا إِنَّ ذِكْرَهُ   هُوَ المِسْكُ ما كَرَّرْتَهُ يَتَضَوَّعُ
فَإِنْ قَرَّ قَلْبي فاتَّهِمْهُ وَقُلْ لَهُ   بِمَنْ أَنْتَ بَعْدَ العامِرِيَّةِ مُوْلَعُ

كانَ لِشاهِ الفِيلَةِ أَخَوانِ وَزِيْرانِ، واحِدٌ اِسْمُهُ هَنْج، كانَ خَبِيْراً مُجَرِّباً وَطالِباً للصَّلاحِ وَقائِلاً بالصَّوابِ، والآخَرُ اِسْمُهُ زَنْج، كانَ سَفَّاكاً للدَّمِ مُثِيْراً للاِضْطِرابِ رامِياً لِلْفِتْنَةِ وَجامِعاً لِلْفَسادِ مُتَهَوِّراً وَغَيْرَ طاهِرٍ،

عَـلِـيٌّ كاسْمِهِ أَبَـداً عَـلِـيٌّ   وَعِيْسى خامِلٌ وَتِحٌ دَنِيٌّ
هُما ثَمَرانِ مِنْ شَجَرٍ ولكِنْ   عَلِـيٌّ مُدْرِكٌ وَأَخُوْهُ نِيُّ

حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ السُّمَّ والتِّرْياقَ كِلاهُما يَجِيْئانِ مِنْ مَعْدِنٍ واحِدٍ، والسُّنْبُلُ والأراكُ كِلاهُما يَنْمُوانِ مِنْ مَنْبَتٍ واحِدٍ، وَأَخَواتُ هذا المَعْنى غَيْرُ مَحْصُوْرَةٍ، وَنَظائِرُهُ غَيْرُ مَعْدُوْدَةٍ، وَأَحْسَنَ قَوْلاً ذاكَ المُراغِيُّ الَّذي قالَ،

كِلانا وَلَدا مُراغَةٍ أَيُّها السَّيِّدُ   فِيْكَ وَفِيَّ كِلَيْنا مِنَ الحِمارِ الآثار
لكِنْ وَأَنْتَ جاهِلٌ وَأنا أَهْلُ فَضْلٍ   أنْـتَ أُسْتُ الحِمارِ وَأَنـا خَرْزَةُ الحِمار

طَلَبَ الاِثْنَيْنِ أَمامَهُ وَقالَ، أنا لِيَ العَزِيْمَةُ بِسَحْبِ الجَيْشِ إلى ذاكَ الصَّوْبِ، وَأَسْرُ ذاكَ المَلِكِ يَبْدُو لِي هَيِّناً وَسَهْلاً، ما تَرَوْنَ مِنَ الرَّأْيِ في تَصْوِيْبِ وَتَزْيِيْفِ هذا الفِكْرِ، قالَ هَنْج، المُلُوْكُ مَخْصُوْصُوْنَ بالتَّأْيِيْدِ الإلهِيِّ والتَّوْفِيْقِ السَّماوِيِّ، وَزِمامُ التَّصَرُّفِ في المَصالِحِ والمَفاسِدِ والمَسَرَّاتِ والمَساآتِ في يَدِ اخْتِيارِهِمْ، بِتِلْكَ الجِهَةِ مَوْضُوعٌ، فَعِلْمُهُمْ بِمُفْرَدِهِمْ عَنْ عِلْمِ أَقْرانِهِمْ على العُمُوْمِ زائِدٌ، وَرَغْمَ أَنَّ، *وَشاوِرْهُمْ في الأَمْرِ*، لَمْ تَتْرُكْ أَيَّ مَلِكٍ مُسْتَبِدٍّ مُسْتَغْنِياً عَنِ الاِسْتِضاءَةِ بِنُورِ عَقْلِ المُشاوِرِيْنَ والنَّاصِحِيْنَ، إلَّا أَنَّهُ بِوَقْتِ تَعارُضِ المُهِمَّاتِ

وَتَنافي العَزَماتِ، رَأْيُهُمُ الطَّاهِرُ يَقْدِرُ على البَحْثِ عَنْ مَخْرَجٍ لِلأُمُورِ أَفْضَلَ، لكِنْ أنا سَمِعْتُ مِنَ الرِّجالِ العُقَلاءِ وَبَعِيْدي النَّظَرِ هكذا، أَنَّهُ كُلُّ شَيْءٍ كانَ مَوْضُوعاً جَمِيْلاً لا تَضَعْ أَجْمَلَ مِنْهُ، فَمِنْ ذلِكَ التَّغْيِيْرِ والتَّبْدِيْلِ، والمُبالَغَةِ في إِكْمالِ التَّعْدِيْلِ، يَدْخُلُ نُقْصانٌ بِوَضْعِ الحالِ، وَبِتَوَهُّمِ النَّسِيْئَةِ الَّتي كانَتْ دائِرَةً بَيْنَ طَرَفَيِ الحُصُوْلِ والاِمْتِناع، كُلَّ ذاكَ الَّذي تَمْلِكُ نَقْداً، لا تَدَعْ يَذْهَبُ خارِجاً مِنَ اليَدِ، فَهذا يَصِيْرُ زائِلاً، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنَّكَ لا تَصِلُ لِذاكَ الآخَر، وَمِنْ بِعْدِ تَحَمُّلِ الكُلْفاتِ وَتَعَمُّلِ الحِيلات، لا يَكُونُ حاصِلٌ سِوى النَّدامَةِ، وَقالُوا، على كُلِّ نَفْسٍ مِنْ ناقِصاتِ نُفُوْسِ أولادِ آدَمَ شَيْطانٌ مُسَلَّطٌ، يَجْعَلُ فِكْرَهُ دائِماً يَتَخَبَّطُ، وَقَدْ وَضَعُوا لِهذا الشَّيْطانِ اِسْمَ هَوْجَسا، فَهُوَ دائِماً يَنْفُخُ رِيْحَ هَواجِسِ الهَوى والهَوَسِ في دِماغِهِ، وَفي كُلِّ مَقامٍ مِنْ مساعي أَمْرِ نَفْسِهِ يَتَقَدَّمُ بِهِ، يَقُولُ لَهُ المَعْنى الفُلانِيُّ أَفْضَلُ، حَتَّى لا يَجْعَلَ لَهُ الثَّباتَ على قَدَمٍ، وَقالُوا ثَلاثَةُ ذُنُوْبٍ عَظِيْمَةٌ، لا يَأمُرُ بِها إِلَّا رَكاكَةُ العَقْلِ وَسَماجَةُ الخُلُقِ وَسَخافَةُ الرَّأْيِ، واحِدٌ إِراقَةُ الدَّمِ بِلا ذَنْبٍ، والثَّاني طَلَبُ مالِ الآخَرِيْنَ بِلا حَقٍّ، والثَّالِثُ طَلَبُ هَدْمِ البَيْتِ القَدِيْم، وَمِنْ هذِهِ الثَّلاثَةِ التَّعَرُّضُ لِلْبَيْتِ القَدِيْمِ مَذْمُومٌ أَكْثَر، بِما أَنَّ ذَيْنِكَ القِسْمَيْنِ الآَخَرَيْنِ مِنَ الذَّنْبِ إِذا تَأَمَّلْتَ حَسَناً تَقْدِرُ تَجِدُهُما مُنْدَرِجَيْنِ فِيْهِ، واعْلَمْ أَنَّ الخالِقَ تَعالى وَتَقَدَّسَ، ما لَمْ يَنْظُرْ نَظَرَ العِنايَةِ إِلى جَوْهَرٍ، لا يَجْعَلُهُ مَحْظُوظاً بالدَّوْلَةِ العَظِيْمَةِ، وَإِرادَتُهُ القَدِيْمَةُ لا تَعْمَلُ

اقْتِضاءَ إدامَةِ ذاكَ البَيْتِ وَإِقامَةَ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الوَطَنِ، الأَسَدُ مَلِكٌ ابْنُ مَلِكٍ، مِنَ المَحْتَدِ الأَصِيْلِ والمَنْشَأِ الكَرِيْمِ والأَثِيْلِ، مَلِكٌ وَحاكِمٌ مُطاعٌ على السِّباعِ، وَتِلْكَ البِقاعُ مَوْروْثٌ باقٍ لَهُ مِنْ آبائِهِ الكِرامِ، وَبِكَرائِمِ العاداتِ ضَمَّ لِذاكَ مُكْتَسَباتِ نَفْسِهِ، وَما دامَ لَمْ يَصِرْ أَيُّ سُوْءٍ مِنْهُ لاحِقاً بِكَ بالخاصَّةِ، وَلَمْ يَجِئْ صادِراً مِنْهُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبابِ العَداوَةِ لِيَكُوْنَ مَبْدَأً لِهَذِهِ الحَرَكَةِ، كَيْفَ يُمْكِنُ الكَوْنُ مُتَصَدِّياً لِهذا العَمَلِ، ثُمَّ إنَّ الأَسَدَ لَيْسَ خَصْماً واهِي الصَّوْلَةِ، وَعَمَلُ الحَرْبِ مَعَهُ لَيْسَ أَمْراً سَهْلَ المَأْخَذِ، لِيُمْكِنَ وَضْعُ القَدَمِ في دائِرَةِ مَمْلَكَتِهِ بِجُرأَةٍ وَسُهُوْلَةٍ، وَأَخْذُ مَرْكَزِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ باليَدِ، فانْظُرْ حَسَناً في بِدايَةِ وَنِهايَةِ هذا الأَمْرِ، وَيَجِبُ النَّظَرُ لِمَداخِلِ وَمَخارِجِ ذاكَ بالفِكْرِ الصَّائِبِ والتَّفْكِيْرِ الصَّافي، فَإِنَّ كُلَّ أَمْرٍ لا تَكُوْنُ الضَّرُوْرَةُ حامِلاً لِذاكَ، وَلَمْ يَكُنْ مَوْضُوْعُ ذاكَ مُتَمَكِّناً في حَيِّزِ المَصْلَحَةِ، مُبادَرَةُ ذاكَ لا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَحْمُوْلَةً إِلَّا على الجَهْلِ وَسُوْءِ الرَّأْيِ، كما جَرَتِ الإِشارَةُ النَّبَوِيَّةُ إلى ذاكَ، *مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيْه*، الشَّاهُ وَجَّهَ الوَجْهَ لِـ زَنْج أنْ أَنتَ ماذا تَقُوْلُ، زَنْجُ قالَ، أَحادِيْثُ هَنْجِ كُلُّها جَمِيْعاً لائِقَةٌ تَكُونُ نَقْشُ فَصِّ المَصْلَحَةِ وإنْسانَ عَيْنِ الصَّوابِ، ولكِنَّهُ لا يَمْلِكُ الخَبَرَ عَنْ ظُلْمِ الأَسَدِ لِضِعافِ الخَلْقِ الَّذي هُوَ مُتَضاعِفٌ يَوماً بِيَوْمٍ، وَقَضِيَّةُ عَدْلِ المَلِكِ وَإِحسانُ نَظَرِهِ الشَّامِلِ هُوَ ذاكَ، أنْ يُخَلِّصَ الخَلائِقَ مِنْ مَخْلَبِ قَهْرِهِ، وَيَقُومَ بانْتِزاعِ تِلْكَ الوِلايَةِ مِنْ يَدِ تَغَلُّبِهِ، وَبِما

أَنَّ الخَرْجَ كانَ أَكْثَرَ مِنَ الدَّخْلِ لِلْمَلِكِ، إذا هُوَ لَمْ يَزِدْ في بَسْطَةِ المُلْكِ، وَمِنَ العَرْصَةِ الَّتي يَمْلِكُ لَمْ يُظْهِرِ التَّجاوُزَ بِقَدَمِ الطَّمَعِ، فَيَجِبُ عَمَلُ خَرْجِ الخَزانَةِ مِمَّنْ هُمْ بلا مالٍ، حَتَّى مِنْ بَعْدِ زَمَنٍ غَيْرِ طَوِيْلٍ، يَبْقى الرَّعايا دَراوِيْشَ والخَزانَةُ فارِغَةً والمَلِكُ بِلا مَهابَةٍ، *والدُّرُّ يَقْطَعُهُ جَفاءُ الحالِبِ*، يَجِبُ على الشَّاهِ أَنْ يُوْصِلَ هذا العَزْمَ للنَّفاذ،

ولا يَثْنِ عَزْمَكَ خَوْفُ القِتالِ   بِسُمْرٍ دِقاقٍ وَبِيْضٍ حِدادِ
عَسى أَنْ تَنالَ الغِنى أَوْ تَمُوْتَ   وَقَدْرُكَ فـي ذاكَ للنَّـاسِ بادِ
فَإِنْ لَمْ تَنَلْ مَطْلَباً رُمْتَهُ   فَلَيْسَ عَلَيْكَ سِوى الاِجْتِهادِ

الشَّاهُ عَمِلَ الإشارَةَ لِهَنْج، أنْ كُلُّ ما يَجِيْءُ أمامَ خاطِرِكَ لا تَمْنَعْهُ، قالَ هَنْج، أنا سَمِعْتُ مِنْ أَرْبابِ الحِكْمَةِ وَأَهْلِ العِلْمِ في العالَمِ، أنَّهُ كُلُّ مَنْ طَلَبَ مَنْفَعَةَ النَّفْسِ بِمَضَرَّةِ الآخَرِيْنَ، إذا حَصَلَ لَهُ مِنْ تِلْكَ المَنْفَعَةِ حاصِلٌ، فَسَوْفَ لَنْ يَكُونَ لَهُ بِهِ تَمَتُّعٌ، وَإِنْ لَمْ يَحْصَلْ صارَ سَيِّئَ الاِسْمِ بالظُّلْمِ، وَذاكَ الَّذي هُوَ لائِقٌ بالخَيْرِ وَوُجْدانِ المَرام، يَرى النَّفْسَ كُلَّ لَحْظَةٍ واقِعاً بِيَوْمِ السُّوْءِ بالخَيْبَةِ، والمَلِكُ العالِمُ هُوَ ذاكَ الَّذي حِيْنَ يَرى الخَرْجَ زائِداً عَنِ الدَّخْلِ، يَعْمَلُ تَقْدِيْرَ الخَرْجِ وِفْقَ الدَّخْلِ بِحُسْنِ التَّدْبِيْر، فَإِنَّهُ إذا تَجاوَزَ الخَرْجُ حَدَّ الدَّخْلِ، عَدْلُ ذاكَ لا يَجِيْءُ ظاهِراً، وَطَلَبُ الشَّيْءِ والاِضْطِرابُ في طَلَبِ ذاكَ الَّذي إذا وَجَدْتَهُ وَجَبَ عَلَيْكَ فِيْهِ تَحَمُّلُ أَنْواعِ المَشاقِّ أَيَّاماً، وَآخِراً يَنْتَهي

بالاِنْقِضاءِ أَيْضاً، لا يَكُوْنُ علامَةَ ضِياءِ بَصِيْرَةٍ، كما قالَ ذاكَ المَجْنُوْنُ لِكِسْرى، الشَّاهُ قالَ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ المَجْنُوْنِ مَعَ كِسْرى

قالَ هَنْج، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ لِكِسْرى وَلَدٌ عَزِيْزٌ على الرُّوْحِ مَحْبُوبٌ لِلْقَلْبِ، فَجْأَةً اخْتُطِفَ مِنْ جِوارِهِ، وَرِيْحُ الأَجَلِ العَنِيْفَةُ أَنْزَلَتْ بُرْعُمَ غُصْنِ الأماني بالتُّرابِ مِنْ قَبْلِ مَوْسِمِ الشَّباب، خَسرو مِثْلَ شَخْصٍ قَطَعَ الطَّمَعَ مِنَ الرُّوْحِ العَذْبَةِ، وَقَعَ في القَلَقِ والجَزَعِ، وَكانَ قَرِيْباً أَنْ يُمْطِرَ العَيْنَ مَحَلَّ الدَّمْع، وَأَنْ يَجْعَلَ العالَمَ أَسْوَدَ بِدُخانِ الحُزْن، واحِدٌ مَجْنُونٌ بالشَّكْلِ عاقِلٌ مُظْهِرٌ للسُّكْرِ يَقِظُ القَلْبِ مِنْ مَجانِيْنِ الوَقْتِ العُقَلاءِ، كانَ كُلَّ وَقْتٍ يَجِيْءُ لِخِدْمَةِ خَسْرُو، وَخَسْرُو كانَ يَصِيْرُ مُتَّعِظاً مِنْ غرائِبِ كَلِماتِهِ وَنُكَتِ فَوائِدِهِ، وَصَلَ وَسَأَلَ أنْ ماذا جَرى لِخَسْرُو وما الَّذي وَقَعَ لَهُ حَتَّى صارَ على هذِهِ الصِّفَةِ والِهَ الحال، خَسرو قالَ، أَخَذُوا مِثْلَ هذا السِّراجِ مِنْ أَمامِ عَيْني فالعالَمُ صارَ مُظْلِماً على عَيْني، وَصِرْتُ بِحُرْقَةِ فِراقِ فِلْذَةِ الكَبِدِ مُبْتَلىً، كما تَرى،

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصائِبٌ لَوْ أَنَّها صُبَّتْ على الأَيَّامِ صِرْنَ لَيالِيا

المَجْنُوْنُ قالَ، أَيْ مَلِكُ، عِيْسى عَلَيْهِ السَّلامُ عَزَّى بِمُصِيْبَةٍ وَصَلَتْ، وَقالَ، *كُنْ لِرَبِّكَ كالحَمامِ الأَلِفِ يَذْبَحُونَ فِراخَهُ ولا يَطِيْرُ عَنْهُم*، لكِنَّ

لِي عِنْدَكَ سُؤالاً، قُلِ الجَوابَ بالصَّوابِ، أَكُنْتَ تُرِيدُ أَنَّ هذا الوَلَدَ لا يَمُوْتُ أَبَداً، قالَ لا، ولكِنْ كُنْتُ أُرِيْدُ أَنْ يَحْصَلَ على نَصِيْبٍ مِنْ لَذَّاتِ هذا العالَم، وَأَنْ يَجِدَ العُمْرَ الطَّوِيْلَ، قالَ المَجْنُوْنُ، مِنْ بَعْضِ اللَّذَّاتِ الَّتي وَجَدَ أَرَأَيْتَ مَعَهُ أَيَّ شَيْءٍ، قالَ لا، قالَ مِنْ تِلْكَ اللَّذَّةِ الَّتي لَمْ يَجِدْ، هَلْ مَعَهُ أَيُّ شَيْءٍ، قالَ لا، قالَ إِذَنْ فَقَدْ صارَ صَحِيْحاً أَنَّ اللَّذَّةَ الَّتي وَجَدَ واللَّذَّةَ الَّتي لَمْ يَجِدْ سَواءٌ، الآنَ فَكِّرْ هكذا، أَنْ ذاكَ الَّذي لَمْ يَجِدْ كانَ وَجَدَ، وَذاكَ الَّذي لَمْ يَأْكُلْ كانَ أَكَلَ، وَأَنَّهُ عاشَ كَثِيْراً ثُمَّ ماتَ،

وَنَفْسٍ بِأَعْقابِ الخُطُوْبِ بَصِيْرَةٍ　　لها مِنْ طَلاعِ الغَيْبِ حادٍ وَقائِدُ
إِذا مَيَّزَتْ بَيْنَ الأُمُوْرِ وَأَبْصَرَتْ　　مَصائِرَها هانَتْ عَلَيْها الشَّدائِدُ

أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى لا تَضَعَ الأَساسَ في القَلْبِ لِهذا التَّمَنِّي الَّذي يُلْقِيْهِ شَيْطانُ الطَّمَعِ والحِرْصِ، واعْلَمْ أَنَّهُ،

عـابِدُ الـحِرْصِ وَطـالِبُ العِداءْ　　لا يَسْمَعُ مِنْ شَخْصٍ بالدُّنيا الثَّناءْ

قالَ زَنْج، أُمُورٌ ثلاثَةٌ لا يَجِبُ التَّرَدُّدُ في مُباشَرَةِ تِلْك، ولا تَحْصَلُ إِلّا بالتَّبادُرِ والتَّجاسُرِ، ولا يُمْكِنُ التَّقَدُّمُ إِلَيْها إِلّا بِشَرْطِ المُثابَرَةِ والمُصابَرَةِ، واحِدٌ تِجارَةُ البَحْرِ، *والتَّاجِرُ الجَبانُ مَحْرُوْمٌ*، والثَّاني الاِشْتِباكُ مَعَ العَدُوِّ بِوَقْتِ الأَمْرِ،

اَلْجِدُّ أَنْهَضُ بالفَتى مِنْ جَدِّهِ   فانْهَضْ بِجِدٍّ في الحَوادِثِ أَوْ دَعِ

الثَّالِثُ طَلَبُ الرِّئاسَةِ وَعَمَلُ السِّيادَةِ،

وَإِذا كانَتِ النُّفُوْسُ كِباراً   تَعِبَتْ في مُرادِها الأَجْسامُ

فَإِنَّهُ في هذِهِ الأُمُوْرِ الثَّلاثَةِ عُرِفَ ارْتِكابُ الخَطَرِ واجِباً، يَجِبُ لِلشّاهِ تَفْكِيْرُ الفِكْرِ الجَزْمِ، وَنَصْبُ رايَةِ العَزْمِ، وَمَعْرِفَةُ النُّصْرَةِ والفَتْحِ زِيْنَةَ الفاتِحَةِ والخاتِمَةِ، وَقَدْ قالُوا مُطْلَقاً، اللَّيْلَةُ حُبْلى، فالنَّتِيْجَةُ كانَتْ أَنَّها سَتَلِدُ، فلا تُعْطِ لِلتَّفَكُّرِ والتَّرَدُّدِ الطَّرِيْقَ لِلْخاطِرِ، قالَ هَنْج، *تَحْسَبُوْنَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيْم*، أولئِكَ الَّذِيْنَ عَرِفُوا أَنْواعَ التَّفْكِيْرِ بِكُلِّ وُجُوْهِ آفَةِ وَمَخافَةِ التَّقْدِيْمِ والتَّأْخِيْر، وَجَرَّبُوا عَواقِبَ وَفَواتِحَ الأُمُوْرِ، وَعَرَفُوا أَحْوالَ الدَّهْرِ، وَمُخاطَرَةَ أَمْرِ الحَرْبِ بالتَّجْرِبَةِ الصَّائِبَةِ، هكذا قالُوا، وَهذا الطَّرِيقُ مِنْ أَجْلِ مُسْتَرْشِدِي طَرِيْقِ الصِّدْقِ هكذا مَكْنُوْسٌ، فالثَّعْلَبُ على بابِ بَيْتِهِ يَمْلِكُ مِنَ القُوَّةِ ما لا يَمْلِكُ الأَسَدُ على أَبْوابِ الأَشْخاصِ الآخَرِيْن، وَواضِحٌ أَنَّ سَحْبَ الجَيْشِ وَحَشْرَ الحَشْدِ بِبابِ مَنْزِلِ الغَرِيْبِ مُتَضَمِّنٌ الأَضْرارَ، فَهُوَ يَجْلِبُ سُوْءَ الِاسْمِ في الدُّنيا، وَفَقْدَ الأَمَلِ في الآخِرَةِ، وَيَجْعَلُ الوَجْهَ لِلْخَرابِ لِكَثِيْرٍ مِنَ العَماراتِ الجَمِيْلَةِ الَّتي مِنْ ساحَتِها كانَ يَصِلُ عبِيْرُ الرَّاحَةِ لِخَلْقِ اللهِ، وَيَصِيْرُ كَثِيْرٌ مِنَ دَمِ الأَبْرِياءِ الَّذي كانَ دائِماً بِحِفْظِ الصِّيانَةِ مُراقاً على الأَرْضِ،

لا تَجْعَلِ الرُّوْحَ والعَقْلَ أَسِيْرَ الطَّبْعِ المُخالِفِ

لا تُخْضِعْ حُورِيَتَيِ اللِّقا للزَّبانِيَة الأرْبَعَةِ

ظُلْمُ الضَّحَّاكِ جاءَ هَلاكَ تِلْكَ الدَّوْلَة

إذْ كانَ يُعْطي دِماغَ الأَبْرِياءِ لِلْحَيَّة

في مَحَلِّ العَرْضِ يَوْمَ الحِسابِ، لَفْظُ النُّبُوَّةِ هكذا جاءَ بِتِلْكَ العِبارَةِ عَنْ ذاكَ، أَنَّهُمْ يَضَعُوْنَ وَسْمَ هذِهِ الخَسارَةِ على ناصِيَتِهِ، *آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ الله*، وإذا أَنتَ وَجَدْتَ الظَّفَرَ على الخَصْمِ، هذا نَفْسُهُ يَكُوْنَ نَقْدَ الحالِ، وَإذا لَمْ تَجِدْهُ والزَّمانُ مُشَعْبِذُ الإظْهارِ، بِقَلْبِ المِجَنِّ جَعَلَ الفِكْرَ لَكَ مَقْلُوْباً، وَوَقَعَتْ قُرْعَةُ الكَسْرِ على قَلْبِ جَيْشِكَ، وَرَجَعَ طائِرُ إقْبالِكَ مَكْسُوْرَ القَلْبِ مَقْصُوْصَ الجَناحِ مِنْ أَوْجِ مَطامِحِ الهِمَّةِ إلى المُنْخَفَضِ غَيْرَ بالِغِ المُرادِ، والتَّقْدِيْرُ الَّذي هُوَ مُفَرِّقُ الجَماعَةِ أَوْصَلَ جَمْعَ جَيْشِكَ للتَّكْسِيْرِ، لا بُدَّ أنْ تَكُونَ راضِياً بِسَلامَةِ الرَّأْسِ، وَأَنْ تَخْرُجَ مِنَ الوَسَطِ حَتَّى لَوْ صارَتِ الأَسْبابُ والأَمْوالُ للسَّلْبِ، وَأَنْ تَعْتَبِرَ نَجاةَ الرَّأْسِ رِبْحَ رَأْسِمالِ العافِيَة، وَتَقْرَأَ، *وَمَنْ نَجا بِرَأْسِهِ فَقَدْ رَبِحَ*، لكِنْ إذا ذَهَبَ مِنَ اليَدِ ما جاءَ مَجْمُوعاً لَكَ بالأَعْمارِ مِنَ المالِ والثَّرْوَةِ الوافِرَةِ، وَصارَ مُنْتَثِراً ثَوْبُ الاِسْتِظْهارِ، وَعَنْ يَمِيْنٍ وَيَسارٍ لَمْ يَبْقَ بالكُمِّ إلَّا اليَدُ الفارِغَةُ، كَيْفَ تَقْدِرُ فِيما بَعْدُ تَمْلِكُ أَحْكامَ الدَّوْلَةِ وَمَناظِمَ دَوامِ المُلْكِ على وِفْقِ المُرادِ، ما أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ المَمْلَكَةِ يَجِيْءُ

صَحِيْحاً لِرِجالِ الأَمْرِ والجَيْشِ وَقائِدِ الجَيْش، وَإِذا أَفرادُ الجَيْشِ رَأَوا المَلِكَ بِلا يَسارٍ لا يَكُوْنُ لَهُمْ مِنْهُ الخَوْفُ أوِ الطَّمَعُ، وَمَهْما زادَ في إرْعائِهِمْ وَإِرْضائِهِم بالجُهْدِ والسَّعْيِ لا يَكُوْنُ نَفْعٌ، وَكُلَّ وَعْدٍ جَمِيْلٍ أَعْطى عَرَفُوْهُ مِثْلَ اخْتِلابِ بَرْقٍ بِلا مَطَرٍ، وَمَهْما وَهَبَ وَعَفا لا يَقْبَلُوْنَ مِنْهُ المِنَّةَ، والرَّجُلُ مُقِلٌّ الحالِ وَقْتَ المَقالِ، لَوْ كانَ يَنْثُرُ الدُّرَّ عَدُّوْهُ مِهْذاراً، وَأَنْكَرُوا فَضائِلَهُ وَرَذائِلَهُ، وإِذا في وَقْتٍ فَعَلَ مُرُوْءَةً اعْتَبَرُوْهُ مُسْرِفاً، وَإِذا أَظْهَرَ امْتِناعاً اعْتَبَرُوْهُ بَخِيْلاً، وَإِذا أَبْدى مُراعاةً لا يَشْكُرُوْنَهُ، وَإِذا عَمِلَ مُواساةً لا يَقْبَلُوْنَ مِنْهُ، وَإِذا كانَ حَلِيْماً صارَ مَنْسُوْباً لِلْجُبْن، وإِذا عَمِلَ تَجاسُراً صارَ مَنْسُوْباً لِلْجُنُوْن، وَأَمَّا الرَّجُلُ الغَنِيُّ فَلَو كانَ لَهُ أَدْنى فَضْلٍ لَعَدُّوا ذاكَ عَظِيْماً، وَلَوْ رَأَوا مِنْهُ أَقَلَّ عَطاءٍ لَشَكَرُوْهُ وَأَثْنَوا عَلَيْهِ كَثِيْراً، وَإِنْ كانَ بَخِيْلاً قالُوا عَنْهُ مُدَبِّرٌ وَعالِمٌ، وَإِنْ قالَ كلاماً على غَيْرِ وَجْهٍ جاؤوا لَهُ بِمِئَةِ تَأْوِيْلٍ وَتَعْلِيْلٍ، واعْتَبَرُوْهُ جَمِيْلاً ولائِقاً،

إنْ ضَرَطَ المُوْسِرُ في مَجْلِسٍ   قِيْلَ لَهُ يَرْحَمُكَ اللهُ
أَوْ عَطَسَ المُعْسِرُ في مَجْمَعٍ   سَبُّوا وَقالُوا فِيْهِ ما ساهُ
فَمَضْرِطُ المُوْسِرِ عِرْنِيْنُهُ   وَمَعْطِسُ المُفْلِسِ مَفْساهُ

وَفي أَحاسِنِ كَلِماتِ الحُكَماءِ وَجَدْتُ أَنَّ الدَّرْوَشَةَ شَيْخُوْخَةُ الشُّبَّانِ، وَمَرَضُ أَصِحَّاءِ الأَبْدان، مَضى هذا، إِلَّا أَنَّهُ يَجِبُ لَكَ النَّظَرُ في

حاصِلِ وَفَذالِكِ هذا الأَمْرِ أَفْضَلَ، وَلا يَجِبُ عَمَلُ تَكِيَّةِ الاِعْتِمادِ كُلَّاً على حَوْلِ وَقُوَّةِ وَصولِ وَشَوْكَةِ النَّفْسِ، فَإِنَّ الأَسَدِ شُجاعٌ وَمِقْدامٌ وَجَسُوْرٌ وَمُرْدِ لِلْخَصْمِ وَيَشِقُّ المَرارَةَ، وَقَدْ صارَ بالسَّوْرَةِ والاِسْتِيْلاءِ مَثَلاً في أَفْواهِ العالَمِيْنَ، والأَتْباعُ لَكَ والحَشَمُ رَغْمَ أَنَّهُمْ يَقْتَلِعُوْنَ المَدِيْنَةَ وَيَهْدِمُوْنَ الجِدارَ وَيَنْفِخُونَ النَّارَ، حَيْثُ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَرِّبُوا حَرْبَ الأُسُوْدِ وَضَرْبَةَ قَبْضَةِ مُصارَعَتِهِم وَمُقارَعَتِهِم، أخافُ أَنْ يَجِيْئُوا قاصِرِيْنَ عَنِ ارْتِقاءِ قَصْرِ تِلْكَ المَمْلَكَةِ، وَعَيْنُ الأَذى مِنَ الحَوادِثِ والزَّلازِلِ تَصِلُ لِقَوْسِ طاقِ هذِهِ الدَّوْلَةِ، فلا يُمْكِنُ عَمَلُ المَرَمَّةِ وَالإِصْلاحِ لِذاكَ بالأَعْمار، وَنَصِيْرُ يُشارُ إِلَيْنا بالمَذَمَّةِ مِنَ العالَمِيْن،

تَبْني بِأَنْقاضِ دُوْرِ النَّاسِ مُجْتَهِداً   داراً سَتُنْقَضُ يَوْماً بَعْدَ أَيَّامِ

الشَّاهُ عَمِلَ الإِشارَةَ لِزَنْج، أنْ أَنْتَ ما تَقُوْلُ، قالَ زَنج، لا تُوْجَدُ شُبْهَةٌ أَنَّ هذِهِ الفُصُوْلَ جَمِيْعاً مَحْضُ تَنَبُّؤٍ، وَتَفْكِيْرٌ بالعاقِبَةِ، وَكُلُّ ما هُوَ يَقُولُ يَجِيْءُ مِنْ صَمِيْمِ وُفُوْرِ العِلْمِ والعُثُوْرِ على كُنْهِ أَمْرِ الدَّهْرِ، ولكِنْ مُنْذُ كانَ العالَمُ والعالَمُونَ، كانَ المُلُوْكُ دائِماً في طَلَبِ المُلْكِ يَذْهَبُونَ على مَجْرى هذِهِ العادَةِ، وَيَجْعَلُونَ مَرْمى النَّظَرَ على أَبْعَدِ مسافاتِ الإِدْراك، وَهُم يَأْخُذُ الواحِدُ مِنْهُمْ مِنَ الآخَرِ بالمُغالَبَةِ والمُناهَبَةِ، ولا يَلِيْقُ أَبداً بالشَّاهِ على أَيِّ حالٍ أنْ يَكُونَ أَكْثَرَ سُفُولاً وَنُزُولاً مِنَ التَّاجِرِ، وَأَكْثَرَ خَوْفاً مِنْهُ في تَحْصِيْلِ مَطالِبِ النَّفْسِ،

فالتَّاجِرُ وَضَعَ كُلَّ ما مَلَكَ في السَّفِيْنَةِ، وَجَلَسَ فِيْها، وَآنَذاكَ جَعَلَ أَمامَ عَيْنِ قَلْبِهِ وَمِرْآةِ خاطِرِهِ سَواءً، صُوْرَةَ الوُصُولِ للسَّاحِلِ أوِ الوُقُوْعَ غَرِيْقاً في الماءِ،

أو تُوْصِلُني القَدَمُ لِلْمَقْصُوْدِ والمُرادِ　　أو أَضَعُ الرَّأْسَ مِثْلَ القَلْبِ مِنْ يَدٍ هُناك

وَذاكَ الَّذي يَقُولُ أَنَّ جَيْشَنا في الوِلايَةِ الغَرِيْبَةِ حائِرٌ وَمُغْلَقُ العَيْنِ وَلَيْسَ على خِبْرَةٍ بالحالِ، ولا يَمْلِكُ الوُقُوْفَ على مَدارِجِ وَمَكامِنِ الطُّرُقِ، وَهُوَ بِلا خَبَرٍ عَنْ مَخاوِفِ وَمَآمِنِ ذاكَ، وَرُبَّما الخَصْمُ بِحِبالِ المَكْرِ والاِسْتِدْراجِ والمُراوَغَةِ يَسْحَبُنا في مَضِيْقٍ، وَيَدُ القُدْرَةِ تَصِيْرُ قَصِيْرَةً عَنْ تَدارُكِ ذاكَ، وَيَصِيْرُ الأَمْرُ عَلَيْنا طَوِيْلاً، فَإِنَّهُ حَسَناً يَقُوْلُ، لَكِنْ هذا الفِكْرُ مُعارِضٌ لِكَوْنِ الأَسَدِ ظالِماً وَسَفَّاكاً للدَّمِ وَصائِداً للرَّعِيَّةِ وَمَمْلُوْءاً بالأَذى، البَعْضُ مِنْهُ خائِفُونَ وَغَيْرُ آمِنِيْنَ وَصارُوا نافِرِيْنَ، وَبَعْضٌ أَغْنِياءُ يَمْلِكُونَ الثَّرْوَةَ، وَيَمْلِكُونَ العَماراتِ والعَقاراتِ الكَثِيْرَة، وَهُمْ جَمِيْعاً مِنْ أَجْلِ اسْتِرْعائِهِمْ يَثِقُونَ بِنا، فَطائِفَةٌ يَبْغُونَ السَّلامَةَ للرَّأْسِ، وَقَوْمٌ يَطْلُبُونَ الحِمايَةَ لِلْمالِ، والبَعْضُ الآخَرُوْنَ الَّذِيْنَ لَمْ يَكُونُوا وَجَدُوا مِنَ الدَّوْلَةِ ثَمَرَةً، وَلَمْ يَقَعْ ظِلُّ تَوْلِيَتِهِ عَلَيْهِم، وَلَمْ تُشِعَّ شَمْسُ تَرْبِيَتِهِ عَلَيْهِم، يَجْعَلُونَ العَيْنَ على دَوْرَةِ الزَّمانِ، وَيَطْلُبُوْنَ دَوْلَةً جَدِيْدَةً وَمَلِكاً جَدِيْداً، أنْ عَسى في ضِمْنِ مُداوَلَتِهِم تِلْكَ يَصِلُوْنَ إلى نَصِيْبٍ،

لَهُمْ في تَضاعِيْفِ الرَّجاءِ مَخاوِفٌ   وَلِيْ في تَصارِيْفِ الزَّمانِ مَواعِدُ

لا شَكَّ أَنَّهُمْ يَتَّصِلُوْنَ بِنا، وَإِمْدادُ النُّصْرَةِ يَصِيْرُ مُتَوالِياً مِنَ الجَوانِبِ، الشَّاهُ سَأَلَ هَنْج، أنْ جَوابُ هذا الحَدِيْثِ ما يَكُونُ، قالَ هَنْج، رَغْمَ أَنَّ وُجُوْهَ هذِهِ الاِحْتِمالاتِ لَيْسَتْ مِنَ المُحالات، وَالعَقْلُ عَنْ ذاكَ الَّذي يَتَصَوَّرُ، لَيْسَ بَعِيْداً كُلِّيّاً عَنِ التَّصْدِيْق، لكِنْ تَبايُنُ الطَّبِيْعَةِ وَتَنافي رُسُوْمِ المَعِيْشَةِ ما بَيْنَنا وَبَيْنَ الأَسَدِ مَعْلُوْمٌ، والتَّناسُبُ والتَّجانُسُ في المَسْلَكِ والرُّسُوْمِ ما بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ غَيْرُ قابِلٍ للصُّوْرَةِ بِأَيِّ وَجْهٍ، فَكَيْفَ يَخْتارُوْنَ مُجانَبَةَ الأَسَدِ، وَمَتى يَقْصِدُونَ إلى جانِبِنا، وَكَيْفَ يُظْهِرُوْنَ رَغْبَةَ الرَّعِيَّةِ والخُضُوْعَ لِأَمْرِنا، وَهذا المَثَلُ مَشْهُورٌ، أَنِ الكَلْبُ يَعَضُّ الكَلْبَ، لَكِنْ حِيْنَ يَرَيانِ الذِّئْبَ يَصِيْرانِ ظَهِيْرَيْنِ، وَيَجْعَلانِ الوَجْهَ لِقِتالِهِ مَعاً، وإِذا هُمْ فَكَّرُوا زِيادَةً في التِحاقِ الأَضْرارِ، لا يَسْعَوْنَ في مُخالَفَتِهِ، وَلا يُعْطُونَ بِمُواساتِنا الرِّضا، *كَمُلْتَمِسٍ إِطْفاءَ نارٍ بِنافِخٍ*، والأَسَدُ رَغْمَ أَنَّهُ ظالِمٌ وَسَفَّاكٌ وَقاطِعْ أَعْناقٍ وَصاحِبُ نَخْوَةٍ، جَيْشُهُ ذاكَ وَمَمْلُوْكُوهُ بِمَمْلَكَتِهِ وَرَفِيْعُو الشَّأْنِ يَصِيْرُونَ أَكْثَرَ رِضاً بِهِ، وَيَجْعَلُوْنَ العُنُقَ أَلْيَنَ لِرِئاسَتِهِ وَزَعامَتِهِ، وَيُظْهِرُوْنَ التَّبَعِيَّةَ لَهُ أَكْثَرَ، مِنْ وَجْهِ جَوْهَرِ السَّبُعِيَّةِ الَّذي هُوَ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الجَمِيْعِ، وَتِلْكَ السِّباعُ رَغْمَ أَنَّها باخْتِلافِ الطَّبْعِ مُتَعَدِّدَةٌ، في ذلِكَ الوَقْتِ الَّذي يَجِيْءُ فِيْهِ شَخْصٌ بالتَّفْكِيرِ بِقَصْدِهَا تَصِيْرُ بالاِتِّفاقِ مُتَّحِدَةً، واعْلَمْ أَنَّ ذاكَ

الجَيْشَ في الحَرْبِ مُخْتَلِفُ الأَفْعالِ، وَكُلُّ واحِدٍ يَمْلِكُ أُسْلُوْباً مِنْ لَوْنٍ آَخَر، البَعْضُ يَعَمَلُ الحَرْبَ بالمُجاهَرَةِ وَجْهاً لِوَجْهٍ كالفَهْدِ، والبَعْضُ يَفْتَحُ على الخَصْمِ الكَمِيْنَ كالنَّمِرِ، وَبَعْضٌ بالرَّزانَةِ والتُّؤْدَةِ والفُرْصَةِ كالدُّبِّ، وَبَعْضٌ بالحِيْلَةِ والمُخادَعَةِ كالثَّعْلَبِ، وَبَعْضٌ بالمُبادَرَةِ والمُسارَعَةِ كالخِنْزِيْرِ، وَجَيْشُنا لا يَمْلِكُ أَكْثَرَ مِنْ طَرِيْقٍ واحِدٍ وَرَسْمٍ واحِدٍ، فَبِوَقْتِ المُصاوَلَةِ والمُجَاوَلَةِ يَجْعَلُوْنَ الوَجْهَ لِجانِبٍ واحِدٍ، فَإِذا كانَ التَّعاوُنُ والقَلْبُ الواحِدُ وَطَلَعَ العَمَلُ، فَبِها وَنَعِمْتَ، وَإِلَّا نَعُوْذُ باللَّهِ مِنْ تِلْكَ الحالَةِ، الشَّاهُ إِذْ كانَ حَدِيْثُ زَنْج قَدْ ضَرَبَ الجُذُوْرَ في أَرْضِ قَلْبِهِ، وَأَطْلَعَ الأَغْصانَ، وَجَعَلَ ثَمَراتِ ذاكَ في زَهَراتِ التَّمَنِّي أَمامَ الخاطِرِ، وَجَعَلَ مَذاقَ الطَّبْعِ جَمِيْلاً بِحَلاوَةِ إِدْراكِ ذاكَ، بِحَيْثُ لَمْ يَعُدْ مُمْكِناً البَتَّةَ عَمَلُ الإِحْساسِ عَنْ مَرارَةِ الوَخامَةِ والنَّدامَةِ، نَهَضَ مِنْ ذلِكَ المَجْلِسِ وَقالَ، *وَلِلْحَرْبِ نابٌ لا تُفَلُّ وَمِخْلَبُ*، ثُمَّ شَرَعَ بالذَّهابِ وإِعْدادِ العُدَّةِ لِأَخْذِ تِلْكَ الوِلايَةِ، وَصارَ مَشْغُولاً بِجَمْعِ الحَشْرِ والأَجْنادِ، وَوَجَّهَ الوَجْهَ للاِسْتِمْدادِ والاِسْتِنْجادِ مِن مالِكي أَطْرافِ المَمْلَكَةِ، وَأَنْصارِ الدَّوْلَةِ وأَعْوانِ يَوْمِ الحاجَةِ مِنَ الفِيلَةِ الضَّارِبَةِ مُجَرِّبَةِ الحَرْبِ، والشَّياطِيْنِ الذُّكُورِ الَّتي تَلُوْكُ النَّارَ، الَّتي بِحَمْلَةِ البَأْسِ وَشِدَّةِ السَّطْوَةِ مِنْها، يَظْهَرُ أَسَدُ خَيْمَةِ الفَلَكِ مِنَ الصُّوْفِ، وَسَيْفُ المَرِيْخِ والشَّمْسِ مِنَ الخَشَبِ، حَشَرَهُمْ جَمِيْعاً وَجَهَّزَهُم لِلْحَرْبِ واسْتَعَدَّ، وَنارُ الغَضَبِ مُتَوَقِّدَةٌ، بِخَلِّ نَواصِيْهِم قارُوْرَةُ الأَثِيْرِ ذَبُلَتْ، وَمِنْ وَقْدَةِ بَرْقِ أَنْفاسِهِم

كُرَةُ الزَّمْهَرِيْرِ انْصَهَرَتْ، ثَوْرُ الحُوْتِ مِنْ حَمْلِ قوائِمِهِم كالفَلَكِ جاءَ بالأَنِيْنِ، دُخانُ الخَيْشُومِ واصِلٌ لِحَقْلِ القَمَرِ، عُقْدَةُ الخَرْطُومِ مُلْقاةٌ على تِنِّيْنِ السَّماءِ، كما جاءَ في شَرْحِ كَمالِ وَصُوْرَةِ أَشْكالِهِم،

يُقَلِّبْنَ أَساطِيْنَ وَيَلْعَبْنَ بِثُعْبانِ
عَلَيْهِنَّ تَجافِيْفُ يُشَهَّرْنَ بِأَلْوانِ

لَعَلَ غُراباً بِحُكْمِ الاِغْتِرابِ كانَ وَقَعَ بِتِلْكَ النَّواحي، فَكانَ يَمْلِكُ المَسْكَنَ بِوِلايَةِ الأَسَدِ، وَجَدَ الخَبَرَ عَنْ فِكْرِ شاهِ الفِيَلَةِ وَعَنْ سُوْءِ تَفْكِيْرِهِمْ، فَكَّرَ أَنْ أنا في هذا المَكانِ مُقِيْمٌ، وَطائِفَةٌ مِنْ أَهْلِنا وَأَصْحابِنا، يَمْلِكُوْنَ المُقامَ بِذاكَ المَكانِ، وَبَعْضٌ مِنْهُمْ مُنْتَظِمُونَ بِسِلْكِ الاِخْتِصاصِ في خِدْمَةِ الأَسَد، فَوَبالُ هذا النَّكالِ لا مَحالَةَ يَكُوْنُ لَهُ السِّرايَةُ في حالِهِم،

هُوَ الجَبَلُ الَّذي هَوَتِ المَعالي بِهَدَّتِهِ وَرِيْعَ الآَمِنُوْنا

فَمِنْ قَبْلِ أنْ يَصِلَ إِلى تِلْكَ الدَّوْلَةِ فَجْأَةً، هؤلاءِ النَّافِخُونَ لِلنَّارِ بِفِعْلِ الزَّبانِيَةِ، والمَرَدَةُ آكِلُو الخَلْقِ بالمُغاصَفَةِ والمُناهَزَةِ، وَيَقُوْمُوْنَ بالغارَةِ، وَتَصِلَ رُجُوْمُ آفَةِ شَياطِيْنِ الفِتْنَةِ هَؤلاءِ لِأَرْكانِ وَأَساطِيْنِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ، وَيَذْهَبَ الأَمْرُ خارِجاً عَنْ ضَبْطِ التَّدارُكِ وَحَدِّ الإِصْلاحِ، أنا سَأَذْهَبُ بِخِدْمَةِ الأَسَدِ وَأُعْطِيْهِ الإِعْلامَ عَنْ هذِهِ الحالِ، عَلَّني أَصِيْرُ

مَخْصُوْصاً بِعَتَبَةِ تِلْكَ الحَضْرَةِ بِتَقْرِيْبٍ مِنْ هذا التَّقَرُّبِ، وَحِيْنَ يَصِيْرُ شَرُّ هذِهِ الحادِثَةِ إِنْ شاءَ اللهُ مَكْفِيَّاً، يَصِيْرُ مُدَّخَراً لي وَسِيْلَةٌ مَرْضِيَّةٌ وذَرِيْعَةٌ حَسَنَةٌ للزَّمانِ الآتي، وَبِواسِطَةِ ذاكَ أَجِدُ اخْتِصاصَ الخِدْمَةِ، وَيَجْعَلُونَ لي رَقَمَ مُؤَدِّي الحَقِّ، ثُمَّ نَهَضَ مِنَ المَكانِ، وَكالسَّهْمِ المُنْطَلِقِ مِنْ فَتْحِ العَزِيْمَةِ ذَهَبَ خارِجاً، مَزَّقَ دِرْعَ السَّحابِ، وَعَبَرَ مِنْ جَوْشَنِ الهَواءِ، *قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ*، وَوَصَلَ إلى حَضْرَةِ المَقْصَدِ، وَذَهَبَ لِواحِدٍ مِنَ المُقَرَّبِيْنَ مِنَ الأَسَدِ، وَقالَ أنا جِئْتُ مِنْ طَرِيْقٍ بَعِيْدٍ، طَوَيْتُ المَراحِلَ وَالمَنازِلَ، وَعَبَرْتُ المَخاوِفَ والمَهالِكَ، وَأَسْرَعْتُ إلى هُنا، لَمْ تَشُقَّ الأَوْهامُ غُبارَ خُطى سُرْعَتِي، جِئْتُ بِخَبَرِ حالٍ مِنَ الأَحْوالِ لا بُدَّ لِلْمَلِكِ مِنْ سَماعِ ذاكَ، وَأَنْ يَأْمُرَ بِأنْ أوْصِلَ ذاكَ للسَّمْعِ الشَّرِيْف، الأَسَدُ أَعْطى الأَمْرَ بِأَنْ يَجِيْءَ الغُرابُ حاضِراً، وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ كُلِّ ذاكَ الَّذي يَعْلَمُ، جاؤوا بالغُرابِ، قَبَّلَ بِساطَ الحَضْرَةِ، وَمِنْ انْبِساطِ المَلِكِ وَالتَّبَجُّحِ الَّذي أَظْهَرَ بالوُرُوْدِ، زادَ النَّشاطَ، بِمِقدارِ ما سَقَطَ حِجابُ الدَّهْشَةِ، وَبَعْدَ تَقْدِيْمِ الدُّعاءِ والثَّناءِ حَكى الحِكايَةَ، أَنْ أَمامَ شاهِ الفِيَلَةِ عَنْ مَقَرِّكَ المَيْمُونِ –كانَ المَفَرَّ والمَهْرَبَ لِمُشَرَّدي الحوادِثِ– قالُوا القَصَصَ، وَأَوْصَلُوا صِفَةَ هذا العَيْشِ والتَّنَعُّمِ، ـ لا رَأى وَصْمَةَ الزَّوالِ والتَّصَرُّمِ ـ ، إِلى أُذُنِهِ، وَأَثارُوا لَهُ بَواعِثَ الرَّغَباتِ وَنَواهِضَ العَزَماتِ، لِيَعْمَلَ قَصْدَ المَجِيْءِ لِهذِهِ الوِلايَةِ وَيَسْتَوْلِيَ عَلَيْها، وَقَدْ جَمَعَ كُلَّ ما لَهُ العَلاقَةُ بِإِعْدادِ أَسْبابِ الحَرْبِ وَإِنْجازِ ذاكَ العَمَلِ،

وَحَشَرَ لِذاكَ جَمْعاً، عَنْ مُصادَمَتِهِ، الجَبَلُ يَكُوْنُ على حَذَرٍ، وَمِنْ وَطْأَتِهِ، يَعْلُو الغُبارُ مِنَ البَحْرِ، وَقامَ بِإِعْدادِ العُدَّةِ واسْتِنْهاضِ المُعاوِنِيْنَ مِنْ كُلِّ الجَوانِبِ، وَقامَ باسْتِعْراضِ جَمْعِهِم، وَيُمْكِنُ أنْ يَكُوْنَ مَجِيْئُهُمُ قَدِ اقْتَرَب، لِيَجِيْئُوا بالغارَةِ آَخِرَ اللَّيْلِ، كَي يَأخُذُوا الأَقْرانَ في عَذْبِ نَوْمِ الغَفْلَةِ، الحالُ تَكُوْنُ على هذا الشَّكْلِ الَّذي قُلْتُ، وَأنا مِنْ عُهْدَةِ العُبُوْدِيَّةِ والخِدْمَةِ ولَوازِمِ أَداءِ حَقِّ نِعْمَةِ المَلِكِ الَّتي كُلُّنا بِها مَشْمُولٌ وَمَغْمُورٌ، قَدَ خَرَجْتُ، أَنْ كَيْفَ يَقْصِدُ الرَّأْيُ المُبارَكُ لِتَدارُكِ هذا الأَمْرِ، وَعلى أَيِّ وَجْهٍ تَكُوْنُ إِجالَةُ الفِكْرِ الصَّائِبِ بِهذا الأَمْرِ، لِإِزالَةِ هذِهِ الغائِلَةِ الهائِلَةِ، وَنَحْنُ وُثُوْقُنا بِأُصُولِ وَعُرُوْقِ هذِهِ الدَّوْلَةِ زائِدٌ، أَنْ قَلْعُ ذاكَ لَنْ يَطْلُعَ عَنْ يَدِهِم، وَأَنَّهُمْ سَيَضْرِبُونَ بِفَأْسِ هذا الكَيْدِ على قَدَمِهِم، وَسَيَرْجِعُ قَطْعُ جَراثِيْمِ ذاكَ بِجَدْعِ خَراطِيْمِهِم، *وَلا يَحِيْقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ*، المَلِكُ مِنْ هَلَعٍ وَبَأْسِ هذِهِ الحِكايَةِ، نَهَضَ قَلْبُهُ مِنَ المَكانِ، وَمِنْ تَوَهُّمِ هذا الخَطْبِ العَظِيْم، وَقَعَ في الفِكْرِ المُقْعِدِ والمُقِيْم، ثُمَّ بِذاكَ الوَقْتِ اسْتَدْعى أَرْبابَ العَمَلِ الَّذِيْنَ كانُوا المُعْتَمَدِيْنَ والمُؤْتَمَنِيْنَ لِلْمُلْك، وَكانُوا مَحَلَّ الاِسْتِشارَةِ في العَوارِضِ والمُهِمَّاتِ والحَوادِثِ الواقِعَةِ، وَوَضَعَ أَمامَهُمْ حَدِيْثَ الغُرابِ، وَذاكَ الشَّكْلَ الغَرِيْبَ الَّذي كانَ مُنْذِراً وَمُحَذِّراً كالنَّعِيْب، وَقالَ، حِيْلَةُ هذِهِ الحادِثَةِ ما تَكُوْنُ؟، وَوَجْهُ التَّدْبِيْرِ بِتَدْمِيْرِ الخَصْمِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ يُمَكِنُ أَنْ يَكُوْن؟، قامُوا بالخَوْضِ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ على قَدْرِ عِلْمِهِ

وَكِفايَتِهِ، في دَفْعِ ذاكَ الَّذي يَرْجِعُ بالضُّرِّ والنَّفْعِ، حَتَّى بَعْدَ تَمْحِيْصِ الأَفْكارِ العَمِيْقَةِ، واسْتِعْمالِ الآَراءِ الجَلِيْلَةِ الَّتي أُطْلِقَتْ، خُلاصَةُ آراءِ الجَمِيْعِ جاءَتْ راجِعَةً لِهذا، أَنْ يَقُوْمُوا بِإِحْضارِ جُمْلَةِ أَصْنافِ الجَيْشِ مِنَ الأَنْجادِ وَأَشْرافِ الحَشَمِ بالعَتَبَةِ، وَأَنْ يَخْتارُوا مِنْ هؤلاءِ أَرْبَعَةً مِنَ القادَةِ، أَسَداً قَوِيَّ القَلْبِ تامَّ الجُرْأَةِ وَنَمِراً طالِباً لِلْحَرْبِ مُمْتَحِناً للتِّمْساحِ، وَذِئْباً كاسِراً للصَّفِّ خاطِفاً لِلْخَصْمِ، وَثَعْلَباً مَمْلُوْءاً بِخِداعِ الماءِ تَحْتَ القَشِّ، وَأَنْ يُسْلِمُوا زِمامَ تَدْبِيْرِ وَتَرْتِيْبِ أَمْرِ كُلِّ مَجْمُوْعَةٍ مِنَ الأَصْنافِ لِيَدِ تَصَرُّفِ قائِدِها، وَكَذلِكَ فَعَلُوا، جاؤوا بِطائِفَةِ الأُسُوْدِ لِلأَسَدِ وَسَمَّوْهُ الشَّهْرَيار، والمَلِكُ جَعَلَهُ بِالتَّقْدِيْمِ والتَّمْكِيْنِ مُمَيَّزاً عَنِ الَّذِيْنَ كانُوا المُقَدَّمِيْنَ والمِقْدامِيْنِ مِنَ الجَيْشِ، وَقالَ لَهُ، ما ترى في هذا الأَمْرِ، وَما وَجْهُ الخَلاصِ والمَناصِ لَنا مِنْ هذِهِ الوَرْطَةِ المُهْلِكَةِ، شَهْرَيار قالَ،

بِهذا الأَمْرِ العَقْلُ يُظْهِرُ الطَّرِيْقِ وَيَفْتَحُ سَرِيْعاً كُلَّ بابٍ مُغْلَق
يَجِبُ الرُّجُوْعُ بِهذا لِلْعَقْلِ أَيْضاً وَأَنْ نَعْمَلَ وِفْقَ ما يَأْمُرُنا العَقْل

ما دامَ العَدُوُّ قامَ بِقَصْدِنا، فَغَيْرُ واجِبٍ الخُرُوْجُ عَنْهُ، فَإِمَّا التَّقَدُّمُ أَمامَهُ بالمُساوَرَةِ والمُقاوَمَةِ، وإِمَّا النُّهُوْضُ مِنْ أمامِ صَدَماتِ قَهْرِهِ، وَنَحْنُ الَّذِيْنَ بِحَمْدِ اللهِ وَفَضْلِهِ حَمَلْنا الإِسْمَ في العالَمِ بالمُناجَزَةِ والمُبارَزَةِ، وَنَحْنُ المَذْكُوْرُوْنَ والمَشْهُوْرُونَ في أَفْواهِ العالَمِيْنَ بالشَّجاعَةِ وَرَمْيِ

الخَصْمِ وَكَسْرِ العَدُوِّ، لَنْ نُجْلِسَ أَبَداً شادِخَةَ هذا العارِ على غُرَّةِ زَمانِكَ، وَلَنْ نَقْبَلَ كَلَفَ هذا العُوارِ على ناصِيَةِ أَحْوالِكَ، فَإِنَّهُ إِذا صِرْنا مُتَعاضِدِيْنَ، وَيَداً واحِدَةً جَعَلْنا الوَجْهَ لِلْحَرْبِ، يُمْكِنُ أَنْ تَكُوْنَ لَنا يَدُ الاِسْتِحْواذِ والاِسْتِعْلاءِ، بِما أَنَّهُمْ هُمُ البادِئُونَ، وَعَلى الباطِلِ مُصِرُّوْنَ وَمُتَمادُونَ، وَفِيْ كُلِّ لَحْظَةٍ ظُلْمُ المُبادَرَةِ في إِبْداءِ المُساوَرَةِ يَصِلُ إِلَيْهِم، *وَرُبَّ رَمْيٍ عادَ إِلى النَّزْعَةِ*، وَإِذا عَوْذاً باللهِ صارَ الأَمْرُ لَوْناً آخَرَ، والزَّمانُ مُحْتَرَفُ الغَدْرِ أَظْهَرَ غِشَّ عِيارِ نَفْسِهِ، وَصِرْنا مَقْهُوْرِيْنَ وَمَكْسُوْرِيْنَ، أَخِيْراً نَجِدُ دَرَجَةَ الشَّهادَةِ والاِسْمَ الحَسَنَ، *وَمَنْ قُتِلَ دُوْنَ مالِهِ فَهُوَ شَهِيْدٌ*، وَأَمَّا الهُرُوْبُ وَإِجْلاءُ الزَّوْجَةِ والوَلَدِ وَإِخْلاءُ البَيْتِ والمَنْزِلِ القَدِيْمِ، وَالكَوْنُ مُتَحَمِّلاً لِقَطْعِ علائِقِ الكَثِيْرِ مِنَ الخَلائِقِ، وَإِلْقاءُ اعْتِبارِ عالَمٍ مِنْ يَدِ حِمايَةِ النَّفْسِ، وَعَدَمُ إِظْهارِ المُبالاةِ باسْتِهلاكِ قَوْمٍ كانَ اسْتِمْساكُهُم بِعُرْوَةِ سَلْطَنَتِنا، مِنَ الأَبِيَّةِ الَّتي هِيَ في جَوْهَرِ أُبُوَّتِكَ مَرْكُوْزَةٌ، والحَمِيَّةِ الَّتي هِيَ مَعَ مُرُوْءَةِ ذاتِكَ مُرَكَّبَةٌ، فَإِنَّ هذا المَعْنى يَقَعُ بَعِيْداً، ولا يُمْكِنُ الكَوْنُ مُتَظاهِراً بِشِعارِ هذا العار، والرَّجُلُ أَبِيُّ النَّفْسِ حَمِيُّ الأَنْفِ مَهْما كانَ طالِباً لِلْحَياةِ الباقِيَةِ، وَأَنْ يكُوْنَ بالِغَ المُرادِ حَسَنَ البَخْتِ في العِزَّةِ والمَسَرَّةِ إِلى النِّهايَةِ، وأَنْ يَعْرِفَ مُسْتَأْنَفاً لِنَفْسِهِ بَقاءً آخَرَ مِنَ الذِّكْرِ الحَمِيْدِ والاِسْمِ العالي عِنْدَ مُفارَقَةِ هذِهِ الدُّنْيا الفانِيَةِ، وَأَنْ يَعُدَّ لِلْمَوْتِ الفَضِيْلَةَ على

تِلْكَ الحَياةِ الَّتي لا تَكُوْنُ هكذا، كما قالَ ذاكَ المَلِكُ لِلْمُنَجِّم، الأَسَدُ قالَ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ المَلِكِ مَعَ المُنَجِّمِ

قالَ شَهْرَيار، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ بِأَرْضِ بابِلَ رَسْمٌ قَدِيْمٌ، وَقاعِدَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، أَنَّ زِمامَ عَزْلِ وَتَوْلِيَةِ المَلِكِ بِيَدِ الرَّعِيَّةِ، وَفِيْ كُلِّ وَقْتٍ طَلَبُوا واحِداً وَوَقَعَتْ قُرْعَةُ الإِخْتِيارِ عَلَيْهِ، أَجْلَسُوهُ بالمُلْكِ، فإِذا لَمْ يَعُوْدُوا يُرِيْدُوْنَهُ عَزَلُوْهُ، كانُوا أَجْلَسُوا واحِداً بالمُلْكِ، وَكانُوا جاؤوا بِتَعْظِيْمِ وَتَفْخِيْمِ أَمْرِهِ، وَقامُوا بِتَرْوِيْجِ بازارِهِ، وَتَمَسَّكُوا بالمَحَبَّةِ لِدَوْلَتِهِ كالقَلْبِ في الصَّدْرِ والنُّوْرِ في العَيْنِ، وَأَعَدُّوا لَهُ كُلَّ ما كانَ واجِباً مِنْ أَسْبابِ الفَراغَةِ والرَّاحَةِ والتَّمَتُّعِ وَنَوالِ المُرادِ جَمِيْعاً، وَيَوْماً كَما كَانَتْ عادَتُهُمْ، صارُوا مُتَغَيِّرِيْنَ لَهُ، وَقامُوا بِتَغْيِيْرِ مُلْكِهِ، وَأَجْلَسُوا آخَرَ مَكانَهُ، الرَّجُلُ الَّذي كانَ ذاقَ لَذَّةَ الرِّئاسَةِ والمُلْكِ، وَوَجَدَ الرِّئاسَةَ والحُكْمَ على الخَلْق، مِنْ غَصَّةِ تِلْكَ المِحْنَةِ جَلَسَ مُضْطَرّاً في رُكْنٍ، وَقالَ،

كانَتْ لَدَيَّ أَمانَةٌ فَرَدَدْتُها وَكَذا الوَدائِعُ تُسْتَرَدُّ وَتُقْتَضى

أَخِيْراً فَكَّرَ، أَنْ لَوْ كُنْتُ عَرِفْتُ طالِعَ الوَقْتِ في مَطْلَعِ تِلْكَ السَّعادَةِ الَّتي أَعْطَتْها تِلْكَ الدَّوْلَةُ، وَكُنْتُ جَلَسْتُ باخْتِيارِ المَسْعُوْدِ واتِّصالِ المَحْمُوْدِ واخْتَرْتُ البُرْجَ الثَّابِتَ، رُبَّما لَمْ يكُنِ البَخْتُ صارَ مُنْقَلِباً

سَرِيْعاً هكذا، لكِنْ بِما أَنَّ الأَمْرَ وَقَعَ، وَصارَ الإنْتِقالُ مِنْ هذا المَكانِ مُتَعَيِّناً، مَرَّةً سَأَذْهَبُ خارِجاً باخْتِيارِ الوَقْتِ، بَحَثَ عَنِ العارِفِيْنَ بالنُّجُوْمِ الحاذِقِيْنَ، والمُبَرِّزِيْنَ في عِلْمِ النُّجُومِ، الَّذِيْنَ كانُوا في المَدِيْنَةِ، أَعْطَوْهُ الإشارَةَ عَنْ مُنَجِّمٍ، كانَ يَمْلِكُ دَرَجَةَ الكَمالِ في حَقائِقِ ذاكَ العِلْمِ وَدَقائِقِ ذاكَ الفَنِّ، في حَلِّ المُشْكِلاتِ مَجْسطي أَبُو رَيْحانِ كانَ مُحْتاجاً لِتَفْهِيْمِهِ، وَأَبُو مَعْشَرْ لَمْ يَصِلْ لِأَعْشارِ فَضْلِهِ، وَفاخِرُ صارَ مُفاخِراً بِكَوْنِهِ تِلْمِيْذاً لَهُ، وَسَعْيُ كُوشيار جاءَ مُتَقاصِراً عَنْ مَرْتَبَتِهِ، على غَوارِبِ الأَنْجُمِ وَشَواهِقِ الأَفْلاكِ، جواسِيْسُ نَظَرِهِ ترى مَحْسُوْساً وُرُوْدَ بَوادِرِ وَحُدُوْثَ صَوادِرِ الغَيْبِ، اِسْتَدْعاهُ وَقالَ، اِخْتَرْ لِي يَوْماً جَمِيْلاً وَساعَةً مُخْتارَةً لِأَذْهَبَ خارِجاً مِنْ هذِهِ المَدِيْنَةِ، المُنَجِّمُ سَأَلَهُ أَنْ طالِعُكَ مِنْ أَيِّ البُرُوْجِ، وَسِنُوْنَ عُمْرِكَ كَمْ تَكُونُ، فَإِنَّ الاِخْتِياراتِ المُعْتَبَرَةَ تَجِيْءُ صَحِيْحَةً مِنْ أَصْلِ الوِلادَةِ، قالَ لِيْ مِنَ العُمُرِ سَنَةٌ واحِدَةٌ لا أَكْثَرَ، المُنَجِّمُ مِنْ هذا الحَدِيْثِ أَظْهَرَ التَّعَجُّبَ، تَعَجَّبَ مِنْ هذا الكَلامِ أَنْ أَيُّ رَمْزٍ وَإِشارَةٍ بِهِ، ثُمَّ قامَ بالإِسْتِفْسارِ وَسَأَلَ عَنْ ذاكَ المَعْنى، قالَ إِذا كانُوا يَحْسِبُونَ الحَياةَ عَنْ مُساعَدَةِ العُمْرِ وَمُتابَعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتي تُقْضى في عِزَّةِ النَّفْسِ وَهَزَّةِ الطَّبْعِ وَسَعَةِ المَنالِ وَدَعَةِ العَيْشِ فَأَنا لَيْسَ لي مِنَ العُمُرْ أَكْثَرُ مِنْ سَنَةٍ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتي كانَتْ لِي في الحُكْمِ والمُلْكِ والسُّلْطَةِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، لِتَعْلَمَ أَنَّ الحَياةَ للرِّجالِ لَيْسَتْ مَطْلُوْبَةً إِلَّا على هذا الشَّكْلِ، المَلِكُ

بَعْدَها جَعَلَ الوَجْهَ لِلنَّمِرِ أنْ أَنتَ ما تَقُوْلُ، قالَ، كَثْرَةُ عَدَدِهِم غَيْرُ مَخْفِيَّةٍ، وَنَحْنُ إِذا جَعَلْنا العَزِيْمَةَ مَقْصُورَةً على مُواجَهَتِهِمْ وَجْهاً لِوَجْهٍ، نَكُوْنُ أَظْهَرْنا قُصُوْرَ النَّفْسِ، وَصِرْنا مَكْشُوْفِيْنَ أمامَ البَلاءِ، وَنَكُوْنُ سَحَبْنا المَوْتَ لِجِهَتِنا بالحَبْلِ، *وكالباحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بظِلْفِهِ*، نَكُوْنُ فَتَحْنا طَرِيْقَ هَلاكِ أَنْفُسِنا، وَلَيْسَ لَنا طاقَةُ صَدْمَتِهِمْ وَحَدُّ مَوْقِعَتِهِم، لا كانَ أَنْ يَجْعَلُوْا عَلَيْنا سَيْلَ سَطْوَتِهِمْ، وَيَقْتَلِعُوا بُنْيانَ مَنْزِلِنا ذي الأَلْفِ سَنَةٍ، وَيُطْلِعُوا الدُّخانَ مِنْ دِيارِنا وَأَهْلِنا بِنارِ الفِتْنَةِ، وَيَرْتَفِعُ خَتْمُ العِصْمَةِ عَنْ مَحارِمِنا وَأَطْفالِنا الَّذِيْنَ هُمْ رَبائِبُ حَرَمِ الحُرْمَةِ، وَعرائِسُ حِجابِ الصِّيانَةِ، بِيَدِ فَجَرَةِ أُولَئِكَ القَوْمِ، وَتَبْقى وَصْمَةُ هذِهِ السُّبَّةِ دائِماً،

هَلْ لِلْحرائِرِ مِنْ صَوْنٍ إِذا وَصَلَتْ   أَيْدي الرَّعاعِ إِلى الخَلْخالِ والخَدَمِ

الرَّأْيُ هُوَ ذاكَ، أَنَّنا نُرْسِلُ رَسُوْلاً اليَوْمَ، رَجُلاً عارِفاً بالرَّسْمِ وَناقِلاً لِلْحَدِيْثِ، وَذا فَضْلٍ، وَذا مُكْنَةٍ، يَقْدِرُ بِكَفالَتِهِ على كِفايَةِ المُهِمَّاتِ، وَيُمْكِنُ لَهُ جَمْعُ ماءِ اللُّطْفِ مَعَ نارِ العُنْفِ، وَيُمْكِنُهُ مَزْجُ سُمِّ المُكافَحَةِ مَعَ عَسَلِ المُناصَحَةِ،

وَلَمَّا رَأَيْتُ الحَرْبَ قَدْ جَدَّ جِدُّها   لَبِسْتُ مِنَ البُرْدَيْنِ ثَوْبَ المُحارِبِ

نُرْسِلُ مِثْلَ هذا الرَّسُولِ أمامَ شاهِ الفِيَلَةِ، يَنْقُلُ لَهُ رِسالَةً مِنَّا، يُرْجِعُ حالَ دَواعي مَجِيْئِهِ فاتِرَةً، وَيَجْعَلُ نِطاقَ نَهْضَتِهِ مُنْفَصِماً عَنِ

المُحارَبَةِ، وَيَمْسَحُ عَيْنَ حَدَسِهِ بِمِيْلِ التَّخْيِيْلِ، وَيُلْقِي نَوْمَ الغافِلِ على دِماغِ حَزْمِهِ بِسِحْرِ الاِحْتِيالِ وَأَفْيُونِ الإِغْفالِ، فلا يُجْلِسُ طلائِعَ الرَّأْيِ على مَدارِجِ الآفات، ولا يَجْعَلُ النَّفْسَ تَحْذَرُ مِنْ مَواضِعِ الحَيَلِ وَمَواقِعِ الزَّلَلِ، ثُمَّ في تَضاعِيْفِ هذِهِ الحالِ، نَأْمُرُ شُجْعانَنا وأَبْطالَنا بِالإِعدادِ لِغارَةِ اللَّيْلِ، وَنَجْعَلُ النُّزُوْلَ على رَأْسِهِمْ بَغْتَةً فَجْأَةً كالقَضاءِ المُبْرَمِ، وَعلى حِيْنِ غَفْلَةٍ نُطْلِعُ مِنْهُمُ الغُبارَ، وَنَنْفي مُرادَهُم، وَإِمَّا أَنَّنا نَتَقَدَّمُ أَكْثَرَ وَنُعِدُّ الكَمِيْنَ على مَمَرِّهِم، عَسى نُلقِيْ بِهِمْ فَجْأَةً وَهَناً، وَنَدُقُّ مِنْقارَ شَوْكَتِهِمْ في فاتِحَةِ الأَمْرِ، وَنَلْوِي عِنانَ صَوْلَتِهِ بِنَوْعٍ آخَرَ،

عَسى وَعَسى يَثْني الزَّمانُ عِنانَهُ　　بِتَصْرِيْفِ دَهْرٍ والزَّمانُ عَثُوْرُ
فَتُدْرَكُ آمالٌ وَتُقْضى مَآرِبٌ　　وَتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ الأُمُوْرِ أُمُوْرُ

المَلِكُ أَشارَ للذِّئْب، قالَ لَهُ أنتَ ما تَقُولُ، قالَ، أنا مِنْ سابِقِي الفِكْرِ المُجَرِّبِيْنَ هكذا سَمِعْتُ، أنْ حِيْنَ يَجِيْءُ لَكَ مِنْ أَمامِكَ عَدُوٌّ قَوِيُّ الحالِ، يَجِبُ في ذاكَ السَّعْيُ بالقَوْلِ المَعْسُولِ بِلِسانِ القَلَمِ، في إِنْفاذِ المُراسَلاتِ والمُجامَلاتِ، وَإِنْفادِ الأَمْوالِ وَإِيْرادِ حُسْنِ المَقالِ، ما يُرْجِعُهُ عَنْ طَرِيْقِ التَّعَدِّي وَعَزْمِ التَّصَدِّي لِلْخُصُوْمَةِ، وَأَنْ تَجْعَلَ الرِّبْحَ والخُسْرَ فِداءً للنَّفْسِ العَزِيْزَةِ، وَتَقْرَأ، وَخَيْرُ المالِ ما وُقِيَ بِهِ النَّفْسُ، المَلِكُ جَعَلَ الوَجْهَ للثَّعْلَبِ، أَنْ مِنْ هذِهِ الأَقْسامِ ما هُوَ الاِخْتِيارُ، قالَ

هُوَ لَيْسَ خارِجاً عَنْ هذِهِ الأَقْسامِ الثَّلاثَةِ الَّتي قالُوا، إِمَّا الصُّلْحُ وَإِمَّا الحَرْبُ وَإِمَّا الحِيْلَةُ، لكِنَّ المُبادَرَةَ بالذَّهابِ أمامَ العَدُوِّ الجَسُوْرِ والقاصِدِ الأَفَّاكِ السَّفَّاكِ، وَوَضْعَ قَدَمِ الاِقْتِحامِ بالمُسارَعَةِ في مِثْلِ هذا الأَمْرِ يَصِيْرُ لازِماً مِنْ عِدَّةِ أَسْبابٍ، وَيَجِيْءُ واجِباً بِعِدَّةِ مُوْجِباتٍ، مِنْها التَّفْكِيْرُ بِعَوَزِ الماءِ وَتَعَذُّرِ العَلَفِ بِحَيْثُ لَو صارَ أَفرادُ الجَيْشِ مُحاصَرِيْنَ مِنَ الخَصْمِ كانَ الأداءُ بالعَجْزِ، أو أَنَّ الجَيْشَ بِوَقْتِ اعْتِراضِ الخَصْمِ يَطْلُبُ للنَّفْسِ المَزِيْدَ مِنَ المَعاشِ، وَلَيْسَ لِلْمَلِكِ ذاك، أَوْ أَنَّهُ يَخْشى مِنْ مُظاهِري وَمُعاوِنِي خَصْمِهِ، أَنْ يَصِيْرُوا في وَقْتِ الحَرْبِ مُعِيْنِيْنَ لَهُ، وَيَصِيْرُوا مِنْ أَحْزابِهِ، أَوْ هُوَ لا يَمْلِكُ الاِعْتِمادَ على جَيْشِهِ، وَيُفَكِّرُ أَنَّهُمْ يُخْدَعُوْنَ بِدَعْوَةِ العَدُوِّ وَتَطْمِيْعِهِ وَتَقْرِيْرِهِ، وَيَلْوُوْنَ العِنانَ عَنْ جادَّةِ تَبَعِيَّتِنا، والحَمْدُ لِلَّهِ لا شَيْءَ مِنْ هذِهِ الأَسْبابِ هُنا، وَمَشْرَعُ هذا المُلْكِ والدَّوْلَةِ طاهِرٌ وَخالٍ مِنْ هذِهِ القَذَياتِ، وَذَيْلُ مُعامَلَةِ هؤلاءِ الرَّعايا والجَيْشِ نَقِيٌّ مِنْ هذِهِ القاذُورات، إِذَنْ نَحْنُ لَيْسَ لَنا أَيُّ باعِثِ ضَرُوْرَةٍ لِلْمُبادَرَةِ لِهذا الأَمْرِ، ولا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ لَنا سَبْقُ اليَدِ بالبَدْءِ بِهذا الأَمْرِ، وَأَخْذُ عِنانِ الشِّدَّةِ والعَجَلَةِ باليَدِ بالأَمْرِ، فَذاكَ الَّذي لا يَعْرِفُ مِقْدارَ ضَعْفِ وَقُوَّةِ جَيْشِهِ، ولا يَعْلَمُ مِنْ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ أَيُّ عَمَلٍ يَجِيْءُ، وَيَظُنُّ الجَمِيْعَ مُحارِبِيْنَ وفاعِلِيْنَ، وَيَعُدُّهُمْ لائِقِيْنَ بِيَوْمِ الحَرْبِ، يَصِلُ لَهُ ما وَصَلَ لِذاكَ الفارِسِ الصَّيَّادِ، المَلِكُ قالَ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الفارِسِ الصَّيَّادِ

قالَ الثَّعْلَبُ، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ شَابٌّ مُحِبٌّ للصَّيْدِ، وَكانَ فارِساً ماهِراً، إِذا هُوَ أَرْخى العِنانَ خَطَفَ كُرَةَ المُسابَقَةِ مِنَ الوَهْمِ، الإدراكُ لا يَصِلُ إلى غُبارِ قَدَمِ فَرَسِهِ الأَصْفَر، كُلَّ اللَّيْلِ مِنَ المَساءِ إلى الفَجْرِ يَكُوْنُ بِلَعِبِ العِشْقِ مَعَ خَيالِ الصَّيْدِ، كُلَّ فِكْرٍ يُفَكِّرُ يَكُوْنُ كَيفَ أَجْعَلُ كَلْبَ النَّفْسِ شَبْعانَ مِنْ جَنْبِ حَيَوانٍ، كَيْفَ أُلْقي ضَعِيْفاً في قَبْضَةِ نَمِرِ الطَّبِيْعَةِ، كانَ يَمْلِكُ كَلْباً أَسْرَعَ جَرْياً مِنَ الرِّيْحِ، وَأَشَدَّ وَثْباً مِنَ البَرْقِ، كَأَنَّهُ شَيْطانٌ مُسَوْجَرٌ وَمَجْنُوْنٌ مُسَلْسَلٌ، إذا أُطْلِقَ أرادَ يَثِبُ للسَّماءِ، وَيُنْشِبُ المَخْلَبَ في عَيْنِ الثَّوْرِ وَقَلْبِ الأَسَدِ، وَيَسْحَبُ لِلْخارِجِ بِكُلْبَتَي الذِّراعَيْنِ أَسْنانَ الكَلْبِ الأَكْبَرِ والدُّبِّ الأَصْغَرِ، الكَبِدُ مِنْ عَيَّاري الصَّحْراءِ جَمِيْعاً مِنْ سِيْخِ سِكِّيْنِ أَسْنانِهِ كانَ دائِماً الكَباب، مُخَدَّراتُ الأَجَمَةِ مِنْ هَيْبَةِ نُباحِهِ كُنَّ كالأَرْنَبِ فَتَحْنَ دَمَ الحَيْضِ في ذاكَ المُتَصَيِّدِ مِنَ الصَّحْراءِ مِنْ مُزاحَمَتِهِ، لَمْ تَكُنْ تَصِلُ طُعْمَةٌ لِأَيِّ سَبُعٍ، حَتَّى صارَ مُباحاً للذِّئْبِ أَكْلُ المَيْتَةِ، وصارَتْ للخَنْزِيْرِ القَناعَةُ بالعَظْمِ لِأَسْنانِهِ، يَوْماً هذا الرَّجُلُ كانَ جالِساً في البَيْتِ، وَإِذا بِعُصْفُوْرٍ طارَ مِنَ النَّافِذَةِ، وَثَبَتْ عَلَيْهِ قِطَّةٌ مِنْ رُكْنِ البَيْتِ وَأَمْسَكَتْهُ، الرَّجُلُ مِنْ غايَةِ حِرْصِ الصَّيْدِ بِمُشاهَدَةِ تِلْكَ الحالِ صارَ مَسْرُوْراً بِشِدَّةٍ وَقالَ مَعَ النَّفْسِ، يَجِبُ المُحافَظَةُ حَسَناً على هذِهِ القِطَّةِ، فَهِيَ في الصَّيْدِ بِهَذِهِ

المَهارَةِ واللَّباقَةِ، أنا ما رَأَيْتُ أَيَّ كَلْبٍ بِهذِهِ المَهارَةِ، في غَدٍ سَأَعْمَلُ لَها الاِمْتِحانَ أنْ هِيَ ماذا تَصِيْدُ، وَصباحاً مَعَ الفَجْرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَضَعَ السُّلْطانُ فارِسُ المَشْرِقِ الأَوْحَدُ القَدَمَ بِجَوادِ العالَمِ الأَبْيَضِ، نَهَضَ وَرَكِبَ على قاعِدَةِ كُلِّ يَوْمٍ، وَوَضَعَ القِطَّةَ في إِبْطِهِ، وَأَمْسَكَ الكَلْبَ تَحْتَ يَدِهِ، وَحِيْنَ وَصَلَ إلى مَحَلِّ الصَّيْدِ، نَهَضَتْ حَمامَةٌ مِنْ تَحْتِ شَجَرَةِ شَوْكٍ، أَلْقى عَلَيْها القِطَّةَ مِنْ إِبْطِهِ، القِطَّةُ رَأَتِ الكَلْبَ وَمِنَ الخَوْفِ مِنْهُ أرادَتْ أَنْ تَثِبَ إلى إِبْطِ الفارِسِ، وَقَعَتْ على رَأْسِ وَناصِيَةِ الجَوادِ، الجَوادُ اضْطَرَبَ مِنْ تَخْرِيْشِ مَخَلَبِها، وَضَرَبَ الرَّجُلَ بالأَرْضِ وَجَعَلَهُ هلاكاً، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى لا تَعْرِفَ الجَمِيْعَ أَهْلَ عَمَلٍ، وَتَعْلَمَ أَنَّ جَيْشَنا لَيْسَ لَهُ مَعَ جَيْشِ الفِيْلِ قُدْرَةُ المُقاوَمَةِ والمُطارَدَةِ، وَأَمْرُ غارَةِ اللَّيْلِ الَّذي يُقَرِّرُهُ النَّمِرُ كانَ مُرْتَكِباً لِذاكَ الخَطَرِ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيْرَ مُرْتَقِباً لِذاكَ الظَّفَرِ، إِلَّا إِذا كانَ الخَصْمُ غافِلاً وَذاهِلاً عَنْ تَفْكِيْرِهِ، وَإِنَّهُ لائِقٌ أنْ يَكُوْنَ جَلَسَ مُتَوَقِّياً وَمُتَحَفِّظاً، وَأَنْ يَكُوْنَ مَشْغُولاً بِتَبْيِيْتِ الفِكْرِ وَتَرْتِيْبِ الأَمْرِ، مِثْلَما فَعَلَ الجَمَّالُ مَعَ الجَمَلِ، قالَ المَلِكُ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الجَمَلِ مَعَ الجَمَّالِ

قالَ الثَّعْلَبُ، أنْ رَجُلٌ جَمَّالٌ كانَ يَمْلِكُ جَمَلاً، كانَ الجَمَلُ حَمَّالَ حِمْلٍ، كُلَّ يَوْمٍ كانَ يَضَعُ على ظَهْرِهِ حِمْلَ مِلْحٍ مِنْ حَقْلِ المِلْحِ،

يَحْمِلُهُ عَلَيْهِ إلى المَدِيْنَةِ لِبَيْعِهِ، يَوْماً رَأى مُلاحَظَةً واجِبَةً لِلْجَمَلِ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وَجِهَةَ التَّخْفِيْفِ عَنْهُ دَفَعَهُ للصَّحراءِ لِيُطْلِعَ نَفَساً باخْتِيارِ النَّفْسِ، وَلِيَرْتاحَ لَحْظَةً، اِتِّفاقاً أَرْنَبٌ كانَ لَهُ مَعَهُ في سابِقِ الحالِ دالَّةٌ وَمَعْرِفَةٌ، وَصَلَ إلى هُناكَ، وَكانَتْ للاِثْنَيْنِ مُلاقاةٌ كانَتْ عَيْنُ الأَمَلِ بانْتِظارِها مُدَداً، مُلاقاةٌ جاءَتْ خارِجَةً مِنْ حِجابِ الاِنْتِظارِ، وَصارَ حاصِلاً بِرُؤْيَةِ الواحِدِ لِلآخَرِ الاِرْتِياحُ التَّامُّ مِنَ الجانِبَيْنِ، وَبِتَعَرُّفِ الأَحْوالِ أَظْهَرا أَنْواعَ التَّعَطُّفِ، قالَ الأَرْنَبُ،

رَغْمَ أَنَّكَ ما ذَكَرْتَني ما نَسِيْتُكَ أَبَداً
لي مَعَكَ وَمَعَ ذِكْرِكَ أَشْغالٌ كَثِيْرَةٌ

مِنْ ذلِكَ الوَقْتِ الَّذي حَوائِلُ الفِراقِ بِهِ جاءَتْ بالوَسَطِ، وَحَبائِلُ الوِصالِ وَصَلَتْ للاِنْقِطاعِ، وَقَعْتُ في زاوِيَةٍ عَنْ وَسَطِ جُلَساءِ أنْفاسِ الصِّدْقِ، وَفي رُكْنٍ مِنْ زَوايا الإِنْزِواءِ والوَحْشَةِ، حَيْثُ *لا مُذاكِرَ ولا أَنِيْسَ ولا مُسامِرَ ولا جَلِيْسَ*، اتَّخَذْتُ المَسْكَنَ، وَمُتَواصِلاً كانَتْ جاذِبَةُ الاِشْتِياقِ إِلَيْكَ مُحَرِّكَ سِلْسِلَةِ الخاطِرِ، وَمُثِيْرَ داعِيَةِ طَلَبِ حَلْقَةِ رَجاءِ لِقائِكَ المُبارَكِ ورُوائِكَ العَزِيْزِ، ثُمَّ نَظَرَ جَيِّداً إلى الجَمَلِ فَوَجَدَهُ عاجِزاً جِدّاً وَنَحِيْلاً وَضَعِيْفاً وَنَحِيْفاً، قالَ أَيْ أَخُ، كُنْتُ أَرى لَكَ مِنَ السِّمَنِ قالَبَ الجَبَلِ، فَمِنْ مِمْخَضَةِ حافِرِكَ كانَ دائِماً يَقْطِرُ الزَّيْتُ، وَلَمْ يَكُنْ أَدِيْمُ جِلْدِكَ مُحْتاجاً للدَّهْنِ بِأَيِّ زَيْتٍ، لَعَلَّهُ مِنْ كَثْرَةِ الطَّحِيْنِ في

العَلَفِ الَّذي كانَ يَذْهَبُ بالنُّزُولِ تَحْتَ طَواحِنِكَ وَنَواجِذَكَ كُنْتَ تُعْطي المَدَدَ لِخَميْرِ مَنْسِمِكَ، فَقَدْ كُنْتَ تَمْلِكُ الإِبْطَ مَمْلُوْءاً حَوْلَ قُرْصِ الكَلْكَلِ، بِكَتِفِ الظَّهْرِ وَمِرْآةِ الرُّكْبَةِ كُنْتَ تَقُومُ بِتَمْشِيْطِ الشَّحْمِ واللَّحْمِ، كُنْتَ ضَلِيْعاً، فَمِنْ أَضْلاعِكَ المُقَوَّسَةِ على أَرْبَعِ قَوائِمِكَ لَمْ تَكُنْ فُرْجَةُ مَفْصَلٍ خالِيَةً مِنَ السِّمَنِ، مِنْ عَرْبَدَتِكَ بالسُّكْرِ كانَ يَجِيْءُ الحَجَرُ بالأَسْنان لِلفِيَلَةِ الضَّخْمَةِ الَّتي تَقْطَعُ الزَّنْجِيْرَ، هَدِيْرُ حَنْجَرَتِكَ في الحَلْقِ كانَ يَكْسِرُ زَئِيْرَ زَمْجَرَةِ الأَسَدِ، هذا اليَوْمَ أَراكَ وَأَثَرُ قُوَّتِكَ وَنَشاطِكَ جاءَ مِنْ ذِرْوَةِ سنامِكَ إلى حَضِيْضِ التَّراجُعِ، وَخَرْزَةُ ظَهْرِكَ مِنْ شِدَّةِ ضَرْبَةِ الحَوادِثِ وَقَعَتْ بالإِنْفِتاحِ، وَمِنْ فَقْدِ الطَّاقَةِ جُرابُ حافِرِكَ أَخَذَ بِهِ الجَرَبُ، وَفي مَحَلِّ الصُّوْفِ المُزَيَّنِ والشَّعْرِ المُلَوَّنِ ذَهَبْتَ في شِعارِ سرابِيْلِ القَطِرانِ، ذِكْرى يَومَ كانَتْ بُذُورُ القِطْنِ تِلْكَ تَمْلأُ غَرارَةَ بَطْنِكَ، وَكانَتْ تُعْطي كُلَّ هذا الصُّوْفِ في الخارِجِ، ما الَّذي وَقَعَ فَأَنْتَ رَجَعْتَ كَتِلْمِيْذِ غازِلِ الرَّسَنِ تَرْجِعُ لِلْخَلْفِ، كَأَنَّما مِنْ هذا الصُّوْفِ حَلْقَةُ عُنُقِكَ كالمِغْزَلِ وَصَلَتْ لِهذا النُّحُول، صِرْتَ دُفْعَةً واحِدَةً مَسْخاً، وَقَلَمُ النَّسْخِ عَمِلَ الشَّطْبَ في جَرِيْدَةِ أَحْوالِكَ، آخَراً ما الَّذي جَرى لِمِزاجِكَ الشَّرِيْفِ وَطَبْعِكَ الكَرِيْمِ، حَتَّى جاءَ سَبَباً لِتَبَدُّلِ الحالِ وَمُوْجِباً لِزَوالِ ذاكَ الكَمالِ، قالَ الجَمَلُ، أنا أرى هذا السُّؤالَ وَهذا التَّفَقُّدَ مِنْ كَرَمِ شِيَمِكَ وَحُسْنِ شَمائِلِكَ، الآنَ عَنْ سُؤالِكَ،

سَماعٌ عَجِيْبٌ لِمَنْ يَسْتَمِعْ   حَـدِيْثٌ حَـدِيْثٌ بِهِ يَنْتَفِعْ
رَمـاني الـزَّمانُ بِأُعْـجُوْبَةٍ   تَكادُ الجِبالُ لَها تَنْصَدِعْ
بِعَـوْراءَ تَـعْثِـرُ في ذَيْلِها   وَعَذْراءَ تَأْبى على المُفْتَرِعْ
بِـواقِـعَـةٍ حِرْتُ مِنْ حُـزْنِـها   كما حارَ في الحَزْنِ عافٍ وَقِعْ

اِعْلَمْ هُوَ الجَمَّالُ بِلا رَحْمَةٍ الَّذي هُوَ صاحِبي، والَّذي أَعْطَوْهُ بِيَدِهِ زِمامَ تَسْخِيْرِي وَتَذْلِيْلي، لا شَيْءَ آخَرَ مِثْلَ نُزُولِ مَكْرُوْهٍ على ساحَةِ الأَحْوالِ وَعُدُوْلِ المِزاجِ عَنْ جادَةِ الاِعْتِدالِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ مُوْجِباتِ هذا الشَّكْلِ، لكِنْ لِمُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ كُلَّ يَوْمٍ بِحُكْمِ التَّكْلِيْفِ والتَّعْنِيْفِ مِنَ المَسافَةِ البَعِيْدَةِ مَعَ كُلِّ هذِهِ النَّحافَةِ والهُزالِ اللَّذَيْنِ تَرى، يَضَعُ حِمْلاً مِنَ المِلْحِ زائداً عَنْ مِقدارِ العادَةِ على ظَهْري، حَتَّى أَحْمِلَهُ إلى المَدِيْنَةِ، أبَداً ما مَرَّ على قَلْبِهِ أَنْ يُرِيْحَني مَرَّةً مِنْ حِمْلِ العَذابِ هذا مِنْهُ، أو أَنْ يُنْقِصَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ مِنْ هذا الضَّيْقِ وَقَيْدِ الأَثْقالِ، لا جَرَم ظَهْرُ طاقَتي بِهذِهِ الصِّفَةِ الَّتي تَرى صارَ مَكْسُوراً، قَرِيْبٌ أَنَّهُ، بِطَمَعِ طُعْمَتِهِ، يَتَّخِذُ الزَّاغُ في قَوْسِ عُنُقي مَسْكَناً، وَمِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّحْمَ عَلَيَّ لا يُمْكِنُ أنْ يُصابَ بالسَّهْمِ، يَضَعُ النَّسْرُ في مَحاجِرِ عَيْنَيَّ البَيْضَةَ، وَيَجِيْءُ الغُرابُ بِنَعِيْبِ النَّعْيِ على قَلْعَةِ قامَتي، بَعْدَ أَرْبَعِ تَكْبِيْراتٍ يُطْلِقُها على سَلامَتي، لا أَعْرِفُ أَيَّ تَدْبِيْرٍ لِدَفْعِ هذِهِ الدَّاهِيَةِ، غَيْرَ أَنْ أُسْلِمَ النَّفْسَ لِلعَمَلِ، وَأَتَعامَلُ مَعَ ما يَجِيْءُ

بِهِ الزَّمانُ، وَأَنْ أَظَلَّ جاعِلاً اليَدَ لِقِبْلَةِ الدُّعاء، وَمُرْسِلاً الأنِيْنَ والحَنِيْنَ مِنْ حنايا الصَّدْرِ لِحَضْرَةِ السَّمِيْعِ المُجِيْب، وَقائِلاً،

أَيْ قَلْبي الَّذي سَحَبَكَ الهَجْرُ بالزَّنْجِيْر   ما بَقِيَ بِيَدِكَ مِنَ التَّدْبِيْرِ إِلَّا واحِدٌ
تَدْبِيْرُكَ لَيْسَ إِلَّا بِسِهامِ وَقْتِ السَّحَرِ   حَتَّى يَصِلُ مِنْكَ لِلْهَدَفِ سَهْمٌ واحِدٌ

قالَ الأَرْنَبُ، رَغْمَ أَنَّ دَفْعَ النَّفْسِ لِيَدِ الْقَضاءِ مَحْتُومٌ، والتَّعامُلَ مَعَ عَطاءِ إِيْزَدْ في العَطاءِ والمَنْعِ هُوَ قَضِيَّةُ العَقْلِ والشَّرْعِ، إِلَّا أَنَّهُ حِيْنَ يُمْكِنُ التَّفْكِيْرُ بِدَفْعِ حادِثَةِ أَذِيَّةٍ وَعارِضَةِ بَلِيَّةٍ، لا يَجِبُ الكَوْنُ راضِياً بِذاكَ، ولا يَجِبُ المِضِيُّ للنِّهايَةِ بالتَّقاعُسِ والتَّكاسُلِ، أنا سَوْفَ أَقُوْمُ بِإِرْشادِكَ إلى حِيْلَةٍ تَكُوْنُ مُنْقِذاً لَكَ مِنْ لُجَّةِ هذا البَلاءِ الَّذي وَقَعْتَ بِهِ، لِلْجَمَلِ وَصَلَتْ مِنْ هذا الحَدِيْثِ رِيْحُ الرَّاحَةِ إلى مَشامِّ الرُّوْحِ، وَقالَ،

يا أَيُّها المَرْهَمُ لِمِئَةِ أَلْفِ مَجْرُوْحٍ   وَيا أَيُّها السُّرُوْرُ لِمِئَةِ أَلْفِ مَحْزُونْ
أنتَ الَّذي رَأْيُكَ مِنْ جَمِيْعِ الوُجُوْهِ   ما رَأى وَجْهَ ظَلامٍ رَأْيِ تَخْمِيْنْ

كُلَّ التِزامٍ عَمِلْتَ بِكَرَمِ عَهْدِكَ، جَعَلْتَ لازِمَةَ الوَفاءِ قَرِيْنَةَ ذاكَ، وَجِئْتَ خارِجاً مِنْ عُهْدَةِ الجَمِيْعِ، الآنَ فَلْتَأْمُرْ، ما تَكُوْنُ طَرِيْقَةُ التَّسَلِّي مِنْ هذِهِ المِحْنَةِ، قالَ الأَرْنَبُ تَدْبِيْرُ ذاكَ أَنَّهُ حِيْنَ تَحْمِلُ حِمْلَ المِلْحِ وَتَجِيْءُ بِهِ لِلْمَدِيْنَةِ، في مَمَرِّ عُبُوْرِكَ هُناكَ نَهْرُ ماءٍ وَأَنْتَ لا بُدَّ لَكَ مِنَ العُبُوْرِ مِنْ ذاكَ الماءِ، بِعُبُورِ الماءِ حِيْنَ تَصِلُ إلى مُنْتَصَفِ

النَّهْرِ، اِجْلِسْ بالماءِ إلى أَنْ يَذُوْبَ نِصْفُ حِمْلِ المِلْحِ، ثُمَّ بَعْدَها انْهَضْ واذْهَبْ مُرْتاحاً وَخَفِيْفاً، مِنْ بَعْدِ ذهابِكَ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ على هذِهِ القاعِدَةِ، الجَمَّالُ رَغْمَ أَنَّهُ يَنْثُرُ المِلْحِ على الجِراحَةِ، فِيْما بَعْدُ يَضَعُ عَلَيْكَ حِمْلَ المِلْحِ على قِياسِ الوُسْعِ، الجَمَلُ مِنْ بَعْدِ سَماعِ هذا الحَدِيْثِ جَلَسَ صَوْتُ دَوِيِّ النَّهْرِ في أُذُنِهِ، وَأَرادَ أَنَّهُ يَجْعَلُ الرُّكْبَةَ بالذَّهابِ قَبْلَ المَضْرَب، وَأَطْلَقَ نَشِيْداً مِنْ فَرْطِ نَشاطِ تِلْكَ الحالَةِ، وَرَقَصَ رَقْصاً لَمْ يَفْعَلْهُ بِسَماعِ حُداءِ أَيِّ حادٍ، بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي كانَتْ هادِيَ طَرِيْقِ نَجاتِهِ، أَخَذَ،

وَحَدِيْثُها كالغَيْثِ يَسْمَعُهُ　　راعي سِنِيْنَ تَتابَعَتْ جَدْبا
فَيَصِيْخُ مُسْتَمِعاً لِدِرَّتِهِ　　وَيَقُولُ مِنْ طَرَبٍ هَيا رَبَّا

في اليَوْمِ الآخَرِ، إِذْ جَلاجِلُ الكَواكِبِ انْفَتَحَتْ نازِلَةً عَنْ أَعْطافِ وَمَناكِبِ هذا الجَمَلِ الصَّعْبِ، الجَمَّالُ وَضَعَ الجُلَيْلَ على الجَمَلِ، وَأَخَذَهُ إلى حَقْلِ المِلْحِ، وَكُلُّ ما كانَ مُوْظَّفاً مِنْ حِمْلِ الجَمَلِ جَعَلَهُ عَلَيْهِ صَحِيْحاً، والجَمَلُ جاءَ بِعَزْمِ فِكْرِهِ، حَتَّى إذا وَصَلَ لِمُنْتَصَفِ النَّهْرِ، ضَرْبَةُ التَّدْبِيْرِ الَّتي كانَ أَعَدَّها أَعْمَلَها، وَبَرَكَ، يَعْني هُوَ الوَقْتُ أَنْ أَجْعَلَ الرَّوْنَقَ بِوَجْهِ العَمَلِ، وَأَرْفَعَ حِمْلَ الغَمِّ عَنِ القَلْبِ، الجَمَّالُ جاءَ بالشِّدَّةِ وَضَرَبَ الجَمَلَ بِضْعَ ضَرَباتٍ على الجَنْبِ بالعَصا، ثُمَّ بَعْدَ طُوْلِ تَوَقُّفٍ نَهَضَ مِنَ المَكانِ، هذِهِ الحالُ صارَتْ

مُكَرَّرَةً بِضْعَ مَرَّاتٍ، العِقابُ لِلْجَمَّالِ الَّذي نَهَضَ مِنْ إِيْجابِ الطَّبِيْعَةِ جاءَ بالعَمَلِ، في اليَوْمِ الآخَرِ بَدَلَ المِلْحِ جَعَلَ حِمْلَهُ مِنَ الصُّوْفِ، وَساقَهُ حَتَّى وَصَلَ بِهِ إلى النَّهْرِ، وَعلى القاعِدَةِ السَّابِقَةِ بَرَكَ في النَّهْرِ، الجَمَّالُ صارَ ساكِتاً وَأَعْمَلَ الصَّبْرَ إلى أنْ أَخَذَ الصُّوْفُ الماءَ وَصارَ الحِمْلُ ثَقِيْلاً، وَحِيْنَ عَزَمَ على النُّهُوْضِ لَمْ يَقْدِرْ، وَبَعْدَ إِعْمالِ الجُهْدِ التَّامِّ والسَّعْيِ البَلِيْغِ نَهَضَ مِنَ المَكانِ وَقَرَأَ، *وَنَحْنُ كَما كُنَّا*، وَعلاوَةً أَخَذَ زِيادَةَ حِمْلٍ على الكِفْلِ، جَعَلَ الوَجْهَ بالطَّرِيْقِ والجَمَّالُ بِمَحَلِّ الحَدْوِ المُثِيْرِ للنَّشَاطِ والشَّدْوِ المَمْزُوجِ بالطَّرَبِ، وَضَعَ هذِهِ التُّحْفَةَ على حِمْلِهِ، وَهُوَ يَقُوْلُ،

الشَّجَرَةُ الَّتي رَبَّيْتَ جاءَتْ بالثِّمارْ سَوْفَ ترى الآنَ حَمْلَها في الجِوارْ
إِنْ كانَ ثَمَرُها الشَّوْكَ أنتَ زَرَعْتْ وإِذا كانَ الحَرِيْرَ فَأنتَ غَزَلْتْ

أَيُّها الأَحْمَقُ طَوِيْلاً، وَأَيُّها الجاهِلُ أَسْوَدُ الجِلْدِ، *حَفِظْتَ شَيْئاً وَغابَتْ عَنْكَ أَشْياءُ*، تُرِيْدُ بالإِعْراضِ عَنْ حَمْلِ الحِمْلِ أَنْ تَصِيْرَ نَعامَةً، عَزَفْتَ على تِلْكَ الفِكْرَةِ النَّغَمَ، تَظُنُّ أَنَّ ذاكَ النَّغَمَ غَيْرَ المُوافِقِ بَقِيَ في الحِجاب، بَدَنُكَ في هذِهِ الفِكْرَةِ كانَ صارَ نَحِيْلاً كالحَرِيْر، أنا وَضَعْتُ عَلَيْهِ الصُّوْفَ، لِتَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ نَغَمٍ مِنَ الصُّوْفِ والحَرِيْرِ تَعْزِفُ لَنْ يَفْعَلَ الفِعْلَ، أَرَدْتَ أَنْ تُلْقِيَ بَعْضاً مِنْ حِمْلِ المِلْحِ، وَتَجْعَلَ ضائِعَةً حُقُوْقَ الخُبْزِ والمِلْحِ، لكِنْ أَنتَ سَيِّئُ البَخْتِ كُلَّ السَّنَةِ كُنْتَ

تَأْكُلُ المَخِيْضَ، وَلَمْ تَعْرِفْ طَعْمَ قِدْرِ الفِكْرِ الَّذي تَطْبُخُ، فَلِتِلْكَ القِدْرِ يَجِبُ أَلْفُ حِمْلِ حِمارٍ مِنَ المِلْحِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ العَدُوَّ أَيْضاً لا يَكُوْنُ خالِياً مِنْ فِكْرِ المُكايَدَةِ أَبَداً، وَأَمَّا رَأْيُ طَلَبِ الصُّلْحِ، والدُّخُوْلُ مِنْ بابِ التَّساهُلِ والتَّسامُحِ، وَإِرْسالُ هدايا التُّحَفِ والطُّرَفِ، فَإِنَّهُ يَقَعُ غَلَطاً، وَكُلُّ مَنْ يَفْعَلُ الابْتِداءَ بالصُّلْحِ، يَكُوْنُ جَعَلَ عَوْرَةَ النَّفْسِ ظاهِرَةً لِلْعَدُوِّ، وَجَعَلَهُ مُسَلَّطَ القَلْبِ عَلَيْهِ، وَغالِبَ اليَدِ وَقَوِيَّ الرَّأْيِ، وَصَوابُ ذاكَ يَظْهَرُ، واللهُ أَعْلَمُ، أَنْ نُرْسِلَ رَسُولاً بِغَيْرِ انْضِمامِ هَدِيَّةٍ وَلا تُحْفَةٍ، وَأَنْ يَكُونَ مِنَ النَّفْسِ ذا عِزَّةٍ وَهَيْبَةٍ، وَأَنْ نُظْهِرَ لَهُ جَمْعِيَّةَ الجَيْشِ وَوَحْدَةَ قَلْبِ العَبِيْدِ والأَحْرار، هكذا حَتَّى يُفَكِّرَ بالحَرْبِ، وَدَواعي الحَمِيَّةِ في بَواطِنِ جَيْشِكَ تَتَحَرَّكُ، حَتَّى يَأْخُذُوا ضَغِيْنَةَ وَحَفِيْظَةَ الأَعْداءِ في داخِلِ القَلْب، وَيَصِيْرَ دَمُ العَصَبِيَّةِ في أَعْصابِ الأَعْداءِ مُتَجَمِّداً، وَتَصِيْرَ نَوائِرُ الحِقْدِ والعَداوَةِ في صُدُوْرِهِمْ مُنْطَفِئَةً، وَمَرائِرُ الغَضَبِ بالانْفِصامِ مُنْتَهِيَةً، وَيَجْعَلَ ظاهِراً في طَبائِعِهِم طَلَبَ العِيافَةِ والنَّبْوَةِ عَنْ أَمْرِ الحَرْبِ، والرَّسُولُ في مَباني أَمْرِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ، وَمَسالِكِ رُسُوْمِ أولئِكَ القَوْمِ، يُحَقِّقُ حَسَناً، وَيَأْخُذُ قِياسَ مِقْدارِ الجَيْشِ، ويَعْرِفَ المُوافَقَةَ والمُنافَقَةَ مِنْ عُمُوْمِ مُتَجَنِّدَتِهِم، في طَرِيْقِ العُبُوْدِيَّةِ والوُقُوْفِ بِأَمْرِ مَصالِحِ المَلِكِ تَماماً، وَيُعْطِيْنا الخَبَرَ عَنْ شَجاعَةِ وَجَبانَةِ القَلْبِ مِنهُم، وَعَنْ مَتانَةِ وَرَكاكَةِ رَأْيِ الجَمِيْعِ، حَتَّى يَجِيْءَ تَدْبِيْرُنا على وِفْقِ مَصْلَحَةِ الحالِ، فَإِنَّهُ على

صاحِبِ الحَرْبِ أنَ يَكُوْنَ مُحْتاطاً وَيَقِظاً في ثلاثَةٍ مِنَ الأوْقاتِ، واحِدٌ مِنْها وَقْتُ النَّصْرِ والظَّفَرِ على الخَصْمِ حَتَّى لا تَحْدُثَ حَرَكَةٌ سَهْواً أوْ عَمْداً تَجْعَلُ فائِدَةَ السَّعْيِ باطِلَةً، والآخَرُ وَقْتُ الصُّلْحِ والمُسالَمَةِ حَتَّى يَتَيَسَّرَ الأَمْرُ بِأَحْسَنِ الوُجُوْهِ، وَيَبْقى لِلْخَصْمِ مَقامُ الخَوْفِ والطَّمَعِ باقِياً، الثَّالِثُ وَقْتُ التَّعَلُّلِ والتَّأَمُّلِ وَقَضاءُ الزَّمَنِ حَتَّى رُبَّما بِأَلْطَفِ الحِيَلِ آفَةُ الحَرْبِ والقِتالِ مِنَ الوَسَطِ تَصِلُ لِلْكِفايَةِ،

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجاعَةِ الشُّجْعانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّاني

ثُمَّ إِنَّهُم اخْتارُوا الذِّئْبَ الَّذي كانَ مِنْ مُجاوِرِي حَرَمِ المَحْرَمِيَّةِ، وَمُشاوِرِي سِرِّ الطَّوِيَّةِ، وَكانَ يَمْلِكُ مَقامَ الاِعْتِمادِ في عِدادِ المُقَرَّبِيْنَ، وَجَعَلُوْهُ مَنْصُوباً لِهذِهِ السِّفارَةِ، وَمَصْحُوْباً بِهَذِهِ الرِّسالَةِ، أنْ قُلْ لِشاهِ الفِيَلَةِ، إِنَّهُ غَيْرُ مَخْفِيٍّ أَنِّي هذا اليَوْمَ مَلِكُ السِّباعِ في بَسِيْطِ الأَقالِيْمِ السَّبْعَةِ، وَأَنَّ طالِبِي الحَرْبِ وَمُجَرِّبي القِتالِ وَمُمَزِّقي الصُّفُوْفِ مُظْهِرِي الفَضْلِ فِي أَقْطارِ وآفاقِ الدُّنْيا يَضْرِبُونَ المَثَلَ بِقُوَّةِ ذِراعِنا، وَمُذْ كانَتْ حِمايَةُ وَحِراسَةُ هذا البَلَدِ لَنا، لا شَخْصَ مِنْ عُظَماءِ المُلُوْكِ كاسِرِي الجَيْشِ، وَلا مِنَ المُلُوْكِ واهِبي التَّاجِ، فَكَّرَ بانْتِزاعِ هذا المَوْطِنِ مِنْ يَدِنا، أو صارَ مَشْغُولاً بِنَزْعِ أَواخي هذِهِ الدَّوْلَةِ، وَقَطْعِ أَواصِرِ هذِهِ المَمْلَكَةِ، وَأنا كذلِكَ لَمْ أُلَوِّثْ ثَوْبي بالطَّمَعِ بِغُبارِ عَتَبَةِ أَيِّ بَيْتٍ مِنَ البُيُوْتِ الكَرِيْمَةِ والقَدِيْمَةِ الَّتي تَمْلِكُ البُنْيانَ على التَّأَثُّلِ

والتَّأَصُّلِ، وَسَحَبْتُ يَدَ التَّطاوُلِ والتَّصاوُلِ عَنِ البَعِيْدِ والقَرِيْب، وَعامَلْتُ الغَرِيْبَ بالمُلاطَفَةِ والمُساعَدَةِ مُعامَلَةَ الصَّدِيْق، وَأَوْصَلْتُ المَعارِفَ بِرَوابِطِ الأُلْفَةِ وَضَوابِطِ حُقُوْقِ الصُّحْبَةِ إلى مَقامِ النَّفْسِ، لا جَرَمَ مَلَكْتُ بَرَكَةَ هذا المَسْلَكِ المُنْتَخَبِ والرُّسُومِ المَرْضِيَّةِ، بِحِفْظِ النَّفْسِ وَأَداءِ شُكْرِ الخالِقِ الَّذي كانَ مُزِيْدَ نِعْمَةٍ واصِلَةٍ إِلَيْنا، حَتَّى أنَّ شَمْسَ دَوْلَتِنا كَانَتْ تَقُوْمُ بالتَّرَقِّي بالإرْتِفاعِ كُلَّ يَوْمٍ دَرَجَةً أُخْرى جَدِيْدَةً، وانْتَهَتْ بِأَعْلى مَراقي المُرادِ، وَبَقِيَتْ هذِهِ الأَحْوالِ بالسِّلْكِ مَنْظُوْمَةً، وَغُرَّةُ هذا الإقْبالِ مِنْ ضَرْبَةِ عَيْنِ الحَوادِثِ مَعْصُوْمَةً، وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّأْيَ المُنِيْرَ لِلشَّاهِ، عَنْ جُمْلَةِ ذاكَ، أَكْثَرُ ضِياءً مِنْ أَنْ يَكُوْنَ مُحْتاجاً للتَّقْرِيْر، اليَوْمَ أَنْتَ نَهَضْتَ بِعَزْمِ مُزاحَمَتِنا، وَجَعَلْتَ الهِمَّةَ على حَرْبِنا وَمُناهَضَتِنا، وَجَعَلْتَ جائِزاً قَصْدَ مَنْزِلِنا الَّذي هُوَ مَقْصَدُ العُفاةِ وَمَنْجاةُ الجُناةِ وَمَلْجَأُ المُشَرَّدِيْنَ مِنَ الأَيَّامِ، وَمَطْلَبُ الوالِهِيْنَ بِلا سُكُوْنٍ، *أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيْدٌ*، أَلَمْ يَكُنْ واحِدٌ في كُلِّ دَوْلَةِ ذاكَ الوَطَنِ مِنْ جُمْلَةِ المُشِيْرِيْنَ المُشْفِقِيْنَ والمُنْهِيْنَ الصَّادِقِيْنَ مُدْرِكاً لِكَيْفِيَّةِ الحالِ، وَواقِفاً على أُمُوْرِ هذا الجانِبِ الجَلِيَّةِ، لِيُعْطِيَ الإعْلامَ أَنْ كَيْفَ بُنِيَ أَساسُ بَيْتِنا على تَرْبِيَةِ العَدْلِ وَرِعايَةِ الرَّعِيَةِ وَتَزْيِيْنِ الجَيْشِ، وَكَيْفَ وَصَلَ هذا العِقْدُ بالنِّظامِ وَهَذا العَقْدُ بالإبْرامِ بالزَّمانِ الطَّوِيْلِ، وَأَعِدِ القَوْلَ لَهُ، أَنْ جَيْشُنا وَرَعايانا وَأَفْرادُ حَشَمِنا مِنْ عَوامِّ وَخَواصِّ الخَدَمِ جَمِيْعاً أَهْلُ وَفاءٍ وَأَهْلُ حِفاظٍ وَمُحِبُّونَ لِلْمَخْدُوْمِ، وَأَباً

عَنْ جِدٍّ ما رَأوا وَما عَرَفُوا إِلَّا طَرِيْقَ وَرَسْمَ الطَّاعَةِ لَنا وَإِنْفاذَ أَمْرِنا، لا بُدَّ أَنَّهُمْ بالوَقْتِ الَّذي يَقَعُ بِهِ ذلِكَ الأَمْرُ، والعَدُوُّ يَدْخُلُ بِبابِ البَيْتِ، لا يَسْلُكُونَ إِلَّا طَرِيْقَ التَّضْحِيَةِ بالرُّوْحِ، ولا يَمْلِكُونَ إِلَّا الطَّاعَةَ الخالِصَةَ، وما بَقِيَ لَهُمْ رَمَقٌ مِنَ الرُّوْحِ باقِياً، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضَعُوا على النَّفْس رَقَمَ التَّقْصِيْرِ في بَذْلِ المَجْهُوْدِ، في الجُمْلَةِ إذا أَرْجَعْتَ كَواكِبَ هذِهِ الهِمَّةِ عَنْ نَظَرِ العَداوَةِ، وَقَرَأْتَ، *والرُّجُوْعُ إلى الحَقِّ أَولى*، وَسَحَبْتَ مَرْكَبَ العَزِيْمَةِ عَنْ طَرِيْقِ التَّمادي، في مَقامِ العِنانِ هذا بِعَيْنِهِ، وَأَطْفَأْتَ بِماءِ المَصْلَحَةِ النَّارَ الَّتي أَخَذَتْ بالعُلُوِّ مِنْ فَوَرانِ هَوى الطَّبِيْعَةِ، تَكُوْنُ مَمْدُوحاً وَمُجَرِّباً لِلْحِكْمَةِ وَعامِلاً بِأَمْرِ الشَّرِيْعَةِ الَّذي يَقُوْلُ، *وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَها*، حَتَّى فِيْما بَعْدُ طَرِيْقُ المُخالَطَةِ يَجِيْءُ مَفْتُوحاً، وَبِساطُ المُباسَطَةِ يَصِيْرُ مُمْهَّداً، وَمادَّةُ المَوَدَّةِ مِنَ الجانِبَيْنِ تَأْخُذُ الاِسْتِحْكامَ، وَبُنْيانُ ذاتِ البَيْنِ يَقْبَلُ تَأَكُّدَ الصَّلاحِ، وَمَعَ كُلِّ هذا قُرْعَةُ الاِخْتِيارِ بِيَدِ مُرادِكَ، أنا مِنْ وَجْهِ عَقِيْدَةِ الدِّيْنِ في هذا البابِ وَصَلْتُ بِنَصِيْبِ النَّصِيْحَةِ، وَنَقَلْتُ الأَمْرَ للرَّأْيِ المُصِيْبِ لِلْمَلِكِ،

لا يَجِبُ مِنْ حَدِيْثي المَرْغُوْبِ هذا　　أَنْ يَحْمِلَ الجَمْعُ الظَّنَّ بالوَهَنْ
أَنا لا أَقُوْلُ هذا إِلَّا مِنَ المَحَبَّةِ　　أنا بِهذا باحِثٌ عَنِ الخِتامِ الحَسَنْ

الذِّئْبُ ذَهَبَ، وَأَوْصَلَ هذِهِ الرِّسالَةَ كما كانَ سَمِعَ لِمَحَلِّ الأداء، ظَهَرَتْ مِنْ شاهِ الفِيلَةِ مِنَ الإِسْتِماعِ لِهذا الحَدِيْثِ دلائِلُ الْتِماعِ الغَضَبِ في الجَبِيْنِ، وبالإِضْطِرابِ والكَبِدِ المُلْتَهِبِ مِنْ شُعْلَةِ الحِقْدِ فَصَلَ زِمامَ تَوَحُّشِ الطَّبِيْعَةِ، وَأَفْلَتَ عِنانَ التَّمالُكِ مِنَ اليَدِ، وَفي ذلِكَ المَجْلِسِ عَيْنِهِ اختارَ واحِداً مِنْ سُفَهاءِ السُّفَراءِ عُقِدَتْ في جَبِيْنِهِ الوَقاحَةُ، وَسُلِبَتْ مِنْ وَجْهِهِ الصَّباحَةُ، مَوْصُوفاً وَمَعْرُوْفاً بالمَقالِ الغَلِيْظِ والطَّبْعِ السَّيِّئِ وَعَدَمِ الحَياءِ وَقِلَّةِ الشَّرَفِ، مِنْ زُمْرَةِ أولئِكَ الَّذِيْنَ يُقالُ عَنْهُمْ شِدادٌ غِلاظٌ، *كلامُهُمْ شَرَرٌ وَأَنْفاسُهُمْ شُواظٌ*، طَلَبَهُ أَمامَهُ وَقالَ لَهُ اذْهَبْ لِلأَسَدِ واحْمِلْ لَهُ مِنِّي الجَوابَ وَقُلْ لَهُ، أنْ أَنْتَ في مَعْرَكَةِ الرِّجالِ حَيْثُ سُقاةُ الأَجَلِ يُعْطُوْنَ الشَّرابَ مِنَ الدَّمِ بالكَأْسِ مِنْ رُؤوسِ الشُّجْعانِ، وَرِجالُ الأَمْرِ يَعْمَلُوْنَ الكَبابَ مِنْ قَلْبِ الأُسُوْدِ على نارِ السَّيْفِ، لَمْ تَذُقْ جُرْعَةً واحِدَةً، أَيُّ خَبَرٍ لَكَ عَنْ صَدْمَةِ قَدَمِ الفِيْلِ،

ما هاجَ نَشْوِيَ أَنِّيْ مُسْتَطِيْبُ صَباً   بَلْ ناشِقٌ لِنَسِيْمِ العِزِّ مُرْتاحُ
أُخاطِرُ الهَوْلَ مَأْنُوْساً بِغَمْرَتِهِ   كما تَمازَجَ صَفْوُ الماءِ والرَّاحُ
هَلْ شارِبُ الخَمْرِ إِلَّا كُلُّ ذِي خَبَلٍ   خَمْرِي دَمُ القِرْنِ والهاماتُ أَقْداحُ

رَغْمَ أَنَّهُ لا إِفاقَةَ مِنْ سُكْرِ الحَماقَةِ، اسْتَيْقِظْ، وارْفَعْ غِشاوَةَ الغَباوَةِ والغُرُوْرِ والشَّقْوَةِ وَسُوْءِ المَسْلَكِ مِنْ أَمامِ عَيْنِ القَلْبِ، وَأَسْرِعْ قَبْلَ فَواتِ

الإمْكانِ لِتَدارُكِ الأَمْرِ الَّذي لَمْ يَقَعْ بَعْدُ، ولا تُلْقِ الجَيْشَ الَّذي أَفْرادُهُ جَمِيْعاً بَيادِقُ رُقْعَةِ مُطارَدَتِنا تَحْتَ قَدَمِ الفِيْلِ، واجْعَلْ دائِماً أَمامَ الخاطِرِ، *لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُوْدُهُ*، واعْلَمْ أَنَّهُ ما أُثِيْرَتْ أَمْثالُ صُوْرَتِنا مِنْ مَرْسَمِ بَيْتِ الفِطْرَةِ، وَما سُكِبَتْ جُثَّةُ أَيِّ ذي رُوْحٍ في قالَبِ مِثالِ الخَلْقِ مِثْلَنا، لكِنَّا نَعْرِفُ عَمَلَ الجَمْعِ بَيْنَ أَسْبابِ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، وَأَنْ نَجْمَعَ أَوانِسَ الأُلْفَةِ مَعَ شَوارِدِ الوَحْشَةِ في سِلْكِ التَّأْلِيْفِ مَعاً، وَأَنْ نَجْعَلَ مِنْ فَيْضِ الرَّحْمَةِ وَصَبِّ العَذابِ جَمْعاً لِصاحِبِ النَّصِيْبِ، حَتَّى نَجْعَلَ الْجَماعَةَ الَّتي نَفَرَتْ مِنْ مَهابَةِ مَنْظَرِنا تَصِيْرُ وادِعَةً بِلَطافَةِ مَخْبَرِنا، ونَجْعَلَ الجَمْعَ الَّذي أَلْقَتْهُ مُفَرَّقاً عَنْ بَعْضِهِ صَلابَتُنا، مُجْتَمِعاً بِلِيْنِ مَقالَتِنا وَرِفْقِ اسْتِمالَتِنا، وَنَكُوْنُ قَدْ جَعَلْنا مَفْتُوْحَةً أَبْوابَ الخَوْفِ والطَّمَعِ لِلْمُنافِقِ والمُوافِقِ، وَجَعَلْنا مُعَدَّةً أَسْبابَ الخَوْفِ والرَّجاءِ لِلْمُوالي والمُعادِي، فَإِنَّ أَساسَ مَسْكَنِكُمْ، وَإِنْ كانَ قَدِيْماً، لا يَمْلِكُ الثَّباتَ مَعَ عَواصِفِ حَمْلَتِنا، وَظَهْرُ تِلْكَ الدَّوْلَةِ، وَإِنْ كانَ قَوِيَّاً وَقَوِيْماً، لا يَمْلِكُ طاقَةَ أَذِيَّتِنا،

إِذا الهامُ حارَبْنَ البُزاةَ تَقَطَّعَتْ لَها شَرَجُ الأَسْتاهِ مِنْ شِدَّةِ الحَمْلِ

عَرْصَةُ تِلْكَ المَمالِكِ وَإِنْ كانَ لا يَمْسَحُها ذِراعُ وَباعُ الأَوْهامِ، بِيَوْمِ عَرْضِ أَتْباعِنا تَظْهَرُ ضَيِّقَةَ المَجالِ، دَعْوى اسْتِظْهارِكُمْ وَإِنْ كانَتْ

مِنَ النَّاطِقِ والصَّامِتِ، في جَوابِنا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ جَمِيْعاً بِصَمْتِ الحُوْتِ،

الكَوْنُ بالصَّمْتِ فَرِيْضَةٌ على الصَّعْوَةِ   إذا كانَ مِنْ حَوْلِها الثُّعْبانُ يَجِيْش

إذا كُنْتَ لا تُرِيْدُ إضاعَةَ الوَقْتِ بإِنْفاذِ الكُتُبِ وَإِظْهارِ الكَتائِبِ، وَتُرِيْدُ أَنْ تَكُوْنَ لَنا العَبْدَ المُكاتَبَ، مِنْ بَعْدِ أَنْ تَحْمِلَ كِتابَةَ رَقَمِ تَحْرِيْرِنا على الرَّقَبَةِ، بِمِقْدارِ ما تُسْرِعُ بِوَضْعِ رِبْقَةِ الطَّاعَةِ لَنا بالعُنُقِ، حَتَّى باكْتِسابِ خِدْمَتِنا تُرْجِعَ مُسَجَّلَةً المَمالِكَ المَوْرُوْثَةَ، وَمِنْ حَوادِثِ الأَيَّامِ تَكُوْنُ مَحْمِيَّاً في ضَمانِنا، وَبِحُسْنِ عاطِفَتِنا مُنْتَمِياً، وَتُعْطِي الظَّهْرَ لِجِدارِ الفَراغَةِ، وَإِلَّا فَإِنِّي ساحِبٌ هذا الجَيْشَ الثَّقِيْلَ، والجُنْدَ بِلا حُدُوْدٍ إلى تِلْكَ الحُدُوْدِ، وَبِزَلْزَلَةِ حَوافِرِ أَبْدانٍ كالجِبالِ أُطْلِعُ الغُبارَ مِنْ أَساسِ ذاكَ المُلْكِ، وَعلى صَوْتِ مَعاوِلِ السَّواعِدِ أَجْعَلُ الأَبْوابَ والجُدْرانَ مِنْهُ حَضِيْضاً، فَفِي وَداعِ ساحَةِ ذاكَ، نَوْحَةُ غُرابِ البَيْنِ بِيُسْرٍ تَصِلُ لِأُذُنِ نَسْرَيِ السَّماءِ،

أَضْغطُ بِقِتالِكَ على القَدَمِ هكذا   فالفَلَكُ الدَّائِرُ يَخْرُجُ مِنَ المَكان

أَجْعَلُ كُلَّ دِيارِكَ وَبِلادِكَ خَراباً   أَجْعَلُ مِنْها مَرْتَعاً لِلأُسُوْدِ والفُهُوْدِ

المُرْسَلُ جاءَ إلى جِوارِ مَلِكِ الأُسُوْدِ، وَنَقَلَ ذاكَ الَّذي حُمِّلَ لِلأَسَدِ، بِتِلْكَ الكِسْوَةِ مِنَ التَّهْدِيْدِ والتَّهْوِيْلِ الَّتي كانَ سَمِعَ، وَجاءَ بِأَراقِمِ الشَّرِّ وَضَراغِمِ الفِتْنَةِ مُتَحَرِّكَةً، وَحَرَّكَ لِلأَسَدِ زَنْجِيْرَ السُّكُونِ، الأَسَدُ

اضْطَرَبَ بِشِدَّةٍ وَفي اللَّحْظَةِ ذاتِها أَحْضَرَ الثَّعْلَبَ وَقالَ لَهُ مِنْ طَرِيْقِ المُشاوَرَةِ، أَيْ طَبِيْبُ صاحِبُ التَّجْرِبَةِ والحِنْكَةِ، الَّذي عَرِفْتَ عِلَّةَ الأُمُورِ، وَعَمِلْتَ مُعالَجَةَ كُلِّ أَمْرٍ على نَهْجِ الصَّواب، وَفي مُداواةِ المُعْضِلاتِ، وَحَلِّ عُقُوْدِ المُشْكِلاتِ، على قانُوْنٍ، عَمَلَ مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ، مَعَ جَمِيْعِ إِخْوانِ الصَّفاءِ والأَحِبَّاءِ ذَهَبْتَ بالوَفاء، ما يَكُوْنُ جَوابُ الفِيْلِ، وَما هُوَ الطَّرِيْقُ الأَفْضَلُ مِنَ المُوافَقَةِ والمُرافَقَةِ والمُهادَنَةِ والمُداهَنَةِ، الَّذي يَجِبُ أَخْذُهُ باليَد، قالَ الثَّعْلَبُ، اِعْلَمْ أَنَّ كلامَ مَلِكِ الفِيَلَةِ على هذا النَّمْطِ الَّذي يَسُوْقُ، دَلِيْلٌ واضِحٌ على ظُلْمَةِ الرَّأْيِ والرَّوِيَّةِ، وَحَيْرَةِ البَصَرِ والبَصِيْرَةِ، فَإِنَّهُ ما مِنْ عاقِلٍ جَعَلَ تَكِيَّةَ الاِعْتَمادِ على حَوْلِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ، وَقالُوا ثَلاثَةُ أَشْياءٍ مَهما تَكُنْ حَقِيْرَةً لا يَجِبُ اسْتِحْقارُها، المَرَضُ والقَرْضُ والعَدُوُّ، المَرَضُ رَغْمَ أَنَّهُ يَبْدُو سَهْلاً في البِدايَةِ، إذا جَرى الإِهْمالُ في مُداواةِ ذاكَ صارَ مُزْمِناً، والقَرْضُ وَإِنْ كانَ قَلِيْلاً فَإِنَّهُ إذا صارَ مُتَراكِماً فَإِنَّ المُكْنَةَ عَنْ أَداءِ ذاكَ تَصِيْرُ قاصِرَةً كَثِيْراً، والعَدُوُّ وَإِنْ كانَ صَغِيْراً فإِنَّ اسْتِصْغارَهُ واعْتِبارَهُ مَهِيْناً زِيادَةً عَنِ الحَدِّ، مُقاوَمَتُهُ لا تَأْخُذُ الصُّوْرَةَ أَخِيْراً، أنتَ لا تَجْرَعِ الغَمَّ فالغَيْرَةُ الإِلهِيَّةُ كُلَّ لَحْظَةٍ تَعْمَلُ الغارَةَ على فِكْرِ بَغْيِ الفِيْل، وَتَجْعَلُ القَضِيَّةَ الَّتي أَلْقاها مَعْكُوْسَةً، ورايَةَ مُرادِهِ مَنْكُوْسَةً، *والبَغْيُ آخِرُ مُدَّةِ القَوْمِ*، واعْلَمْ أَنَّ ضَخامَةَ الهَيْكَلِ وَفَخامَةَ الجُثَّةِ إِذا صارا زائِدَيْنِ عَنْ حَدِّ النَّفْسِ، عِنْدَ الهَرَبِ والفِرارِ مِنَ الأَمْرِ،

صاحِبُهُما يَعْجَزُ، والحَدِيْثُ عَنْ كَثْرَةِ الجَيْشِ وَجَمْعِ الحَشْرِ الَّذي يَظْهَرُ بِهِ مُسْتَنْصِراً، وَعلَيْهِ مُتَوَكِّلاً، إِذا وَصَلَ لَنا المَدَدُ مِنْ عَوْنِ إِيْزَد، عُدَدُهُمْ تِلْكَ كُلُّها لا تَجِيْءُ شَيْئاً في عِدادِ الأَعْدادِ،

وَما لَكَ تَعْنى بالأَسِنَّةِ والقَنا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنانِ

وَعَنْ كَثْرَةِ مِقْدارِهِمْ لا يَجِبُ أَنْ تُفَكِّرَ، فَإِنَّ الشُّجْعانَ المُجرِّبِيْنَ قالُوا، أَنْ فَكِّرْ بِتَظاهُرِ الأَعْداءِ لا بِكَثْرَةِ عَدَدِهِم، أَنْتَ فَكُنْ ثابِتَ القَدَمِ وَقَوِيَّ القَلْبِ، واجْعَلِ النِّيَّةَ والطَّوِيَّةَ مُنْطَوِيَتَيْنِ على العَدْلِ والرَّحْمَةِ، وَكُنْ بِفَرْطِ المُجامَلَةِ وَحُسْنِ المُعامَلَةِ مَعَ خَلْقِ اللهِ وَجْهاً واحِداً، واجْعَلْ قَوانِيْنَ أَمْرِ الشَّرْعِ وَمَسْلَكَ الخُضُوْعِ لِأَمْرِ الحَقِّ زِيْنَةَ أَعْمالِكَ، حَتَّى مِنْ عالَمِ الغَيْبِ يُرْسِلُونَ لَكَ سَرايا النُّصْرَةِ وَيَجْعَلُونَ لَكَ تَأْيِيْدَ الوِلايَةِ بِلا أَجْرٍ، وَتَصِيْرُ أَفْواجُ الفَتْحِ والظَّفَرِ لِجَيْشِكَ مُتَواصِلَةً، وَيَجِيْءُ مُنْزَلاً بِشَأْنِكَ، *وَأَنْزَلَ جُنُوْداً لَمْ تَرَوْها*، وَما دامَ الأَمْرُ وَصَلَ إِلى هُنا، يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَجْعَلَ الوَجْهَ بالعَمَلِ، بالعَزْمِ الثَّاقِبِ والرَّأْيِ الصَّائِبِ، وَيَجِبُ التَّفْكِيْرُ بِتَدْبِيْرِ الدَّفْعِ بِاللُّطْفِ، فَكَثِيْرُونَ كانُوا حُقَراءَ وَسَعَوا في الأُمُوْرِ الخَطِيْرَةِ مَعَ الخُصُوْمِ الكُبَراء، وَوَجَدُوا الظَّفَرَ وَأَطْلَعُوا المُرادَ، كما وَقَعَ لِذاكَ الفَأْرِ سارِقِ البَيْضَةِ مَعَ سَيِّدِ البَيْتِ ذاكَ، قالَ الأَسَدُ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الفَأْرِ سارِقِ البَيْضَةِ مَعَ رَبِّ البَيْتِ

قالَ الثَّعْلَبُ سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ صاحِبُ بَيْتٍ دَرْوِيْشٌ وَضَيِّقُ الحالِ وَغَيْرُ مُوْفَّقٍ، وَكانَتِ الفَظاظَةُ في الطَّبْعِ غالِبَةً عَلَيْهِ، كانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مُزَيَّنَةٌ بالعِفَّةِ والرَّزانَةِ وَأَنْواعِ الدِّيانَةِ، كانا يَمْلِكانِ زَوْجاً مِنْ طُيُورِ الدَّجاجِ في البَيْتِ يَبِيْضُ، وَكانَ فَأْرٌ قَدِ اتَّخَذَ مَسْكِناً في زاوِيَةِ البَيْتِ، كانَ سَرَّاقاً مُحْكَماً نَقَّاباً نَهَّاباً أَفَّاكاً غَيْرَ هَيَّابٍ، قَطَّعَ كَثِيْراً مِنْ حِبالِ الحِيَلِ، وَسَرَقَ كَثِيْراً مِنْ حَبِّ المُتَرَبِّصِيْنَ طَوِيْلي الأَمَلِ، كَمْ مِنْ سُفَرِ الأَدْنِياءِ نَثَر، وَكَمْ مِنْ طَعامِ اللُّؤَماءِ أَكَلَ، في كُلِّ مَرَّةٍ كانَتْ تَضَعُ الطُّيُوْرُ بَيْضَةً، كانَ ذاكَ الفَأْرُ يَسْرِقُها، وَيَجْلِبُها مِنْ طَرِيقٍ اعْتادَ عَلَيْهِ لِلثُّقْبِ، الرَّجُلُ حَمَلَ الظَّنَّ على أَنَّ المَرْأَةَ تَتَصَرَّفُ بِذاكَ بالخِيانَةِ، فَتَحَ اليَدَ بالضَّرْبِ بالعَصا، واللِّسانَ بالكَلِماتِ المُوْحِشَةِ، والمُنْكَراتِ المُفْحِشَةِ، وَكُلُّ ما أَظْهَرَتِ المَرْأَةُ مِنَ المُبالَغَةِ في بَراءَةِ ساحَةِ النَّفْسِ لَمْ يُجْدِ نَفْعاً، حَتَّى في يَوْمٍ نَظَرَتِ المَرْأَةُ فَرَأَتِ الفَأْرَ يَسْحَبُ البَيْضَةَ فَذَهَبَتْ وَأَطْلَعَتِ الزَّوْجَ على تِلْكَ الحالِ، حِيْنَ جاءَ الاِثْنانِ للنَّظَرِ لِلْفَأْرِ كانَ الفَأْرُ قَدْ وَصَلَ لِثُقْبِ الجُحْرِ، وَسَحَبَ البَيْضَةَ بالتَّعْجِيْلِ، الزَّوْجُ مِنْ مُشاهَدَةِ تِلْكَ الحالِ صارَ نادِماً تَماماً على عِقابِ المَرْأَةِ، في السَّاعَةِ وَضَعَ شَبَكَةً على مَعْبَرِ الفَأْرِ، في اللَّيْلَةِ الأُخْرى وَصَلَ فَأْرٌ ضَيْفاً على فَأْرِ البَيْتِ، تناولا تِلْكَ البَيْضَةَ

مَعاً، وَفِي اللَّيْلِ كانا في ذلِكَ التَّدْبِيْرِ أَنْ مَعَ الفَجْرِ كَيْفَ سَيَسْلَّبانِ تِلْكَ البَيْضَةَ الأُخرى، في الفِجْرِ حِيْنَ بَياضُ الصُّبْحِ صارَ ظاهِراً مِنْ نِصْفِ بَيْضَةِ الأُفُقِ، وَسَكَبَ الأَشِعَّةَ الصَّفْراءَ على أَطْرافِ العالَمِ، كِلا الاِثْنَيْنِ بِطَمَعِ البَيْضَةِ عَمِلا قَصْدَ عُشِّ الدَّجاج، سَعِدَ ذاكَ الشَّخْصُ الَّذي لا يَجْعَلُ طائِرَ فِكْرِهِ على بَيْضَةِ الطَّمَعِ، وَلَو كانَتْ مِنَ الذَّهَبِ أوِ الفِضَّةِ، ولا يَضَعُ نَقْشَ بَياضِ وَصُفْرَةِ تِلْكَ البَيْضَةِ على بَياضِ العَيْنِ وَسَوادِ القَلْبِ، وَإِذا أَظْهَرَتِ الوَجْهَ مِنْ حِجابِ الخِداعِ يَجْعَلُ كُمَّ الاِسْتِنْكافِ على الوَجْهِ، *يا بَيْضاءُ ابْيَضِّي وَيا صَفْراءُ اصْفَرِّي وَيا غَبْراءُ اغْبَرِّي*، اَلْقِصَّةُ، الفَأْرُ الضَّيْفُ مِنْ غايَةِ الحِرْصِ أَظْهَرَ المُبادَرَةَ، وَتَقَدَّمَ بالقَدَمِ للأمامِ، وَمَدَّ اليَدَ لِلْبَيْضَةِ لِيَأْخُذَها، وَقَعَتِ الشِّباكُ بِرَأْسِهِ، والرَّجُلُ صاحِبُ البَيْتِ أَمْسَكَهُ وَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ، وَجَعَلَهُ هَلاكاً،

إِذا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتى فَأَكْثَرُ ما يَجْني عَلَيْهِ اجْتِهادُهُ

الفَأْرُ سارِقُ البَيْضِ مِنْ إِصابَةِ هذِهِ الواقِعَةِ صارَ بِغايَةِ وَجَعِ القَلْبِ وَتَشَتُّتِ الخاطِرِ، حِفاظُ صُحْبَةِ الضَّيْفِ جاءَ حامِلاً لَهُ لِمُجازاةِ شَرِّ صاحِبِ البَيْتِ، فَكَّرَ أَنْ إِذا أنا أَرَدْتُ أَنْ أَعْمَلَ الاِنْتِقامَ باسْتِقْلالِ النَّفْسِ، وَأَنْ أَضَعَ القَدَمَ على مَزَلَّةِ هذا الاِقْتِحام، لا أَقْدِرُ، وَأَصِيْرُ عِنْدَ العُقَلاءِ مَلُوْماً وَمُعاتَباً، وَلكِنْ لِي مَعَ العَقْرَبِ الفُلانِيِّ صَداقَةٌ

قَدِيْمَةٌ، جَبْرُ هذا الكَسْرِ الَّذي وَصَلَ إلى قَلْبي، وَقَصاصُ هذا الجُرْحِ الَّذي لَحِقَ بِخاطِرِي، إِلَّا بِعَوْنِ قُدْرَتِهِ لا يُمْكِنُ لِي، أنا أَقْدِرُ أَنْ أَعْمَلَ رِمايَةَ هذِهِ الفِكْرَةِ عَنْ قَوْسِ كِفايَةِ العَقْرَبِ، وَإِلَّا بِمِيْزانِ إِمْعانِهِ لا تَجِيْءُ مُوازَنَةُ هذا النَّظَرِ صَحِيْحَةً، إِنِّي أَرى تِرْياقَ هذا الأَلَمِ مُعَبَّأً في سُمِّهِ، وَمَرارَةَ هذِهِ الغُصَّةِ تَصِيْرُ شَهْداً بِشُرْبَةٍ مِنْ لُعابِهِ الَّذي يَجِيْءُ مِنْ رَأْسِ إِبْرَتِهِ، وإِلَّا بِوُجُوْدِ أَصْلِ سَعْيِهِ لا يُمْكِنُ عَمَلُ العَجِيْنِ لِهذا العَمَلِ، مُداواةُ هذِهِ العِلَّةِ تَجِيْءُ نافِعَةً وَناجِعَةً بِمَعْجُوْنِ العَقْرَبِ،

فَأَسْلَمَني للنَّائِباتِ بِعادُهُ   كما أَسْلَمَ العَظْمَ المَهِيْضَ جَبائِرُهْ

ثُمَّ عَمِلَ قَصْدَ رُؤْيَةِ العَقْرَبِ، وَحِيْنَ وَصَلَ إِلَيْهِ، ذَهَبَ أَمامَهُ بِأَنْواعِ الخِدْمَةِ والاِتِّضاعِ، وَإِظْهارِ الاِشْتِياقِ والنِّزاعِ، وَأَعادَ قَوْلَ حِكايَةِ حالِ الضَّيْفِ الَّذي وَجَدَ الهَلاكَ عَنْ يَدِ صاحِبِ البَيْتِ، وَأَعْطى الشَّرْحَ، أَنْ أَيُّ تَأَثُّرٍ وَتَحَسُّرٍ حاصِلٌ لِي بِوَفاتِهِ وَفَواتِ سَعادَةِ الأُلْفَةِ الَّتي كانَتْ مُؤَكَّدَةً بَيْني وَبَيْنَهُ، وَقالَ، أَيْ أَخُ، هذا اليَوْمَ مَهْما قُمْتُ بالنَّظَرِ، مِنْ جَمِيْعِ الأَصْحابِ الفاعِلِيْنَ، مِنْ أَجْلِ الأَصْدِقاءِ المَنْكُوْبِيْنَ، أراكَ أَنْتَ الَّذي مِنْهُ يُمْكِنُ نَيْلُ المُساعَدَةِ، وَتُرْجى المُعاوَنَةُ، وَأَنتَ الَّذي تَوَقُّعُ المُوافَقَةِ في تَدارُكِ مِثْلِ هذِهِ الوَقائِعِ مُمْكِنٌ مِنْ مَخائِلِ حُسْنِ شَمائِلِهِ، بِحَمْدِ اللهِ أنتَ على الدَّوامِ بِإِقامَةِ رُسُوْمِ المَكارِمِ كُنْتَ عاقِداً على الوَسَطِ، وَقَدْ أَعْدَدْتَ جُعْبَةَ الحَمِيَّةِ بِحِمايَةِ الأَصْدِقاءِ مَمْلُوْءَةً بِسِهامِ

الجَفاءِ لِلأَعْداء، إذا هذا اليَوْمَ مَعي قُمْتَ بِتَجْدِيْدِ قاعِدَةِ تَرِبِيَةِ الأَصْدِقاءِ وَكَسْرِ الأَعْداءِ، الَّتي هِيَ لَكَ عادَةٌ، وَوَضَعْتَ قَدَمَ الجُرْأَةِ لِلأمام، بِفِكْرِ الاِقْتِصاصِ، وَأَخَذْتَ مِنْهُ حَقَّ ذاكَ المَظْلُوْمِ المَرْحُوْمِ، وَبِأَشافي فُضُلاتِكَ جَعَلْتَ حاصِلاً التَّشَفِّيَ لِهَذِهِ المُصِيْبَةِ الواصِلَةِ، وَبِأَسَلاتِ رَأْسِ إِبْرَتِكَ طَلَبْتَ التَّسَلِّيَ لِهذا المَصْدُومِ بالفِراقِ، يَكُوْنُ لائِقاً وَمُزَيِّناً لِجُمْلَةِ الحَسَناتِ، أَنْ يُتَّخَذَ مِنْ ذاكَ تارِيْخٌ للزَّمَنِ، قالَ العَقْرَبُ، مَهْما يَكُنْ كالمَرِّيْخِ كُلُّ بَدَنِ الغَضَبِ جاءَ بِمَنْزِلِكَ، كُنْ مُطْمَئِنَّاً، رَغْمَ أَنَّ مِرْآةَ قَلْبِكَ العَزِيْزِ مِنْ آهِ الحُزْنِ صارَ عَلَيْها الصَّدَأُ، وَفِلْذَةُ كَبِدِكَ بِحُرْقَةِ نارِ الفُرْقَةِ هذِهِ جُعِلَتِ الكَباب،

أنا جَلَسْتُ حِيْنَ وَصَلَ الأَمْرُ لِلاِعْتِبار
على النَّارِ كالكَبابِ وَعلى السَّيْفِ كالزَّنْجار

عِنْدي الأَمَلُ أَنِّي سَأَعْمَلُ الحِيْلَةَ للطَّلَبِ بِدَمِ ذاكَ المِسْكِيْن، وَأُظْهِرُ بِإِدْراكِ ثَأْرِهِ آثارَ غَلَبَةِ النَّفْسِ لِزُمْرَةِ الأَصْحابِ وَرُفْقَةِ الأَصْدِقاءِ، وَأَجِيْءُ في هذا البابِ بِتَقْدِيْمِ كُلِّ ما يُقَدِّمُهُ الإِخْوَةُ والأَقْرِباءُ، حَتَّى يَجِيْءَ ها هُنا ظاهِراً مِصْداقُ ذاكَ القَوْلِ الَّذي قِيْلَ، *الأَقارِبُ كالعَقارِبِ*، ثُمَّ إِنَّ الفَأْرَ والعَقْرَبَ كِلاهُما اتَّفَقا مِثْلَ اتِّفاقِ المَرِّيْخِ وَزُحَل، جَعَلا القِرانَ في مَنْزِلِ خُبْثٍ واحِدٍ، وَفي تَجاوِيْفِ جُحْرِ الفَأْرِ في زاوِيَةٍ لَمْ تَكُنْ مَطْرَحَ نَظَرٍ للنَّاسِ بِأَيِّ وَجْهٍ، أَجْلَسَ العَقْرَبَ، وَبَذَلا

ثَلاثَ قِطَعٍ مِنَ الذَّهَبِ مَعَ الفِضَّةِ في أَمْرِ هلاكِ صاحِبِ البَيْتِ، وَأَيُّ رَأْسٍ لا يَدْخُلُ في الدُّولابِ مِنَ الفِضَّةِ، أوْ أَيُّ عُنُقٍ يُرِيْدُ أنْ يَكُونَ خارِجاً مِنْ طَوْقِ الذَّهَبِ، الذَّهَبُ هُوَ الَّذي يَكْشِفُ إِزارَ العِصْمَةِ عَنْ ياقَةِ رُوْحِ الخَلْقِ، الفِضَّةُ هِيَ الَّتي تَطْبَعُ سِمَةَ الجَهالَةِ على ناصِيَةِ عَقْلِ الآَدَمِيّ، الحِرْصُ بِهاتَيْنِ الحَفْنَتَيْنِ مِنَ التُّرابِ المُلَوَّنِ يَقْدِرُ يَجْعَلُ عَيْنَ العِلْمِ عَمْياءَ، الطَّمَعُ بِهاتَيْنِ القِطْعَتَيْنِ مِنَ الحَجَر المُمَوَّهِ يَقْدِرُ أَنْ يَكْسِرَ الجامَ مُظْهِرَ العالَمِ لِلْعَقْلِ وَيُفَتِّتَهُ قِطَعاً صَغِيْرَةً مِنَ الزُّجاج،

وَلكِنْ إِذا صارَتِ الفِضَّةُ بِماءِ الفِضَّةِ اللَّحْمَ المُمْتَلِئَ

أنتَ مَتى تَقْدِرُ أَنْ تَسْمَعَ مِنِّي هذِهِ المَقالَةَ

إِذا ما خَيالُ الذَّهَبِ أَغْلَقَ عَيْنَ عِبْرَتِكَ

أنتَ مِنْ أَيْنَ تَقْدِرُ أنْ ترى جَمالَ الحَقِيْقَة

في الجُمْلَةِ، الفَأْرُ أَلْقى عَدَداً مِنْ قِطَعِ الذَّهَبِ وَسَطَ البَيْتِ، وَجَعَلَ واحِدَةً قَرِيْبَةً مِنْ ثُقْبِ الجُحْرِ، وَواحِدَةً على حافَّتِهِ بِشَكْلٍ مُحْكَمٍ بِحَيْثُ جَعَلَ نِصْفاً مِنْها داخِلَ الثُّقْبِ وَنِصْفاً خارِجَهُ، حِيْنَ عَيْنُ صاحِبِ البَيْتَ وَقَعَتْ على الذَّهَبِ الصَّحَيْحِ، وَوَجَدَ ذاكَ الفُتُوْحَ فَجْأَةً، صارَ حائِراً، وَبِيَدٍ كُلُّها احتِياجٌ واهْتِزازٌ أَمْسَكَ تِلْكَ، وَحِيْنَ وَجَدَ القِطْعَةَ الثَّانِيَةَ، جاءَتِ القِطْعَتانِ قُبالَةَ عَيْنَي قَلْبِهِ، حَتَّى صارَتا لَهُ حِجاباً مَظْلِماً أَمامَ العَيْنِ مَنَعَهُ مِنْ مَشاهَدَةِ مَكْرِ الفَأْرِ وَقَصْدِ العَقْرَبِ لَهُ،

وَفي تِلْكَ الظُّلْمَةِ مَدَّ يَدَ الطَّمَعِ طَوِيْلَةً لِفُتْحَةِ الجُحْرِ، العَقْرَبُ لَسَعَهُ بِيَدِهِ بِمِبْضَعِ إِبْرَتِهِ المُخالَطِ بالسُّمِّ، والدَّمُ الَّذي عَنْ يَدِهِ في قَلْبِ الفَأْرِ كانَ أَخَذَ الهَيَجانَ، انْفَتَحَ مِنْ عِرْقِ رُوْحِهِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، كَيْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مِثْلُ الفَأْرِ مَعَ كُلِّ الصَّغارِ وَمَهانَةِ النَّفْسِ، يَدْخُلُ مِنْ مَشْرَعِ مِثْلَ ذاكَ الأَمْرِ العَظِيْمِ، فَأولى بِنا مَعَ هذِهِ المُكْنَةِ والمَكانَةِ، حِيْنَ نَمُدُّ اليَدَ لِحِبالِ التَّوْفِيْقِ، وَنَقُومُ بالاِسْتِعْصامِ بِعُرْوَةِ تَأْيِيْدِ السَّماءِ، أَنْ نَقْدِرَ نُعْطي الجَوابَ لِهذا الخَصْمِ، وَنُوْصِلَهُ لِلْمَكانِ بالسَّعْيِ والاِجْتِهادِ، أما الآنَ فَباقٍ مَقامُ رِسالَةٍ أُخْرى، نُرْسِلُها لَهُ حَتَّى نُوْصِلَ لِمَذاقِهِ أَيْضاً طَعْمَ تِلْكَ الشُّرْبَةِ المُرَّةِ الَّتي أَوْصَلَها لَنا، بِما أَنَّ مَرْهَمَ اللُّطْفِ لَمْ يُجْدِ نَفْعاً، فَإِنَّ مَيْسَمَ العُنْفِ يَمْلِكُ النَّفْعَ، *وَآخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ*، ثُمَّ أَحْضَرَ الذِّئْبَ بِخِدْمَةَ الأَسَدِ، وَأَمَرَ بِإِصْدارِ هذا الكِتابِ لِشاهِ الفِيلَةِ، والاِفْتِتاحِ بِهذا التَّخْوِيْفِ المَمْزُوجِ بالنَّصِيْحَةِ، أَنْ أَيْ أَخُ، *بَصَّرَكَ اللهُ بِعُيُوْبِ النَّفْسِ، وَنَصَرَكَ على جُنُوْدِها* ،

لا تَفْعَلْ ذاكَ الَّذي ما فَعَلَ شَخْصٌ

دَلِيْلُكَ في هذا الطَّرِيْقِ الشَّيْطانُ وَحَسْب

بالرُّجُولَةِ انْفِ عَنِ القَلْبِ الغَضَبَ والحِقْدَ

لا تَنْظُرْ إلى العالَمِ بِعَيْنِ الشَّابِّ

أنتَ أَيْنَ كُنْتَ رَأَيْتَ قَبْضَةَ الأَسَدِ

وَأَنْتَ ما سَمِعْتَ صَوْتَ الأَرْنَبِ

هذا المَعْنى واضِحٌ أَنَّ عِلْمَ الشَّطْرَنْجِ وَضَعَهُ العُلَماءُ وَالفُضَلاءُ السَّابِقُون في بِلادِ الهِنْدِ، الَّتي هِيَ مَنْشَأُ وَمَنْبَتُ وُجُوْدِكَ، وَمُوْجِبُ اشْتِهارِ الشَّطْرَنْجِ المُنْتَشِرُ الذِّكْرِ في كُلِّ أَقْطارِ بَسِيْطَةِ العالَمِ، أَنَّ واضِعَ ذاكَ العَمَلِ كانَ عالِماً مُحْكَماً بِأَسْرارِ الجَبْرِ والقَدَرِ، وَعَنْ أَمْرِ تَقْدِيْرِ الخالِقِ وَتَدْبِيْرِ المَخْلُوْقاتِ وَضَعَ الخَبَرَ عَنْ ذاكَ، وَأَظْهَرَ في وَضْعِ ذاكَ أَنَّ صاحِبَ ذاكَ العَمَلِ مَعَ غايَةِ مَهارَةِ اليَدِ وَحُسْنِ اللَّعِبِ وَذَكاءِ القَلْبِ، وَلَوْ طَرَحَ قَلْعَةً أَوْ فَرَساً على الخَصْمِ، لائِقٌ أَنَّهُ بِوَقْتِ اللَّعِبِ يَجِيْءُ مُقَيَّدَ اليَدِ مِنْ ذاكَ الحَرِيْفِ الكَلِيْلِ رَدِيْءِ اليَدِ الجاهِلِ باللَّعِبِ، فَيَقَعُ في مَضِيْقٍ لا تُنْجِيْهِ مِنْهُ أَيَّةُ حِيْلَةٍ سِوى التَّراجُعِ ولا يَعْرِفُ الغَلَبَةَ،

عَلى أَنَّني راضٍ بِأَنْ أحْمِلَ الهَوْى وَأَخْلُصَ مِنْهُ لا عَلَيَّ وَلا لِيا

وَهكذا فَإِنَّهُ وَإِنْ كانَ لِلرَّجُلِ الرَّأْيُ المَتِيْنُ والرَّوِيَّةُ سابِقَةُ النَّظَرِ والبَصارَةُ الكامِلَةُ والمَهارَةُ الشَّامِلَةُ في فُنُوْنِ العِلْمِ، عِنْدَ مُباشَرَةِ الخَوْضِ بِأَمْرٍ، يُمْكِنُ أَنَّهُ لا يَبْقى سالِماً مِنْ أَنَّهُ، على خِلافِ فِكْرِهِ، يَجِيْءُ شَكْلٌ آخَرُ خارِجاً مِنْ حِجابِ الزَّمانِ، وَيَقَعُ لَهُ في الأَمْرِ مُشِكِلٌ حَتَّى يُعْطِيَ الرِّضا بالسَّلامَةِ المُجَرَّدَةِ مِنْ مَدْخَلِ ذاكَ،

والدَّهْرُ يَعْكِسُ آمالي وَيُقْنِعُني   مِنَ الغَنِيْمَةِ بَعْدَ الكَدِّ بالقَفَلِ

ثُمَّ أَنت في شَطْرَنْجِ هذا الهَوَسِ الَّذي تَلْعَبُ، لا تَرْفَعِ النَّظَرَ عَنْ لَعِبِ الخَصْمِ، لا يَكُونُ قَدْ أَعَدَّ هكذا وَزِيْرَ قَيْدِ احْتيالٍ، فَبِأَلْفِ فِيْلٍ لا يُمْكِنُ فَتْحُ ذاكَ، وَحَيْثُ أَنَّهُ مِنْ أَجْدادِكَ على رُقْعَةِ مَمالِكِكَ، أَيُّ فِيْلٍ لَمْ يَكُنْ أُلْقِيَ بَيْدَقُ الطَّمَعِ هذا، لا كانَ أَنَّ الشَّامِتيْنَ مُطْلِقِي الاِسْتِهْزاءِ، مِنْ طَلَبِكَ الزِّيادَةَ، آخِرَ الأَمْرِ يُطْلِقُونَ في شَأْنِكِ، *زادَ في الشَّطْرَنْجِ بَغْلَةً*، وبالآخِرِ تَعْلَمُ أَنَّ الرَّأْيَ غَيْرَ الصَّوابِ يُجْلِسُ الشَّاهَ في خانَةِ *مات*، وَيَنْثُرُ رُقْعَةَ الحَياة، *وَتَنْدَمُ حِيْنَ لا تُغْني النَّدامَهْ*، وَصَنْعَةُ الاِسْتِدلالِ الشَّنِيْعِ أَنَّكَ في أَثْناءِ الرِّسالاتِ الَّتي كُنْتَ أَرْسَلْتَ لَنا، رَأَيْتَ اسْتِخْدامَنا بِطَرِيْقِ الإهانَةِ مُباحاً، وذاكَ لَمْ يَكُنْ عَلامَةَ كَرَمِ طَبِيْعَةٍ وَحُسْنِ خَلِيْقَةٍ، العالَمُوْنَ يَعْلَمُوْنَ أَنَّنا لَمْ نَأْخُذْ طَوْقَ حُكْمِ أَيِّ شَخْصٍ في عُنُقِنا أَبَداً، وَلَمْ نَعْقِدْ على الوَسَطِ بِنِطاقِ أَيِّ مَخْلُوْقٍ، وَلَمْ يُوْضَعْ أَبَداً أَذى الخِطامِ والزِّمامِ على خَرْطُوْمِنا وَخَيْشُوْمِنا، وَما أُوْصِلَ الضَّيِّقُ وَقَيْدُ الحَلَقَةِ والحِزامُ لِحَنايا حَيْزُوْمِنا، وَفي مَلاعِبِ الصِّبْيانِ لَمْ يَكُنْ ظَهْرُنا سُلَّماً لِلْهَواء، وما وَجَدُوا مُسَوَّراً وَمُخَلْخَلاً السَّاقَ والسَّاعِدَ مِنَّا بِعادَةِ النِّسْوان، نَحْنُ نَأْكُلُ نَوالَ الأَكْلِ والشُّرْبِ مِنْ مَذْبَحِ فَرِيْسَتِنا لا مِنْ فُضالَةِ مَطْبَخِ وَهَرِيْسَةِ الآخَرِيْن، نَحْنُ دَوْماً نَحْمِلُ على الأَعْناقِ ضِخامِ السَّاقِ، لا على الأَبْطالِ الصِّغار، إلَّا وَقْتَ يَكُوْنُ السَّخَطُ

الإلهِيُّ يُوْرِدُ الغارَةَ مِنْ طائِراتِ سِهامِ عَزِيْمَتِنا على رَأْسِ قَوْمٍ، وَيَصِيْرُ ظاهِراً عِياناً في شَأْنِ طائِفَةٍ سِرٌّ، *أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيْلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ في تَضْلِيْلٍ*، وَيَجْعَلُ رَجْمَ قَهْرِنا نازِلاً عَلَيْهِمْ بِمَنْجَنِيْقٍ، *تَرمِيْهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيْلٍ*، وَإِلَّا فَكَيْفَ لِحاكِمِ العَقْلِ أَنْ يَأْمُرَ بِعَمَلِ الاِقْتِداءِ بِأَصْحابِ البَغْيِ والضَّلالِ، وَالمَجِيْءِ بِقَصْدِ البَيْتِ الَّذي هُوَ كَعْبَةُ الكَرَمِ، وَقِبْلَةُ الهِمَمِ، وَحَرَمُ أَمْنِ الأُمَمِ، وَرَفْعِ حِجابِ المُجامَلَةِ، وَجَعْلِ الوَجْهِ بالمُجاهَدَةِ، لِهَدْمِ وَحَطْمِ ذاكَ، وَفي شَرِيْعَةِ الإنْصافِ بِأَيِّ تَأوِيْلٍ صَحِيْحٍ يَجِيْءُ،

كِتابُ جَوابِ رِسالَةِ الأَسَدِ وَسَحْبُ الفِيْلِ الجَيْشَ والذَّهابُ في العَقِب لِلْحَرْبِ

شاهُ الفِيلَةِ حِيْنَ قَرَأَ مَضْمُوْنَ الكِتابِ، وَوَجَدَ الوُقُوْفَ على مَكْنُوْنِ ضَمِيْرِ الخَصْمِ، صارَتْ أَعْضاؤهُ السَّبْعَةُ مُمْتَلِئَةً مِنَ العَداوَةِ والبَغْضاءِ، وَمادَّةُ السَّوْداءِ الَّتي كانَتْ في دِماغِهِ مُتَمَكِّنَةً جاءَتْ مُتَحَرِّكَةً، أرادَ أَنْ يُرِيْقَ دَمَ المُرْسَلِ، وَأنْ يُجْرِيَ عَلَيْهِ الصَّفْراءَ الَّتي جاءَتْ تَجِيْشُ في عُرُوْقِ عَصَبِيَّتِهِ، ثُمَّ شَدَّ عِنانَ الطَّبِيْعَةِ، وَبِنَصِّ، *ما على الرَّسُولِ إِلَّا البَلاغُ*، مَسَحَ كَعْبَتَي غَرامَةِ الطَّبْعِ، وَأَمَرَ بالعَفْوِ عَنْهُ، وَكَتَبَ على ظَهْرِ الكِتابِ،

وَرُبَّ جَوابٍ عَنْ كِتابٍ بَعَثْتَهُ   وَعُنْوانُهُ للنَّاظِرِيْنَ قَتامُ

تَضِيْقُ بِهِ البَيْداءُ مِنْ قَبْلِ نَشْرِهِ   وَما فُضَّ بالبَيْداءِ عَنْهُ خِتامُ

أَرْجَعَ الرَّسُوْلَ راجِعاً، وَفي عَقِبِهِ جَيْشاً لَو كانَتْ كَثْرَةُ عَدَدِهِ تَجِيْءُ بالقَلَمِ، بَياضُ النَّهارِ وَسَوادُ اللَّيْلِ ما وَفَيا بِنَسْخِ ذاكَ، كُلَّ زُجاجِ رِقَّةِ القَلْبِ ضَرَبُوا على الصَّخْرِ، وَصارُوا غارِقِيْنَ في حَدِيْدِ الصَّلابَةِ مِنَ الفَرْقِ إلى القَدَمِ، اَلْجَمِيْعُ ذَهَبُوا في جَوْشَنِ الصَّبْرِ، وَأَلْقَوا خَلْفَ الظَّهْرِ دِرْعَ السَّلامَةِ، وَأَوْصَلُوا صَوارِمَ العَزِيْمَةِ وَنِبالَ الصَّرِيْمَةِ للنُّفُوْذِ، وَأَعْطَوا سِنانَ الأَسْنانِ الماءَ، وَعِنانَ إِتْقانِ العَزْمِ القُوَّةَ، وَرَبَطُوا رِباطَ التَّعامي على العَيْنِ ناظِرَةِ العاقِبَةِ، وَسَكَبُوا زِئْبَقَ التَّصامُمِ في الأُذُنِ شارِبِ النَّصِيْحَةِ، وَعلى هذا النَّسَقِ عَيْنِهِ جَيْشُ الأَسَدِ بِكَمالِ الأُهْبَةِ والرَّسْمِ والأُبَّهَةِ في لِباسِ الشَّوْكَةِ وَسِلاحِ الصَّوْلَةِ عَمِلَ الاِنْتِهاضَ، وكِلا الاِثْنَيْنِ نَهَضا مِنَ المَكانِ مِثْلَ طُوْدَيْنِ هائِجَيْنِ وَبَحْرَيْنِ مائِجَيْنِ، *وَأَجْرى مِنَ السَّيْلِ تَحْتَ اللَّيْلِ*، صارا جارِيَيْنِ الواحِدُ لِلآخَرِ، وَوَقْعُ صَدى اصْطِكاكِ صَخْرَتَيْنِ وَقْتَ المُلاقاةِ مِنْهُما مِنْ بَسِيْطِ هذِهِ العَرْصَةِ المُسَدَّسَةِ وَقَعَ في مُحِيْطِ الفَلَكِ الأَطْلَسِ، وَطَنِيْنُ ذُبابِ غَضَبِ الهَيْبَةِ مِنْ وَقْعِ مُقارَعَةِ كِلا الفَرِيْقَيْنِ وَصَلَ لِأُذُنِ الزَّمانِ، قالَ الثَّعْلَبُ، اِعْلَمْ أَيْ مَلِكُ أَنَّ الأَمْرَ بَعْضٌ مِنْهُ يَلِيْقُ بِهِ التَّقَدُّمُ بالشَّجاعَةِ والرُّجُوْلَةِ، وَبَعْضٌ بالعِلْمِ والمَعْرِفَةِ، وَبَعْضٌ بِشِدَّةِ وَقْعِ الهَيْبَةِ، وَحَمْداً لِلَّهِ تَعالى أَسْبابُ هذِهِ السَّعادَةِ لَكَ مُتَكامِلَةٌ جُمْلَةً، وَإِمْدادُ هذِهِ الدَّوْلَةِ

مُتَواصِلٌ، فالوَقْتُ هُوَ لِذاكَ، أَنَّ رِجالَ الأَمْرِ لا يُعْطُوْنَ نِيابَةَ الفَرْقِ لِلْقَدَمِ، ولا يُلْقُونَ جَوابَ الخَصْمِ مِنْ رَأْسِ السَّيْفِ بِلِسانِ القَلَمِ، سِنانُ الحَرْبِ وَلَوْ كانَ الحَيَّةَ مُؤْذِيَةَ الرُّوْحِ لا يَأْخُذُونَ بِيَدِ الآَخَرِيْن، لُعابُ هذِهِ الحَيَّةِ وَلَوْ كانَ شُرْبَةَ المَوْتِ، أَوَّلاً يُوْصِلُوْنَ ذاكَ لِمَذاقِ أَنْفُسِهِم،

عَبالَةُ عُنْقِ اللَّيْثِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ　　إِذا ما دَهاهُ الخَطْبُ قامَ بِنَفْسِهِ

مَصافُّ الفِيْلِ والأَسَدِ وَوُجْدانُ الأَسَدِ النُّصْرَةَ على الفِيْلِ

ثُمَّ الأَسَدُ أَمَرَ في ذَيْلِ الجَبَلِ الَّذي كانَ مُتَحَصَّنَ الأُسُوْدِ، أنْ تُحْفَرَ جَداوِلُ مُتَشابِكَةٌ الواحِدُ في الآَخَرِ، وَأَنْ يُلْقى الماءُ في بِضْعَةِ أَمْيالٍ مِنَ الأَرْضِ المُسْتَوِيَةِ الَّتي جُعِلَتْ بِها الاِنْكِساراتُ، وَتُغْلَقَ إلى أَنْ تَبْتَلِعَ الماءَ، وَتَصِيْرَ الأَرْضُ المَسْقِيَّةُ كالطِّيْنِ، وَأنْ يَكُونُوا جَمِيْعاً ظَهْراً واحِداً وَوَجْهاً واحِداً بالتَّلِّ المَنِيْعِ، وَأَنْ يَذْهَبُوا بِذاكَ الحِصْنِ مِثْلَ المُحْصَنَةِ ذاتِ العِفَّةِ في مَلْجَأِ العافِيَةِ مِنْ رَجْمِ الحَوادِثِ، والأَسَدُ ضَغَطَ القَدَمَ في رِكابِ الثَّباتِ، وَأَخَذَ عِنانَ إِتْقانِ الرَّأْيِ باليَدِ، *فَسَأَلَ اللهَ تَعالى قُوَّتَهُ وَحَوْلَهُ، وَلَمْ يُعْجِبْهُ الخَصْمُ وَكَثْرَةُ المَلأِ حَوْلَهُ*، الجَمِيْعُ كانُوا مُراقِبِيْنَ لِلأَحْوالِ الواحِدُ لِلآخَرِ، وَمُتَرَقِّبِيْنَ لِأَحْكامِ القَضاءِ والقَدَرِ، أنْ أَيُّ نَقْشٍ سَيَجِيْءُ خارِجاً مِنْ مَعْمَلِ الغَيْبِ، وَفي خانَةِ ضَرْبِ القِسْمَةِ، سَكَّ قَبُولِ أَيَّةِ طائِفَةٍ سَيَضَعُونَ، وَمِنْ نَصِيْبِ النُّصْرَةِ والخِذلانِ، ماذا تُرِيْدُ قُرْعَةُ الإِرادَةِ أنْ تُلْقيَ لَهُمْ، ثُمَّ لِشُجْعانِ الأَبْطالِ

وَمُبارِزِي القِتالِ أَخَذَ ذاكَ القَرارَ، أَنْ أَوْساطُ الحَشَمِ وَآحادُ جَمْعِ الجَيْشِ مِثْلَ ابْنِ آوى والثَّعْلَبِ والذِّئْبِ وَأَمْثالِهِم يَقَعُوْنَ أَمامَ الجَيْشِ وَيَدْخُلُونَ بالمُجاوَلَةِ والمُراوَغَةِ، وَيُغِيْرُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، حَتَّى يَصِيْرَ التَّعَبُ التَّامُّ حاصِلاً لِلْفِيَلَةِ مِنْ فَرْطِ الحَرَكَةِ والجَرْيِ لِكُلِّ جِهَةٍ، حَتَّى حُبْوَةُ قُوَّتِهِمْ وَنَشاطِهِمْ تَصِيْرُ واهِيَةً، وَصَوْلَةُ أَشْواطِهِمْ تَنْتَهي بالتَّناهِي، وَأَفْرادُ جَيْشِ الأَسَدِ للاِسْتِدْراجِ جَلَسُوا مُتَراجِعِيْنَ لِلْخَلْفِ، وَأَظْهَرُوا النَّفْسَ على شَكْلِ المَغْلُوْبِ المُتَفادي لِلْخَصْمِ، وَرَجَعُوا في صُوْرَةِ التَّخاذُلِ عَنْ مَعْرَضِ التَّقابُلِ، وَجَعَلُوا الوَجْهَ لِلْفِرار، وشاهُ الفِيَلَةِ على هَيْئَةِ فِرْعَوْنَ جَعَلَ الاِسْتِظْهارَ بِعِزِّ النَّفْسِ وَعَوْنِ ذِراعِ البَخْتِ، واخْتارَ جَمْعاً مِنَ الفِيْلَةِ مِنْ أولئِكَ القَوْمِ الَّذِيْنَ جُثَّةُ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ كانَتْ مُبْتَناةً على سَبْعَةِ أَرْكانِ الأَعْضاءِ، وَهَيْكَلُ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ كانَ ثابِتاً وَساكِناً على دَعائِمِ أَرْبَعَةِ قَوائِمٍ، بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ يَصِيْرُ مُمْكِناً تَحْرِيْكُهُمْ إِلَّا بِكَسْرٍ يَنْهَضُ مِنَ التَّأْيِيْدِ الإلهِيِّ، وَجَعَلَهُم جَمِيْعاً أَمامَهُ، وَجِهَةَ نَتائِجِ الفَتْحِ والنَّصْرِ تَوَهَّمَ المُقَدِّمَةَ الكُبْرى، وجَعَلَ الصَّبْرَ على القَلْبِ للصَّدْمَةِ الأُولى، جَعَلُوا صَحِيْحاً المَيْمَنَةَ والمَيْسَرَةَ، لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ اليُمْنَ واليُسْرَ عَنْ أَعْقابِهِمُ مَفْصُولٌ، وَبِنَواصي وَأَعْقابِ الخُصُوْمِ مُتَّصِلٌ، زَيَّنَ القَلْبَ والجَناحَ وَكانَ غافِلاً عَنْ أَنَّ ذاكَ النَّقْدَ الزَّائِفَ لا يَكُوْنُ فاعِلاً في نَهارِ بازارِ الفَتْحِ، وَأَنَّ ذاكَ الجَناحَ سَوْفَ يَصِيْرُ بِخَفْضِ المَذَلَّةِ مَسْحُوقاً بِأَقْدامِ مُقَدَّمي الجَيْشِ، الصَّفُّ في الصَّفِّ

مُزَيَّنٌ والقَلْبُ في القَلْبِ مَوْصُولٌ، وَغافِلٌ عَنْ أَنَّهُ حِيْنَ لَيْلُ اشْتِباهِ الحالِ يَنْتَهِي بِسَحَرِ العاقِبَةِ، كَوْكَبُ السَّعادَةِ سَوْفَ يَطْلَعُ مِنْ قَلْبِ الأَسَدِ، آخِراً تَقَدَّمَ لِلأمامِ، وَبِناءً على الخَيالِ أَنَّ جَيْشَ الأَعْداءِ خَرْزَةٌ واقِعَةٌ في خانَةِ الاِنْكِسارِ، وَسِلْكُ الاِنْتِظامِ مِنْهُمْ مَفْقُوْدٌ، حَمَلَ مَعَ جُمْلَةِ الحَشَمِ، وَسَقَطُوا بِرِيْحِ تِلْكَ الحَمْلَةِ جَمِيْعاً مِثْلَ وَرَقِ الخَرِيْفِ تَساقَطَ عَنِ الغُصْنِ كالمَطَرِ في تِلْكَ الجَداوِلِ المَحْفُوْرَةِ، تساقَطُوا الواحِدُ على الآخَرِ، وَقَدْ جُعِلَ التُّرابُ في كَأْسِ التَّمَنِّي، وَقَعُوا مَنْكُوْسِيْنَ في تِلْكَ الحُفَرِ، حَتَّى طَلَعَ مِنْهُمُ الصُّراخُ، *الدَّمُ الدَّمُ الهَدَمُ الهَدَمُ*، وَنَظَّارَةُ القَدَرِ الَّذِيْنَ كانُوا الواحِدُ تِلْوَ الآخَرِ يَقُوْمُوْنَ بِمُطالَعَةِ تَهافُتِ أولئِكَ القَوْمِ، وَيَرَوْنَ مَحْصُولَ فذالِكِ فُضُوْلِهِم، وَيَقُولُوْنَ أَنْ حُفَرُ البَغْيِ والطُّغْيانِ جاءَتْ مَحْفُوْرَةً مِنْ مَعاوِلِ اكْتِسابِكُم، *مَنْ حَفَرَ بِئْراً لِأَخِيْهِ وَقَعَ فِيْهِ*،

قالُوا إِذا جَمَلٌ حانَتْ مَنِيَّتُهُ　　　أَطافَ بالبِئْرِ حَتَّى يَهْلِكَ الجَمَلُ

ثُمَّ جَيْشُ الأَسَدِ جاءَ داخِلاً مِنَ الجَوانِبِ، وَراحَ يَضْرِبُ الضَّرَباتِ المُتَتالِيَةَ، حَتَّى جَعَلَ لِباسَ الوُجُوْدِ على الفِيلَةِ مُخَرَّقاً وَمُمَزَّقاً، حَتَّى كانَتْ أَكْبَرُ قِطْعَةٍ مِنَ الفِيْلِ الأُذُنَ، وَمِنْ أولئِكَ الَّذينَ كانُوا مِنَ الحَماقَةِ بِطَبْعِ الثَّوْرِ، صارُوا مُتَوَرِّطِيْنَ إلى الأَعْناقِ في أَوْحالِ تَبَدُّلِ الأَحْوالِ، كَمْ جاءَتْ حَدِيْقَةُ المَعْرَكَةِ بِأَحْداقٍ مُفَتَّحَةٍ بِسِهامِ أَمْطارِ

الحَوادِثِ، حَتَّى على لِسانِ المُغَنِّيْنَ لِحَفْلِ الظَّفَرِ والنَّصْرِ، والمُنْهِيْنَ لِنَوروزِ ذاكَ الرَّبِيْعِ، كانَ كُلُّ هذا يَجْري،

مِنْ كَثْرَةِ عَيْنِ الثَّوْرِ وَأُذُنِ الفِيْلِ   كانَ الرَّوْضُ كَحُجْرَةِ بائِعِ الجَوْهَرِ

حِيْنَ مَسَحُوا الجَمِيْعَ بِقَدَمِ القَهْرِ، وَسَحَقُوا تَحْتَ الأَقْدامِ جَيْشاً كانَ الفَلَكُ والسَّمَكُ مِنْ رَكَضاتِهِ وَنَهَضاتِهِ تَرَكَ طَبِيْعَةَ السُّكُوْنِ والحَرَكَةِ، والوَهَنُ الَّذي لَمْ يَكُنِ الزَّمانُ يَسْتَطِيْعُ جَبْرِ مَكاسِرِ ذاكَ بِيَدِ الجَبَّارِيْنَ بالِغي المُرادِ وَأَكاسِرَةِ الزَّمانِ، أَلْقَوْهُ عَلَيْهِ، وَجَعَلُوا الجَمِيْعَ عَلَفاً لِسَيْفِ الأَظافِرِ والأَنْيابِ، وَطُعْمَةً لِحَواصِلِ النَّسْرِ والعُقابِ، وَلُقْمَةً لِمَشافِرِ الكِلابِ والذِّئابِ، شَهْرَيار صارَ يَسِيْرُ في إِيْوانِ الدَّوْلَةِ بالدَّلالِ، يُطَهِّرُ مَشارِعَ المُلْكِ مِنْ شَوائِبِ نِزاعِ المُنازِعِيْنَ، وَيُخْرِجُ عَيْنَ وَثَوْبَ الإِقْبالِ مِنْ يَدِ تَشَبُّثِ الطَّامِعِيْنَ، وَيَنْثُرُ تُرابَ الخِزْيِ والخَسارِ، وَقَشَّ الخَيْبَةِ والدَّمارِ، الَّذي هُوَ نَصِيْبُ المَنْكُوْسِيْنَ، في عَيْنِ أَمَلِهِم، وَشُكْرَ التَّأْيِيْدِ الإِلهِيِّ والتَّوْفِيْقِ السَّماوِيِّ، وَضَعَ الرَّأْسَ على تُرابِ أَرْضِ الخُضُوْعِ، وَزَيَّنَ أَكْنافَ عَرْصَةِ المَمْلَكَةِ بِنَشْرِ رايَةِ العَدْلِ وَطَيِّ بِساطِ الظُّلْمِ، زِيْنَةً أُخْرى، وَأَعطى عَرُوْسَ الدَّوْلَةِ بالزِّيْنَةِ الجَدِيْدَةِ مِنَ الرَّأْفَةِ والإِحْسانِ على الرَّعايا والمَمْلُوْكِيْنَ جَلْوَةً أُخْرى،

تَبَلَّجَتِ الأَيَّامُ عَنْ غُرَّةِ الدَّهْرِ   وَحَلَّتْ بِأَهْلِ البَغْيِ قاصِمَةُ الظَّهْرِ
فَيا لَكَ مِنْ فَتْحٍ غَدا زِيْنَةَ العُلى   وَواسِطَةَ الدُّنْيا وَفائِدَةَ العُمْرِ
إِذا ذُكِرَتْ فاحَ النَّدِيُّ بِذِكْرِها   كما فاحَ أَذْكى النَّدِّ مِنْ وَهَجِ الجَمْرِ

ثُمَّ مِنْ هُناكَ صارَ واضِحاً لِلْعالَمِيْنَ، أَنَّ العَمَلَ بِمُتابَعَةِ النَّفْسِ، والنُّهُوْضَ بِما يَشْتَهِيْهِ الطَّبْعُ، يَجِيْءُ كُلَّ لَحْظَةٍ لِلْيَدِ بِشَرابٍ غَيْرِ عَذْبِ المَذاقِ، وَمَخْلُوْطٍ بِسُمِّ الخَيْبَةِ وَسُوْءِ العاقِبَةِ، وَيُوْصِلُ لِلْهَلاكِ،

إِنْ كُنْتَ تُرِيْدُ تَذْهَبُ خَلْفَ الشَّهْوَةِ والهَوى
لَكَ الخَبَرُ مِنِّي أنتَ بِغَيْرِ نِظامٍ سَتَذْهَبْ

أُنْظُرْ أَنتَ مَنْ تَكُوْنُ وَمِنْ أَيْنَ جِئْتَ
أنتَ بِأَيِّ مَيْدانٍ وَأَيْنَ تُرِيْدُ أَنْ تَذْهَبْ

وَصَلَ لِلتَّمامِ بابُ الفِيْلِ والأَسَدِ، بَعْدَ هذا سَنَذْكُرُ بابَ الجَمَلِ والأَسَدِ المُتَّقي، وَنُظْهِرُ فِيْهِ ما تَكُوْنُ ثَمَرَةُ السِّعايَةِ والوِشايَةِ، وَعاقِبَةُ الكَيْدِ وَسُوْءِ الفِكْرِ، سِيَّما على طَرِيْقِ البَداءَةِ ما تَكُوْنُ؟، وما يَجِيْءُ لِمالكِي أَنْفُسِهِم حَسَني الفِعالِ وَعارِفِي حَقِّ نِعْمَةِ الرَّبِّ المُنْعِمِ مِنَ الزَّمانِ، *وَلَرُبَّما عَدَلَ الزَّمانُ الجائِرُ*، لِيَجْعَلْ إِيْزَدْ تَعالى رَوْضَ إِقْبالِ السَّيِّدِ صاحِبِ العالَمِ خالِياً مِنْ شَوْكِ الخَدِيْعَةِ والوَقِيْعَةِ، وَسَرْوَ آمالِهِ حُرَّاً مِنْ انْقِلابِ الأَحْوالِ مُسْقِطِ الأَوْراقِ، بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الأَخْيار،

اَلبابُ الثّامِنُ

في الجَمَلِ والأَسَدِ المُتَّقي

وَلَدُ المَلِكِ قالَ، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ أَسَدٌ مُتَّقٍ، يَأْكُلُ مِنْ حَلالٍ، كانَ حافِظاً لِلنَّفْسِ وَمُتَوَرِّعاً، وَبِلِباسِ التَّعَزُّزِ والتَّقْوى مُتَدَرِّعاً، بِباطِنٍ مُتَرَشِّحٍ مِنْ خَصائِصِ الحِلْمِ وَعَدَمِ الأَذى، وَظاهِرٍ مُتَوَشِّحٍ بِوَقْعِ مَهابَةِ المُلْكِ، أَطْلَعَ نارَ الهَيْبَةِ وَماءَ الرَّحْمَةِ مِنْ مَكانٍ واحِدٍ، وَسَكَبَ سُمَّ العُنْفِ وَتِرْياقَ اللُّطْفِ مَعاً، مَخْبَرٌ مَحْبُوْبٌ وَمَنْظَرٌ مَرْغُوْبٌ، صُوْرَةٌ مَقْبُوْلَةٌ، وَصِفَةٌ بالشَّمائِلِ المَمْدُوْحَةِ مَشْمُوْلَةٌ، يَمْلِكُ الوَطَنَ في مَقْصَبَةٍ، حَيْثُ بِذاكَ المَكانِ الذِّئْبُ والشّاةُ تَخالَطا مِثْلَ القَصَبِ والسُّكَّرِ، والفَهْدُ والغَزالُ شَرِبا مِنْ عَيْنٍ واحِدَةٍ مِثْلَ الشَّوْكِ والوَرْدِ، في حِمى قَصْباءَ أو خِرْقَةِ قَصَبٍ كانَتْ آمِنَةً مِنْ أنْ يَخْرِقَها ضَوْءُ القَمَرِ، وَثَوْبُ الغَيْمِ كانَ مُتَحَرِّزاً مِنْ تَعَرُّضِ يَدِ الشَّمْسِ، رَئِيْسُ شُرْطَةِ عِقابِهِ جَعَلَ صَحِيْحاً بازارَ الوُجُوْدِ، الذِّئْبُ جَلَسَ يَعْمَلُ عَمَلَ خَزّازٍ كالدُّوْدَةِ تَعْمَلُ عَمَلَ قَزّازٍ، والغِزْلانُ تَعْمَلُ عَمَلَ العَطّارِ، والكَلْبُ صارَ مَشْغُولاً بِأَمْرِ العِظامِ،

وَلِيَ البَرِيَّةَ عَدْلُهُ فَتَمازَجَتْ   أَضْدادُها مِنْ كَثْرَةِ الإِيْناسِ
تَحْنُو على ابْنِ الماءِ أُمُّ الصَّقْرِ بَلْ   يَحْمي أَخُو القَصْباءِ أُخْتَ كِناسِ

وَفي جِوارِ تِلْكَ الأَجَمَةِ الَّتي لا يَصِلُ لِكُنْهِ أَوْصافِها فِكْرُ الآدَمِيِّ، مِنْ أَنْواعِ الفَواكِهِ وَأَلْوانِ الرَّياحِيْنِ، صارَتِ الأَرْضُ مِثْلَ الدِّيْباجِ المُشَجَّرِ، وَصارَ الهَواءُ مِثْلَ البُرْدِ الجَمِيْلِ المُطَيَّرِ، وَعَبِيْرُ راحَةِ القُلُوْبِ عَلا، مِثْلُ هذا المَوْضِعِ كانَ لَهُ المُتَنَزَّهَ والمُتَفَرَّجَ، وَأَكْثَرَ أَوْقاتِهِ كانَ يَنْصِبُ خَيْمَةَ الإِقامَةِ هُناكَ، يَوْماً كانَ جالِساً بِعادَتَهِ، جاءَ مِنْ تِلْكَ النَّواحي إلى أَمامِهِ دُبٌّ، أَدَّى رَسْمَ الخِدْمَةِ بالمَكانِ وَوَقَفَ، سَأَلَهُ الأَسَدُ، مِنْ أَيِّ مَكانٍ تَجِيْءُ وَإلى أَيْنَ تَذْهَبُ، وَمَقْصُوْدُكَ ما يَكُوْنُ، وَمَقْصَدُكَ أَيُّ مَقْصَدٍ، قالَ الدُّبُّ،

أَبى المُقامَ بِدارِ الذُّلِّ لِيْ كَرَمٌ وَهِمَّةٌ تَصِلُ التَّخْوِيْدَ والخَبَبا
وَعَزْمَةٌ لا تَزالُ الدَّهْرَ ضارِبَةً دُوْنَ الأَمِيْرِ وَفَوْقَ المُشْتَري طَنَبا

كانَ بَقاءُ الأَمِيْرِ إلى مُنْتَهى الأَعْمارِ، أنا العَبْدُ قادِمٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الفُلانِيَّةِ، سَمِعْتُ بِصِيْتِ نَوْبَةِ مَلِكِ العالَمِ وَشُهْرَةِ مكارِمِهِ، فَصِرْتُ راكِباً على مَطِيَّةِ الشَّوْقِ، وَقَدْ ذَهَبَ مِنْ يَدِي زِمامُ الصَّبْرِ، جِئْتُ جارِياً إلى هُنا، وَمِنْ مَكارِهِ الأَيَّامِ جِئْتُ مُلْتَجِئاً لِعَتَبَةِ هذِهِ الدَّوْلَةِ، لَوْ لَمْ يَكُنْ عِشْقُكَ أنا هُنا مَنْ أَكُونُ، إذا كانَ المَلِكُ يُلْقي عَلَيَّ ظِلَّ عاطِفَتِهِ، وَيُعْطيني باليَدِ عِطْفاً مِنْ ثَوْبِ إِقْبالِهِ، أَظَلُّ مُلازِماً لِهذِهِ العَتَبَةِ مِثْلَ الظِّلِّ، عَسى مِثْلَ العَبِيْدِ الآخَرِيْنَ على هَيْئَةِ الذَّرَّةِ بِشُعاعِ

شَمْسِ نَظَرِهِ أَجِيْءُ بالنَّظَرِ، وَبِخِدْماتِهِ المَرضِيَّةِ أَتَّخِذُ ذَخِيْرَةَ عُمْري، إِذا كانَ القَبُوْلُ مُتَّصِلاً بِذاكَ،

إلى أَنْ يُعْطِيَ جامَ الأَجَلِ ساقي العُمُرْ
أنا مُتْعَلِّقٌ بِثَوْبِكَ بِيَدي في باقي العُمُرْ

الأَسَدُ مِنْ هذا الحَدِيْثِ صارَ سَعِيْدَ القَلْبِ وَضاحِكَ الوَجْهِ، وَأَظْهَرَ السُّرُوْرَ والسَّعادَةَ مِنْ أَسارِيْرِ جَبِيْنِهِ، وَمِنْ صَمِيْمِ الإِحْمادِ والاِرْتِضَاءِ أَمَرَ،

رَأَيْتُ ذُبابَةً جالِسَةً على صَدْرِ أَسَدٍ قُلْتُ أَيُّ شَخْصٍ شَدِيْدُ جُرْأَةٍ وَشَجاعَةٍ
قالَتْ أَيْ جَميلُ، مَلِكُ السِّباعِ ما يَضُرُّهُ أنْ يَصِيْرَ شَبِعاً مِنْ صَدْرِهِ الجائِعُ

وَلِلنَّمْلِ مِنْ سُؤرِ الأُسُوْدِ نَصِيْبُ، فَكُنْ فارِغاً، وَأَبْعِدِ التَّغَرُّبَ والتَّوَحُّشَ عَنِ الخاطِرِ، فَأَنا آمِرٌ أَنْ تُعَدَّ لَكَ أَسْبابُ التَّعَيُّشِ والتَّرَفُّهِ، وَأَنْ تُفَتَّحَ لَكَ أَبْوابُ التَّمَتُّعِ بالحَياةِ، وأَبْوابُ التَّرَفُّعِ في مَدارِجِ الآمالِ والأَماني على هذِهِ العَتَبَةِ، وَمِنْ هذا النَّمَطِ أَمَرَ بالكَثِيْرِ مِنَ المُلاطَفَةِ، وَمَواعِيْدِ الأَلْطافِ بِلا عَدَدٍ، وَعَنْ شِعارِ مَذْهَبِ النَّفْسِ بِتَرْكِ لَحْمِ الحَيَواناتِ، وَغَسْلِ يَدِ الطَّمَعِ مِنْ دِمائِها، جَعَلَ الدُّبَّ على عِلْمٍ بِذاكَ، وَأَمَرَهُ بالنَّصِيْحَةِ، أنْ بِأَيِّ وَجْهٍ مِنَ الوُجُوْهِ، لا يَقُوْمُ بِقَصْدِ أَيِّ ذي رُوْحٍ، وَأَنْ لا يُجِيْزَ الإِفْطارَ إلَّا على الفاكِهَةِ، فَإِنَّ اخْتِيارَ المَطْعُوْمِ على

المَطْعُوْمِ نَتِيْجَةُ حِرْصِ الجاهِلِيْن، وَطَلَبُ الدَّلالِ والنِّعْمَةِ جَمِيْعاً شُغْلُ الكُسالى،

فاعِلُ السُّوْءِ، مِنَ السُّوْءِ، مَحْرُوْمٌ أَكْثَر هذا المَثَلُ أَكْثَرُ شُهْرَةً مِنَ الشَّمْس

الدُّبُّ أَوْصَلَ الدُّعاءَ الَّذي كانَ واجِبَ الوَقْتِ لِلأداء، وَقالَ،

بَقِيْتَ مَدى الدُّنْيا وَمُلْكُكَ راسِخٌ   وَوِرْدُكَ مَوْرُوْدٌ وَبابُكَ عامِرُ

ثُمَّ مُسْتَظْهِراً وَواثِقاً بِوَفاءِ الزَّمانِ بالرَّغْبَةِ الصَّادِقَةِ صارَ مَشْغُولاً بِأَمْرِ العُبُوْدِيَّةِ والخِدْماتِ المَرْضِيَّةِ، وقامَ بِمَراسِمِ حِفْظِ النَّفْسِ وَوَظائِفِ الخِدْمَةِ الحَسَنَةِ، وَمُدَّةً نَزَعَ أَسْنانَ الحِرْصِ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ، وَأَغْلَقَ بابَ شَرَهِ الفَمِ عَنْ شُرْبِ الدَّمّ، *والنَّاسُ على دِيْنِ مُلُوْكِهِم*، نَصٌّ مُتَّبَعٌ وَأَمْرٌ مُنْتَفَعٌ، وَبِهذِهِ الوَسائِلِ والذَّرائِعِ كانَ يَجِدُ كُلَّ يَوْمٍ مَقاماً آخَرَ جَدِيْداً على بِساطِ القُرْبَةِ، حَتَّى صارَ راسِخَ القَدَمِ، وَصارَ مِنْ جُمْلَةِ المُشِيْرِيْنَ والمُشاوِرِيْنَ، والمُحْرِمِيْنَ والمُجاوِرِيْنَ، يَوماً الأَسَدُ مَعَ جَيْشِ السِّباعِ خَرَجَ في نُزْهَةٍ، رَأى جَمَلاً كانَ قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ القافِلَةِ، وَصارَ تائِهاً، وَهائِماً يَتَرَدَّدُ هُناكَ، الذِّئْبُ والنَّمِرُ والوُحُوْشُ الأُخْرى بِحُكْمِ أَنَّهُ مِنَ الرَّغْبَةِ باللَّحْمِ وَصَلَتِ السِّكِّيْنُ لِلْعَظْمِ، كانَتْ مَخْمَصَةُ الضَّرُوْرَةِ قَدْ أَوْصَلَتْ إلى أنّهُ، لوْ لَمْ يَكُنْ مَشْروعُ مَذْهَبِ المَلِكِ، كانُوا يَطْلُبُونَ رُخْصَةً مِنَ العَقْلِ، وَيَتَعَلَّقُونَ بِقَصْدِ الجَمَلِ، وَحِيْنَ صارُوا مُتَشَمِّرِيْنَ لِهذِهِ الفِكْرَةِ، أَطْلَقَ الأَسَدُ صَرْخَةً عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنْهُ اليَدَ،

وَقالَ لا يَجِبُ أَنْ يَصِلَ لَهُ مِنْ رُؤْيَتِنا هذا اليَوْمَ، ذاكَ الَّذي وَصَلَ لِذاكَ الرَّجُلِ قَبِيْحِ الوَجْهِ مِنْ رُؤْيَةِ المَلِكِ، الوُحُوْشُ قالَتْ، إِذا كانَ المَلِكُ يَأْمُرُ بالحِكايَةِ، يَجِدُ العَبِيْدُ مِنْ فوائِدِ تِلْكَ النَّصِيْبَ،

قِصَّةُ المَلِكِ مَعَ الرَّجُلِ قَبِيْحِ الوَجْهِ

قالَ الأَسَدُ، سَمِعْتُ أَنَّ خَسْرُو أَثارَهُ في وَقْتٍ نَشاطُ الصَّيْدِ، وهكذا صارَ خارِجاً للصَّحْراءِ، جاءَتْ عَيْنُهُ على رَجُلٍ قَبِيْحِ الوَجْهِ، ذي دَمامَةِ مَنْظَرٍ وَلِقاءٍ مُنْكَرٍ، لَمْ يَرَ ذاكَ فَأْلاً مُبارَكاً، أَمَرَ أَنْ يُبْعَدَ مِنْ أَمامِ المَوْكِبِ وَعَبَرَ، الرَّجُلُ رَغْمَ أَنَّهُ كانَ يَمْلِكُ القُبْحَ في الصُّوْرَةِ، فَإِنَّهُ، مِنْ جَمالِ مَحاسِنِ الخِصالِ، كانَ طَلَبَ كُلَّ ما كانَ أَكْثَرَ زِيْنَةً مِنْ وَجْهِ العَمَلِ، قالَ مَعَ النَّفْسِ، خَسْرو في هذا الأَمْرِ يُعِيْبُ بركارَ النَّقَّاشِ، لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ لِناسِجِي حِبالِ الفِطْرَةِ في التَّكْوِيْنِ لَمْ يَكُنْ خَطَأٌ بالتَّلْوِيْنِ بِمِقْدارِ رَأْسِ إِبْرَةٍ واحِدَةٍ، أنا سَأُلْقِيْهِ على رَأْسِ حَبْلِ الصِّدْقِ، حَتَّى يَصِيْرَ مُتَنَبِّهاً لِمَوْضِعِ هذا الغَلَط، وَيَعْلَمَ أَنَّ قُرْعَةَ فَأْلِ السُّوْءِ ذاكَ راجِعَةٌ لاسْمِهِ، وَقَدْ جَعَلَ حَوالَةَ ذاكَ واقِعَةً عَلَيَّ، حِيْنَ رَجَعَ خَسْرُو مِنْ مَحَلِّ الصَّيْدِ، وَقَدْ أَعْطى لِشاهِيْنَ الهِمَّةِ الطَّيَرانَ، وَجاءَ بالواقِعِ والطَّائِرِ مِنَ الفَلَكِ المُعَلَّقِ، مِنْ أَوْجِ المُحَلَّقِ، في مِخْلَبِ طَلَبِهِ، وَأَلْقى قِلادَةَ التَّقْلِيْدِ على الدُّبِّ الأَكْبَر، وَجُرَّةَ التَّسْخِيْرِ على الدُّبِّ الأَصْغَرِ، وَسَحَبَ نَمِرَ الزَّمانِ ذا اللَّوْنَيْنِ بِزِمامِ القَهْرِ، وَوَضَعَ على

غِزلانِ شَوارِدِ الأماني لِجامَ الحُكْمِ، وَكُلُّ صَيْدِ أَمَلٍ كانَ أَكْثَرَ سِمَناً عَلَّقَ على حَمائِلِ الإدراكِ،

وَقَدْ أَعطى بِقَلَمِ الدَّوْلَة القَرارْ السَّيْفُ لِلدَّوْلَةِ جاءَ صَدِيْقَ الغارْ

عَنْ حاجِبِ البَخْتِ فَتَحَ العُقْدَة أَغْلَقَ على الصَّيْدِ جَمِيْعاً الدَّوْلَة

اِتِّفاقاً وَصَلَ إلى عَيْنِ ذاكَ المَكان، الَّذي كانَ وَجَدَ بِهِ ذاكَ الرَّجُلَ، الرَّجُلُ مِنْ بَعِيْدٍ نادى بالصَّوْتِ، أنْ لِي سُؤالٌ في حِجابِ النَّصِيْحَةِ، إنْ كانَ المَلِكُ ساعَةً يَسْحَبُ عِنانَ العَظَمَةِ، وَيَنْزِلُ قَدَماً عَنْ ذُرْوَةِ الكِبْرِياءِ، وَيُعْطي لِذاكَ سَمْعَ القَبُوْلِ، ذاكَ لا يَكُوْنُ خالِياً مِنَ الفائِدَةِ، خَسْرُو سَحَبَ عِنانَ الجَوادِ وَقالَ أَيْ شَيْخُ تَعالَ، ما عِنْدَكَ، قالَ أَيْ مَلِكُ هذا اليَوْمَ نُزْهَةُ صَيْدِكَ كَيْفَ كانَتْ، قالَ كُلُّ شَيْءٍ كانَ بالمُرادِ وَأَكْثَرَ وَأَجْمَلَ، قالَ خَزانَةُ وَأَسْبابُ مُلْكِكَ على القَرارِ، قالَ نَعَمْ، قالَ مِنْ أَيِّ جانِبٍ ما سَمِعْتَ خَبَراً غَيْرَ مُوافِقٍ، قالَ لَمْ أَسْمَعْ، قالَ مِنْ الخَيْلِ والخَدَمِ الَّذيْنَ هُمْ في رِكابِ خِدْمَتِكَ، أَوَصَلَ لِأَيِّ واحِدٍ أَذىً مِنَ الحَوادِثِ، قالَ لَمْ يَصِلْ، قالَ إذَنْ بِذاكَ الإذْلالِ والإسْتِهانَةِ لِماذا أَمَرْتَ بِإبْعادي، قالَ لِأَنَّ رُؤْيَةَ أَمْثالِكَ تُؤْخَذُ شُؤماً على النَّاسِ، قالَ بِهذا الحِسابِ فإنَّ رُؤْيَةَ المَلِكِ كانَتْ الشُّؤمَ عَلَيَّ، لا رُؤْيَتي كانَتِ الشُّؤمَ على المَلِكِ، خَسْرُو مِنْ كَوْنِهِ كانَ يَمْلِكُ كَمالَ العَدْلِ والإنْصافِ سَلَّمَ، وَطَلَبَ الأَعْذارَ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ،

حَتَّى رُؤْيَتي تَجِيْءُ مُبارَكَةً على كُلِّ مَنْ تَجِيْءُ عَلَيْهِ، وَحَتَّي يُظْهِرُوا بِمَيامِنِها التَّفَأُّلَ، ثَمَّ حَرَّرُوا الجَمَلَ وَأَعْطَوْهُ زِمامَ الإِخْتِيار، لِيَرْعى وَيَرْتَعَ بِمُرادِ النَّفْسِ في رِياضِ الرَّاحَةِ تِلْكَ بِلا رِياضَةِ أَيِّ حِمْلِ كُلْفَةٍ، وَيَأْخُذَ الاِرتِباطَ بالأَسَدِ بالأُلْفَةِ، وَيُقْسِمَ القَسَمَ العَظِيْمَ أَنْ يَكُونَ لائقاً بِنِعْمَتِهِ، حَتَّى تَجِيْءَ قَدَمُ صِدْقِهِ في طَلَبِ مراضي الأَسَدِ مَعْلُوْمَةً، وَمَساعِيْهِ مَشْكُوْرَةً، وَمَقاماتُهُ المَبْرُوْرَةُ، مِنْ عُبُوْدِيَّتِهِ الحَسَنَةِ وَمَسْلَكِهِ الطَّاهِرِ في طَرِيْقِ الخِدْمَةِ، مُحَقَّقَةً، وَبِحُسْنِ التِفاتِ المَلِكِ مَلْحُوْظَةً، إلى أَنْ صارَ بِأَنْواعِ الكَراماتِ مَحْظُوْظاً، لِحَدٍّ زادَتْ بِهِ للدُّبِّ الغَيْرَةُ على مَقامِ تَقَدُّمِهِ، إِلَا أَنَّهُ لَمْ يَرَ الصَّلاحِ في إِظْهارِ ذاكَ، وَلَمْ يَعْرِفِ المَنْفَعَةَ بِإِظْهارِ ذاكَ، فَظاهِراً مَدَّ لَهُ يَدَ النَّصِيْحَةِ، وَصارَ مَعَهُ بالصُّحْبَةِ والخِلْطَةِ بالتَّكَلُّفِ، وَيَرُوْحُ وَيَجِيْءُ مَعَهُ بالتَّمَلُّقِ، وَيُظْهِرُ المُداجاةَ في بُرْدَةِ المُداراةِ، وَحَيْثُ كانَ يَراهُ هكذا سَمِيْناً وَمُمْتَلِئَ الكِفْلِ وَتامَّ اللَّحْمِ، حَتَّى أَنَّ الجِلْدَ لَمْ يَكُنْ يَسْتَوْعِبُهُ مِنَ النَّشاطِ، صارَتْ أَسْنانُ الطَّمَعِ للدُّبِّ حادَّةً، وَقالَ تَحْتَ اللِّسانِ، *أَخَذَتِ العِيْرُ أَسْلِحَتَها*، ما يَكُونُ تَدْبِيْرُ كَسْرِ هذا الجَمَلِ، ما هُوَ الطَّرِيْقُ المُفْضي إلى هَلاكِهِ، إِنَّهُ لَيْسَ غَيْرَ أَنْ أُثِيْرَ عَلَيْهِ حَفِيْظَةَ الأَسَدِ، وَأُفَكِّرَ لَهُ بِسَبَبٍ يَصِيْرُ بِهِ مَقْتُولاً عَنْ يَدِ الأَسَدِ، فَمِنْ بَعْدِ مَقْتَلِهِ يَصِيْرُ أَكْلُ لَحْمِهِ وَشُرْبُ دَمِهِ، تَقَرُّباً كَبِيْراً في خِدْمَةِ المَلِكِ،

بَدْءُ المُكايَدَةِ الَّتي عَمِلَ الدُّبُّ مَعَ الجَمَلِ

ثُمَّ في يَوْمٍ قالَ الدُّبُّ لِلْجَمَلِ، أَيْ أَخُ لِيْ مَعَكَ سِرٌّ، فَمَضَرَّةُ وَمَنْفَعَةُ ذاكَ مُتَعَلِّقانِ بِنَفْسِكَ العَزِيْزَةِ، وَثَمَرَةُ الخَيْرِ والشَّرِّ مِنْ ذاكَ لَنْ تَرْجِعَ إلَّا لِذاتِكَ الشَّرِيْفَةِ، أنتَ شَخْصٌ ساذَجُ القَلْبِ والسَّرِيْرَةِ، وَرُبَّما لا تَمْلِكُ وَدِيْعَةَ الأَسْرارِ، وَفي تِلْكَ الحالِ إِذْ تَطْلَعُ لِلِسانِكَ الكَلِمَةُ، يَكُوْنُ اخْتِيارُ التَّفْكِيْرِ بِحِفْظِ تِلْكَ مُتَعَذِّراً عَلَيْكَ، وَقالُوا لا تَقُلِ السِّرَّ للرَّجُلِ ساذَجِ القَلْبِ وَمُكْثِرِ القَوْلِ وَشارِبِ الخَمْرِ وَمُتَفَرِّقِ الصُّحْبَة، فَإِنَّ هذِهِ الطَّائِفَةَ مِنَ الرِّجالِ غَيْرُ قادِرَةٍ على التَّحَفُّظِ وَكِتْمانِ ذاكَ، وَفَجْأَةً يَجِيْءُ تَرَشُّحٌ مِنْ وِعاءِ خاطِرِ أَحَدِهِمْ ظاهِراً، واللِّسانُ الَّذي هُوَ سَفِيْرُ الضَّمِيْرِ يَقُولُ الكَلِمَةَ الَّتي لا يَجِبُ أَنْ تُقالَ، بِلا إِذْنٍ مِنْهُ، وَتَصِيْرُ السَّبَبَ لِهَلاكِ قَوْمٍ، *وَكَمْ مِنْ إِنْسانٍ أَهْلَكَهُ لِسانٌ، وَكَمْ مِنْ حَرْفٍ أَدَّى إِلى حَتْفٍ*، قالَ الجَمَلُ، قُلْ فَلَسْتَ في حاجَةٍ لِهذا الاِحْتِياطِ، وَإِذا أَرَدْتَ اعْتِمادَ ذاكَ، وَجَبَ بالأَقْسامِ العَظِيْمَةِ تَوْثِيْقُ ذاكَ، وَوَضْعُ خَتْمِ مواثِيْقِ العُهُوْدِ على ذاكَ، ثُمَّ بَعْدَها تَذْهَبُ المُعاهَدَةُ بالوَسَطِ، أَنْ لا يُعْطى الاِطِّلاعُ على ذاكَ لِأَيِّ شَخْصٍ، مِنْ صَدِيْقٍ وَعَدُوٍّ، وَمِنْ هُناكَ ذَهَبا لِخَلْوَةِ البَيْتِ، وَأَخْلَيا المَكانَ مِنَ الغُرَباءِ، ثُمَّ الدُّبُّ قالَ، لا شَكَّ أَنَّ الأَسَدَ بِشِعارِ الدِّيْنِ والتَّحَنُّفِ والقَناعَةِ والتَّعَفُّفِ الَّذي هُوَ مُلابِسُهُ، يَمْلِكُ الفَضِيْلَةَ الشَّائِعَةَ على جَمِيْعِ مُلُوْكِ السِّباعِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَمْسَكَ عِنانَ

ذِراعَي اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ باليَدِ، وَقَدْ وَضَعَ القَدَمَ على صَهَواتِ الآمالِ النَّفْسانِيَّةِ، وَقَيَّدَ جُمُوْحَ الطَّبِيْعَةِ، بِزَواجِرِ الشَّرِيْعَةِ، لكِنَّهُ قِيْلَ، أَخْلاقُ الرِّجالِ تَدُوْرُ بِدَوْرَةِ الزَّمانِ، وَتَصِيْرُ مُنْتَقِلَةً بانتِقالِهِ، وَكُلُّ وَقْتٍ وَكُلُّ أوانٍ لَهُ في نُفُوْسِ الآدَمِيِّيْنَ تَأْثِيْرٌ آخَرٌ وَيُظْهِرُ خاصِّيَّةً جَدِيْدَةً، وَكَأَنَّ لِأَحْوالِ النَّاسِ في ظَرْفِ الزَّمانِ الصِّفَةَ نَفْسَها الَّتي تَكُوْنُ لِلْماءِ في الآنِيَةِ المُلَوَّنَةِ، كما قِيْلَ،

أنا في عَيْنِكَ كانَ بالسِّحْرِ حَدِيْثي   فإِذا جِئْتُ لِلْفَمِ كانَ ضَيِّقاً حَدِيْثي
وهذا كانَ مِنْ لَطافَةِ الحَدِيْثِ أَيْضاً   فالماءُ يَتَلَوْنُ بِلَونِ الإِناءِ أَيْضاً

ثُمَّ هُوَ هكذا عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ الَّذي وَجَدَ التَّرَبِّيَ عَلَيْهِ في مَبْدَأِ الخَلْقِ، وَفي مَحَلِّ اللَّبَنِ مِنْ ثَدْيِ مُرَبِّيَةِ فِطْرَةِ مَصِّ دَمْ الحَيَواناتِ، وَقَدْ كانَتْ قُطِعَتْ سُرَّةُ وُجُوْدِهِ على ذاكَ، ثُمَّ أرْجَعَ الطَّبْعَ عَنْ ذاكَ، وَتَرَكَ تِلْكَ العادَةَ جانِباً، فَجائِزٌ أَنَّهُ يَجِيْءُ زَمَنٌ آخَرٌ يُرْجِعُ لَهُ تِلْكَ العادَةَ ذاتَها، وَيَصِيْرُ مَعَ الطَّبْعِ الأَوَّلِ،

وَمَنْ يَقْتَرِفْ خُلْقاً سِوى خُلْقِ نَفْسِهِ   يَدَعْهُ وَتُرْجِعْهُ إِلَيْهِ الرَّواجِعُ

وَأَيْضاً الشِّدَّةُ وَضَرْبُ الأَعْناقِ مِنْ شِيَمِ المُلُوْكِ، وَتَلَوُّنُ الطَّبْعِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ ذاتِيَّاتِ أَوْصافِهِم، فذاكَ لا يَتْرُكُهُ مَعَكَ بِهذا العِيارِ، وَيَجِبُ لي تَوَقُّعُ التِحاقِ ضَرَرِ ذاكَ بِمُشارَكَتِكَ، إِذَنْ فَيَجِبُ في كُلِّ

حالٍ جَعْلُ الأُذُنِ لِحَرَكاتِ وَخَطَراتِ النَّفْسِ، وَأَنْ تَكُوْنَ مُحْتَرِزاً مِنَ العَثَراتِ والزَّلّاتِ، وَيَقِظَ القَلْبِ وَصاحِياً عَنْ مَساخِطِهِ وَمَراضِيْهِ، لا يَكُوْنُ أَنَّهُ فَجْأَةً بِأَقَلِّ سَبَبٍ يَطْلَعُ لَهُ يَرْجِعُ عَنْ قَرارِ الحالِ، فَقَدْ قالُوا، *السُّلْطانُ يَصُوْلُ صِيالَ الأَسَدِ وَيْغْضَبُ غَضَبَ الصَّبِيِّ*، الجَمَلُ مِنْ غايَةِ السَّذاجَةِ وَسَلامَةِ القَلْبِ الَّتي كانَتْ لَهُ، أَخَذَهُ زَيْفُ الأَمْرِ، وَصارَ مُلْتَفِتاً لِذاكَ الحَدِيْثِ، وَأَعْطاهُ مَحَلَّ القَبُوْلِ، وَقالَ إِنَّهُ مَعْلُوْمٌ أَنَّ كُلَّ ما تَقُوْلُ لا تَقُوْلُهُ إِلّا مِنْ صَمِيْمِ المَحَبَّةِ وَشَفَقَةِ المُسْلِمِ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لِلرِّجالِ كُلَّما طَلَعَ الكَثِيْرُ مِنَ الزَّمَنِ، نَقُصَ مِنْ مُدَّةِ العُمُرِ وَقَبِلَتِ العاداتُ التَّغَيُّرَ، وَرَجَعَ كِلا مِزاجِ الصُّوْرَةِ والصِّفَةِ عَنْ قَرارِ الحالِ، وَجائِزٌ أَنَّ الأَسَدَ مِنَ التَّشْدِيْدِ والتَّكْلِيْفِ في هذِهِ الرِّياضَةِ الَّتي وَضَعَ على النَّفْسِ بالإِمْساكِ عَنِ المَرْغُوْباتِ والفِطامِ عَنِ المَأْلُوْفاتِ مِنَ الطَّبْعِ، وَعَنِ المَآكِلِ والمَطاعِمِ اللَّطِيْفَةِ والمَطْلُوْبَةِ لِلْقَلْبِ، والإِقْتِصارِ على أَكْلِ النَّباتِ والفَواكِهِ، يَجِيْءُ عاجِزاً، وَمِنْ قَلَّةِ الغَذاءِ يَصِلُ الوَهَنُ لِقُواهُ وَأَعْضائِهِ، وَيَعْجِزُ عَنِ المُقاوَمَةِ، آنَذاكَ يَسْعى لِلاِغْتِذاءِ بِطَعامِهِ الأَصْلِيِّ، وَيَصِيْرُ بِحاجَةٍ لِلَّحْمِ، ولا بُدَّ أَنَّهُ مِنْ بَشاعَةِ طَعْمِ الفَواكِهِ يَصِيْرُ التَّنَفُّرُ حاصِلاً لِلذَّوْقِ، فَيَقْصِدُ الإِحْماضَ وَيُظْهِرُ الإِنْهاضَ لِلطَّبِيْعَةِ على ذاكَ، *لِكُلِّ مِزاجٍ عادَةٌ يَسْتَعِيْدُها*، قالَ الدُّبُّ، بِحَمْدِ اللهِ أَنتَ تَعْلَمُ أَحْسَنَ مِنَ الكُلِّ، وَلَسْتَ بِحاجَةٍ لِلإِرْشادِ مِنْ آخَرَ، *إِنَّ العَوانَ لا تُعَلَّمُ الخُمْرَةَ*، لكِنْ لِي حِكايَةٌ في تَبْدِيْلِ الحالاتِ، وَيَدِ

التَّصَرُّفِ المُسَلَّمَةِ للزَّمانِ، تُذْكَرُ عَنْ حالِ الحَيَّةِ والحائِكِ، قالَ الجَمَلُ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

حِكايَةُ الحائِكِ مَعَ الحَيَّةِ

قالَ الدُّبُّ، سَمِعْتُ أَنَّ رَجُلاً كانَتْ حِرْفَتُهُ الحِياكَةَ، وَكانَ يَمْلِكُ امْرَأَةً طاهِرَةَ الصُّوْرَةِ، مُلَوَّثَةَ الصِّفَةِ، كانَ لها مَعَ واحِدٍ آخَرَ، حاشا لِمَنْ يَسْمَعُ، عَقْدُ أُلْفَةٍ مَعْقُوْدٌ، وَطَرِيْقُ خِيانَةٍ مَفْتُوْحٌ، في كُلِّ وَقْتٍ كانَ يَقَعُ للرَّجُلِ اتِّفاقُ غَيْبَةٍ، يَصِيْرُ الاِجْتِماعُ للاِثْنَيْنِ مُيَسَّراً، يَذْهَبانِ في جِلْدٍ واحِدٍ مِثْلَ جُرْمِ اللَّوْزِ مُضاعَفُ اللُّبِّ، وَيَقْرَأانِ كالعَشِيْقَيْنِ،

أنا مِنْ أَهْوى وَمَنْ أَهْوى أنا　　　نَحْنُ رُوْحانِ حَلَلْنا بَدَنا

وَيَرْفَعانِ هذا النَّغَمَ في بُرْدَةِ الاِتِّحادِ،

نَحْنُ واحِدٌ رَغْمَ أَنَّا أنا وَأَنتَ اثْنانِ　　　لَمْ تَتْرُكْ فَرْقاً بيني وبينَكَ، أَنْتَ أنا
هذا العِشْقُ مِنِّي لَكَ جَعَلَنا واحِداً　　　غَلَطٌ مِنِّي القَوْلُ أنا أنتَ وَأَنْتَ أنا

الرَّجُلُ صارَ على عِلْمٍ بِأَمْرِ الزَّوْجَةِ، وَيَوماً قالَ، أَيْ امْرَأَةُ، يَجِبُ عَلَيَّ الذَّهابُ لِلْقَرْيَةِ الفُلانِيَّةِ مُدَّةَ أُسْبُوعٍ بِأُمُوْرٍ مُهِمَّةٍ، وَإِلى أَنْ أَعُوْدَ انْظُرِي، لا تَخْرُجِيْ خارِجَ البَيْتِ، وَأَغْلِقي البابَ بإِحْكامٍ، ولا تُعْطي لِلْغَرِيْبِ الطَّرِيْقَ إِلَيْكِ، قالَتِ المَرْأةُ لا تَأكُلِ الغَمَّ، إنَّ البَيْتَ الَّذي

سَيِّدَتُهُ أنا وَصاحِبُهُ أَنْتَ، حَصِيْنٌ أَكْثَرَ مِنْ قَصْرِ بَلْقِيْسَ الَّذي وَجَدَ الهُدْهُدَ لَهُ الطَّرِيْقَ مِنْ فُرْجَةِ بابٍ صَغِيْرٍ،

الطَّائِرُ الَّذي كانّ طارَ إلى هُنا فَقَدَ الرِّيْشَ
والشَّيْطانُ الَّذي وَصَلَ إلى هُنا وَضَعَ الرَّأْسَ

ما مَحَلُّ هذا الاِشْتِراطِ والاِحْتِياطِ، الحائِكُ ذَهَبَ خارِجاً مِنَ البَيْتِ وَجاءَ على الفَوْرِ راجِعاً، وَزَحَفَ إلى البَيْتِ فَلَمْ تَجِدِ المَرْأَةُ عَنْهُ الخَبَرَ، وَصارَ مُخْتَفِياً تَحْتَ السَّرِيْرِ، المَرْأةُ نَهَضَتْ وَأَعَدَّتْ قِدْراً صَغِيْرَةً مِنَ الطَّعامِ اللَّطِيْفِ، وَذَهَبَتْ لِلْخارِجِ كَيْ تُرْسِلَ شَخْصاً مِنَ الجِيْرانِ بَطَلَبِ ذاكَ المَحْبُوْبِ، والرَّجُلُ خَرَجَ مِنْ تَحْتِ السَّرِيْرِ وَأَكَلَ كُلَّ ذاكَ الَّذي كانَتْ أَعَدَّتْ، أَفْرَغَ القِدْرَ وَخَرَجَ، والمَرْأَةُ رَجَعَتْ وَرَأَتِ القِدْرَ فارِغَةً، *كَراجٍ آبَ في كَفَّيْهِ طِيْنَةٌ*، فَكَّرَتْ أنْ رُبَّما كانَ دَمُ الحَمِيَّةِ جاشَ في عِرْقِ رُجُوْلِيَّةِ زَوْجِها، وَقِدْرُ التَّدْبِيْرِ لِإراقَةِ دَمِها صارَتْ مَطْبُوْخَةً، في الحالِ وَضَعَتِ الحِجابَ، الَّذي كانَتْ قَدْ رَمَتْهُ عَنْ وَجْهِ الخَجَلِ، على الرَّأْسِ، وَجاءَتْ خارِجَ البَيْتِ، اِتِّفاقاً كانَ هذا اليَوْمُ مَشْهُوْراً في كُلِّ المَدِيْنَةِ، فَلَيْلَةَ أَمْسِ المَلِكُ كانَ رأى مَناماً وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَجِدَ مُعَبِّراً يَأْتِيْهِ بِتَعْبِيْرِ رُؤياهُ، المَرْأَةُ مِنْ غايَةِ الحِقْدِ على الزَّوْجِ ذَهَبَتْ إلى إيْوانِ المَلِكِ وَأَوْصَلَتْ إلى سَمْعِهِ أَنَّ زَوْجَها مُعَبِّرٌ مُحْكَمٌ وَحاذِقٌ وَصاحِبُ فِراسَةٍ، لَكِنَّهُ مِنْ غايَةِ الضِّنَّةِ في تَفْسِيْرِ الأَحْلامِ يَكُونُ

مُتَكاسِلاً، ولا يَعْمَلُ العَمَلَ ولا يَقُوْمُ بالتَّعْبِيْرِ إلَّا بِضَرْبِ العَصا والسَّبِّ، المَلِكُ أَرْسَلَ الشَّخْصَ لِيَجِيْئُوا بِزَوْجِها، قالَ لَهُ، لَيْلَةَ الأَمْسِ رَأَيْتُ رُؤيا، ولا أَقْدِرُ أَقْرَأُ شَكْلَ تِلْكَ مِنْ لَوْحِ حافِظَةِ نَفْسي، وبالحَقِيْقَةِ لا أَعْرِفُ كَيْفَ رَأَيْتُها، فانْظُرْ لي في هذِهِ الرُّؤْيا على أَيِّ شَكْلٍ كانَتْ، قالَ الحائِكُ، أَي مَلِكُ أنا رَجُلٌ جاهِلٌ، أنا حائِكٌ، وَتَفْسِيْرُ الرُّؤْيا الَّذي لَيْسَ مَقاماً لِكُلِّ نَبِيٍّ، *وَما نَحْنُ بِتَأْوِيْلِ الأَحْلامِ بِعالِمِيْن*، أَيْنَ أنا مِنْ رَجُلِ هذا الحَدِيْثِ، اِرْفَعِ اليَدَ عَنِّي، الشَّاهُ أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ أَلْفَ عَصا، والرَّجُلُ مِنْ خَوْفِ ضَرْبِ العَصا طَلَبَ الأمانَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ مُهْلَةً، أَعْطَوْهُ المُهْلَةَ، وَجاءَ يَذْهَبُ في كُلِّ رُكْنٍ وَيَضَعُ الوَجْهَ على التُّرابِ، وَيَطْلُبُ مِنَ اللهِ تعالى المَخْلَصَ مِنْ تِلْكَ الواقِعَةِ، في اليَوْمِ الثَّالِثِ ذَهَبَ يَدُوْرُ في خَرابَةٍ، حَيَّةٌ أَخْرَجَتِ الرَّأْسَ مِنْ الجُحْرِ، وَبِإِذْنِ اللهِ تَعالى تَكَلَّمَتْ مَعَهُ، قالَتْ أَيْ رَجُلُ ما مُوْجِبُ هذِهِ الحَسْرَةِ والضَّجْرَةِ، الحائِكُ ذَكَرَ الحالَ، قالَتِ الحَيَّةُ، إذا أنا أَعْطَيْتُكَ الخَبَرَ عَنِ الشَّاهِ وَما كانَ رَأى، مِنْ ذاكَ الَّذي يُعْطِيْكَ ما يَكُوْنُ نَصِيْبي، قالَ الكُلُّ لَكِ، قالَتْ لا، أَعْطِني النِّصْفَ، وَتوافَقا على هذا، قالَتِ الحَيَّةُ، المَلِكُ رأى في النَّوْمِ هكذا، أَنَّ السَّماءَ كانَتْ تُمْطِرُ الأُسُوْدَ والنُّمُوْرَ والذِّئابَ وَأَمْثالَ ذاكَ، الحائِكُ صارَ مَسْرُوْرَ القَلْبِ وَتَقَبَّلَ المِنَنَ، وَذَهَبَ بِخِدْمَةِ الشَّاهِ وَطَلَبَ الخَلْوَةَ، قالَ، كانَ البَقاءُ للدَّوْلَةِ، وَكانَ الشَّاهُ صاحِيَ البَخْتِ، أنتَ رَأَيْتَ في النَّوْمِ هكذا، أَنَّ السَّماءَ

كانَتْ تُمْطِرُ الذِّئابَ والأُسُوْدَ والنُّمُوْرَ، قالَ نَعَمْ كَذلِكَ رَأَيْتُ، قُلِ الآنَ ما يَكُوْنُ تَعْبِيْرُ ذاكَ، الحائِكُ أنْهى ما كانَ لُقِّنَ، أنْ سَرِيْعاً سَيَجِيْءُ ظاهِراً لَكَ خُصُوْمٌ أَقْوِياءُ الحالِ وَمُحارِبُوْنَ مِنْ أَطْرافِ المَمْلَكَةِ، وبالآخِرِ فِتْنَتُهُمْ تَنْطَفِئُ بِماءِ سَيْفِكَ، وَتَنْتَهي بالخَيْرِ، المَلِكُ أَمَرَ أَنْ يُعْطى أَلْفَ دِيْنارٍ مِنَ الذَّهَبِ، صارَ مِنْ بَشاشَةِ الذَّهَبِ لا تَحْتَوِيْهِ كِسْوَةُ البَشَرِيَّةِ، أَخَذَ الذَّهَبَ لِلْمَنْزِلِ مَسْرُوْراً وَطَرِباً وَسَعِيْدَ قَلْبٍ، ثُمَّ فَكَّرَ أَنْ لا يَجِبُ إِعْطاءُ النِّصْفِ مِنْ هذا الذَّهَبِ لِلْحَيَّةِ، ولَنْ تَكُوْنَ راضِيَةً بِأَقَلَّ مِنْ نَصِيْبِها، وَإِذا أنا لَمْ أُعْطِها لا شَكَّ سَوْفَ تَكُوْنُ في الكَمِيْنِ بِقَصْدي، وَمِنْ أَذاها لا أَكُوْنُ آمِناً، لكِنْ إِذا صارَ مُيَسَّراً لا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنْ قَتْلِها، حَمَلَ عَصاً وَذَهَبَ إلى جِوارِ الجُحْرِ، الحَيَّةُ جاءَتْ خارِجَةً، رَأَتِ العَصا في يَدِهِ، قامَتْ بالفِرارِ وَضَرْبَةُ العَصا جاءَتْ على ذَنَبِ الحَيَّةِ، وَدَخَلَتْ بالجُحْرِ مُتَأَلِّمَةً، *وَرُبَّ شارِقٍ شَرِقَ قَبْلَ رِيْقِهِ*، في السَّنَةِ الأُخْرى المَلِكُ رأى مَناماً آخَرَ وَنَسِيَهُ، وَهكذا على القاعِدَةِ أَحْضَرُوا الحائِكَ وَطَلَبَ المُهْلَةَ، وَمِنْ هُناكَ ذَهَبَ إلى بابِ جُحْرِ الحَيَّةِ، وَبِلِسانِ اللُّطْفِ جَعَلَ الحَيَّةَ تَخْرُجُ مِنَ الجُحْرِ لِلْخارِجِ، وَعَنِ الماضِي طَلَبَ الأَعْذارَ، الحَيَّةُ قالَتْ، رَغْمَ أَنَّهُمْ قالُوا، *مُساعَدَةُ الخاطِلِ تُعَدُّ مِنَ الباطِلِ*، أنا سَأُجَرِّبُكَ هذِهِ المَرَّةَ الأُخْرى، ثُمَّ قَبِلَتْ عُذْرَهُ وقالَتْ، الشَّرْطُ الآنَ هُوَ أَنَّكَ تَجْلِبُ لي جُمْلَةَ المالِ، وَأَقْسَمَ القَسَمَ أَنِّي أَفْعَلُ هكذا، قالَتْ قُلْ لِلْمَلِكِ أَنَّكَ رَأَيْتَ في المَنامِ هكذا، أنَّ

السَّماءَ كانَتْ تُمْطِرُ الثَّعالِبَ وَبَناتِ آوى، الرَّجُلُ الحائِكُ جاءَ بِخِدْمَةِ الشَّاهِ، وَجاءَ بالكَلامِ الَّذي كانَ سَمِعَ مِنَ الحَيَّةِ كما كانَ سَمِعَ وَقالَ تَعْبِيْرَ ذاكَ، أنْ في هذا العَهْدِ سَيَظْهَرُ لَكَ خُصُوْمٌ مُحْتالُوْنَ وَمَكَّارُوْنَ وَسُرَّاقٌ وَمُنافِقُوْنَ وَمُخادِعُوْنَ، وَآخِراً يَصِيْرُونَ جَمِيْعاً مَأْخُوْذِيْنَ بِأَعْمالِهِم، وَدَوْلَتُكَ بالجَزاءِ تُنَحِّيْهِمْ جَمِيْعاً، المَلِكُ أَمَرَ أَنْ يُعْطى أَلْفَ دِيْنارٍ أُخْرى، الحائِكُ أَخَذَ النَّقْدَ، وَحِيْنَ الذَّهَبُ أعادَ لَهُ الظَّهْرَ لِجِدارِ المُكْنَةِ والفَراغَةِ، أَحْمَرَ الوَجْهِ قَوِيَّ القَلْبِ، قالَ، الحَيَّةُ تَكُوْنُ راضِيَةً مِنِّي بِذاك، أَنِّي لا أَعْمَلُ قَصْدَ هَلاكِها، *إِساءَةُ المُحْسِنِ أَنْ يَمْنَعَكَ جَدْواهُ وَإِحْسانُ المُسِيْءِ أَنْ يَكُفَّ عَنْكَ أَذاهُ*، حَمْلُ المالِ لَها يَكُوْنُ عَيْنَ السَّفَهِ والسَّرَفِ، وهكذا إلى أنِ انْقَضَتْ سَنَةٌ، المَلِكُ رَأى مَرَّةً أُخْرى مَناماً، وَصُوْرَةُ ذاكَ صارَتْ مَمْحُوَّةً مِنْ صَحِيْفَةِ مُخَيِّلَتِهِ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُ حَرْفٌ واحِدٌ باقِياً، كُلَّ اللَّيْلِ كانَ مُضْطَرِباً بالتَّفْكِيْرِ بِذاكَ، وَمَعَ الفَجْرِ إِذْ زِنْجِيُّ اللَّيْلِ أَخَذَ الرَّأْسَ عَنْ وِسادَةِ المَشْرِقِ، وَأَظْهَرَ الأَسْنانَ البَيْضاءَ مِنْ مَباسِمِ الآفاقِ، أَرْسَلَ بِطَلَبِ الحائِكِ، وَهَكذا ذَهَبَ الإِسْتِطْلاعُ عَنْ حالِ المَنامِ والنِّسْيانِ الَّذي جَرى، قالَ كُلُّ مَنامٍ قَرَأْتُ نَقْشَهُ مِنْ عالَمِ الغَيْبِ، وَأَظْهَرْتُ تَعْبِيْرَهُ على وِفْقِ التَّقْدِيْرِ، لَمْ يَكُنْ ذاكَ إِلَّا بِمَدَدِ الإِقْبالِ واقْتِباسِ نُوْرِ الفِراسَةِ مِنْ خاطِرِ المَلِكِ، وَكُلُّ ذاكَ الَّذي أُرِيْدُ قَوْلَهُ أَيْضاً يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِهذا الإِسْتِمْدادِ أَيْضاً، لكِنَّهُ يَطْلُبُ يَوماً وَيَوْمَيْنِ مِنَ التَّوَقُّفِ والتَّفْكِيْرِ، وَمِنْ هُناكَ ذَهَبَ إِلى بابِ

جُحْرِ الحَيَّةِ، وَنادى بالصَّوْتِ، الحَيَّةُ جاءَتْ خارِجَةً، وَقالَتْ، أَيْ أَمَلي وَعَهْدُكَ كُلُّهُ جَمِيْعاً الرِّيْحُ، مَرَّةً أُخْرى أَتَيْتَ تَبْحَثُ مِنِّي عَنْ تَدْبِيْرِ أَمْرِ مُعْضِلَتِكَ، نَعَمْ بِأَيَّةِ راحَةٍ بِأَيِّ سَلامٍ، بالجُمْلَةِ أنتَ كُنْتَ لائِقاً بالتَّسامُحِ الَّذي فَعَلْتُ وَلِسانِ التَّفاصُحِ، وَصِرْتَ مُنْخَدِعاً بِذاكَ، غَيْرَ أَنِّي وَجَدْتُ في تِلْكَ المُعامَلَةِ نُقْصانَ إِيْمانِي، لَمْ أَحْصَلْ لِنَفْسِي على نَفْعٍ، وَقَدْ جاءَ في الأَخْبارِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، *لا يُلْدَغُ المُؤمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ*، وَأنا هذا اليَوْمَ مِنْ زُمْرَةِ تِلْكَ الطَّائِفَةِ، ذلِكَ أنِّي مَرَّتَيْنِ على بابِ هذا الجُحْرِ، بِضَرْبِ عَصاكَ وَسَبِّ لِسانِكَ وَجَدْتُ جَوارِحَ الصُّوْرَةِ والمَعْنى مَجْرُوْحَةً، والآنَ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ أَصِيْرُ مُتَعَرِّضَةً، مَعاذَ اللهِ،

صادِقْ خَلِيْلَكَ ما بَدا لَكَ نُصْحُهُ فَإِذا بَـدا لَـكَ غِشُّـهُ فَتَبَـدَّلِ

لَمْ يَكُنْ لِلرَّجُلِ لِسانُ الاِعْتِذارِ، ولا وَجْهُ الاِسْتِغْفارِ، وَمُطَأْطِئَ الرَّأْسِ أَسْوَدَ الوَجْهِ مِنَ الخَجَلِ مِنْ سُوْءِ فِعْلَهِ قالَ،

تَبَسَّطْنا على الآثامِ لَمَّا رَأَيْنا العَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذُّنُوْبِ

عَفْوُكِ زائِدٌ عَنْ جَرِيْمَتي، مَرَّةً أُخْرى خُذِي بِيَدِ هذا الواقِعِ،

أنا سَيِّئُ العَهْدِ فَعَلْتُ الَّذي بِي يَلِيْق
أنْتِ خَيْرٌ مِنِّي اِفْعَلِي الَّذي بِكِ يَلِيْق

الحَيَّةُ قالَتْ، اَلشَّرْطُ الآنَ هُوَ أَنْ تَحْمِلَ لي كُلَّ جائِزَةٍ أَعطاكَ الشَّاهُ في هذِهِ المَرَّةِ والمَرَّاتِ السَّابِقَةِ، حَتَّى نُقْسِمَ القَسَمَ بالصِّدْقِ، وهذِهِ المَرَّةَ لا تَرى مَنامَ الخِيانَةِ مَرَّةً أُخْرى، حَتَّى أَقُوْلَ أَيَّ مَنامٍ رَأى المَلِكُ، وَما تَكُوْنُ العِبارَةُ مِنْ ذاكَ، الرَّجُلُ أَظْهَرَ الاِلْتِزامَ، وَعَلى ذاكَ العَقْدِ عَقَدا المُعاهَدَةَ مِنْ جَدِيْدٍ، قالَتِ الحَيَّةُ، اِذْهَبْ وَقُلْ رَأَيْتَ في المَنامِ هكذا، أَنَّ السَّماءَ كَنَتْ تُمْطِرُ الخِرافَ والشِّياهَ وَأَمْثالَها، وَهذا مُعَبَّرٌ بِذاكَ المَعْنى، أنَّهُ في عَهْدِكَ بِعِزِّ الدَّوْلَةِ وَمَيامِنِ المَعْدَلَةِ وَحُسْنِ سِياسَةِ المُلْكِ، وَقَدْ أَخَذَ جُمْلَةُ الخَلْقِ لَوْنَ المُوافَقَةِ، وارْتَفَعَ مِنَ الوَسَطِ الحَرْبُ والمُدافَعَةُ، وَحَمْلُ الحِقْدِ والمُسافَعَةُ، والجَمِيْعُ صارَ لِأَمْرِ الشَّاهِ مِطْواعاً وَمُنْقاداً، وَأَخَذَ المُلْكُ والوِلايَةُ القَرارَ على الأَمْنِ والسُّكُوْن، وَصارَ زائِلاً الفُتُوْرُ والفُتُوْن، الحائِكُ ذَهَبَ إلى بابِ قَصْرِ المَلِكِ، وَأَعادَ قَوْلَ كُلِّ ما لَقَّنَتْهُ الحَيَّةُ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِيْنارٍ أُخرى مِنَ الخِزانَةِ بالتَّعَهُّدِ، والدَّرَجَةُ الَّتي لَمْ تَكُنْ نُسِجَتْ بِقَدَمِ الحائِكِ، وَجَدَ مِنْ إِنْعامِ واحْتِرامِ المَلِكِ، قالَ مَعَ النَّفْسِ، هذِهِ المَرَّةَ يَجِبُ إِيْثارُ الحَيَّةِ بالكُلِّ، وَيَجِبُ إِيْصالُ آثارِ العَهْدِ الجَمِيْلِ، والعُذْرِ الَّذي مَهَّدْتُ لَها بالقَوْلِ، للتَّأكِيْدِ، فَلَيْسَ لي في مُشْكِلاتِ الأُمُوْرِ اللَّامَحْصُوْرَةِ حِيْلَةٌ مِنَ الرُّجُوْعِ إِلَيْها، ثُمَّ أَخَذَ الثَّلاثَةَ أَلْفِ دِيْنارٍ وَحَمَلَها أَمامَ الحِيَّةِ، وَنادى الحَيَّةَ الَّتي جاءَتْ خارِجَةً، وَتَبادَلا السَّلامَ، وَوَضَعَ أمامَها الذَّهَبَ المَخْتُومَ، وَعَنِ الماضي طَلَبَ الأَعْذارَ، وَقالَ،

رِضاكَ شَبابٌ لا يَلِيْهِ مَشِيْبُ وَسُخْطُكَ داءٌ لَيْسَ مِنْهُ طَبِيْبُ

هذِهِ إِشارَةُ الوَفاءِ بالعَهْدِ، والتَّفَصِّي مِنْ عُهْدَةِ حُقُوْقِ ذاكَ،

كَيْ لا تَحْمِلَ الظَّنَّ أَنِّي بَعِيْدٌ عَنْ عَهْدِك

رَأْسي تَكُوْنُ هُناكَ حَيْثُ كانَ خَطُّ أَمْرِك

قالَتِ الحَيَّةُ، الآنَ اعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ كُلِّ ذاكَ الَّذي جَلَبْتَ لا مِنَّةَ، وَمِنْ ذاكَ الَّذي لَمْ تَجْلِبْ لا مُؤاخَذَةَ ولا مُطالَبَةَ، فَكُلُّ الَّذي جاءَ يَمْلِكُ لَوْنَ الزَّمان، أَوَّلُ ذاكَ أَنَّكَ أَوْصَلْتَ لِي الضَّرَرَ والأَلَمَ، أَهْلُ الزَّمانِ كُلُّهُمْ شِرِّيْرٌ وَحَقُوْدٌ وَطالِبٌ لِلْفِتْنَةِ، وَفي حِجابِ النَّوْمِ صُوْرَتُهُمْ تَظْهَرُ في كِسْوَةِ السِّباعِ والمُفْتَرِساتِ، في النَّوْبَةِ الثَّانِيَةِ إِذْ خَدَعْتَني، وَذَهَبْتُ في جَوالِ نِفاقِكَ واخْتِداعِكَ، أَهْلُ الزَّمانِ كُلُّهُمْ رِياءٌ وَمَمْلُوْؤونَ بالفُتُونِ، والتَّبَصْبُصُ والمُدالَسَةُ غالِبانِ على طِباعِ الجَمِيْعِ، لا جَرَمَ أَفْعالُهُمْ وَأَخْلاقُهُمْ جَمِيْعاً تَظْهَرُ بالنَّوْمِ بَصُوْرَةِ الثَّعْلَبِ وابْنِ آوى مِنْ وَجْهِ المُشاكَلَةِ، والآنَ إِذْ أَظْهَرْتَ الوَفاءَ بِما قُلْتَ وَقَبِلْتَ، وَأَبْعَدْتَ عَنْكَ التَّجَنُّبَ والتَّجافي، وَعَرَفْتَ التَّوَفُّرَ على حُقُوْقِ العَهْدِ الواجِبِ، صارَ لِلزَّمانِ على العُمُوْمِ عَيْنُ هذِهِ الصِّفَةِ، لا جَرَمَ أَنَّ الشَّاهَ الَّذي مِرْآةُ ذِهِنِهِ أَصْفى مَرايا أَذْهانِ الخَلْقِ، الصُّوْرَةُ المُوافِقَةُ وَالمُطابِقَةُ لِأَقْوالِ وَأَفْعالِ البَشَرِ تُظْهِرُ فِيْها نَقْشَ خَرُوْفٍ وَشاةٍ وَحَمَلٍ وَما شابَهَ ذاكَ، فَإِنَّ أَجْناسَ هذِهِ الحَيَواناتِ أَبْعَدُ عَنْ مَعَرَّةِ الفَسادِ، وَمَجْبُوْلَةٌ أَكْثَرَ على

التَّسَخُّرِ والاِنْقِيادِ، خُذِ الذَّهَبَ فَأنا لَسْتُ مُحْتاجَةً لِذاكَ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، كَيْ تَعْلَمَ فَإِنَّهُ جائِزٌ في العَقْلِ أنَّ الأَسَدَ عَنْ هذِهِ يَرْجِعُ الصِّفَةِ الَّتي يَمْلِكُ، وَلَيْسَ خارِجاً عَنْ مَعْرَضِ عَوارِضِ الحالاتِ، وَحَيْثُ أنَّ الوُقُوْفَ على مَغَبَّةِ أَحْوالِ الدَّهرِ وَنَقْضِهِ وَإِبْرامِهِ لَيْسَ حاصِلاً، واحْتِمالُ الشَّرِّ الَّذي لَوْ صارَ واقِعاً، إمْكانُ دَفْعِ ذاكَ يَصِيْرُ عَسِيْراً، قائِمُ قَضِيَّةِ العَقْلِ بِطَلَبِ الحِيْلَةِ لِذاكَ قَبْلَ وُقُوْعِهِ، واللُّجُوْءُ إلى جِدارِ عَقْدِ الحَزْمِ والاِحْتِياطِ، *مَنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ قُوَّتُهُ أَخَّرَهُ عَجْزُهُ*، قالَ الجَمَلُ إنَّهُ يَظْهَرُ لي أنْ أنتَقِلَ مِنْ مَحَلِّ الخَطَرِ هذا، وَأَطْلُبَ مَحَلّاً آخَرَ للسَّلامِ يَكُوْنُ بَعِيْداً عَنْ مَساكِنِ البَشَرِ، وَتَكُوْنُ يَدُ تَصَرُّفِ الآدَمِيِّ قَصِيْرَةً عَنْ ذاكَ المَكانِ، فَإِنَّ هذا الزَّمانَ مَحَلُّ إشارَةٍ على مَوْعِدِ هذا الخَبَرِ، إذْ قَرَّرَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، *يَأْتي على أُمَّتي زَمانٌ لا يَسْلَمُ لِذي دِيْنٍ دِيْنُهُ إلّا إذا فَرَّ مِنْ جَبَلٍ إلى جَبَلٍ وَمِنْ شاهِقٍ إلى شاهِقٍ*، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ المَوْتَ يَمْلِكُ الفَضِيْلَةَ على الحَياةِ غَيْرِ المُهَنَّاةِ، وَأَيَّةُ لَذَّةٍ يُمْكِنُ أنْ تُوْجَدَ مِنَ التَّعَيُّشِ الَّذي لا يَذْهَبُ بالأَمْنِ والفَراغِ، قالَ الدُّبُّ في كُلِّ مَكانٍ نَذْهَبُ إِلَيْهِ لا بُدَّ لَنا مِنْ عَمَلِ الخِدْمَةِ لِأميْرٍ وَصاحِبِ ظِلٍّ، فالبَشَرِيَّةُ عَرَضٌ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ قائِماً بِذاتِهِ، وَخاصَّةً لِنا نَحْنُ الاِثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ بَقِيْنا كَنُقْطَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ في وَسَطِ دائِرَةِ الآفاتِ، كُلُّ سَهْمٍ كانَ فاعِلاً أَكْثَرَ وَضَعُوْهُ في الجُعْبَةِ مِنْ أَجْلي، وَكُلُّ رَسَنٍ كانَ مُحْكَماً أَكْثَرَ غَزَلُوْهُ مِنْ أَجْلِ دائِرَةِ عُنُقِكَ،

وَنَحْنُ اللَّذَانِ جِئْنا إلى مَلْجَأِ حِمايَةِ الأَسَدِ، وَعَرِفْناهُ بالمَعْرِفَةِ الشَّامِلَةِ، وَجَعَلْنا ثابِتاً الكَثِيْرَ مِنْ مُقَدِّماتِ الخِدْمَةِ الحَسَنَةِ، لا نَزالُ إلى الآنَ في هذا الفِكْرِ، فَكَيْفَ بالآخَرِ الَّذي ما خَبِرْناهُ وَما عَرَفْناهُ، ماذا يُمْكِنُ أَنْ نَنْتَظِرَ مِنْهُ مِنَ الوَفاء، إلَّا أَنَّهُ لِلرَّجُلِ الَّذي يَكُوْنُ خائِفاً مِنَ الخَصْمِ القَوِيِّ، وَلَحْظَةً فَلَحْظَةً يَكُوْنُ بِتَغَيُّرِ النِّيَّةِ والتَّفْكِيْرِ بالأَذِيَّةِ، على حَذَرٍ مِنْهُ، للتَّسَلِّي مِنْ ذاكَ البَلاءِ، والتَّخَلِّي عَنْ مِخْلَبِ ذاكَ الاِبْتِلاءِ، لا حِيْلَةَ مُمْكِنَةٌ إلَّا الوُقُوْفُ بالقَصْدِ الكُلِّيِّ، وَرَفْعُ زَحْمَةِ وُجُوْدِهِ مِنَ الوَسَطِ، كما فَعَلَتِ الحَيَّةُ مَعَ ساحِرِ الحَيَّاتِ، قالَ الجَمَلُ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ ساحِرِ الحَيَّةِ والحَيَّةِ

قالَ الدُّبُّ، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَتْ حَيَّةٌ ثُعْبانٌ، بالأَلْوانِ أَرْقَمٌ، وبالأَشْكالِ مُرَقَّمٌ، نائِمَةً بِأَسْفَلِ جَبَلٍ، وَقَد جَعَلَتْ عُقْدَةَ الذَّنَبِ على الرَّأْسِ، حَتَّى تَجْعَلَ الشَّمْسُ الأَنْظارَ مُغَطَّاةً عَنْ مَنْظَرِها الكَرِيْهِ، فَتَحَتِ العَيْنَ، رَأَتْ ساحِرَ الحَيَّاتِ بِجِوارِها وَقَدْ صارَ قَرِيْباً جِدَّاً مِنْها، بِحَيْثُ لَمْ تَرَ للنَّفْسِ مَجالاً لِلْهُرُوْب، فَكَّرَتْ أَنْ إذا أنا هَرَبْتُ لَحِقَ بي، وَإِذا ذَهَبْتُ في الجُحْرِ، أَخَذَ المَنْفَذَ، فَسَأَجْعَلُ مِنَ النَّفْسِ مَيْتَةً، عَسى يَعْبُرُ عَنِّي، سَعِدَ حَيُّ القَلْبِ الَّذي أماتَ حَيَّةَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بالحَياةِ، يَعْني مِثْلَ الصِّدِّيْقِ، أَظْهَرَ إماتَةَ الصِّفاتِ البَشَرِيَّةِ في جَوْهَرِ النَّفْسِ، ثُمَّ لِسانُ

النُّبُوَّةِ عَمِلَ العِبارَةَ عَنْ ذاكَ، أنْ، *مَنْ أَرادَ أنْ يَنْظُرَ إلى مَيِّتٍ يَمْشي على وَجْهِ الأرْضِ فَلْيَنْظُرْ إلى أَبي بَكْرٍ*، حَتَّى بِماءَ حَياةِ السَّعادَةِ يَصِيْرُ حَيَّاً لِلأَبَدِ،

مُتْ أَيْ صَدِيْقُ قَبْلَ المَوْتِ إنْ كُنْتَ تَطْلُبُ الحَياةَ

فَإِدْرِيْسُ مِنْ مِثْلِ هذا المَوْتِ صارَ لِلْجَنَّةِ مِنْ قَبلِنا

اَلْقِصَّةُ الرَّجُلُ ساحِرُ الحَياةِ نَظَرَ إِلَيْها حَسَناً بالتَّأَمُّلِ، ظَنَّها مَيْتَةً، قالَ أَسَفاً، لَوْ كُنْتُ وَجَدْتُ هَذِهِ الحَيَّةَ حَيَّةً، لا مِلْواحَ لِمَخارِيْقِ شِباكِ الدُّنْيا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ منْ هذِهِ، وَلَكُنْتُ عَمِلْتُ بِذاكَ كَسْباً كَثِيْراً، لكِنْ مِنْ هذا الشَّكْلِ والهَيْئَةِ يُمْكِنُ عَمَلُ الاِسْتِدْلال، فَمُشَعْبِذُ الزَّمانِ مِنْ هذِهِ الحُقَّةِ اللّازَوَرْدِيَّةِ يَكُوْنُ أَخَذَ الخَرْزَةَ، وَأَخْفاها في قَفاها، سَآخُذُ هذِهِ لِلْخارِجِ فَهِيَ ذَخِيْرَةٌ تامَّةٌ، قالَتِ الحَيَّةُ لِلنَّفْسِ صارَ لي يَقِيْناً أَنَّ المَوْتَ في القَفا، الهَرَبُ لا يُجْدي نَفْعاً، إذا مِنْ أَجْلِ اسْتِخْراجِ الخَرْزَةِ يَجِيْءُ إلى جِهَتِي، أن هكذا يُمْكِنُ أنْ أَلْدَغَهُ لَدْغَةً، فالأولى أَنِّي لا أَقْطِفُ خَرْزَةَ التَّسْلِيْمِ، حَتَّى أُجْرِيَ عَمَلي، ساحِرُ الحَيَّةِ مَدَّ اليَدَ لِلأَسْفَلِ كَيْ يَأْخُذَ الحَيَّةَ فَلَدَغَتْهُ لَدْغَةً فاعِلَةً بِيَدِهِ، وَجعَلَتْهُ هلاكاً في المَكانِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أَنِ الرَّجُلُ بَعِيْدُ الفِكْرِ لا يَجِبُ أنْ يَنْظُرَ كَثِيْراً فِيْما قَبْلَ وَبَعْدَ الأَعْمالِ حَتَّى يَصِيْرَ وَقْتُ تَدارُكِ أَمْرِهِ

فائِتاً، بَلْ في ذاكَ الَّذي يرى بِهِ المَصْلَحَةَ، يُوْصِلُ العَزْمَ بِلا تَهاوُنٍ للإنْفاذِ،

إذا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصالاً لِفاتِكٍ وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقالاً لِعالِمِ

وَإِلَّا فَخانَتْني القَوافي وَعافَني عَنِ ابْنِ عُبَيْدِ اللهِ ضَعْفُ العَزائِمِ

الجَمَلُ قالَ الدَّواءُ النَّاجِعُ والتَّدِبِيْرُ النَّافِعُ في عِلاجِ هذا الدَّاءِ المُعْضِلِ المُشْكِلِ، أنْ أَجْعَلَ النَّفْسَ راضِياً بِما يَطْلَعُ مِنَ البَخْتِ وَيَجِيْءُ مِنَ القَضاءِ، مِثْلَما فَعَلَ ذاكَ الرَّجُلُ الصَّائِغُ مَعَ الذِّئْبِ والحَيَّةِ، قالَ الدُّبُّ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الصَّائِغِ مَعَ الذِّئْبِ والحَيَّةِ

قالَ الجَمَلُ، سَمِعْتُ أنَّ رَجُلاً كانَ يَذْهَبُ مُفْرَداً في طَرِيْقِ القَصْدِ بِلا أَيِّ رَفِيْقٍ، سِوى حُسْنِ سِيْرَةِ التَّوْفِيْقِ، والاِعْتِقادِ الصَّافِي، لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ مُلْكاً، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَيُّ سِلاحٍ لِدَفْعِ أَذى القاصِدِيْنَ إلَّا الدُّعاءُ والإخْلاصُ، فَجْأَةً جاءَ أمامَ نَظَرِهِ ذِئْبٌ، اتِّفاقاً كانَتْ هُناكَ شَجَرَةٌ، ذَهَبَ على تِلْكَ الشَّجَرَةِ، نَظَرَ فَرَأى حَيَّةً نائِمَةً على غُصْنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَكَّرَ أنْ إذا أنا صَرَخْتُ مِنْ هُنا صارَتْ هذِهِ الفِتْنَةُ مُسْتَيْقِظَةً مِنَ النَّوْمِ، واشْتَبَكَتْ مَعي، وَإِذا أنا ذَهَبْتُ نازِلاً، لا أَمْلِكُ مَقامَ مُقاوَمَةِ الذِّئْبِ، بِحَمْدِ اللهِ شَجَرَةُ إيماني قَوِيَّةٌ، سَأَمُدُّ يَدِي لِغُصْنِ التَّوَكُّلِ،

وَبِفاكِهَةِ القَناعَةِ الَّتي أَقْطِفُ مِنْها أَقْطَعُ للنِّهايَةِ العُمُرَ، لِأرى ما تَصِيْرُ عاقِبَةُ الأمْرِ لِي آخِراً، *وَأَكْثَرُ أَسْبابِ النَّجاحِ مَعَ اليَأْسِ*، حِيْنَ جَعَلَ هذا الفِكْرَ على النَّفْسِ، فَجْأَةً جاءَ صائِغٌ مِنَ الصَّحْراءِ، في يَدِهِ عَصاً، تَلِيْقُ بالحَيَّاتِ كَبِيْرَةِ الرَّأْسِ والذِّئابِ قَوِيَّةِ الهَيْكَلِ، الذِّئْبُ مِنَ الخَوْفِ مِنْهُ جَعَلَ الوَجْهَ لِلْهَرَبِ، والرَّجُلُ نَزَلَ عَنِ الشَّجَرَةِ وَسَجَدَ سَجْدَةَ الشُّكْرِ، وَجَعَلَ الوَجْهَ بالطَّرِيْقِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أنَّ التَّعامُلَ مَعَ عوارِضِ الأَيَّامِ اللَّيِّنَةِ والخَشِنَةِ، وَجَعْلَ القَلْبِ على مُعْطى التَّقْدِيْرِ، في كُلِّ لَحْظَةٍ مُؤَدٍّ لِلْمَقْصُوْدِ، والكَوْنُ بالتَّعامُلِ مَعَ الخادِمِ والمَخْدُوْمِ كُلٍّ بالخَيْرِ والشَّرِّ، والجُلُوْسُ بالدَّرَجَةِ السُّفْلى مِنَ المُساهَلَةِ، والنُّزُوْلُ عَنْ مَنْزِلِ التَّحامُلِ، والمَجِيْءُ بِسَفِيْنَةِ الصُّحْبَةِ لِلْجِوارِ بالرِّفْقِ والتَّحَمُّلِ، مَلَكَ العاقِبَةَ الحَمِيْدَةَ والخاتِمَةَ المُفِيْدَةَ،

إِنَّ الأُناسَ كَأَشْجارٍ نَبَتْنَ لَنا　　مِنْها المِرارُ وَبَعْضُ المُرِّ مَأْكُوْلُ

***

اَلْبَخْتُ عَوْنُ كُلِّ مَنْ تَفاعَلَ مَعَ الصَّدِيْقِ
نـالَ الـمُرادَ كُلُّ مَنْ تَـفـاعَلَ بالـعَمَلِ

القَمَرُ أَخَذَ الضِّياءَ إِذْ لَمْ يَفِرَّ مِنَ اللَّيْلِ
الوَرْدُ وَجَدَ العَبِيْرَ إِذْ تَعامَلَ مَعَ الشَّوْكِ

الدُّبُّ قالَ، حَسَناً تَقُوْلُ، إِلَّا أَنَّ العُقَلاءَ الَّذِيْنَ أَخَذُوا عِيارَ عِبْرَةِ الأَعْمالِ، وَحَمَلُوا حَقائِقَ الأُمُورِ بِمِيْزانِ الخِبْرَةِ، هكذا قالُوا، *المُتَأَنِّي في عِلاجِ الدَّاءِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ وَجْهَ الدَّواءِ كالمُتَأَنِّي في إِطْفاءِ النَّارِ وَقَدْ أَخَذَتْ بِحواشي ثِيابِهِ*، كُلُّ مَنْ جاءَ لَهُ أَلَمٌ ظاهِراً، وَعَرِفَ وَجْهَ مُداواةِ ذاكَ، وَقَطَعَ الوَقْتَ بالتَّعَلُّلِ، وَلَمْ يَصِرْ مَشْغُولاً بِإِصْلاحِ البَدَنِ وَتَعْدِيْلِ المِزاجِ، كانَ شَبِيْهاً بِذاكَ الشَّخْصِ الَّذي أَخَذَتْ شُعْلَةُ النَّارِ بِأَعْطافِهِ وَأَطْرافِ ثَوْبِهِ جَمِيْعاً وَهُوَ مُتَفَكِّرٌ وَمُتَأَنٍّ أنْ كَيْفَ يَسْتَطِيْعُ دَفْعَ ذلِك، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ حَدِيْثَ أَهْلِ النَّظَرِ، إذا مِنْ بَعْدِ ذاكَ جَرَعَ النَّدامَةَ، يَكُوْنُ لائِقاً بِذاكَ، *أَطْعِمْ أَخاكَ تَمْرَةً فَإِنْ أَبى فَجَمْرَةً*، الجَمَلُ قالَ، بِشِباكِ الصَّعْوَةِ لا يُمْكِنُ صَيْدُ طَيْرِ الماءِ، اللَّطْمَةُ مِنِّي مَعَ رايَةِ قَبْضَةِ الأَسَدِ تَكُوْنُ وَقاحَةً شَنِيْعَةً، وَحَتَّى لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ قُدْرَةَ ذاكَ، كُنْتُ أَخْتارُ إِلْقاءَ سِلاحِ القُدْرَةِ على قَدَمِ العَجْزِ، وَكُنْتُ أَخْتارُ عَدَمَ الاِشْتِباكِ مَعَهُ، وَلَسْتُ أَرى جائِزاً التَّعَرُّضَ لِشَخْصٍ اللَّحْمُ على العَظْمِ والدَّمُ في العِرْقِ مِنْ مَدَدِ نِعْمَتِهِ وَمادَّةِ تَرْبِيَتِهِ، وَإِذا أَخَذَتْ ذاتُ البَيْنِ بَيْنَ العَبْدِ والسَّيِّدِ هذِهِ الصُّوْرَةَ، فَإِنَّهُ مِن الأَفْضَلِ مِنْ قَبْلِ أنْ تَجِيْءَ أَقَلُّ حَرَكَةٍ في الوَسَطِ، وَيَكُوْنُ واجِباً حَمْلُ الغَرامَةِ بالرُّوْحِ، أنْ أَذْهَبَ مَعَ خِرْقَةِ اليَوْمِ الأَوَّلِ، وَأَنْ أَتْرُكَ هذا الطَّعامَ الدَّسِمَ، وَأَصِيْرَ قانِعاً بِذاكَ الطَّحِيْنِ المُجَرَّدِ، مِنْ أُجْرَةِ العَمَلِ لِي الَّتي كانَتْ مِنْ راتِبِ كُلِّ يَوْمٍ، وَأَنْ أَكْتَفِيَ بِذاكَ الَّذي كُنْتُ آخُذُ أَجْرَ أَرْبَعَةِ أَخْفافِيَ الحَمَّالَةِ،

وَإِنَّ أَطْيَبَ ما يَأْكُلُ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ، وَقالُوا، كُلُّ مَنْ عاشَ سَهْلاً في الحَياةِ، كانَ مَوْتُهُ سَهْلاً أَيْضاً، *وَفِي المَثَلِ المُعاشَرَةُ تَرْكُ المُعاسَرَةِ*، وَأَيْ أَخُ ذلِكَ الوَقْتَ الَّذي كُنْتُ فِيْهِ بالوَطَنِ بالسَّلامِ مَعَ الإِخْوَةِ الأَصْحابِ، نَأكُلُ مَعاً وَنَنامُ مَعاً، في النَّهارِ أَقْتَلِعُ الشَّوْكَ، وَفي اللَّيْلِ أَحْمِلُ الحِمْلَ، وبالأَلْحانِ كُنْتُ أَجِدُ مِنْ اقْتِلاعِ الشَّوْكِ مِنْ حُداءِ الحادِيْنَ وَقْتاً جَمِيْلاً للنَّفْسِ، وَكُنْتُ أَضَعُ الجَنْبَ على فِراشِ الأَمْنِ والرَّاحَةِ، وَأَمُدُّ القَدَمَ على البِساطِ بِمِقْدارِ النَّفْسِ، وَكُنْتُ آكُلُ سَعِيْداً، وَأَرْعى في مَرابِضِ الطَّرَبِ، وَأَتَقَلَّبُ على مَضاجِعِ الفَراغَةِ، لا فِكْرَ سُوْءٍ مُواكِلٌ، ولا خَوْفَ وَحْشٍ مُوَكَّلٌ،

الشَّوْكُ لي مِنْ حَوْلِ ثَوْبي كانَ أَجْمَلَ مِنَ الياسَمِيْن
والحَجَرُ لِي مِنْ تَحْتِ جَنْبي كانَ أَنْعَمَ مِنَ الحَرِيْر

والآنَ إِذْ سَحَبَتْني جَواذِبُ الهِمَّةِ مِنْ مُجالَسَةِ الآحادِ بِمُنافَثَةِ الأكابِرِ، وَجاءَتْ بي مِنْ مُحاوَرَةِ الأَوْغادِ إلى مُكالَمَةِ المُلُوْكِ، بِحُكْمِ أَنَّني مَلَكْتُ حاصِلَ سَعادَةِ المَنْظُوْرِ وَشَرَفِ المَذْكُوْرِ، بِخِطابِ، *أَفَلا يَنْظُرُوْنَ إِلى الإِبِلِ*، حَمَلْتُ النَّظَرَ مِنْ خَسائِسِ مَراتِبِ الأُمُوْرِ إلى العَوالي، وَلَمَّا كُنْتُ وَجَدْتُ سَعادَةَ المَحْسُوْبِ في زُمْرَةِ، *وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِيْنَ*، بِفِكْرِ التَّرَقِّي مِنْ مَنْزِلِ السَّفالَةِ ذاكَ رَحَلْتُ، وَإِلى كَعْبَةِ

المَعالي هذِهِ أَسْرَعْتُ، صِرْتُ مُبْتَلىً بِهذِهِ الدَّاهِيَةِ الدَّهْياءِ، وَوَقَعْتُ في خَبْطِ عَشْواءَ الحَيْرَةِ بِعَشْوَةِ سرابِ بادِيَةِ الأماني،

إِذا ذُكِرَ القَلْبُ المُعَذَّبُ في الهَوى   زَماناً لَنا أَرْخَيْتُ فِيْهِ عِناني

فَكَمْ زَفَراتٍ لِي بِغَيْرِ تَراقُبٍ   وَكَمْ عَبَراتٍ لِي بِغَيْرِ تَوَانِ

فَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْناكَ ما أنا بَعْدَكُمْ   عَلَيْهِ مِنَ البَلْوى لَقُلْتَ تُراني

إذا عِياذاً باللهِ غَيَّرْتُ عِيارَ الإِخْلاصِ مَعَ الأَسَدِ، وَأَخَذْتُ بِخِلافِهِ الَّذي هُوَ عَنْ مَذْهَبي بَعِيْدٌ، وفي شَرْعِ حُقُوْقِ خادِمِ المَخْدُوْمِ مَمْنُوْعٌ وَمَحْظُوْرٌ، وَإِنْ كُنْتُ أَجْعَلُهُ مَسْتُوراً في الظَّاهِرِ، ما دامَ باطِني جَمِيْعاً يَكُوْنُ مُسْتَغْرِقاً بِذاكَ، لا بُدَّ أَنَّ سَلْسَلَةَ طَبِيْعَتِهِ تَتَحَرَّكُ، وَحَيْثُ أَنَّ الضَّمائِرَ والنُّفُوْسَ بالخَيْرِ وبالشَّرِّ خَبِيْرَةٌ الواحِدُ عَنِ الآخَرِ، وَبَصِيْرَةٌ بالمُنافاةِ والمُصافاةِ الواحِدُ عَنِ الآخَرِ، إِذا يَوْماً مَثَلاً قَرَأَ سِرِّي مِنْ أَسارِيْرِ جَبِيْنِي، وَمِنْ أَيْنَ لِجَبِيْني أَنْ تَكُونَ لَهُ مِثْلُ تِلْكَ المُكابَرَةِ أَبَداً، وَأَنْ أَعْمَلَ مِنْ بَعْدِ ذاكَ التَّرَدُّدَ أمامَهُ،

عَيْناكَ قَدْ حَكَتا مَبِيْتَكَ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كانا

وَلَرُبَّ عَيْنٍ قَدْ أَرَتْكَ مَبِيْتَ صاحِبِها عِيانا

أَيَّ سِـرٍّ أُخْفي وَمِـنْ صَحِـيْفَةِ وَجْهِي

كُـلُّ شَـخْصٍ رَآنـي رآهُ مَـقْـرُوْءاً عِيانا

فَأَرٌ كانَ يَمْلِكُ في مُجاوَرَتِهما المَنْزِلَ، كانَ حاضِراً وَسَمِعَ مُفاوَضاتِ الاِثْنَيْنِ وبِتَمامِ الاسْتِراقِ أَخَذَها بِسَمْعِ القَلْبِ، وَوَضَعَ عَلَيْها خَتْمَ المُكاتَمَةِ، وَلَمْ يُظْهِرْ ذاكَ السِّرَّ لِأَيِّ غَرِيْبٍ، والجَمَلُ طُوْلَ النَّهارِ بِذاكَ الخَوْفِ والتَّفَكُّرِ بِنارِ الفِكْرِ يُعْطي التَّحْلِيْلَ للرُّوْحِ الحَيَوانِيِّ، وَمِنْ تَوَهُّمِ ذاكَ الخَلَلِ صارَ نَحِيْلاً كالخِلالِ، وَمِنْ امْتِلاءِ تِلْكَ الغُصَّةِ جَعَلَ الوَجْهَ بالتَّراجُعِ كالهِلالِ، حَتَّى أَثَرُ النُّحُوْلِ وَضَعْفُ البِنْيَةِ جاءَ ظاهِراً بِشِدَّةٍ على أَطْرافِهِ وَأَعْضائِهِ، اَلأَسَدُ مِنْ تَغَيُّرِهِ أَظْهَرَ تَعَجُّباً، أَنْ ما الَّذي وَصَلَ لِهذا المِسْكِيْنِ، كَأَنَّما أَحْدَثَتْ بِهِ الأَثَرَ مُخالَفَةُ ماءٍ وَهَواءِ الأَسْفارِ بِذاكَ الوَقْتِ الَّذي كانَ بِهِ مُسافِرَ أَقْطارِ العالَمِ، وَصارَتْ يَدُهُ وَقَدَمُهُ مِنَ النُّحُوْلِ كالخَيْطِ، فَجاءَ جَمْعاً في بُخاراتِهِ، جاءَ كُلُّ ذلِكَ مَجْمُوْعاً بالأَلَمِ على ثَفَناتِ رُكْبَتِهِ، أَوْ أَنَّهُ دَقٌّ جاءَ بِهِ مِنْ مِصْرٍ بِحَمْلِ الآلامِ، *وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ*، عِنْدِيَ الظَّنُّ أَنَّ خُرُوْجَ المَحْبُوْسِيْنَ لِلْعذابِ مِنْ مَدِيْنَةِ حَبْسِ جَهَنَّمَ، بِشَرْطِ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ، مَوْعِدُ الخَلاصِ لَهُ قَدْ جاءَ قَرِيْباً، فَمِنْ غايَةِ ضَعْفِ هَوْدَجِ حَدَبَتَيْهِ، سَوْفَ يَذْهَبُ في بابِ سَمِّ الخِياطِ،

مَنْ كانَ مَرْعى عَزْمِهِ وَهُمُوْمِهِ   رَوْضُ الأَماني لَمْ يَزَلْ مَهْزُولا

إلى أَنْ يَوْماً، غُرابٌ كانَ مِنْ جُلَسائِهِ، وَأُمَناءِ خَزائِنِ أَسْرارِهِ، سَأَلَ أَنْ ما الَّذي وَقَعَ لِهذا الجَمَلِ، فَهُوَ لَيْسَ مِثْلَنا آكِلاً لِلَّحْمِ، لَكَي يَكُوْنَ قَدْ

رَجَعَ عَنْ ذاكَ الطَّبْعِ واخْتارَ رِياضَةَ أَكْلِ العُشْبِ، وَتَوَقَّفَ عَنْ أَكْلِ غِذائِهِ الأَصْلِيِّ، رُبَّما يَكُوْنُ جَعَلَ الهِمَّةَ على أَمْرٍ بَعِيْدِ المَنالِ، فَإِلى ذاكَ يَكُوْنُ عَسِيْراً الوُصُوْلُ، أَوْ أَنَّهُ يَخافُ مِنْ خَصْمٍ، فَهُوَ لا يَمْلِكُ قُدْرَةَ مُقاوَمَتِهِ، أنا أُرِيْدُ أَنْ أَسْأَلَهُ حَتَّى أَعْلَمَ أيُّ حادِثٍ مِنْ حَوادِثِ الأَحْوالِ حَدَثَ لَهُ، كَيْ يُعْطِيَني الخَبَرَ عَنْ كَيْفِيَّةِ أَمْرِهِ، ذَهَبَ الغُرابُ وَعلى وِفْقِ أَمْرِ المَلِكِ شَرَعَ بِوَضْعِ مُقَدِّماتِ الصَّداقَةِ وَمَباني الصُّحْبَةِ، وَجَعَلَ مُدَّةً طَلِيْعَةَ الفَهْمِ وَجاسُوْسَ النَّظَرِ على مَدارِكِ الحِسِّ وَمَسالِكِ العَقْلِ، حَتَّى يَأْخُذَ عَنْ حَقِيْقَةِ حالِهِ خَبَراً، لِيُنْهِيَهُ إلى حَضْرَةِ المَلِكِ، لَمْ يُجْدِ نَفْعاً، وَلَمْ يَقَعْ بِيَدِهِ دَلِيْلٌ، يَوماً الغُرابُ كانَ بِجِوارِ جَدْوَلِ الماءِ جالِساً لِلْفُرْجَةِ، يَطْلُبُ سِرَّ قَلْبِ الجَمَلِ مِنْ غايَةِ عَدَمِ وُجْدانِهِ في الماءِ، اِتِّفاقاً جاءَتْ بالجَمَلِ داعِيَةُ شُرْبِ الماءِ إلى هُناكَ، الغُرابُ أَخْفى النَّفْسَ خَلْفَ صَخْرَةٍ، الجَمَلُ ظَلَّ يَنْظُرُ في الماءِ ساعَةً، رَأى الأَسْماكَ بالعُبُوْرِ على سَطْحِ الماءِ، سَحَبَ نَفَساً حارِقاً، قالَ هَنِيْئاً لَكُمْ لا تَمْلِكُونَ الخَوْفَ مِنَ الأُمَراءِ، ولا فِكْرَ الاِجْتِراءِ مِنَ القُرَناءِ، تَذِهَبُوْنَ على سَطْحِ الماءِ، وَثَوْبُ عِرْضِكُمْ لا يَصِيْرُ رَطْباً بِأَيَّةِ عارِضَةٍ مِنْ عَوارِضِ التُّهْمَةِ وَسُوْءِ الظِّنَّةِ، مِسْكِيْنٌ أنا الَّذي أَلْقَيْتُ سَفِيْنَةَ الصَّدْرِ على بَحْرِ الهَمِّ بِلا نِهايَةٍ، لا أَعْلَمُ أَتَصِلُ إلى ساحِلِ المَخْلَصِ بالسَّلامَةِ، أَمْ تَذْهَبُ غارِقَةً في لُجَّةِ الهَلاكِ،

لَيْتَني كُنْتُ قَبْلَ ما قَدْ بَدا لي   في مَراعي الحَشِيْشِ أَرْعى الحَشِيْشا

الزَّاغُ سَمِعَ هذا الحَدِيْثَ وَذَهَبَ بِخِدْمَةِ الأَسَدِ، وَأَوْصَلَهُ لِلأَسَدِ، الأَسَدُ ذَهَبَ مِنَ المَكانِ وَصارَ مَحْزُوْناً، وَقالَ مَعَ النَّفْسِ، حَيْثُ العِصْمَةُ الكُلِّيَّةُ لَيْسَتْ حارِساً لِلأَحْوالِ، وَبَوادِرُ القَوْلِ وَصَوادِرُ الفِعْلِ لَيْسَتْ في قَيْدِ الاِخْتِيارِ، حَتَّى لا يَجِيْءَ صادِراً مِنَ النَّاسِ أَيَّةُ حَرَكَةٍ مَذْمُوْمَةٍ يُلامُ عَلَيْها، جائِزٌ أَنَّهُ يَكُوْنُ قَدْ وَجَدَ عَنِّي خَبَراً، وَمِنْ ذاكَ صارَ بالفِكْرِ، وَعَدَّ ذاكَ مِنْ مَساءَةِ النَّظَرِ مِنِّي لِجِهَتِهِ، وَصارَ في بابِ سُوْءِ الظَّنِّ مِنِّي، *وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً*، إِذا أَنا قُمْتُ بالبَحْثِ والاِسْتِعْلامِ مِنْهُ أَخافُ أَنْ يَصِيْرَ زائِداً خَوْفُهُ وَخَشْيَتُهُ، وَإِنْ أَنا لَمْ أَفْعَلْ يَكُونُ هكذا مُضْطَرِباً وَحائِراً، آخِراً مِنْ هذَيْنِ الفِكْرَيْنِ المُتَعارِضَيْنِ جاءَ مُرَجَّحاً أَمامَ خاطِرِهِ أَنْ يَأْمُرَ أَنْ يَجِيْءَ حاضِراً بالخِدْمَةِ أَمامَهُ عِدَّةٌ مِنَ الأَشْخاصِ المُعْتَبَرِيْنَ والخَدَمِ المُقَرَّبِينَ، وَجَعَلَ لِلْجَمَلِ تَرْحِيْباً وَتَبْجِيْلاً أَزْهَدَ مِمَّا كانَ مُعْتاداً، وَبِلا واسِطَةِ السَّفِيْرِ والحاجِبِ والمُشِيْرِ، فَتَحَ اللِّسانَ وَقالَ، أنا مَعَ أَنِّيْ أَمْلِكُ يَدَ القُدْرَةِ فَوقَ الجَمِيْعِ، وَبِذِراعِ الصَّوْلَةِ أَجْعَلُ الفِيْلَ السَّكْرانَ تَحْتَ القَدَمِ، وَقَدْ جَعَلَني اللهُ تَعالى مَخْصُوْصَ العِنايَةِ بِصِفَةِ العَدْلِ والعَطاءِ وَخَصْلَةِ الدِّيْنِ والعِلْمِ، وَأَعْطاني تِلْكَ الهِدايَةَ حَتَّى بِخِلافِ أَمْثالي أَقْصَرْتُ يَدَ التَّشَبُّثِ عَنْ دَمِ الأَحْياءِ، وَسَحَبْتُ الثَّوْبَ مِنْ تَلْوِيْثِ هذِهِ المَعْصِيَةِ، وَجَعَلْتُ جَوامِعَ

الهِمَّةِ مَقْصُوْرَةً على التَّحَرُّزِ وَحِفْظِ النَّفْسِ عَنْ هذِهِ المَطارِحِ الدَّنِيَّةِ والمَشارِعِ الوَبِيَّةِ، وَهذا اليَوْمَ أنا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أنْ إذا كُنْتُمْ تَرَوْنَ عَيْباً كَثِيْراً أَوْ قَلِيْلاً في سَجِيَّتِي، أوْ جاءَ مِنِّي بالسَّهْوِ أوْ بالعَمْدِ فِعْلٌ غَيْرُ مَرْضِيٍّ، عَقْلاً أَوْ عُرْفاً أو شَرْعاً أو رِسْماً، أنْ تَعْرِضُوا ذاكَ عَلَيَّ، وَتَعْرِفُوا ذاكَ تُحْفَةً كَبِيْرَةً إِلَيَّ، فَإنَّ أَشْرَفَ المَوْجُوْداتِ وَأطْهَرَ جَوْهَرِ الكائِناتِ، قَرَّرَ هكذا، *مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا*، يَعْني كُلُّ مَنْ وَجَدَ في ذاتِنا المُبارَكَةَ إِشارَةً عَنِ العَيْبِ وَلَمْ يَقُلْ ذاكَ لَنا وَلَمْ يُظْهِرْهُ، هُوَ خارِجٌ عَنْ رَقَمِ اخْتِصاصِنا، وَإِذا لِقَصِيْرِ النَّظَرِ جاءَ مِنَ الخَيالِ أنْ كَيْفَ يَجِبُ عَمَلُ حَوالَةِ العَيْبِ لِجَنابِ حَضْرَةِ النُّبُوَّةِ، خِطابُ *أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ*، نَفْسُهُ ناطِقٌ بِمِصْداقِ هذا المَعْنى، وَفي هذا التَّلْوِيْحِ عُلِمَ أَنَّهُ بالنِّسْبَةِ إلى ذاتِ واجِبِ الوُجُوْدِ، جُمْلَةُ الذَّرَّاتِ والمُمْكِناتِ مِنْ فَرْشِ التُّرابِ إلى الفَلَكِ، وَمِنَ الآدَمِيِّ إلى جَوْهَرِ المَلَكِ، مَأْخُوْذٌ بِنُقْصانِ الحُدُوْثِ، والطَّرِيْقُ الأُخْرى لِنَواقِصِ الأوْصافِ الَّتي هِيَ تَبَعٌ لِذاكَ مَفْتُوْحَةٌ لِجَمِيْعِ المَخْلُوْقاتِ، وَأَصْلُ العالَمَيْنِ الأَصْغَرِ والأكْبَرِ مَوْضُوْعٌ على هذا، وَمِنْ هاتَيْنِ المُقَدَّمَتَيْنِ نتائِجُ المُبْدَعاتِ هكذا وُلِدَتْ، الآنَ لَكُمُ الرُّخْصَةُ، أنْ إذا مِنَ العُيُوْبِ والذُّنُوْبِ والمَقالِ والفِعالِ، وَجَدْتُمْ مِنِّي أَيَّ شَيْءٍ يُمْكِنُ الإِشارَةُ إِلَيْهِ بالبَنانِ، أَلَّا تَجْعَلُوْهُ مَخْفِيّاً عَنِّي، حَتَّى أَعْمَلَ التَّوْبَةَ عَنْ ذاكَ وَأَصِيْرَ مَشْغُولاً بِتَطْهِيْرِ أخْلاقِ نَفْسي، أو إذا كانَ شَخْصٌ يَتَوَهَّمُ مِنِّي ضَرَراً أو مِنْ نارِ غَضَبي شَرَراً، في مُسْتَقْبَلِ

الحالِ، فَلْيَجْعَلْ ذاكَ ظاهِراً، وَلْيَقُلْهُ حَتَّى أَجْعَلَهُ آمِناً، وَإذا كانَتْ جاءَتْ صادِرَةً زَلَّةٌ مِنْ شَخْصٍ بِحَقِّي فَلْيَقُلْها حَتَّى أُغَطِّيَ تِلْكَ بِذَيْلِ التَّجاوُزِ،

السِّتْرُ دَوْنَ الفاحِشاتِ ولا يَلْقاكَ دُوْنَ الخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

الحاضِرُوْنَ باللِّسانِ الواحِدِ، أَوْصَلُوا لِلأداءِ، ذاكَ الَّذي كانَ لائِقاً بالوَقْتِ مِنِ الدُّعاءَ والثَّناء، وقالُوا، مَعاذَ اللهُ، حاشا أنْ يَكُوْنَ جَلَسَ غُبارُ أَذىً على حاشِيَةِ واحِدٍ مِنْ حواشي الدَّوْلَةِ وَخَدَمِ الحَضْرَةِ أَبَداً، أَوْ أَنْ تَكُوْنَ شَوْكَةٌ مِنْ رَوْضِ وَرْدِ لُطْفِهِ أَلَمَّتْ بِثَوْبِ أَحْوالِ شَخْصٍ، نَحْنُ جَمِيْعاً رَبِيْنا في مَلْجَأِ حِفْظِ الدِّيْنِ وَعَدَمِ الأَذى مِنْكَ، وَرَأَيْنا العالَمَ مُضِيْئاً بِوَجْهِ مَلِكٍ مِثْلِكَ، فَما مَحَلُّ مِثْلِ هذا الحَدِيْثِ،

كانَ كُلُّ عُمْرِكَ جَمِيْلاً فَفي دَوْلَتِكَ الكُلُّ يَقْضِي العُمْرَ والشُّغْلَ بالسُّرُوْرِ

الدُّبُّ إِذْ سَمِعَ تَفاصِيْلَ وَجُمَلَ هَذِهِ الحِكايَةِ، رَأى في تِلْكَ ناقَتَهُ وَجَمَلَهُ، فَكَّرَ، أنِ المَلِكُ على صَفَحاتِ حالِ الجَمَلِ وَجَدَ أماراتِ التَّشْوِيْشِ، فَأَمَرَ بِهذا التَّفَحُّصِ والتَّفْتِيْشِ، فَإذا هُوَ وَجَدَ خَبَراً عَنِ احْتِيالي واغْتِيالي، فَيَجِبُ عَلَيَّ في العاقِبَةِ أَنْ أَحْمِلَ عُقُوْبَةً شَدِيْدَةً، فالرَّأْيُ هُوَ ذاكَ، أَنِّي أَسْحَبُ الجَمَلَ إلى طِيْنِ الواقِعَةِ، وَأُلْقِيْهِ في مَخْلَبِ العَذابِ، وَأَضَعُ حِمْلَ هذا الذَّنْبِ في عُنُقِ الأَسَدِ، وَأُرْجِعُ لَهُ جُنَّةَ جِناياتِ نَفْسِهِ، حَتَّى كُلُّ سَهْمِ خَطَأٍ وَصَوابٍ يَجِيْءُ مِنْ قَبْضَةِ

الرِّضا والسُّخْطِ، يَجِيْءُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَعَلَ الوَجْهَ جِهَةَ الجَمَلِ وَقالَ، ذاكَ شَبِيْهٌ بِأَنْ تَكُوْنَ جَلَسَتْ لِشَخْصٍ صُوْرَةٌ بِسُوْءِ الفِكْرِ عَنِ المَلِكِ، وَوَقَعَ لَهُ وَهْمٌ باطِلٌ، وَذاكَ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ إِلَّا مِنْ خُبْثِ دَخْلَةِ وَغائِلَةِ ضَمِيْرِ ذلِكَ الشَّخْصِ، إِذْ يَكُوْنُ قَدْ رأى نَقْشَ عَقِيْدَتِهِ بالخَيالِ في مِرْآةِ رَأْيِ المَلِكِ، وَإِلَّا فَمِنَ المَلِكِ الَّذي سِيْرَتُهُ خَيْرٌ خالِصٌ وَمَحْضُ رَأْفَةٍ وَصِرْفُ رَحْمَةٍ، أَيُّ سُوْءٍ مُمْكِنُ التَّصَوُّرِ، وَمَهْما أَكُنْ مِنْ هذا القَبِيْلِ على سَبِيْلِ التَّسامُحِ سَمْعْتُ بِضْعَ كَلِماتٍ، لَمْ أُرِدْ أُعْطي الإعْلامَ عَنْها، إِذْ لَمْ أَعْلَمْ أَنَّ هذا يَجُرُّ للطُّوْلِ، والهِمَّةُ الكَبِيْرَةُ لِلْمَلِكِ تَجْعَلُ مِنْ هذا الأَمْرِ كَبِيْراً هكذا، الآنَ بِما أَنَّ التِفاتَ خاطِرِهِ الشَّرِيْفِ يَمْلِكُ هذا المَقامَ بِكَشْفِ ذاكَ، أنا لَنْ أُحافِظَ عَلَيْهِ مَخْفِيَّاً بِأَيِّ وَجْهٍ، ثُمَّ الأَسَدُ أَمَرَ أَنْ يُخْلى المَكانُ، واسْتَدْعى أمامَهُ الدُّبَّ لِجِهَةِ اسْتِكْشافِ هذِهِ الحالِ، قالَ الدُّبُّ، أَيْ مَلِكُ قالُوا أَنَّ العالِمَ بِعَيْنِ الجاهِلِ أَحْقَرُ مِنْ ذاكَ الَّذي يَكُوْنُ بِهِ الجاهِلُ بِعَيْنِ العالِمِ، هذا الجَمَلُ لا يَمْلِكُ المَعْرِفَةَ، لِيَعْرِفَكَ بِتِلْكَ، تِلْكَ المَعْرِفَةُ الَّتي تَجْعَلُ دائِماً هَيْبَتَكَ وَحِشْمَتَكَ قُبالَةَ خاطِرِهِ، وَتَحْفَظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الجُرْأَةِ والجَسارَةِ في الأَفْعالِ، وَذاكَ الَّذي هُوْ أَعْلَمُ الخَلْقِ يُعْطي الخَبَرَ عَنِ النَّفْسِ، *أنا أَعْرَفُكُمْ باللهِ وَأَخْشاكُمْ عَنِ اللهِ*، إِشارَةٌ عَنْ هذا المَعْنى بِعَيْنِهِ، يَعْني أنْ إلى أَيِّ مَدىً صارَ مَقامُ القَهْرِ الإِلهِيِّ مَعْلُوْماً لي، فَصِرْتُ مِنْ وَقْعِ آثارِ ذاكَ أَكْثَرَ خَشْيَةً مِنْكُمْ، إِذْ أَنتُمْ مِنْ مُطالَعَةِ ذاكَ تَكُوْنُوْنَ في حَجابِ الجَهالَةِ، وَنَصُّ

التَّنْزِيْلِ، عَزَّ مِنْ قائِلٍ، يَحْكي عَنْ هذا، حَيْثُ قالَ، *إِنَّما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ*، فَإِنَّ المَلِكَ قَرَّرَ لِلجَمَلِ المُلاطَفَةَ زِيادَةً عنْ قَدْرِهِ، وَأَعْطاهُ مَقاماً أَعْلى مِنْ دَرَجَةِ اسْتِحْقاقِهِ، لا جَرَمَ طُعْمَةُ الفِيْلِ لا تُسْتَوْعَبُ في حَوْصَلَةِ العُصْفُوْرِ، وَمِقْدارُ الشُّرْبَةِ إِذا لَمْ يَكُنْ مُناسِباً لِلْمِزاجِ جاءَ بالفَسادِ بالفِكْرِ، أنْ باعِثُ المَلِكِ على ذاكَ الَّذي فَعَلَ كانَ ضَرُوْرَةُ حالٍ أَو حاجَةُ مَآلٍ، أوْ أَنَّهُ بالحَظِّ الَّذي وَجَدَ مِنْ هذِهِ الدَّوْلَةِ صارَ نادِماً، وَبِحَطِّ المَنْزِلَةِ وَنُزُوْلِ المَرْتَبَةِ الَّذي وَجَدَ سَوْفَ يُعْطي الرِّضا، هذا الفِكْرُ صارَ غالِباً عَلَيْهِ، حَتَّى مِنْ هُناكَ مِنْ جَلافَةِ الطَّبْعِ وَسَخافَةِ الرَّأْيِ مِنْهُ يَطْلُبُ فُرْصَةً أُخْرى، فَصَرِيْحَ القَوْلِ وَقَعَ بَعِيْداً عَنْ أَدَبِ الخِدْمَةِ، وإِلَّا كُنْتُ قُمْتُ بالإظْهارِ،

وَلَوْ حِيْزَ الحِفاظُ بِغَيْرِ لُبٍّ   تَجَنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الحُسامُ

المَلِكُ حِيْنَ سَمِعَ هذا الفَصْلَ أَرْجَعَ الدُّبَّ وَأَرْسَلَ بِطَلَبِ الزَّاغِ، جاءَ حاضِراً وَسَأَلَهُ أنْ كَيْفَ تَرى الدُّبَّ في هذا النَّقْلِ، الزَّاغُ أَعْطى الجَوابَ أنِ الرَّأْيُ الأَزْهَرُ والضَّمِيْرُ الأَنْوَرُ لِلْمَلِكِ فاتِحُ الوُجُوْهِ لا تُغَطِّيْهِ حُجُبِ الغُيُوْبِ، إِلَّا أَنَّهُ مَعْلُوْمٌ لِي بِشَواهِدِ العَقْلِ وَأَدِلَّةِ الحِسِّ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَدِلَّةِ خَواضِعِ الخِدْمَةِ، لَيْسَ لِأَيِّ شَخْصٍ هذا التَّذَلُّلُ وَإِظْهارُ التَّأَدُّبِ وَسلامَةِ النَّفْسِ وَسَماحَةِ الطَّبْعِ لِلْجَمَلِ، ولا شَخْصَ مَلَكَ الاِحْتِشامَ الَّذي هُوَ مَلَكَ مِنْ عَظَمَةِ المَلِكِ، وَلَوْ كانَ عَرَفَ نَفْسَهُ

مُجْرِماً ما كانَتْ لَهُ قُوَّةُ القَلْبِ تِلْكَ أَبَداً لِيَطُوْفُ حَوْلَ جَنابِ حِشْمَتِكَ، وَلِيَضَعَ القَدَمَ على عَتَبَةِ انْبِساطِ خِدْمَتِكَ، ولا بُدَّ كانَ صارَ مُنْزَعِجاً وَمُسْتَشْعِراً آنَذاكَ، *مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ*، وَلَكانَ جَعَلَ الوَجْهَ لِمَأْمَنٍ آخَرٍ، خُصُوْصاً وَأَنَّهُ لا يَمْلِكُ القَيْدَ على القَدَمِ، ولا مُوْكَّلَ على الرَّأْسِ، وَعَلِمَ الحَقِيْقَةَ، أَنَّهُ لِلْمَلِكِ، النِّيَّةُ والطَّوِيَّةُ على قَرارِ الأَصْلِ، والبَتَّةَ ما وَجَدَ أَيُّ تَوَحُّشٍ وَتَنَفُّرٍ الطَّرِيْقَ إلى طَبْعِهِ الكَرِيْمِ، فَهُوَ هكذا يُظْهِرُ أَنَّ هذا الشَّوْكَ مِنْ وَضْعِ الدُّبِّ، وَأَنَّ غُبارَ الوَحْشَةِ هذا الَّذي أُثِيْرَ لِلأَسَفِ يَكُونُ بِوِشايَةِ صاحِبِ غَرَضٍ وَسِعايَةِ سَيِّئِ فِكْرٍ عَرِفَ مِثْلَ تِلْكَ الخِدْمَةِ الطَّاهِرَةِ الأَصْلِ مُلُوَّثَةً، وَتَرَكَهُ مُسْتَوْحِشاً، إذا كانَ المَلِكُ يَطْلُبُهُ وَيُشَرِّفُهُ بالمُشافَهَةِ قَلِيْلاً، وباللَّفْظِ الأَشْرَفِ مِنْهُ يَأْمُرُ بالبَحْثِ، فَيَصِيْرَ مِنْ صِدْقِ لَهْجَتِهِ واضِحاً لَهُ مَصْدُوْقَةُ الحالِ، المَلِكُ أَحْضَرَ الجَمَلَ إلى بَيْتِ الخَلْوَةِ، وَقالَ لَهُ اعْلَمْ أَنَّهُ ثابِتَةٌ لَكَ عَلَيَّ حُقُوْقَ الخِدْمَةِ الحَسَنَةِ، وَدائِماً في طاعَةِ أَوامِرِي كُنْتَ تُظْهِرُ الإِقْبالَ، وَكُنْتَ تَقُوْمُ بالإِمْتِناعِ عَنِ النَّواهِي، وَأَبَداً لَمْ تَضَعِ القَدَمَ أعلى مِنْ مَحَجَّةِ مُرادِي، وَمَعْرِفَةُ الحَقِّ وَرِعايَةُ الجَوْهَرِ، وَطَرِيْقُ الإِشْفاقِ والإِشْبالِ لي، مُصَوَّرٌ لَكَ على أَحْوالِ عُمُوْمِ الخَدَمِ، فَخاصَّةً وَأَنْتَ الَّذي بِهذِهِ المَقاماتِ المَرْضِيَّةِ والمَساعي المَشْكُوْرَةِ تَمْلِكُ الإِخْتِصاصَ، قُلْ، ما مُوْجِبُ هذا التَّغَيُّرِ وَهذا التَّكَسُّرِ، إذا كُنْتَ عَمِلْتَ ذَنْباً فَأَنتَ تُفَكِّرُ بالعِقابِ، قَدِّرْ أَنَّهُ مَهْما كانَ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ الصَّغائِرِ والكَبائِرِ أنا

أَصْفَحُ عَنْهُ، وَإِذا عَنْ جانِبي قِيْلَتْ كَلِمَةٌ مُوْحِشَةٌ وَمُشَوِّشَةٌ، وَأُجْلِسَ خَيالٌ، لا تَجْعَلْ ذاكَ مَخْفِيَّاً، أَسْلِمْ لِيَدِي النَّقّالَ والنَّكّالَ، وَأَنْتَ اجْلِسْ مُرَفَّهَ الحالِ وَفارِغَ البالِ، *أنتَ مِنِّـي بَيْنَ أُذُنـي وَعاتِقِي*، الجَمَلُ فَكَّرَ، أنْ إذا أنا أَظْهَرْتُ شُمَّةً مِنْ صُوْرَةِ الحالِ فَسَيَجِيْءُ لازِماً انْتِقاصُ العَهْدِ وانْتِكاثُ ذاكَ العَقْدِ الَّذي عَقَدْتُ مَعَ الدُّبِّ، وَوِزْرُ ذاكَ يَبْقى في العُنُقِ، وَإِذا أنا قُمْتُ بالاِعْتِرافِ بِذَنْبٍ لَيْسَ لِي، المَلِكُ مَهْما مَسَحَ بِقَلَمِ الصَّفْحِ، وَلَمْ يَعُدْ يَفْتَحُ صَحِيْفَةَ وَرَقِ الجُرْمِ، أَكُوْنُ جَعَلْتُ وَجْهَ عَفْوِهِ مَوْسُوْماً بِخالِ عِصْياني، وَجَعَلْتُ وَجْهَ حالي مُظْلِماً بِسوادِ الخَجْلَةِ، وَقَدْ صارَ مُنْحَصِراً في زُمْرَةِ فاعِلي الذُّنُوْبِ، لكِنْ كذلِكَ إِنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ أَيْضاً أنْ أُجْلِسَ هذا الشَّيْنَ على وَجْهِ أَمْري، وَأَنْ أَرْبِطَ ذَنْبَهُ بِنَفْسي، حَتَّى لا يَصِيْرَ الرَّفِيْقُ الَّذي كانَ مُعْتَمِداً على حُسْنِ السِّيْرَةِ وإِحْكامِ السَّرِيْرَةِ والوَفاءِ بِعَهْدِ المُوافَقَةِ وَإِبْقاءِ حَقِّ المُرافَقَةِ، مَأْخُوْذاً بالذَّنْبِ،

كَذا المَجْدُ يَحْمِلُ أَثْقالَهُ قَوِيُّ العِظامِ حَمُوْلُ الكُلَفْ
على كاهِلِ الشُّكْرِ مِنْ فَضْلِهِ يَدٌ كاهِلُ الأَرْضِ مِنْها أَخَفّْ

ثُمَّ قالَ أَيْ مَلِكُ، أنا مِنْ كَثْرَةِ ما نَظَرْتُ في بِدايَةِ وَنِهايَةِ الأَمْرِ، وَأَلْقَيْتُ النَّظَرَ على يَمِيْنِ وَيَسارِ أَحْوالي، وَأَعَدْتُ البَحْثَ في غَوامِضِ الأُمُورِ، أَظَلُّ على الدَّوامِ بالفِكْرِ والأَلَمِ، وآثارُ تِلْكَ الفِكْرَةِ تَجِيْءُ

ظاهِرَةً على ظواهِري، لا شَكَّ أنّي بِهذا السَّبَبِ مَلَكْتُ مِقْدارً ضَئِيْلاً مِنْ سُوْءِ الظَّنِّ بِجانِبِكُمْ، إذا كُنْتَ بِهذا القَدْرِ تَأْمُرُ بالمُؤاخَذَةِ، الحُكْمُ حُكْمُ المَلِكِ، الأَسَدُ قالَ جاءَ حَسَناً، الآنَ قُلْ، هَلْ سُوْءُ الظَّنِّ هذا كانَ مِنْ فِعْلِنا، أمْ مِنْ قَوْلِ الآخَرِيْنَ، الجَمَلُ هاهُنا تَوَقَّفَ، وَخَفَضَ أمامَهُ الرَّأْسَ، الزَّاغُ قالَ، أَيْ أخُ في هذا المَقامِ غَيْرَ قُوْلِ الصِّدْقِ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ، وَإِذا كُنْتَ لا تَقُوْلُ، فَإِنَّ المَلِكَ بِتَجَسُّسِ الرَّأْيِ وَتَفَرُّسِ الخاطِرِ مِنْهُ يَجْعَلُهُ مَعْلُوْماً، وَيَصِيْرُ اِسْمُكَ مَمْحُوَّاً مِنْ جَرِيْدَةِ الصَّادِقِيْن، لَعَلَ سُلْحُفاةً كانَتْ جالِسَةً ففي رُكْنٍ في هذِهِ الحالِ وَقَدْ سَحَبَتِ الرَّأْسَ في لُبَّةِ التَّغافُلِ، كانَتْ تُصْغِي لِهذا الكلامِ، ذَهَبَتْ مِنْ هُناكَ أَمامَ الدُّبِّ، وَأَعْطَتْهُ الخَبَرَ عَنْ مَجاري الأَمْرِ وَما جَرى في الحالِ، الدُّبُّ ذَهَبَ إلى جِوارِ الأَسَدِ، رأى الجَمَلَ وَقَدْ وَقَفَ مُلْقِياً الرَّأْسَ وَصامِتاً وَمُتَوَقِّفاً، فَكَّرَ أَنِ الصَّمْتُ دَلِيْلٌ على أَنَّهُ يُرِيْدُ إِفْشاءَ سِرِّي، فالرَّأْيُ أَنْ أَقُوْمَ بِأَخْذِ قَوْلِ مُخالَسَةِ هذِهِ الفُرْصَةِ مِنْ أَمامِهِ، جَعَلَ الوَجْهَ لِلْجَمَلِ أنْ لِمَ لَمْ تَجْعَلْ خَتْمَ السُّكُوْتِ ذلِكَ اليَوْمَ على اللّسانِ، إِذْ جَعَلْتَ عِرْضَ المَلِكِ عُرْضَةً لِلْمساوِئِ والمَخازي، وَفَكَّرْتَ بِقَصْدِ رُوْحِهِ العَزِيْزِ، الأَسَدُ مِنْ تِلْكَ المُكابَرَةِ بَقِيَ في العَجَبِ، وَقَرَّرَ المُصابَرَةَ في الأَمْرِ على نارِ الغَيْظِ، لِيَعْرِفَ جَوابَ الجَمَلِ ما يَكُوْنُ، فَقَدْ وَقَعَتْ شُبْهَةٌ عَظِيْمَةٌ، *اخْتَلَطَ الخاثِرُ بِالزُّبادِ*، قالَ الجَمَلُ أَيْ غَيْرَ المُنْصِفِ، أَيُّها الأَثِيْمُ الأَفَّاكُ السَّفَّاكُ، أنا جَعَلْتُ فِكْرَ السُّوْءِ هذا في حَقِّ المَلِكِ مَعَكَ وَحْدَكَ

في الوَسَطِ، أمْ قُلْتُهُ لِشَخْصٍ آخَرَ غَيْرَكَ أَيْضاً، إذا كُنْتُ قُلْتُهُ لِغَيْرِكَ أَيْضاً فَيَجِبُ على ذاكَ الشَّخْصِ أنْ يُعْطِيَ الشَّهادَةَ في وَجْهِي مِثْلَما فَعَلْتَ أَنْتَ، وَإذا لَمْ يَكُنْ سَمِعَهُ شَخْصٌ غَيْرُكَ، لِماذا وَجَدْتَ الوُقُوْفَ في الحالِ فَلَمْ تُؤَدِّ هذِهِ الخِدْمَةَ كما يَفْعَلُ العَبْدُ، فَلَمْ تَقُمْ بِإِنْهاءِ ذاكَ الَّذي سَمِعْتَ لِرَأْيِ المَلِكِ، وَرَأَيْتَ الإِهْمالَ في التَّنْبِيْهِ على مِثْلِ هذا الغَدْرِ جائِزاً، والحَفِيْظَةُ الَّتي تَكُوْنُ مَنْشَأَ ذاكَ الحِفاظِ لَمْ تَأْخُذْ بِثَوْبِكَ، أمَّا قِصَّتُكَ مَعي فَشَبِيْهَةٌ بِقِصَّةِ زُوْجَةِ النَّجَّارِ، قالَ المَلِكُ كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ النَّجَّارِ مَعَ زَوْجَتِهِ

قالَ الجَمَلُ، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ نَجَّارٌ ماهِرُ اليَدِ في الصَّنْعَةِ والحَذاقَةِ حَتَّى يَكادُ يَجْعَلُ الرُّوْحَ في قالَبِ الخَشَبِ، وَنَقْشُ فِكْرِهِ وَبَرْيُ مِنْشارِهِ يُثْنِيانِ على يَدِهِ، كانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ جَمِيْلَةُ الوَجْهِ حَسَنَةُ القالَبِ، كانا يُنْشِدانِ هذَيْنِ البَيْتَيْنِ لِلْغَزَلِ حَسَبَ الحالِ في الخاطِرِ،

أَيْ مَكْسُوْرٌ بِنَقْشِ وَجْهِك   رَأْسُ بركارِ الوَهْمِ في أَمْرِك
كُلُّ رَسَّامي الصِّيْنِ يَجِبُ   أَنْ يُعانُوا الألَمَ مِنْ وَجْهِك

والحَقُّ رَغْمَ أَنَّها كانَتْ نَقْشَ بَيْتِ الحُسْنِ والجَمالِ فَقَدْ كانَتْ على كَمالِ العِلْمِ عَنْ نَقْشِ قَيْدِ حِيَلِ النِّساءِ، وَعَنْ مَعْمَلِ عَمَلِ صُوَرِها بِما

يَجْعَلُ عَيْنَ العَقْلِ تَصِيْرُ حائِرَةً مِنْ مُطالَعَةِ ذاكَ، اَلْقِصَّةُ في كُلِّ وَقْتٍ كانَ فِيْهِ النَّجّارُ يَجْعَلُ الرَّأْسَ في نَوْمِ الغَفْلَةِ، وَحارِسُ بَصَرِهِ يُغْلِقُ بابَ العَيْنِ ذي القِطْعَتَيْنِ مِنَ الجَفْنَيْنِ إغْلاقاً مُحْكَماً بِسِلْسِلَةِ الأَهْدابِ، وَذاكَ السّاذَجُ يَنامُ جَمِيْلاً قِطْعَةً واحِدَةً، كانَتْ تُحَرِّكُ المَرْأَةَ سِلِسْلَةُ عِشْقِ مَعْشُوْقٍ آخَرَ كانَتِ تَمْلِكُ مَعَهُ الرّابِطَةَ، كانَتْ تَثِبُ مِنَ البابِ بِرِفْقٍ وَتَخْرُجُ لِلْخارِجِ، إلى ذلِكَ الوَقْتِ إذ نائِمُو طلائِعِ النَّهارِ يُخْرِجُونَ الرَّأْسَ مِنْ جَيْبِ الأُفُقِ لِلْخارِجِ، لا تَجِيْءُ لِلْبَيْتِ، وَصَلَ الأَمْرُ للنَّجارِ للرُّوْحِ وَوَصَلَتِ السِّكِّيْنُ لِلْعَظْمِ، فَكَّرَ أنْ أنا سَأَجْعَلُ هذِهِ السَّيِّئَةَ الفِعْلِ مَفْضُوْحَةً بِما تَفْعَلُ، وَسَأُعْطِيْها الطَّلاقَ، فإِنَّها جَعَلَتْ سُفْرَةَ خُوانِ عِرْضي مَمَسُوْسَةَ يَدِ المَلامَةِ بَيْنَ الأَقْرانِ والإِخْوانِ، وَجَعَلَتْ مِنِّي مُضْغَةً لِكُلِّ فَمٍ وَضُحْكَةً لِكُلِّ مَجْمَعٍ، أنا سَأُسَرِّحُها وَأجِيْءُ بِحُكْمِ التَّزَوُّجِ بِمُخَدَّرَةٍ مِنْ أُسْرَةِ صِيانَةٍ وَخِدْرِ دِيانَةٍ، أَرْفَعُ بِها رَأْسي وَيَطُوْلُ بِها لِساني، *مَنْ لَمْ تَخُنْهُ نِساؤُهُ تَكَلَّمَ بِمِلْءِ فِيْهِ،* حَتّى لَيْلَةً بِشَكْلِ المُتَناوِمِ سَحَبَ الرَّأْسَ في ثَوْبِ النَّوْمِ، والمَرْأَةُ على القاعِدَةِ السّابِقَةِ نَهَضَتْ وَذَهَبَتْ لِلْخارِجِ، أَغْلَقَ الزَّوْجُ بابَ البَيْتِ مُحْكَماً، إلى أنْ جاءَتِ المَرْأَةُ لِلبابِ وَرَأَتِ البابَ مُغْلَقاً، نادَتِ الزَّوْجَ بالصَّوْتِ اِفْتَحِ البابَ قالَ النَّجّارُ ارْجِعي مِنْ هُنا وإِلّا فَإِني أجِيْءُ لِلْخارِجِ، وبالمَطْرَقَةِ الَّتي مَرّاتٍ كَثِيْرَةً ضَرَبْتُ بِها على قَدَمِي أَضْرِبُكِ على الرَّأْسِ، وَهُناكَ بِئْرٌ عَمِيْقَةٌ مَحْفُوْرَةٌ في الجِوارِ، قالَتِ المَرْأةُ إذا لَمْ تَفْتَحِ البابَ أنا

سَأُلْقي نَفْسي في هذِهِ البِئْرِ، حَتَّى حاكِمُ المَدِيْنَةِ غَداً يُرِيْقُ دَمَكَ بِقَصاصي، ثُمَّ جاءَتْ باليَدِ بِصَخْرَةٍ كَبِيْرَةٍ وَأَلْقَتْها في تِلْكَ البِئْرِ، وَصارَتْ مُتَوارِيَةً خَلْفَ جِدارٍ، صَوْتُ الصَّخْرَةِ وَصَلَ لِأُذُنِ النَّجَّارِ، خَرَجَ لِيَنْظُرَ ما تَكُوْنُ الحالُ، المَرْأَةُ وَثَبَتْ مِنَ المَكانِ إلى البَيْتِ وَأَغْلَقَتِ البابَ وَأَعْلَتِ الصُّراخَ والصِّياحَ وَجاءَ الجِيْرانُ مُجْتَمِعِيْنَ أَنْ ما هُناكَ، قالَتْ أَيْ مُسْلِمُونَ زَوْجي هذا رَجُلٌ دَرْوِيْشٌ، أنا عِشْتُ مَعَهُ مَعَ الفاقَةِ والفَقْرِ، وَتَمَسَّكْتُ بِذَيْلِ المُوافَقَةِ مَعَهُ على كُلِّ غَيْرِ مَرْغُوْبٍ، وَهُوَ في شُكْرِ هذِهِ النِّعْمَةِ وأنا الحَقَّ تَعالى جَعَلَني بِجِوارِهِ، يَقُوْمُ بِهذِهِ الحَرَكَةِ، في كُلِّ لَيْلَةٍ يَصِيْرُ خارِجاً مِنَ البَيْتِ لِيَجِيْءَ في كُلِّ صُبْحٍ مَعَ الفَجْرِ، أنا لا طاقَةَ لي على التَّحَمُّلِ أَكْثَرَ مِنْ هذا، الزَّوْجُ مِنَ الافِتِراءِ والاِجْتِراءِ مِنْها بَقِيَ بِغايَةِ العَجْزِ، ثُمَّ وَقَعَ القَرارُ على ذاكَ، أَنْ يَذْهَبا كِلا الاِثْنَيْنِ أمامَ حاكِمِ الشَّرْعِ، وَيَعْمَلا مُرافَعَةَ هذِهِ الحالِ، ذَهَبا وَجَلَسا بالاِخْتِصامِ، ، المَرْأةُ كانَتْ البادِئَ، وَأَعادَتِ القَوْلَ عَنِ الصُّوْرَةِ المُنَقَّشَةِ بالخَدِيْعَةِ، الَّتي كانَتْ تَمْلِكُ مِنْ هَوى الطَّبِيْعَةِ، ثُمَّ الزَّوْجُ بَعْدَها وَضَعَ في الوَسَطِ حِكايَةَ الحالِ بالصِّدْقِ، فَأَمَرُوا للزَّوْجَةِ بِحُكْمِ التَّعْزِيْرِ والتَّحْدِيْدِ الَّذي جاءَ واجِباً في الشَّرْعِ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، كَيْ يَعْلَمَ المَلِكُ أَنَّهُ حِيْنَ تَجِيْءُ غالِبَةً على الرَّجُلِ الأُنُوْثَةُ، ومَغْلَوْبَةً الرُّجُوْلَةُ، قَلَّما يَفْعَلُ فِعْلَ الرِّجالِ، وَفي كُلِّ وَقْتٍ يَقْصِدُ بِصِفَةِ النِّساءِ، وَبِهذا الوَجْهِ يَتَقَدَّمُ،

لِسانٌ مَعْسُوْلٌ قائِلٌ وَقَلْبٌ مَمْلُوْءٌ بالكَذِبِ
عِنْدَ الرَّجُلِ العالِمِ لا يَأْخُذانِ الضِّياءَ

الزَّاغُ جاءَ إلى جِوارِ الأَسَدِ وَقالَ بِرِفْقٍ، أَنْ علاماتُ الحِيْلَةِ والمُخاتَلَةِ في هذِهِ المُعامَلَةِ بادِيَةٌ على الدُّبِّ، وَدَلائِلُ مَكائِدِهِ تُعْطي الشَّهادَةَ على فِعْلِهِ وَأَنَّهُ مُذْنِبٌ وَأَنَّ الجَمَلَ بَرِيْءٌ، وَقالُوا لا يَجُوْزُ لِلمَلِكِ أنْ يَعْمَلَ العَمَلَ مَعَ عامَّةِ الخَلْقِ بالحُجَّةِ، ولا يَجِبُ أنْ يَقُوْلَ القَوْلَ بالمُعارَضَةِ، فَآنَذاكَ يَصِيْرُ في أَعْيُنِهِمْ مَهِيْناً، وَيَصِيْرُوْنَ مُجْتَرِئِيْنَ، وَيَصِلُ لِمَكانٍ يَجْعَلُ إمْكانَ تَمْشِيَةِ الحَقِّ مَعَهُمْ عَسِيْراً، فَكَيْفَ بِتَسْوِيَةِ الباطِلِ، المَلِكُ أَمَرَ أنْ يُجْعَلَ الاِثْنانِ بالحَبْسِ، وَأَوْكَلَ المُحافَظَةَ عَلَيْهِما لِثَعْلَبٍ كانَ اِسْمُهُ جادُو،

تَمَنَّيْتَ أنْ تَحْيا حَياةً شَهِيَّةً وَأنْ لا تَرى طُوْلَ الزَّمانِ بلابِلا
فَهَيْهاتَ هذا الدَّهْرُ سِجْنٌ وَقَلَّما يَمُرُّ على المَسْجُوْنِ يَوْمٌ بِلا بَلا

ثُمَّ ذاكَ الفَأْرُ الَّذي كانَ على عِلْمٍ بِأَمْرِ الجَمَلِ، وَكانَ سَمِعَ مُخاطَباتِهِما، ذَهَبَ إلى جادُو وَسَأَلَهُ، إلامَ انْتَهى أَمْرُ الجَمَلِ والدُّبِّ، قالَ لَهُ، كِلا الاِثْنَيْنِ مَحْبُوْسانِ عِنْدي، إلى ذاكَ الوَقْتِ الَّذي يَجِيْءُ بِهِ وَجْهُ النَّجاةِ المُطْلَقُ ظاهِراً، قالَ الفَأْرُ، أنا أَتَوَقَّعُ مِنْكَ أنْ تَقُوْلَ لِي لِأَيِّ جانِبٍ تَرى غالِباً رِضا وَغَضَبَ المَلِكِ، حَتَّى أَعْلَمَ أنْ نِهايَةُ أَمْرِ أَيِّ واحِدٍ مِنْهُما تَكُوْنُ حَسَنَةً، والشُّؤمُ يَجِيْءُ لائِقاً بِأَيَّةِ جِهَةٍ، قالَ

جادو، عَبِيْرُ هذا الحَدِيْثِ يَجِيْءُ مِنْ وَسَطِ الأَمْرِ، إذا كُنْتَ تُظْهِرُ لي ذاكَ الَّذي تَعْلَمُ فَذاكَ لا يَظْهَرُ غَرِيْباً مِنْ جانِبِ الأَصْدِقاءِ والأَصْحابِ الأَوْفِياء، قالَ الفَأْرُ أنا أُرِيْدُ أنْ يَجِيْءَ كِلا الاِثْنَيْنِ مَشْمُوْلَيْنِ بِعاطِفَةِ المَلِكِ وَمَرْمُوْقِ عِنايَتِهِ، وَأنْ تَتَعَلَّقَ الخاتِمَةُ بالخَيْرِ، وَأَيْضاً أنا سَمِعْتُ ما قالُوا، أنْ في أَمْرِ المَلِكِ ما اسْتَطَعْتَ لا تَقُلِ الحَدِيْثَ بالخَيْرِ والشَّرِّ، واحْفَظِ النَّفْسَ مُحْتَرِزاً، قالَ لَهُ، يَجِبُ أنْ يَجْرِيَ حَدِيْثُ القائِلِ حَسَناً وَبِأُسْلُوْبِ العَقْلِ والشَّرْعِ، حَتَّى كُلُّ الَّذي يَقُوْلُ يَجِيْءُ مَقْبُولاً مِنْهُ، وَذاكَ شَبِيْهٌ بالعَسَلِ الخالِصِ تَأْخُذُهُ خارِجاً مِنْ أَيِّ ظَرْفٍ، أكانَ وُضِعَ في وِعاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أمْ في قِدْرٍ مِنَ الفَخَّارِ، فَإِنَّ النَّصِيْبَ مِنَ الحَلاوَةِ مِنْهُ لِجَمِيْعِ الأَذْواقِ واحِدٌ، والعِلْمُ شَبِيْهٌ بِقَطَراتِ المَطَرِ، فَعلى كُلِّ أَرْضٍ أَمْطَرَتْ أَظْهَرَتْ أَثَراً مِنْ آثارِ المَنْفَعَةِ، والرَّجُلُ ذَكِيُّ الطَّبْعِ مَعَ الكِفايَةِ والدِّرايَةِ، ما دامَ يَطْلُبُ الصَّلاحَ جِهَةَ أَمْرِ سَيِّدِهِ، لَوْ كانَ يَحْصَلُ لَهُ الخَطَرُ على الرُّوْحِ، لا يَعْجَزُ عَنِ التَّقَدُّمِ وَتَحْصِيْلِ ذاكَ، كما فَعَلَتْ إِيراجَسْته مَعَ خَسْرو، قالَ الفَأْرُ كَيْفَ كانَ ذاكَ،

قِصَّةُ إِيْراجَسْته مَعَ خَسْرو

قالَ الثَّعْلَبُ، سَمِعْتُ أنَّ خَسْرُو كانَ يَمْلِكُ امْرَأَةً بِنْتَ مَلِكٍ رُبِّيَتْ في خِدْرِ العِصْمَةِ، جاءَتْ بالدَّلالِ مِنْ حِجابِ السِّتْرِ إلى سَرِيْرِ مَمْلَكَتِهِ، وَجْهُها مِنَ الجَمالِ أَغارَ بِفَرَسٍ على الشَّمْسِ، عارِضُها أعْطى القَمَرَ

لِخانَةِ *الشَّاه مات*، خَسْرُو كانَ قَتَلَ أَباها وَأخاها، وَأَلْقى مَكْسُوراً سَرْوَ بُسْتانِ الأماني عَنْ ضَفَّةِ نَهْرِ الشَّبابِ، وَارْتَبَطَ بالدَّمِ بِذاكَ الغُصْنِ مِنْ دَوْحَةِ المَلِكِ على أرُوْمَةِ بُلُوْغِ المُرادِ، وَمَعَ أَنَّهُ في أَمْرِ عِشْقِها كانَ مُضْنىً بِشِدَّةٍ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الحَرْبِ الَّتي كانَ عَمِلَ مَعَهُمْ كانَ دائِماً بالفِكْرِ، وَكانَ يَحْمِلُ الظَّنَّ على أَنَّ مَحَبَّتَها لِلأَخِ والأَبِ سَتِجِيْءُ مُحَرِّضاً لها يَوْماً على الحِقْدِ على الزَّوْجِ، وَأَنَّ ذِكْرَ العَزِيْزِيْنَ لَنْ يَذْهَبَ أَبَداُ مِنْ رُكْنِ خاطِرِها، وَقْتاً كِلا الاِثْنَيْنِ في بَيْتِ خَلْوَةِ العِشْرَةِ جاءا على تَخْتِ السُّرُوْرِ بالمُداعَبَةِ والمُلاعَبَةِ، خَسْرو مِنْ صَمِيْمِ نَشْوَةِ النَّشاطِ مَدَّ يَدَ الشَّهْوَةِ بالاِنْبِساطِ، لِيَسْحَبَ مَخْزَنَ الياسَمِيْنِ بالحَبْلِ المِسْكِيِّ وَيَضُمَّهُ إِلَيْهِ، وَيَأْخُذَ بَعْضاً مِنَ السُّكَّرِ مِنْ فُسْتَقِ ثَغْرِها الضَّيِّقِ وَلَوْزِها الواسِعِ بالنَّقْلِ، المَعْصُوْمَةُ نَظَرَتْ إلى خَدَمِ أَسْتارِ الحَضْرَةِ، وَحُجَّابَ حَرَمِ الخِدِمَةِ، أعْني الجَواري بِمَنْظَرِ القَمَرِ، والبَناتِ بِنَظَرِ الزُّهْرَةِ، رَأَتْهُنَّ واقِفاتٍ عَنْ يَمِيْنِ وَيَسارِ التَّخْتِ، مِثْلَ بَناتِ النَّعْشِ والثُّرَيَّا حَوْلَ مَرْكَزِ القُطْبِ، مُصْطَفَّاتٍ الصَّفَّ في الصَّفِّ، مِنَ النَّظَرِ مِنْهُنَّ وَقَعَ عَلَيْها الخَجَلُ التَّامُّ، وَمِثْلُ تِلْكَ الحالَةِ جاءَتْ أمامَ خاطِرِها نُصْبَ العَيْنِ، أَنَّهُ لِكِسْرى أنوشِروان، في وَقْتٍ، أمامَ مُشاهَدَةِ ذاتِ جَمالٍ مِنْ مَنْظُوراتِ فِراشِ العِشْرَةِ، جاذِبَةُ رَغْبَتِهِ صارَتْ صادِقَةً، ذاتُ الجَمالِ جَعَلَتِ النَّظَرَ في ذاكَ البَيْتِ إلى وِعاءٍ لِلْنَّرْجِسِ كانَ مَوْضُوْعاً بَيْنَ أَوْعِيَةِ الرَّياحِيْنِ، سَحَبَتْ حِجابَ الحَياءِ

على وَجْهِ المُرُوْءَةِ بالرُّجُوْلَةِ وَقالَتْ، إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أنْ أُباضِعَ في بَيْتٍ فِيْهِ النَّرْجِسُ لِأَنَّهُ يُشْبِهُ العُيُوْنَ النَّاظِرَةَ، قالَ مَعَ النَّفْسِ، أنْ هِيَ مَعَ كُلِّ العُذْرِ للرَّجُلِ، كَيْفَ تَمْلِكُ الخَجَلَ مِنْ حُضُوْرِ النَّرْجِسَ الَّذي لا يَمْلِكُ النَّاظِرَ الآدَمِيَّ، وَمَعَ حُضُورِ جَواري الياسَمِيْنِ والأُرْغُوانِ مِنْ أمامي وَهُنَّ في تَرَقُّبِ أَحْوالي أَكْثَرُ نَظَراً، لا أُظْهِرُ المُبالاةَ، ولا أَعْمَلُ المُبالَغَةَ في مُغالاةِ بِضاعَةِ البُضْعِ، وهؤلاءِ ذواتُ وُجْوْهِ الياسَمِيْنِ وَشَعْرِ البَنَفْسَجِ، يُطِلْنَ لِسانَ الطَّعْنِ بي كالسَّوْسَنِ، وَرَغْمَ أَنَّهُمْ قالُوا، جَدَعَ *الحَلالُ أَنْفَ الغَيْرَةِ*، لَيْسَتْ لِي طاقَةُ هذا التَّحَمُّلِ وَوَجْهُ هذا الحَياءِ، ثُمَّ في تِلْكَ الحالَةِ جَذَبَتِ اليَدَ فَجاءَتْ على وَجْهِ خَسْرُو، وَوَقَعَتْ عَنْ حافَّةِ التَّخْتِ، فَأَوْرَدَ في خَيالِهِ أنِ المُوْجِبُ والمُهَيِّجُ لِهذِهِ الحَرَكَةِ هُوَ الحِقْدُ لِلأَبِ والأَخِ الَّذي وَجَدَ التَّمَكُّنَ في داخِلِها، وَكُلَّ وَقْتٍ بِحُجَّةٍ تُخْرِجُ الرَّأْسَ مِنْ ياقَةِ الفُضُولِ، ولا يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ مِثْلُ هذا العَدُوِّ في البَيْتِ، وَخاصَّةً المَرْأَةُ، ثُمَّ طَلَبَ إيراجَسته الَّذي كانَ وَزِيْرَ وَمُشِيْرَ المَلِكِ، وَبَعْدَ أَنْ قالَ لَهُ سَبَبَ الغَضَبِ مِنْ زَوْجَتِهِ، أَمَرَهُ أنْ يَذْهَبَ بِها وَأَنْ يُهْلِكَها، الوَزِيْرُ في ذلِكَ الوَقْتِ إِذْ كانَ لِلْمَلِكِ سَوْرَةُ السُّخْطِ في اتِّخاذِ القَرارِ، وَلَمْ يَكُنْ يَرى الوَجْهَ إِلَّا الخُضُوْعَ لِأَمْرِ المَلِكِ، أَخَذَها إلى مَنْزِلِ نَفْسِهِ في حِجابِ الحُرْمَةِ، وَبَقِيَ مُتَرَدِّداً ما بَيْنَ تَأخِيْرِ ذاكَ الأمْرِ وَتَقْدِيْمِ إشارَةِ المَلِكِ، المَعْصُوْمَةُ أَرْسَلَتِ الرِّسالَةَ على لِسانِ خادِمٍ لِلْوَزِيْرِ، أَنْ قُلْ لِلْمَلِكِ إذا كُنْتُ أنا مُذْنِبَةً، آخِراً هذِهِ

النُّطْفَةُ الطَّاهِرَةُ مِنْ صُلْبِكَ الطَّاهِرِ، الَّتي أَمْلِكُ في البَطْنِ لا ذَنْبَ لها، هِيَ لا تَزالُ ماءً بَسِيْطاً، وَلَمْ تَجْدِ التَّرْكِيْبَ بِأَجْزاءِ تُرابِ الآدَمِيِّ المُلَوَّثِ بالعِصْيانِ، سَحْبُ رَقَمِ المُؤاخَذَةِ هذا عَلَيْها، وَإِجْراءُ قَلَمِ هذا القَضاءِ غَيْرُ لائِقٍ، آخِراً هذا الطِّفْلُ الَّذي يَجِيْءُ مِنْ عالَمِ الغَيْبِ بِدَعْوَةِ بَيْتِ دَولَتِك، أَنتَ الَّذي دَعوْتَهُ، وبالأَدْعِيَةِ باللَّيْلِ طَلَبْتَ قُدُوْمَهُ، وبالأَوْرادِ اسْتَدْعَيْتَ قُدُوْمَهُ، فَذَرْهُ يَجِيْءُ، وَإِنْ كُنْتَ تُفَكِّرُ أَنْ لِهذا الطِّفْلِ الضَّيْفِ أُمٌّ طُفَيْلِيَّةٌ، مِنْ وَجْهِ الكَرَمِ لا يَجِيْئُونَ أمامَ الضَّيْفِ الطُّفَيْلِيِّ بِيَدِ المَنْعِ، لا تَفْعَلْ فِعْلاً تَصِيْرُ نادِماً على فِعْلِهِ أَيْ مَحْبُوْبُ، الوَزِيْرُ جاءَ بِخِدْمَةِ خَسْرُو وَطَلَبَ الأمانَ لِحامِلِ حِمْلِ الأمانَةِ إلى وَقْتِ الوَضْعِ، خَسرو لَمْ يَقْبَلْ وَأَمَرَ أَنْ أوْصِلْ هذا المُهِمَّ لِلْقَضاءِ وهذا الأَمْرَ للإِمْضاء، الوَزِيْرُ رَجَعَ، وَكُلَّما نَظَرَ في وَجْهِ الأَمْرِ لَمْ يَجِدِ الرُّخْصَةَ لِهذا الفِعْلِ مِنْ مُفْتي العَقْلِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ في يَوْمٍ في باطِنِهِ الَّذي صارَ مُظْلِماً مِنْ دُخانِ نارِ الغَضَبِ، سَوْفَ تُشِعُّ مَحَبَّةُ الوَلَدِ، وَمِنْ قَتْلِهِ وَهُوَ سَبَبُ ضِياءِ عَيْنِهِ، سَيَجْرَعُ النَّدامَةَ، وَسَيَعْرِفُني واسِطَةَ ذاكَ الفِعْلِ، وَهكذا عَرَفَ الصَّوابَ أَنْ يُعِدَّ لها مَكاناً في الخَفاءِ عَنْ نَظَرِ خَلْقِ العالَمِ فلا تَراها الشَّمْسُ ولا ضَوْءُ القَمَرِ مِنْ شِقٍّ في الجِدارِ، جَعَلَ العِصْمَةَ لِحاجِبٍ، وَأَوْكَلَ حِفْظَ ذاكَ البَيْتِ الصَّغِيْرِ لِحارِسٍ جَعَلَ مُقامَهُ بِهِ، وَقامَ بالتَّرْتِيْبِ لِكُلِّ ما كانَ واجِباً مِنْ أَسْبابِ المَعاشِ، مِنْ كُلِّ ما يُحْتاجُ إِلَيْهِ، وَجَعَلُوْهُ مُهَيَّأً على وَجْهِ المَصْلَحَةِ،

وَحِيْنَ وَصَلَتِ التِّسْعَةُ شُهُورٍ للتَّمامِ، أَظْهَرَ الوَجْهَ قَمَرُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنْ عُقْدَةِ كُسُوْفِ الخَيْبَةِ، مَولُوْدُ دلالٍ عَنْ يَدِ حاضِنِ الفِطْرَةِ جاءَ في جِوارِ قابِلَةِ الدَّوْلَةِ، وَتَرَبَّى هكذا في ثَوْبِ حَواضِنِ البَخْتِ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَ سِنِيْنَ، يَوماً خَسْرُو كانَ يَطُوْفُ في مُتَصَيَّدٍ، رَأى شاةً مَعَ حَمَلٍ وَكَبْشٍ، جاءَتِ الشَّاةُ ظاهِرَةً مِنَ الصَّحْراءِ، أَثارَ المَرْكَبَ كالرِّيْحِ العَنِيْفَةِ مِنْ مَهَبِّ المَرَحِ والنَّشاطِ، وَجَرى إِلى جِوارِها، جَعَلَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ الثَّلاثَةِ سَهْماً في عِطْفَةِ الكَمَرِ، سَحَبَ سَهْماً وَصَوَّبَهُ صَحِيْحاً إلى صَدْرِ الصَّغِيْرِ، الأُمُّ جاءَتْ أمامَهُ لِتَصِيْرَ لَهُ دِرْعاً مِنَ الآفَةِ، وَحِيْنَ جَعَلَ السَّهْمَ مُصَوَّباً إلى النَّعْجَةِ جاءَ الكَبْشُ أمامَها أنْ عَسى هذا القَضاءُ يَصِيْرُ راجِعاً عَنْها، خَسرو مِنْ تِلْكَ الحالَةِ عَضَّ على إِصْبَعِ التَّعَجُّبِ بالأَسْنانِ، وَأَلْقى القَوْسَ مِنَ اليَدِ، وَجَلَبَ للذَّاكِرَةِ صُوْرَةَ حالِ الزَّوْجَةِ وَإِهلاكَها مَعَ الوَلَدِ الَّذي كانَتْ تَحْمِلُ في بَطْنِها، في المَحَلِّ الَّذي تَكُوْنُ فِيْهِ لِلْحَيوانِ الوَحْشِيِّ على وَلَدِهِ مِثْلُ هذِهِ الرَّحْمَةِ والشَّفَقَةِ حَتَّى يَجْعَلَ مِنَ النَّفْسِ فِداءً لَهُ، وَيَجِيْءُ لِلذَّكَرِ على أُنْثاهُ مِثْلُ هذا العَطْفِ والرَّأْفَةِ حَتَّى يَقُوْمَ بالإسْتِقْبالِ لِلْبَلاءِ لِئَلَّا يُصِيْبَها ذاكَ البَلاءُ، وَأنا أَرَقْتُ دَمَ فِلْذَةِ كَبِدي بِيَدِ نَفْسي، وَلَمْ أَرْحَمْ زَوْجَتي الَّتي كانَتْ بِجَمالِ الصُّوْرَةِ وَبِطَهارَةِ الصِّفَةِ طاقاً فَوْقَ نِساءِ العالَمِ، أنا مِنْ أَيْنَ أَطْلُبُ مَساغَ هذِهِ الغُصَّةِ، والمَرْهَمَ لِحُرْقَةِ هذِهِ القِصَّةِ،

الشَّخْصُ الَّذي لَوى الرَّأْسَ عَنِ الصِّدْقِ
لا بُدَّ أَنْ يَصِيْرَ نادِماً مِنْ فِعْلِ النَّفْسِ

حِيْنَ عادَ راجِعاً مِنَ الصَّيْدِ، طَلَبَ بِخِدْمَتِهِ الوَزِيْرَ، وَشَرَعَ بِذِكْرِ حِكايَةِ الصَّيْدِ وَشِكايَةِ الجِراحَةِ الَّتي وَصَلَتْ لِقَلْبِهِ مِنْ تَذَكُّرِ الزَّوْجَةِ والوَلَدِ، والتَّحَسُّرِ على فَواتِهِما، ذَكَرَ ذاكَ مِنَ البِدايَةِ، قالَ الوَزِيْرُ، لا يُمْكِنُ التَّعَلُّقُ إلَّا بالصَّبْرِ، ثُمَّ نَهَضَ وَجاءَ إلى البَيْتِ، وَزَيَّنَ وَلَدَ المَلِكِ مِنَ الفَرْقِ إلى القَدَمِ، بالزِّيْنَةِ الرَّائِقَةِ، والحِلْيَةِ الفائِقَةِ، والأَلْبِسَةِ الفاخِرَةِ اللَّائِقَةِ، وَكَذلِكَ جِهَةَ أُمِّهِ، جَعَلَ مُرَتَّباً جُمْلَةً، رِزَمَ الدِّيْباجِ وَتُخُوْتَ الأَقْمِشَةِ الجَمِيْلَةِ مَعَ المُضافاتِ الأُخْرى، مِنَ الهَدايا المَرْغُوْبَةِ مِنَ المَلْبُوْسِ والمَرْكُوْبِ وَغَيْرِ ذاكَ، وَجاءَ إلى خِدْمَةِ خَسْرو ضاحِكاً مُسْتَبْشِراً وَعَنْ وَجْهِ الصَّباحَةِ مُسْفِراً،

أُنْظُرْ الطُّرْفَةَ مِنَ الوَرْدِ الَّتي تَفَتَّحَتْ لي
لا يُمْكِنُ إِظْهارُ اللَّوْنِ ولا إِخْفاءُ العَبِيْر

أَيْ مَلِكُ، ذلِكَ اليَوْمَ الَّذي أَمَرْتَ بِأَنْ تُكْسَرَ تِلْكَ الصَّدَفَةُ مَعَ الدُّرِّ، وَأَنْ تُلْقى تِلْكَ الوَرْدَةُ مَعَ البُرْعُمْ في التُّرابِ، وَأَنْ تُقْطَعَ تِلْكُ الوُصْلَةُ بَيْنَ الأَبِ والأُمِّ، أنا فَكَّرْتُ بِنَدامَةِ الشَّاهِ وَغَرامَةِ النَّفْسِ، وَجَعَلْتُ ذاكَ الأَمْرَ بالتَّوَقُّفِ إلى وَقْتِ وَضْعِ الحَمْلِ، مِنْ بَعْدِ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ جاءَ لِلْوُجُوْدِ وَلَدٌ زائِدٌ بالجَمالِ بالعارِضَيْنِ على جَمِيْعِ أولادِ المُلُوْكِ، بالفَأْلِ

المُبارَكِ وَنَجْمِ السَّعْدِ، وَفِيْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ ذاتِها مُنَجِّمُ طالِعِ وِلادَتِهِ قامَ بالرَّصْدِ، هذا هُوَ تارِيْخُ المِيْلادِ وَطالِعُ المَوْلُوْدِ، وَأَيْ مَلِكُ أنا لا أَرى مَرْضِيَّاً إِهْلاكَ أُمٍّ جاءَتْ بِمِثْلِ هذا المَوْلُوْدِ بِلا نَظِيْرٍ، دُوْنَكَ الاِثْنَيْنِ أَوْصَلْتُهُما إِلَيْكَ راجِعَيْنِ بالسَّلامَةِ، جِئْتُ لِلْحَضْرَةِ بالمِسْكِ مَعَ النَّافِجَةِ، والغُصْنِ مَعَ البُرْعُمَةِ، خَسْرُو مِنْ سَماعِ وَرُؤْيَةِ تِلْكَ الحالِ صارَ مَدْهُوْشاً وَبِلا وَعْيٍ، حَتَّى أَضاعَ النَّفْسَ في النَّفْسِ، وَما عَلِمَ ما سَمِعَ، حَتَّى إِذا عادَ لِلْحالَةِ مَعَ النَّفْسِ مِنَ الغَشْيِ، قالَ،

أَهْلاً وَسَهْلاً بالَّتي جادَتْ عَلَيَّ بِعِلَّةِ
أَهْلاً بِها وَبِوَصْلِها مِنْ بَعْدِ طُوْلِ الهِجْرَةِ
أَدِرِ المُدامَ وَغَنِّني أَهْلاً وَسَهْلاً بالَّتي

ثُمَّ قَبِلَ المِنَّةَ الَّتي كانَتْ مُقابِلَ تِلْكَ الخِدْمَةِ مِنَ الوَزِيْرِ، وَعَمِلَ لَهُ كُلَّ ما صارَ مُمْكِناً، مِنْ تَكْرِيْمِ جانِبِ الحُرْمَةِ، وَتَنْوِيْهِ الجاهِ والمَنْزِلَةِ، وَجَعَلَ مِنْ رَأْيِهِ صُوْرَةَ زِيْنَةِ عَرُوْسِ الدَّوْلَةِ، وَحَلَّالِ مُشْكِلِ قَيْدِ المِحْنَةِ، وَذَخِيْرَةَ وَقِنْيَةَ يَوْمِ الحاجَةِ، أَنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أَنْ إِذا أَنتَ قُمْتَ بِإِظْهارِ هذِهِ الخِدْمَةِ، وَأَخْرَجْتَ صُوْرَةَ هذِهِ الواقِعَةِ خارِجَ حِجابِ الرِّيْبَةِ والاِشْتِباهِ، وَجَعَلْتَ حاصِلاً لَهُ الاِنْتِباهَ عَنْ مَوقِعِ أَغالِيْطِ الخَيالِ وَتَخالِيْطِ الوَهْمِ، فَلَكَ أنْ تَتَوَقَّعَ بالنَّتِيْجَةِ إِحْسانَ المَلِكِ، وَلَنْ تُحْرَمَ ذاكَ الَّذي يَرْجِعُ لِحُسْنِ المُجازاةِ في مُوازاةِ ذاكَ، وَمِنْ تِلْكَ

الخِدْمَةِ يُمْكِنُ الوُصُوْلُ سَرِيْعاً للتَّرَقُّعِ لِمَرْتَبَةٍ سَنِيَّةٍ، والتَّمَتُّعِ بِعِيْشَةٍ هَنِيَّةٍ، قالَ الفَأْرُ، حَقّاً تَقُوْلُ، وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ في تَحْقِيْقِ هذا الحَدِيْثِ أَيُّ تَرَدُّدٍ، *ولكِنْ مَنْ أنا في الرِّفْعَةِ*، وَأنا أَجِيْءُ في جُمْلَةِ أولئِكَ الَّذينَ هُمْ في عَقْدِ المَوالي والخَدَمِ، وَأنا أُعَدُّ مِنْ موالي الخِدْمَةِ، فَمَنْ أَكُوْنُ حَتَّى أَصِيْرَ مَثَلاً مَخْصُوْصاً بالمُثُولِ في هذِهِ الحَضْرَةِ، وَبِدالَّةِ أَيَّةِ آلَةٍ، وَبِإِرْشادِ أَيِّ رَشادٍ أَطْلُبُ هذا الطَّلَبَ، وباعْتِدادِ أَيِّ اسْتِعْدادٍ أَجْلِسُ في هذا المَعْرَضِ، أنتَ لا تَجْني مِنَ الشَّوْكِ العِنَب، أنا في رُكْنِ الخُمُوْلِ هذا سِنِيْنَ، سَحَبْتُ القَدَمَ في ثَوْبِ العُزْلَةِ، وَنَفَضْتُ الثَّوْبَ مِنْ غُبارِ مِثْلِ هذِهِ الأَطْماعِ، أنا بالنَّهارِ مِنْ طَلَبِ مُرادٍ لَمْ أَكُنْ طالِبَهُ مُرْتاحٌ، وباللَّيْلِ مِنْ الحِفاظِ على شَيءٍ لَمْ أَكُنْ مالِكَهُ نِمْتُ سَعِيْداً، أنا أَبَداً لا أَجْعَلُ مِنْ اِسْمِ نَفْسي بِمَعْرِفَةِ المَلِكِ العَلَم، ولا أَعْمَلُ تَرْجِيْحَ هذِهِ المَعْرِفَةِ لِنَفْسِي النَّكِرَةِ في مِثْلِ هذِهِ الواقِعَةِ النَّكْراءِ والدَّاهِيَةِ الدَّهْياءِ، وَأَمْرٌ خارِجٌ عَنْ مَجالِ وُسْعِي، وَزائِدٌ عَنْ قَدْرِ إِمْكاني، لا أَتَقَدَّمُ لَهُ،

وَلَمْ أَطْلُبْ مَداهُ وَمَنْ يُحاوِلْ مَناطَ الشَّمْسِ يَعْرَضْ للسِّقاطِ

وَقالُوا، صُحْبَةُ المَلِكِ وَقُرْبَةُ جِوارِهِ شَبِيْهَةٌ بالحَمَّامِ الحارِّ، كُلُّ مَنْ كانَ خارِجَهُ رَغِبَ أَنْ يَكُوْنَ داخِلَهُ، وَكُلُّ مَنْ جَلَسَ ساعَةً داخِلَهُ وَصارَ مُتَأَذِّياً مِنْ لَذْعِ حَرارَةِ مائِهِ، وَعَدَمِ مُوافَقَةِ هَوائِهِ، طَلَبَ أَنْ يَخْرُجَ سَرِيْعاً مِنْهُ، مِثْلَ النَّظَّارَةِ الَّذِيْنَ يَنْظُرُوْنَ لِحَضْرَةِ المَلِكِ مِنْ بَعِيْدٍ،

وَيَرَوْنَ رَوْنَقَ الحاضِرِيْنَ، يَمُدُّوْنَ اليَدَ لِحَبائِلِهِ وَوَسائِطِهِ، وَيَطْلُبُونَ أَسْبابَهُ وَوَسائِلَهُ، أنْ بِأَيَّةِ حِيْلَةٍ وَأَيَّةِ وَسِيْلَةٍ يَصِيْرُونَ مُنْحَصِرِيْنَ في جُمْلَتِهِم، وَيَصِيْرُ الغَرَضُ حاصِلاً صَحِيْحاً، وَحِيْنَ يَجِيْءُ واصِلاً الْمَطْلُوْبُ، بِأَلْطَفِ الوُجُوْهِ يَطْلُبُونَ فاصِلاً يُلْقي ما بَيْنَ خِدْمَةِ الشّاهِ وَبَيْنَهُم حِجابَ الغُرْبَةِ، ولكِنْ بِما أَنِّي أَرى لَكَ تَعَلُّقَ خاطِرٍ وَتَعَمُّقَ فِكْرٍ في هذا الأَمْرِ، أنا سَأَفْتَحُ لَكَ هذا السِّرَّ، لَكِنْ يَجِبُ أَلّا تَأْمُرَ بِإِحالَةِ إِسْنَادِ ذاكَ إِلَيَّ، وَأَلّا تَعْمَلَ هذِهِ الرِّوايَةَ والحِكايَةَ عَنِّي، الثَّعْلَبُ تَعَهَّدَ بِرِعايَةِ تِلْكَ الشَّرائِطِ، ثُمَّ الفَأْرُ أَعادَ قَوْلَ ذلِكَ الفَصْلِ الَّذي كانَ الدُّبُّ ساقَهُ لِلْجَمَلِ بالتَّفْصِيْلِ، وَوَضَعَ في الوَسَطِ إِثارَةَ الدُّبِّ المُهارَشَةَ في الفَسادِ، وَمُناقَشَةَ الجَمَلِ في طَلَبِ الصَّلاحِ، هكذا مِثْلَما كانَ جَرَى، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ لِذاكَ السَّلِيْمِ الطَّبْعِ سَلِسَ القَيادِ مَعَ كُلِّ ما أَلْقى لَهُ في الطَّرِيْقِ مِنْ شَوْكِ تَسْوِيْلِ الحِيْلَةِ، وَمَغِيْلانِ الغِيْلَةِ، مَعَ كُلِّ سَذاجَةِ القَلْبِ لَمْ يُؤَثِّرْ بِهِ قَدْرَ رَأْسِ شَعْرَةٍ، وَمَوارِدُ صَفائِهِ لَمْ تَصِرْ كَدِرَةً مِنْ خُبْثِ وَساوِسِ ذاكَ الشَّيْطانِ المارِدِ، وَمادَّةُ أُلْفَتِهِ بِصُوْرَةِ الباطِلِ لَمْ تَقْبَلِ الاِنْقِطاعَ، الثَّعْلَبُ حِيْنَ سَمِعَ هذا الفَصْلَ مُفَصَّلاً وَمُسْتَوْفىً مِنَ الفَأْرِ، ذَهَبَ مَسْرُوْراً وَسَعِيْدَ القَلْبِ لِخِدْمَةِ المَلِكِ، وَقالَ، كانَتْ دَوْلَةُ العالَمَيْنِ لِلْمَلِكِ مُتَّصِلَةً بالبَقاءِ الخالِدِ، في عِدَّةِ أَيَّامٍ كُنْتُ أنا العَبْدُ مَحْرُوْماً مِنْ خِدْمَةِ هذِهِ العَتَبَةِ، وَمَحْجُوْباً عَنْ جَمالِ هذِهِ الحَضْرَةِ، فَقَدْ كُنْتُ أَقُوْمُ بِتَفَحُّصِ أَمْرِ الدُّبِّ والجَمَلِ، وَتَصَفُّحِ حالِهِما، آخِراً

جِئْتُ خارِجاً مِنْ مَقامِ التَّحَيُّرِ والتَّوَقُّفِ، وَوَجَدْتُ تَمامَ الاِطِّلاعِ على مُكايَدَةِ وَمُجاهَدَةِ كِلا الإِثْنَيْنِ على الحَقِّ والحَقِيْقَةِ، إِذا تَعَلَّقَتْ إِشارَةُ المَلِكِ بِذاكَ، فَلْيَطْلُبْهُ عَنِ المُخْبِرِ الأَصْلِ، وَلْيَسْأَلْ حَتَّى أُعْطِيَ الإِعْلامَ، قالَ الأَسَدُ، الحَمْدُ للهِ أنتَ مُذْ كُنْتَ، كُنْتَ تَأْخُذُ الأَخْبارَ في المَسارِّ والمَضارِّ مِنَ الرُّواةِ الثِّقاتِ، وَلَنا في إِفادَةِ اليَقِيْنِ كانَ يَجِيْءُ سَماعُ قَوْلِكَ المُجَرَّدِ راجِحاً على تَواتُرِ الجَماعاتِ، وَكانَ يَجِيْءُ مُسْتَغْنِياً عَنِ البَحْثِ، الثَّعْلَبُ أَوْصَلَ ما جَرى مِنْ أَحْداثٍ مِنْ أَوَّلِهِ لِآخِرِهِ إِلى أُذُنِ المَلِكِ، وَجاءَ بِوَجْهِ الاِجْتِهادِ خارِجاً مِنْ نِقابِ الشُّبْهَةِ، حَتَّى شاهَدَ المَلِكُ جَمالَ العَيانِ في مِرْآةِ الخَبَرِ، ثُمَّ المَلِكُ جَعَلَ الوَجْهَ للزَّاغِ، أنِ الآنَ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ يَجِبُ عَمَلُ النَّكالِ للدُّبِّ وَالجَزاءُ لِأَفْعالِهِ، وما الَّذي يَجِبُ فِعْلُهُ، قالَ الزَّاغُ، الرَّأْيُ هُوَ ذاكَ، أَنَّ المَلِكَ يَأْمُرُ أَنْ يَكُوْنَ مَجْمَعٌ غاصٌّ بِأَصْنافِ الخَلْقِ مِنَ العَوامِ والخَواصِّ والصِّغارِ والكِبارِ والأَوْضاعِ والأَشْرافِ، وَأَنْ يَجْلِسَ المَلِكُ وَمِنْ أَمامِهِ بِساطُ الحَضْرَةِ، وَكُلُّ شَخْصٍ يَقُوْلُ ذاكَ الَّذي يَعْلَمُ، وما الإِسْتِحْقاقُ اللَّائِقُ بِفاعِلِي السُّوْءِ، ولا يَمْنَعُ كَلِمَةَ الحَقِّ، حَتَّى بِكُلِّ ذاكَ الَّذي يُقَرِّرُ يَكُوْنُ مَعْذُوراً وَمُحِقّاً، وَفي ذلِكَ اليَوْمِ عَمِلُوا وَأَكْمَلُوا ذاكَ التَّدْبِيْرَ والفِكْرَ، وَفي اليَوْمِ الآخَرِ حِيْنَ كانَتْ براعِمُ الأَنْجُمِ تَسْقُطُ مِنْ رِيْحِ الصَّباحِ، وَبَيْتُ سَيِّدِ الفَلَكِ مِنْ هذا المَرْجِ البَنَفْسَجِيِّ اللَّوْنِ أَظْهَرَ الوَجْهَ، المَلِكُ في مَجْلِسِ الحِشْمَةِ مِثْلَ البَنَفْسَجِ الطَّرِيِّ وَوَرَقِ الوَرْدِ الطَّرِيِّ جَلَسَ

نَضِيْرَ الوَجْهِ، وَشَرَعَ بِنَظْمِ دُرَرِ العِباراتِ بِأَلْماسِ شَقاشِقِ اللَّهْجَةِ، وَمِثْلَ الرَّبِيْعِ أَخَذَ بالتَّفَتُّحِ بِشَقائِقِ البَهْجَةِ، وَقالَ، اللَّفْظُ النَّبَوِيُّ يَكُوْنُ هكذا، *لا تَجْتَمِعُ أُمَّتي على الضَّلالَةِ*، بِحَمْدِ اللهِ أَنتُمْ جَمِيْعاً مُتَوَرِّعُوْنَ وَأَتْقِياءُ، وَفي مِلَّةِ مَنْ يَخافُوْنَ اللهَ وَيَعْبُدُوْنَ الحَقَّ، وَجَمِيْعُكُمْ على طاعَةِ اللهِ والرَّسُوْلِ وَتَباعَتي، إِذْ أَنا مِنْ أُولي الأَمْرِ، حَقَّقْتُمُ التَّبَعِيَّةَ، وَسَلَكْتُمْ طَرِيْقَ، *النَّاسُ على دِيْنِ مُلُوْكِهِم*، ها أَنتُمْ جَمِيْعاً مُجْتَمِعُوْنَ فَقُوْلُوا وَكُوْنُوا جَمِيْعاً على كَلِمَةِ الحَقِّ لِساناً واحِداً، أَنْ ذلِكَ الَّذي يَكُوْنُ مَعَ الأَخِ خَطا بالقَدَمِ بالرُّفْقَةِ على طَرِيْقِ المُعاشَرَةِ مُدَداً وَأَظْهَرَ في طَرِيْقِهِ كُلَّ الوِدادِ والاِتِّحادِ، وَشَدَّ وَعَقَدَ نِطاقَ الخُلْطَةِ وَعِناقَ الصُّحْبَةِ، فَبَيْنَهُما لَمْ يَكُنْ مَجالٌ لِثالِثٍ في أَسْرارِ الصَّداقَةِ والعَداوَةِ، وَالآخَرُ كانَ زَيَّنَ الظَّاهِرَ بِحِلْيَةِ الوِفاقِ وَمَلأَ الباطِنَ بِحَشْوِ الحِيْلَةِ والنِّفاقِ، وَأَرادَ بِتَعْبِئَةِ الاِحْتِيالِ وَتَعْمِيَةِ الاِسْتِجْهالِ أَنْ يُلْقِيَهُ في وَرْطَةٍ، وَيَجْعَلَهُ مَأْخُوْذاً بِفَخِّ عَمَلٍ، فَدَوْرَةُ الفَلَكِ بِأَيَّةِ حِيْلَةٍ لا تَسْتَطِيْعُ فَكَّ عُقَدَةِ إِبْرامِ وَإِحْكامِ ذاكَ، حَتَّى قَرَّرَ مُطْلَقاً أَنْ عَلَيْكَ أَنْ تُفَكِّرَ بِقَصْدِ رُوْحِ سَيِّدِكَ المُشْفِقِ وَمَخْدُوْمِكَ المُنْعِمِ، وَأَنْ تَطْلُبَ فُرْصَةَ هلاكِهِ، وَيُظْهِرُ هكذا، أَنْ إِذا لَمْ تَفْعَلْ فَإِنَّ داعِيَةَ قَصْدِهِ تَأْخُذُ السَّبْقَ، إِلى أَنْ تَرى نَفْسَكَ مَأْسُوْرَ قَيْدِ قَضائِهِ، وَمَجْرُوْحَ مَخَلَبِ بَلائِهِ، وَترى تَغَيُّرَ خاطِرِهِ مَعَكَ لَيْسَ بِمِقامٍ يَتَصَوَّرُ فِيْهِ أَبَداً في أَمْرِ هَلاكِكَ عَمَلَ فُرْصَةِ التَّوَقُّفِ، وَحَيْثُ أَنَّ العَقْلَ التَّوْفِيْقِيَّ والبَصِيْرَةَ الغَرِيْزِيَّةَ أَخَذا زِمامَ انْقِيادِ

ذاكَ الحَسَنِ الخِصالِ المَرْضِيِّ الخِلالِ السَّلِيْمِ السِّيْرَةِ الكَرِيْمِ الطِّيْنَةِ مِنْ يَدِ ذاكَ الخَبِيْثِ الطَّبْعِ طالِبِ المَفْسَدَةِ، وَسَحَبَاهُ إلى طَرِيْقِ السَّدادِ وَسَبِيْلِ الرَّشادِ، حَتَّى أَدارَ وَجْهَ القَبُوْلِ عَنْ حَدِيْثِهِ، وَجَعَلَ ظَهْرَ الإِعْراضِ مُباشَرَةً إلى أَمْرِهِ، فلمْ يَأْخُذْ مِنْهُ نَفَسَ الاِخْتِراعِ وَسِحْرَ الاِخْتِداعِ، فَيَصِيْرَ والِهاً وَنادِماً، وَخافَ أَنْ ذاكَ الحَجابُ المُلْقى على الوَجْهِ يَصِيْرُ مُمَزَّقاً وَرَتْقُ دَرْزَتَي نِفاقِهِ يَقَعُ على الوَجْهِ، والمَخْدُوْمُ إِمَّا بِتَفَرُّسِ الذِّهْنِ وَإِمَّا بالتَّجَسُّسِ مِنْ مُرِيدي الخَيْرِ المُخْلِصِيْنَ والمُشْفِقِيْنَ المُخالِصِيْنَ يَجِدُ الخَبَرَ عَنْ خَباثَتِهِ، ذاكَ المَشْؤومُ مَرْجُوْمُ اللَّعْنَةِ، *كالمَهْجُوْمِ على الظِّنَّةِ*، تَقَدَّمَ لِلأمامِ بِقَدَمِ التَّجاسُرِ، *وكالمُهَدِّرِ في العُنَّةِ*، جَعَلَ وَجْهَ المُكابَرَةِ في الخَصْمِ، وَزَيَّفَ لَهُ فِكْرَ سُوْءِ الفِعالِ، وَمَكْرَ اضْطِرابِ النَّفْسِ، وَلَمْ يَجِئْ أمامَ الخاطِرِ أَبَداً بِـ *وَكَمْ حُجَّةٍ تَأْتـي علـى مُهْجَةٍ*، بِأَيِّ نَكالٍ هُوَ لائِقٌ، وَلِأَيِّ ضَرْبِ عِقابٍ هُوَ مُسْتَحِقٌّ، حاضِرُو المَحْضَرِ جَمِيْعاً رَفَعُوا الصَّوْتَ، أَنْ كُلُّ مَنْ صارَ مَوْسُوْماً بِمِثْلِ هذا الغَدْرِ، وَمُشاراً إِلَيْهِ بالبَنانِ بِمِثْلِ هذِهِ الصِّفَةِ، صارَ غَيْرَ مَحْمُوْدٍ، فالأَوْلى أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ طَوائِفِ عَبِيْدِ الدَّوْلَةِ، حَتَّى لا يُؤَثِّر في الآخَرِيْنَ رِيْحُ مَكِيْدَتِهِ وَلَوْنُ عَقِيْدَتِهِ، فلا يَصِيْرُونَ مُبْتَلِيْنَ بِبلاءِ المَقالِ المُلَوَّثِ والفِعْلِ غَيْرِ المَرْضِيِّ مِنْهُ، وَذاكَ الَّذي فَكَّرَ بِتَلَفِ نَفْسِ المَلِكِ، وَلُحُوْقِ الضَّرَرِ بِذاتِهِ الكَرِيْمَةِ، هُوَ جانٍ، وَأَخْذُ عُقُوْقٍ بِهذِهِ الصِّفَةِ، الجَزاءُ لِجِنايَتِهِ لا يَجُوْزُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا السَّيْفَ

الَّذي يَجْعَلُ أَجْزاءَهُ مَفْصُوْلَةً بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ، وَبِغَيْرِ ماءِ السَّيْفِ لا يُمْكِنُ جَعْلُ دَرَنِ وُجُوْدِهِ زائِلاً عَنْ أَعْراضِ مُحِبِّي هذِهِ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ كُلُّ واحِدٍ مِنْ رُكْنٍ رَمى شَرارَةَ القَدْحِ على ذاكَ المُحْتَرَقِ البَيْدَرِ، وَجَعَلُوا سِهامَ مَطَرِ المَلامَةِ مِنَ الجَوانِبِ جارِيَةً إِلَيْهِ،

وَمَنْ دَعا النَّاسَ إلى ذَمِّهِ   ذَمُّوْهُ بالحَقِّ وبالباطِلِ

مَقالَةُ السُّوْءِ إلى أَهْلِهِ   أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرٍ سائِلِ

ثُمَّ قالُوا، لا نَعْرِفُ أَيَّ صاحِبِ نَجْمِ شُؤمٍ سَيِّئِ الجَوْهَرِ مُظْلِمِ الرَّأْيِ حائِرِ الوَجْهِ فاقِدِ البَصَرِ وَقَعَ لَهُ هذا الخِذْلانُ بالطَّرِيْق، وَجاءَتْهُ حَوالَةُ هذا الخِزْيِ والخَسارَةُ مِنْ أَيِّ مُتْرِبٍ ، قالَ الثَّعْلَبُ رَغْمَ أَنَّ الدُّبَّ مُذْنِبٌ، وَبُرْهانُ جَرائِمِهِ صارَ واضِحاً بِضَمائِمِ الحُجَّةِ الَّتي سَمِعْنا مِنْ أَقاوِيْلِ المُعْتَمَدِيْنَ، إلَّا نَّ هذا الفَأْرَ الَّذي هُوَ شَخْصٌ حَسَنُ المَحْضَرِ وَمَعْرُوْفٌ بِصِدْقِ القَوْلِ وَقَبُولِ الفَضْلِ، وَإِنْ كانَ لَمْ يَجِئْ في عِدادِ الخَدَمِ الخاصِّيْن، وَلَمْ يَكُنْ مَحْسُوْباً مِنْ جُمْلَتِهِم، فَإِنَّهُ بَيْنَ أَقْرانِ جِنْسِهِ يَمْلِكُ مِنْ أَنْواعِ المَحامِدِ والمَآثِرِ مَزِيْدَ شُهْرَةٍ، ها هُوَ حاضِرٌ لِيَقُولَ كُلَّ ذاكَ الَّذي عَلِمَ ولا يَمْنَعُ مِنْهُ شَيئاً، لَمْ تَبْقَ لِلْفَأْرِ حِيْلَةٌ إِلَّا قَوْلُ الصِّدْقِ، وَجَعْلُ سِرِّ الأَمْرِ عِياناً، قالَ أنا أَشْهَدُ أَنَّ هذا البَعِيْرَ الهَيِّنَ وَهذا الجَمَلَ المُؤْمِنَ ذا الأَصْلِ مِنَ الشَّمْعِ لَيِّنِ الطِّيْنَةِ، لَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ، والنَّقْشُ الَّذي يَضَعُ الدُّبُّ على ذاكَ الشَّمْعِ، يَظُنُّ بِهِ أنْ رُبَّما على

حاشِيَةِ خاطِرِ ناقَةِ صالِحَ تِلْكَ، سَيَصِيْرُ النَّقْشُ أَشْجَرَ، وَمِنْ قَبْلُ كُنْتُ أَعْلَمُ أنَّ ذاكَ النَّقْشَ سَيَصِيْرُ مَقْرُوْءاً لِلْمَلِكِ بِعَيْنِ الحَدَسِ والفِراسَةِ مِنْ صَفَحاتِ حالِ الجَمَلِ بِعِزِّ الدَّوْلَةِ، وَكانَ عِنْدي الوُثُوقُ أنَّ ذاكَ لَنْ يَبْقى مَخْفِيَّاً عَنْهُ، فَلِذلِكَ سَحَبْتُ عِنانَ لِسانِ الفُضُوْلِ عَنْ رِوايَةِ تِلْكَ الفُصُوْلِ، وَقُلْتُ ما لَمْ يَطْلُبِ المَلِكُ، أَنا لَسْتُ بِذاكَ المِقْدارِ لِأَقَوْلَ الكَلامَ مِنْ هذا البابِ، *كَناطِحِ صَخْرَةٍ بِقِحافِ رَأْسٍ*، الدُّبُّ حِيْنَ سَمِعَ هذِهِ الشَّهادَةَ على نَفْسِهِ، ذَهَبَتْ مِنْهُ القُوَّةُ والحَرَكَةُ مِنَ اليَدِ والقَدَمِ، وَقالَ أنا لَمْ أَرَكَ أَبَداً وَلَمْ أَعْرِفْكَ، وَلَمْ أَجْلِسْ مَعَكَ في المَعاهِدِ والمَشاهِدِ، فَكَيْفَ تُجِيْزُ شَهادَةَ الزُّوْرِ هذِهِ عَلَيَّ، قالَ الفَأْرُ حَقَّاً تَقُوْلُ، لكِنْ أنا كُنْتُ أَمْلِكُ البَيْتَ في رُكْنِ تِلْكَ الحُجْرَةِ الَّتي كُنْتَ خَلَوْتَ بِها مَعَ الجَمَلِ، وَسَمِعْتُ كُلَّ ذاكَ الَّذي جَرى بَيْنَكُما ذلِكَ اليَوْمَ مِنَ المُقاوَلاتِ والمُفاوَضاتِ جُمْلَةً، وَلِمُنْكَراتِ كَلامِ مَعْرُوْفٍ مِثْلِكَ كانَ مِنْ مَعارِفِ المَمْلَكَةِ وَأَعْيانِ الدَّوْلَةِ، صِرْتُ مُنْكِراً، أَنتَ مَعَ المَخْدُوْمِ الَّذي في تَوْفِيْرِ حُظُوْظِ خِدْمَتِكَ وَتَوْقِيْرِ جانِبِ حِشْمَتِكَ، مَلَكَ عَلَيْكَ أَيْدي سوابِقِ المَكْرُمَةِ، وَأَوْصَلَكَ مِنْ مَنْزِلِ الخَساسَةِ إلى هذِهِ المَنْزِلَةِ، كَيْفَ تَرى جائِزاً أَنَّكَ تَسْعى في تَمْهِيْدِ سَبَبٍ يَكُوْنُ مُتَضَمِّناً لِهَلاكِهِ، وَكَيْفَ تَقْتَلِعُ بُنْيانَ الحَياةِ لِشَخْصٍ جَعَلَ عَلَيْكَ المُعَوَّلَ في جَمِيْعِ الأَبْوابِ، بِمِعْوَلِ المَكْرِ والخِداعِ،

فَلا زالَ أَصْحابي يُسِيئُونَ عِشْرَتي وَيَجْفُوْنَني حَتَّى عَذَرْتُ الأَعادِيا
فَوا أَسَفا حَتَّامَ أَرْعى مُضَيِّعاً وَآمَنُ خَوَّاناً وَأَذْكُرُ ناسِيا

حِيْنَ الفَأْرُ فَرِغَ مِنْ أداءِ الشَّهادَةِ، وَخَرَجَ مِنْ عُهْدَةِ واجِبِ النَّفْسِ، أَمَرَ المَلِكُ أَنْ تَجْتَمِعَ الوُحُوْشُ والسِّباعُ، وَبِكُلِّ ما كانَ أَعْظَمَ مِنَ العَذابِ، وَبِكُلِّ ما كانَ أَكْثَرَ إِيلاماً مِنَ القَتْلِ، مِنْ بَعْدِ الضَّرْبِ بِلِسانِ اللَّعْنِ وَسِنانِ الطَّعْنِ بالأَسْنانِ والأنْيابِ، أنْ يَجْعَلُوا أَعْضاءَ وَجَوارِحَ الدُّبِّ مَفْصُوْلَةً بَعْضها عَنْ بَعْضٍ، وَأَنْ يَشْرَبوا مِنْ دَمِهِ أَطْيَبَ الشَّرابِ على الكَبابِ مِنْ كَبِدِهِ، وَأَنْ يَزِيْدَ الجَمَلُ ما بَيْنَ أَعْيانِ الدَّوْلَةِ وَأَعْناقِ المَمْلَكَةِ بالوَجاهَةِ والرِّفْعَةِ والنَّباهَةِ والرِّئاسَةِ والبُطُوْلَةِ، هذا هُوَ حاصِلُ الغادِرِيْنَ غَيْرِ أولي العَقْلِ الَّذِيْنَ يَكُوْنُوْنَ مُبادِرِيْنَ بِقَصْدِ سَيِّدِهِم، وَيَنْثُرُوْنَ سُمَّ النِّفاقِ مَعَ الرِّفاقِ في جامِ الصُّحْبَةِ سُكَّرِيِّ المَذاقِ، وَهذِهِ ثَمَرَةُ العُقَلاءِ الأُمَناءِ الَّذينَ يَحْفَظُوْنَ حَقَّ الإِحْسانِ والمَبَرَّةِ بِحُسْنِ المُعامَلَةِ، *والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْن*، صارَ للتَّمامِ بابُ الجَمَلِ والأَسَدِ التَّقِيِّ، بَعْدَ هذا نَذْكُرُ بابَ الحَجْلَتَيْنِ والعُقابِ، جَعَلَ الحَقُّ تَعالى مَوْرِدَ إِنْعامِ السَّيِّدِ صاحِبِ العالَمِ مُرْتاحاً مِنْ وُرُوْدِ كُلِّ جاحِدٍ كَفُوْرٍ، وَمُنْكِرٍ لِلْحَقِّ كَنُوْدٍ، وَجَعَلَ عَيْنَ الحَقُوْدِ الحَسُوْدِ عَنْ مُلاحَظَةِ جَمالِ حَضْرَتِهِ في مَراقِدِ الغَفْلَةِ نائِمَةً إلى صُبْحِ القِيامَةِ، بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِيْن.

البابُ التَّاسِعُ

في العُقابِ وآزاد چهره وَإِيرا

وَلَدُ المَلِكِ قالَ سَمِعْتُ أَنَّهُ في حُدُوْدِ آذَربَيْجانَ جَبَلٌ مَشْهُوْرٌ بالعُلُوِّ وَبِأَنْواعِ النَّباتِ والنَّوامي، أَجْناسُ الوُحُوْشِ والطُّيُورِ زَحَفَتْ إِلى مَعاطِفِ ثَوْبِهِ مِنْ فَضاءِ الهَواءِ وَعَرْصَةِ الصَّحْراءِ، وَسَحَبَتِ اللُّبَةَ مِنْ يَدِ غَرِيْمِ الحَوادِثِ، وَتَرَبَّتْ في تِلْكَ المَراتِعِ والمَرابِعِ وَسَطَ الدَّلالِ والنَّعِيْمِ، وَمِنْ مُجاوَرَةِ الاِحْتِياجِ والخَيْبَةِ نَقَلَتْ مَتاعَ الإِقامَةِ إلى ساحَةِ مَنْشَأِ الخِصْبِ والرَّاحَةِ، طَرِيْقُ الجالِسِيْنَ في المَساءِ والسَّحَرِ باسْمِ مَنابِتِ تُرابِهِ فَتَحَتْ طَبْلَةَ العَقاقِيْرِ، فَمُ الصَّبا والشِّمالِ بِعَبِيْرِ فَوْحاتِ هَوائِهِ شَقَّ نافِجَةَ الأَزاهِيْرِ، الخِضْرُ مِنْ عَيْنِ حَياتِهِ أَخَذَ طَعْمَ الزُّلالِ مِنْ أَنْهارِهِ، إِدْرِيْسُ مِنْ ظِلِّ طُوبى صارَ راغِباً بِظِلالِ أَشْجارِهِ،

أَرَتْكَ يَدُ المُزْنِ آثارَها وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَسْرارَها
هِيَ الخُلْدُ تَجْمَعُ ما تَشْتَهِي فَزُرْها فَطُوْبى لِمَنْ زارَها

زَوْجٌ مِنَ الحَجَلِ في سَفْحِ ذاكَ الجَبَلِ اتَّخَذَ عُشّاً، الذَّكَرُ باسْمِ چهره زاد والأُنثى باسْمِ إِيْرا، كُلَّ سَنَةٍ بِوَقْتِ الرَّبِيْعِ إذا دِماءُ الرَّياحِيْنِ في عُرُوْقِ الأَرْضِ جاشَتْ، وَأُذُنُ الآفاقِ مِنْ زَمْزَمَةِ الطُّيُوْرِ بِلَحْنِ بُرْدَةِ العُشّاقِ تَخَرَّشَتْ، عُقابٌ كانَ مُتَوَطِّناً على جَبَلِ قارَن، نَهَضَ على طُيُوْرِ تِلْكَ النَّواحي مَلِكاً، وَبِعَزْمِ التَّنَزُّهِ والتَّفَرُّجِ وَبِطَلَبِ الصَّيْدِ مَعَ

كَوْكَبَةٍ مِنْ جَوارِحِ الطُّيُوْرِ وَكَواسِرِ العُقْبانِ كانَ يَجيْءُ إلى ذاكَ الجَبَلِ، وَيَجْعَلُ الأَفراخَ حَدِيْثَةَ الوِلادَةِ لِهذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ في ذلِكَ الوَسَطِ صَيْداً، وَهُما كُلِّ سَنَةٍ بِفِراقِ فِلْذاتِ أَكْبادِهِما بالمَأْتَمِ كانا بِقَلْبٍ وعَيْنَيْنِ دامِيَيْنِ، في رُكْنِ الأَحْزانِ واقِعَيْنِ، وَقَدِ اسْتَبْدَلا لِباسَ الأَطْلَسِ المُلَوَّنَ بِمِثْلِ خِرْقَةِ ثَوْبِ الغُرابِ، ثَوْبِ مَنْ أَصابَهُمُ المَأْتَمُ، وَدُرَّاعَةَ الحَرِيْرِ المُخَطَّطِ بالثَّوْبِ المُمَزَّقِ مِثْلَ حاشِيَةِ ياقَةِ الطَّاوُوْسِ، أُطْلِعَ باللَّوْنِ اللَّازَوَرْدِيِّ، وفي مَحَلِّ قَهْقَهَةِ النَّشاطِ والطَّرَبِ الَّذي هُوَ في مِزاجِ غَرِيْزَتِهِما مَركوزٌ، اللَّيْلَ والنَّهارَ بالحَنِيْنِ والأنِيْنِ يَبْكِيانِ ويَقُولانِ،

يَجِبُ لِقَلْبي الجَرِيْحِ مائَةُ أَلْفٍ مِنَ العُيُوْنِ
حَتَّى بِكُلِّ عَيْنٍ بالنَّفْسِ، يَبْكي على النَّفْس

لَوْ الفَلَكُ جَعَلَ قَلبي المَحْزونَ على سِيْخِ الكَباب
لَكانَتِ النَّارُ رَحِمَتْني وَلَبَكى عَلَيَّ سِيْخُ الكَباب

يَوماً كِلا الاِثْنَيْنِ كانا بِتَدْبِيْرِ الأَمْرِ، جَلَسا مَعاً وَقالا، سَنَةُ العُمْرِ لَنا انْتَهَتْ، وانْكَسَرَ الرِّيْشُ والجَناحُ، وَمِنْ كُلَّ بَيْضَةٍ كُنَّا نَضَعُ كُلَّ سَنَةٍ، كُنَّا نُوْصِلُ فِراخَنا لِبُلُوْغِ الطَّيَرانِ، هذا العُقابُ يَأْخُذُ فِراخَنا مِنْ أمامِ أَعْيُنِنا، وَلَيْسَ في إِمكانِنا أَنْ نُفَكِّرَ بِأَيِّ شَكْلٍ بِدَفْعِهِ، إِنَّهُ قَرِيْبٌ أَنْ يَذْهَبَ بِنَسْلِ أُسْرَتِنا، وَيُسَوِّدَ بَيْتَنا وَحالَنا بِدُخانِ القَلْب، وَتَنْتَهي أَعْقابُنا بالاِنْقِطاعِ مِنَ ضَرْبِ مَخْلَبِ هذا العُقاب، وَإِذا كُنَّا مِنْ وَقْعِ صَوْلَتِهِ

نُبْقي تَحَرُّزَ الحالِ في الوِقايَةِ مَصُوناً، وَإِيْزَد تَعالى يُبْقي عُيُوْنَ قُلُوْبِنا بِكُحْلِ اليَقَظَةِ والوَعْيِ مَكْحُوْلَةً، حَتَّى نَكُوْنَ مِنْ مُغافَصَةِ قَهْرِهِ مُتَنَبِّهِيْن، إِلَّا أَنَّهُ حِيْنَ يَصِيْرُ القَضاءُ نازِلاً تَبْقى عَيْنُ الحَزِمِ مُغْلَقَةً، وَيَجْعَلُ مِنَّا الأَسِيْرَ لِمَخْلَبِهِ، والكَسِيْرَ لِصَوْلَةِ قَوادِمِ جَناحِهِ، ما الفائِدَةُ مِنْ ذاكَ التَّيَقُّظِ، آزاد چهر قالَ، الصَّوابُ أَنَّنا نَلْجَأُ مِنْ هذا المَقامِ المَخُوْفِ بِمَأْمَنٍ، بِحَيْثُ نَسْتَطِيْعُ أنْ نَحْيا نَحْنُ وَأَوْلادُنا مِنْ عَوارِضِ أَمْثالِ هَذِهِ الحادِثاتِ في راحَةٍ أَكْثَرَ، فَإِنَّ جَعْلَ ما جَمَعْنا وَما خَزَّنَّا وَوَضْعَهُ في جِوارِ الآخَرِيْنَ الَّذِيْنَ لَيْسوا مِنْ شُعَبِ أَصْلِنا وَمِنْ فَرْعِ نَسْلِنا أَمْرٌ صَعْبٌ،

تُؤَدِّيْهِ مَذْمُوماً إلى غَيْرِ حامِدٍ فَيَأْكُلُهُ عَفْواً وَأَنتَ دَفِيْنُ

وَمِنْ دُوْنِ الأولادِ الَّذِيْنَ هُمْ عُمْدَةُ الحَياةِ وَثَمَرَةُ شَجَرَةِ الأماني، وَكُلُّ شَعْرَةٍ مِنْهُمْ عِرْقٌ أَخَذَ الاِرْتِباطَ بالرُّوْحِ، كَيْفَ يَكُوْنُ مُمْكِناً العَيْشُ بِسُرُوْرٍ،

وَذاكَ لِأَنَّ المَرْءَ يَحْيا بِلا يَدٍ وَرِجْلٍ ولا تَلْقاهُ يَحْيا بِلا كَبِد

إيرا قالَتْ، هذا الحَدِيْثُ حَقٌّ، وَنَحْنُ في صَفْقَةِ هذِهِ المِحْنَةِ والنِّعْمَةِ مُتَشارِكانِ، وَفي عَيْنِ الواقِعَةِ الواحِدُ مَعَ الآخَرِ مُنْغَمِسانِ، وَكِلانا بِمَيْسَمٍ واحِدٍ مِنَ البَلاءِ مُبْتَلىً، *وَلَمْ يَعْرِفْ مَرارَةَ الثُّكْلِ إِلَّا مَنْ ذاقَهُ*، أنا

لَمْ أَكُنْ أَبَداً مِنَ الفِكْرِ الَّذي فَكَّرْتَ خالِيَةً، والأَفْكارُ الصَّحِيْحَةُ مِنْ أَرْبابِ العِلْمِ تَجِيْءُ جَمِيْعاً على نَسَقٍ مُتَوافِقٍ، وَسِهامُ أَوْهامِ العُقَلاءِ مِنْ فَتْحِ الفِكْرَةِ تَصِلُ لِهَدَفِ الإصابَةِ الواحِدِ مُتَتابِعَةً، وَقالُوا، العَقْلُ شَبِيْهٌ بِجَبَلٍ حَصِيْنٍ مَنِيْعِ المَنالِ مَمْلُوْءٍ بالمَنْفَعَةِ، كُلُّ مَنْ طَلَبَ الطَّرِيْقَ فِيْهِ بِطَلَبِ المَنافِعِ، يَقْدِرُ يَجِدُ الوُصُوْلَ مِنْ طَرِيقٍ واحِدٍ، وَالتَّعامُلُ مَعَ العُقَلاءِ بِقَدَمِ المُعامَلَةِ والمُعاشَرَةِ في مَسالِكِ الصَّداقَةِ والعَداوَةِ وَمَناهِجِ الخَوْفِ والأَمَلِ وَمَذاهِبِ اللُّطْفِ والعُنْفِ يَمْلِكُ هذِهِ الصِّفَةَ بِعَيْنِها، فَإِنَّ رَأْسَ خَيْطِ رِضاهُمْ وَسُخْطِهِم واحِدٌ لا أَكْثَرَ، وَمِنْ هذِهِ الجِهَةِ يُمْكِنُ الحُصُوْلُ عَلَيْهِ باليَدِ بِسُهُوْلَةٍ، بِخِلافِ الجاهِلِيْنَ، فَإِنَّ دواعي طَبْعِ خَلِيْعِ العِذارِ لا تَكُوْنُ ضابِطاً لَهُمْ، ولا يَجِدُ أَيُّ صاحِبِ الكِفايَةِ مِنْ عِنانِ خَواطِرِهِمُ الفاسِدَةِ وهَواجِسِهِمُ المُضْطَرِبَةِ،

إِنِّي لَآمَنُ مِنْ عَدُوٍّ عاقِلٍ وَأَخافُ خِلّاً يَعْتَرِيْهِ جُنُوْنُ
فالعَقْلُ فَنٌّ واحِدٌ وَطَرِيْقَهُ أَدْري وَأَرْصُدُ والجُنُوْنُ فُنُوْنُ

لكِنْ غَرْسُ المَحَبَّةِ في مَغارِسِ الوَطَنِ علامَةُ الإِيْمانِ، وَقَلْعُ ذاكَ عَسِيْرٌ، وَإِنْ كانَ لَنا بِالحُكْمِ أَنْ يَقَعَ عُشُّنا في هذا الرُّكْنِ ناحِيَةً عَنْ صَيَّادِي الطُّيُوْرِ، وَجانِباً عَنِ الضَّواري الباحِثَةِ عَنِ الفِتْنَةِ، وَأَنْ نَكُوْنَ تَحَرَّرْنا مِنْ مُصادَماتِ تَعَرُّضِهِم، وارْتَحْنا مِنْ مُلاطَماتِ تَعَدِّيْهِم، فالبِناءُ هُنا أولى، فَإِنِّيْ أخافُ أَنَّهُ إِذا قُمْنا بالاِنْتِقالِ مِنْ هذِهِ التُّرْبَةِ أَنْ

لا يُوافِقَنا هَواءُ الغُرْبَةِ، وَنَصِيْرَ بَعِيْدِيْنَ عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِنا، وَبِتَوَهُّمِ النَّفْعِ نَخْسَرُ رُبْعَ رَأْسِمالِ العافِيَةِ أَيْضاً، فإنَّ ما نَقَشَ التَّقْدِيْرُ أَزْيَدُ مِنْ أنْ يَجِيْءَ بِقِياسِ قالَبِنا، وَمِنْ مُقَدِّماتِ الأَغْراضِ لا تَجِيْءُ نَتِيْجَةٌ سِوى الحِرْمان،

لَمْ يَكُنْ مُمْكِناً لَنا مَعَ دَغَلِكَ أَنْ يَجِيْئَنا مَعَ شَفْعِ خَمْسَتَيْك واحِدٌ وَأَرْبَعَة

ما دامَ قُوْتُنا في هذِهِ النَّاحِيَةِ، لِمَ الذَّهابُ إِثْرَ غِيْلانِ الضَّلالِ، وما دامَ الاِغْتِرارُ مِنَ النَّفْسِ بِدَعْوَةِ الخَيالِ، وَطَبْخُ الأَمَلِ غَيْرِ المُمْكِنِ والمُحالِ، علامَةُ عَدَمِ النُّضْجِ، وَحُصُولُ مُرادِ العَدُوِّ، ما طَلَبُكَ الشَّيْءَ الَّذي لَمْ تَكُنْ أَضَعْتَ، وكذلِكَ مِزاجُ العَلِيْلِ مِنْ عَقابيلِ العِلَّةِ يَصِيْرُ حَسَناً ذلِكَ الوَقْتَ الَّذي يَجْعَلُ الوَجْهَ للصِّحَّةِ، فَيَرْفَعُ النَّظَرَ عَنْ مُشْتَهَياتِ الطَّبْعِ، وَفِيْ حِمْيَةِ الآَمالِ يُقَدِّمُ حَمِيَّةَ الرِّجالِ، الرَّجُلُ الحُرُّ الَّذي يَجْعَلُ نِسْبَةَ المُرُوْءَةِ لِنَفْسِهِ صَحِيْحَةً، مِنْ ضِيْقِ وَقَيْدِ هذا القَبْضِ والبَسْطِ، آنَذاكَ يَخْرُجُ، فَقَدْ وَضَعَ القَدَمَ أَعلى مِنْ رَغْبَةِ النَّفْسِ، وَقَرَأَ، *الحُرِّيَّةُ في رَفْضِ الشَّهَواتِ*، أَمَّا مِحْنَةُ واقِعَةِ الأَوْلادِ الَّتي في كُلِّ سَنَةٍ تَتَجَدَّدُ، فَنَعْتَبِرُها واحِدَةً مِنْ وَقائِعِ الدَّهْرِ، الَّتي لا بُدَّ أنْ تَصِلَ لِلْنَّاسِ، فَإِنَّنا جَمِيْعاً عُرْضَةٌ لِأَذى آفاتِهِ، وَمَوْطِئٌ لِأَنْواعِ صَدَماتِهِ، وَنُفُوْسُنا مَنْزِلٌ لِلْحَوادِثِ وَمَحَلٌّ لِلْكَوارِثِ مِنْهُ، وَنَحْنُ في كُلِّ وَقْتٍ نَذْكُرُ الاِنْفِصالَ عَنِ العلائِقِ والاِنْقِطاعَ عَنِ العَشائِرِ، والاِنْتِقالَ عَنِ

المَنْشَأِ والمَوْلَدِ، يَصِيْرُ سَهْلاً عَلَيْنا أَلَمُ فِراقِ الأولادِ، وَبِما أَنَّ الدُّنيا حُبْلى بالحَوادِثِ، وَفي كُلِّ لَحْظَةٍ تَلِدُ حادِثَةً، فَلْنَعْتَبِرْ وِلادَةَ أولادِنا وَأَكْلَ العُقابِ لَها واحِدَةً مِنْ تِلْكَ، فَمِنْ تِلْكَ لا حِيْلَةَ، وَلِهَذِهِ الأُمِّ غَيْرِ الرَّحِيْمَةِ كانَتِ العادَةُ دائِماً هكذا، *تُطْعِمُ أولادَها وَتَأْكُلُ مَوْلُوْدَها*، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ الوَلَدَ مِنْ مَبْدَأِ الوِلادَةِ إلى مُنْتَهى العُمُرِ لَيْسَ غَيْرَ سَبَبِ أَلَمِ الخاطِرِ لِلأُمِّ والأَبِ، فَهُوَ في مَرْتَبَةِ الطُّفُوْلِيَّةِ لا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ طَرْفَةَ عَيْنٍ بِلا مُراقَبَةِ الأَحْوالِ والمُحافَظَةِ على دَقائِقِ التَّعَهُّدِ، وَإِذا وَصَلَ لِمَنْزِلِ البُلُوْغِ اعْتَبَرُوا صَرْفَ الهِمَّةِ جَمِيْعاً لِضَبْطِ مَصالِحِهِ، وَتَرْتِيْبِ أُمُوْرِ مَعاشِهِ، راجِحاً على جَمِيْعِ المُهِمَّاتِ، وَإِذا والعِياذُ باللهِ وَقَعَتْ لَهُ واقِعَةٌ لا يَكُوْنُ مُمْكِناً لِتِلْكَ الضَّرْبَةِ مَرْهَمٌ وَلِذاكَ السُّمِّ تِرْياقٌ، مِنْ هُنا يُمْكِنُ العِلْمُ أَنَّهُمْ أَكْبَرُ شاغِلٍ مِنْ شَواغِلِ وُجْدانِ السَّعادَةِ وَأَهْوَلُ قاطِعٍ مِنْ قَواطِعِ طَرِيْقِ الآخَرَةِ، *إِنَّما أَموالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ*، في بَيانِ هذا المَعْنى الَّذي جاءَ شَرْحُهُ، إِنْ كُنْتَ تُعْطِي سَمْعَ سَماعِ الحَقِيْقَةِ لِهذِهِ الكَلِماتِ الَّتي جاءَ لِسانُ الوَحْيِ ناطِقاً بِها، تَعْلَمُ أَنَّ وُجُوْدَ الأَطْفالِ في نَظَرِ الحِكْمَةِ مِثْلَ أَنْواعِ الزِّيْنَةِ الأُخْرى المُزَوَّرَةِ مِنْ مالٍ وَمَتاعِ الدُّنْيا، فَهُوَ جُمْلَةً زِيْنَةٌ عارِيَةٌ، ولا تَمْلِكُ، مَعْقُوْدَةً على ظَواهِرِ حالِ الآدَمِيِّ، أَيَّ وَزْنٍ، وما بَيْنَ الأولادِ الجاهِلِيْنَ عابِدي الخَيالِ يَلْعَبُونَ لَعِبَ العِشْقِ مَعَ لُعْبَةٍ مِنَ الخَشَبِ المَبْرِيِّ بِأُلْفِ وارْتِباطِ القَلْبِ، وما بَيْنَ أولئِكَ الَّذِيْنَ يَجْعَلُوْنَ قَلْبَهُمْ راضِياً وَسَعِيْداً مِنَ

المَطْلُوْباتِ الأُخْرى بِبَقاءِ الأَولادِ وَجَمالِهِم، لا يَجْعَلُ أَيَّ فَرْقٍ، حَتَّى بِهذِهِ الصِّفَةِ مِنْ تِلْكَ العِبارَةِ يُقَرِّرُ، *إِنَّما الحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ في الأَمْوالِ والأَولادِ*، وَكَذلِكَ ذلِكَ الطِّفْلُ غَيْرُ المُمَيِّزِ، ما بَقِيَ مَشْغُوْفاً بِتِلْكَ اللُّعْبَةِ، فَإِنَّهُ يَتَخَلَّفُ عَنْ آدابِ النَّفْسِ الأُخْرى، والرَّجُلُ الَّذي لَهُ الهِمَّةُ بِأَمْرِ الوَلَدِ، وَقَلْبُهُ مَشْغُولٌ بِأَحْوالِهِ، لا يَصِلُ لِأَيِّ تَحْصِيْلٍ مِنْ أَسْبابِ النَّجاةِ، في حالَةِ الحَياةِ والمَماتِ، وَيَبْقى مَحْرُوْماً وَمَحْجُوْباً عَنْ مُطالَعَةِ جَمالِ حَقائِقِ الأُمُوْرِ، والوُقُوْفِ على دَقائِقِ أَسْرارِ الباقي والفاني، *اَلْمالُ والبَنُوْنَ زِيْنَةُ الحَياةِ الدُّنْيا*، إِشارَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ على ذاكَ الَّذي قَدْ جاءَ مُقَرَّراً، *والباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ*، بُرْهانٌ صَرِيْحٌ وَبَيانٌ ساطِعٌ، على ذاكَ الَّذي يَلِيْقُ بِطالِبِي السَّعادَةِ الأَبَدِيَّةِ أَنْ يَكُوْنَ لَهُمْ مِنْ ذَخِيْرَةِ العَمَلِ، وَالَّذي يَلِيْقُ أَنْ يُقَدَّمَ فِي مَعْرَضِ، *يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُوْنَ*، شَيْءٌ آخَرٌ، لَيْسَ أَعلاقَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا عَلائِقَ الوَلَدِ والبِنْتِ، وَأَيْ فُلانُ في كُلِّ وَقْتٍ نَحْنُ مَعَ عَذابِ وَعَناءِ الأَصْحابِ غَيْرِ المُجَرَّبِيْنَ، وَتَحَمُّلِ جَوْرِ الغُرَباءِ وَأَخْلاقِهِمْ غَيْرِ المَرْضِيَّةِ، والأَكْلُ والنَّوْمُ لَيْسَ بالاِخْتِيارِ، والحَرَكَةُ والسُّكُونُ لَيْسا على القاعِدَةِ والرَّسْمِ، فَمِنْ لَوازِمِ الغُرْبَةِ نَتَذَكَّرُ ذاكَ الَّذي كُنَّا نَمْلِكُ، وَنَعْرِفُ الدَّوْلَةَ بالتَّمامِ والأَسْبابَ بالنِّظامِ، هذا إِذا كُنْتَ تَقْدِرُ تُوْصِلُ هذا العَزْمَ للنَّفاذِ، وَأَمْكَنَكَ الوُصُوْلُ لِذاكَ المَقْصَدِ الَّذي جَعَلْتَ لَهُ الوَجْهَ، أَنْ أَيْضاً مِنْ مَحَلِّ النَّظَرِ ذاكَ، الأَمَلُ الَّذي

كُنْتَ جَعَلْتَ أمامَكَ، وَكُلَّ عَيْنِ الرَّاحَةِ الَّتي كُنْتَ تَرْجُو، تُطِلُّ مِحْنَةٌ فَجْأَةً، والنِّعْمَةُ الَّتي ذَهَبَتْ مِنَ اليَدِ، بِقَدَمِ الإِسْتِنْكافِ لا تَرَى عِوَضَ المَمْسُوسِ،

كَمْ نارِ عادِيَةٍ شُبَّتْ لِغَيْرِ قِرىً   على يَفاعٍ وَكَمْ نَوْرٍ بِلا ثَمَرِ
هَوِّنْ عَلَيْكَ أُمُوراً أنتَ تُنْكِرُها   فالدَّهْرُ يَأْتي بِأَلْوانٍ مِنَ الغِيَرِ

آزاد چهره قالَ، ذاكَ الَّذي تَقُولِيْنَ جَمِيْعاً خُلاصَةُ العَقْلِ وَأَصْلُ العِلْمِ وَحاصِلُ تَجْرِبَةِ الأَيَّامِ، وَمُؤَكَّدٌ بِإِشاراتِ العَقْلِ وَأَحْكامِ الشَّرْعِ، لكِنْ لا يُمْكِنُ جَعْلُ النَّفْسِ في نَوْمِ الذُّهُولِ، ولا يُمْكِنُ الكَوْنُ بالأمانِ، مِنْ طَوارِقِ آفاتِ وَخَوارِقِ عاداتِ الزَّمانِ، الَّتي تَجِيْءُ مِنْ خَلْفِ حِجابِ القَضاءِ بالأَلْعابِ النَّادِرَةِ وَغَيْرِ المَرْئِيَّةِ جَمِيْعاً، فَإِنَّ نازِلَةِ الدَّهْرِ لَمْ تُرْسِلْ أَبَداً رَسُولاً قَبْلَ مَجِيْئِها لِتَكُوْني على خَبَرٍ عَنْ وَقْتِ نُزُوْلِها،

يا راقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوْراً بِأَوَّلِهِ   إنَّ الحَوادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارا

وَإِذا كانَ هذا العُقابُ عِياذاً باللهِ يَخْتَطِفُ واحِداً مِنَّا نَحْنُ الاِثْنَيْنِ يَوْماً، ذاكَ الَّذي بَقِيَ، أَيَّةَ لَذَّةٍ يَجِدُ مِنْ بَقاءِ النَّفْسِ في فَواتِ الخِلِّ الوَفِيِّ والمُؤْنِسِ شَرِيْكِ الغَمِّ،

ما حالُ مَنْ كانَ لَهُ واحِدٌ   يُؤْخَذُ مِنْهَ ذلِكَ الواحِدُ

وَإِذا وَقَعَ في حَبْسِ بَيْتِ الوَحْدَةِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ مُقابَلَةُ أَلْفِ سَنَةٍ انْقَضَتْ مِنْ أُنْسِ صُحْبَةِ الأَصْحابِ مَعَ ساعَةٍ واحِدَةٍ مِنْ وَحْشَةِ الوَحْدَةِ، وَكَأَنَّما حَكى عَنْ مِثْلِ هذِهِ الحالِ الحِكايَةَ ذاكَ الَّذي قالَ،

حَمامَةٌ بَكَتْ مِثْلِي على إِلْفِها   لَيْلَةَ الأمْسِ لَمْ أَنَمْ وَلَمْ تَنَمِ
كانَتْ تَشْكُو وكُنْتُ أَقُوْلُ لها ما غَمُّ ذاكَ الَّذي يَقْوى على الكَلِمِ

ولا كانَ ذلِكَ اليَوْمُ الَّذي يَكُوْنُ عَلَيْنا بِهِ أَنْ نَتَعامَلَ مَعَ مِثْلِ هذا الاِحْتِراقِ، وَأَنْ نَئِنَّ أَنِيْنَ شَكْوى الفِراق، وَيَجْبُ العِلْمُ أَنَّ كُلِّ مَنْ يُعْطي ظَهْرَ الاِسْتِظْهارِ لِلْقَدَر، وَيَسْحَبُ اليَدَ عَنِ الطَّلَبِ، أو يَجْعَلُ تَكِيَّةَ الاِعْتِمادِ جَمِيْعاً على الطَّلَبِ، وَيُدِيْرُ الوَجْهَ عَنِ القَدَرِ، شَبِيْهٌ بِذاكَ الرَّجُلِ المُكاري، الَّذي يَجْعَلُ حِمْلَ الحِمارِ مِنْ جِهَةٍ خَفِيْفاً وَمِنْ جِهَةٍ ثَقِيْلاً، لا بُدَّ أَنَّ ظَهْرَ حامِلِ الحِمْلِ يَصِيْرُ مَجْرُوْحاً، وَيَبْقى الحِمْلُ غَيْرَ مَحْمُولٍ، فَقَدْ جَعَلَ الطَّلَبَ والقَدَرَ كِلَيْهِما في مِيْزانِ التَّعْدِيْلِ النَّظِيْرَ والعَدِيْلَ الواحِدُ للآخَرِ، وَخَلَقَ كِلا العِدْلَيْنِ وَكِلا الوَزْنَيْنِ مِثْلَ أَخَوَيْنِ، فَهُما في طَرِيْقِ المُرافَقَةِ هكذا جَعَلا اليَدَ باليَدِ وَعَقَدا العِنانَ بالعِنانِ، فَهذا بِلا حُضُورِ ذاكَ لا يَخْطُو بالقَدَمِ مِنْ عَتَبَةِ العَدَمِ إلى حَضْرَةِ الوُجُوْدِ أَبَداً، وَذاكَ بِلا وُجُوْدِ هذا لا يَأْخُذُ المَتاعَ مِنْ مَرْحَلَةِ القُوَّةِ إلى مَنْزِلِ الفِعْلِ أَبَداً، فَيَجِبُ عَلَيْنا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْبُرَ الأَمْرُ مِنْ حَدِّ التَّدارُكِ، وَيَصِيْرَ مُنْثَنِياً في مَضِيْقِ الاِضْطِرارِ،

الكَوْنُ مُهَيَّأً وَمَحْرُوْساً، للذَّهابِ لِمَحَلِّ إِقامَةٍ آخَرَ، حِيْنَ يَجِيْءُ وَقْتُ وَضْعِ البَيْضَةِ وَمَجِيْءُ الوَلَدِ، لا بُدَّ مِنْ عَمَلِ تَدْبِيْرِ المَسْكَنِ والمَأوى وَتَرْتِيْبِ أَسْبابِ الاِحْتِضانِ، *دَمِّثْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ النَّوْمِ مُضْطَجَعاً*، قالَتْ إِيْرا، كُلَّ ما تَقُوْلُ مَبْنِيٌّ على قَواعِدِ العَقْلِ، وَتَقْرِيْرُ ذاكَ يَأْخُذُ المَكانَ في مَقاعِدِ سَمْعِ القَبُوْلِ، لكِنْ طالِبُو الدُّنْيا والباحِثُوْنَ عَنِ المُرادِ العاجِلِ، لِكُلِّ واحِدٍ في اقْتِناصِ المُراداتِ وَتَحْصِيْلِ الأَغْراضِ قانُوْنٌ آخَرٌ وَأَصْلٌ مُنْفَصِلٌ، لِبَعْضٍ البَخْتُ يَعْمَلُ الجَذْبَ، وَبِلا واسِطَةِ السَّعْيِ يُوْصِلُ لِلْمَقْصُوْدِ، ولِبَعْضٍ ما لَمْ يَكُنِ السَّعْيُ لا يَجِيْءُ أَيُّ فِعْلٍ مِنَ الجَذْبِ، وَهكذا كَثِيْرٌ مِنَ الأَشْخاصِ مِنْ تَسْوِيْفِ الكَسَلِ بَقوا بِلا نَصِيْب، وَكَثِيْرُونَ جاؤوا مُنْتَهِيْنَ في عِثارِ العَجَلِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ بادِيَةِ الأمَلِ شارِبِ الدَّمّ،

بالحِرْصِ فَوَّتَني دَهْري فَوائِدَهُ　　فَكُلَّما ازْدَدْتُ حِرْصاً زادَ تَفْوِيْتا

وَنَحْنُ، السَّعْيُ لَنا مَعَ العُقابِ والتَّفْكِيْرُ بِطَرِيْقِ دَفْعِهِ تَفْكِيْرُ جُنُوْنٍ، فَمِنْهُ تَجِيْءُ رائِحَةُ الدَّمِ، فَإِنَّ طَيَرانَ قُوَّتِهِ مِنْ وَجْهِ النِّسْبَةِ في أَوْجِ الثُّرَيَّا، وَمَقامَ ضَعْفِنا في حَضِيْضِ الثَّرى، *وَأَيْنَ الثَّرى مِنَ الثُّرَيَّا*، وَقالُوا كُلُّ مَنْ جَعَلَ الوَجْهَ بالمُقاوَمَةِ مَعَ الخُصُوْمِ أَقْوِياءِ الحالِ وَذَوِي اليَدِ العُلْيا، جاءَ مَنْكُوْباً على يَدِهِ، وَضَرَبوا المَثَلَ لِهذِهِ الصُّوْرَةِ بِتِلْكَ النَّمْلَةِ الصَّغِيْرَةِ الحَقِيْرَةِ البِنْيَةِ الَّتي حِيْنَ أَطْلَعَتِ الجَناحَ، أَثارَتْها داعِيَةُ

الاِنْتِهاضِ لِتَجِيْءَ خارِجَةً مِنْ زَوايا مَطْمُوْرَةِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ وَظَنَّتْ أَنَّها بِذاكَ الجَناحِ الَّذي تَمْلِكُ تَقْدِرُ على الطَّيَرانِ، وَأَوَّلُ حَيَوانٍ يَصِلُ إِلَيْها يَجْعَلُ مِنْها طُعْمَةً للنَّفْسِ، *إِذا أرادَ اللهُ إِهْلاكَ نَمْلَةٍ أَنْبَتَ لَها جَناحَيْنِ*، وَذاكَ الَّذي هُوَ مَخْفِيٌّ في طَيِّ مَكامِنِ الغَيْبِ، وَسَوْفَ يَجِيْءُ غَداً بِمَظاهِرِ المُكَوَّناتِ، لا شَخْصَ يَعْرِفُهُ هذا اليَوْمَ، وَطاحُوْنَةُ العالَمِ الطَّاحِنَةُ هذِهِ الَّتي تَدُوْرُ على رَأْسِنا وَرَأْسِ هذا العُقابِ الَّذِي سَحَبَنا بِعِقابَيِ البَلاءِ تَدُوْرُ مِنْ مَدارٍ واحِدٍ، وَكُلُّ مَنْ كانَ لَهُ النَّظَرُ الدَّقِيْقُ، حِيْنَ يَنْظُرُ في دَوْرَةِ هذِهِ الطَّاحُوْنِ يَعْلَمُ أَنَّها تَطْحَنُهُ أَيْضاً مِثْلَنا وَهُوَ بِلا خَبَرٍ، وَدَوْرُ هذا الجائِرِ، وَجَوْرُ هذا الضَّائِرِ، يَصِلانِ للنِّهايَةِ، وَجائِزٌ أَنَّ أَمْرَهُ يَنْتَهي بِمَقْطَعِ الاِنْتِهاءِ، وَيَجِيْءُ ظاهِراً مَخْلَصُ حالِنا مِنْهُ،

مَهْلاً أَبا الصَّقْرِ فَكَمْ طائِرٍ　　　خَرَّ صَرِيْعاً بَعْدَ تَحْلِيْقِ
زُوِّجْتَ نُعْمى لَمْ تَكُنْ كُفوَها　　　آذَنَـها اللهُ بِتَـطْـلِيْـقِ

آزاد چهره قالَ، هذا الفِكْرُ لَيْسَ بَعِيْداً عَنْ تَدْبِيْرِ العُقَلاءِ الخُبَراء، وَمَنْ خَبِرُوا طَبْعَ الزَّمانِ، لكِنْ مَنْ يَكْفَلُ كَفالَةَ وَفاءِ العُمُرِ بِنَيْلِ المَقاصِدِ، وَمَنْ يَكُوْنُ ضامِنَ الزَّمانِ مِنْ غَدْرِهِ الكامِنِ،

وَفاءُ الحَبِيْبِ ضامِنٌ لَيَ العُمْرَ　　لكِنْ مَنِ الضَّامِنُ لِي بِعُمْرٍ عَزِيْزٍ

رَأْيي هُوَ ذاكَ، أَنَّنا نَجْعَلُ الوَجْهَ لِمَمْلَكَةِ العُقابِ، وَهُناكَ نُمْسِكُ أمامَنا بِكُلِّ ما يَقْتَضي الوَقْتُ في اسْتِئْمانِ واسْتِنْجاحِ النَّفْسِ مِنْ جَناحِ رَحْمَتِهِ، فَهُوَ وَإِنْ كانَ سافِكاً للدَّمِ وَصائِداً لِلْخَلْقِ فَإِنَّهُ يَمْلِكُ صِفَةَ المُلُوْكِ، وَيَقْصِدُ الخَلْقَ بِعُلُوِّ الهِمَّةِ والعَطْفِ على الضُّعَفاءِ، وَيُقَرِّرُ العَفْوَ مِنْ كَمالِ القُدْرَةِ، وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ أَمْثالِنا مَدَدُ الاِسْتِظْهارِ، وَلَمْ يَزِدْ لَهُ بِمَكانِنا الاِفْتِخارُ، هُناكَ في مَعْرَضِ العَبِيْدِ يَطْلُبُ تَكْثِيْرَ سَوادِ الحَشَمِ، وَنَحْنُ يَكُوْنُ وُقُوْعُنا مِثْلَ نُقْطَتَيْنِ على تِلْكَ الحواشي، وَيَوْماً نَقْدِرُ نَجِدُ الطَّرِيْقَ في دائِرَةِ خَطِّ العُبُوْدِيَّةِ، وَيَجْعَلُ لَنا في جُمْلَةِ أَوْساطِهِمُ ارْتِباطاً بالنَّظَرِ، قالَتْ إِيْرا، أَيْ فُلانُ أنا في العَجَبِ مِنْكَ، فَفي وَقْتٍ تَرْمِي صَوائِبَ سَهْمِ غَيْبِ الفِكْرَةِ على صَمِيْمِ الغَرَضِ، وَفي وَقْتٍ تَجْعَلُ خَواطِئَ الخاطِرِ مُتَناثِرَةً على كُلِّ جانِبٍ،

تَلَوَّنْتَ حَتَّى لَسْتُ أَدْري مِنْ العَمى أَرِيْحُ جَنُوْبٍ أَنْتَ أَمْ رِيْحُ شَمْأَلِ

كُلُّ هذا الأَلَمِ لَنا والمِحْنَةِ مِنْ مُلاقاةِ العُقابِ يَوْماً واحِداً، وَأَنْتَ تَسْحَبُ النَّفْسَ وَتَسْحَبُني بِسَلاسِلِ الجُهْدِ وَحَبائِلِ الجِدِّ إِلَيْهِ، *شَكْوى الجَرِيْحِ إِلى الغِرْبانِ والرَّخَمِ*،

أنتَ لِيْ الحَكَمُ كَيْفَ يَكُوْنُ إذا ما كانَ ظالِماً الحَكَمْ

لكِنَّ قِصَّتَكِ في ارْتِكابِ هذا الخَطَرِ شَبِيْهَةٌ بِقِصَّةِ السَّمَكَةِ وَآكِلِ السَّمَكِ، آزاد چهره قالَ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ السَّمَكَةِ وآكِلِ السَّمَكِ

قالَتْ إِيرا، كانَ هُناكَ طائِرٌ مِنَ الطُّيُوْرِ آكِلَةِ السَّمَكِ، هَرُمَ وَتَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ وَجاءَتْ قُوَّتُهُ وَنَشاطُهُ وَحَرَكَتُهُ بالاِنْحِطاطِ، وَدَواعي قِيامِهِ بالصَّيْدِ قَبِلَتِ الفُتُوْرَ، يَوْماً لَمْ يَجِدْ غَذاءً، صارَ مِنَ الجُوْعِ بِلا طاقَةٍ، ولا يَعْرِفُ أَيَّةَ حِيْلَةٍ إِلَّا الذَّهابَ لِجِوارِ ضِفَّةِ النَّهْرِ، وَأَنْ يَجْلِسَ هُناكَ مُتَرَصِّداً وارِداتِ الرِّزْقِ، أنْ مِنْ أَيَّةِ جِهَةٍ سَيُلْقي صَيْداً مِنْ سَوانِحِ الغَيْبِ في شَبَكَةِ مُرادِهِ، فَجْأَةً مَرَّتْ عَلَيْهِ سَمَكَةٌ، رَأَتْهُ مَحْزُوْناً وَمُتَأَلِّماً، أَظْهَرَتْ تَوَقُّفاً وَأَعْمَلَتْ تَلَطُّفاً بالسُّؤالِ والاِسْتِخْبارِ عَنِ صُوْرَةِ الحال، آكِلُ السَّمَكِ قالَ، *وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِيْ الخَلْقِ*، كُلُّ مَنْ سَحَقَتْهُ الأَيَّامُ تَحْتَ قَدَمِ الحَوادِثِ، وَذَبُلَتْ بِراعِمُ أَغْصانِ شَرْخِ شَبابِهِ مِنْ انْقِلابِ خَرِيْفِ العُمُرِ، أَظْهَرَتِ الشَّيْخُوْخَةُ وَكَثْرَةُ السِّنِيْنَ وَوَهَنُ الأَعْضاءِ وَضَعْفُ القُوى البَشَرِيَّةِ على بَشَرَتِهِ هذِهِ الآثارَ، وَمُضْطَرَّةً أَخَذَتْ أَرْكانُ بِنْيَتِهِ التَّزَلْزُلَ، وَقَبِلَتْ أَخْلاطُهُ الطَّبِيْعِيَّةُ التَّغَيُّرَ، وَضَرْبُ مَنْجَنِيْقِ الحَوادِثِ الَّذي يَجِيْءُ مِنْ هذِهِ القَلْعَةِ العالِيَةِ مُتَعاقِباً، يَهْدِمُ أَساسَ الحَواسِّ، كما قالَ ذلِكَ الحَيُّ القَلْبِ،

في ظَهْرِي مِنَ الزَّمانِ جاءَ انْحِناءٌ
كُلُّ شُغْلٍ مِنِّي يَجِيْءُ غَيْرُ حَسَنْ

عَزَمَتْ رُوْحي الرَّحِيْلَ قُلْتُ لا تَذْهَبي
قالَتْ كَيْفَ لي بِالمَسْكَنِ الخَرابِ السَّكَنْ

واعْلَمِي أَنَّهُ حِيْنَ سَفِيْنَةُ العُمُرِ تَصِلُ للسَّاحِلِ، وَشَمْسُ الأَمَلِ تَذْهَبُ على رَأْسِ جِدارِ الفَناءِ، لا يَبْقى للرَّجُلِ وَجْهٌ إلَّا التَّبَتُّلُ والطَّاعَةُ والتَّوْبَةُ والإنابَةُ وَطَلَبُ قَبُوْلِ المَتابِ والرُّجُوْعُ بِحُسْنِ المَآبِ، وإلَّا المَجِيْءُ بالغُسْلِ مِنْ جَنابَةِ الجَهُوْلِ والظَّلُوْمِ، وَلا حِيْلَةَ مِنْ غَسْلِ الوَجْهِ المُسَوَّدِ بالعِصْيانِ بِماءِ الاِعْتِذارِ والاِسْتِغْفارِ الَّذي يَجْرِي مِنْ نائِرَةِ الحَدَقَةِ،

وَما أَقْبَحَ التَّفْرِيْطَ في زَمَنِ الصِّبى   فَكَيْفَ بِهِ والشَّيْبُ في الرَّأْسِ شامِلُ

مَقْصُوْدي مِنْ هذا التَّقْرِيْرِ هُوَ ذاكَ، أنْ هذا اليَوْمَ مَرْكَبُ هَوايَ أَلْقى أَسْنانَ الاِحْتِياجِ، وَسَقَطَ مِنْ شاهِيْنِ الشَّوْكَةِ رِيْشُ جَناحِ الأماني، وَوَقْتُ ذاكَ وَأَنْ تَكُوْنَ الهِمَّةُ لِي مَقْصُوْرَةً على حُطامِ الدُّنْيا، قَدْ عَبَرَ، وَقَدْ ذَهَبَ الأَكْثَرُ مِنْ أَيَّامِ عُمُرِي مَصْرُوفاً في جَمْعِ وَتَحْصِيْلِ ذاكَ،

أَيْنَ قَلْبٌ مِنْهُ حُبُّ الطَّرَب نَهَضَ   على صَيْدِ المُرادِ بِمَهارَةِ اليَدِ نَهَضَ
بِكَأْسِ العُمْرِ وَقَعَ الشُّغْلُ مَعَ جُرْعَةٍ   مِنْ هذِهِ الجُرْعَةِ بادٍ أَيُّ سُكْرٍ نَهَضَ

إنَّهُ الوَقْتُ أنِّي بِعُذْرِ التَّقاعُداتِ السَّابِقَةِ أُظْهِرُ القِيامَ، الآنَ أنا جِئْتُ بِنِيَّةٍ وَفِكْرِ ذاكَ، حَتَّى مِنَ الأَسْماكِ في هذِهِ النَّواحِي الَّتي في كُلِّ وَقْتٍ على أولادِها وَأَتْرابِها عَنْ قَصْدِي كانَتْ تجري الغاراتُ، وَحِمْلُ مَظالِمِها وَمَغارِمِها باقٍ في رَقَبَتي، أَنِّي أَعْمَلُ الاِسْتِحْلالَ، حَتَّى إِذا مِنْ طَرِيْقِ المُطالَباتِ نَهضُوا، هُمْ أَيْضاً لِدَرَجَةِ مَثُوْبَةِ العَفْوِ يَصِلُونَ، وَأَيْضاً ذِمَّتي تَصِيْرُ مِنْ قَيْدِ المَآثِمِ حُرَّةً، وَأَمَلُ خِفَّةِ الحِمْلِ وَإِخْلاصِ العَمَلِ يَصِلُ لِلْوَفاءِ، السَّمَكَةُ حِيْنَ سَمِعَتْ هذا الفَصْلَ، صارَتْ طَبِيْعَتُها مُقَيَّدَةً بِشِباكِ الخَدِيْعَةِ مِنْهُ دُفْعَةً واحِدَةً، قالَتْ، الآنَ بِماذا تَأْمُرُ، قالَ، أنْ تُوْصِلي هذا الفَصْلَ الَّذي سَمِعْتِ مِنِّي لِلأَسْماكِ، ولا تَمْنَعي هذا السَّعْيَ، حَتَّى إِذا ما ارْتَبَطُوا بالإِجابَةِ، هُمْ مِنْ فِكْرِ تَعَرُّضاتي بالغارَةِ يَجْلِسُونَ آمِنِيْنَ في مَساكِنِهِم، وَأَنْتِ تَجِيْئِيْنَ وَقَدْ حَصَلَ لَكِ في ضِمْنِ ذاكَ فائِدَةُ الأَمْنِ والسُّكُونِ مِنْ فُتُوْرِ وفُتُوْنِ الزَّمانِ، *وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى*، قالَتِ السَّمَكَةُ، أَعْطِني يَدَ الأَمانَةِ، وَأَقْسِمِ القَسَمَ أَنَّكَ تُظْهِرُ الوَفاءَ بِهذا الحَدِيْثِ، حَتَّى يَزِيْدَ اطْمِئنانُ إِيماني في صِدْقِ هذا القَوْلِ، وَيَكُونُ الاِعْتِمادُ لائِقاً، لكِنْ مِنْ قَبْلِ القَسَمِ كَيْفَ تَكُوْنُ مُصافَحَتي مَعَكَ، قالَ اِرْبِطي هذِهِ النَّبْتَة مُلْتَفَّةً بِإِحْكامٍ على مِنْقاري حَتَّى تَكُوْني فارِغَةً، السَّمَكَةُ أَمْسَكَتْ بالنَّبْتَةِ واقْتَرَبَتْ لِتُوْصِلَ ذاكَ العَمَلَ للتَّمامِ، آكِلُ السَّمَكِ خَفَضَ الرَّأْسَ وَسَحَبَها مِنْ وَسَطِ الماءِ وابْتَلَعَها، *وَرُبَّ شارِقٍ شَرِقَ قَبْلَ رِيْقِهِ*، أنا

قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَنا مَصْلَحَةٌ في قُرْبَةِ العُقابِ وَمُجاوَرَتِهِ،

أَنْفاسُهُ كَذِبٌ وَحَشْوَ ضَمِيْرِهِ دَغَلٌ وَقُرْبَتُهُ سَقامُ الرُّوْحِ

آزاد چهر قالَ، الرِّيْحُ في وَقْتٍ تَجْعَلُ حُلَّةَ فُصُوْلِ الرَّبِيْعِ مُطَرَّاةً، وَفي وَقْتٍ تَسْحَبُ عَنِ الرَّأْسِ خِرْقَةَ الخَرِيْفِ القَدِيْمَةَ، والنَّارُ في وَقْتٍ مِنَ الجِوارِ تَحْرِقُ بَيْدَرَ مُجاوِرِيْها، وَفي وَقْتٍ مِنَ البُعْدِ تَدْعُو الحائِرِيْنَ الَّذِيْنَ أَضاعُوا الطَّرِيْقَ لِلْمَقْصَدِ، والماءُ تارَةً يَجْعَلُ نَضِيْراً صَدْرَ ظامِئي الكَبِدِ، وَتارَةً يَجْعَلُ السَّفِيْنَةَ كاللُّقْمَةِ في الحَلْقِ وَيَكْسِرُ أَمَلَ المُسافِرِيْنَ، والتُّرابُ في المَوْضِعِ ذاتِهِ يُطْلِعُ رَأْسَ سِنانِ الشَّوْكِ وَيُطْلِعُ دِرْعَ عارِضِ الوَرْدِ المُدَوَّرَ، واعْلَمي أَنَّ الرِّضا والسَّخَطَ والقَبْضَ والبَسْطَ والقَهْرَ واللُّطْفَ والحِلْمَ والغَضَبَ والخُشُوْنَةَ والدَّماثَةَ جُمْلَةً مِنْ عَوارِضِ حالِ البَشَرِ، وَخَمِيْرُ أَصْلِ فِطْرَةِ الإِنْسانِ مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزاءِ وَأَخْلاطِ هذِهِ الأَشْياءِ الَّتي قُلْتُ، فَإِنَّهُ مِنَ المُمْكِنِ وَجائِزٌ في العَقْلِ أَنَّ العُقابَ مَعَ كُلِّ قَسْوَةِ الطَّبْعِ وَحَيْرَةِ المَسْلَكِ، إِذا رَأى ضَعْفَنا وَقُدْرَةَ نَفْسِهِ وَنَظَرَ إلى تَذَلُّلِنا وَتَعَزُّزِ نَفْسِهِ، يَجِيْءُ لَنا بِخَفْضِ جَناحِ الكَرَمِ، وَيَنْشُرَ عَلَيْنا قَوادِمَ وَخَوافِيَ الرَّحْمَةِ، وَيَجْعَلُ مُبَدَّلاً سُوْءَ الأَخْلاقِ بِحُسْنِ المُعامَلَةِ، *لِكُلِّ كَرِيْمٍ عادَةٌ يَسْتَعِيْدُها*، إِيْرا قالَتْ أخافُ أَنَّهُ مِنْ ذلِكَ المَكانِ حَيْثُ لِلْعُقابِ طَبْعُ السُّرْعَةِ بالعَمَلِ وَصَيْدُ الرُّوْحِ، حِيْنَ

يَراكَ تَطْلُبُ الأمانَ لا يُعْطِيْكَ الزَّمانَ، وَيْجْعَلُ مَجالَ الاِسْتِمْهالِ عَلَيْكِ هكذا ضَيِّقاً، حَتَّى تَنْظُرَ إلى النَّفْسِ مُقَيَّدَةً في بِئْرِ النَّدامَةِ، وَقَدْ فُصِلَتْ عَنْ بَعْضِها بِمَخْلَبِهِ أَوْصالُ السَّلامَةِ، وَتَرَى مِثْلَ ذاكَ الَّذي وَقَعَ لِـ سورا مَعَ الزَّاغ، آزاد چهر قالَ، وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ اِبْنِ عُرْس والزَّاغ

قالَتْ إيرا أوْرَدُوا أَنَّهُ في مَرْجٍ كانَ صَبَّاغُ القَمَرِ جَعَلَ في رَياحِيْنِهِ النَّامِيَةِ بِلَوْنِ الأَعْنابِ دُكَّاناً مِنَ النِّيْلِ والبَكَمِ، وَعَطَّارُ الصَّبا في وَسَطِ بائِعي العَبِيْرِ فَتَحَ نَوافِجَ مِسْكِ خَتَنَ مِنْ ياسَمِيْنِهِ وَنِسْرِيْنِهِ، وَزاغٌ على رَأْسِ الشَّجَرَةِ كانَ اتَّخَذَ عُشّاً، فَالشَّجَرَةُ في تَصْحِيْحِ شَجَرَةِ النِّسْبَةِ كانَتْ تَمْلِكُ انْتِماءً لِطُوبى بالأُصُولِ، وانْتِساباً للسِّدْرَةِ بالفُرُوْعِ، مِثْلَ الرَّاياتِ العالِيَة، عالِيَةُ الهِمَّةِ، بِأَيِّ مَقامٍ مِنْ مَعارِجِ العُلُوِّ لَمْ تَكُنْ تَخْفِضُ الرَّأْسَ، وَمِثْلَ كِرامِ الطِّباعِ، الوَجْهُ النَّضِيْرُ لا يَصِيْرُ بِمُتَناوَلِ كُلِّ مُتَناوِلٍ، وَمِثْلَ الكُبَراءِ عالي الفِطْرَةِ أعْطَوا أُصُولَ الرَّاحَةِ مِنْ ظِلِّهِم لِلْمُتْعَبِيْنَ،

يَلْتَذُّ جانِبُهِ بِأَنْعَمِ مَقْطَفِ   مِنْهُ وَساكِنُهُ بِأَكْرَمِ مِعْطَفِ
والوُرْقُ بَيْنَ مُحَلِّقٍ في جَوِّهِ   طَرَباً وَمُنْحَطٍّ عَلَيْهِ مُرَفْرِفِ

يَوْماً اِبْنُ عُرْسٍ كانَ بالعُبُوْرِ بِتِلْكَ النَّواحِي، وَقَعَتْ عَيْنُهُ على ذاكَ المُقامِ، مِنْ مُطالَعَةِ ذاكَ بَقِيَ حائِراً، قَلْبُهُ نَصَبَ في ذلِكَ المَكانِ خَيْمَةَ

الإقامَةِ، وَأَنْزَلَ أوْتادَ الرَّغَباتِ في أَرْضِ ذاكَ المَوْضِعِ، وَعَمِلَ بُنْيانَ البَيْتِ في جِذْعِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَوَطَّنَ القَلْبَ على التَّوَطُّنِ، وَقالَ مَعَ النَّفْسِ،

وَجَدْتَ المَقامَ فلا تَرْكِلْهُ بِقَدَمِك   وَجَدْتَ الجَهازَ فلا تُفْلِتْهُ مِنْ يَدِك

كَثِيْراً ما ذَهَبْتُ والِهاً في إِثْرِ الأمَلِ، إلْقاءُ نَظَرِ التَّمَنِّي مِنْ كُلِّ جانِبٍ لَيْسَ اخَتِياراً لِلْعَقْلِ، يَجِبُ الكَوْنُ في رَوْضَةِ هذا النَّعِيْمِ المُقِيْمِ، *إِذا أَعْشَبْتَ فانْزِلْ*، آخِراً جَلَسَ، وَأَسْكَنَ دَواعي الطَّلَبِ مِنْ داخِلِ القَلْبِ، مِنْ جُلُوْسِهِ نَهَضَ القَلْبُ لِلزَّاغِ مِنَ المَكانِ، وَجاءَ فِكْرُ مُزاحَمَتِهِ لَهُ حَوْلَ الخاطِرِ، وَقالَ، اَلآنَ لِي طَرِيْقُ إِزْعاجٍ مِنْ هذا الخَصْمِ، وَإِرْتاجُ أَبْوابٍ مِنْ إقامَتِهِ مِنْ حَوْلِ هذا المَوْطِنِ الَّذي أمْلِكُ بِهِ مَحْصُولَ الأماني وَمَنْحُوْلَ العُمْرِ والحَياةِ،

بِلادٌ بِها نِيْطَتْ عَلَيَّ تَمائِمي   وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدي تُرابُها

يَجِبُ التَّفْكِيْرُ، وَكُلُّ مَنْ يَصِيْرُ دَفْعُ العَدُوِّ لَهُ ضَرُوْرَةً، أوَّلاً يَجِبُ أَنْ يَضَعَ القَدَمَ في طَرِيْقِ الاِنْبِساطِ، وَيَشْرَعَ بالتَّوَدُّدِ والاِمْتِزاجِ، وَيَفْتَحَ طَرِيْقَ التَّأَلُّفِ والتَّعَطُّفِ، حَتَّى بِمِعْيارِ الاِخْتِبارِ وَمَحَكِّ الاِعْتِبارِ يَصِيْرُ مَعَرْوْفاً لَهُ عِيارُ الكار، وَيَجِيْءُ مَعْلُوماً أَيْنَ يَكُوْنُ مَقامُ ضَعْفِهِ وَقُوَّتِهِ مَعَ الصَّدِيْقِ والعَدُوِّ، وَأَيَّ أَثَرٍ يَمْلِكُ غَضَبُهُ وَرِضاهُ في أَحْوالِ

النَّاسِ، فِيْما يَرْجِعُ إلى المَصْلَحَةِ والمَفْسَدَةِ، بِهذا الفِكْرِ طارَ نازِلاً مِنَ الشَّجَرَةِ، وَذَهَبَ إلى جِوارِ ابْنِ عُرْس، أَلْقى السَّلامَ وَجاءَ بالتَّحِيَّةِ بالاِحْتِرامِ، اِبْنُ عُرْس فَكَّرَ، أنْ هذا الزَّاغُ مَوْصُوْفٌ بِأَنَّهُ سَيِّئُ الجَوْهَرِ وَنَجِسُ المَحْضَرِ وَلَئِيْمُ الطَّبْعِ، وَنَحْنُ دائِماً الواحِدُ لِلآخَرِ نَضْغَطُ أَسْنانَ المُباغَضَةِ، وَيَجِيْءُ أمامَنا سَبِيْلُ العَداوَةِ والمُناقَضَةِ، كُلُّ الأَغْراضِ مَطْوِيَّةٌ وما كُنَّا نُظْهِرُ الاِبْتِهاجَ الواحِدُ بِرُؤْيَةِ الآخَرِ، والأُلْفَةُ والاِزْدِواجُ في الجانِبَيْنِ لا يَقْبلانِ الصُّوْرَةَ، لا شَكَّ أَنَّهُ جاءَ بِعَزِيْمَةِ قَصْدٍ وَبِفِكْرِ كَيْدٍ، إِذا أنا عَنْ مُناهَزَةِ الفُرْصَةِ بَقِيْتُ غافِلاً، يَجِيْءُ تَدْبِيْرَهُ عَلَيَّ فاعِلاً، وانْتِباهِي مِنْ بَعْدِ ذاكَ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ، *اِحْفَظْ ما في الوِعاءِ بِشَدِّ الوِكاء*، ذاكَ هُوَ الطَّرِيْقُ الأَوْلى، فَحالاً أُقَيِّدُ يَدَ وَقَدَمَ قُدْرَتِهِ عَنْ قَصْدي، وَأَنْظُرُ أنْ أَيَّ أَمْرٍ كانَ قَدْ أَعَدَّ، ثُمَّ وَثَبَ مِنَ المَكانِ وَأَنْشَبَ المِخْلَبَ في رِيْشِ وَجَناحِ الغُراب، قالَ الغُرابُ أَيُّها الشَّابُّ الشَّهْمُ، أنا مِنْ صَمِيْمِ المُخالَصَةِ التَّامَّةِ، أَظْهَرْتُ لَكَ الرَّغْبَةَ بالمُجالَسَةِ، وَجِئْتُ إلى هُنا باعْتِمادِ التَّفْكِيْرِ الحَسَنِ والخِصالِ الحَمِيْدَةِ، وَقُلْتُ لَنْ يَسْتَقْبِلَ هذا الاِجْتِماعَ أَيُّ مَكْرُوْهٍ، وَلَنْ يَكُوْنَ انْصِرافٌ مِنْ هذِهِ المُقارَنَةِ بِأَيِّ مَحْذُوْرٍ،

وَكُنْتُ جَلِيْسَ قَعْقاعِ بْنِ شَوْرٍ ولا يَشْقى بِقَعْقاعٍ جَلِيْسُ

حَيْثُ أَنَّهُ لا يُوْجَدُ بَيْنَنا سَبَبُ عَداوَةٍ سابِقٍ، وَمَشْرَعُ صُحْبَتِنا الَّذي هُوَ الآنَ بِأَوَّلِ لُقْيَةٍ لَنْ يَتَكَدَّرَ بِشائِبَةِ ضَرَرٍ لاحِقٍ، فَما هُوَ مُوْجِبُ هذا القَصْدِ والأَذى، قالَ ابْنُ عُرْسٍ،

بِما أنَّ كُلَّ ما تَعْمَلُ مَعْلُوْمٌ لِي   كَيْفَ لي أَنْ أُلْقِيَ بالنَّفْسِ بالغَلَطِ

فِكْرُ ضَمِيْرِ كُلِّ شَخْصٍ سَمِيْرُ أَحْوالِ الصَّدِيْقِ والعَدُوِّ، وَخاطِري عَنْ سِرِّ باطِنِكَ على خَبَرٍ، كما كانَ لِذاكَ الرَّاجِلِ الخَبَرُ عَنْ سِرِّ قَلْبِ الفارِسِ، الزَّاغُ قالَ، وَكَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الرَّاجِلِ والفارِسِ

قالَ ابْنُ عُرْسٍ، سَمِعْتُ أَنَّهُ في وَقْتٍ رَجُلٌ بائِعُ ثِيابٍ عَقَدَ رُزْمَةً مِنَ الثِّيابِ وَجَعَلَها على كَتِفِهِ يَحْمِلُها إلى قَرْيَةٍ لِيَبِيْعَها، اِتِّفاقاً وَقَعَ مَعَهُ بالطَّرِيْقِ فارِسٌ، الرَّجُلُ مِنْ حَمْلِ الرُّزْمَةِ جاءَ مُتْعَباً، وَالتَّعَبُ أَثَّرَ بِهِ، قالَ لِلْفارِسِ، أَيُّها الرَّجُلُ الشَّهْمُ، إِذا كُنْتَ تَأْخُذُ مِنِّي حِمْلَ الظَّهْرِ هذا وَتَجْعَلُهُ ساعَةً أَمامَكَ، كَيْ أَرْتاحَ مُدَّةً فَهُوَ لا يَكُونُ بَعِيْداً عَنْ قَضِيَّةِ الكَرَمِ والفُتُوَّةِ، اَلْفارِسُ قالَ لا شَكَّ أَنَّ التَّخْفِيْفَ عَنْ مُتَحَمِّلي حِمْلِ الكُلْفَةِ يَمْلِكُ تَمامَ الوَزْنِ في مِيْزانِ الحَسَناتِ، وَيُمْكِنُ إِيْصالُ ذاكَ باقِياً لِلْجَنَّةِ، *فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِيْنُهُ فَهُوَ في عِيْشَةٍ راضِيَةٍ*، إِلَّا أَنَّ دابَّتي لَيْلَةَ الأَمْسِ لَمْ تَجِدْ راتِبَ كُلِّ يَوْمٍ، وَلَمْ تَرَ العِنايَةَ على القاعِدَةِ، فَهِيَ

اليَوْمَ لا تَمْلِكُ تِلْكَ القُوَّةَ، فلا يَجُوْزُ إِيْلامُها بِتَكْلِيْفِ الزِّيادَةِ، في هذِهِ الأَثْناءِ وَثَبَ أَرْنَبٌ، الفارِسُ أَثارَ الجَوادَ في إِثْرِهِ وَذَهَبَ جارِياً مَيْدانَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً، ثُمَّ فَكَّرَ، قالَ وَأنا أَمْلِكُ مِثْلَ هذا الجَوادِ لِماذا لا آخُذُ ثِيابَ هذا الرَّجُلِ، ولا أَذْهَبُ خارِجاً مِنَ النَّاحِيَةِ، والحَقُّ بائِعُ الثِّيابِ أَيْضاً لَمْ يَكُنْ خالِياً مِنْ هَذِهِ الفِكْرَةِ عَيْنِها، أنْ إذا هذا الفارِسُ أَخَذَ الثِّيابَ مَنِّي وَراحَ جارِياً بِها مِنْ أَيْنَ لي أَنْ أَصِلَ إِلَيْهِ، الفارِسُ جاءَ راجِعاً إلى جِوارِهِ وَقالَ، هَيَّا أَعْطِني الثِّيابَ حَتَّى تَرْتاحَ لَحْظَةً، قالَ اذْهَبْ فَذاكَ الَّذي فَكَّرْتَ بِهِ، أنا لَمْ أَكُنْ غافِلاً عَنْهُ، قالَ هذا وَقَطَّعَ الزَّاغَ وَأَكَلَهُ، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أنْ أنتَ مِنْ جِهَةِ العُقابِ لا تُفَكِّرْ بالخَيْرِ كُلِّهِ، ولا تَكُنْ آمِناً مِنْ خَطْفَةِ صَواعِقِهِ، ولا تَعْرِفِ الذَّهابَ لِذاكَ المُقامِ وَوُجْدانَ ذاكَ المَطْلَبِ سَهْلَ المَأْخَذِ هكذا، وَنَصِيْبُ كُلِّ قَدَمٍ مِنْ عَتَبَةِ قُصُوْرِ هذا التَّمَنِّي لَيْسَ إِلَّا القُصُوْرُ،

يَعُدُّ مِنْ أَنْجُمِ الأَفْلاكِ مَوْطِنَها لَوْ أَنَّهُ كانَ يَجْرِي في مَجارِيْها

قالَ آزاد چهر، لَقَدْ وَجَدْتُ مُلْكَ وَعَظَمَةَ مَنْشَأ وَأَصالَةَ مَحْتَدِ وَعُلُوَّ هِمَّةٍ وَكَرَمَ نِجارٍ وَتَأَثُّلَ أَصْلِ هذا العُقابِ مُقَرَّراً في مَقاماتٍ عِدَّةٍ، وَهذا التَّقْرِيْرُ صارَ مُكَرَّراً مَرَّاتٍ، وَمُظْهَراً مِنْ ذاكَ المَكانِ الَّذي هُوَ مُقْتَضى هذِهِ الأَوْصافِ، فَهُوَ لا يَقْبَلُ على شَخْصٍ يَكُوْنُ تَرَكَ البَيْتَ والمالَ والأَهالي والأَوْطانَ وَتَعَلَّقَ بِثَوْبِ إِقْبالِهِ، وَجَعَلَ المُلْتَجَأَ مِنْ يَدِ

تَعَرُّضِ آفاتِ المَخافاتِ لِجَنابِهِ، أَنْ يُخْذَلَ، ولا يَجْعَلُ سِمَةَ هذِهِ الدَّناءَةِ عَلى ناصِيَةِ هِمَّةِ نَفْسِهِ، بَلْ يَأْمُرُ بالتَّمْكِيْنِ وَبالتَّكْرِيْمِ، وَيَجْعَلُ النَّظَرَ لِجانِبِنا مِنْ زاوِيَةِ عَيْنِ العَظَمَةِ أَيْضاً، وَخاصَّةً أَنِّي أَذْهَبُ أَمامَهُ بِشَرْطِ الخُضُوْعِ والتَّذَلُّلِ والخُشُوْعِ والعُبُوْدِيَّةِ، وَأَجِيْءُ بِكُلِّ ذاكَ الَّذي يَكُوْنُ مِنْ أَدَبِ الحَضْرَةِ وَمَراسِمِ الخِدْمَةِ، وَتَعْلَمِيْنَ أَنَّ هُناكَ سِرَّاً عَظِيْماً مَخْفِيَّاً في خاصِّيَّةِ الكَلامِ يَجِيْءُ تَأْثِيْرُهُ ظاهِراً بالطِّباعِ بالوَقْتِ، حَتَّى يُخْرِجَ ثُعْبانَ النِّفاقِ المُبَرْقَشَ مِنْ وَكْرِ كُمُوْنِ النَّفْسِ، وَيَفُلُّ حَدَّ حَدِيْدِ الأَمْزِجَةِ القاطِعَ بِأَلْماسِ اللَّطائِفِ، *كما لانَ مَتْنُ السَّيْفِ والحَدُّ قاطِعُ*، وَأَنا لي بِحَمْدِ اللهِ مِنْ آلَةِ هذا الاِسْتِعْدادِ كُلُّ ما هُوَ أَكْمَلُ، وَمِنْ أَصْلِ هذِهِ الأَهْلِيَّةِ كُلُّ ما هُوَ أَتَمُّ، فالرَّأْيُ أَنَّنا نَحْنُ كِلا الاِثْنَيْنِ نَذْهَبُ بِخِدْمَتِهِ، وَبَعْدَ أَنْ يَصِيْرَ طَرِيْقُ الوُصُولِ لِتَقْبِيْلِ يَدِهِ مُيَسَّراً، وَتِلْكَ السَّعادَةُ بِحُسْنِ الاِتِّفاقِ حاصِلَةً، نَقُولُ فَصْلاً في بابِ النَّفْسِ وَحِكايَةِ الحالِ بِوَجْهٍ يَكُوْنُ بِهِ قَبُولُ المُسْتَقْبِلِ لِذاكَ، وَتَصِيْرُ العاطِفَةُ والرَّأْفَةُ رَدِيْفَتَيْنِ لِذاكَ،

فَأَوْجَزَ لكِنَّهُ لَمْ يُخِلَّ وَأَطْنَبَ لكِنَّهُ لَمْ يُمِلَّ

في الجُمْلَةِ، حِيْنَ إِيرا سَمِعَتْ أَحادِيْثَهُ بِسَمْعِ المَصْلَحَةِ، أَعْطَتْهُ عِنانَ الاِسْتِرْسالِ بِيَدِ الاِخْتِيارِ، أنِ الآنَ وَقَدْ عَمِلْتَ لِجانِبِ الذَّهابِ التَّرْجِيْحَ، وَرَأَيْتَ واجِباً لِسِهامِ العَزِيْمَةِ التَّجْنِيْحَ، *بِسْمِ اللهِ، وَإِذا عَزَمْتَ*

فَتَوَكَّلْ على اللهِ، لكِنِ اعْلَمْ أَنَّهُ إِذا وَجَدْتَ اخْتِصاصَ تِلْكَ القُرْبَةِ، وَصارَ وَجْهُ المُرادِ لَكَ مُزَيَّناً بِزُلْفِ وِصالِ تِلْكَ الزُّلْفَةِ، فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ مُتَحَلِّيَاً بِخِصالٍ عِدَّةٍ، وَمُتَحَمِّلاً لِأَحْمالِ الكُلْفَةِ، أَوَّلاً أَنْ تَعْرِفَ تَقْدِيْمَ أَمْرِ المَلِكِ واجِباً ولازِماً على جُمْلَةِ المَقاصِدِ، وَثانِياً أَنْ تَحْفَظَ أَوامِرَهُ في صُوْرَةِ العِزِّ والوَقارِ، الثَّالِثَةُ أَنْ تَقُومَ بِتَحسِيْنِ وَتَزيِيْنِ أَمْرِهِ وَفِعْلِهِ بِوَجْهٍ تَجْعَلُ يَزِيْدُ مِنْهُ اتِّباعُ الأَفْعالِ المَرْضِيَّةِ والإِمْتِناعُ عَنِ الأَخْلاقِ الرَّدِيَّةِ، الرَّابِعَةُ أَنْ تَقُوْمَ بِرِعايَةِ صِيانَةِ عِرْضِ النَّفْسِ عَنْ وَصْمَةِ الخِيانَةِ، الخَامِسَةُ أَنْ تَعْرِفَ خِدْمَتَكِ دائِماً قاصِرَةً عَنْ حُقُوْقِ نِعْمَتِهِ، السَّادِسَةُ إِذا خَطَأٌ جاءَ صادِراً فَمُسَلَّمٌ ما لِشَخْصٍ مِنْ ذاكَ العِصْمَةُ الكُلِّيَّةُ، أَنْ تُظْهِرَ سَرِيْعاً القِيامَ بِعُذْرِ ذاكَ، ولا تَتْرُكُهُ حَتَّى يَصِيْرَ مِنْ قاذُوراتِ المَزْبَلَةِ، فَيَصِيْرَ غَيْرَ مُمْكِنِ الدَّفْعِ والإِزالَةِ، السَّابِعَةُ أَلَّا تَجْلِسَ أَمامَهُ عابِسَ الوَجْهِ وَمُرَّ القَوْلِ، الثَّامِنْةُ أَلَّا تَرْتَبِطَ بالصَّداقَةِ مَعَ عَدُوِّهِ بِأَيِّ تَأْوِيْلٍ، التَّاسِعَةُ مَهْما سَحَبَكِ للتَّقَدُّمِ أَكْثَرَ أَنْ تَنْزِلَ بالنَّفْسِ أَخْفَضَ وَتَأْخُذَ القَدَمِ بالرُّجُوْعِ لِلْخَلْفِ مِنْ مَقامِ التَّقَدُّمِ، العاشِرَةُ بالوَقْتِ الَّذي يَأْمُرُكَ بِأَمْرٍ مُهِمٍّ لا تَطْلُبْ مِنْهُ شَيْئاً ولا تَجْعَلْ وَجْهَ الخِدْمَةِ الجَمِيْلِ مُشَوَّهاً بِشادِخَةِ الطَّمَعِ، والرَّسْمُ الَّذي كانَ مُلُوْكُ فارِسَ يَأْمُرُوْنَ بِهِ كُلَّ سَنَةٍ، مِنْ هذِهِ الجِهَةِ كانَ، كَي يَرى كُلُّ شَخْصٍ مَرْتَبَةَ نَفْسِهِ، وَيَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ وَمَقامَ هِمَّةِ المَلِكِ، وَيَصِيْرَ مُتَّعِظاً بِذاكَ، آزاد چهر قالَ، وَكَيْفَ كانَ رَسْمُهُمْ،

شَرْحُ رَسْمِ مُلُوْكِ فارِس

قالَتْ إِيْرا، سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ صاحِبُ إِقْبالٍ مِنْ مُلُوْكِ فارِسَ، كانَتْ خَصائِصُ عَدْلِهِ وإِحْسانِهِ بُرْهاناً واضِحاً على وُفُوْرِ دِيْنِهِ وَعَقْلِهِ، المَلِكُ بَعِيْدُ النَّظَرِ وَحَسَنُ المَذْهَبِ وَجَمِيْلُ الفِكْرِ وَناشِرُ العَدْلِ وَمُرَبِّي العِلْمِ، أَمَرَ يَوْماً بِإِعْدادِ حَفْلٍ، وَأَنْ يُجْمَعَ فِيْهِ الخَواصُّ والعَوامُّ والعالِمُ والجاهِلُ والمَذْكُوْرُ والخامِلُ والصَّالِحُ والطَّالِحُ والبَعِيْدُ والقَرِيْبُ، في صَحْراءَ واحِدَةٍ في مَجْمَعٍ واحِدٍ، وَأَنْ يُجْعَلَ لِكُلِّ واحِدٍ مَقامٌ مَعْلُوْمٌ وَرُتْبَةٌ مُقَدَّرَةٌ، وَأَنْ يُجْلِسُوا الجَمِيْعَ على اخْتِلافِ الطَّبَقاتِ الصَّفَّ بالصَّفِّ، وَأَنْ يُعِدُّوا كُلَّ ما كانَ مِنْ مُشْتَهَياتِ الطَّبْعِ وَمُنْتَهَياتِ الآمالِ مِنْ أَلْوانِ الحِساءِ، والأَطْعِمَةِ الكَثِيْرَةِ عَذْبَةِ المَذاقِ، والأَشْرِبَةِ اللَّذِيْذَةِ مُرَكَّبَةً وَمُرَتَّبَةً، يُجاءُ بِها في الظُّرُوْفِ اللَّطِيْفَةِ والأواني النَّظِيْفَةِ، فَأَكْوابُ وَأَبارِيْقُ بَيْتِ شُرْبِ الخُلْدِ كانَتْ تَغارُ مِنْ ذاكَ، وَكَمْ فَرَشُوا مِنْ بِساطٍ على بِساطٍ وَسِماطٍ في سِماطٍ، فالزَّلالي المَفْرُوْشَةُ والزَّرابِي المَبْثُوْثَةُ مِنْ صَحْنِ وَصُفَّةِ قَصْرِ الضُّيُوْفِ زادَتْ لِلْفِرْدَوْسِ الغَيْرَةَ مِنْ ذاكَ، مَدُّوا سُفْرَةً ما سَمِعَتْ أُذُنُ السَّامِعِيْنَ بِمِثْلِ تِلْكَ، ولا رَأَتْ عَيْنُ النَّاظِرِيْنَ نَظِيْرَ تِلْكَ، وَمِنْ أَهْلِ الدِّيْوانِ طائِفَةٌ مِنْ مُوَكَّلي المَلِكِ والدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ عَرْضِ مَظالِمِ الخَلْقِ جَلَسُوا أَسْفَلَ الخُوان، حَتَّى يُعْطُوا جَزاءَ عَمَلِ كُلِّ واحِدٍ وَفْقَ الرُّسُومِ وَحُدُوْدِ الشَّرْعِ، وَيَجْعَلُوا

مَعَ كُلِّ واحِدٍ الخِطابَ على قانُوْنِ العُرْفِ كما يَلِيْقُ، كِسْرى جَلَسَ في صَدْرِ مَسْنَدِ المُلْكِ، وَأَمَرَ أَنْ يَطْلُعَ مُنادٍ بالجَمْعِ، أَنْ أَيْ حاضِرِي الحَضْرَةِ جَمِيْعاً، اِفْتَحُوا عَيْنَ البَصِيْرَةِ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنْ أَهْلِ الخُوانِ وَحاضِرِي الدِّيْوانِ، يَنْظُرُ إلى المَرْتَبَةِ أَسْفَلَ مِنْهُ، وَيَرى الدَّرَجَةَ أَدنى مِنْهُ، ولا تَجْعَلُوا النَّظَرَ لِأَعلى، حَتَّى كُلُّ مَنْ يَرى آَخَرَ دُوْنَ مَرْتَبَتِهِ يُظْهِرُ الرِّضا بِذاكَ الَّذي يَمْلِكُ، وَيُؤَدِّي الشُّكْرَ لِـ إِيْزَدَ على مَقامِ نَفْسِهِ، حَتَّى جُمْلَةُ الخَلائِقِ مِنَ الجالِسِيْنَ بِصَدْرِ المَحْفَلِ إلى نِهايَةِ صَفِّ النِّعالِ يَجْعَلُوْنَ جَمِيْعاً النَّظَرَ الواحِدُ في حالِ الآَخَرِ، والجَمِيْعُ بِعَيْنِ الاِعْتِبارِ، كُلٌّ يُطالِعُ عُلُوَّ دَرَجَةِ نَفْسِهِ وَنُزُولَ مَنْزِلَةِ الآَخَرِيْن، حَتَّى آخِرِ صَفٍّ الَّذي كانَ مَوْضِعَ أَهْلِ الظُّلاماتِ، مِنْ تِلْكَ الطَّوائِفِ أَيْضاً، كُلُّ مَنْ كانَ في مَعْرَضِ عِتابٍ وَمُجَرَّدِ خِطابٍ، كانَ يَنْظُرُ إلى ذاكَ الشَّخْصِ الَّذي جاءَ لائِقاً بالزَّجْرِ والتَّعْزِيْرِ، وَهُوَ في حالِ ذاكَ الشَّخْصِ الَّذي كانَ مَأْخُوْذاً بالمُثْلَةِ وَأَمْثالِ ذاكَ النَّكالِ والعُقُوْبَةِ وَذاكَ الَّذي صارَ مَأْخُوْذاً بِمِثْلِ هذِهِ العُقُوْبَةِ، كانُوا يَرَوْنَ حالَ الأَشْخاصِ، عَوْذاً باللهِ، الَّذِيْنَ كانُوا يُصْلَبُوْنَ وَتُضْرَبُ رُؤوسُهُمْ وَتُجْرى عَلَيْهِمْ أَنْواعُ العُقُوْباتِ،

قَسَمَتْ يَداهُ عَفْوَهُ وَعِقابَهُ　　قِسْمَيْنِ ذا وَبْلاً وَذاكَ وَبِيْلا

وَهذِهِ العادَةُ صارَتْ مَعْهُوْدَةً مِنْ عَهْدِ مُلُوْكِ فارِسَ أولئِكَ، وَهذِهِ القاعِدَةُ بَقِيَتْ مُسْتَمِرَّةً، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، حَتَّى تَجِيْءَ بِشُكْرِ اللهِ عَنْ كُلِّ رُتْبَةٍ تَمْلِكُ، وَتَصِيْرَ راضِياً مِنَ المُنْعِمِ والمُنْتَقِمِ بِذاكَ الَّذي تَرَى، وَتَكُونَ راعِياً لِحَقِّ المُنْعِمِ، والسَّلام، آزاد چهر قالَ، *أَنتَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ، وَبِكُلِّ نادٍ لِلْحَقِّ مُنادٍ، وَحَقِيْقٌ عَلَـيَّ أَنْ أَقْتَدِيَ بِآثارِكِ، وَأَهْتَدِيَ بِأَنْوارِكِ*، كُلُّ ذاكَ الَّذي أَمَرْتِ وَعَرَضْتِ كانَ مِنْ صَمِيْمِ غَزارَةِ العِلْمِ وَنَضارَةِ الرُّؤْيَةِ وَزُبْدَةِ جَوامِعِ الكَلِماتِ مَعَ الفَصاحَةِ وَعُمْدَةِ قَواعِدِ العَقْلِ والحَصافَةِ، قَبِلْتُ الأَمْرَ وَأَمْلِكُ المِنَّةَ وَعِنْدي الأَمَلُ أَنْ يَجِيْءَ المَحَلُّ قابِلَ الفِكْرَةِ، وَيَصِيْرَ قَبُولُ مُسْتَقْبِلِ التَّمَنِّي، وَأَنْ يَصِيْرَ وُصُولُ المَقْصَدِ مَعَ حُصُوْلِ المَقْصُوْدِ بالعِنانِ مَعاً، ثُمَّ رَأْيُ الإِثْنَيْنِ أَخَذَ القَرارَ بِذاكَ، أَنْ يَجْعَلا الوَجْهَ بالطَّرِيْقِ، *واصِلاً السَّيْرَ بالسُّرى، وَمُسْتَبْدِلاً السَّهَرَ بالكَرى*، قَطَعا بِساطَ الهَواءِ وَبَسِيْطَةَ الصَّحْراءِ، إلى أنْ وَصَلا إلى حَوالَي جَبَلِ قارَن،

وُصُولُ آزاد چهر لِلْمَقْصَدِ وَطَلَبُهُ الباز وَقَوْلُهُ أَحْوالَهُ لَهُ

آزاد چهر أَجْلَسَ إيرا في مَكانٍ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ ذَهَبَ بِطَلَبِ البازِ الَّذي وإنْ كانَ بالصُّوْرَةِ صَغِيْراً فَقَدْ كانَ يَمْلِكُ مَتانَةَ كُبَراءِ الدَّوْلَةِ، وَكانَ مُتَمَيِّزاً بِمَعْرِفَةِ تَفاصِيْلِ الأَعْمالِ مِنْ بَيْنِ العارِفِيْنَ بالأعْمالِ التَّابِعِيْنَ لِلْمَلِك، وَمُبَرِّزاً بِأَنْواعِ الفَضْلِ والعِلْمِ، إلى أنْ وَجَدَهُ، وَحِيْنَ وَصَلَ إِلَيْهِ،

مِنْ مِرْآةِ مَنْظَرِهِ وَصَلَ لِمُشاهَدَةِ جَمِيْعِ مَحاسِنِ مَخْبَرِهِ، تَبادَلا التَّحِيَّةَ والسَّلامَ كما يَكُوْنُ مِنْ وَظائِفِ تَبَرُّعاتِ الإِسْلامِ، وَحِيْنَ وَجَدَ الإِثْنانِ المُتَسارَّانِ الطَّرِيْقَ لِخَلْوَةِ بَيْتِ السَّلْوَةِ، وَحِيْنَ صارَ الإِثْنانِ على نَغَمٍ واحِدٍ في حِجابِ المَحْرَمِيَّةِ المُعَدِّ، وَفَتَحا العُقَدَ عَنْ جَبِيْنِ الأماني، وَأَظْهَرا السَّعاداتِ بِمُشاهَدَةِ الواحِدِ لِلآخَرِ، اَلبازُ سَأَلَ أنْ مَوْلِدُكَ وَمَنْشَأُكَ مِنْ أَيْنَ، وَما مَطْلَبُكَ وَمَقْصَدُكَ، وَمِنْ أَيْنَ جاءَ بالدَّلالِ رِكابُ عَزِيْمَتِكَ، وَأَيْنَ مُتَوَجَّهُ نِيَّتِكَ وَفِكْرِكَ، آزاد چهر قالَ،

فَفي سَمَرِي مَدٌّ كَهَجْرِكَ مُفْرِطٌ　　وَفِيْ قِصَّتي طُوْلٌ كَهَجْرِكَ فاحِشُ

أَجْلِسُ مَعَكَ وَأَقُوْلُ لَكَ الغُمُومَ　　في حُجْرَةِ وَصْلِكَ أُطْلِعُ الآهاتِ

اِعْلَمْ أَنَّ مَولِدي بِجَبَلٍ مِنْ جِبالِ آذربَيجان، بِغايَةِ الرَّوْنَقِ والجَمالِ، أَكْثَرُ ضُحْكَةً مِنْ مَبْسَمِ أوائِلِ الشَّبابِ، وَأَكْثَرُ نَضارَةً مِنْ مَوْسِمِ نَعِيْمِ الحَياة،

مِنَ الشَّمْسِ والظِّلِّ الأرْضُ كالأَبَنُوس　　مِثْلَ عَيْنِ الدِّيْكِ وَكَذَيْلِ الطَّاوُوس

كُلَّ السَّنَةِ مَعَ طِفْلِ الوَرْدِ مَهْدُهُ　　جَعَلَ كُلَّ الثِّيابَ مُطَرَّاةً عَهْدُهُ

حِيْنَ دَوْرَةُ الزَّمانِ أرْجَعَتْ حالَنا، وَأَعادَتِ العادَةَ غَيْرَ المُساعِدَةِ، أنا نَهَضْتُ مِنْ أَمامِ صَدَماتِ الحَوادِثِ، وَجَلَسْتُ مِنْ خَلْفِ رُكْنٍ بلا اِسْمٍ بِأَنْواعِ الخَيْبَةِ والحِرْمانِ، وَمَعَ الزَّوْجِ الَّتي أَمْلِكُ سَحَبْتُ القَدَمَ في ثَوْبِ

الصَّبْرِ، وَمِنَ الدُّنيا مِنْ كُلِّ هذا الطَّاقِ والرُّواقِ المُرَوَّقِ، وَطُمْطُراقِها المُزَوَّرِ المُطَوَّقِ، صِرْتُ قانِعَاً بِرُكْنٍ، وَأَعْطَيْتُ الأُذُنَ لِحَلْقَةِ القَناعَةِ، كانَتْ لي بِمُؤانَسَتِها الفَراغَةُ مِنْ أوانِسِ حُوْرِيَّاتِ الوُجُوْهِ مِنَ الصِّيْنِ وَخَتَن، وَكُنْتُ مُقْتَصِراً مِنْ مُجالَسَتِها عَنْ مُجالَسَةِ مُلُوْكِ وَسلاطِيْنِ الشَّامِ واليَمَن، وَفِيْ لَحْنِ الاِحْتِراقِ والاِشْتِياقِ الَّذي يَكُوْنُ لِلأَصْحابِ كانَتْ زَمْزَمَةُ أناشِيْدِها تَجِيْءُ أَعْذَبَ لِي مِنْ أَغارِيْدِ القُدُسِيِّيْن، وَمِنْ ذاكَ السَّماعِ بِمَكانِها كُنْتُ أَكْثَرَ سَعادَةً مِنْ جَمِيْعِ إِخْوانِ الزَّمانِ، وَصِرْتُ راضِياً بِذاكَ الشَّيْءِ مِنَ الرِّزْقِ الَّذي جرى بِهِ قَلَمُ التَّقْدِيْرِ مِنْ دِيْوانِ المَشِيْئَةِ، وَأُثْبِتَ على أوراقِ رَواتِبِ القِسْمَةِ، وَقَدْ كُنْتُ أَحْفَظُ أمامَ خاطِري أَنَّهُ، *ثلاثَةٌ تَحْمي العَقْلَ والنَّفْسَ، الزَّوْجَةُ الجَمِيْلَةُ والأَخُ المُؤانِسُ والكَفافُ مِنَ الرِّزْقِ*، فَمِنْ هذِهِ المُرادَاتِ الثَّلاثَةِ الَّتي كُلُّ اخْتِيارٍ مِنْ اخْتِياراتِ عُقَلاءِ العالَمِ بِها مَحْصُوْرٌ، والنَّظَرُ عَنْ جَمِيْعِ فَواضِلِ وَزَوائِدِ الحاجاتِ بِها مَقْصُورٌ، كُنْتُ حاصِلاً عَلَيْها بِحُضُوْرِها، إِلَّا أَنَّهُ بِحُكْمِ أَنَّهُ كُلَّ السَّنَةِ كُنَّا في مَصائِدِ الطُّيُورِ، وَكُنَّا في مَصائِبِها شَرِيْكَيْنِ بِمُصِيْبَةِ النَّفْس، وَفي كُلِّ وَقْتٍ جاءَنا فِيْهِ وَلَدٌ، وَمِنْ سِراجِ الشَّمْسِ وَصَلَ قُرَّةُ عَيْنٍ، أَوْ مِنْ رَوْضِ العِشْقِ صارَ ظاهِراً ثَمَرَةُ فُؤادٍ، فَجْأَةً مِنْ قَواصِفِ قَصْدِ الصَّيَّادِيْنَ رِيْحٌ عَنِيْفَةٌ سَحَراً بِغارَةِ اللَّيْلِ كانَتْ تَجِيْءُ على الرَّأْسِ، وَتَنْقِضُ آمالَنا في العَيْنِ والقَلْبِ، أنا انْتَهَتْ لي الطَّاقَةُ بِتِلْكَ المِحْنَةِ، فَعَرَفْتُ صَلاحَ الأَمْرِ والحالِ في

ذاكَ، وَرأيْتُ الصَّوابَ في أنْ نَتْرُكَ البَيْتَ والوَطَن، وَقُلْتُ، *المَرْءُ مِنْ حِيْثُ يُوْجَدُ لا مِنْ حَيْثُ يُوْلَدُ*، وَأنْ أَعْمَلَ التَّحْوِيْلَ مِنْ مَعْرِضِ هذِهِ الآفَةِ الَّتي لا يُمْكِنُ التَّصَوُّنُ والتَّوَقِّيْ مِنْها، وَأَذْهَبَ إلى مَكانٍ بِحَيْثُ مِنْ هُناكَ يَمْكِنُ أنْ نَمْلِكَ عَيْنَ الخَلاصِ، زَوجَتي لَمْ تَرَ الصَّوابَ في ذاكَ، وَمَهما أَعْطَيْتُ تَقْرِيْرَ هذا المَعْنى لَها لَمْ تَكُنْ تُرْجِعُ عِنانَ المُوافَقَةِ مِنْها صَوْبَ هذا الصَّواب، وَلَمْ تَعْمَلْ بِإمْضاءِ هذا التَّفْكِيْرِ مِنِّي الاقْتِضاءَ، وَمُعارَضاتٌ كَثِيْرَةٌ جَرَتْ ما بَيْنَنا في هذا المَعْنى، حَتَّى كُلَّ سَهْمِ نِزاعٍ كانَ لَنا نَحْنُ الإِثْنَيْنِ في كِنانَةِ العِنادِ أَلْقَيْناهُ في تِلْكَ المُناضَلَةِ الواحِدُ على الآخَرِ، آخِرُ يَدٍ أنِّي أنا مِنْ طَرِيْقِ التَّسامُحِ والتَّفادي، آخِرَ ما في الجُعْبَةِ قَرَأْتُ عَلَيْها، وَهِيَ مِنْ صَمِيْمِ الإنْصافِ والرُّجُوْعِ عَنِ الإصْرارِ والتَّمادي، قَرَأَتْ عَلَيَّ، *أَعْطَيْتُ القَوْسَ بارِيْها*، وَدَفَعَتْ لي زِمامَ المُرادِ مِنْ قَبْضَةِ العِنادِ، وَرَأتْ واجِباً لِعِنانِ الإِخْتِيارِ الإِرْخاءَ، والتَّسْلِيْمَ في الشِّدَّةِ والرَّخاء، وَفِيْ الحالِ أَخْرَجْنا خَيْمَتَيِ الاِرْتِحال، وَفي هذِهِ السَّاعَةِ إِذْ صِرْنا مُتَّصِلِيْنَ بِسَعَةِ جَلالِ هذا الجَنابِ لِلْكَرَم، وَسُدَّةِ المُكَرَّمِ، مِنْ بَعْدِ ما أَمْضَيْنا أوْقاتاً كَثِيْرَةً باللَّيْلِ والنَّهارِ نَقْطَعُ بِساطَ الفَلَواتِ والفَيافي، بِقَدَمِ القَوادِمِ والخَوافي، وَمِنْ أَلْفِ شَبَكَةِ خِداعٍ وَثَبْنا، وَمِئَةَ أَلْفِ حَبَّةِ خِداعٍ بالمَكانِ تَرَكْنا، حَتَّى إلى هُنا وَصَلْنا، ها نَحْنُ،

وَجَدْنا مِنَ الدُّنيا كَرِيْماً نَؤُمُّهُ   لِدَفْعِ مُلِمٍّ أَوْ لِنَيْلِ جَزِيْلِ

وَرَغْمَ أَنَّا في خِدْمَتِكَ لَا نَمْلِكُ أَيَّةَ سابِقَةٍ إِلَّا ما كانَ جَرى في مُتَعارَفِ الأَرْواحِ بِمَعْهَدِ الخَلْقِ، وما وَقَعَ في سابِقِ الحالِ بِمُؤتَلَفِ جَواهِرِ الفِطْرَةِ، لكِنَّنا واثِقُوْنَ بِتِلْكَ المَعْرِفَةِ في العَهْدِ الأَوَّلِ الَّتي أَوْصَلَتْنا لِخِدْمَةِ شاهِ الطُّيُورِ، وَرَغْمَ أَنَّ جَنابَ رِفْعَتِهِ لَيْسَ بِمقدارِ أَهْلِيَّةِ طَيَرانِنا، *وَدُوْنَهُ بَيْضُ الأنوقِ*، لكِنْ أَنتَ بِهذِهِ العَظَمَةِ تُظْهِرُ القِيامَ بِمُواساةِ الصَّغِيْرِ، وَتَجْعَلُ مُقامَنا مَعْمُوراً في جِوارِ إِقْبالِكَ مِنْ جَوائِرِ طُيُوْرِ الصَّيْدِ الأُخْرى الطَّائِرَةِ، والضَّواري الكاسِرَةِ، قالَ البازُ،

عَهْدي مَعَكَ لا زالَ على القَرارِ كما كان
وَعَيني لَكَ لا تزالُ تَحْمِلُ الدَّمْعَ كما كان

بِحَمْدِ اللهِ نَظَرُ الضَّمائِرِ هذا مِنْ كِلا الجَانِبَيْن، والاِطِّلاعُ على سَرائِرِ الضَّمائِرِ حاصِلٌ لِلْواحِدِ عَنِ الآخَرِ، جِئْتَ بالسُّرُوْرِ، فَتَحْتَ بابَ السَّعادَةِ، قَدِمْتَ بِفُتُوْحِ الرُّوْحِ، كانَ ذاكَ الاِنْتِقالُ مُبارَكاً، وَبِما أَنَّكَ أَظْهَرْتَ التَّمَسُّكَ بِحِبالِ اهْتَمامِنا، يَجِبُ الكَوْنُ بِفَراغِ البالِ، وَأَنْ يَكُونَ مُلْكُ الخاطِرِ مُرْتاحاً مِنْ جَمِيْعِ الشَّواغِلِ، وَيَجِبُ عَقْدُ الأَمَلِ، فالأَرْضُ هذِهِ تَتَحَوَّلُ لَكِ لِمَنْبَتِ لآلِئِ الدَّوْلَةِ النَّضِيْرَةِ وَمَسْقَطِ سُلالَةِ السَّعادَةِ الجَدِيْدَةِ، فَإِنَّ هذا المَلِكَ رَغْمَ كَوْنِهِ مَلِكاً مَجْلِسُهُ في الجَبَلِ، وَرَبِيْبَ ظِلِّ الفاكِهَةِ، ولا يَكُوْنُ خالِياً مِنَ الكَثافَةِ والفَجاجَةِ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ آفَةِ

الحِيَلِ وَفَسادِ الضَّمِيْرِ الَّتي تَنْهَضُ مِنْ كَثْرَةِ مُخالَطَةِ النَّاسِ وَمُواصَلَتِهِم، يُمْكِنُ أنْ يَكُوْنَ أَبْعَدَ، وَفي كُلِّ وَقْتٍ يَرى فِيْهِ التِجاءَ الضُّعَفاءِ وارْتِجاءَ المُحْتاجِيْنَ لِخِدْمَتِهِ، يَصِيْرُ رَحِيْماً وَرَؤوفاً وَكَرِيْماً وَعَطُوْفاً، وَيَجْعَلُ عِنانَ العِنايَةِ سَرِيْعاً مَعْطُوْفاً، وَهُوَ بِهذا لائِقٌ، وَهكذا تَكُوْنُ سُنَّةُ الخالِقِ تَعالى، أنَّ الضُّعَفاءَ يَتَرَبَّوْنَ في ثَوْبِ رِعايَةِ الأَقْوِياء، والأَصاغِرُ يَجْلِسُونَ في ظِلِّ الأكابِرِ، *بَيْضُ قَطاً يَحْضُنُهُ أَجْدَلُ*، الآنَ يَجِبُ انْتِهازُ فُرْصَةِ تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتي سَتَجِيْئُكِ بِخِدْمَتِهِ، فَإِنَّهُ في جَمِيْعِ الأُحْوالِ، الذَّهابُ قَرِيْباً مِنَ المَلِكِ بَعِيْدٌ عَنْ قَضِيَّةِ العَقْلِ، فالمُلُوْكُ لَطِيْفُو المِزاجِ، واللَّطِيْفُ يَقْبَلُ تَغَيُّرَ الأَحْوالِ سَرِيْعاً، وَماءُ اللُّطْفِ السَّلْسالُ، الَّذي هُوَ في إِناءِ الغَرِيْزَةِ مِنَ الصَّلْصالِ، جُعِلَ بِذاكَ المَعْجُوْنِ، فَكُلَّ ساعَةٍ لَهُ تَرَشُّحٌ بِنَوْعٍ آخَرَ، وَمِنْ وُرُوْدِ أَقَلِّ قَدْرِ نائِبَةٍ يَأْخُذُ التَّكَدُّرَ، وَمِنْ مُجاوَرَةِ أَقَلِّ شائِبَةٍ يَقْبَلُ التَّغَيُّرَ الفاحِشَ، وَسِرُّ حَدِيْثِ، *جاوِرْ مَلِكاً أَوْ بَحْراً*، يَصِيْرُ واضِحاً هُنا، فالطَّبْعُ لِلْمَلِكِ شَبِيْهٌ بالبَحْرِ، حِيْنَ تَكُوْنُ سَفِيْنَةُ صُحْبَتِهِمْ أَكْثَرُ راحَةً مِنَ الغَوائِلِ، يُمْكِنُ السَّيْرُ بِها لِلْجِوارِ بالسَّلامَةِ، وَمُلْكُ طَمَعِ عَشْرَةِ أَرْباعٍ مِنْهُم، وَإِذا هُوَ صارَ هائِجاً وَصارَ مُضْطَرِباً، لَوْ كانَتْ قَدَمُ المُجاوِرِ في تِلْكَ الحالِ مِنْ كَمالِ التَّمْكِيْنِ على شُرَفِ الأَفْلاكِ، يَجِبُ أَنْ يُعْتَبَرَ على شُرُفِ الهَلاكِ، *حَظٌّ جَزِيْلٌ بَيْنَ شِدْقَي ضَيْغَمِ*، واعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ علاماتِ قَبْضِ وَبَسْطِ الشَّاهِ صِفاتٌ عِدَّةُ أنا سَأَعُدُّها لَكَ، حَتَّى تَكُونَ عالِماً

بِها، وَمُراقِباً لِلْخَطَراتِ والحَرَكاتِ، وَمُواظِباً على الحَذَرِ مِنْ تِلْكَ الأَوْقاتِ الَّتي مِنْها يَجِبُ عَمَلِ الحَذَرِ، الآنَ في كُلِّ وَقْتٍ يُقْبِلُ فِيْهِ مُظَفَّراً مِنَ الصَّيْدِ وَقَدْ وَجَدَ المُرادَ بِأَنْواعِ الظَّفَرِ، وَمَلأَ حَوْصَلَةَ الحِرْصِ بالغِذاءِ، وَأَخْمَدَ بواعِثَ الشَّرَهِ الَّتي هِيَ أَصْلُ السَّفَهِ في الباطِنِ، لا بُدَّ وَقَدْ نَشَرَ مِثْلَ جَبِيْنِ الكُرَماءِ في وَقْتِ السُّؤالِ الرِّيْشَ والجَناح، وَأَغْلَقَ عَيْنَ الهِمَّةِ عَنْ مَطامِحِ طَيَرانِ الاِحْتِياجِ، وَطَلَبَ جُمْلَةَ الطُّيُورِ جَمِيْلَةَ الأَلْوانِ عَذْبَةِ الأَلْحانِ، وَتَعامَلَ مَعَ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ صَمِيْمِ النَّشاطِ الاِنْبِساطَ، وَفي كُلِّ وَقْتٍ يَكُوْنُ سَحَبَ فِيْهِ الرَّأْسَ في ياقَةِ الرِّيْشاتِ الكُبْرى مِنَ الجَناحِ، أو رَفَعَ فِيْهِ العُنُقَ لِلأعلى، وَصارَتْ آثارُ عَدَمِ القَرارِ والتَّشْوِيْشِ ظاهِرَةً على شمائِلِهِ، لا شَكَّ أَنَّهُ أَرادَ يُعْطِي عِنانَ عَزِيْمَةِ الصَّيْدِ القُوَّةَ، وَسِنانَ المِخْلَبِ والمِنْقارِ الماءَ، فَوَقْتَ ذاكَ يَكُوْنُ أَنَّهُ بِجَوَلانٍ واحِدٍ يَجْعَلُ مَيْدانَ الهَواءِ خالِياً مِنَ الطُّيُورِ عالِيَةِ الطَّيَرانِ، وَغِياثُ مُسْتَنْسِراتِ البِغاثِ مِنْ مَواقِعِ هَيْبَتِهِ يَصِلُ لِأُذُنِ النَّسْرِ الطَّائِرِ والواقِعِ،

هكذا قالَ لي واحِدٌ حادُّ الذِّهْنِ   كانَ لُبُّهُ عَقْلاً وَرَأْيُهُ مَلَكِيَّا
أَنَّ النَّمِرَ يَرْجِعُ عَنِ غَضَبِهِ   حِيْنَ يرى الخَصْمَ خاضِعاً لَهُ

يَجِبُ في تِلْكَ الحَضْرَةِ أَنَّكَ تَقُولُ فَصْلاً يَكُوْنُ لائِقاً بالحالِ وَمُوافِقاً لِلْوَقْت، بِحَيْثُ يَكُونُ صَغْوُ المَلِكِ بالإِصغاءِ لِذاكَ زائِداً، آزاد چهر

قالَ، ما مِنْ شُبْهَةٍ أَنَّهُ كُلُّ مَنْ كانَ لَهُ اللِّسانُ، الَّذي هُوَ سَفِيْرُ الضَّمِيْرِ وَتُرْجُمانُ الْجِنانِ، ولا يَسُوْقُ بِهِ الكَلامَ الَّذي يَأخُذُ المَكانَ في مَقاعِدِ القَبُولِ مِنْ أَسْماعِ السَّامِعِيْنَ، ولا تَأْخُذُ مُرَصَّعاتُ أَلْفاظِهِ وَمَعانيْهِ التَّعْلِيْقَ مِثْلَ الطَّوْقِ وَالقُرْطِ في أُذُنِ وَعُنُقِ الاِنْقِيادِ، فَإِنَّهُ أولى أنْ يَحْفَظَ عِزَّةَ وَشَرَفَ العِلْمِ، وَيُعْطي التَّزْيِيْنَ لِبازارِ بَيْعِ الكَلامِ بِأُسْلُوْبِ السُّكُوْتِ،

وَإِنْ لَمْ تُصِبْ في القَوْلِ فاسْكُتْ فَإِنَّما سُكُوْتُكَ عَنْ غَيْرِ الصَّوابِ صَوابُ

واجِبٌ بالحَدِيْثِ جَعْلُ الدُّرِّ بالنِّظام

وَإِلَّا فالبُكْمُ خَيْرٌ مِنْ قَوْلِ الكَلام

عَقْلُكَ نَصَحَكَ النُّصْحَ المُحْكَمْ

قُلْ القَول الجَمِيْلَ أو لا تتكَلَّمْ

بِتَوْفِيْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَدَدَ تَرِبِيَتِكَ وَمُعاوَنَةِ تَمْشِيَتِكَ، أنا واثِقٌ، أَنَّهُ مِنْ شرائِطِ آدابِ الحَضْرَةِ في رَبْطِ الحَدِيْثِ وَمُلْكِ عَرْضِ الحاجَةِ والمُحافَظَةِ على قِياسِ مواسِمِ التَّوْقِيْرِ والتَّحْقِيْرِ لَنْ يَذْهَبَ بالسُّفُولِ شَيْءٌ، *واللهُ المُسَهِّلُ لِذلِك*، البازُ مِنْ هُناكَ ذَهَبَ بِخِدْمَةِ العُقابِ، وَعلى الفَوْرِ عادَ راجِعاً، وَأَخَذَ مَعَهُ آزاد چهر،

صِفَةُ الجَبَلِ الَّذي كانَ مَوْطِنَ العُقابِ وَشَرْحُ مَجْلِسِهِ

حِيْنَ وَصَلَ إلى هُناكَ وَقَعَتْ عَيْنُهُ على جَبَلٍ بالعُلُوِّ والشِّدَّةِ بِحَيْثُ لِيَصِلَ لِذُرْوَةِ شاهِقِهِ حِسُّ الباصِرَةِ، بِعَشْرَةِ أماكِنَ في مَصاعِدِ عَقَباتِهِ يَسْتَرِيْحُ، وَمُراقِبُ الوَهْمِ في قَطْعِ مَراقي عُلُوِّهِ يَقْطِرُ العَرَقُ مِنْ جَبِيْنِهِ، وَحَبْلُ النَّظَرِ لا يُحِيْطُ بِمَوْضِعِ نِطاقِ خَصْرِهِ، وَسُلَّمُ الهَواءِ لا يَصِلُ إلى رُكْنِ سَقْفِ رِفْعَتِهِ، فَلَكُ البُرُوْجِ مِنَ الغَيْرَةِ مِنْهُ في مَحَلِّ مِنْطَقَةِ الجَوزاءِ عَقَدَ الزُّنَّارَ على الوَسَطِ، للشَّمْسِ مِثْلَ القَمَرِ في مَحَلِّ عُنْقُوْدِ الثُّرَيَّا وَقَعَتْ نارُ الحَسَدِ في الحَقْلِ،

الوَهْمُ مِنْهُ راحَ يَقَعُ وَيَنْهَضُ لَوْ راحَ خارِجاً
تَجْعَلُ العَقْلَ مِنْهُ خائِفاً مُرْتَجِفاً لَوْ أَعَطَيْتَهُ إشارَةً

وَخَرْقاءَ قَدْ تاهَتْ على مَنْ يَرُوْمُها بِمَرْقَبِها العالي وَجانِبِها الصَّعْبِ
يَزُرُّ عَلَيْها الجَوُّ جَيْبَ غَمامِهِ وَيُلْبِسُها عِقْداً بِأَنْجُمِهِ الشُّهْبِ
إذا ما سَرى بَرْقٌ بَدَتْ مِنْ خِلالِهِ كما لاحَتِ العَذْراءُ مِنْ خَلَلِ الحُجْبِ

البازُ بِرَسْمِ الحِجابَةِ تَقَدَّمَ للأمام، وَآزاد چهره بِشَرْطِ المُتابَعَةِ كانَ مِنْ خَلْفِهِ، وَيَقُولُ،

لِكُلٍّ إمامٌ أُسْوَةٌ يَقْتَدي بِهِ وَأَنتَ لِأَهْلِ المَكْرُماتِ إِمامُ

حَتَّى عَبَرا مِنْ مَدارِجِهِ وَمَعارِجِهِ، وَتَرَكا أَوْجَ الشَّمْسِ في حَضِيْضِ ظَلِّهِ، وَحِيْنَ وَضَعا قَدَمَ المَقْصَدِ أَعلى سَطْحِهِ، رَأَيا شاهَ الطُّيُوْرِ جالِساً مِثْلَ سُلَيْمانَ، وَقَدْ زُيِّنَ المَحْفَلُ والحَضْرَةُ مِثْلَ مَحَلِّ نُزْهَةِ الخُلْدِ، الشَّاهِيْنُ الَّذي كانَ أَمِيْرَ سِلاحِ جَوارِحِ الطُّيُوْرِ الأُخرى، سَحَبَ قُبَّعَةَ الذَّهَبِ على الرَّأْسِ، وَلَبِسَ ثَوْبَ الحَرْبِ المُنَقَّطَ المُكَوْكَبَ، وَنَهَضَ مِنَ المَجْلِسِ على يَدِ السَّلاطِيْنِ، وَوَقَفَ بالتَّفاخُرِ بِعُلُوِّ رَأْسِهِ، الطَّاوُوْسُ جَعَلَ المَرْوَحَةَ المَحِيْكَةَ مِنَ ذَهَبِ حِبالِ الأَجْنِحَةِ على الكَتِفِ، السَّقَّاءُ في القُبَّعَةِ مِنَ الأَدِيْمِ المُلَمَّعِ فَتَحَ رِباطَ سِقاءِ الحَوْصَلَةِ، ساحَةُ الحَضْرَةِ رُشَّتْ بالماءِ والجُلَّابِ، الزَّاغُ نَفَخَ نارَ خَدِّ التَّذْرُجِ، وَمَسَحَ وَجْهَ نَفْسِهِ بالدُّخانِ، الدَّرَّاجُ طَلَبَ السِّكِّيْنَ والكَبابَ والطَّبَقَ، قَيْثارَةُ مِنْقارِ البُلْبُلِ مِثْلَ المُوْسِيْقارِ عَزَفَتْ زَقْزَقاتِ الأَلْحانِ الغَرِيْبَةِ، الفاخِتَةُ عَزَفَتْ ضَرْبَ الطَّنْبُورِ مَعَ آلَةِ الطَّرَبِ الزُّرْزُور جَعَلَ حارّاً صَفِيْرَ أَلْحانِ أَلْفِ قِصَّةٍ وَقْتَ اللَّهْوِ والطَّرَبِ، صَوْتُ الأَذانِ مِنَ الدِّيْكِ وَصَلَ إِلى آذانِ الجالِسِيْنَ بِصَدْرِ صُفَّةِ المَلَكُوْتِ، اَلبَبَّغاءُ مُرْتَدِياً صُدْرَةَ الثَّوْبِ الحَجَرِيِّ واللَّوْنِ الفُسْتُقِيِّ يَجُرُّهُ على القَدَمِ نَثَرَ السُّكَّرَ بالعِبارَةِ وَشَرَعَ بِحِكايَةِ عَجائِبِ بَحْرِ بِلادِ الهِنْدِ، الهُدْهُدُ الَّذي كانَ رَسُوْلَ الحَضْرَةِ، كانَ لابِساً قَباءَ الحَرِيْرِ المُشَهَّرِ، وَقَدْ جَعَلَ مَضْمُوْنَهُ بِلِسانِ الطُّيُوْرِ على الرَّأْسِ، العُقْعُقُ مِثْلَ السَّفِيْرِ مَعَ القَباءِ الأَطْلَسِ الرُّوْمِيِّ جاءَ بالأَخْبارِ عَنِ الأَعْمالِ مِنْ أَطْرافِ العالَمِ، الحاضِرُوْنَ شَرَعُوا

بالفَأْلِ المُبارَكِ بِزَواجِرِ الطَّيْرِ، اَلْمَجِلِسُ مُزَيَّنٌ بِهذا السُّرُوْرِ، اَلبازُ على القاعِدَةِ السَّابِقَةِ ذَهَبَ للدَّاخِلِ، وَعَرَضَ حالَ مَجِيْءِ آزاد چهره بِخِدْمَةِ الحَضْرَةِ بِأَفْضَلِ ما كانَ مِنْ لِباسٍ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ شَخْصٌ مَرْضِيٌّ، وَمَخْلُوْقٌ لِخِدْمَةِ المُلُوْكِ، وَحَسَنُ المَقالِ وَعارِفٌ بالرَّسْمِ وَمُؤَدٍّ لِلْعَمَلِ وَذُو فَضْلٍ، جاءَ مِنْ مَكانٍ بَعِيْدٍ، جاءَ بِجَذْرِ المُؤالَفَةِ عَنْ ذاكَ المَسْكَنِ الَّذي كانَ يَمْلِكُ، وَتَرَكَ المَوْطِنَ والمَوْلِدَ، وَمِنْ شِدَّةِ هَواجِرِ أَحْداثِ الزَّمانِ، عَمِلَ الاِسْتِظْلالَ بِجَناحِ هذِهِ الدَّوْلَةِ، والتَجَأَ باسْتِذْراءِ هذا الجَنابِ الرَّفِيْعِ، إِذا كانَ المَلِكُ يُعْطي الأَمْرَ أنْ يَدْخُلَ، وَيَصِيْرَ مَخْصُوْصاً بِشَرَفِ تَقْبِيْلِ يَدِهِ، تَحَرَّكَتْ للشَّاهِ داعِيَةُ صِدْقِ الرَّغْبَةِ وَأَعْطى الأَمْرَ أنْ يَدْخُلَ،

اِتِّصالُ آزاد چهره بِخِدْمَةِ المَلِكِ والمُكالَماتُ الَّتي جَرَتْ بَيْنَهُما

آزاد چهره دَخَلَ، عَلَيْهِ مُرَقَّعَةٌ مِثْلَ سَجَّادَةِ الصُّوْفِيِّيْنَ غَيْرِ المُرَتَّبَةِ، مِنْ فُوْطَةٍ شابُورِيَّةٍ وَعُتَّابِيَّةٍ نَيْشابُورِيَّةٍ، جَعَلَ نَفْسَهُ بِها بِمَهارَةٍ، مُتَحَلِّيَاً بِتَأْدِيْبِ الذَّاتِ وَتَهْذِيْبِ الصِّفاتِ، جاءَ بِنَظَرِهِ مِثْلَ العَقْلِ المُلَخَّصِ والرُّوْحِ المُشَخَّصِ، وَوَصَلَ لِتَقْبِيْلِ اليَدِ، وَوَقَفَ مُتَأَثِّرَاً مِنْ حِمْلِ وَقارِ الحَضْرَةِ، ثُمَّ ذَهَبَ مُتَعَثِّرَاً في أَذْيالِ الدَّهْشَةِ، إلى مَقامِ التَّخَصُّصِ،

وَفَوْقَ السَّرِيْرِ ابْنُ المُلُوْكِ إذا بَدا   يَخِرُّ لَهُ مِنْ فَرْطِ هَيْبَتِهِ النَّاسُ
وَذاكَ مَقامٌ لا تُوَفِّيْهِ حَقَّهُ   إذا لَمْ يَنُبْ فِيْهِ عَنِ القَدَمِ الرَّاسُ

اَلبازُ بِرَسْمِ التَّثْبِيْتِ والعَوْنِ، فَتَحَ اللِّسانَ، وَجِهَةَ تَشْجِيْعِ آزاد چهره وَجَعْلِ مَجالِ التَّبَسُّطِ واسِعاً، أَطْلَعَ الصَّوْتَ وَقالَ،

كُلَّ ما لَبِسْتَ جَمِيْلٌ عَلَيْكَ مِثْلَ رِيْشِ الطَّاووس

كُلَّ ما قُلْتَ جَمِيْلٌ مِنْكَ مِثْلَ صَوْتِ العَنْدَلِيْب

بِحَمْدِ اللهِ كُلَّ ما تَأْمُرُ وَتُظْهِرُ قُدْوَةُ العَقْلِ وَقِبْلَةُ عُقَلاءِ العالَمِ، إِنْ كُنْتَ تَمْلِكُ نَصِيْحَةً وَوَصِيَّةً يَسْمَعُها الشَّاهُ، وَفي تَعْدِيْلِ الأُمُوْرِ وَتَقْوِيْمِ صِحَّةِ الأَحْوالِ تَجْعَلُ الجُمْهُوْرَ دائِماً بِأَمْرِ المَلِكِ، لا تَمْنَعْ ذاكَ، وقُلْ كُلَّ ما يَجِيْءُ أمامَ الخاطِرِ مِنْ كَشْفِ البَلْوى وَبَثِّ الشَّكْوى وَشَرْحِ الظُّلاماتِ وَعَرْضِ الحاجاتِ بِلا تَحاشٍ، فَمَجالُ الأَمَلِ واسِعٌ، وَسِجالُ الكَرَمِ فائِضٌ، آزاد چهر قالَ،

أَيْ مَنْ مِنْ إِنْصافِكَ صُوْرَةُ مِنْقارِ الحَجَلِ

تَصِيْرُ صُورَةَ مِقْراضٍ لَرِيْشِ وَجَناحِ العُقاب

العَقْلُ لا يَمْلِكُ العَجَبَ أَنْ تَصِيْرَ مِنْ عَدْلِكَ

حَبَّةُ التِّيْنِ والعِنَبِ الشِّباكَ لِحَلْقِ الغُراب

اِعْلَمْ أَنِّي أنا العَبْدُ كانَ لِيْ مِنْ زَمَنٍ بِعِيْدٍ الاِشْتِياقُ وَكُنْتُ أَمْلِكُ النَّعْلَ في النَّارِ مِنْ فِراقِ هذِهِ الحَضْرَةِ، وَكانَ عِنْدي خَيالُ خِدْمَةِ المَلِكِ، دامَ على الدَّوامِ مَفَرَّ مُشَرَّدي الحَوادِثِ وَمَقَرَّ مَجارِيْحِ المَكارِهِ، مُتَمَثِّلاً أَمامَ

عَيْنِ القَلْبِ، بَلْ إِنَّ القَلْبَ كانَ لِسِنِيْنَ يَتَصَوَّرُ النَّفْسَ قُدَّامَ القَوافِلِ، لِيَصِلَ إلى المَنْزِلِ وَيَجِيْءَ نازِلاً هُنا، وَهذا اليَوْمَ وَقَدْ قَطَعَ الجِبالَ المَرْحَلَةَ في المَرْحَلَةِ صُوْرَةً أَيْضاً، وَمِنْ بَعْدِ طَيِّ المَسالِكِ وَقَطْعِ المَمالِكِ، وَجَدَ المُشارَكَةَ مَعَ المَعْنى، وَفي هذِهِ العُبُوْدِيَّةِ أنا وَزَوْجي الاِثْنانِ مَعاً، إِيْزَد عَزَّ اِسْمُهُ وَتَعالى، أَوْصَلَنا مِنْ مُسَفِّ صُحْبَةِ وَرُؤْيَةِ مَنْ هُمْ بِصِفَةِ بُومِ الشُّؤمِ، إلى مَطارِ هِمَّةِ هذا الهَما مُبارَكِ الظِّلِّ، وَعَرْصَةِ الأَمَلِ المُنْفَسِحَةِ، أنا جاعِلٌ شِفاءَ جَمِيْعِ العِلَلِ وَسَدَّ كُلِّ خَلَلٍ في هذِهِ السُّدَّةِ المُنِيْفَةِ والعَقْوَةِ الشَّرِيْفَةِ، وَمِنْ شَرِّ المَكائِدِ وَآفَةِ المَصائِدِ، أنا أرى الرَّاحَةَ في حَوْزَةِ الاِحْتِماءِ في هذا الحَرَمِ لِلْكَرَمِ، وَأَنْ أَجْلِسَ فارِغاً، فَقَدْ قالُوا، الرَّعِيَّةُ شَبِيْهَةٌ بِأَطْفالٍ لَمْ يَبْلُغُوا، والمَلِكُ العادِلُ شَبِيْهٌ بالأُمِّ الَّتي مِنَ الماءِ والنَّارِ ما عَرِفَ الزَّمانُ لَهُمْ حافِظاً مِثْلَها،

بَنُوْ مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقاءِ كَأَنَّهُمْ أُسُوْدٌ لَها في غِيْلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ
هُمُ يَحْفَظُوْنَ الجارَ حَتَّى كَأَنَّما لِجارِهُمُ فَوْقَ السَّماكَيْنِ مَنْزِلُ

الشَّاهُ قالَ كُنْ مُطْمَئِنَّاً وَمُرْتاحاً، وَما دُمْتَ ارْتَبَطْتَ بَعْدَ عُبُوْرِ عَقَباتِ العُقُوْبَةِ إلى مُتَّكَإِ الاِسْتِراحَةِ وَمُلْتَجَإِ هذِهِ السَّاحَةِ، يَجِبُ عَمَلُ النَّقْلِ لِلأثاثِ والأَمْتِعَةِ والمَكْنُوْزِ والمُدَّخَرِ، مِنْ مَحْمُولاتِ الأَثْقالِ وَمَنْقُولاتِ

الأَحْمالِ، مِنَ المَنْزِلِ جُمْلَةً إلى المَحَلِّ الَّذي وَقَعَ لَكِ اخْتِيارُهُ، آزاد چهره قالَ،

حَيْثُما سِرْتُ لا أُخَلِّفُ رَحْلاً   مَنْ رآني فَقَدْ رَآني وَرَحْلي

ضَعْفُ حالي أنا العَبْدِ الضَّعِيْفِ لا يَزالُ غَيْرَ مَعْلُوْمٍ للرَّأْيِ العالي، وَمَنْزِلي كانَ دائِماً في مَعْرَضِ سَيْلِ الحَدَثانِ، وَفي مَعْرَضِ طُوْفانِ الطُّغْيان مِنَ الظُّلْمِ، وآنَذاكَ إذْ التَجَأْتُ إلى جُوْدِيِّ الكَرَمِ والجُوْدِ هذا، وَجَعَلْتُ عِصْمَةَ التَّمَنُّعِ بِهذا الحِصْنِ الحَصِيْنِ، وَجِئْتُ مِنْ مَضِيْقِ ذاكَ العُسْرِ وَتِلْكَ الخَيْبَةِ إلى فَضاءِ هذا اليُسْرِ وَقَضاءِ المُرادِ، فَإِنَّهُ طالَما كانَ ظَلَمَةُ الزَّمانِ عَرَّضُوني لَبَيْعِ مَنْزِلي، وَأنا عَنْ يَدِ نَهِبِهِمْ والخَوْفِ مِنْ غارَتِهِمْ كُنْتَ أَقْرَأُ، *لَيْسَ في البَيْتِ سِوى البَيْتِ*، بلى إنَّ لِيْ زَوْجَةً هِيَ أُمُّ أَطْفالي، قَلْبُها احْتَرَقَ بالحُزْنِ عَلَيْهِم، وَكَمْ وَجَدَتْ أمامَ العَيْنِ مِنْ عَيْنٍ وَسِراجٍ مَيِّتاً وَمَقْتُولاً، وَقَدْ جِئْتُ بِها مَعي، وَأَجْلَسْتُها ناحِيَةً، لِنَرى إشارَةَ الحَضْرَةِ مِنَ الطَّلَبِ أوِ الرَّدِّ وَمِنَ المُواساةِ أوِ الطَّرْدِ، على أَيِّ جُمْلَةٍ تَذْهَبُ، وَنَرى طالَعَ التَّحْوِيْلِ الَّذي عَمِلْنا، مِنْ مَطْلَعِ شَمْسِ الجَلالِ هَذِهِ، أَيَّ تَأْثِيرٍ يُظْهِرُ، قالَ المَلِكُ، اِبْقَ سَعِيْداً ما بَقِيْتَ هُنا، مَعَ الزَّوْجِ المُساعِدِ الَّتي لا أَجْمَلَ مِنْها زِيْنَةً لِلْمَعْصَمِ والسَّاعِدِ، أَجْلِسْها بِذاكَ المَكانِ الَّذي تَطْلُبُ بِحَرِيْمِ الأَمْنِ والاِسْتِقامَةِ، وَسِتارَةِ العافِيَةِ والعِفَّةِ، فَدَوْرُ الجَوْرِ لِنَجْمِ المِحْنَةِ وَصَلَ

لِلْنِّهايَةِ، وَجاءَتْ ظاهِرَةً النِّهايَةُ الحَسَنَةُ للزَّمانِ المُضْطَرِب، *وَإِنَّ البَلايا إِنْ تَوالَتْ تَوَلَّتِ*، آزاد چهره أَدَّى الخِدْمَةَ، وانْحَنى بالخُضُوْعِ وَدعا الدُّعاءَ الَّذي كانَ واجِبَ الوَقْتِ، وَرَجَعَ، وَصارَ إلى جِوارِ إِيْرا، وَأَوْصَلَ لَها حِكايَةَ الحالِ بِأَسْرِها مِنْ كُلِّ ما كانَ جَرى، وَأَعْطى الشَّرْحَ، أنْ حِيْنَ هُوَ وَجَدَ الطَّرِيْقَ لِحَضْرَةِ المَلِكِ، بِأَيِّ تَبْجِيْلٍ جَعَلَ تَلَقِّيْهِ، وَأَيَّ مِقْدارِ اهْتِزازٍ أَظْهَرَ بِوُرُوْدِهِ وَتلاقِيْهِ، وَكَيْفَ اعْتَبَرَ مَقْدَمَهُ مَغْنَماً، وبالنُّزُولِ مِنْهُ والوُصُولِ، وَصَلَ لِتَقْرِيْرِ أَيَّةِ أَبْوابٍ وَفُصُوْلٍ، إِيْرا مِنَ اسْتِماعِ ذاكَ الحَدِيْثِ، والاِسْتِبْشارِ بِتِلْكَ الحالَةِ، والاِسْتِظْهارِ بِحُصُولِ تِلْكَ الدَّالَّةِ، تَرَكَتِ النَّظَرَ لِمَحْصُولِ الحَياةِ السَّابِقَةِ، وَجَعَلَتِ النَّظَرَ على باقي الأَيَّامِ، أنْ بالوُصُولِ لِخِدْمَةِ ذاكَ الإِيْوانِ المَيْمُونِ، يَقْضِيانِ الصُّحْبَةَ في أَمانٍ مِنَ الحَوادِثِ، وَآنَذاكَ آزاد چهره وَإِيْرا، كِلا الاِثْنَيْنِ، *بِإِيْراءِ زَنْدٍ مِنَ العَزِيْمَةِ لا يَكْبُو أُوارُها، وَإِرْهافِ سَيْفٍ مِنَ الصَّرِيْمَةِ لا يَنْبُو غِرارُها*، أَخَذا بِذاكَ القَرارِ، أَنَّهُما في مَعاطِفِ كَنَفِ عاطِفَةِ وَدَوْلَةِ الشَّاهِ يَتَّخِذانِ المَسْكَنَ والمَأْوى، وَفي ذاكَ المَأْمَنِ يَجْعَلانِ القَلْبَ على الوَطَنِ،

رُجُوعُ آزاد چهره لِخِدْمَةِ الشَّاهِ وَإِيْرادُ النَّصائِحِ

آزاد چهره في اليَوْمِ الآخَرِ اتَّصَلَ بالخِدْمَةِ صَبِيْحَ الوَجْهِ نَجِيْحَ السَّعْيِ

وَضِيَّ المَنْظَرِ مَقْضِيَّ الوَطَرِ، بَسَطَ بِساطَ الثَّناءِ، وَأَوْصَلَ لِسَماءِ الإِجابَةِ الدُّعاءَ، وَقالَ،

كُلُّ عُمْري وَشُغْلي يَنْقَضي جَمِيْلاً
في خِدْمَتِكَ، كانَ كُلُّ عُمْرِكَ جَمِيْلاً

اَلآنَ صارَ لِيَ الزَّمانُ مُساعِداً   وَوَصَلْتُ فِيْكَ حَبائِلَ الآمالِ
فَبَلَغْتُ غاياتِ الأماني دُوْنَكُمْ   وَأَرَحْتُ مِنْ حَطٍّ وَمِنْ تِرْحالِ

ثُمَّ إنَّ الشَّاهَ عَمِلَ اسْتِعْطافاً جَدِيْداً وَقَدَّمَ تَرْحِيْباً جَدِيْداً وَجَعَلَ المَكانَ خالِياً مِنْ حُضُورِ الأَغْيارِ، وَقالَ لَهُ، رَغْمَ أَنَّ الباز نَدِيْمٌ قَدِيْمٌ وَمُنادِمٌ مُلازِمٌ وَمُناجٍ مُنْجٍ وكافٍ بِجَمِيْعِ الخَيْراتِ مُكافٍ، وَأنا مِنْ جَمِيْعِ خُلَصاءِ الدَّوْلَةِ، إِلَّا بِآثارِ مَقاماتِهِ الحَمِيْدَةِ لا يَزِيْدُ لِيَ السُّرُوْرُ، وَمِنْ جُمْلَةِ جُلَساءِ الحَضْرَةِ إِلَّا بِمُحاضَراتِهِ لا أَكُوْنُ راغِباً، لكِنْ بِما أَنَّهُ ما بَيْنَكُما نِسْبَةُ حالِ المُتَحابَّيْنِ هكذا مُتَأَكِّدَةٌ، وَقَدْ صارَ حاصِلاً لَنا الوُقُوْفُ على جَلِيَّةِ حالِكَ وَأَهْلِيَّةِ كَمالِكَ، وارْتَفَعَ التَّوَقُّفُ، وَذاكَ الَّذي تَطْلُبُ مِنَ الصَّلاحِ، وَتَجْمَعُ مِنَ الصَّوابِ، في كُلِّ بابٍ كما كُنَّا سَمِعْنا عَنْكَ رَأَيْناكَ، *جاءَ العِيانُ فَأَلْوى بالأَسانِيْدِ*، اَلآنَ أُرِيْدُ أنَّكَ تَقُولُ بِضْعَ كَلِماتٍ، عَنْ ضَوابِطِ أُمُوْرِ المَصْلَحَةِ فِيْما يَتَعَلَّقُ بِمَناظِمِ الدِّيْنِ والدُّنْيا وَمَعاصِمِ الآخِرَةِ والأُولى، حَتَّى أَعْقِدَ العَمَلَ لِذاكَ، وَأَقْبَلَ المِنَنَ على ذاكَ،

وَصِيَّةُ آزاد چهره وَخَتْمُ الكِتاب

آزاد چهره قالَ، لِلْحَقِّ عَزَّ اِسْمُهُ وَتَعالى عامِلانِ بالأَمْرِ مُوَكَّلانِ بِعِمارَةِ الدّارَيْنِ، واحِدٌ هُوَ العَقْلُ والآخَرُ الشَّرْعُ، إِذا أَرَدْتَ أَنْ تَكُوْنَ كِلا الدّارَيْنِ مَعْمُوْرَتَيْنِ، فَيَجِبُ الكَوْنُ تَحْتَ يَدِهِما وَمِطْواعاً لَهُما، اَلْعَقْلُ الَّذي هذا المَعْمَلُ بِحُكْمِهِ، يَسْعى دائِماً في تَرْتِيْبِ مَعاشِ هذا العالَمِ، وَيَأْمُرُ بِحَمْلِ الأَلَمِ في أَمْرِ الأَسْبابِ، كما قالَ ذاكَ الرَّجُلُ البُسْتانِيُّ لِخَسْرو، الشّاهُ قالَ، كَيْفَ كانَتْ تِلْكَ القِصَّةُ،

قِصَّةُ الرَّجُلِ البُسْتانِيِّ مَعَ خَسْرو

آزاد چهر قالَ سَمِعْتُ أَنَّ خَسْرُو ذَهَبَ يَوْماً خارِجاً للتَّنَزُّهِ بالصَّحْراءِ، رَأى بُسْتانِيّاً رَجُلاً شَيْخاً مُعَمِّراً، كانَ يَمْلِكُ مَدِيْنَةَ الوُجُوْدِ، وَقَدْ جَعَلَ الوَجْهَ لِلْخَرابِ، وَصارَ بالذَّهابِ والإِيابِ، الحواسُّ آخِذَةُ الخَبَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَبْوابٍ عَجِزَتْ، والطَّواحِنُ الاِثْنَتانِ والثَّلاثُونَ جَمِيْعاً الواحِدَةُ بِجانِبِ الأُخْرى تَوَقَّفَتْ عَنِ العَمَلِ، لكِنَّ غُصْنَ أَمَلِهِ في خَرِيْفِ عُمُرِهِ وَتَساقُطِ أَوْراقِ عَيْشِهِ، كانَ يُطْلِعُ بَراعِمَ طَرِيَّةً جَدِيْدَةً، وَعَلى شَفَةِ عَيْنِ حَياتِهِ، مِنْ بَعْدِ ذَهابِ ماءِ الطَّراوَةِ كانَ يَنْبُتُ خَطٌّ أَخْضَرٌ، في أُخْرَياتِ مَراتِبِ الشَّيْخُوْخَةِ كانَ يَزْرَعُ شَجَرَةَ تِيْنٍ، خَسْرُو قالَ، أَيْ شَيْخَ الجُنُونِ الَّذي نَهَضْتَ مِنْ شُعْبَةِ الشَّبابِ في مَوْسِمِ الصِّبى وَجَعَلْتَ الاِبْتِداءَ في فَصْلِ المَشِيْبِ، إِنَّهُ الوَقْتُ أَنَّكَ تَقْتَلِعُ جَذْرَ العلائِقِ مِنْ

هذا المَنْبَتِ الخَبِيْثِ، وَتَزْرَعَ الشَّجَرَةَ في الجَنَّةِ المُبهِجَةِ العامِرَةِ، ما مَحَلُّ هذا الهَوى الفاسِدِ والهَوَسِ الباطِلِ، هذِهِ الشَّجَرَةُ الَّتي تَزْرَعُ اليَوْمَ مِنْ أَيْنَ لَكَ أَنْ تَقْدِرَ أنْ تَأْكُلَ ثَمَرَها، الشَّيْخُ قالَ، الآخَرُوْنَ غَرَسُوا وَنَحْنُ أَكَلْنا، وَنَحْنُ نَغْرِسُ لِيَأْكُلَ الآخَرُونَ،

لَقَدْ زَرَعُوا وَأَكَلْنا وَنَزْرَعُ وَيَأْكُلُوْن   إِذا نَظَرْتَ كُلُّنا الواحِدُ لِلآخَرِ زارِعُوْن

خَسْرُو مِنْ وُفُوْرِ عِلْمِهِ وَحُضُوْرِ جَوابِهِ أَظْهَرَ تَمامَ العَجَبِ، قالَ أَيْ شَيْخُ إذا أَبْقَوْكَ في هذا البُسْتانِ مَنْزِلِ الكَوْنِ والفَسادِ الوَقْتَ الكَثِيْرَ، كَيْ تَجْلِبَ لي مِنْ شَجَرَةِ الفاكِهَةِ هذِهِ تُحْفَةً، أَهَبُ لَكَ خِراجَ هذا البُسْتانِ، اَلْقِصَّةُ، الأَمَلُ وَصَلَ بالوَفاءِ، الشَّجَرَةُ جاءَتْ بالثَّمَرِ، وَحَمَلَ التُّحْفَةَ لِلْمَلِكِ، وارْتَبَطَ الوَعْدُ بالإنْجاز، أنا قُلْتُ هذِهِ القِصَّةَ مِنْ أَجْلِ ذاكَ، أنْ عِمارَةُ هذِهِ المَزْرَعَةِ مُفَوَّضَةٌ لَكَ، فلا تَدَعْهُمْ يَتَرُكُوْنَها بِلا عِمارَةٍ، ولا يَجْعَلُوا الخَزانَةَ مَعْمُوْرَةً إِلَّا بِمَدَدِ رَيْعٍ يَنْهَضُ مِنَ الزِّراعَةِ، وَحِيْنَ المَلِكُ يَذْهَبُ على هذِهِ السُّنَّةِ وَهذِهِ السِّيْرَةِ، وَيَكُوْنُ انْتِهاجُ سَبِيْلِهِ على هذِهِ الوَتِيْرَة، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ لِلْجَيْشِ والأَتْباعِ، إِلَّا اتِّباعُ مراسِمِهِ، مِنْ حِيْلَةٍ أُخْرى، ثُمَّ تَبْقى الرَّعِيَّةُ آمِنَةً، والخِزانَةُ مُسْتَغْنِيَةً والمُلْكُ عامِراً، لا يَجُوْزُ جَعْلُ الخَرْجِ لِلْمَلِكِ مِنْ كِيْسِ المَظْلُوْمِيْن، فَيَقَعَ مَلُوْماً وَمَذْمُوْماً في أَفْواهِ الخَلْقِ، بِيَدٍ خاطِبَةٍ وَبِأُخْرى عاطِبَةٍ، وَأَمَّا الشَّرْعُ فَقَدْ أَسْلَمُوا لَهُ المَعْمَلَ الآخَرَ، أَقِلَّ الغَمَّ لِهذِهِ المَزْرَعَةِ وَخَرابِها

وَعَمارَتِها، وَلَوْ أَعْطَوْهُ الدُّنْيا وما فِيْها أَوْ أَخَذُوها مِنْهُ، لا يَنْظُرُ لِذاكَ مِنْ زاوِيَةِ عَيْنِ الهِمَّةِ، ولا يَتْرُكُ شَيْئاً لِيَأْخُذَهُ الآخَرُوْن، ولا يَتْرُكُ ذَخِيْرَةً لِيَأْكُلَها الآخَرُوْن، والمُصْطَفى صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ هكذا قَرَّرَ، اَلْوَيْلُ كُلُّ الوَيْلِ لِمَنْ تَرَكَ عِيالَهُ بِخَيْرٍ وَقَدِمَ على رَبِّهِ بِشَرٍّ، وَغايَةُ طَلَبِهِ لَيْسَ غَيْرَ اللَّذَّةِ الباقِيَةِ مِنْ مُطالَعَةِ عالَمِ القُدُسِ، والبَهْجَةِ الدَّائِمَةِ مِنْ قُرْبِ جِوارِ الجَبَرُوْتِ، حذارِ أَيْ شاهُ فَأَنتَ هُنا حَيْثُ جَلَسْتَ لَا تَكُوْنُ ثابِتاً، فَإِنَّكَ لَوْ كُنْتَ على قَلْعَةٍ مُتَمَكِّنَةٍ رَبَضُها واصِلٌ قُبالَةَ قُلَّةِ الفَلَكِ، لا تَمْتَنِعُ مِنْ قارُوْرَةِ الدَّعْوَةِ الَّتي تُلْقى عَلَيْها في السَّحَرِ، *واتَّقُوا مِنْ مَجانِيْقِ الضُّعَفاءِ*، تَنْذِيْرٌ وَتَحْذِيْرٌ، جُعِلا لِساكِني أَعالي المَعالي، وَقْتَ لِبازِ شاهِ السَّلْطَنَةِ عالي الطَّيَرانِ يَتَحَرَّكُ جَرَسُ النَّشاطِ، وَيَجْعَلُ كُلَّابَةِ المَخْلَبِ في قَبْضَةِ قَوْسِ رَمْيِ الصَّيْدِ، وبالطَّالَعِ المُبارَكِ والطَّائِرِ المَيْمُوْنِ يَذْهَبُ يَخْتالُ لِمَوْضِعِ الصَّيْدِ بالدَّلالِ، يَجِبُ أَلَّا يَكُوْنَ لِنُقَباءِ مَوْكِبِ العَزِيْمَةِ نِسْيانُ وَصِيَّةِ، *اُدْخُلُوا مَساكِنَكُم*، حَتَّى فِراخُ الطُّيُوْرِ الصَّغِيْرَةُ، الَّتي إِلى الآنَ ما رُبِّيَتْ في بَيْضَةِ مُلْكِكَ، ولا تَرَعْرَعَتْ تَحْتَ أَجْنِحَةِ حِمايَتِكَ، مِنْ مَواطِئِ الجَيْشِ وَمَخاطِئِ الحَشَرِ لا تَصِيْرُ مَسْحُوْقَةً بِأَقْدامِ القَهْرِ، كَيْ لا يَجْعَلُوْا مِنْ لَحْمِ هذا الضَّعِيْفِ المِسْكِيْنِ الَّذي هُوَ العُصْفُوْرُ مادَّةً للشَّهْوَةِ وَمَدَداً لِقُوَّةِ التَّناسُلِ مِنْ أَجْلِ قَضاءِ شَهْوَةٍ، لا يَجِيْءُ دَمُها في رِقابِهِمْ، وَلا يَكُوْنُ عُرْضَةً في دِيْوانِ العَرْضِ للاِسْتِماعِ لِتَشْنِيْعِ وَتَعْيِيْرِ لِسانِ العَصافِيْرِ كما جاءَ في الخَبَرِ

الصَّحِيْحِ، *مَنْ قَتَلَ عُصْفُوراً عَبَثاً جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ وَلَهُ صُراخٌ عِنْدَ العَرْشِ يَقُولُ يا رَبِّ سَلْ هذا لِمَ قَتَلَنـي مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ*، واعْلَمْ أَنَّ الغَيْرَةَ الإلهِيَّةَ بِعَكْسِ ما هُوَ في الأَفْواهِ مَشْهُوْرٌ، تَجْعَلُ كَثْرَةَ التَّوالُدِ نَصِيْبَ الضُّعَفاءِ، وَتَجْعَلُ أَعْقابَ المُتَغَلِّبِيْنَ أَقْوِياءِ الحالِ مَقْطُوْعَةً بِخَنْجَرِ العُقُوْبَةِ،

بُغاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُها فِراخاً   وَأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُوْرُ

وَعلى الشَّاهِ أَلَّا يَكُوْنَ غافِلاً عَنْ حِيازَةِ خَمْسَةِ خِصالٍ، حَتَّى يَكُوْنَ سابِقاً باللَّعِبِ لِلْمُلُوكِ الآخَرِيْنَ، أَوَّلاً أَنْ يَعْمَلَ الجُوْدَ والإِمْساكَ بالقَدْرِ، فلا يَتْرُكُ مِيْزانَ العَدالَةِ مِنَ اليَدِ، ثانِياً أَنْ يَحْفَظَ لِلْغَضَبِ والرِّضا الأَوانَ والمَقامَ، وَأَنْ يَصُوْنَ عِرْضَ النَّفْسِ مِنْ نُقْصانِ وَضْعِ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، الثَّالِثَةُ أَنْ يَقُوْمَ بِتَرْجِيْحِ صَلاحِ خاصَّتِهِ على صَلاحِ العامَّةِ، والرَّابِعَةُ أَنْ لا يَجْعَلَ يَدَ الاِسْتِعْلاءِ لِلْجَيْشِ مَبْسُوْطَةً على الرَّعِيَّةِ، والخامِسَةُ أنْ يَجْعَلَ العِلْمَ عِنْدَهُ مَطْلُوْباً أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، وَأَنْ يَكُوْنَ طالِباً لِلْعالِمِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ،

إِذا مَلَكَ عَنْ كُلِّ عِلْمِ الخَبَرَ   مَلِكُ العالَمِ بَقِيَ مَعَ العِزِّ
تاجُ خَسْرو بِذاكَ صارَ عالِياً   إِذْ صارَ عِنْدَهُ العالِمُ عَزِيْزاً
مِنْ كُلِّ ما مَلَكْتَ بالكَفِّ مِنَ الزَّمانِ   بالعالَمِ يَبْقى الحَدِيْثُ ذِكْرى وَحَسْبُ
حِيْنَ يَصِيْرُ الحَدِيْثُ مُتَّصِلاً جَمِيْعاً   يُجَدِّدُ الحَدِيْثُ القِصَّةَ القَدِيْمَةَ

الخَيْرُ والشَّرُّ يَعْبُرانِ عَنَّا لا يَلِيْقُ   بِمَنْ مَلَكَ العَقْلَ أنْ يَكُوْنَ بالغَمِّ
جَعَلَ العالِمُ رُوْحَكَ مُضِيْئَةً   وَجَعَلَ العَقْلَ أمامَ رُوْحِكَ جَوْشَناً

حِيْنَ أَوْصَلَ الحَدِيْثَ إلى هذا المَقْطَعِ، المَلِكُ أمَرَ أنْ يَأْخُذَ آزاد چهره زِمامَ التَّصَرُّفِ والتَّدَبُّرِ في تَدْبِيْرِ الدِّيْوانِ والإيْوانِ بِيَدِ كِفايَةِ النَّفْسِ، وَأَنْ يَعْرِفَهُ جَمِيْعُ كُفاةِ وَرُعاةِ المُلْكِ والدَّوْلَةِ الوَزِيْرَ والدَّسْتُورَ لِلْمَمالِكِ،

فَيا حُسْنَ الزَّمانِ فَقَدْ تَجَلَّى   بِهذا اليُمْنِ والإِقْبالِ صَدْرُهْ
فَقُلْ في النَّصْلِ وافَقَهُ نِصابٌ   وَقُلْ في الجَوِّ أَشْرَقَ مِنْهُ بَدْرُهْ

حَفِظَ إِيْزَد تَعالى ظِلَّ صاحَبِ العالَمِ، مَلِكِ بَني آدَمَ، أتابِك الأَعْظَم مُظَفَّرَ الدُّنيا والدِّيْنِ أَزْبَك بن مُحَمَّد بن إيلدگز، مُمَتَّعاً بالأفْكارِ الجَمِيْلَةِ في أَمْرِ الدِّيْنِ والدَّوْلَةِ، وَقَدْ قَرَأَ سِرُّ ضَمِيْرِهِ، *رَبِّ اشْرَحْ لِيْ صَدْرِيْ*، وَدَعا دُعاءَ، *واجْعَلْ لي وَزِيْراً مِنْ أَهْلِيْ هارُوْنَ أَخِيْ*، حَتَّى مِنْ جُلُوْسِ سَيِّدِ العالَمِ رَبِيْبِ الدُّنيا والدِّيْنِ، مُعِيْنِ الإِسْلامِ والمُسْلِمِيْن، أبو القاسِمِ هارون بن علي وندان في صَدْرِ الوَزارَة، يَرْتَبِطُ هذا الدُّعاءُ بالإِجابَةِ، وَعَقْدُ الأُخُوَّةِ ذاكَ المَعْقُوْدُ في الأزَلِ مَعَ تَفْوِيْضِ هذِهِ الوَزارَةِ مِنْ مَشِيْمَةِ مَشِيْئَةِ القُدْرَةِ يَجِيْئانِ تَوْأَمَيْنِ، اَللَّهُمَّ اشْدُدْ بِهِ أَزْرَهُ، وَحُطَّ عَنْهُ وِزْرَهُ، والحَمْدُ للهِ حَمْداً كَثِيْراً والصَّلاةُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

ذَيْلُ الكِتابِ

اَلآنَ واجِبٌ العِلْمُ لِلْمُحَقِّقِيْنَ صادِقِي القَوْلِ لا لِلْمُتَأَمِّلِيْنَ طالِبِي العَيْبِ، وَتَأَمُّلُ العَيْبِ عَيْبٌ، أنَّ أكْثَرَ هذِهِ الدَّفاتِرَ الَّتي عُمِلَتْ في العَجَمِ، خاصَّةً عُمِلَتْ على أَساسِ *كَلِيْلَة*، الَّذي وُضِعَ على سِياقٍ واحِدٍ، وَسِيْقَ حَدِيْثُهُ على مَساقٍ واحِدٍ، وَإِنْ كانَ لِمُنْشِئِ وَمُبْدِعِ ذاكَ بِفَضْلِ التَّقَدُّمِ بَلْ بِتَقَدُّمِ الفَضْلِ رَجَحانٌ شائِعٌ، إِلَّا أَنَّ ذاكَ شَبِيْهٌ بِحَدِيْقَةٍ فِيْها ما هُوَ مَعْسُولٌ لِلأَذواقِ وَمَقْبُولٌ لِلطِّباعِ، إِلَّا أَنَّكَ لا تَقْدِرُ تَجِدُ فِيْهِ إِلَّا فاكِهَةً واحِدَةً، وَهُوَ شَبِيْهٌ بِذاكَ البُسْتانِ الَّذي، وَإِنْ كانَ يَجْعَلُ المَشامَّ مُعَطَّرَةً والأَدْمِغَةَ مُعَنْبَرَةً، لا يُمْكِنُ الوُصُوْلُ فِيْهِ لِأَكْثَرَ مِنْ رَوْحِ نَسِيْمِ رَيْحانٍ، والَّذي عَمِلَ هذا العَبْدُ مُشْتَمِلٌ على عِدَّةِ أَنْماطٍ مِنْ أَسالِيْبِ تَزْيِيْنِ الحَدِيْثِ، وَتَرْبِيَةِ العِبارَةِ، فهذا شَبِيْهٌ بِجَنَّةٍ مَمْلُوْءَةٍ مِنْ أَلْوانِ أَزاهِيْرِ المَعْنى، وَأَشْكالِ رَياحِيْنِ الأَلْفاظِ، وَأَجْناسِ فَواكِهِ النُّكَتِ، وَأَنْواعِ ثِمارِ الإِشاراتِ، وَلِكُلِّ حِسٍّ مِنْ أَفْرادِ ذاكَ حِصَّةٌ، وَلِكُلِّ ذَوْقٍ مِنْ آحادِ ذاكَ نَصِيْبٌ، *فِيْها ما تَشْتَهِيْهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ*، وَبِهَذِهِ الخَصائِصِ الَّتي ذُكِرَتْ يَجِيْءُ مُنْفَرِداً عَنْ جُمْلَةِ تِلْكَ الكُتُبِ، أَوَّلاً أَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ تَجِدَ بِهِ أَبَداً شَيْئاً مِمَّا يَمَجُّهُ السَّمْعُ وَتَأْباهُ النَّفْسُ مِنْ شَوارِدِ الأَلْفاظِ وَبَوارِدِ الكَلِماتِ غَيْرِ المُسْتَعْمَلَةِ مِنَ العَرَبِيَّةِ، والثَّاني أَنَّهُ كانَ مُحْتَرِزاً مِنَ الأَمْثالِ وَشَواهِدِ الأَشْعارِ العَرَبِيَّةِ والفارِسِيَّةِ الَّتي

كانَ الآخَرُوْنَ قَدْ أورَدُوها في كُتُبِهِم، فَلَمْ يَجِئْ بِاسْتِعْمالِ المُسْتَعْمَلِ مُجَدَّداً، وَإِلَّا على سَبِيْلِ النُّدْرَةِ، لَمْ يَعْمَلِ الاِسْتِشْمامَ لِأورادٍ شُمَّتْ أوْ لُمِسَتْ مِنْ يَدِ الآخَرِيْن، والثَّالِثُ أَنَّهُ في مَوْضُوْعٍ مُعَيَّنٍ بِعَيْنِهِ، قُلْتُهُ في مَواضِعَ كَثِيْرَةٍ، وَجَعَلْتُهُ مَجْلُوَّاً بِأَوْصافٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَيَّةُ كَلِمَةٍ، إِلَّا ما شاءَ اللهُ، مِنْ سَوابِقِ الكَلِماتِ لَمْ تَصِرْ مُكَرَّرَةً، وهُناكَ الخاصِّيَّاتُ الجُزْئِيَّةُ الأُخْرى الَّتي يُمْكِنُ أنْ يَصِيْرَ الكَثِيْرُ مِنْها مَعْلُوماً لِبالِغِي النَّظَرِ وَدَقيقي الرُّؤْيَةِ بِوَقْتَ مُطالَعَةِ دَقائِقِ ذاكَ، وَإِذا شَخْصٌ مِنَ القُرَّاءِ جَعَلَ الفِكْرَ مُوَكَّلاً بِمَقامٍ أوْ مَقامَيْنِ وَتَرَكَ الباقي وَلَمْ يَصِلْ بالمُطالَعَةِ المُسْتَوْفاةِ مِنَ الصَّدْرِ إلى العَجُزِ، يَفُوْتُهُ كَثِيْرٌ مِنْ نَوادِرِ النُّكَتِ وَصَوادِرِ النُّتَفِ مِنْ كَرائِمِ خِدْرِ الخاطِرِ وَلَطائِمِ عِطْرِ العِبارَةِ، *حَفِظْتَ شَيْئَاً وَغابَتْ عَنْكَ أَشْياءُ*، وَصَلْنا إلى رَأْسِ المَقْصُوْد، باعِثُ تَحْرِيْرِ هذا الفَصْلِ الَّذي مِنُهُ يَصِيْرُ كُمُّ مَفاخِرِ الكُتَّابِ مُطَرَّزاً، وَتَرْتِيْبِ هذا الوَصْلِ الَّذي مِنْهُ يَصِيْرُ آخِرُ هذا الكِتابِ مُفَرْوَزاً، هُوَ ذِكْرُ مُوْجِبِ التَّأَخُّرِ الَّذي جاءَ في طَرِيْقِ إِنْجازِ ذاكَ، وَكَشْفُ عُقْدَةِ التَّعَسُّرِ الَّتي وَقَعَتْ لِذاكَ العَمَلِ، وَإِيْصالُ هذا العُذْرِ مِنْ لِسانِ إِملاءِ الحالِ بالإِيْلاء، وَذاكَ أَنَّ السَّيِّدَ، سَيِّدَ العالَمِ رَبِيْبَ الدُّنيا والدِّيْنِ مُعِيْنَ الإِسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ، عَزَّ نَصْرُهُ وَوُقِيَ مِنْ غِيَرِ العَصْرِ عَصْرُهُ، كانَ التَّوْفِيْقُ دائِماً رَفِيْقَ طَرِيْقِ مَساعِيْهِ، في كُلِّ مَنْزِلٍ وَضَعَ فِيْهِ القَدَمَ، لَهُ كِتابُ فَتْحِ، *وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ*، مَعْلُوْمٌ لَهُ أَنَّهُ

لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ خَلَفٌ أَكْرَمَ ولا مُخَلَّفٌ أَفْضَلَ مِنَ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ، إِذْ نَقْشُ مَحامِدِ ذاكَ يُنْقَشُ على صَحائِفِ الذِّكْرِ، *وَذَهَبَتِ المَكارِمُ إِلَّا مِنَ الدَّفاتِرِ*، وَمَعْلُوْمٌ بِلا شُبْهَةٍ أَنَّهُ لِلجاهِلِيْنَ المُسَوِّفِيْنَ والواهِنِيْنَ المُتَوَقِّفِيْنَ ، مِنْ تَأجِيْلِ الآمالِ مَعَ تَعْجِيْلَ الحَوادِثِ لا تَطْلُعُ الأعْمالُ،

الزَّمانُ سَوْفَ يَأْخُذُهُمْ سَرِيْعاً   إذا عَمِلُوا في ذاكَ أَيَّ تَأْخِيْرٍ

لا جَرَمَ مِنْ خالِصِ النِّيَّةِ والطَّوِيَّةِ يَصِيْرُ مُثْبَتاً في جَرِيْدَةِ مَحاسِنِ الأَعْمالِ، مَبَرَّةً عُظْمى، وَحَسَنَةً فُضْلى، وَتَصِيْرُ حُجَجُ الآَخِرَةِ بِذاكَ مُسَجَّلَةً، آخِراً، جَوامِعُ فِكْرِهِ المُبارَكِ جاءَتْ مَقْصُوْرَةً على جامِعِ تَبْرِيْز، فَأَمَرَ أَنْ يُوْضَعَ في دارِ الكُتُبِ، كَوِعاءٍ مُلِئَ لُطْفاً، وَظَرْفٍ حُشِيَ ظَرْفاً، مُرَبٍّ للرُوْحِ وَرَوْحانِي، مُزَيَّنٌ بِحُسْنِ تَرْتِيْبِ المَباني، كما لَوْ قُلْتَ ساكِنُو رُواقِ البَيْتِ المَعْمُوْرِ قامُوا بِتَحْسِيْنِ عِمارَةِ ذاكَ، مِنْ هذِهِ العِبارَةِ لا يَجِيْءُ لازِماً الإِسْتِغْفارُ، فَما تَلَقَّاها إِلَّا ذُوْ مَقامٍ كَرِيْمٍ، ولا يُلَقَّاها إِلَّا ذُوْ حَظٍّ عَظِيْمٍ، وإِذا كانَ السَّابِقُوْنَ الآَخَرُونَ في العُهُوْدِ المُتَقادِمَةِ قَدَّمُوا تَبَرُّعاً لِلْجامِعِ، وَعَمِلُوا مَخازِنَ كُتُبٍ مِنْ هذا الجِنْسِ بالمَوْضِعِ عَيْنِهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كانَتْ مَعاقِدُ نَظْمِ ذاكَ واهِيَةً، وَشَرائِطُ شَمْلِ ذاكَ لَمْ تَكُنْ مَرْعِيَّةً، وَصَلَتْ يَدُ تَطاوُلِ الزَّمانِ سَرِيْعاً لِتَبْدِيْلِ وَتَفْرِيْقِ ذاكَ، *وَكَذاكَ عادَ إلى الشَّتاتِ جُمُوْعُها*، فَمِنْ مَواتِ ذاكَ الخَيْرِ لَمْ يَبْقَ اليَوْمَ إِلَّا الرَّمِيْمُ والرُّفاتُ، والقائِمُوْنَ بالرَّفْوِ لِهذا البِساطِ

الأَغْبَرِ والسِّتارِ الأَخْضَرِ، لَمْ يَجْمَعُوا الأَجْزاءَ المُخَرَّقَةَ لِذاكَ إِلَّا بِنَسْجِ العَنْكَبُوتِ، وَبِحَمْدِ اللهِ وَمَنِّهِ، كُلُّ نُسْخَةٍ مِنْ هذِهِ النُّسَخِ، جَعَلَها اللهُ مِنَ الباقِياتِ في صالِحاتِ أَعْمالِهِ، حِلْيَةُ وَجْهِ ذاكَ بِالحَقِيْقَةِ عواطِلٌ، وَبَياضُ غُرَّةِ تِلْكَ المَنْسُوْخاتِ باطِلٌ،

وَصَفْتُكَ في قَوافٍ سائِراتٍ وَقَدْ بَقِيَتْ وَإِنْ كَثُرَتْ صِفاتُ

أَفاعِيْلُ الوَرى مِنْ قَبْلُ دُهْمٌ وَفِعْلُكَ في فِعالِهِمُ شِياتُ

والحَقُّ أَنَّهُ في هذِهِ الحَظِيْرَةِ لِلأُنْسِ، لا بَلْ حَدِيْقَةِ القُدْسِ، جَمَعُوا كُلَّ غُرَرِ وَأَوْضاحِ التَّصْنِيْفاتِ، وَعَمِلُوا حَشْرَ أَرْواحِ التَّأْلِيْفاتِ، وَجَمَعُوا شُعَبَ كُلِّ العُلُوْمِ، وَأَفْنانَ جُمْلَةِ الفُنُوْنِ، فَخَواصُّ وَعَوامُّ الخَلْقِ بِإِفادَةِ واسْتِفادَةِ ذاكَ مُحْتاجُونَ، أَوَّلاً مِنَ العَرَبِيَّةِ، وَأَقْسامُ تِلْكَ مُشْتَمِلَةٌ على المُرَكَّباتِ والمُفْرَداتِ والنَّحْوِ والتَّصْرِيْفِ الَّذي مِنْ دُوْنِهِ لا يُمْكِنُ تَرْوِيْضُ المَرْكَبِ العَرَبِيِّ بِأَيِّ سَوْطٍ، وَأَنْواعُ البَراعَةِ والبَلاغَةِ نَظْماً وَنَثْراً، فَفي قالَبِ كُلِّ صِياغَةٍ مِنْ ذاكَ جُعِلَ سَبْكٌ آخَرُ مُخْتَلِفٌ، وَقَدْ وَقَعَ تَعَلُّقُ كُلِّ ذَوْقٍ وامْتِزاجُ كُلِّ طَبْعٍ، بِنَوْعٍ آخَرَ خاصٍّ، وفي ذاكَ المَذْهَبِ الَّذي مَدارُ مَصْلَحَةِ العالَمِيْنَ عليهِ، وَلِحُكَّامِ الشَّرِيْعَةِ انْتِماءُ الأَحكامِ بِفُرُوْعِ وَأُصُوْلِ ذاكَ ثابِتٌ، ما بَيْنَ المُتَغَلِّبِيْنَ طالِبِي الفُضُولِ، والمُنْتَهِيْنَ صادِقِي القَوْلِ، في أَثْناءِ فَرْقِ الحَقِّ عَنِ الباطِلِ سَيْفٌ فاصِلٌ، وَفي عِلْمِ الكَلامِ الَّذي هُوَ إِثْباتُ وُجُوْدِ الصَّانِعِ وَقِدِمِ ذاتِهِ، مَعَ

كَوْنِهِ فاعِلاً مُخْتاراً بِخِلافِ ما يَقُولُ الظَّالِمُونَ، تَعالى عَنْهُ عُلُوّاً كَبِيْراً، وَبَيانُ حُدُوْثِ العالَمِ على سَبِيْلِ الإِيْجادِ بَرِيْئاً عَنِ الصُّوْرَةِ والهَيُولى، وَتَقْرِيْرُ بِعْثَةِ الأَنبياء بِواسِطَةَ جَبْرَئِيل، وَإِرْسالُهُ بالوَحْيِ والتَّنْزِيْل، وَإِقامَةُ البَراهِيْنِ والحُجَجِ على حَشْرِ الأَجْسادِ وَأَحْوالِ المَعادِ، فالعُقُوْلُ والنُّفُوْسُ بِقَدْرِ النُّوْرِ الَّذي فاضَ على أَصْلِها، صارَتْ طالِبَةً لِمَعْرِفَةِ ذاكَ، وَعَنْ عِلْمِ التَّفاسِيْرِ والأَحادِيْثِ الَّتي هِيَ مَنْقُولاتٌ عَنْ نَقَلَةِ الشَّرِيْعَةِ والحِكْمَةِ، وَحَمَلَةِ العَرْشِ عَنِ العَظَمَةِ، ولا يُمْكِنُ لِسالِكي بادِيَةِ طَلَبِ الحَقِّ قَطْعُ الطَّرِيْقِ لِلْخارِجِ، في ظُلُماتِ الأَوْهامِ وَالخَيالاتِ، إِلَّا بِمَصابِيْحِ الهِدايَةِ يَأْخُذُوْنَها مِنْ هاتَيْنِ المِشْكاتَيْنِ، وَالخَلاصُ مِنْ مَفاوِزِ الشُّبْهَةِ هذِهِ غَيْرُ قابِلٍ للصُّوْرَةِ مِنْ دُوْنِ الاِسْتِضاءَةِ بِنُوْرِ ذاكَ، وَعَنْ عِلْمِ الطِّبِّ إِذْ لِسانُ النُّبُوَّةِ ناطِقٌ بِفَضِيْلَةِ ذاكَ أَيْضاً، كما قالَ عَلَيْهِ السَّلامُ، *العِلْمُ عِلْمانِ عِلْمُ الأَبْدانِ وَعِلْمُ الأَدْيانِ*، وما لِمُدَبِّرِي العالَمِ الأَصْغَرِ أَيُّ دَسْتُورٍ إِلَّا قانُوْنُ هذا العِلْمِ، وَأَيُّ تَصَرُّفٍ لِحاكِمِ العَقْلِ في وِلاياتِ الأَعْضاءِ والجَوارِحِ السَّبْعِ لا يَجِيْءُ صَحِيْحاً إِلَّا باسْتِقامَةِ المِزاجِ على حَدِّ الاِعْتِدال، واسْتِقامَتُهُ لا تَصِيْرُ مُيَسَّرَةً إِلَّا بِإِقامَةِ هذِهِ الصِّناعَةِ، وَعَنْ عِلْمِ النُّجُوْمِ إِذْ مَنْفَعَةُ ذاكَ تَعُوْدُ لِعُمُوْمِ الخَلائِقِ، وَفي مَعْرِفَةِ مَواقِعِ النُّجُوْمِ، وَتَأْثِيْراتِ نَظَرِ العَداوَةِ والمَوَدَّةِ مِنْها، بِذاكَ الاِحْتِياجِ كُلُّ ما كانَ أَتَمَّ، إِذْ نَقْشُ مَعْمَلِ الكَوْنِ والفَسادِ هذا مَرْبُوْطٌ بالعالَمِ العُلْوِيِّ، وَكُلُّ ما يَجِيْءُ ظاهِراً هُنا،

بِإِجْراءِ السُّنَّةِ والقُدْرَةِ، جَمِيْعُهُ مُتَوَلِّدٌ مِنْ الأَجْرامِ الفَلَكِيَّةِ، ثُمَّ كما الطَّبِيْبُ بِوَقْتِ الصِّحَّةِ والمَرَضِ يَقُوْمُ بِمُعالَجَةِ الأَشْخاصِ، كَذلِكَ المُنَجِّمُ يَعْمَلُ مُعالَجَةَ الأَحْوالِ بِوَقْتِ السَّعادَةِ والنُّحُوْسَةِ، وَهكذا مِنْ أَنْواعِ الرَّسائِلِ وَدَواوِيْنِ الأَشْعارِ والأَسْمارِ، وَتَوارِيْخِ الدِّيْنِ والدُّوَلِ، وَمَجارِي أَحْوالِ المُلْكِ والمِلَلِ، والسُّفُنِ المَشْحُوْنَةِ بالفَوائِدِ والفَرائِدِ، مِنْ أَفرادِ الزَّمانِ مِمَّنْ بَحْرُ هِمَّتِهِ سَحَبَ السَّواحِلَ على الآَفاقِ، وَجاءَ خارِجاً بِدَواعي طَلَبِهِ مِنْ أَقْطارِ وَزَوايا الشَّامِ والعِراقِ، جاءَ بِقُرابَةِ أَلْفَيْ مُجَلَّدٍ، كانَ ذِكْرُهُ الكَرِيْمُ مُخَلَّداً بِذاكَ، جَعَلَها مُنَضَّدَةً، وَأَخَذَ طَلَبَ الباقي في ذِمَّةِ هِمَّتِهِ، وَآنَذاكَ مَلأَ جَوامِعَ كَثِيْرَةً مِنَ المُصاحِفِ المُعْتَبَرَةِ مِثْلَ عُقُوْدِ الدُّرَرِ المَنْثُوْرَةِ، كُلُّ واحِدٍ بِخَطٍّ أَجْمَلَ مِنْ جَعْدِ وَطُرَّةِ الحُوْرِ، فَأَعْشارُ وَأَخْماسُ الكَواكِبِ مِنْ حواشي سَبْعَةِ أَجْزاءِ الأَفْلاكِ في مُشاهَدَةِ جَمالِها عَمِلَتْ سَجْدَةَ التَّبَرُّكِ، وَضَعُوا تِلْكَ العرائِسَ كالتَّاجِ المُرَصَّعِ على الفَرْقِ، وَأَعْطَوا الوَجْهَ الجَلْوَةَ لِتِلْكَ الأَعلاقِ والنَّفائِسِ في الزِّيْنَةِ وَالحِلْيَةِ، وَحِيْنَ هذا الاِتِّفاقُ أَمْكَنَ على أَحْسَنِ نِظامٍ وَأَيْمَنِ حالٍ، وهذِهِ الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ لِلْعَمَلِ في تِلْكَ البُقْعَةِ المُبارَكَةِ وَصَلَتْ لِمَقامِ إِدْراكِ الثَّمَراتِ، جَعَلَ لِعَشَرَةِ نُسَّاخٍ مَؤونَةَ كِفايَةِ الانتِساخِ، وَأَمَرَ بِأَنْ تُعَدَّ لَهُمْ أَسْبابُ الفَراغَةِ، حَتَّى يَكُونُوا على الدَّوامِ على مُرُوْرِ الأَيَّامِ مُلازِمِيْنَ لِذاكَ المَوْضِعِ الشَّرِيْفِ، ولا يَمْنَعُوا النُّسَخَ

عَنْ كُلِّ سَوادٍ كانَ بِمَسْرَحِ نَظَرِهِم، وَأَنْ يُوْصِلُوا صِيْتَ مَآثِرِهِ وَمَكارِمِهِ إلى أُذُنِ الأَصاغِرِ والأكابِرِ،

وَكُنْ حَدِيْثاً حَسَناً ذِكْرُهُ   فَإِنَّما الدَّهْرُ أَحادِيْثُ

في هذِهِ الحالِ تَمامُ كِتابِ المَرْزَبانِ أَيْضاً جاءَ مِنْ طَيِّ كَتْمِ الإمْكانِ إلى مَظْهَرِ الوُجُوْدِ، صارَ مَعْلُوماً أَنَّ تَعْبِئَةَ التَّقْدِيْرِ في التَّعْوِيْقِ والتَّأْخِيْرِ هِيَ عَيْنُ ذاكَ، حَتَّى تَصِيْرَ خاتِمَةُ ذاكَ كَما كَانَتِ الفاتِحَةُ بِمِثْلِ هذا التَّوْفِيْقِ، أنْ جَعَلَ اللهُ سَيِّد العالَمِ يَصِيْرُ مَقْرُوْناً بالتَّحْقِيْقِ، في عِنانٍ واحِدٍ، وَأَنْ تَصِيْرَ هذِهِ البِضاعَةُ المُزْجاةُ في مِصْرَ جامِعِ تَبْريزَ مُضافَةً مَعَ ذَخائِرِ السَّعادَةِ، وَالصُّراخِ بِطَلَبِ الغَوْثِ، *أَوْفِ لَنا الكَيْلَ*، مِنَ السِّنِيْنَ العِجافِ، الكَرَمُ بِصاعِ الاِصْطِناعِ يَجْعَلُ نِصابَ كُلِّ نَصِيْبٍ كامِلاً، وهذا المُرْتَبِطُ بالقَلْبِ وَوَلَدُ الرُّوْحِ على هَيْئَةِ يُوْسُفَ الَّذي عانى مِنْ عَوائِقِ الزَّمانِ، يَجِيْءُ خارِجاً مِنْ سِجْنِ بَيْتِ أَحْزانِ الخاطِرِ، والمُشْتاقُونَ لِوَجْهِهِ، والمُنْتَظِرُوْنَ جالِسِيْنَ بِحِمى وِصالِهِ، وَأَلْفُ يَدٍ جُعِلَتْ مُعَدَّةً وَقَلَمٍ جُعِلَ مَبْرِيّاً حَتَّى بالحَيْرَةِ مِنْ مُشاهَدَةِ وَجْهِهِ يَقْطَعُوْنَ اليَدَ والأُتْرُجَ مَعاً، وَيَكْتُبُونَ قِصَّةَ جَمالِهِ وَشَرْحَ أَحْوالِهِ، إذا في حَضْرَةِ مَلِكِ العالَمِ، أَعْظَمَ اللهُ شَأْنَهُ، الَّذي هُوَ عَزِيْزُ الوَقْتِ، صارَتْ ناصِيَةُ إِقْبالِهِ مَوْسُوْمَةً بِمَيْسَمِ القَبُولِ، وَمِنْ تَمْكِيْنِ، *إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِيْنٌ*، يَصِيْرُ مُمَكَّناً، بِشُكْرِ ذاكَ القَبُولِ والرِّفْعَةِ، يَحْفَظُ سُنَّةَ، *وَرَفَعَ*

أَبَوَيْهِ على العَرْشِ، يَعْني إِذا كانَ لُطْفُ الإلهِ، سَيِّدُ العالَمِ دامَ لَطِيْفاً بِعِبادِهِ، في هذِهِ الأوراقِ جَمِيْعاً رأى مَعْنىً واحِداً لَطِيْفاً مَحَلّاً للارْتِضاءِ ولائِقَاً بالمُلاحَظَةِ بِعَيْنِ الرِّضا، يَتَجاوَزُ عَنْ باقي العَثَراتِ في أَمْرِهِ، *فَإِنَّ الجَوادَ قَدْ يَعْثُرُ*، فَإِنَّ الكِرامَ السَّابِقِيْنَ الَّذيْنَ حَمَلُوا اِسْمَ الكَرَمِ، على لَطِيْفَةٍ واحِدَةٍ مِنَ اللَّطائِفِ، كانُوا يَهَبُوْنَ عَشْرَ خَزائِنِ،

في الزَّمانِ أَيْنَ هُوَ مَحْمُوْدُ إِلَّا وَكانَ لَهُ في كُلِّ رُكْنٍ عُنْصُري

تَمَّ الكِتاب